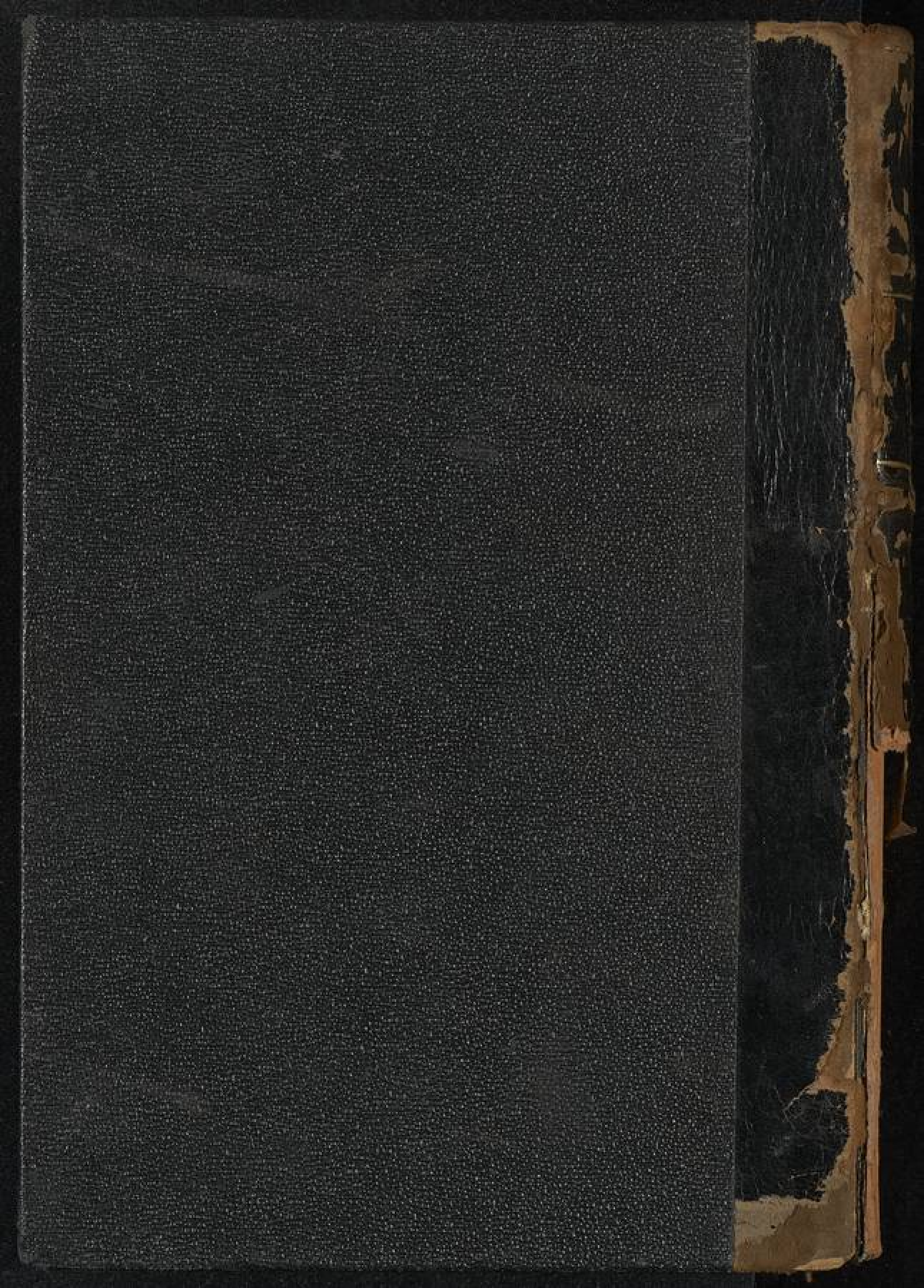
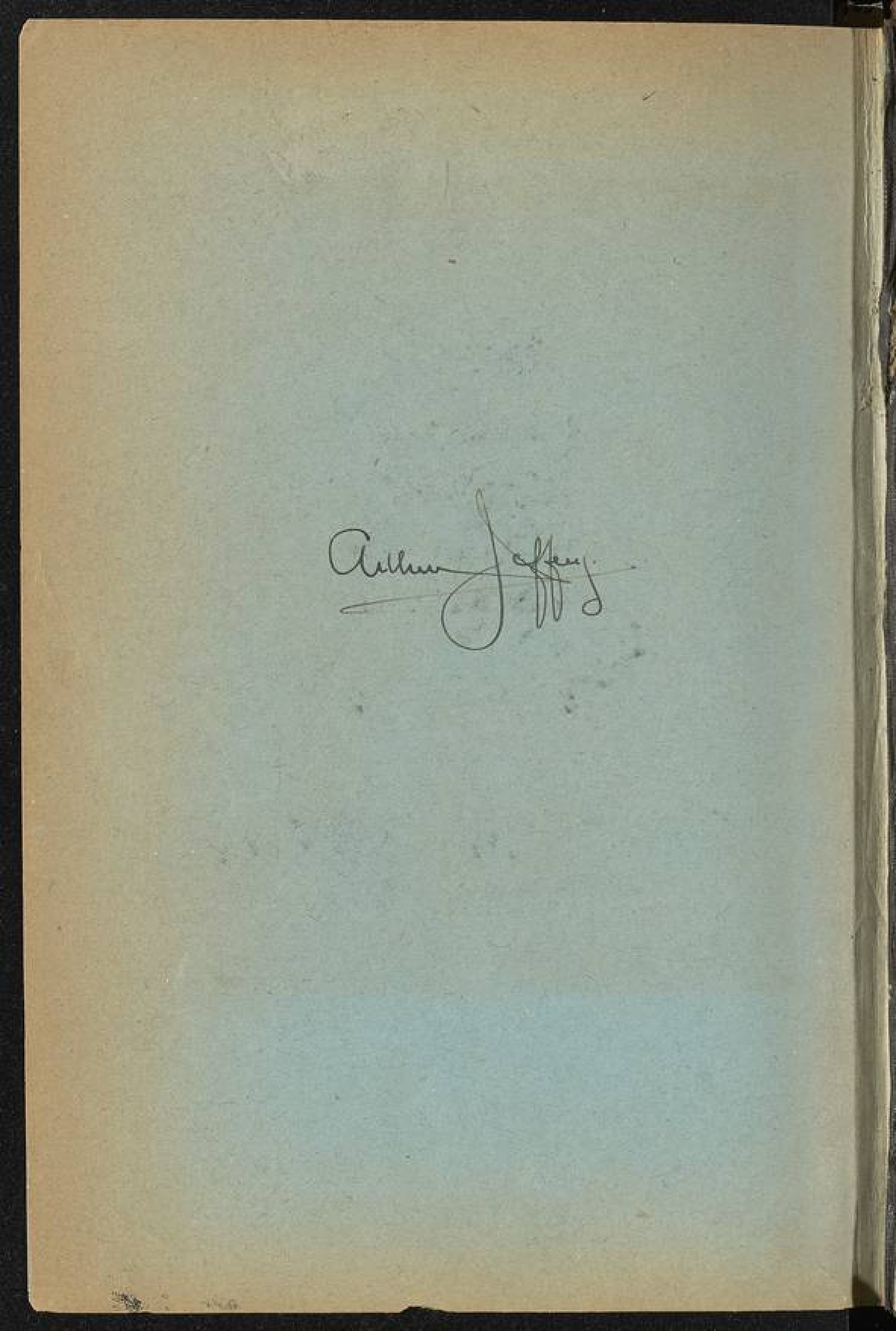
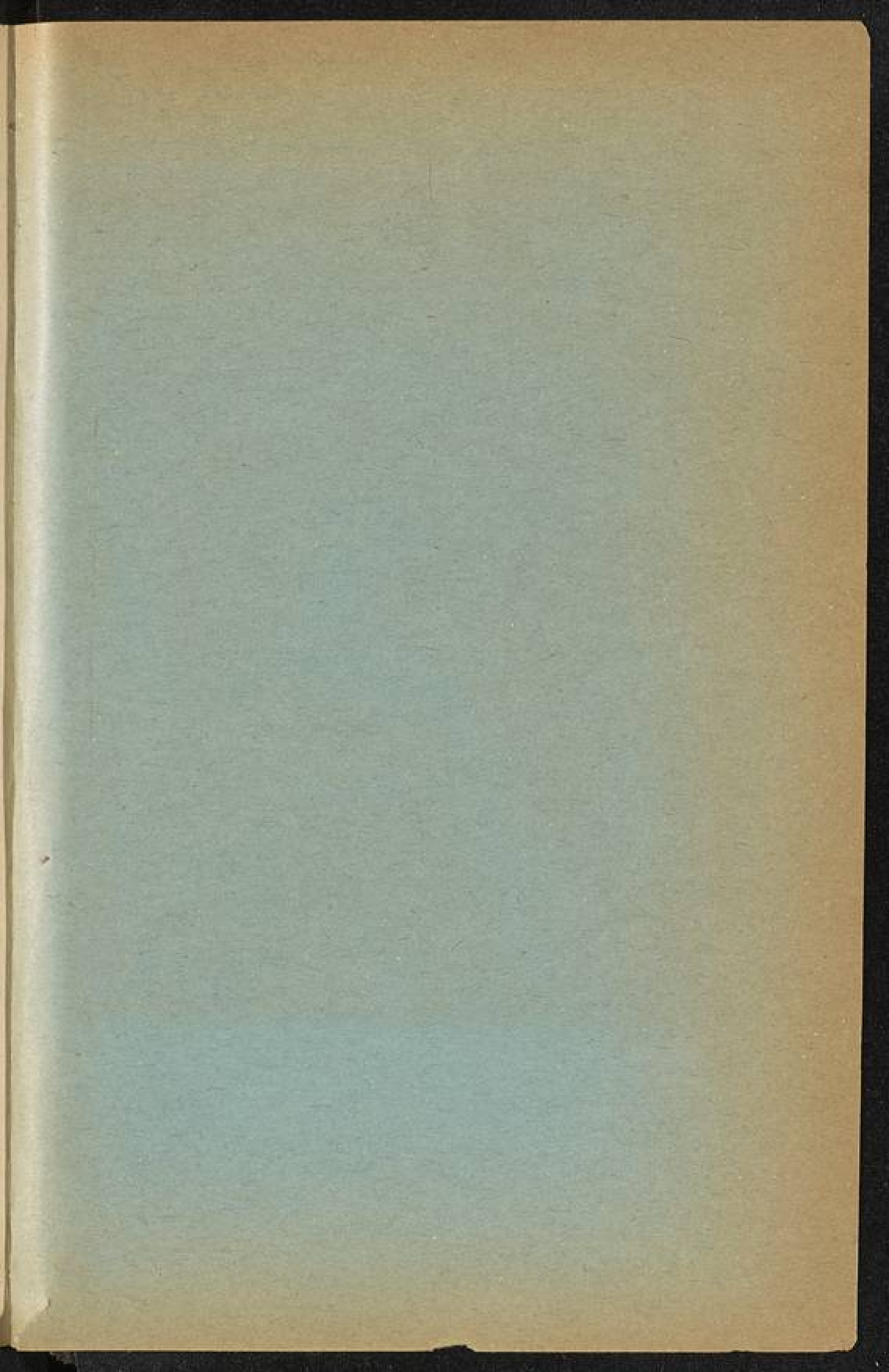




W. Arthur Jeffery





(فهرست)

— المقدمة والتمهيد —

﴿ فهرست كتاب الرحلة ﴾

صحيفة

صحيفة

صحيفة

تمت



لولى النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديو مصر

بقلم



قررت نظارة المعارف هذا الكتاب للمطالعة بمدارسها

الطبعة الثانية

(بعد تنقيحها وتهذيبها وزيادة أشياء كثيرة مهمة عليها)

(سنة ١٣٢٩ هجريه)

طبع بمطبعة الجمالية - بمصر

(الكائنة بحارة الروم بعطفة التتري)

(لاصحابها محمد أمين الخانجي وشركاه — وأحمد عارف)



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

الحاج عباس حلمي الثاني خديو مصر

ولد حفظه الله في غرة جمادى الثانية سنة ١٢٩١ (١٤ يوليه سنة ١٨٧٤) وجلس على عرش الخديوية في ٥ جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ (٨ يناير سنة ١٨٩٢)



الى سمو ولى النعم الافخم

لقد شرفني مولاى حفظه الله بخدمة ركابه العالى فى حجه المبرور.
لذلك رأيت قياما بواجب شكر آلائه، وحمد نعمائه، أن أمثل صورة هذه الرحلة الميمونة فى هذا السفر، وأن أكتب معها كلمة عما فى هاتيك الارجاء الشريفة من المواقف المقدسة، يرى المطلع عليها كل ماتهمه معرفته منها.

وقد رأيت ان أضيف اليها في هذه الطبعة من تاريخ الدول العربية وجغرافية جزيرة العرب ماتكون به الفائدة أعم. والمنفعة أعظم.

وها أنا يامولاى أرفعها لاعتابكم السنية بيد الاجلال والاعظام، هدية للاسلام والمسلمين، وخدمة للعلم والتاريخ.

وغاية المأمول اسعادها بالقبول؟

العبد المخلص

محمد لبيب البتنونى

﴿ كتاب صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار الى المؤلف ﴾

تفضل صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار فأرسل الى صاحب كتاب الرحلة الحجازية بكتاب ثناء على مؤلفه ، يرى المطلع من خلال كلماته ذلك النور الذى يضئ للناس المحجة التى تسلكها هذه الحكومة السعيدة السعيدية لترقية الامة ، بتنشيط المعارف ، وتربية المدارك ، والنهوض بالهمم الى الدرجة التى تتناسب مع الحياة الصحيحة . فهو اذا شكر الكاتبين ، وحمد المجتهدين ، فانما يشكر نفسه و يحمد اهتمامه بمصلحة البلاد ، من الطريق الانفع والسبيل الاصلح . جزاه الله عن الامة خير الجزاء .

وانا نتشرف بان نذكر هنا هذا الكتاب الكريم بكل اجلال وتعظيم ، و وجودنا كله شكر لعطوفته على هذه العناية الكبرى والرعاية العظمى :

القاهرة فى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٢٨ — ٢٨ ديسمبر سنة ١٩١٠

عزيزى لبيب بك

أمعنت النظر فى كتابكم الجديد الموسوم بالرحلة الحجازية ، فرأيت فيه آيات البراعة فى التحرير والتحبير ، وأعجبنى منكم التعويل على التحقيق والتدقيق ، وأملى وطيد فى أن ينسج الكاتبون على منوالكم المفيد ، حتى يكون القارئ مشاركا للكاتب فى عواطفه ، مرافقا له فى حله وترحاله ، وتلك عندى أفضل وسيلة لتربية الملكات وترقية المدارك . أما ما زينتم به صحائف الكتاب من الرسوم فقد زاد فى قيمته الثمينة ، وقد تجلت بها تلك المعاهد المقدسة للانظار ، وتمثلت تلك المشاهد المباركة للعيان . هذا فضلا عن المباحث العمرانية فى فلسفة الحج ، فقد أفضتم فيها بقلمكم السيال ، وجردتم هذا الموضوع الجليل مما اعتوره من الشوائب على طول الزمان ، وأبرزتموه فى حلته الاولى و بهجته الصحيحة ، وفقكم الله للقيام بأمثال هذه الخدمة للامة والسلام .

رئيس مجلس النظار

محمد سعيد

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من أرسل رحمة للعالمين . أما بعد فقد شرفنى مولاى الخديو الاعظم بتعيينى مندوباً خصوصياً فى خدمة ركابه العالى مدة سفره الى الاقطار الحجازية . وبعد عودة سموه بسلامة الله أسعدنى بصدور أمره الكريم إلى هذا العاجز بوضع شىء عن هذه الرحلة المباركة .

ولما كانت هذه البلاد غير معروفة للآن كما يجب لذوى البصيرة والعرفان، مع أنه يقصدها سنوياً أكثر من مائتى ألف نفس من المسلمين، وكل ما كتب عن رحلة الحاج اليها لا يخرج عن بعض المناسك التى يضل المطلع فى كثرة شعابها ووعورة طرقها ومجاهلها، مما يزيده ارتباكا وجهالة، رأيت أن أضيف الى الرحلة الخديوية كلمة عن المشاعر الدينية المقدسة، مبتعداً عن الترهات التى ألحقتها بها مبالغة الوهم أو مغالبة الغرض، مما اتخذه أعداء المسلمين وسيلة إلى الطعن عليهم فى دينهم الذى جل ما تمرفوا به منه انما أخذوه عن أولئك الجهلاء الذين رزىء بهم الإسلام، فيكيلون لهم الكلام جزافا من غير ما يشعرون بأنهم به يتنحرون !!!

لذلك سلكت فى هذا الطريق مسالك التحقيق والتدقيق، حتى جاءت كلمتى فيه والحمد لله مسفرة عن حقيقة الحج، مبينة الغرض منه، شارحة مناسكه بعبارة هيّنة ليّنة سهلة على كل مسترشد وضرورية لكل من قصد سفراً اليه أو معرفة به .

و إنى قياماً بهذا الواجب الاقدس لم أقتصر على الكلام فى النقط الدينية ، بل تناول بحثى ما يهم القارئ من المسائل العمرانية ، والاجتماعية ، والجغرافية ، والتاريخية ، مما لم يسبقنى اليه أحد من الذين كتبوا عن هذه الديار ، راجياً بذلك الخدمة العامة للعلم والاسلام .
وتتميماً للفائدة قد وضعت فى هذا السفر المبارك كثيراً من الخرط الجغرافية ، والرسوم النظرية التى وضعتها بنفسى ، والصور الفوطوغرافية التى أخذت بمعرفة بعض من كان فى معية الجناب العالى الخديوى وسواهم من أفاضل المصوّرين الذين سبق لهم السفر الى تلك الارجاء من مصريين وغيرهم ، ووضعت للحرمين الشريفين رسماً نظرياً معتمداً على الابعاد التى وضعها لهما المرحوم محمد صادق باشا المصرى وغيره من مهندسى الاتراك .
و رسمت كروكى مكة ، ومنى ، وعرفة ، والمدينة ، مستمداً من بعض الرسوم القديمة المأخوذة عن الكروكيات التى وضعها بوركارت فى أوائل القرن الماضى لهذه الجهات التى لم تختلف كثيراً فى هيئتها ونظام أبنيتها وعمارتها عما كانت عليه من قرون مضت .

هذا و إنى أتشرف بتكرار عبارات الشكران إلى صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار على تنشيطه للعاملين باعلان رضاه عن هذا العمل وثنائه عليه ، رافعاً واجب الامتنان الى نظارة معارفنا الجليلة وخصوصاً الى ناظرها صاحب السعادة حشمت باشا على تقريرها هذا الكتاب للمطالعة بمدارس الحكومة ، مسدياً آيات الحمد الى من اسعدونى بتقريظه من أهل الفضل والعرفان : أخص بالذكر منهم صاحبى الدولة والفخامة البرنس حسين كامل باشا ، والبرنس فؤاد باشا رئيس الجامعة المصرية ، ومولانا الاستاذ الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الازهر ، والاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان ، وجناب المستشرق الكبير والعالم الجليل الالمانى المسيو شوينفورت ، والعلامة الفرنساوى المسيو دفلير ، وجناب المسيو ماسبيرو مدير الانتكخانة المصرية ، وغيرهم من أكابر العلماء والكتاب لاسيما حضرات أصحاب الجرائد المصرية عربية و أفرنكية ، سواء الذين استقبلوه بالمنة أو انتقدوه باخلاص .

وهنا أقدم عاطر ثنائي الى السادة الافاضل الذين نبهوني الى ما جرني اليه السهو أو السرعة في العمل، مما أصلحته في هذه الطبعة التي عنيت بها وأكملت فيها الكلام على ما أهملته في بعض مواضيع الكتاب في الطبعة الاولى، وأخص بشكراني حضرة صديقي الفاضل محمد كمال بك الذي ساعدني بشيء كثير من معلوماته الثابتة عن جزيرة العرب التي أقام فيها زمناً .

ولقد أضفت الى الكتاب في هذه المرة بعض الصور الفوطوغرافية التي تزيد في فائدته، كما أضفت اليه أبوابا مهمة جداً مثل: سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وتاريخ الخلفاء الراشدين، وعقدت به بابا لبيت المقدس. وآخر للقرابين وأصولها في جميع الديانات، وبعد كمال طبع الكتاب وجدت أن أضيف اليه تمهيدا عن وصف جزيرة العرب الحالية وتاريخ جميع الدول العربية التي قامت قبل وبعد الاسلام، استرسل القلم فيه بما يمكني ايقافه الى الحد الذي يتناسب مع كتاب الرحلة. وقد أضفت الى ذلك جداولاً مهمة جدا بملوك بعض هذه الدول، وباشراف مكة والمدينة، وقبائل العرب الموجودة الان، وعملت شجرة لامهات القبائل العربية من قحطانية وعدنانية وقرشية، مما لم يسبقني لمثلها أحد من المؤرخين، والله المسؤل أن ينفع به بمنه وكرمه .

محمد لبيب البتنوني

تمهيد

لما كانت بلاد العرب يقصدها سنويا نحو ربع مليون من المسلمين لتأدية فريضة الحج، رأيت أن أكتب عنها كلمة تمحضها مما ألصقته بها الاوهام، وشوّهته الرواة على مدى الايام. وقد رأيت أن أقسم الكلام فيها إلى قسمين: قسم نتكلم فيه عن أمة العرب وأصلها وقبائلها وبطونها ودولها قبل الاسلام وبعده، باختصار جمع اليه ما تشتت من الحقائق فى كتب التاريخ، وقسم نتكلم فيه عن صفة جزيرة العرب الحاضرة وعشائرها وحكوماتها مما تغمض معرفته على كثير من الناس، فنقول وبالله التوفيق.

الامة العربية

الامة العربية من أبعد الامم وجوداً، وأطولها عمراً، وأوسعها سلطاناً، بل من أقدم الامم مدنية وعمراناً. ولقد كان لها قبل الاسلام من الدول ما يتحلى جيد التاريخ بذكره، كما كان لها بعده ذلك الملك الشاسع الاطراف، البعيد الاكناف، الذى كان له الشأن الاول فى سياسة العالم بأسره مدة من الزمن طويلة.

وقد رأيت أن أقسم الامة العربية بالنسبة لاصولها الى ثلاثة أقسام: القسم الاول العماليق أو العرب البائدة، الثانى العرب القحطانية، الثالث العرب العدنانية:

العماليق

العماليق هم أولاد عمليق بن لاوذ بن سام وأوّل ما وصلنا من أمرهم أنهم كانوا يسكنون على حالة بداوة فى الصحراء التى بين العراق والعقبة. وكانوا ينقسمون الى فصائل صغيرة تتنقل من جهة الى أخرى وراء الكلأ، وكانت لهذه الفصائل مشيخات منها تقوم بطبيعة الحال بتدبير أمورهم، وكان ذوو العصبية منهم يشتغلون بنقل التجارة بين بابل ومصر. وما زالوا على هذه

البداوة حتى كبرت عصبيتهم، وتغلبوا على بابل، وقامت بها منهم فى القرن الخامس والعشرين قبل المسيح دولة يسمونها دولة الساموآبيين من (بنى سام بن نوح) . وما زالوا بها حتى ظهر منهم فى القرن الثالث والعشرين قبل المسيح ملك اسمه حمورابى، فتغلب على مملكة آشور وما حولها، وأصبحت له مملكة واسعة، بلغت فى زمنها أسمى ما وصلت اليه أية دولة لذلك العهد فى الرقىّ الادبى والمادى، وسميت بعملكة حمورابى . واستمرت هذه الدولة حاكمة الى أواخر القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد : يعنى مدة أربعة قرون تقريبا . وقد عثر النقابون الذين يعملون فى آشور وبابل لهذه الدولة على كثير من الآثار التى تدل على رقيهم فى مدنيتهم، مكتوبة بالخط المسمارى [1]، مما حكموا معه بأنهم أبعد الامم رقياً فى حضارتهم .

ولما وصلت هذه الدولة الى سن الشيخوخة بطبيعة الحال، ضعف أمرها وانفصلت عنها أطرافها، واستقلت آشور . ولم تقف هذه المملكة الاخيرة عند هذا الاستقلال، بل نهضت بحكومتها حتى استولت على بابل فى سنة ١٢٨٠ ق م مدة الملك تغلاب بلسّر . وأخذ الآشوريون يعاملون العرب معاملة قاسية، فلم يقبلوا البقاء على الضيم، كما هى شيمتهم فى كل زمان، وهاجر قسم كبير منهم الى جنوب جزيرة العرب والى غربها .

— الشاسو (الهكسوس) وهم عرب الشرق أو عرب الرعاة —

بينما كانت الدولة الحمورابية قائمة فى بابل، دخلت الهكسوس الى مصر من برزخ السويس فى القرن الثالث والعشرين قبل المسيح، واستولوا على الوجه البحرى وكوّنوا لهم به دولة كان مركزها فى مدينة صان . وأوّل ملوكهم يسمى سلاطيس وهو رأس العائلة السابعة عشرة المصرية . ومكث عرب الرعاة بمصر الى أن أجلاهم عنها الملك تُحْتمُسْ ملك طيبة فى (الوجه القبلى)، حوالى سنة ١٧٠٠ ق م . وليست لهم بها آثار تذكر، اللهم الا بعض

(١) الخط المسمارى أخذه العماليق عن السومريين الذين كان لهم الملك قبلهم على بابل . وانما سمي بذلك لانهم كانوا يكتبونه أولا برؤوس المسامير نقشاً على الطين . وكثيراً ما كانوا يحرقونه بعد ذلك حفظاله على كرور العصور . ولقد أدخل العرب على هذا الخط تحسينات كثيرة تهذب بها شكله وكملت فائدته، وكان لا يزال يقرأ قبل الاسلام فى اليمن ولكنه تلاشى أمره بانتشار الخط النبطي الذي كان يكتب به الحجازيون .

تماثيل لمعبوداتهم وخصوصاً لمعبودهم سوتيخ . و يقال ان منهم فرعون ابراهيم، والعرب يسمونه سنان بن الاشل، وفرعون يوسف و يسمونه الريان بن الوليد، وفرعون موسى و يسمونه الوليد بن مصعب . و يؤكد بعضهم ان هذا الاخير مصرى الجنس ودليلهم على ذلك ان الاوّلان كانا يعطفان على الاجانب، أما الثالث فكان ينقم عليهم .

— دولة عاد الأولى —

لما نزح عرب الشمال بعد سقوط الدولة الحمورابية الى جنوب جزيرة العرب، فى القرن العشرين قبل المسيح كما قلنا، كوّنوا دولة عاد الاولى . وكانت مواطنهم بأحقاف الرمال بين اليمن وعمان . ومؤرخو العرب يزعمون أن عاداً أقدم الامم: ولذلك فانهم يطلقون وصف «عادى» على كل شئ قديم لا يعلم لهم تاريخه . ويذكرون لهم أموراً من الغرابة بمكان: كقولهم ان عاداً عاش ١٢٠٠ سنة وولد له ٤٠٠٠ ولد ذكر لصلبه ؟ وغير ذلك مما يمكنك مراجعته فى تواريخهم . وذكروا أن عاداً لما مات تملك بعده بنوه: شديد، ثم شداد، ثم ارم . وقالوا ان شداداً هو الذى بنى مدينة إرم ذات العماد ؟ وقالوا فى وصفها ما تقف الغرابة نفسها باهتة أمامه!! على أن بعض المفسرين قالوا فى تفسير قوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ إرم ذات العماد» انها ذات الرفعة، وان إرم اسم جدهم : وبه تكون ذات العماد وصفاً لعاد . و يؤيد ذلك نسبتهم الى إرم : فيقولون عاد إرم وثمود إرم . ولا يبعد أن كان لعاد من شامخ البنيان فى مملكتهم هذه ما كان لغيرهم فى ذلك الوقت فى ممالك الشام ومصر والهند وسواها، يدل على ذلك قوله تعالى فى سورة الشعراء خطابا لهم: «أتبنون بكل ريع (مرتفع) آية (فسروها بالبناء الفخيم) تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون» ؟

و فى مدة شداد بغت عاد وأكثروا من الظلم والفساد، فأرسل الله تعالى اليهم هوداً . فدعاهم الى ترك الاوثان وعبادة الرحمن، فكذبوه وتمادوا فى ضلالهم . فانقطع عنهم المطر مدة، فأرسلوا وفدا منهم الى مكة يستسقون ، ولكنهم استمروا فى طغيانهم . ولما رأى هود أن سخط الله نازل بهم لا محالة، اعتزلهم وابتعد عنهم مع من آمن به . وسخر الله عليهم ريحا مدة سبع ليال وثمانية أيام حسوما (متتابعات) فأهلكتهم .

وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن عاداً الاولى أعمام من فل عرب الرعاة بعد طردهم من مصر : وعليه يكون ابتداء حكمهم بالاحقاف فى العصر السابع أو السادس عشر قبل الميلاد .

ولما هلكت عاد بقى هود ومن آمن معه . وانضم اليهم لقمان بن عاد الذى كان ذهب بوفدهم الى مكة[١] ، ولحق بهم خلق كثير قاموا بدولة جديدة يسمونها عادا الثانية ، دام ملكها ألف سنة ، ثم تغلب عليهم القحطانيون فانمحت دولتهم وانقطع ذكرهم .

وعلى كل حال فان النقابين لم يكشفوا لنا للآن شيئاً من أخبارهم ، وغاية ماذكروه أنهم اعثروا فى تلك الاحقاف على مغائر محفورة فى الصخور التى تراكمت عليها طبقة كثيفة من الرمال . ولعلهم يبيدون لنا قريباً هذه الحجب التى اختفت من ورائها أخبار دولة كبيرة لا يعدانها خدمت الانسانية خدمة نذكرها لها مع الشكر .

— المَعِينيّون —

المعينيون أو بنو معين قوم كانوا يسكنون شرق بلاد اليمن فوق حضرموت ، وكانت لهم بها دولة كبيرة . ومؤرخو العرب لم يحدثونا بكلمة عن هذه الامة . والذى أخبرنا بأمرهم أعمامهم أولئك المستشرقون ، وعلى الخصوص هاليفى الفرنساوى ، الذى أوفدته بلاده الى اليمن سنة ١٨٦٩م ، واكتشف كثيراً من آثارها أهمها مدينة معين . وسار على أثره غلاذر الالمانى وغيره ، وحدثونا بشئ من أخبار هذه الدولة . وقالوا ان بنى معين كانوا ذوى مدنية وكان اشتغالهم بالزراعة فى سفوح جبال اليمن وسهول حضرموت . وانهم أقاموا هناك السدود وفتحوا الخلجان وسيروا الماء الى مزارعهم . وقد اختلفوا فى تقدير عمر هذه الآثار : فبعضهم ذهب الى أنها من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وذهب آخرون الى أنها من القرن

(١) اذا اعتبرنا ان عادا لم تنزح الى بلاد اليمن الا في القرن العشرين على أبعد ما ذكره المؤرخون العصريون ، كان وفدهم الي مكة للاستسقاء انما كان بقصد الاستغاثة بالكعبة بعد بناء ابراهيم لها ، لا كما قال بعض مؤرخي العرب من ان وفدهم كان قبل ذلك .

الثامن أو السابع . وقد كتب الاستاذ هومل بالالمانية كتابا فى لغتهم ولغة سبأ .

ولما كانت الخطوط التى على تلك الآثار مسمارية ولغتها بابلية، كان المعينيون من غير شك من عمالقة الشمال . ولا يبعد أنهم هم عاد الثانية، ان لم يكونوا نزحوا الى هذه البلاد فى تيار قدوم عاد الاولى اليها ، وربما كانت لهذه الغلبة عليهم، ولهذا لم يذكر اسمهم معها . وعلى كل حال فما دام المنقبون لا يفترون عن البحث عن آثارهم، فلا يبعد أن ينكشف لنا أمرهم فى القريب العاجل ان شاء الله .

ـ طسم وجديس ـ

هما أمتان يذكرهما مؤرخو العرب بانهما من العرب البائدة . وقد كانتا تسكنان فى اليمامة شرق بلاد العرب . وكانت لطسم الكلمة السائدة لكثرة عصبيتها . وكان مركز ملكها فى مدينة تسمى القرية وهى مدينة الحجر، ولا تزال بها آثارهم الى الآن . ويوجد فى مدينة جمدة قصر يعبرون عنه بالعادى (ويعنون أنه قديم جداً) . وربما كانت لهذه الصفة نسبة صحيحة، وان هاتين الامتين انما قدمتا الى هذه البلاد مع عاد أو بعدها بزمن قليل . وربما كان لعاد الحكم عليهم، فلما هلكت بقيتا فى عزلة حتى دخلتا فى حكم التبابعة . وما زالتا حتى تملك من طسم رجل ظالم فاجر . فقضى بأن لا تزف فتاة من جديس الى بعلها قبل دخوله عليه . فانفت لذلك جديس وتحالفوا على قتله : فدفنوا اسلاحهم فى الرمل ودعوه الى وليمة عندهم، فحضر فى خاصة قومه . فهجموا عليهم وقتلوهم عن آخرهم . فذهب نفر من طسم واستصرخوا بتبع حسان أبى سعد . فساق جنده على جديس . وقالت له طسم ان باليمامة امرأة تسمى الزرقاء تنظر من بعد ثلاث ليال؟ فنخشى ان هى أبصرتنا أخبرت قومها فيستعدون لنا . فأمر كل واحد من رجاله أن يأخذ فرعا من شجرة ويجعله أمامه . فلما فعلوا وأبصرتهم الزرقاء قالت لقومها :

انى أرى شجراً من خلفه بشر ٭ فكيف تجتمع الاشجار والبشر
ثوروا بأجمعكم فى وجه أولهم ٭ فان ذلك منكم فاعلموا ظفر

فاستخفوا عقلها ولم يصدقوا قولها، فدهمتهم خيل تبع فأفنوهم عن آخرهم . ثم أصاب

مابقى من طسم ماتشتت به شملهم ، وتفرقوا الى جزائر البحرين وغيرها، وبه تضى على ذكرهم . وكان ذلك فى أوائل القرن الخامس للمسيح .

— ثمود —

ومن أمم العمالقة ثمود . نزحت من اليمن الى الشمال فنزلوا مدائن صالح، ثم كانت لهم بها دولة كبيرة، وآثارهم فيها الى الآن، وأهمها مايسمونه قصر البنت، الذى لاتزال توجد عليه نقوش يصعد تاريخها الى قبيل ميلاد المسيح . ولقد اختلف المؤرخون فى انهم كانوا أصحاب السلطان على النبطيين الذين كانوا يسكنون فى بطرة، أوانهم كانوا تابعين لحكم عرب الانباط، مما هو مشروح فى آخر باب من هذا الكتاب عند الكلام على مدائن صالح .

— القحطانية —

القحطانيون هم بنو قحطان بن سبأ الاكبر بن سام بن نوح . وكانوا يسكنون فى شمال جزيرة العرب، ونزحوا الى بلاد اليمن فى القرن الثامن قبل المسيح فى من نزح اليها بعد تحكم الآشوريين فيهم . وربما كانوا معاصرين للمعينيين، وانتهى أمرهم بالتغلب عليهم، وقاموا فى اليمن بدولة جديدة يسميها مؤرخو العرب بسبأ الاولى .

ولقد ذكرها أغلبهم عرضاً عند الكلام على سد مأرب . والهمدانى أول من شرحه لنا شرحا وافيا . وأتى من بعده أرنو، وهاليفى ، وغلاذر، فى القرن الماضى فأيدوا قوله وزادوا عليه مما أخذوه من الآثار التى نقلوا شيئاً كثيرا منها الى متاحف أوروبا بعضها منقوش على أحجار وبعضها على برنز .

ويفهم من مجموع ماقالوه ان مياه الامطار كانت تتكون فى بلاد اليمن بجبالها المرتفعة ، ثم تنزل على هيئة سيول كبيرة فى وديان الى الشرق والغرب . والوديان التى كانت تنزل الى شرق مدينة مأرب كانت تجتمع فى واد يسمونه الميزاب ، يرتفع عن سطح البحر بالف ومائة متر ، ويحيط به جبال من كل جهاته . وهذا الوادى يضيق من جهته الشرقية الشمالية وينحصر بين

جبلين يسمونهما بَلَق الايمن و بلق الايسر فى مسافة ذكر الهمدانى انها ٦٠٠ خطوة، أى ٤٠٠ متر تقريبا، وهنالك يسمى وادى أذينة، و بعده ينفرج الوادى انفراجا عظيما وتضيع فيه هذه السيول بلا فائدة . فاقام السبئيون على مسافة قليلة من مضيق هذا الوادى سدا من الحجر، طوله ٨٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠ ذراعا كوّن مع جانبى البَلَقين الخارجين مجرى عموديا على مضيق أذينة يحوّل الماء عن مجراه الاصلى الى ذات اليمين وذات اليسار . وجعلوا الفتحتيه من جهتيه سدوداً ، فيما وراءها مجار يسير فيها الماء الى الجهة التى يراد سوقه اليها على حسب ارتفاعها أو انخفاضها . وهذا السد هو ما يسمونه بسد العرم . وأول من بناه يثعمر ملك سبأ فى القرن السادس قبل المسيح . ووجدوا اسمه أخيرا منقوشا على جبل بلق فيما يقابل السد المذكور . وزاد فيه خلفاؤه بما كان يزيد فى فائدته . ولقد حصل من وراء هذا السد وترتيب المياه بواسطته، تنظيم الزراعة فى تلك الصحراء بما أتى بالخير الجسيم لبلاد اليمن الشرقية : لانه حولها من قفر بلقع الى رياض وجنان، حتى كانوا يعبرون عن الارض التى كانت فى يمناه بالجنة اليمنى، والتى فى يسراه بالجنة اليسرى .

ومازال هذا السد[1] حتى انكسر فحصل منه خراب جسيم قضى على دولة سبأ، وتشتت أهلوها فى جزيرة العرب : فنزلت خزاعة مكة ، ونزلت الاوس والخزرج يثرب (المدينة)، ونزلت الازد عمان واليمامة، وسار مزيقيا الى الشام فكان منهم الغسانيون ، ونزحت لخم الى العراق وكان منهم المناذرة . و بذلك انتهى أمر سبأ الاولى وفى المثل : تفرقوا أيدى سبأ .

وقد ورد تاريخ سبأ بالتفصيل فى القرآن الكريم قال تعالى « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم و بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط[2] وأثل وشىء من سدر

(١) بعد كسر هذا السد بناه ملوك حمير وكانوا يتعهدونه بالعمارة ويقيمون مااعتل منه . وآخر ماوصلنا من أمره أثر لابرهة الاشرم محفور على بعض جهاته نقوش قرأها غلاذر : وفيها كيفية دخول اليمن فى ملك الاحباش، وقد ذكر فيها ان سد مأرب كسر فبناه ابرهة (انظر كتاب العرب قبل الاسلام لجورجي زيدان) ثم كسر قبل الاسلام فأهمل ، ولا تزال آثاره موجودة وخصوصاً الغربية منها . (٢) خمط حامض وقيل هو الاراك أو الغضا .

قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور . وجعلنا بينهم و بين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق » .

— دولة سبأ الثانية أو حمير —

لما انهدم بنيان دولة سبأ الاولى ، وتلاشت مدينة مأرب عاصمة ملكهم ، صارت السلطة ببلاد اليمن متفرقة فى أيدى من بقى فيها . وكان لكل كفر أو قرية أو مدينة أو قصر رئيس منها . وهؤلاء الرؤساء كانوا يسمونهم الأذواء : وكانوا يعرفون فى الغالب باضافة اسم بلادهم اليهم (بلفظ ذو) فيقال ذو ناعط ، وذو ريدان ، وذو ظفار مثلا يعنى صاحب ناعط وصاحب ظفار الخ . وأشهر ما وصلنا من أسماء هذه القصور و بالغ شعراء العرب ومؤرخوهم فى وصفها وخصوصاً الهمدانى : قصر ناعط ، وقصر سلحين ، وقصر كوكبان ، وقصر غمدان ، وقصر بينون الخ .

وكان القوى من هؤلاء الاذواء يتغلب بطبيعة الحال على بعض البلاد التى فى جواره و يكون له الحكم فيها ، وهنالك يسمى مجموع مملكته مخفدا ، وصاحبه يسمى قيلا . و ربما اجتمعت جملة مخافد فى حكم شخص واحد فيسمونها مخلافا وحاكمها يسمى ملكا : وعلى هذا كان شأن الدولة فى حمير فى صغرها وضخامتها .

وما زالت الحال فى هذه البلاد على هذا النظام حتى قام صاحب ريدان (ظفار) واسمه علهان ، فى نهاية القرن الاول قبل المسيح ، وتغلب على جملة مخاليف ومخافد تكونت منها مملكة حمير الثانية [1] . ومازالت هذه المملكة تكبر فى زمن خلفائه حتى دخل فى دائرتها

---

(١) ذكر حمزة الاصفهانى ان ملوك حمير ستة وعشرون ملكا ، مدة حكمهم ١٧٠٠ سنة . وهم : الحارث الرايش ومدة حكمه ١٢٥ سنة . أبرهة ذو المنار وحكمه ١٨٣ سنة . افريقش بن ابرهة وحكمه ١٦٤ سنة . العبد ذو الاذعار وحكمه ٢٥ سنة . هدهاد بن شرحبيل وحكمه ٧٥ سنة . بلقيس بنت هدهاد وحكمها ٢٠ سنة . ناشر ينعم وحكمه ٨٥ سنة . شمر يرعش وحكمه ٣٧ سنة . أبو مالك وحكمه ٥٥ سنة .

حضرموت وما والاها من البلاد شرقا مدة حكم شمر يرعش، فى نهاية القرن الثالث للميلاد، وبها قامت دولة التبابعة (واحدها تُبَّع) ومعناه ملك الملوك، وهو فى قوة لفظ امبراطور عند الرومان. واستمر الحكم فيها لخلفائه الى سنة ٥٢٥ بعد الميلاد، أى مدة ٢٣٠ سنة، تولى الحكم فيها جملة ملوك منهم [١].

وأشهر ملوك التبابعة الهدهاد، وكان يحكم من سنة ٣٤٥ الى سنة ٣٧٤ بعد الميلاد. ثم أبو كرب أسعد وكان يحكم من سنة ٣٨٥ الى سنة ٤٢٠ بعد الميلاد. وحسان بن أسعد وحكمه من سنة ٤٢٠ الى سنة ٤٥٥. وذو نواس وحكمه من سنة ٥١٥ الى سنة ٥٢٥.

ولقد كانت حكومة التبابعة فى غاية الرقى، وكانت بلادهم تسمى عند الرومان ببلاد العرب السعيدة، والعرب يسمونها اليمن الخضراء، وكانت حضارتهم لا تقل عن حضارة الآشوريين وغيرهم من الممالك التى كانت فى شمال جزيرة العرب ان لم تزد عنها؛ وذلك لاحتكاكهم بتجار

تبع بن الاقرن وحكمه ٥٣ سنة. ذو جيشان وحكمه ٧٠ سنة. الاقرن بن أبي مالك وحكمه ١٦٣ سنة. كليكرب وحكمه ٣٥ سنة. أسعد أبو كرب وحكمه ١٢٠ سنة. حسان بن تبع وحكمه ٧٠ سنة. عمرو بن تبع وحكمه ٦٣ سنة. عبيد كلال وحكمه ٧٤ سنة. تبع بن حسان وحكمه ٧٨ سنة. مرثد بن عبيد وحكمه ٤١ سنة. وليعة بن مرثد وحكمه ٧٣ سنة. ابرهة بن الصباح وحكمه ... صهبان بن محرث وحكمه ١٥ سنة. حسان بن عمرو بن تبع وحكمه ٥٧ سنة. ذو شناتر وحكمه ٢٧ سنة. ذو نواس وحكمه ٢٠ سنة. ذو جدن وحكمه ٨ سنين وعليه يكون أولهم وهو الحارث الرايش كان يحكم فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد. وقد سار المؤرخ نويل دى فرجيه على نحوه في كتابه تاريخ العرب، ويخالفهما فى ذلك أبو الفداء وغيره من مؤرخي العرب.

(١) في عدد ملوك التبابعة وأسمائهم ومدة حكمهم خلاف بين مؤرخي العرب والمؤرخين العصريين الذين بنوا حكمهم على ما عثروا عليه من آثارهم. وملوك التبابعة على ما جاء في كتاب العرب قبل الاسلام هم: شمر يرعش وحكمه من سنة ٢٧٥ ميلادية الى سنة ٣٠٠. ثم ذو القرنين الصعب (افريقش) وحكمه من سنة ٣٠٠ الي ٣٢٠. وعمرو زوج بلقيس وحكمه من ٣٢٠ الي ٣٣٠. بلقيس وحكمها من ٣٣٠ الي ٣٤٥ (وهي غير بلقيس سليمان لان هذه كانت فى العصر العاشر ق م). الهدهاد أخو بلقيس وحكمه من ٣٤٥ الي سنة ٣٧٤. مليكرب يهنعم وحكمه من ٣٧٤ الي ٣٨٥. أبو كرب اسعد وحكمه من ٣٨٥ الي ٤٢٠. حسان بن أسعد وحكمه من ٤٢٠ الي سنة ٤٢٥. شرحبيل يعفر بن أسعد وحكمه من سنة ٤٢٥ الي سنة ٤٥٥. شرحبيل ينوف وحكمه من سنة ٤٢٥ الي سنة ٤٧٠. معد يكرب يهنعم وابنه لحيعه (لعله لهيعه) وحكمهما من سنة ٤٧٠ الي سنة ٤٩٥. مرثد اللات ينوف وحكمه من سنة ٤٩٥ الي سنة ٥١٥. ذو نواس (دميانوس) وحكمه من سنة ٥١٥ الى سنة ٥٢٥. ذو جدن وحكمه من سنة ٥٢٥ الى سنة ٥٣٣.

الهنود والفرس والاحباش والمصريين والسوريين . وكانت الزراعة متقدمة فى بلادهم التى كانت لذلك العصر كلها مزارع و بساتين ورياضا وغياضاً . وكانوا يستخرجون من جبالهم المعادن المختلفة كالذهب والفضة والاحجار الكريمة كالياقوت والزمرد والعقيق . و بذلك كان السبئيون والحِمْيَريّون من أغنى أهل الارض وأكثرهم حضارة ورفاهية : فكانت لهم القصور الفاخرة ، والرياض الزاهرة ، والرياش الباهرة ، وحسبك ماقاله الشعراء وذكره المؤرخون فى وصف قصورهم ، نذكر لك بعض ماقاله الهمدانى فى وصف قصر كوكبان : « كان مؤزّر الخارج بالفضة ، وما فوقها حجارة بيض ، وداخله ممرّد بالمرمر والفسيفساء والجزع[1] وصنوف الجوهر » . وقيل فى وصف قصر بينون :

واسأل بينون وحيطانها * قد نُطِّقت بالدر والجوهر

ولم يقتصر حكم التبابعة على اليمن بل امتد الى بلاد الحجاز واليمامة وما بينهما من قبائل العرب العدنانية وغيرها ، بل تعدت فتوحاتهم فى زمن أسعد أبوكرب و ولده حسان الى الشام و بلاد الفرس والهند . وكانوا يقيمون على العرب حكاما منهم يسمونهم ملوكا : كزهير بن حباب الكلبي وغيره . وكانت وفود العرب تفد عليهم من جميع أطراف الجزيرة ، يبثون اليهم شكواهم ، أو يستمطرون من جدواهم . ومازال حكم التبابعة قائما فى اليمن حتى نقم ذونواس على نصارى نجران ، فأساء معاملتهم ، وأخذ يقتل فيهم ظلما لانهم على غير ملته ، وكان يهوديا . ثم بالغ فى نقمته عليهم فخدّ (حفر) لهم اخدودا (حفرة) واضرم فيه النار ، وكان يرمى فيه كل من لم يرجع عن النصرانية . وقد وردت قصة أصحاب الاخدود اشمئزازا مما أصابهم من الاعتساف فى سورة البروج : قال تعالى « قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود الخ » . واستنجد أهل نجران بنجاشي الحبشة وكان نصرانياً فارسل الى اليمن جيشاً عليه أرياط ، وكان من ضباطه رجل يقال له أبرهة الاشرم . فلما علم ذونواس بهم قابلهم وقاتلهم قتالا شديدا ، ولكنه انهزم وخاف من سقوطه فى يد عدوه فاغرق نفسه . و بذلك تم للاحباش الاستيلاء على أغلب بلاد اليمن . ومات أرياط بعد أن حكم البلاد عشرين سنة ، فتولى

---

(١) حجر يماني يشبه العقيق وهو ما يسمونه عين الهر .

عليها أبرهة ، وجعل عاصمته صنعاء . وكان منه ما كان فى حملته على مكة و رجوعه الى اليمن مقهورا ، فمرض ومات بعد أن حكم ٤٣ سنة . وتولى الملك بعده ابنه يكسوم وكان حكمه عشرين سنة كلها ظلم وجور . ثم ملك بعده أخوه مسروق بن أبرهة وكان أكثر ظلماً من أخيه . ولما هلك ذونواس قام أمير من قرابته اسمه ذو يزن (جدن) واستولى على بعض البلاد واستمر ملكه فيها نحو ثمان سنين . ثم تغلب عليه الحبشة فقتل نفسه ، وفر ابنه سيف الى قيصر الروم يستنجده ، وأقام ببابه سبع سنين ، فابى أن ينجده . فسار الى كسرى أنوشروان فوعده بمساعدته ، ووجّه معه رجلا اسمه وهرز فى جيش من المسجونين وقال « ان هم فتحوا كان لنا وان هم هلكوا كان لنا » . وركب وهرز ومن معه البحر فلما وصلوا الى اليمن التقوا بيكسوم و رجاله ، فكانت الدائرة على الاحباش : وقتل يكسوم فى الواقعة وانهزم جيشه . وتبعهم الفرس فأثخنوا فيهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا . و بذلك دانت لهم البلاد ، وجلس سيف بن ذى يزن على كرسيها . وأتته وفود العرب تهنئه بالملك ، وأتاه عبد المطلب سيد قريش فى نفر من قومه فأكرم وفادتهم . و بعد مدة من حكمه قتله حُجّابه وكانوا من الحبشة . و به كان آخر حكم التبابعة فى اليمن التى صارت بعد ذلك تابعة لمملكة الفرس . حتى اذا كانت السنة التاسعة للهجرة أسلم أهل اليمن ، وأرسلوا وفدا منهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة . فارسل اليهم معاذ بن جبل وجعل له الامارة عليهم ، وأوصاه بهم خيرا . وكان عامل كسرى عليهم اسمه بازان فاسلم و به صار حكم اليمن الى المسلمين .

— دولة كندة —

كندة بطن من كهلان ، كانت نزحت من اليمامة فى أوائل القرن الخامس من الميلاد وسكنت فى شمال حضرموت فى بلد سميت باسمهم . وكان سيدهم حجر بن عمرو المشهور بآكل المرار ، له علاقة بحسان بن تبع ملك حِمْيَر ، لانه كان من أعوانه فى فتوحاته بشمال جزيرة العرب ، فولاه ملكا على قومه . وكان حجر ذا همة وشجاعة ودراية . فاستنجدت به بكر بن وائل على اللخميين ملوك العراق ، وكانوا غلبوهم على بلادهم وأجلوهم عنها . فسار مع بكر اليهم وحاربهم واستنقذ منهم أرض بكر . فولاه حسان ملكا على العرب . فسار الى نجد وجعل مقامه

بها فى بطن عاقل، ومازال به حتى مات . وتولى بعده ابنه عمرو، و يسمونه المقصور لاقتصاره على ملك أبيه . ثم خلفه ابنه الحارث . واتفق ان قباذ ملك الفرس نقم على المنذر بن ماء السماء فطرده عن الحيرة، وأقام الحارث مكانه على مُلكها . فلما ملك أنوشروان، أعاد المنذر وطرد الحارث فهرب الى ديار كلب ومات بها . وكان للحارث ولد اسمه حُجر كان ولاه على أسد، فتنكروا له وقتلوه فى دِمون باليمن فاستنجد عليهم ابنه امرؤ القيس الشاعر المشهور ببكر وتغلب، فساروا لنجدته وهربت أسد من وجهه . ولما علم به المنذر بن ماء السماء سار فى طلبه فتفرقت جموعه . فاستنجد امرؤ القيس بابن ذى جدن ملك حمير وسار الى المنذر فى جمع من العرب . وكانت الدائرة على ابن حجر، فانهزم وسار يتنقل من قبيلة الى أخرى حتى قصد السموءل بن عادياء، وترك عنده قوسه ودروعه، ثم سار الى قيصر الروم يستنجد به فلم ينجده . فرجع من عنده خائباً ومات من الحزن فى سنة ٥٦٠ للميلاد، وهو آخر ملوك كندة .

— دولة تَنوخ بالعراق —

اختلف النسابون فى أصل تَنوخ: فمنهم من يجعلهم قحطانيين ومنهم من يجعلهم عدنانيين . ومع أننا أخذنا بالقول الثانى فى شجرة القبائل العربية، فانا ذاكروهم هنا لانهم هم الذين شادوا الدولة العربية فى العراق، وخلفهم عليها اللخميون بلا فاصل بين الدولتين: وذلك ان تنوخ [١] لما نزلت بالعراق كونوا فيها لهم دولة عظيمة فى أوائل القرن الثالث للمسيح . وأول من قام بها مالك بن فهم أول ملوكهم . ثم خلفه عليها ابنه جُذيمة الابرش، المشهور بدهائه وقوته وشجاعته وحسن رأيه . وكانت له حروب مع ملك من العمالقة اسمه عمرو بن الظرب، كان ملكه فى مشارف الشام، و بعضهم ذهب الى أن عاصمة ملكه كانت مدينة تَدمُر، فقتله جذيمة . وكانت لعمرو بنت اسمها الزَّباء (واليونان يسمونها زينوبى ولعله محرف عن زنوبه) فاحتالت على جذيمة فقتلته فى ثار أبيها . وكان جذيمة لم يعقب نسلا . وكان زوّج أخته رقاش

(١) كان لتنوخ فرع تولى الحكم فى مشارف الشام للرومانيين ولم تطل مدتهم حتى تملك عليها بنو سليح وهم بطن أخرى من قضاعة . وما زال هؤلاء حتى غلبهم عليها الغسانية .

برجل من لخم اسمه عدى وكان من ندمانه، فولدت له ولداً نجيباً اسمه عمرو، فكفله خاله ورباه أحسن تربية. فلما اقتل جذيمة تولى عمرو بن عدى الحكم بعده على الحيرة. وبه انتقل الملك من تنوخ الى لخم.

وأراد عمرو أن يأخذ بثار خاله فاحتال هو أيضاً على الزباء بواسطة عبد له اسمه قصير: فجدع قصيراً أنفه، وسار الى الزباء يشكو اليها ابن عدى. وأرسل عمرو بالرجال اليه فى صناديق، وقصيرٌ يوهمها انها أمواله. فلما كان الليل خرجت الرجال ووضعوا السيف فى قوم الزباء فهربت ولحق بها ابن عدى. فلما تحققت فتكه بها، كان بيدها سم فتناولته قائلة « بيدى لا بيد عمرو ».

— دولة اللخميين بالعراق —

كانت ملوك الحيرة تابعة لدولة الفرس. وكانوا يستعملونهم فى الوقوف فى وجه من يقصدهم من الرومان من جهة الغرب، كما كان الرومان يستعملون الغسّانية لصد هجمات من يقصدهم من جهة الشرق. وكان للخميين (ويسمونهم بنى نصر) دالة كبيرة على الملوك الساسانيين، ولهم عندهم مكانة اجلال واحترام، وكانوا يلقبونهم بملوك العرب: فعظم جاههم واشتهر أمرهم بين قبائل العرب، وقدمت عليهم وفودها، وقصدهم شعراؤها وانقطع لمدحهم جملة منهم النابغة الذبيانى، وطَرَفة، والمتلمّس، وحسّان وغيرهم.

وأغلب ملوك اللخميين من ذوى الهمة والعزة والسلطان. وأشهرهم ذكرا عند العرب النعمان بن المنذر لقرب عهده بالعصر الاسلامى. وحكمت هذه الدولة العربية الزاهرة من سنة ٢٦٨ الى سنة ٦٢٨ ميلادية.

وهاك جدولا بملوكهم وتواريخ حكمهم مع ما اشتهروا به من الاعمال:

﴿ جدول بملوك اللخميين بالحيرة ﴾

﴿ إسم الملك ﴾	مدة الحكم من سنة	مدة الحكم الى سنة م	﴿ أعماله ومناقبه ﴾
عمرو بن عدى بن نصر	٢٦٨	٢٨٨	هو الذى كون دولة اللخميين فى العراق .
امرؤ القيس بن عمرو	٢٨٨	٣٢٨	اتسع سلطانه وامتد على قبائل العرب غربا وجنوبا، ودخل فى حكمه قبائل مذحج وربيعة ومضر، وحارب شمَّر ملك حمير . وقد وجدوا اسمه مكتوبا بالعربية على قبر فى حوران ولعله كان ذهب اليها فى غزوة فمات ودفن بها .
عمرو بن امرئ القيس	٣٢٨	٣٧٧	ملك نحو نصف قرن وكان معاصراً لسابور ذى الاكتاف، وكانت مدته كلها خيرورخاء .
أوس بن قلام	٣٧٧	٣٨٢	ليس من اللخميين ولكنه تغلب عليهم واستقر على ملك الحيرة حتى قتله رجل من بنى نصر فرجعت الدولة اليهم .
امرؤ القيس بن عمرو الثانى	٣٨٢	٤٠٣	ليس له عمل يذكر .
النعمان الاعور بن امرئ القيس	٤٠٣	٤٣١	كان مهيباً حازما كثير الحروب، غزا الشام مرارا . وكان يغزو كل قبيلة من العرب لا تدين له . واجتمع له من الاموال مالم يجتمع لاحد من سلفه . وهو صاحب قصر الخَوَرْنَق، بناه له سنمّار، فلما أعجبه قطع يده حتى لا يبنى لغيره مثله وكان بينه وبين زهير بن قيس العبسى صلة نسب . وفى آخر أيامه زهد الملك وهام على وجهه فى القفار ولم يعلم من أمره شئ بعد ذلك .
المنذر بن النعمان بن امرئ القيس	٤٣١	٤٧٣	كان من أعوان ملوك الفرس . وكان معاصرا ليزدجرد (يزدگرد) وبهرام، وحارب جيوش الروم الذين كانوا يقصدون فارس وانتصر عليهم انتصارا باهرا .
الاسود بن المنذر بن النعمان	٤٧٣	٤٩٣	استصرخ به عمرو بن أذينة فى أخذ ثار خال له قتله الغسانيون فسار اليهم وحاربهم .

جدول بملوك اللخميين بالحيرة

إسم الملك	مدة الحكم من سنة م	مدة الحكم الى سنة م	أعماله ومناقبه
			وأسر كثيرا من وجوههم وقتلهم فيه .
المنذر بن المنذر بن النعمان	٤٩٣	٥٠٠	ليس له ما يستحق الذكر .
النعمان بن الاسود	٥٠٠	٥٠٤	أمضى مدة حكمه فى حرب الروم بالشام وغيرها
علقمة أبو يعفر	٥٠٤	٥٠٧	من غير آل نصر وليس له ما يذكر .
امرؤ القيس بن النعمان	٥٠٧	٥١٤	ليس له ما يذكر .
المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء .	٥١٤	٥٦٣	هو أشهر ملوك اللخميين . وقد حصل بينه و بين قباذ ملك الفرس خلاف أفضى الى تولية قباذ للحارث الكندى على الحيرة . فهرب المنذر ومازال مختفيا حتى مات قباذ وتملك ولده أنوشروان . فقدم عليه المنذر فرحب به وولاه الحيرة ثانيا . وكان له يومان (١) يوم بؤس و يوم نعيم : فمن وفد عليه فى بؤسه قتله ، ومن وفد فى يوم نعيمه أهال عليه عطاياه . وحارب المنذر بكر بن وائل فى يوم أوارة ثم قتل فى حرب بينه و بين الحارث بن جبلة الغسانى فى واقعة يسمونها ذات الخيار أو يوم اباغ .
عمرو بن هند مضرط الحجارة ابن المنذر بن ماء السماء	٥٦٣	٥٧٨	كان ذا همة علياء وشممة شماء ، وكان صاحب خيلاء وكبرياء . دعا كبراء العرب يوما فوفدوا عليه ، و وفد عليه عمرو بن كلثوم التغلبى مع أمه بدعوة منه . فلما دخلت أم كلثوم على هند ، أرادت هند أن تستخدمها فقالت واذلاه !! فسمعها ابنها فاستل سيف بن هند وهو معلق فى السرادق وقتله به ، ثم خرج مع من كان معه من تغلب .
قابوس بن المنذر	٥٧٨	٥٨١	كان ضعيفا وله يوم طخفة مع بنى يربوع .
المنذر بن المنذر بن ماء السماء	٥٨٢	٥٨٥	قتل يوم حلية فى حرب بينه و بين الغسانية .

(١) ذكر بعض المؤرخين ان الذى كان له هذان اليومان هو النعمان بن المنذر أبو قابوس .

جدول بملوك اللخميين بالحيرة

إسم الملك	مدة الحكم من سنة م	مدة الحكم الى سنة م	أعماله ومناقبه
النعمان بن المنذر أبو قابوس	٥٨٥	٦١٣	بلغت الدولة فى أيامه منتهى الشرف . ونقم عليه كسرى وطلبه فهرب الى طئ وطلب منها أن تمنعه فابت . فنزل على هانئ بن مسعود سيد بنى شيبان . وكان هانئ عزيزا ، فأودعه أهله وسار الى كسرى فامر به فسجن حتى مات فى طاعون سنة ٦١٣م . وهو صاحب يوم الشّلاّن بينه و بين بنى عامر بن صعصعة .
إياس بن قبيصة الطائى	٦١٣	٦١٨	لما سجن أبوقابوس استعمل كسرى اياسا سيد طئ على العراق . فارسل الى هانئ بن مسعود وطلب منه ما استودعه النعمان فابى . فاخبر كسرى وسار اليه بجمع كبير . فثبت لهم بنو شيبان وانتصروا على الفرس انتصارا بينا بذى قار . وكان ذلك سنة ٧ قبل الهجرة .
زاديه (زادويه)	٦١٨	٦٢٨	ليس له ما يذكر .
المنذر بن النعمان المغرور	٦٢٨	٦٣٢	وهو آخر ملوك الحيرة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة ٦ للهجرة ، أرسل العلاء الحضرمى الى البحرين ليدعو أهلها الى الاسلام أو الى الحرب . وأرسل معه كتابا الى المنذر يدعوه الى الاسلام فاسلم ، واسلم معه جميع من هناك من العرب . و ولى رسول الله العلاء على البحرين ومكث بها حتى كانت خلافة أبى بكر فارتدت العرب . فاستنجد أهل البحرين بالمنذر فحضر اليهم وحاصروا العلاء فى حصن الجوثاء ، ومازال محصورا حتى غافلهم وخرج عليهم ليلا وأوقع بهم و قتل المنذر فى هذه الواقعة وكان ذلك سنة ١٢ للهجرة وفيها انتهى حكم المناذرة باستيلاء المسلمين على العراق .

الغسانية

كانت الروم تستعمل العرب الذين كانوا يسكنون بادية الشام للاستعانة بهم على عرب العراق الذين كانوا يستعملهم ملوك الفرس فى مناوأة الرومان . فاستعملوا أوّلا بطناً من تنوخ، ثم استعملوا اسليحا، ثم الضجاعمة، وكلهم من قضاعة . حتى اذا نزح الغسانيون الى بلاد الشام تغلبوا على بنى ضجعم وأقاموا فى البلقاء، وصارت لهم الكلمة فى تلك البادية بحكم العصبية، فاقامهم الرومانيون على المحافظة على حدودهم وعلى وحروبهم مع الفرس وغيرهم . وقد اختلف مؤرخو العرب فى عدد ملوك الغسانية: فقال حمزة الاصفهانى انهم ٣٢ ملكا حكموا من سنة ٢٢٠ للميلاد، وقال آخرون غير ذلك . وذهب المؤرخ نولدكى الى أنهم عشرة فقط، وأن ملكهم يبتدئ من أواخر القرن الخامس للمسيح كما هو مبين فى الجدول الآتى :

سنة الوفاة	« إسم الملك »	سنة الوفاة	« إسم الملك »
٥٠٠	جبلة أبو شمر .	(من سنة ٥٨٣ الى سنة ٦١٤)	الحارث الاصغر ابن الحارث الاكبر .
٥٦٩	الحارث بن جبلة .		« الاعرج ابن الحارث الاصغر .
٥٨٢	المنذر أبو كرب بن الحارث .		النعمان بن الحارث الاصغر .
٥٨٣	النعمان بن المنذر الغسانى .		عمرو بن الحارث الاصغر .
			حجر بن عمرو .
		٦٣٦	جبلة بن الايهم .

ولما كان التاريخ الذى حكم فيه جبلة أبو شمر يقرب من الزمن الذى وضعه له حمزة وغيره من مؤرخى اليونان ، كان اختلافهم فى تاريخ مبدأ هذه الدولة مبنياً على الوقت الذى ابتدأت فيه ضخامتها فى عهد جبلة المذكور .

وأشهر هؤلاء الملوك هو الحارث بن جبلة، وكانت له منزلة كبيرة عند الروم لشجاعته وشدة بأسه وعظم سلطانه على العرب . ولما مات تولى ابنه المنذر مكانه فحارب قابوس

ملك الحيرة وانتصر عليه . وذهب المنذر الى القسطنطينية فألبسه الامبراطور طيباريوس التاج ولم يلبسه أحد قبله من الغسانيين . واستمرت سوريا في يد الغسانيين حتى حمل الفرس عليها وافتتحوها سنة ٦١٣م ، فذهبت دولة العرب منها ، وكان عليها حجر بن عمرو . فلما نهض هرقل لاسترجاع سوريا من الفرس ظهر من الغسانية جبلة بن الايهم . وهو الذي وفد على عمر بن الخطاب في أشراف قومه وأسلم معهم ، وبيناهو يطوف حول الكعبة وطئ إزاره أعرابي فلطمه جبلة . فاشتكى الاعرابي الى عمر . فاستدعاه وخيّره بين القصاص أو استرضاء الاعرابي حتى ينزل عن حقه . فاستمهله جبلة حتى يرى رأيه وفر ليلا الى فلسطين وركب البحر الى القسطنطينية وأقام بها حتى مات .

وللغسانية كثير من آثار العمارة في بلاد الشام : خصوصاً في أذرح ، ونجران ، ومعان . ومن أسماء قصورهم : صرح الغدير ، والقصر الابيض ، وقصر المشتى ، والقلعة الزرقاء ، وقصر منار . وقد عثروا أخيراً على بعض آثار هذه القصور في حوران .

العدنانية

لما أتى اسماعيل عليه السلام الى مكة تزوج بها وولد له اثنا عشر ولدا ، ومازال نسله يتكاثر ، وكانوا يسمونهم بالاسماعيلية ، حتى انتج بعد نحو عشرين بطنا حفيده عدنان . فولد له معد . وولد لمعد نزار فانجب أنمارا ، ومضر ، وقضاعة ، وربيعة ، وأيادا . وبارك الله تعالى في نسله فكان منهم العرب العدنانية . وكانت منازل هذه البطون الخمسة حول مكة في مبدأ أمرها . ثم اضطرتهم الحالة المعاشية الى طلب الرزق في جهات جزيرة العرب فنزحت قضاعة الى نجد ، وتفرعت الى بطون كثيرة منها : تيم اللات وقد نزحت الى البحرين ، وتزيد نزلت عبقر بارض الجزيرة ، وسليم نزلت مسارح الشام وفلسطين ، وأسلم نزلت الحجر شمال المدينة ، وتفرعت في جهاته أفخاذها الاربعة : عذرة ، ونهد ، والحواتكة ، وجهينة . ثم تنوخ وقد نزلت الى أرض الحيرة . وربان بن حلوان نزحوا الى بادية الشام . وبلى أقامت جنوب العقبة . وبهرا وقد لحقت باليمن . ولقد تفرعت من هذه البطون أفخاذ كثيرة كانت أمهات لقبائل كبيرة مشهورة .

وأما انمار فانها نزحت الى جبال السروات فملكوها وكان منها بطنان: بجيلة وخثعم. وقد تفرقت أفخاذهما فى جهات الجزيرة. ونزلت اياد العراق، وكانوا يغيرون على بلاد الفرس فاجلاهم أنوشروان عنها، فنفروا فى أرض الروم وبلاد الشام.

ولم تقم من العدنانية قبل الاسلام دول تستحق الذكر، ولكن كانت ملوك اليمن تعطى لقب ملك لبعض سادات العرب وتوليهم الزعامة على القبائل: ومن هؤلاء الملوك زهير ابن حباب الكلبي، ولاه أبرهة الاشرم على قبائل العرب، فخرجت عليه بكر وتغلب، فسار اليهم وغزاهم وأسر وجوههم ومنهم وائل بن ربيعة المشهور بكليب وأخوه مهلهل، وعاد بهم الى بلاده. ومكث كليب وأخوه عنده مدة حتى هب قومهما وأنقذوهما من الاسر. وكان زهير قد أسن وعجز وتولى بعده عبد الله بن أخيه حكيم. ولما رجع كليب الى قومه أخذ يستميل اليه العرب ويعمل فيهم بكمال درايته وحسن ادارته وكثير كرمه وجوده، وجمع اليه معدا وأفهمهم مقدار ما يصيبهم من تبعيتهم لملوك اليمن. وسار بهم وحارب ابن حكيم، فانتصر عليه فى واقعة عظيمة يسميها العرب يوم خزاز، وكان ذلك فى أواخر القرن الخامس للميلاد: وبذلك خرج العدنانية من تبعيتهم لملوك اليمن، ونادوا بكليب ملكا على العرب. ومازال أمر كليب يكبر حتى قتل ناقة لامرأة اسمها البسوس، كانت نزيلة على ابن عمه جساس، فقتله بها غيرة على جواره، وقامت لذلك حروب هائلة بين بكر وتغلب مكثت أربعين سنة ويسمونها حرب البسوس.

ومن ملوك العرب أيضاً قيس بن زهير العبسى وله حروب مشهورة. وفى آخر أيامه اعتزل الملك وذهب الى عمان، وترهب فيها ومات بها. وكان له ولد اسمه فضالة وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقد له على من معه من قومه.

واما قريش فقد كانت لهم فى جزيرة العرب الزعامة الدينية العامة لاستيلائهم على الكعبة وكان لهم بذلك فى العرب كلهم منزلة اجلال واعظام لا تقل عن منازل الملوك ان لم تزد عنها.

ومازالت القبائل العدنانية على بداوتها حتى ظهر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش، ونشر دين الاسلام فى قومه، ثم هاجر الى المدينة، ومن ثم أخذ الاسلام ينتشر فى

قبائل بلاد العرب كلها، وما لبث أن تجاوزها شرقا وشمالا وغربا، واستولى العرب فى حكم الراشدين الذين كان مركزهم المدينة، على بلاد فارس والشام وأرمنيا والقوقاز ومصر وبلاد المغرب . وفى مدة الامويين انتقل مركز الخلافة الى دمشق . ووصلت فتوحاتهم الى المحيط الاطلانطيق، ودخلت جنودهم الى أوروبا من بوغاز جبل طارق، ومازالت تفتح فى بلادها حتى وصلت الى قلب فرنسا . بل نفذت سراياهم الى قلب أوروبا لتوطيد عرش من كان يطلب حمايتهم من ملوكها . وفى ذلك العهد كنت ترى تجار المسلمين يسيرون بتجاراتهم من بغداد الى القسطنطينية، ومنها الى شمال اوروبا . وهناك كانوا يتقابلون مع اخوانهم من التجار الاندلسيين، فيتبادلون تجارة بعضهم البعض ثم يعودون فى أمان الله وحماية حكوماتهم الى بلادهم . وبقيت العرب فى الاندلس أربعة قرون، وكانت لهم بها دولة راقية جدا، كانت سبباً فى رقى المدنية الاوروبية الحالية فى أخلاقها وعلومها وصناعاتها .

وحُكم العرب فى الاندلس يبتدئ من سنة ٩٢ بعد الهجرة وهى التى دخل فيها طارق الى بلادها من مضيق الزقاق (بوغاز جبل طارق)، ثم تبعه سيده موسى بن نصير . ومازالا يفتحان فى البلاد حتى خافهما الوليد بن عبد الملك فاستدعاهما ونكبهما . ومازالت الاندلس تابعة للدولة الاموية، وكانوا يولون عليها ولاة بلقب أمير الى سنة ١٣٨ هـ . وفيها استولى عليها عبد الرحمن بن معاوية الاموى واستقل بها . والسبب فى ذلك أنه لما سقطت دولة الامويين بدمشق . وقامت دولة العباسيين على يد السفاح أخذوا يتعقبون الامويين بالقتل ولم يفلت منهم الا القليل ومنهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك . فدخل الى الاندلس ولذلك يسمونه بالداخل، فاجتمع عليه الناس وبايعه أهل اشبيلية وقرطبة وغيرهما . وتم استيلاؤه على الاندلس فى سنة ١٤١، فجعل عاصمته قرطبة، وقطع الخطبة عن العباسيين، وبنى بها القصر والمسجد الجامع . ومازال بنوه عليها حتى اذا تربع ثامنهم عبد الرحمن الناصر فى دست الامارة سنة ٣٠٠، لقبوه بامير المؤمنين، وبه ابتدأت الخلافة العربية بالاندلس . وحكم الناصر خمسين سنة استفحل فيها ملك بنى أمية بهذه البلاد، وارتقت فيها العلوم والاداب والصناعات وخصوصا بقرطبة التى صارت تناظر بغداد فى

فخامتها وضخامتها. و بنى عبد الرحمن مدينة الزهراء، وأنشأ بها من القصور مالا يصل اليه الوصف. و بالجملة فقد كانت مدته كلها نوراً وعرفاناً وعزة وسعادة. وتولى بعده ابنه الحكم سنة ٣٥٠، وكان محباً للعلوم: ولقد شيد داراً للكتب لم يشيد مثلها أحد من الملوك، وقالوا ان عدد كتبها نيف وأربعمائة ألف مجلد، وكان لها أربعة وأربعون فهرستا. وخلفه ابنه هشام سنة ٣٦٦، ومازالت الخلافة تنتقل فى بنيه حتى تولاها أمية بن عبد الرحمن فى سنة ٤٢٢. وكانت الفتنة قد كثرت فى البلاد واشتدت فى مدته، فهرب ومات فى هربه، وهو آخر خلفاء بنى أمية فى الاندلس وعددهم ١٦ خليفة: كانت دولتهم من أحسن الدول شأناً، وأضخمها سلطاناً، وأعلاها ذكراً، وأكثرها ثروة. ولا يزال من آثارهم قصر الحمراء فى غرناطة، والقصر المشهور بالكازار و بجانبه المنارة التى كانوا يرصدون عليها الكواكب فى أشبيلية، والمسجد الجامع فى قرطبة: وكلها آثار حية تفوق حد الاتقان فى صناعتها و زخرفها وفخامتها مما لا تصل الى تصويره مقدرة الواصفين، و يقف أمامه الحاضر باهتا لقدرة الانسان الغابر فى ذلك الزمن الزاهر! وسبحان من بيده الملك.

وقامت بعدها بالاندلس دولة العلويين فى سنة ٤٠٧، واستمرت الى سنة ٤٦٠. وأول ملوكها على بن حمود الادريسى. ولما بايعوه تلقب بالناصر لدين الله. وضعفت الخلافة فى مدتهم حتى صارت لاهيبة لها! فكان ذلك سببا لانقسام ملك الاندلس بين ملوك الطوائف: فقام باشبيلية محمد بن عباد و بنوه من بعده. وقام ببطليوس محمد بن عبد الله المعروف بالافطس وأولاده من بعده. وقام بطليطلة ابن يعيش، ثم اسماعيل بن ذى النون. وقام بسرقسطة سليمان بن هود الجذامى. وقام بطرطوشة لبيب العامرى. وقام فى بلنسية المنصور المعافرى. وقام بسهلة عبود بن زير بن البربرى. وقام بدانية الموفق العامرى. وقام بمرسية بنو طاهر، ثم استولى عليها ابن عباد. وقام بالمرية خيران العامرى. وقام بمالقة بنو حمود. وقام بغرناطة حبوس الصنهاجى. الا أن الافرنج ابتدءوا يستعملون هؤلاء الرؤساء اسلحة بعضهم فى نحور البعض الاخر. ثم أخذوا بعد هذا الانشقاق يستولون على الاندلس بلداً بلداً، حتى استولوا على اشبيلية فى سنة ٦٤٥. فانحازت العرب الى غرناطة

والمرية ومالقة وضاق الملك بهم بعد اتساعه .

وكانت هذه البقية الباقية يدافع عليها ابن هود مع محمد بن الاحمر ، و فى أثناء ذلك كان عدوهم ينقض على أطرافها شيئا فشيئا ، حتى اخرجهم الى سيف البحر . وهناك اجتمع عليهم جموع من المسلمين ، وزحف اليهم رجال من البربر ، فاستولوا على بعض النواحى . ولكنهم مالبثوا أن استولى الاسبانيون على غرناطة عاصمة ملكهم صلحا فى سنة ٨٩٧ ، بعد أن أمنوا المسلمين على أنفسهم وأموالهم واعراضهم . ولكنهم أخفروا عهدهم واذاقوهم صنوف العذاب ، خصوصاً بعد أن تشكلت محكمة القسوس المسماة بمحكمة التفتيش (الانكيزسيون) ، فقتلوا النفوس ، وسلبوا الاموال ، وهدموا الآثار ، وأحرقوا القصور والمساجد ، التى لم يبق منها الاماوارته عن أعينهم يد الزمن !!! وتشتت المسلمون الى بلاد المغرب ، ولم يبق فى الاندلس منهم الا المستضعفون الذين قعدت بهم حالهم عن الهجرة ، وما زالوا يسامون سوء العذاب حتى دانوا بدين البلاد . وللآن نرى بعض الاسماء باسبانيا عربية محضة مثل : الفارس ، والقائد ، و رمانه ، و زيدان ، وفران ، و رمضان ، و نصار ، وميمون الخ .

هذا ما كان من أمر الدولة العربية الغربية . أما دولتهم الشرقية ، فقد كانت فى صدر الخلافة العباسية فى أعز أيامها ، وأرفع أعلامها ، وخصوصاً فى مدة الرشيد وولده المأمون ، اللذين قاما بكل مافيه رقى الافكار ، ونشر العرفان ، وتنشيط الصناعات : حتى صارت الدولة الاسلامية فى مدتهم مشكاة يستنير بها العالم الشرقى ، فى حين ما كانت الدولة العربية الاسلامية بالاندلس نبراسا يضىء ماحوله من الكائنات .

فلما كانت خلافة المعتصم العباسى فى سنة ٢١٨ جمع كثيراً من المماليك الى خدمته : حتى بلغ عنده من التركمان والجركس مايزيد عن خمسين ألفا واتخذ منهم حراسا لنفسه ، وولاهم محافظة الثغور . فاخذت شوكتهم تزداد يومافيوما حتى تغلبوا على الدولة ، وصارت الخلفاء ألعوبة فى أيديهم ، يولون من يشاءون ، و يعزلون من يريدون ، حتى اذا كانت خلافة المعز بالله استولى أحمد بن طولون [1] على مصر سنة ٢٥٤ . ثم أخذت عمال النواحى تتغلب على أطراف الدولة

(١) هو الذى كون الدولة الطولونية بمصر ومكثت قائمة بها من سنة (٢٥٤ﻫ) الى سنة (٢٩٢ﻫ) . وفيها

شيئا فشيئا حتى اذا كانت سنة ٣٢٢ ضعف أمر الخلافة العباسية بالمرة : فكانت فارس فى يد بنى بويه[١]، والموصل وديار بكر فى يد بنى[٢] حمدان، ومصر والشام فى يد الاخشيديين ، والاندلس فى يد بنى أمية ، والمغرب وافريقية فى يد الفاطميين ، والبصرة فى يد ابن رائق، و ماوراء النهر فى يد بنى سامان[٣] ، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم[٤] ، وجهة البحرين واليمامة فى يد القرامطة[٥]، ولم يبق فى يد الخليفة الا بغداد وضواحيها . و بذلك أصبحت الخلافة كأن لا وجود لها بالمرة .

قامت الدولة الاخشيدية الى سنة ٣٥٨هـ وفيها تغلبت عليها الدولة الفاطمية الى سنة ٥٦٧هـ . وفيها استولت عليها الدولة الايوبية الى سنة ٦٤٨هـ . ثم قامت بها دولة المماليك البحرية الى سنة ٧٨٤هـ ثم دولة المماليك البرجية (دولة الجراكسة) الى سنة ٩٢٢هـ . وفيها استولت عليها الدولة العلية العثمانية . وفى سنة ١٢٢٠ تولاها محمد على باشا جد العائلة الخديوية وصارت ارثا ثابتا لبنيه من بعده .

(١) هم من الديلم قاموا بدولة ملكت العراقين وفارس والاهواز على يد عماد الدولة بن بويه سنة ٣٢٢هـ، فساسها أحسن سياسة وأدارها بعقل وحكمة حتى عظم شأنه واستولى على بغداد سنة ٣٣٤هـ ثم استولى على كثير من الجهات ومنها جرجان واصفهان وخوزستان ، وخطب له على المنابر فى بغداد وغيرها، وكان وزيره الصاحب بن عباد، وما زال الملك فى بنيه الى سنة ٤٤٧ حيث نزعه منهم طغرل السلجوقي . واستمرت الدولة السلجوقية الى سنة ٥٩٠ وفيها ظهرت الدولة الخوارزمية، وأول من قام بها محمد خوارزم شاه الذى بعد ان تغلب على سلاجقة ايران استولى على بغداد ومازال خلفاؤه بها حتى تغلب عليها التتار .

(٢) ظهرت دولة بني حمدان فى الموصل سنة ٢٩٣هـ ، ولقد عظم شأن هذه الدولة حتى امتد سلطانها على الجزيرة والشام، وبلغ من أمر ملوكها انهم استبدوا بالدولة العباسية وصارت لهم فيها الكلمة النافذة . وأشهر ملوكها سيف الدولة الذي كان حكمه من سنة ٣٣٠ الى سنة ٣٥٦هـ وفيها مات . ولكن مناقبه بقيت منشورة على صفحات شعر المتنبي الذى قصر حياته على مدائحه . وممن اشتهر من بنى حمدان أبو فراس الشاعر المشهور .

(٣) بنو سامان كانوا ولاة من العجم على ماوراء النهر للعباسيين، فلما ضعفت الخلافة العباسية استقلوا بها حتى غلبتهم عليها الدولة الغزنوية في سنة ٣٨٩ هـ .

(٤) بعد تغلب الديلم على جرجان وطبرستان استولوا على بغداد حتى غلبتهم عليها الغزنوية .

(٥) القرامطة نسبة الى رجل يقال له قرمط قام بالبحرين ودعا قوما من أهل البادية الي دين جديد ذهب فيه الي ان عيسى المسيح انما هو أحمد بن محمد بن الحنفية، وكانت الصلاة عندهم أربع ركعات: ركعتين قبل طلوع الشمس ، وركعتين قبل غروبها، وكانت كلمة توحيدهم أشهد أن لا اله الا الله وأن ابراهيم رسول الله، وأن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله، وان الصلاة الي بيت المقدس ،وان الجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيها شيء، وان يصام يومان في السنة يوم المهرجان

وفي خلافة الطائع لله ظهرت الدولة الغزنوية[١] سنة ٣٦٦ . وفي خلافة المقتفي لامر الله قامت الدولة الغورية[٢] سنة ٥٤٣ ، ثم ظهر أمر الغز[٣] سنة ٥٤٨ .

وفي سنة ٦٥٦ استولى التتار[٤] على بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم العباسي ، ومن ثم انقطعت الخلافة العباسية ثلاث سنوات ، وفي سنة ٦٤٦ وصل من فر من العباسيين الى مصر فاستقبلهم الملك الظاهر بيبرس أحسن استقبال وأقام بها الخلافة باسمهم . ومات هولاكو سنة ٦٦٢ بعد أن ملك الشام والعراق وفارس وماوراء النهر . وانقسمت مملكته بين بنيه وبين اخوته ومازلوا حتى انقرض حكم ملكهم بتغلب تيمورلنك التتري على بغداد في سنة

ويوم النوروز ، وان النبيذ حرام والخمر حلال ، ولا غسل من جنابة ، وان الوضوء كوضوء الصلاة وان يؤكل كل ذي ناب وذي مخلب . وظهر أمر القرامطة سنة ٢٧٨ هـ ثم استفحل ملكهم حتى استولوا على مكة والبصرة والكوفة وهاجوا الخليفة في بغداد . وفي سنة ٣٢٩ ضعفت شوكتهم وانحصرت سلطتهم في بلاد هجر حتى تلاشى أمرهم .

(١) الغزنوية أسسوا دولة في شرق بلاد العجم سنة ٣٦٦ هـ على يد محمود بن سبكتكين غلام اسحاق صاحب جيش غزنة للسامانية ، واتخذ غزنة عاصمة له ، وفتح بلاداً كثيرة في الهند واستمر الملك في بنيه الى سنة ٥٧٨ . وقامت بالملك بعدها الدولة الغورية .

(٢) الدولة الغورية قامت بالملك بعد الدولة الغزنوية وامتد ملكهم الي الهند والسند واستمر حكمهم الى سنة ٦٠٤ ، ومن أحسن ملوكها غياث الدين الغوري الذي كان يلقب بقسيم أمير المؤمنين .

(٣) الغز طائفة من الترك كانوا فيما وراء النهر ثم نزحوا الي خراسان وكانوا كفارا ومن أسلم منهم كان ترجمانا بينهم وبين المسلمين . فلما أسلموا سموا بالتركمان ، وحاربهم السلطان سنجر السلجوقي فكسروه وهزموه شر هزيمة واستولوا على خراسان سنة ٥٥١ .

(٤) التتار لفظ يطلق على مجموع قبائل كثيرة في أواسط أسيا واشتهر أمرهم في القرن السابع والثامن والتاسع للهجرة . وأول من اشتهر من ملوكهم جنكيزخان في أول القرن الحادي عشر للهجرة . وكان يدخل في ملكه خوارزم وخراسان وكرمان وفارس واذربيجان والعراقين العربي والعجمي والجزيرة . وبعد وفاته انقسمت مملكته بين بنيه ، وفي مدة ملكهم سار هولاكو أحدهم الي بغداد بتواطيء مع مؤيد الدين العلقمي وزير المستنصر بالله العباسي ، وحصلت بينه وبين جنود المستنصر واقعة انتهت بانهزام جنود الخليفة سنة ٦٥٦ ، ودخل التتار بغداد ونهبوها وقتلوا الخليفة المستنصر العباسي مع من فيها من الاشراف ، وسبوا نساءها وفتكوا بأهلها ، وكانت خزائن بغداد عامرة بالكتب النفيسة فأخذها هولاكو وعمل بها جسرا في الدجلة مرت عليه جنوده !!

واستمرت دولة التتار قائمة الي سنة ٧٩٧ ، وفيها استولي تيمورلنك (تيمور الاعرج) المغولي عليها . ودخل بغداد وقتك بأهلها فتكا ذريعاً .

٧٩٨ . ولما مات سنة ٨٠٨ اقسم بنوه مملكته : فاستقلت بلاد فارس (١) والتركستان (٢)، وأخذ ملوك بنى عثمان (٣) الذين كان لهم الحكم فى أسيا الصغرى كلها فى التغلب على مادونها شيئاً فشيئاً، حتى اذا دخلت الشام فى حكم السلطان سليم سنة ٩٢٢، سار الى مصر من سنته ودخلها فاتحا، ومكث بها حتى رتب أمورها ونظم حكومتها ثم سافر الى بلاده، وأخذ معه محمد المتوكل على الله الخليفة الثامن عشر العباسى . ثم تنازل له المتوكل عن الخلافة الاسلامية . ومن هذا الوقت وهى فى أيدى ملوك بنى عثمان . ومن ثم انحصر ملك العرب فى بلاد المغرب . ولهذا رأينا أن نقول كلمة صغيرة عن كل قسم من أقسامها لتكمل به الفائدة .

(١) فارس كانت فى يد الخلفاء الي أن قامت بها الدولة الغزنوية من سنة ٣٨٧هـ الي سنة ٥٤٥هـ. ثم وقعت في يد السلجوقيين الى سنة ٧٤٥هـ . ومن ثم تجزأ حكمها الي جملة خانات ثم استولي عليها التركمان في سنة ٨١٠هـ الى سنة ٩٠٧هـ ثم ظهرت بها الدولة الصفوية الي سنة ١١٣٥هـ ثم تداولها جملة أمراء . وفى سنة ١١١٢هـ استولت عليها عائلة قاجار الحالية، وانفصلت عنها فى مدتهم بلاد الافغانستان سنة ١١٦٠هـ

(٢) بلاد تركستان التى من أهم مدنها بخارى لم يتم فتحها الالعيينة بن مسلم الخراساني في سنة ٨٧ ثم دخلت في ولاية بنى سامان حكام خراسان من ٢٠٤ سنة الى سنة ٣٨٩هـ ثم تولي عليها ايلك التركي . ثم دخلت فى حكم السلجوقية . ثم استولى عليها جنكيزخان . ثم تغلبت عليها حكومة ازبك التركية مدة قرن ونصف . ثم انقسمت الي خانيات مستقلة منها خانية بخارى، وخانية سمرقند، وتاشقند، وخيوة . ودخلت هذه الخانيات في حكومة الروسيا واحدة واحدة في نحو نصف القرن التاسع عشر من الميلاد .

(٣) أول ظهور هذه الدولة انه لما اضمحلت دولة السلجوقيين فى سنة ٦٩٩ تغلبت على ملكها دول كثيرة صغيرة . وكان من ضمنها دولة الترك، وفى سنة ٦٩٩ ظهر أمر السلطان عثمان التركي في الاناضول واشتهر بفضله وعدله وبلغت فتوحاته الي بحر الروم غربا والدردانيل والبوسفور شمالا ثم فتح بورصة سنة ٧٢٦ . ولما مات استولي على ملكه ابنه أورخان فقطع البحر الي أوربا واستولى على مدينة غاليبولى وتولى بعده ولده مراد الاول فسار الى أوربا وأوغل فى بلاد الصرب والبلغار والبانيا . وخلفه ابنه بايزيد وكسر ملوك فرنسا والمجر وألمانيا الذين تحالفوا عليه، ثم قصد فتح القسطنطينية فبلغه ان تيمور لنك ملك المغول قصد بلاده فسار اليه وحاربه فوقع فى أسره ومازال به حتى مات . وقام بالملك بعده ولده السلطان محمد بن بايزيد فاسترد ملك أبيه ومات سنة ٨٢٣ وتولي بعده احفاده وما زال ملكهم حتى افتتح السلطان محمد القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ ثم افتتح البوسنه والهرسك وطربزون واستولي على كثير من جزرا لارخبيل . وما زال ملك بني عثمان حتى تملك السلطان سليم الاول فاستولى على ديار بكر وكردستان وحارب الفرس وانتصر عليهم ثم تركها الى حرب مصر فاستولى عليها سنة ٩٢٢ . وما زال خلفاؤه يتوارثون عرش الدولة العلية حتي آل أمرها الي سلطانها الدستوري (محمد الخامس) حفظه الله وجعل أيامه كلها خيرا وبركة .

— طرابلس —

كانت طرابلس أولا فى يد البربر ، ثم دخلت تحت الحكم الرومانى حتى افتتحها العرب سنة ٢٢ هـ : وتولاها الاغالبة ثم العبيديون ثم الصنهاجيون ، ثم استولى عليها صاحب صقلية واستردها منه الموحدون . ثم استولى عليها الاسبانيون ، و فى سنة ٩٥٠ حضرت الاساطيل العثمانيه وطردوهم منها واستولوا على البلاد وهى فى قبضتهم الى الآن .

ومما نذكره مع الاسف الشديد أن دولة ايطاليا التى تمنى نفسها من زمن بعيد باحتلال هذه البلاد ، قد اعتدت بلا سبب على الدولة العلية ، وأشهرت عليها الحرب على غرة منها وسيرت أساطيلها الى طرابلس ، وكانت الدولة فى شاغل بحروبها الداخلية عن تقوية ثغورها . وطلب الطليان من حاكم طرابلس أن يسلمهم المدينة فلم يقبل . فأطلقوا نيرانهم على قلاعها فى يومى ٨ و ٩ شوال سنة ١٣٢٩ ، فانسحبت الحامية الى داخلية البلاد استعدادا للحرب ونزل الطليان الى البر واحتلوا المدينة فى يوم ١٥ منه الذى نكتب فيه كلمتنا هذه . ولا يعلم الا الله مصير هذه البلاد من بعد ذلك ، ولعل الدائرة تدور على الباغى . ولا حول ولا قوة الا بالله .

— بلاد الجزائر —

أصل هذه البلاد من قبائل زناته وصنهاجه من البربر . وفتحها الرومان فى سنة ٥٣٤ م ، ثم فتحها المسلمون فى خلافة سيدنا عثمان بن عفان . و فى مدة العباسيين قامت بها الدولة الزيرية من سنة ٣٦١ الى سنة ٥٤٣ ، ثم استظهر عليها صاحب صقلية روجير الثانى النورماندى . و فى سنة ٥٥٤ هـ استولت عليها دولة الموحدين المراكشية الى سنة ٦٦٩ ، حيث تغلب عليها بنو زيان من الصنهاجيين ، وجعلوا تلمسان عاصمة لملكهم . ثم استولى عليها الاسبانيون سنة ٩١٥ ، وطردهم منها أهل البلاد سنة ٩٢٢ بمساعدة القرصان الذين كانت مراكبهم تغدو وتروح فى البحر الابيض المتوسط متعقبة مراكب الاسبانيين ، موقعة بهم كلما عثرت على شئ منهم . وكان رئيس القرصان يسمى بار باروس وكان على جانب عظيم

من الشجاعة ، فظهر أمره وهابته دول الفرنجة ، ومازال حتى مات سنة ٩١٩ وتولى عمله أخوه خير الدين باربار وس . وكانت مدينة الجزائر فى يد الافرنج مع بعض السواحل الغربية ، فثار بهم خير الدين وأجلاهم عنها ، وصارت له الكلمة فى كل بلاد الجزائر . وكثرت فتوحاته واتسع ملكه الى داخل افريقية .

وفى هذا الوقت كانت الدولة العثمانية قد استولت على الشام ومصر وبلاد الحرمين . فبادر خير الدين وأرسل بالهدايا الفاخرة مع مفاتيح البلاد الى السلطان سليم ، فاقره عليها . ومن ذلك العهد أخذت تزداد مكانته ويعظم سلطانه . وسافر خير الدين الى الاستانة فى مدة السلطان سليمان ، فاكرمه كل الاكرام وأنعم عليه بلقب باشا . وفى مدة اقامته بها قام شارلكان ملك فرنسا بجيش عظيم ومعه كثير من أهل أسبانيا وهجم على بلاد الجزائر . فقابلهم حسن أغا نائب خير الدين على البلاد بجأش رابط ، وحاربهم وهزمهم شر هزيمة . فنزلوا الى البحر منهزمين الى بلادهم بعد أن غرق أغلب سفنهم . وفى تلك الاثناء صدرت الارادة السنية بتعيين خير الدين باشا رئيسا للبحرية العثمانية . ومن ثم أخذت الدولة العلية تعين ولاتها على الجزائر . ومازالت فى يدها حتى استولى عليها الفرنساويون سنة ١٢٤٧ هـ (سنة ١٨٣١ م) وهى فى أيديهم الى الآن .

— تونس —

هذه الولاية كانت قديما فى يد البربر واستولى عليها الفنيقيون وأسسوا فيها مدينة قرطاجنّه فى القرن التاسع ق م ، ولا تزال تشاهد آثارها قرب مدينة تونس . وكانت لهم بها دولة راقية استمرت الى منتصف القرن الثامن ق م . ثم استولى عليها الرومانيون الى أن فتحها العرب سنة ٢٧ هـ . وكانت هذه البلاد أولا فى أدارتها تابعة لولاية مصر ، حتى قامت بها دولة بنى الاغلب فى سنة ١٨٤ هـ ، فاستقلوا بها واستمرت فى يدهم الى سنة ٢٩٦ هـ . وفيها قامت دولة العبيدين (العلويين) ، ومازالوا بها حتى استولوا على مصر سنة ٣٥٥ فى مدة المعزّ لدين الله . وسار المعز اليها سنة ٣٦١ وجعلها مقرّه ، ونزل بالقاهرة التى اختطها جوهر سنة

٣٥٨ ، وجعل على افريقية يوسف بلكين بن زيرى الصنهاجي . واستمرت في يد الصنهاجيين الى سنة ٥٤٢ . وفيها استولى ملك صقلية على أغلب ثغور تونس . فسار اليها الامير يوسف ابن عبد المؤمن صاحب مراكش بجيوش الموحدين ، فطردهم منها واستولى على تونس في سنة ٥٥٥ . ومازالت في يد خلفائه الى سنة ٦٠٣ . وفيها قامت بها دولة الحفصيين ومازالوا عليها الى سنة ٩٨٢ هـ . وفيها استولت عليها أساطيل الدولة العلية ومازالت تولى عليها ولاتها باسم دايات (مفرده داى) حتى صارت الولاية لمولاى حسن ابن على باشا رأس الدولة الحسينية الحالية سنة ١١١٧ . ومازالت في بنيه حتى تولى عليها منهم الباى محمد الصادق باشا سنة ١٢٧٦ . وفي مدته أخذت فرنسا تعمل لضم بلاده الى حكومة الجزائر واستعملت لهذا الغرض وزيره مصطفى بن اسماعيل ، وكانت أملته ان هو سعى جهده في وضع تونس تحت الحماية الفرنساوية اقامته بايا عليها . فأخذ هذا الدنىء في خلق القلاقل وبذر بذور الفتن في البلاد . ومازال يخيف الصادق من الدولة العلية من جهة ، ومن أهل البلاد من اخرى ، حتى طلب حماية فرنسا وعملت بينه وبينها معاهدة باردو وأمضاها في ١٢ مايو سنة ١٨٨١ . وفي ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٨٢ مات محمد الصادق وتعين مكانه ولى عهده مولانا على باى الموجود الآن على منصتها ، ساعده الله على ما فيه خير بلاده وصلاحها .

— مراكش —

مراكش يسمونها بالمغرب الاقصى ، وأهلها من قبائل صنهاجة والبربر . استولى عليها الرومانيون سنة ٥٣٤ م ، وكمل فتحها للمسلمين سنة ٨٨ هـ ، وتم اسلام البربر سنة ١٠٠ هـ . وفي سنة ١٧٢ وصل الى هذه البلاد ادريس بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على كرم الله وجهه فارا من وجه العباسيين . فالتف عليه أهل المغرب من البربر وقاموا بالدعوة له وجعل مقره مدينة وليلى . ولما تمكن بها قدمه كوّن فيها دولة الادارسة ، وما زال الملك في بنيه الى سنة ٣٧٥ . وبعدها دخل المغرب الاقصى في حكم العبيديين الى ان

قامت به دولة المُلَثّمين أو المرابطين من صنهاجه سنة ٤٦٢ على يد يوسف بن تاشفين . ولما اتسع ملكه وعظمت شوكته اشترى مكان مدينة مراكش وبناها قاعدة له . وبنى فيها القصور الرفيعة والدور الواسعة وجعلها مقر سلطانه . وبعد أن مكن دعائم سلطنته فى المغرب، زحف الى الاندلس بدعوة من أهلها . ووقعت بينه وبين الفونس السادس (الاذفونش) ملك قشتاله حرب نصر الله فيها ابن تاشفين فى واقعة الزلاقة، وهى أكبر واقعة حصلت فى الاندلس ، واستولى بعدها على غرناطة ، ثم تغلب على ملوك الطوائف، وصار له ملك الاندلس والمغرب جميعا الى أن توفى سنة ٥٠٠ ، وتولى بعده بنوه بالاندلس الى سنة ٥٤٢ .

وكانت قامت بالمغرب الاقصى فى سنة ٥١٤ دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت الملقب بالمهدى . وبعد موته فى سنة ٥٢٤ ، خلفه بعهد منه وزيره عبد المؤمن بن على . ولما ظهر أمره وتمكن سلطانه سير جنوده الى الاندلس ، فاستولى عليها تماما فى سنة ٥٤٥ . وهو الذى بنى مدينة جبل طارق سنة ٥٥٥ ، ثم تقدم بجيوشه فافتتح الجزائر وتونس والمهدية ، ومازال يتسع سلطانه حتى مات سنة ٥٥٨ ، واستمر خلفاؤه الى سنة ٦٧٤ . ثم تولى المغرب الاقصى دولة بنى مُرين الى سنة ٨٩٠ . ثم دولة بنى طاوس الى سنة ٩٦١ . ثم دولة الاشراف السعديين الى سنة ١٠٦٩ . ثم دولة الاشراف السجلماسيين وهم الحاكمون الى الآن .

وقد كانت البلاد على تمام الاستقلال فى مدتهم حتى كان ما كان من تداخل الاجانب فى بلادهم ، وكثرة الثورات الاهلية بها ، ثم عقد مؤتمر الجزيرة ، وعزل السلطان مولاى عبد العزيز ، وتعيين مولاى السلطان عبد الحفيظ ، ثم ظهور فرنسا بالكلمة فى بلاده بمظاهرة الانكليز لها ، ووقوف ألمانيا فى طريقها للحصول على نصيبها هى الاخرى من هذه الغنيمة التى لم يذق حرارتها غير الفرنساويين . والدولتان لا تزالان الى يوم كتابتنا هذه الكلمات بين وعد ووعيد وصلح وتهديد وتراخ وتشديد وتقريب وتبعيد . وعلى كل حال فقد قضى على استقلال هذه البلاد الاسلامية التى بقيت حافظة له مدة ثلاثة عشر قرنا ، وهى آخر الدول العربية والله يرث الارض ومن عليها ، يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء .

صفة جزيرة العرب

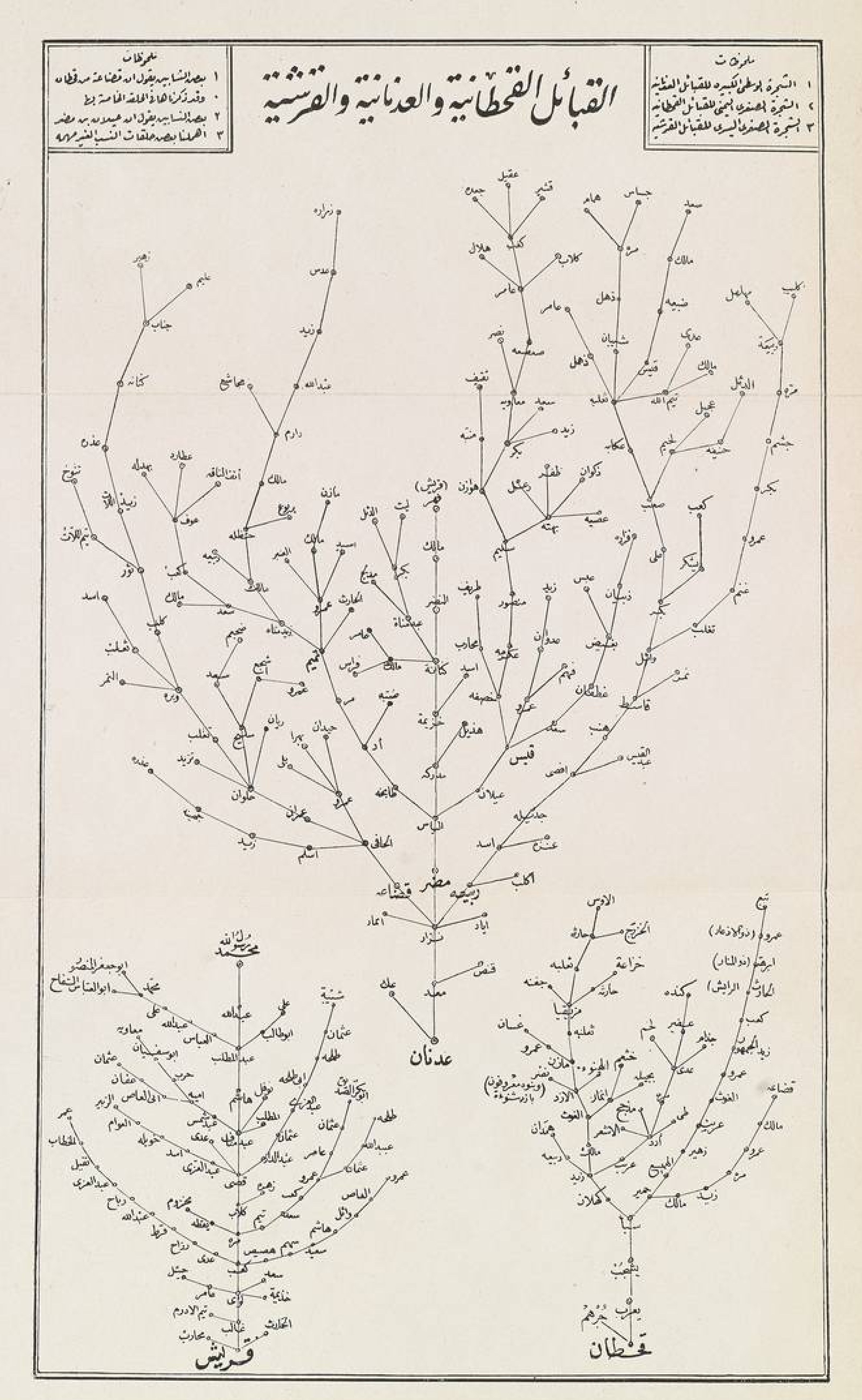
بلاد العرب يحدها شمالا بادية الشام الكبرى، وشرقا البحر الاحمر، وغربا بادية العراق وخليج فارس و بحر عمان، وجنوبا المحيط الهندى .

وأرض هذه البلاد فى الغالب رملية وخصوصاً فى وسطها فيما بين نجد وحضرموت والحجاز وعسير و بلاد عمان، حيث توجد الصحراء الكبرى التى يسمونها بالدهناء . وطولها اكثر من درجتين جغرافيتين وعرضها نحو درجة ونصف، وهى ما يسمونه بالربع الخالى: وهى قفر بلقع لا نبات فيها ولا ماء، اللهم الا بحار من تلك الرمال الناعمة التى تنقلها الرياح على الدوام من جهة الى أخرى، واذا صادفت حركتها مرور بعض القوافل التى تخاطر بنفسها فى السير على حافتها التهمتهم وأغرقتهم فى جوفها وقبرتهم فيه كأنهم ما كانوا . و يمتد من شمال هذه الصحراء لسان يسير بين بلاد الحسا والقصيم، ثم يميل نحو الغرب حتى يمر ببلاد الجوف و يتصل ببادية الشام التى يسمونها بالنفود الصغرى .

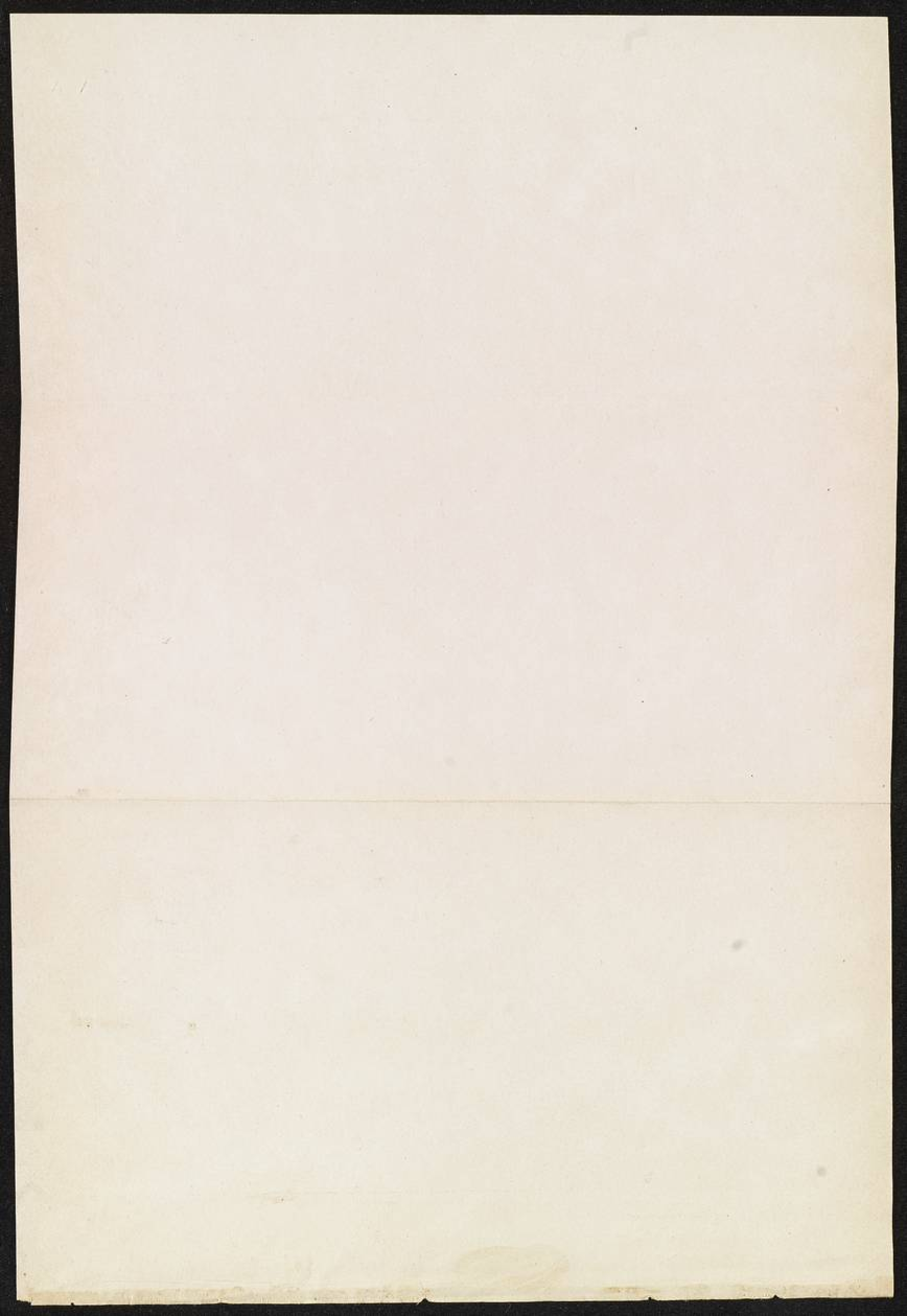
أما سواحل البلاد فهى عامرة بالسكان وفيها كثير من المزارع . و يقطع بلاد العرب من الشمال الى الجنوب جبال السروات، وفيها العيون والانهار والبساتين النضرة والمزارع الكثيرة . و فى سفوح جبال اليمن يزرع البن الذى هو أحسن أنواعه فى جميع العالم . وأشهر جبال الحجاز جبل الهدى وكرا بالطائف، وأشهر جبال معان الجبل الاخضر، و فى نجد جبل العارض وجبل طويق، و فى شمّر جبل سلمى: وكل هذه الجبال عامرة بالسكان كثيرة الخير والبركة .

وتنقسم بلاد العرب الى ستة أقسام : الحجاز . اليمن و يتبعها عسير . حضرموت . عمان . البحرين . نجد و يتبعها الحسا .

أما الحجاز فهو اقليم مستطيل يحده غربا البحر الاحمر ، وشرقا البادية الكبرى، وجنوبا بلاد عسير . وشمالا بادية الشام، وطوله من الشمال الى الجنوب يبلغ ١٥٠٠ كيلومتر، وعرضه من الغرب الى الشرق يبلغ ثلثمائة كيلومتر . و يقطعه من الشمال الى الجنوب جبال السراة و يبلغ



BOEHME & ANDERER, CAIRO.



ارتفاع بعضها ٨٠٠٠ قدما . وفيها مياه كثيرة وغابات وبساتين وقرى آهلة بالسكان من الاعراب . ومنحدرات هذه الجبال يتصل بها سهل الى البحر يسمونه تهامة، وأرضه رملية وبعضها صالح للزراعة، ويزرع فيها الحبوب وغيرها من الخضر .

وبلاد الحجاز ولاية عثمانية منذ سنة ٩٢٢ هجرية . وكانت قبل الاسلام تتبع فى الغالب لحكومة مكة لاسيما بعد ظهور قريش ، وكانت تتداولها بعده ولاة مكة والمدينة الى أن دخلت البلاد فى يد الدولة العلية : فصارت تعين الولاة من قبلها، وتكون أمور البلاد المالية والادارية فى أيديهم، وتعين على أمارة مكة اميرا من الاشراف لينظر فى أمور العرب . وكان مركز الوالى أولا جدة فانتقل الى مكة سنة ١٢٨٧ . وللولاية مجلس ينظر فى أمورها الهامه : يتركب من قاضى مكة، والدفتردار، ومدير الحرم، والمكتوبجى (كاتب أسرار الولاية) ، ومن نقيب الاشراف، ونائب الحرم، وصاحب سدانة البيت المعظم، ومفتى الحنفية، وقائمقام الشريف فى مكة ، ومدير الصحة، ونقيب السادة الحسينية . ويوجد بمكة ديوان تميز أى محكمة نظامية تنظر فى الدعاوى المدنية والجنائية فى الدرجة الابتدائية، وأحكامها تستأنف فى محاكم الاستانة . وتتركب هذه المحكمة من نائب الشرع الشريف، وثلاثة أعضاء منتخبين من أهالى مكة، وقائمقام الشريف . وقاضى مكة يعين من قبل الدولة لسنة واحدة قمرية ، أما نائب الشرع فيعين لسنتين . ولهذه الولاية نواح وأخطاط يسمى متوليها مدير ناحية ، وحاكمها يلقب بقائمقام : ومنها الطائف، ورابغ . ولكل قائمقامية مجلس يتركب من القائمقام ومن نائب الشرع الشريف ومأمور المالية (ويسمونه مال مديرى) ومن بعض الاهالى الذين ينتخبهم شريف مكة . وايرادات الولاية تنحصر فى رسوم المحاكم النظامية وبيع ورق البول (وهى أوراق مثل طوابع البريد تلصق على الاوراق الرسمية بدل التمغة فى مصر) .

أما القبائل فلهم مجالس عرفية تنظر فى أمورهم ابتدائية واستئنافية، وتتألف من القاضى وبعض الشيوخ ورؤساء القبائل مع من يختاره الطرفان الاشتراك معهم فى الحكم .

ولاصحاب القضايا حق رفض أحكام هذه المجالس واستئنافها عند الشريف ، وهواما يؤيد أحكامها أو يعدلها ويكون حكمه نافذ المفعول ، ولهم الحق أيضاً فى انابة من يدافع عنهم امام هذه المحاكم .

وأهل الحجاز يقدرون باثنين مليون ونصف من النفوس ، وكلهم الا أهل مكة وجدة بدو يعيشون من ماشيتهم فى الجبال ، اما أهل السواحل فهم يعيشون من صيدهم وزوارقهم . وهم فى الغالب شوافع المذهب .

— اليمن —

اليمن ولاية عثمانيـة واقعة فى الجنوب الغربى من جزيرة العرب ، وطوله من الشمال الى الجنوب نحو ٧٥٥ كيلومتر ، ومن الغرب الى الشرق نحو ٤٠٠ كيلومتر . ويقدرون أهله باربعة مليون من النفوس ، كلهم مسلمون على مذهب الزيدية الا القليل فهم من اليهود ، أما أهل عسير فهم وهابيون . وأرض اليمن تنقسم الى قسمين قسم السهول وتسمى تهامة وهى الى البحر ، وقسم الجبال وهى سلسلة من جبال السروات متصلة ببعضها من الشمال الى الجنوب ، وأعلاها جبل كوكبان ويبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٣٠٠٠ مترا ، وجميع هذه الجبال عامرة بالسكان وفيها عيون كثيرة تتكون منها أنهار تسير فى وديان خصبة : منها ما يسير الى الغرب وتصب فى البحر الاحمر وأكبرها وادى مشرف ، ووادى كانون جنوب القنفدة ، ووادى عاشور عند ثغر حلى ، ووادى السهام قرب الحديدة ، ووادى هندان الذى يمر بمدينة تعز ، والوادى الكبير قرب مُخا

أما الانهار التى تصب فى المحيط الهنـدى فهى وادى الميدان ويصب قرب ميناعدن ، ووادى داما ، ووادى الشارد اللذان يجريان قرب صنعاء وينحدران الى الصحراء أحدهما مار بخرائب مأرب والثانى بخرائب مَعين ، ثم وادى نجران ، ووادى بيشة وغيرها . وبعض هـذه الانهار تنعدم مياهه فى الصحراء ولا تصل الى البحر الا فى زمن شدة الامطار التى تكاد لا تنقطع فى هـذه البلاد مدة الشـتاء والربيعين ، وبعضها يسير الى جهة الشمال والشرق ولا تلبث ان تتلاشى فى جوف الرمال .

وقد عمل اليمنيون فى جميع الازمان لهذه الانهار وفروعها سدوداً كثيرة على حسب ما تسمح به نظاماتهم الزراعية، وكان أكبرها فى الزمن السابق سد مأرب الذى تقدم الكلام عليه: لهذا ترى ان هذا الاقليم زراعى، وكلما صعدت فيه الى أعالى الجبال وجدتها مكسوة ببساط أخضر مما يوجد عليها من المزروعات المختلفة، التى ترى الى جوارها غابات من الاشجار المثمرة أو غير المثمرة كالساج والعرعر وغيرهما.

وحاصلات اليمن الزراعية هى الدخن، ويزرعونه فى الجهات العالية وعليه مدار حياة الاهالى، والقمح، والشعير، والعدس، والسمسم، والذرة، والفول، والقطن، والنيلة، والتبغ، والخضر بجميع أنواعها، والفاكهة الكثيرة: ومنها الامبا (المانجو) واللوز والبرقوق ويسمونه بُخارى والتين الشوكى ويسمونه البرشومى أو الصابور، وأهم حاصلات اليمن البن.

وتنقسم اليمن فى ادارتها الى أربع لواءات: لواء صنعاء، ولواء تعز، ولواء الحُديدة، ولواء عسير. وفيها نحو ١٩٠٠ قرية.

وحيث انا تكلمنا على تاريخ الدول التى قامت فى هذه البلاد قبل الاسلام، فيجدر بنا ان نقول كلمة على الدول التى قامت بها بعده فنقول:

لما أسلمت اليمن فى السنة العاشرة من الهجرة وسار بذلك وفدهم الى المدينة: ولى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ ابن جبل. وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم صارت اليمن تابعة للخلافة الاسلامية الى سنة ٢٠٤. وفيها أعلن محمد بن زياد عامل العباسيين عليها استقلاله، وسميت دولته بالدولة الزيادية وكان مركزها زبيد. واستمر حكم بنيه عليها الى سنة ٤٠٩. وفى أثناء ذلك قامت دولة اليعافرة فى صنعاء من سنة ٢٤٧ الى سنة ٣٨٧. ثم قامت الدولة النجاحية فى زبيد من سنة ٤١٢ الى سنة ٥٥٣. ثم الدولة الصليحية فى صنعاء من سنة ٤٢٩ الى سنة ٤٩٢. وكانت قامت فى صعدة الدولة الرّسية فى سنة ٢٤٦، واستمرت الى سنة ٦٨٠ وكان أمراؤها من الزيدية، وينسبون الى الهادى يحيى حفيد قاسم الرسىّ أحد غلاة الشيعة فى زمن المأمون. ثم قامت فى عدن الدولة الزريعية من سنة ٤٧٦ الى سنة ٥٦٩. وفى هذه السنة دخلت اليمن برمتها فى حكم الايوبيين الى سنة ٦٢٥، وفيها

قامت الدولة الرسولية الى سنة ٨٥٠. وفيها قامت الدولة الطاهرية الى سنة ٩٠٦، وفيها استولى عليها قانصوه الغورى . ومازالت تابعة لحكم المماليك حتى دخلت فى حكم العثمانيين فى عهد السلطان سليمان القانونى حوالى سنة ٩٥٠ . ولكنها انسحبت منها سنة ١٠٤٣ لكثرة الثورات الداخلية التى كانت تقوم بها . فعادت حكومتها الى الائمة، وكانوا نقلوا مركزهم الى صنعاء. وحوالى سنة ١٢٦٠ﻫ زحف الامام محمد ابن يحيي على تهامة (اليمن) وكانت فى سلطة شريف مكة واستولى عليها، ودخلت زبيد والحديدة فى سلطته . فانتهز الباب العالى هذه الفرصة وبعث حملة تحت قيادة توفيق باشا الى اليمن، فتخلى الشريف له عنها، وتخابر توفيق باشا مع الامام واتفقا على صلح فحواه: اعتراف الامام بسيادة الدولة، وأن يرتب له ٣٧ ألف ريال شهريا يأخذها من ايرادات اليمن والباقى يقسم مناصفة بينه وبين الدولة، وأن تقام فى صنعاء قوة عثمانية مركبة من ألف جندى . فلما علم اليمنيون بذلك ثاروا وقتلوا الحامية العثمانية، وانسحب توفيق باشا مجروحا الى الحديدة ومات فيها من جراحه . وبقيت سلطة العثمانيين فى هذه البلاد على الساحل الغربى لليمن أكثر من عشرين سنة . وبعدها جردت الدولة حملة على صنعاء مدة السلطان عبد الحميد المخلوع فاحتلتها، وحجزت الامام فى صنعاء ورتبت له مرتبات شهرية ومازال بها حتى مات، وتولى بعده رجل من أقاربه اسمه السيد حميد الدين ثم تولى بعده ولده الامام يحيي الحالى، وفى مدته كثرت المخاصمات بينه وبين الدولة وقامت من أجلها حروب كثيرة بين اليمنيين والجند العثمانى كانت صنعاء تقع أثناءها فى يد هؤلاء تارة، وفى يد أولئك أخرى .

وبعد الدستور العثمانى قامت فتنتان باليمن: واحدة بزعامة الامام يحيي، وأخرى بعسير بزعامة الادريسى . فارسلت الجنود العثمانية تلو الجنود الى اليمن لمحاربة الامام، والى العسير لمحاربة الادريسى . فسارت فرقة اليمن من الحديدة الى صنعاء التى استولت عليها بعد وقائع شديدة . واستعصم الامام برجاله فى الجبال وأقام فى مدينة شهارة، ومن ثم لم يصل الينا شىء من اخبار اليمن يعول عليه، اللهم الا ما ورد فى التلغرافات العمومية من أن الدولة فوضت لقائد الحملة

اليمنية المخابرة مع الامام فى الصلح ولم يعلم شىء مما آل اليه أمر ذلك الى الآن . اللهم الا ما ورد فى تلغرافات رويتر بتاريخ ١٦ شوال سنة ١٣٢٩ من ان الامام عرض على الدولة العلية بمناسبة حربها مع الطليان لاعتدائهم على طرابلس ، مساعدته لها بمائة ألف مقاتل من اليمن : وهو أكبر دليل على انضمام أطراف الدولة الى جسمها فى الشدائد التى يجب ان تنسى معها الاختلافات التى أوجدتها بعض الظروف بحق أو بغير حق ، و يد الله مع الجماعة .

أما فتنة عسير فقد سار اليها الشريف حسين باشا من مكة فى أوائل ربيع الثانى سنة ١٣٢٩ ، بعد أن استنفر معه قبائل عرب الحجاز . ولما وصل الى قنفذه أتته رؤوس قبائل عسير وقدمت له الطاعة فأمنهم ، الا قبيلة خرشان فانها أبت ان تذعن لامره . فأرسل الامير اليهم ينذرهم بسوء العاقبة ان هم أصروا على عنادهم وعصيانهم ، فلم يسمعوا له . فجهز عليهم جيشاً بقيادة ولده الشريف عبد الله بك ، فهزمهم بعد قتال شديد وأسر كثيراً من وجوههم ، وكان ذلك فى ١٩ جمادى الاولى من السنة المذكورة . ثم سار الشريف مع عسكر الدولة فدخل مدينة أبها عاصمة عسير يوم ١٩ رجب ، ومعه نشأت باشا قائد الجنود العثمانية بعسير ، و بعد أن أقام بها خمسة عشر يوما رتب فيها أمورها و وكد نظاماتها ، بارحها عائدا الى مصيفه بالطائف على طريق غامد . ولكن بعد سفره وردت أخبار بمحاصرة العرب لها من جديد . ثم أعقبتها أخبار بعرض الادريسى للدولة مساعدته فى حربها مع الطليان ، والله يلهم ولاة أمور المسلمين ما فيه مصلحتهم و به تكون حياتهم .

وأكبر ثغور الدولة باليمن الحديدة وسكانها ٤٠ ألفا من أجناس مختلفة منهم الحبشى والسومالى والهندى والجاوى والفرسى والسودانى . وهواؤها ردىء لكثرة رطوبتها وحمياتها . والطريق منها الى صنعاء بين جبال عالية يصعب السير فيها جدا ، وأشهر البلاد التى فى هذا الطريق مناخة وتبعد بمسافة ١٥٠ كيلومترا عن الحديدة ، و بمسافة ١٠٠ كيلو متر عن صنعاء التى بها مركز الولاية والتى ترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٥٠٠ متر . وعدد أهالى صنعاء ٢٥ ألفا منهم ٢٠ من العرب و٣ من الاتراك وألفان من الهنود ، وجو هذه المدينة حار ومطرها كثير .

وأهم موانى بلاد اليمن عدن وهى فى يد الانكليز من سنة ١٨٣٩ م . وهى الآن مركز تجارى مهم جداً بين الشرق والغرب . وموقعها الطبيعى من أمنع بلاد الدنيا : لانها فى وسط جزيرة صخرية تتصل بالقارة بلسان من الرمل . وقد حصنها الانكليز بما لا يقل عن تحصين جبل طارق ، وبذلك كانت لهم الكلمة النافذة فى البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر . وميناء عدن تبعد عن مدينتها قليلا ، وهى من الاهمية بحيث تراها على الدوام غاصة بأساطيل الانكليز وبكثير من المراكب التجارية وخصوصا التى تسير بينها وبين البصرة أو بينها وبين بومباى ويقدرون عدد السفن التى رست بمينائها فى سنة ١٩٠٨ م بنحو ١٨٠٠ سفينة ، وبلغت وارداتها فى السنة المذكورة سبعة ملايين وسبعمائة ألف ليره . ومدينة عدن مشهورة بصهاريجها القديمة المنحوتة فى الصخور والتى تملؤها مياه الامطار . ويبلغ عدد سكانها الآن ٥٠ ألف نفس ، وكانوا عند استيلاء الانكليز عليها لا يزيدون عن عشر هذا العدد . وأغلب سكانها من الهنود والسوماليين والاحباش واليهود وقليل من العرب . وعلى مقتضى المعاهدة التى عملت بين الباب العالى وحكومة الانكليز سنة ١٩٠٤ ، جعلت أملاك الانكليز فى جنوب بلاد العرب ممتدة من بوغاز باب المندب الى نهر باناشرقا : وهو ما لا يقل عن مائتين وعشرين كيلومترا طولا على ساحل المحيط الهندى ، وخمسين كيلومترا فى داخل البلاد . ومما يدخل فى سلطة الانكليز فى جنوب بلاد العرب واحة الشيخ عثمان المشهوره بسلطنة لحج (ومركز سلطانها الحوطه) ، ثم جزيرة بريم الواقعة فى مدخل بوغاز باب المندب ومساحتها ٨٠ ميلا مربعا وهى مركز تجارى مهم ، ثم جزائر كوريامورياعلى ساحل حضرموت .

وكل هذه الجهات تابعة ادارتها لحكومة عدن التى هى تابعة لامبراطورية الهند . وللانكليز عدا ذلك شبه سيادة على الحكومات الصغيرة التى فى سواحل حضرموت ، لانها تعطى ملوكهم مرتبات بدعوى عدم تنازلهم للممالك الاخرى عن شئ من أملاكهم : وأهمها سلطنة المكلّه ، وسلطنة مهْره ، والشِّحر ، وتُريم .

وهذه البلاد على الساحل الجنوبى لحضرموت الا تريم فانها تبعد عنه بنحو ٢٠ كيلومترا

واهلها يتكلمون بلغة يسمونها بالعُقَيْلِيّة ، وهي غير العربية ولعلها مستمدة من لغة البلاد الاصلية التي يسمونها بالمسند وهي لغة حمير .

— عمان —

حكومة عمان وتسمى امامة مسقط واقعة في الزاوية الجنوبية الشرقية من بلاد العرب . وكل ساحل عمان عامر بالبلاد والسكان ، وطوله من ثغر مربط الى بحيث جزيرة القطر نحو ٢٢٠٠ كيلومتر . وعرضه في داخل البلاد الى الغرب نحو ٣٠٠ كيلومتر ، وعاصمتها مسقط . وتنقسم البلاد الى البطنة (تهامة) ولا تمتد اكثر من ٤٠ كيلومترا أغلبها مغطى بالنخيل المشهور بجودة ثمره ، ثم الى قسم الجبال وأكبرها الجبل الاخضر وارتفاعه نحو ٣٠٠٠ متر ، وفيه كثير من الغابات والاحراش . ويوجد بين هذه الجبال وديان كثيرة خصبة تسقى بواسطة مجاري ماء لها خزانات وسدود ، كما كان شأنها في هذه البلاد من قديم الزمان . وأهم حاصلات عمان التمر والحنطة والذرة والشعير والبرسيم والنيلة والخضر وكثير من انواع الفاكهة لا سيما الجوز الهندي والمانجو ، ومن محاصلها خشب الند والصندل والصمغ العربي والصبر والتنباك . وفي جبال هذا الاقليم كثير من المعادن وبالاخص الحديد والرصاص والنحاس والكبريت والملح الجبلي . وعلى سواحلها مغاصات كثيرة للؤلؤ وأشهرها في مدن صحار ، ودمار ، ومسقط . وأهل السواحل يشتغلون بصيد السمك ويصدرون منه كميات كبيرة الى بلاد العجم وغيرها ، ويجففون منه كميات كثيرة ، وما يبقى من التصدير يغذون منه البقر ويسمدون به الارض . وهذه البلاد مشهورة بخيلها وبقرها وغنمها ، وجوها حار كثير الجفاف .

وعدد أهالي حكومة عمان يبلغ مليونا وستمائة ألف شخص . ومساحتها لا تقل عن ثمانين ألف ميل مربع ، وعاصمتها مسقط أو مسكت وسكانها ٢٥ ألف نفس ، وبينها وبين مكة أكثر من ألفين كيلومترا . ولها ميناء صغيرة ترسو السفن فيها . وتنقسم سكانها الى قسمين : البدو أو سكان الخيام وهم قوم رُحّل وراء المرعى وفي الغالب من العرب العدنانية ، ثم المتحضرون ويقال لهم العُمّانيون وهم خليط من الهنود والعجم والبلوچستان والعرب والزنوج .

وأهل عمان على مذهب الاباضية المنسوب الى عبد الله بن أباض المرّى (من المرّية من أعمال طرابلس الغرب) الذى استولى على افريقية الشمالية سنة ١٥٢ هـ وادعى فيها الخلافة .

وكانت عمان تابعة لحكم التبابعة ، وأسلمت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت الخوارج تلجأ اليها هربا من خلفاء بنى أمية والعباسيين ، لبعدها عن العمران الاسلامى . وكان تجارها ينتقلون فى جزر المحيط الهندى مثل جاوة وسومطرة وغيرها من سواحل افريقيا الشرقية . ومن كثرة احتكاكهم باهالى تلك البلاد اذاعوا فيهم دين المسلمين وقبحوا لهم الوثنية ففشا فيهم الاسلام . وكثر توارد العرب الى تلك الجهات وتقربوا من أهلها بالمصاهرة وما زالوا حتى أصبحت لهم الكلمة فيهم والسيادة عليهم .

وفى سنة ١٥٠٨ م استولى البورتغاليون على سواحل عمان واتخذوا مسقط قاعدة لغاراتهم البحرية ، ووجهوا اعتناءهم لتحصينها . ولما استولى الشاه عباس على جزيرة هرمز سنة ١٦٢٢ ، لجأ أهلها الى مسقط فازدادت بهم أهميتها . وفى سنة ١٦٥٨ ثار أهالى مسقط على البورتغاليين وطردوهم من أرضهم . وبعد مدة استولى الهولانديون على مسقط فطردهم أهلها . ثم اتى الايرانيون بقصد فتح بلادهم فاستصرخ العمانيون باحمد بن سعيد حاكم الشحر ، فحضر وساعدهم على طردهم ، فبايعوه ونادوا به سلطانا عليهم فى سنة ١١٦٧ هـ . وامتد حكم ابن سعيد شمالا الى جزيرة القطر وجزائر البحرين ، وجنوبا الى حضرموت وظفار ، ثم توفى سنة ١١٨٨ هـ ، وتولى مكانه ابنه عبد الصمد . ولما مات تولى بعده ابنه سلطان بن عبد الصمد . ولما مات تولى عمه سعيد بن أحمد بن سعيد . فادرك أهمية مركز بلاده الجغرافى وعرف أن مستقبلها مرتبط بالقوة البحرية . فانشأ اسطولا مركبا من ثلاثين سفينة حربية ، وسلحها بالمدافع واستولى بقوته على جزيرة هرمز فى الخليج العجمى ، ثم استولى على جزيرة سوقطرة وجزيرة زنجبار ، ثم وضع يده على سواحل زنجبار وراس غاردافوى : وبذلك أصبح له السلطان المطلق فى خليج العجم والبحر الهندى . وأنشأ طرقا كثيرة فى بلاده التى أصبحت محط الرحال التجار من الهند وفارس وشرق افريقيا ومصر . وكان الوهابيون قبل هذا الزمن قد أغاروا على عمان ووضعوا خراجا

سنويا على صاحبها، ولكن السلطان سعيدا امتنع من أدائه اليهم . فاغاروا عليه وأحرقوا كثيرا من بلاده ولم ينقذه منهم الا تحولهم عنه الى حرب ابراهيم بن محمد على باشا الذى قضى عليهم القضاء المبرم . بعد ذلك مال سعيد الى الراحة، فباع اسطوله وقسم مملكته بين أولاده الثلاثة: فجعل زنجبار وما يليها من سواحل افريقيا وجزيرة سوقطرة الى ولده ماجد، وجعل القسم الشمالى من مملكته وهو جزائر خليج البصرة وما يليه من الساحل الغربى لابنه الاكبر التوينى ، وجعل القسم الجنوبى الى ابنه تركى .

ولما توفى سعيد طلب التوينى من أخيه ماجد أن يؤدى اليه خراجا سنويا فلم يقبل . فقامت بينهما الحرب مدة سنتين حتى تداخل الانكليز وأصلحوا بينهما على أن يستقل ماجد بزنجبار ، وأن يؤدى فى نظير ذلك الى أخيه التوينى كل سنة أربعين ألف ريال .

ثم نازع التوينى أخاه تركيا فى نصيبه فنقم الناس عليه وانفضوا من حوله وبايعوا أخاه تركيا، وساعده الانكليز على دخوله مسقط . فهرب التوينى الى فيصل الوهابى، فارسل معه جيشاً بقيادة ابنه عبد الله واستولى على بلاد عمان وسلمها الى التوينى، وانفرد بالحكم فيها حتى توفى سنة ١٢٨٥ هـ . وخلفه ابنه سالم فقبض على عمه تركى وسجنه ، ثم أخلى سبيله بمداخلة الانكليز فسافر الى بومباى . أما سالم فانه ثار عليه فى السنة الثالثة من حكمه رجل من قرابته اسمه عزان، ونزع منه الملك . فبلغ ذلك تركيا وهو فى بومباى فاسرع الى بلاده وقتل عزان واستولى على عمان سنة ١٢٨٧ . وكان أخوه ماجد قد مات فى زنجبار، فعين أخاه برغشا سلطانا عليها .

ومن ثم بقيت حكومة عمان على غاية الصفاء مع الانكليز . ومن سنة ١٧٩٨م الى الآن عقدت بين الحكومتين جملة معاهدات تضمن بها للسلطان مرتباً شهريا من خزينة الهند وتكفل له استقلاله وحفظ الامن فى داخلية بلاده، وذلك كله فى نظير عدم تنازله عن شئ من بلاده الى حكومة أخرى .

ومن هذا الوقت أخذت يد الانكليز تمتد الى أطراف هذه المملكة واحدا بعد الآخر: فاستولت على جزائر كوريامورياسنة ١٨٥٤م ، وعلى جزائر خشم الواقعة فى مضيق هرمز

سنة ١٨٧٦، و فى هذه السنة نفسها أعلنت حمايتها على جزيرة سوقطرة . وكان سلطان زنجبار تنازل سنة ١٨٩٠ لالمانيا عن قسم من بلاده يبتدئ من مصب نهر روفوماجنوبا وينتهى الى ونغاشيالا فى مقابل ٤ ملايين مارك . فبادرت انكلترا فوضعت يدها على ما بقى لسلطنة زنجبار من السواحل، ثم أعلنت حمايتها على جزيرة زنجبار نفسها ، وبعدها عقدت معاهدة مع ايطاليا استولت هذه بموجبها على قسم مما يلى بلاد السومال .

— جزائر البحرين —

أهم هذه الجزائر جزيرة عوال ، وفيها نحو ستين قرية صغيرة وعاصمتها مدينة منامه وسكانها نحو ٢٥ ألف نفس، والى جوارها جزيرة اراد . وأصل سكان هذه الجزيرة من عمالقة طسم وجديس ، ثم استولى عليها الفرس ، وصارت تابعة لحكم المناذرة ملوك الحيرة ، ثم دخلت فى سلطة المسلمين فى السنة السادسة للهجرة مدة حكم العلاء الحضرمى على إقليم البحرين . ثم استولى عليهما البورتغاليون ثم الايرانيون ثم امام مسقط ثم الدولة العثمانية، و ينازعها فيها الان الدولة الانجليزية و يصوّرها كل منهما بلون بلاده على الخرائط الجغرافية . ويحكمها الان الشيخ عيسى بن على تحت حماية حكومة الهند . ومن أهم حاصلاتها اللؤلؤ، وقد بلغت صادراتها سنة ١٩١٠ مليونا ومائة وسبعين ألف ليرة انكليزية . و يقدر عدد سكان جزائر البحرين بمائة ألف نسمة .

— نجد —

نجد هى القسم الواسع الواقع فى وسط جزيرة العرب، و فى منتصف المسافة بين المدينة و بغداد . و يقسمونه الى قسمين: الشمالى وهو الحائل وما والاه و يسمونه نجد الحجاز، والثانى العارض ومايليه و يسمونه نجد اليمن . ومعنى نجد الشئ المرتفع، فهو مرتفع عن تهامة وهى الارض التى تلى البحر . و يرتفع سهل نجد عن سطح البحر نحو ١٢٠٠ متراً . و فى هذين القسمين جبال مشهورة بكثرة خيراتها، منها جبل سلمى، وجبل طويق، وجبل أجأ .

ويحيط بنجد من الشمال صحراء الشام ، ومن الغرب صحراء الحجاز، ومن الجنوب البادية الكبرى، ومن الشرق لسان من الدهناء، ولذلك كان الوصول اليها لا يخلو من المشقة .

— شمّر —

شمر واقعة فى منتصف المسافة بين مكة والبصرة وهى عبارة عن جبل شمر وجبل سلمى والاودية التى بينهما صالحة للزراعة، وفيها كثير من البساتين، ويقدرون مسطحها بأربعين كيلو متراً مربعاً . وهذه الجهة ادارتها فى يد آل الرشيد ومركزهم مدينة الحائل، وسكانها نحو عشرين ألف نفس . وفى جنوبها قصبة تسمى كفار، ويقدرون سكانها بثمانية آلاف نفس .

وفى شمر نحو أربعين قرية كبيرة تحيط بها غابات النخيل، وأغلب سكان شمر من ذوى الخيام ويقدرون بنحو أربعمائة ألف نفس، كلهم من أهل السماحة والنخوة . وأشهر حيوانات هذه الجهة الخيل ، وهى أجمل أنواعها فى الدنيا بأسرها، ويوجد عندهم الحمير والابل والبقر، وتكثر عندهم الاغنام ، ويوجد فى جبالهم النعام والبقر الوحشى والفهد والثعلب والذئب والغزال والارنب وغير ذلك . والى شرق شمر بميل الى الجنوب بلاد القصيم . وأغلب أرضه وديان خصبة تزرع فيها الحبوب على اختلاف أنواعها ، وكثير من أصناف الفاكهة كالعنب والرمان والزيتون والمشمش والبطيخ والقاوون، وفيه كثير من النخيل . وفى وسط أرضه أكمات تكثر فيها الغابات . ويقدرون عدد أهله بثلاثمائة ألف نفس ، كلهم يسكنون الخيام الا القليل منهم فانه يسكن القرى التى لا تزيد عن ثلاثين قرية، وأشهرها بريدة وعنيزة . وبلاد القصيم نصفها الشمالى تابع لامير شمر، والنصف الجنوبى تابع لامير الرياض .

— العارض —

هى جبال نجد اليمن، وهى المشهورة بنجد الان، واذا أطلق هذا اللفظ فلا ينصرف الا عليها . وعيون هذا الجبل غزيرة وأوديته كثيرة وفى غاية الخصوبة، وتكثر فيها المزارع والبساتين .

وهذه البلاد الان وما والاها من بلاد القصيم في حكم آل سعود، وعاصمتها الرياض، وهي من أهم مدن نجد. ويكثر في هذه البلاد النخيل والحيوانات الاهلية وأخصها الخيل والابل والغنم. وأغلب أهلها أهل بادية، ويقدر عددهم بنصف مليون نفس، وكلهم وهابيون.

وأمارتا الرياض والحائل تابعتان لمتصرفية نجد التي يدخل في دائرتها الحسا ومركزها مدينة الحسا. وكلها داخل في دائرة ولاية البصرة. ويشتغل أهل السواحل بالتجارة وصيد اللؤلؤ والاسماك ويجففونها ويصدرون منها الى الخارج كميات وافرة. وأعمر بلاد الحسا قضاء القطيف، ثم البلاد التي جنوبها الى شبه جزيرة القطر، وغالبها صحارى رملية وتكثر المزارع فيها الى جهة السواحل وفيها النخيل بكثرة. وبلاد الحسا مشهورة بالحُمُر الحساوية ويكثر في فيافيها السباع والنعام وحمر الوحش. ومن صناعة هذه البلاد العبي المشهورة وغير ذلك من المنسوجات وبعض الاعمال النحاسية. وهواء البلاد حار كثير الجفاف وصحي، الا في القطيف فانه رطب لكثرة المستنقعات التي حولها. وتنقسم هذه البلاد الى أربعة أقضية قضاء الحسا، وقضاء القطيف، وقضاء القطر، وقضاء الحفوف، وهو أكبرها وأوسعها. وعدد سكان الحسا يقدر بخمسة وثلاثين ألف نفس نصفهم أهل حضر والباقي بدو. ويوجد في الحسا مياه معدنية بكثرة، وأرض هذه البلاد تُسقى من الاحساء (مفرده حسا) وهي الجداول الطبيعية. وقد تجتمع جملة جداول وتصب في بركة تُكوّن خزانا مستديما لسقي الاراضي.

اخلاق العرب

العرب أخلاقهم في البادية واحدة في الغالب من قديم الزمان: فهم أهل صدق ووفاء وشهامة وشجاعة وكرم. شديدو الغيرة على نسائهم ولا قيمة للحياة في نظرهم الا مع العزة. يأنفون العار ويحفظون الجوار ويدافعون عمن دخل في وجههم (حمايتهم). واذا بغى بعضهم على شخص فقال لهم أنا في وجه فلان يعني رجلا من قبيلتهم ولو في غيبته رجعوا عنه واحترموا حماية صاحبهم. يعرفون المعروف لصاحبه ولا تأخذهم في الحق لومة لائم. وهم أبعد الناس عن

الرياء والنفاق وكلامهم كله صراحة وليست فيه من ألفاظ التفخيم وجمل التعظيم ما تضيع معه الحقيقة : فهم ينادون أمير مكة وهو فى منزلة الملك منهم بقولهم يا شريف كما كانوا ينادون الرسول بقولهم يا محمد . ضمائرهم تسيل على ألسنتهم وسلاحهم أقرب الاشياء الى يدهم . الربيع عندهم خير الايام واللحم سيد الطعام وهم أبعد الناس عن التأنق فى المأكل والملبس . يغير قويهم على ضعيفهم ويكثرون من غزو بعضهم البعض ولا يترك الرجل منهم ثأره مهما كان ضعيفا . واذا لم يتيسر له أن يحصل على حقوقه من غريمه شخصياً كان له فى عرفهم أن يغير على خميسه وهو أى شخص من قبيلته يتصل معه فى نسبه الى الجد الخامس . واذا قتل شخص آخر ولم يتمكن صاحب الدم أن يقتص من القاتل قتل به اباه أو خاله أو عمه أو أحد بنيهم وبه يسقط القصاص . وبعضهم يرضى بالدية فى قتيله وهى عندهم ثمانمائة ريال فى العبد وألف فى الحر وعشرة آلاف فى الرجل الشريف . واذا قُتل أحدهم أوقفوه فى قبره حتى يأخذوا بثأره وعندها يفتحون جدثه وينيمونه فى فراشه الاخير مرتاحا على زعمهم بما صنعوا . ومن عوائدهم الممادّة وهى أنه اذا قتل أحدهم يذهب أهل القاتل الى أهل المقتول ولا يشربون لهم قهوة ولا يأكلون طعاما . فاذا سئلوا عن حاجتهم سألوهم الممادة وهى تأجيل المطالبة بالقصاص شهراً أو شهرين فيقبلون منهم أجلهم فى الغالب : وعليه يكون القاتل فى أمن على نفسه طول هذه المدة التى يجتهدون أثناءها فى الاتفاق مع أهل المقتول على الصلح أو الدية . فاذا انقضت دون ان يتفقوا طالبوهم بالقصاص والا ثأروا لانفسهم بأى طريقة .

واذا أتهم شخص منهم وأنكر أتوا به الى المُلَحِّس هو رجل مخصوص عندهم فيأتى بحديدة محماة فى النار ويلحسه اياها . وهم يزعمون أنه اذا كان صادقا لا تضره والا فانها تحرق لسانه . وبعضهم يخط دائرة فى الارض يوقف فيها المتهم ويحلّفه ويعتقدون أنه اذا كان كاذبا لا يمكنه الخروج منها مطلقا . أما المتحضرون من العرب أو الذين لهم صلة بأهل الحضر كالجمالة والمقوّمين مثلاً فأخلاقهم أقرب الى أخلاق الحضر منها الى البداوة ، والطبقة السافلة منهم فى الغالب من أشر ما يوجد من نوع الانسان على الغريب . وربما كانت حاجتهم الى العيش هى التى ترمى بهم الى ائتلاف العيوب واقتراف الذنوب . وليست أخلاقهم مما يؤخذ على أخلاق العرب فى مجموعها : وأمثالهم فى جميع الامم كثيرون .

﴿ جدول بالقبائل الموجودة ببلاد العرب ومساكنها وعدد نفوسها ﴾

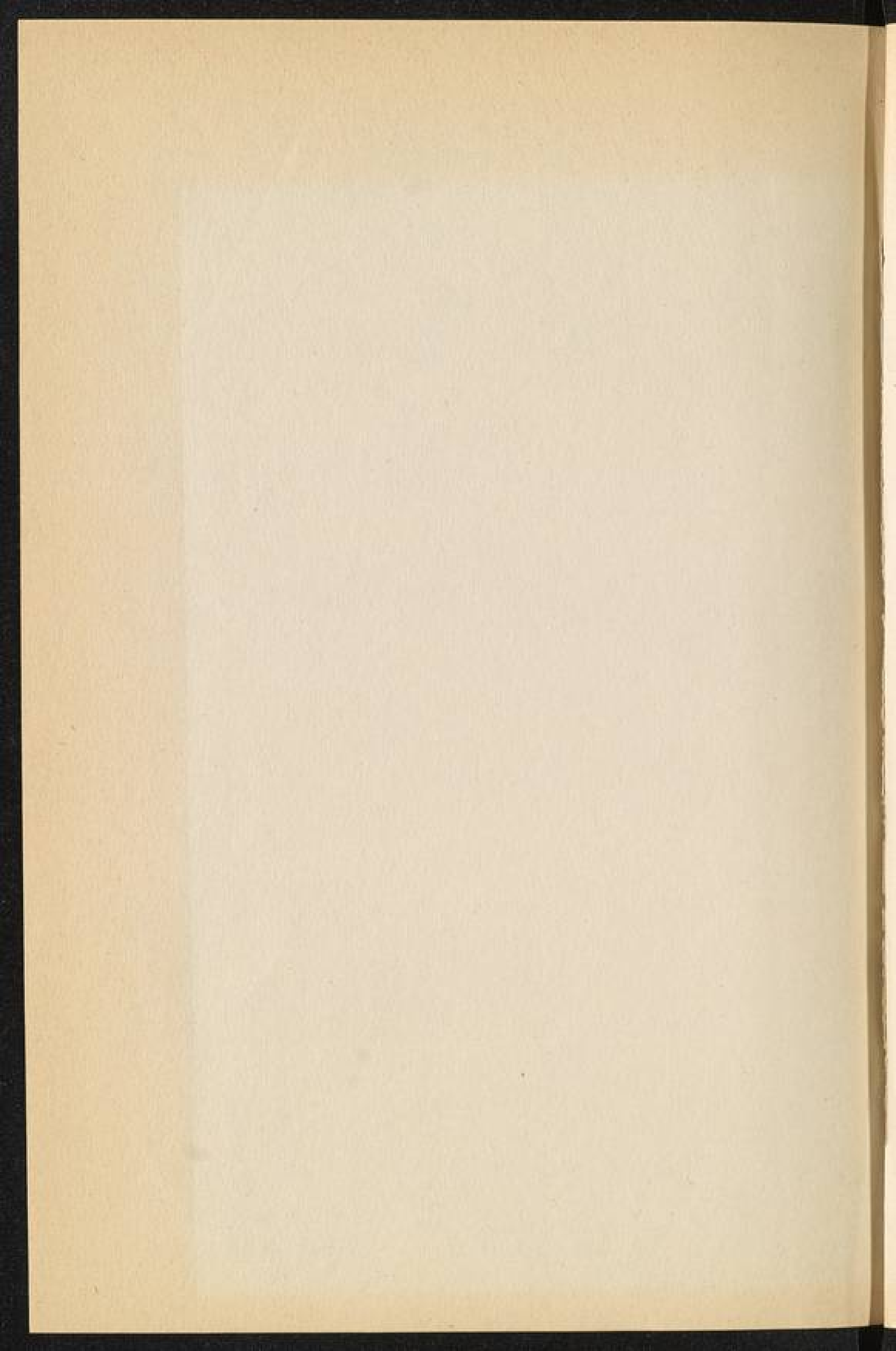
إسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
	﴿قبائل الحجاز﴾		
عزه	الحسنة ، حلاس ، (ومنهم الرُوَله والمخلف) وبشير (ومنهم ماجد وسلقى) وأولاد على (ومنهم المشارقة ، المُشطا ، الحمامدة ، الجدالمة وطلاح) .	٣٥٠٠	شمال المدينة فى شرق مداين صالح الى خيبر .
الحويطات	الجازاى . الربضات . عمران . بنى عطية . دبور . بدول . السبايحة . الترابين . والبطحة	٧٠٠٠٠	من محطة العلاء الى معان والعقبة وغزه .
بلى	. . . .	٣٠٠٠٠	من العقبة الى جنوب الوجه
جُهينه	بنى مالك (ويتفرع منهم قبائل الصيحة . العيايشة . عروه . كومه . سُذبنات . الحصينات . الاساوره . المسادى . الرفاعه . بنى كلب . الحيادله . الحمده . والمواليد) . ثم بنى موسى (ويتفرع منهم البراهمة . الموال . المرادين . العلاوين . زبيان . العوامرة . تنره . والسمايحة) .	٥٠٠٠٠	شرق وشمال المدينة الى الوجه
عبس (١) (هيتم)	مُهيزان . ذوى الرشيد . ذوى براك . النوامسة . الشرارات . والهتان .		وهى قبيلة صغيرة فى شمال ينبع
حرب	بنى سالم (ومنهم ميمون وتتفرع الى محامده . رلاوعه . رحله . عمرو . حيدر . أحامده . صبح ثم المراوحة وهى الحوازم وتتفرع الى نوامية . قراف . ظواهر . جبول . حنيطات ذرعات . حجلة . مزينه . ردادده . حنابنه) ثم بنى مسروح (وتتفرع منها عطور . مناشك بشر . معبد . البلادية . حمران . البدارين بنى جابر . عوف . زبيد	٨٠٠٠٠	وهم يسكنون من الحمرة شمالا وشرقا وغربا الى عسفان

(١) عبس هذه هي التى كان لها في الجاهلية ذلك الجاه المنيع . وكانت الى القرن الثامن الهجرى قوية فاعتدت على جاراتها فنقم العرب عليها وأوقعوا بها فشتت شملها الى اليمن وغيره ومن ثم ضعف أمرها .

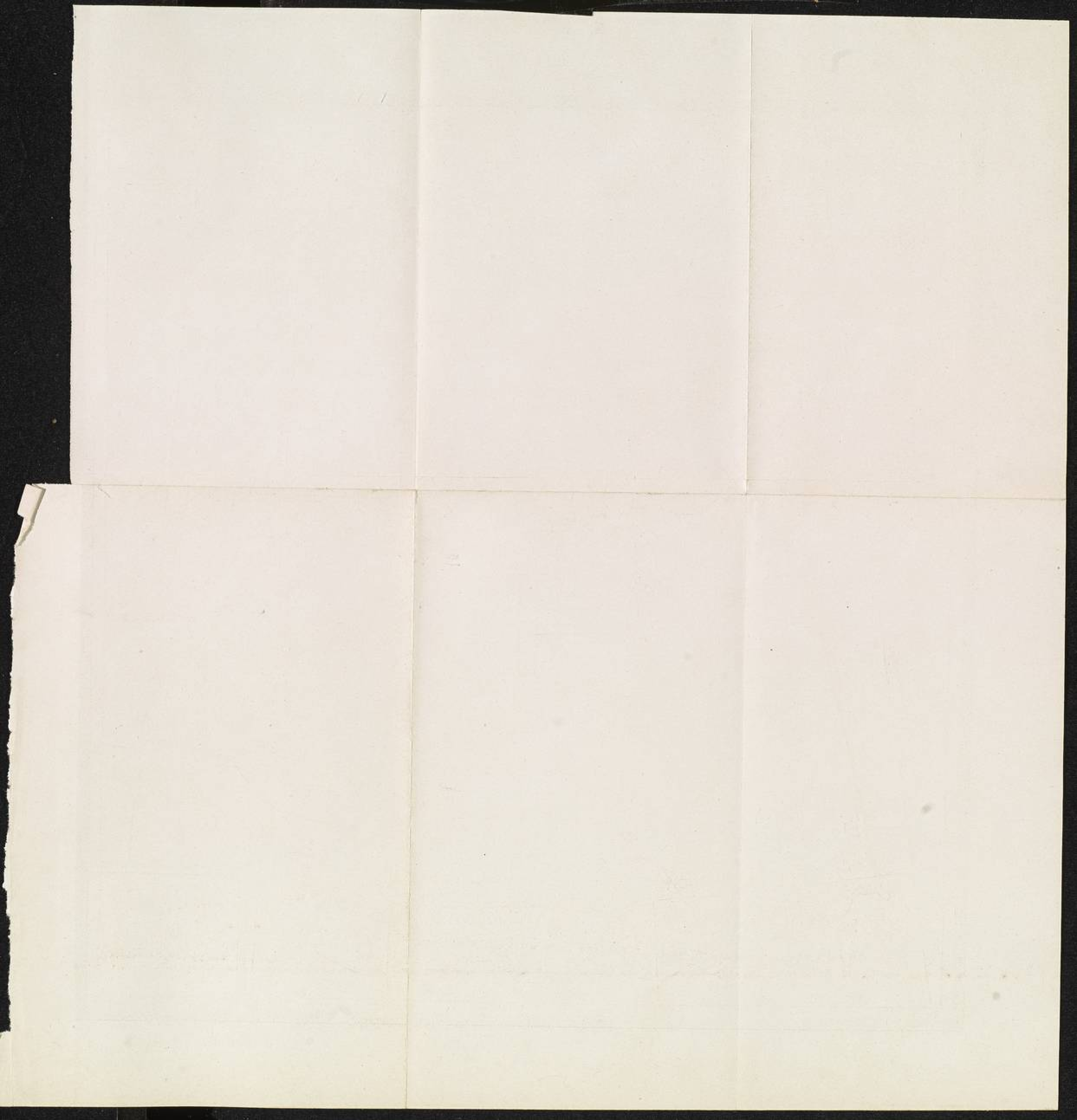
إسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
	(قبائل الحجاز)		
النخاولة[1]	(١) قبيلة حقيرة في ضواحي المدينة يستعملهم أهلها في خدمتهم وفي زراعة بساتينهم وحقولهم وهم رافضة ولا يسمون أبناءهم بأسماء أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة . ويسمون أولادهم المرون وهم يحللون نكاح المتعة . وأهل المدينة لا يصاهرونهم	١٢٠٠٠	
مطير	دو يش . ممجون . بنى عبدالله	٤٠٠٠٠	شرق المدينة شمالا الى نجد وجنوبا الى الصّفينة .
بنى سليم	. . . .	٢٠٠٠	شرق المدينة بجنوب الى حاذه
عتيبة	برقاو بريا (ويتفرع منهما قبائل روسان . الروقة . الشيابين . الدعاجين . العصمه . جذعان . والحناتيس) .	٢٠٠٠٠	شرق البادية الواقعة على طريق الشرق بين مكة والمدينة
قُريش	. . . .	٢٠٠٠	شمال عرفة والطائف .
هذيل	العلويين . التدويين . بنى خالد	١٠٠٠٠	الجبال التى بين مكة والطائف
ثقيف	بنوسفيان . بنوسعد . ناصره . ربيعة . عيله .	٣٠٠٠٠	جنوب وشرق الطائف .
البقوم البجوم	. . . .	٢٠٠٠	شرق الطائف .
عدوان	. . . .	٢٠٠٠	» »
بنى الحارث	. . . .	٢٠٠٠	» »
بنى سعيد	. . . .	٣٠٠٠	جنوب الطائف .
بنى لحيان	. . . .	١٥٠٠	بين مكة وجده .
الجحادله	. . . .		وادى يلملم الى البحر .
قبائل	بنى فهم . يزيد . بجاله . منعان . أشراف ذوى زيد . بنى هلال . بنى عفيف . أشراف ذوى حسن . بَلاَ سود . بَلاَ غور . بنى سليم بنى عمر . بنى على . بنى زيدان .	١٠٠٠٠	جنوب مكة وعلى طريقها الى الليث .
قبائل	رفاعة العبيدات . المجالجه . بنى كبير . أكلوب . العبادله . البيشة . بنى سعد . بنى سعدممون . بنى مالك . زهران . غامد . شمران . وبَلْقَرْن . بنى الاسمر . ناصر . بنى الاحمر . وشهران .	٦٠٠٠٠	شرق الطائف الى الجنوب . في جنوب الطائف الى عسير .

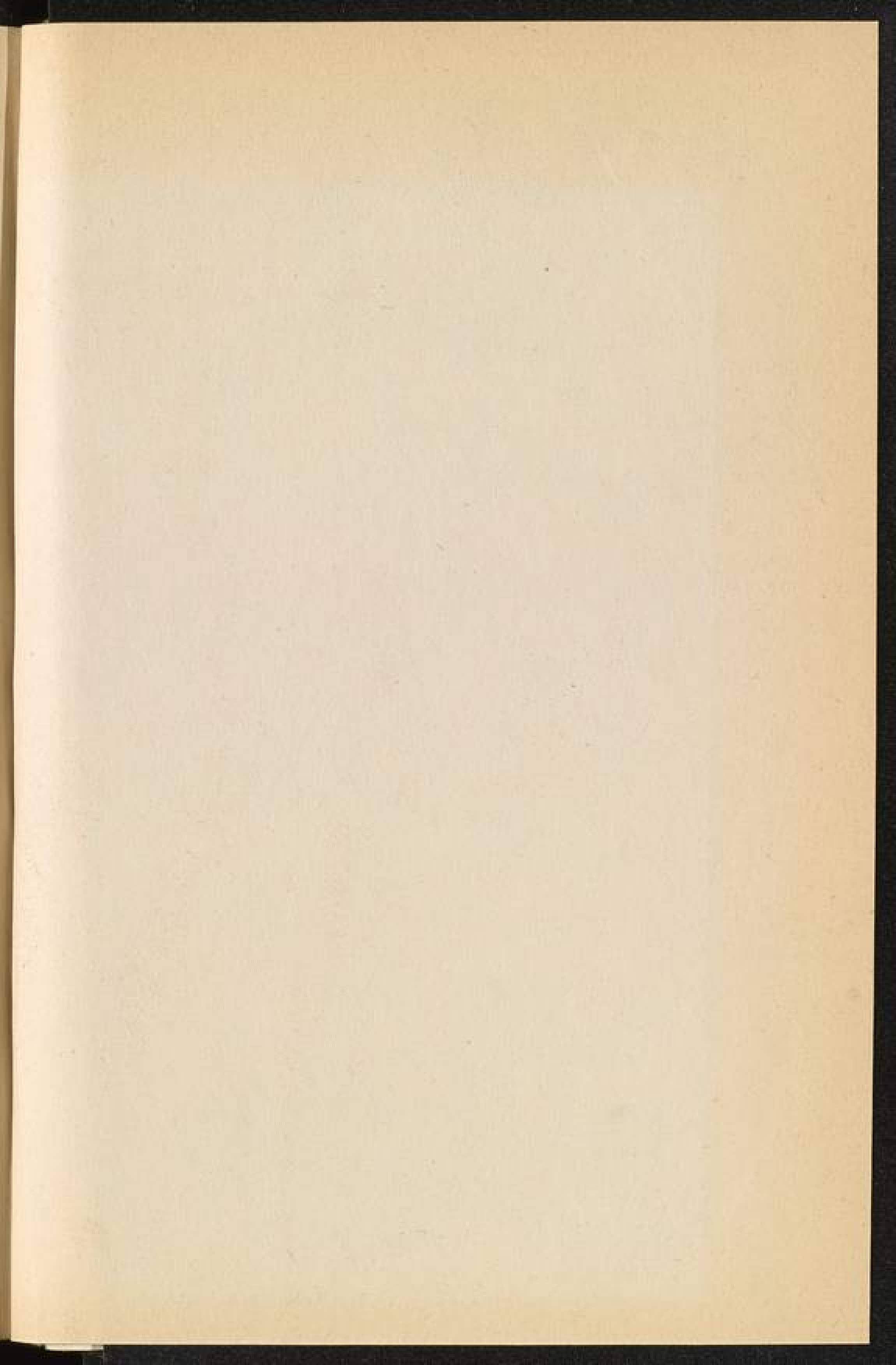
إسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
	﴿قبائل عسير﴾		
قبائل	بني علقم . رفيده . بني ربيعة . المقيد .	١٠٠٠٠	شمال وجنوب العسير
قحطان	رقيف . عبيدة . شريف . سحّان . و راعه	١٠٠٠٠	جنوب العسير بشرق
يام	ذوي محمد . وذوي حسين .	٣٠٠٠٠	في وادي نجران
	﴿قبائل اليمن﴾		
بايعر	بني زيد . بني حرب . بني عبس . و بني سهيم	٦٠٠٠	شمال القنفذه
قبائل	بني بحير . و بني الروحه .	٥٠٠	في وادي ويبه قرب القنفذه
»	بلسمنتشر . بلغريان . العوامر . بلسكناني	٤٠٠٠	وادي حلي قرب وادي ويبه
»	بني سبيل . بني شبيل . وجيزان .	٦٠٠	قرب العرايش
»	بني مروان . حرض	١٥٠٠	بين جيزان ولحية شمال الحديدة
»	بني قصير . بني جامع . بني شيبة . بني شايع	١٠٠٠	بجوار لحية
»	بني رين . بني راجح . الفرانته . بني طاهر . و بني هيجان .	٧٠٠٠	وادي الواعظات شرق لحية
»	بني حسن . بني عبس . أسلم .	٥٠٠	قرب وادي الواعظات
»	آل مره . الكرب . الصيعر .	٣٠٠٠٠	بين جبل برط والجوف
»	نهم . أرحب .		بلاد حاسد شمال صنعاء
»	عمران .	١٠٠٠	شمال الحديدة
»	همدان .	١٠٠٠	شمال صنعاء
»	بني مطير .	٣٠٠٠	قرب صنعاء
»	البرويه .	١٠٠٠٠	قرب صنعاء غربا
»	الحضور .	٤٠٠٠	جنوب صنعاء
»	بني شداد . خولان . بني جبير . عبس . فلاح ضبيان . مجاهد . قيس الاعماس .	٦٠٠٠	شرق صنعاء
	﴿قبائل حضرموت﴾		
قبائل	آل عموري . المراشده . القشن . الخامعه . ونوح .	٢٥٠٠	في وادي دغن جنوب شبام
»	الحالكه . آل محفوظ . آل يزيد . آل بطاطي و آل كثير .		في وادي لسير أحد شعاب وادي دغن
»	آل العوابسه .	٥٠٠	في وادي العين

إسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
قبائل	باصليب. باتيس. بنى ماضى. الجعده. الصيعره نهب. و بنى مخاشن .	١٥٠٠	وادى عمد
«	بنى حيدره. بنى الليث. وشحا.	٥٠٠	وادى رقيه
«	آل بالعبيد. الصيغر. ونافع	٢٥٠٠	وادى دهر
«	آل كثير. العوامره. آل باجرى. آل جابر	٦٠٠٠	وادى بن راشد
«	وآل تميم .		
«	يافع .	٢٠٠٠٠	الجبال الواقعة شرق شمال عدن
«	العواليق. آل ديب. آل عبد الواحد. شيبان العكابره. و بنى حسن	٥٠٠٠	بين عدن والمكله
«	آل حموم .	١٠٠٠	بجوار الشحر
«	بنى هود. مناهل. ومهره	٢٠٠٠	بين قريتى هود وظفار
«	آل كثير.	٥٠٠	ظفار وماحولها
«	قرا . والشحره .	٣٠٠٠	الجبال المشرفة على ظفار
«	السادات العلويه .	٣٠٠	حضرموت
قبائل عمان	بنو شنعاب. النقاريون		
قبائل الحسا	قبيلة الحرة .	٣٠٠٠	فى أطراف القطيف
«	قبيلة بنى هاجر .	٤٥٠٠	غرب القطيف
«	بنو خالد (بن الوليد)	١٠٠٠٠	غرب الحسا
قبائل نجد	بنو سبيع .	٦٠٠٠	بين الرياض والحسا
«	قبائل عـنزه (بطن من التى بالحجاز). الذيبى الفرم. بنى سالم و بنى نخيض .	١٤٠٠٠	بين المدينة المنورة والقصيم
«	العجمان وهم مشهورون بالشجاعة والفروسية	٦٠٠٠	شمال الرياض
«	قبائل قحطان (وهم غير قحطان اليمن)	٣٠٠٠٠	ينقسمون الى قسمين الاول بين الرياض ورينه والثانى بالحوطة
«	. قبائل الضغيفات . الجعافره الرابعة . بنى ضيغم	١٥٠٠٠	وادى الدواسر جنوب الرياض بغرب
«	بنو ساجه. بنو لحم. بنو حيتم. عرب الاخايل (و يقال انهم بقية من بنى هلال المشهورة)		فى القصيم




خريطة بلاد العرب
(١) الطرق المنقطة هي طرق القوافل
(٢) الطرق المخططة هي الطرق الحديدية التي تمت
(٣) الطرق المقطعة هي الطرق الحديدية الجاري العمل بها
البحر الاسود
البحر الابيض المتوسط
بحر الخزر
تركستان
بلاد فارس
بادية الشام
الربع الخالي
حضرموت
الاحقاف
الخليج الفارسي
بحر عمان
البحر الاحمر
بحر الهند
السودان
الحبشة
القطر المصري
سكة حديد بغداد
سكة حديد التركستان
قبرص
دجلة
الفرات
النيل





سفر الجناب العالى

من مصر الى جدة

طالما كانت تتوق نفس مولانا الخديو ﴿عباس باشا حلمى الثانى﴾ الى حج بيت الله الحرام و زيارة نبيه الكريم . وكانت هذه الفكرة المقدسة تتردد فى خاطره من سنة الى أخرى، حتى تأكدت عزيمته على أداء هذه الفريضة فى شهر رمضان الماضى سنة ١٣٢٧ فأصدر أمره السامى بتجهيز ما يلزم لسفره الى الأقطار الحجازية . وفى شهر ذى القعدة أخذ حفظه الله فى تعيين من يلازمه فى هذا السفر الميمون من رجال معيته الفخام ومن غيرهم من العلماء الأعلام والذوات الكرام . وبالجملة فقد صدرت ارادته السنية بتشريفى بالسفر فى خدمة ركابه العالى ، وصدر الأمر الى بعض الحاشية الخديوية من ملكيين وعسكريين بالسفر بعضهم الى جدة و بعضهم الى مكة لانتظار تشريف جنابه السامى بهما ، نخص بالذكر منهم أصحاب السعادة أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى العربى والافرنكى (مدير الأوقاف العمومية حالا) وحسين محرم باشا السرياور الخديوى ومهمندار جنابه العالى فى هذه الرحلة المباركة (وكيل الحربية حالا) ومحمد عزت باشا رئيس الديوان الخديوى التركى واحمد خيرى باشا ناظر الاوقاف الخصوصية وأحمد صادق بك وكيل الخاصة الخديوية ومحمود بك محمد رئيس قلم عرضحالات المعية السنية وفضيلتلو الشيخ محمد شاكر وكيل مشيخة الأزهر الشريف والسيد محمد الببلاوى من علماء الأزهر ووكيل الكتبخانة الخديوية المصرية والشيخ محمد عاشور مفتى الأوقاف الخصوصية وغيرهم من حضرات ضباط الحرس الخديوى .

وفى يوم السبت الموافق ٢٦ ذى القعدة ٩ ديسمبر سنة ١٩٠٩ كانت تشريفات الوداع ، فامتلأت أرجاء سراى عابدين بصنوف المودعين ، وتواردت الوفود من جميع انحاء القطر للثم هذه اليد المباركة بحال لم يسبق لها مثيل ، وقلوبهم تبتهل الى الله تعالى بأن يحفظ مليك البلاد المحبوب ، وأن يرده اليهم قريباً بكل ما يرجون له من كمال الصحة والعافية . ولم تقتصر هذه العاطفة على المسلمين ، بل كنت ترى المصريين على اختلاف أديانهم مشتركين فى السرور بهذا الاحساس الشريف والشعور الحى الذى تحرك فى فؤاد مليك من أكبر أمراء الاسلام للقيام باداء هذا الواجب الدينى الاجتماعى ، مؤملين من ورائه الخير والسعادة العظمى إن شاء الله للاسلام وأهليه عموماً ولمصر وبنيها خصوصاً .

وفى ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣٢٧ صدر الى عطوفة رئيس النظار الامر العالى الآتى .

« قد شاءت الارادة الالهية بتحقيق رغبتنا فى اداء فريضة الحج وزيارة الروضة الطاهرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام ، فعزمنا على السفر لهذا القصد الجليل فى هذا العام . ولوثوقنا فى عطوفتكم رأينا أن تقوموا مقامنا مدة غيابنا فى ادارة شؤون حكومتنا عما نعهده فيكم من الخبرة والدراية ، وقد أصدرنا هذا اليكم بذلك راجين من الحق عز شأنه أن يوفقكم مع حضرات النظار زملائكم لما فيه سعادة الامة وخير البلاد .

وانا لنرجو أن يكون توجهنا الى تلك الأقطار المباركة ووقوفنا بالذات على أحوال الحجاج المصريين وحاجاتهم باعثاً فى المستقبل لراحتهم واطمئنان بالهم ، خصوصاً فى هذا العهد عهد مولانا خليفة المسلمين السلطان «محمد الخامس» أعزه الله وأيد ملكه بالعدل والتوفيق .

هذا وسنرفع أكف الضراعة الى مقام العزة الالهية فى تلك البقاع الطاهرة بأن يوفقنا إلى خدمة الامة العزيزة المصرية التى لا تفارقها إلا وقلبنا معها وفكرنا مشتغل بما يؤدى الى خيرها ومجدها فى الحال والاستقبال ، كما اننا على يقين من أن دعواتها الصالحة تكون ملازمة لنا فى الحل والترحال إن شاء الله » .

وفى الساعة السابعة والدقيقة الأربعين من صباح يوم ٢٩ ذى القعدة سنة ١٣٢٧ ، وهو اليوم الذى تقرر فيه رسمياً سفر الجناب السامى ، تحرك القطار المخصوص من سراى

القبة مقلا للحضرة الفخيمة الخديوية و بعض الحاشية الكريمة . فوصل الى محطة مصر حيث كان فى انتظار جنابه العالى أصحاب السعادة النظار الكرام والعلماء الاعلام ووكلاء الدول وقناصلها وكل من فى مصر من الذوات وأصحاب الحيثيات و بعد ان صافحهم حفظه الله مودعا من الكل بالدعاء الصالح ، تشرف حضرات النظار بالركوب مع سموه ، وسافر القطار على بركة الله تعالى الى السويس . وكانت جميع محطات السكة الحديدية مزدانة بأفخر الزينات الباهرة ، وفيها مالا يحصى من جموع المودعين ، لاسيما فى محطتى بنها والزقازيق اللتين احتشد فيهما خلق كثير يضرعون الى الله تعالى بأن يرد عليهم أميرهم محمود العودة محروساً بالعناية الصمدانية . ومازال القطار سائراً تشيعه القلوب حتى وصل بسلامة الله الى السويس ثم الى محطة الحوض فى الساعة الأولى بعد الظهر . وهنالك كانت معالم الزينات فى أجمل مظاهرها، وكان المستقبلون من علية المصريين لا يحصون عداً، حيث قامت الى السويس قطر مخصوصة من جميع جهات القطر تقل وفود المودعين من عواصم الثغور والمديريات، وفى مقدمة الجميع حضرات أعضاء الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين يتقدمهم صاحب الدولة والفخامة البرنس حسين كامل باشا (وكان رئيساً لهما) فلما وقف القطار نزل الجناب العالى وصافح دولته وكل من كان حاضراً من الامراء والعظماء شاكراً لهم تحملهم هذه المشقة ، وأثنى عليهم بلسان كله عطف وحنان ، ثم التفت الى دولة البرنس قائلا له : إنى أشكرك من صميم فؤادى لا بصفتك رئيساً للشورى والجمعية العمومية فقط بل بصفتك كبير البيت الخديوى — فلم يتمالك دولة الأمير نفسه تلقاء هذه الكرامة الكبرى والعاطفة الشريفة أن ذرفت عيناه بالدموع وقال مجيباً عن هذه العبارة السامية الرحيمة : لستُ يامولاى مهما بلغ من أمرى غير عبد من عبيدكم الخاضعين المخلصين لعرشكم ، قد امتزت بشرف القربى من سموكم ، فحنى الجناب العالى رأسه لهذا الجواب الذى كان له أجمل وقع فى نفوس الحاضرين ، لأنه جمع الى محض الاخلاص جليل المحبة والولاء .

وهنالك صعد الجناب العالى الى وابور المحروسة ، و بعد أن استراح قليلا ابتدأت التشريفات بحال كنت تتخيل معها انك ترى عياناً عاطفة هذا الامير الجليل المحبوب تتعانق

مع عواطف رعيتــه الصادقة المخلصــة ، وكنت كأنك تشاهــد الدعاء الذى كان يخرج من أعماق القلوب صاعداً إلى السماء رجاء الى الله تعالى أن يحفظ هذه الذات السامية وأن يعيدها الى ملكها بعد اداء هذه الفريضة المقدسة فى صحة تامة ومسرة عامة . وفى الساعة الثالثة بعــد الظهر تحرك اليخت قاصداً جدة ، وكان مقلاً للجناب العالى وصاحبة الفخامة والدة سموه الرفيع وصاحبات الدولة الأميرات السنيات عطية هانم أفندى وفتحية هانم أفندى كريمتى الحضرة الخديوية الفخيمة والبرنسيس فاطمة هانم أفندى عمة جنابه السامى ، وكنّ قد حضرن مع دولة الوالدة على قطار خاص وصل الى السويس قبل تشريف الجناب العالى اليها .

ومازال اليخت سائراً حتى حاذى ثغر رابغ من الشاطئ الشرقى ، وهو على عرض ٢٢ درجة و ٢٨ دقيقة وطول ٢٨ درجة و ٥٨ دقيقة ، و بينه و بين جــدة مائة ميل وتسعة ، فأحرم الجناب العالى إحراما كاملا هو ومن كان فى معيته من الحجــاج ، واستمرت الباخرة فى سيرها حتى اذا صارت على بُعد ساعتين من جدة ، أخــذت مبانيها تظهر شيئاً فشيئاً حتى تجلت للعيان بيضاء ناصعة ، وظهرت فى جنوبها ضيعة صــغيرة يسمونها بالنزله وكلها أكواخ تسكنها الأعراب و بعض الاهالى وغالبهم من صيادى الاسماك . وفى قبالة هذه الضيعة من جهة البحر جزيرتان صغيرتان إحــداهما وهى الشمالية تسمى جزيرة ســعد والثانيــة تسمى جزيرة سعيد ، وفيهما الحجر الصحى لثغر الحجاز ، وفى الاولى محل للتبخير وآلة لتكرير المياه الملحة و بعض أحذية [١] مبنية لاقامة المحجور عليهم فيها . فاذا كانت جوازات المراكب القادمة الى هذا الثغر غير نظيفة أخذ الحجاج اليها فى سفن شراعيــة يسمونها سنابك (مفردها سنبوك) فتصل الى الجزيرة الاولى فى ثلاث ساعات أو أكثر ، والى الثانية فى ضعف هذا الزمن ، فيقضون فى هذه أو تلك مدة الحجر التى يقدرها حكيم القورنتينات بجدة .

وفى الساعة الثانية بعد ظهر يوم الثلاثاء غرة ذى الحجة ألقت المحروســة مراسيها على نحو ثلاثة أميال من الشاطئ ، لأن المراكب الــكبيرة لا تستطيع الدخول الى مينائها لقلة عمق

---

١) مفرده حذاء وهو قسم من أقسام القورنتينه يوضع فيه أناس على حــدتهم ليقضوا به أيام الحجر المقررة عليهم ولا يمكن أحدا منهم أن يغادر حدود هذا القسم بأى حال قبل انتهاء المدة .

المياه فيها: وبقى بها الجناب العالى الى صباح اليوم التالى . وكان يوجد خارج الميناء كثير من المراكب التى أتت الى هذا الثغر بالحجاج من الهند والروسيا وتركيا وبلاد المغرب ومصر وبورسودان وغيرها ، وكلها رافعة أعلامها ترحيبا بمقدم سموه ، كما كانت السنابك التى ظلت تغدو وتروح فى مياهها رافعة على سواريها العلم العثمانى إكراماً لتشريف جنابه العالى .

مدينة جدة

قال البكرى فى معجمه « جدة بضم أوله ساحل مكة سميت بذلك لأنها حاضرة البحر والجدة من البحر والنهر ما يلى البر وأصل الجدة الطريق الممتد » وأهل البلاد يسمونها الآن جدة بكسر الجيم ، ويسميها المصريون جدة بفتحها ، وكلها على ما أرى تسمية صحيحة : لأن الجدة بالكسر اليمن والسعادة ، وهذا الثغر بلا شك منه المادة التى تقوم بحياة هذه البلاد كلها وأى شئ أسعد مما يقوم بحياة الانسان ووجوده . كما أن الجدة بالفتح الطريق الواسعة ، وليس من طريق فى بلاد الحجاز أوسع من هذه . وهى واقعة على الساحل الشرقى للبحر الاحمر على ٣٩ درجة وعشر دقائق من الطول الشرقى وعلى ٢١ درجة و ٢٨ دقيقة من العرض الشمالى . وقد كانت قرية صغيرة فى بادئ أمرها يسكنها وماحولها قضاعة قبل الاسلام فلما كانت سنة ٢٦ للهجرة فى خلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه اشتكى الناس له الشدة التى يعانونها فى ميناء الشعيبية لكثرة ما فيها من الشعاب التى كانت تعوق سير السفن بها . وقالوا له ان فى شمالها مكانا خيرا منها . فذهب عثمان اليه فى جمع من قومه ليعاينه بنفسه فوجده حقيقة أحسن من الاولى فأمر بجعله ثغر أمكة ، وسموه جدة . ومما يذكر عن عثمان رضى الله عنه عند قدومه الى هذا المكان ، أنه نزل الى البحر فاغتسل وأمر قومه بالاغتسال فيه كذلك وأن يتخذوا المئزر عليهم : وهو ما يزعم الافرنج أنه من مدنيتهم . والشعيبية الآن قرية صغيرة على مسافة عشرين كيلومترا من جنوب جدة وبعضهم يذكرها بلفظ الشعبية : قال كثير يصف إبلا تسير فى ملاتريم (مكان بحضرموت)

سأتك(١) وقد أجد بها البكور * غداة البين من أسماء عير
كأن حمولها بملاترىم * سفين بالشعيبة ماتسير

ومن ثم أخذت جدة تزيد فى عمرانها وتعظم فى أهميتها حتى أصبحت أكبر ثغر فى بلاد العرب .

وساحل جدة كله شعاب صخرية يتخللها شعب مرجانية حمراء أوسوداء (اليسر)، وترى على سطح مياهه فى كثير من جهاته أوراق نبات مائى شكله اشبه شىء بالبشنين فى بحيرات مصر، وهذا النبات لونه أحمر قاتم ويوجد بكثرة على شاطئ الخليج العربى . وربما كان له تأثير على مايعيش فى جوه من الاصداف الحمراء والاسماك المرجانية التى توجد فيه بكثرة لتغذيتها منه، وربما أتت من ذلك تسميته بالبحر الاحمر . ويساعد على هذه التسمية ذلك اللون السنجابى الذى يشاهد قبل شروق الشمس فيما يلى الشاطئ من مياه البحر عند انحسار كتلة المياه عنه وقت الجزر الذى يحصل فيه يومياً : حيث يتراءى لك الشعب على طول الشاطئ ضارباً فى البحر بلونه الاحمر الذى يتشرب بالزرقة شيئاً فشيئاً حتى يتصل بكتلة الماء الكبرى .

ومما يذكر بهذه المناسبة انا رأينا أهل جدة يميلون الى اللباس الاحمر لافرق فى ذلك بين كبيرهم وصغيرهم ، وربما كان ذلك من تأثير الوسط الذى يعيشون فيه : فتراهم يشدون على وسطهم حزاماً أحمر ويضعون على رأسهم شالا من لونه ، وكثيراماترى صبيانهم يلبسون جلابيب بيضاء وعليها صديرية حمراء : حتى الطبقة العالية منهم يكثر فى لباسهم اللون الوردى أومايقرب منه .

ويحيط بجدة سور له خمسة أضلع : فالغربى منها على البحر وطوله ٥٧٦ متر، والبحرى ٦٧٥ متر، والشرقى ٥٠٤ متر، والشرقى الجنوبى ٣١٥ متر، والجنوبى ٨١٠ متر .

وفى كل ضلع من أضلاع هذا السور باب ، والباب الشرقى يسمى باب مكة وعلى جداره من الخارج رنك منقوش فى الحجر والى جانبه اسم السلطان الغورى ملك مصر، وهو الذى بنى هذا السور سنة ٩١٥ لمنع الافرنج (الذين كانوا ابتدءوا فى استعمار الشرق) من طلوعهم

(١) لغة فى ساءتك .

الى جدة . وقد أفاد فائدة تذكر فى منع البرتغاليين من الدخول اليها سنة ٩٤٨ وأصلتهم قلعتها هذه الصغيرة نارا حامية فروا منها الى مراكبهم تاركين ما كان معهم من الذخائر . كما نالت أيضا من الوهابيين حين حصارهم لجدة سنة ١٢١٨ ، الا أنها لم تكن تؤدى وظيفتها فى ضرب المراكب الانجليزية لها سنة ١٢٧٤ : وسبب ذلك ان أحد الرعايا الانجليز كان يملك مركبا شراعيا بجدة ، وكان يرفع عليها العلم الانجليزى فبدّله بالعلم العثمانى ، فحنق لذلك قنصل الانجليز ونزل الى المركب وأنزل العلم العثمانى بالقوة وأهانه . فلما بلغ الناس هذا الأمر كبر عليهم وهاج له الرعاع فقصدوا منزله وقتلوه مع القنصل الفرنساوى و بعض الافرنج ونهبوا دورهم . فأتت مراكب الانجليز وضربت جدة . فحضروا الى مكة واتفق مع الاميرال على عمل تحقيق كانت نتيجته شنق نحو ١٥ نفرا من الاهالى فى سوق جدة ، ونفى كثيرين من كبرائها ، وغرامة الدولة نظير الاموال التى ادعت رعايا الدول الاجنبية أنها فقدتها فى هذه الفتنة . وفى سنة ١٣١١ ساق الانجليز مراكبهم مرة أخرى الى مياه هذا الثغر عندما قتل الاعراب وكيل القنصل الانجليزى وجرحوا وكيلى القنصل الفرنساوى والروسى ، وكانوا تجاوزوا الحد المضروب لهم خارج البلد ، وكلهم مسلمون من الاهالى الذين لم يحسنوا اسيرتهم مع اخوانهم من مواطنيهم ارتكانا على الحماية الاجنبية . فحضر الشريف عون من مكة لهذا الامر الذى انتهى بالصلح وسفر المراكب من غير ضرب .

وشوارع جدة لا نظام فيها وهى تحتوى على نحو ٣٥٠٠ منزل مبنية بالحجر الجبلى الذى يأتون به من الجبال القريبة ، أو الحجر المائى الذى يقطعونه من شعاب البحر وهو خفيف جدا وفى غاية المتانة الا أن خطره جسيم وضرره عظيم لأنه قابل للالتهاب بسرعة لما يحتويه من المادة الفصفورية التى توجد فيه بكثرة . ومساكنها كمساكن مدن الحجاز (مكة والمدينة) وهى أشبه بمساكن مصر فى عهد المماليك (وفى سوق السلاح كثير منها) ، أعنى أن بها غرفا كبيرة ولواوين واسعة ذات سقوف عالية ولها شبابيك طويلة عريضة على شكل المشربيات يسمونها الرواشن (مفردها روشن وهى كلمة فارسية معناها المنور) ، وشغلها الخشبي يشبه ما يسمونه بالمنقور أو المنجور وأكثرها من النوع المسمى بالشيش . وقد رأيت

فى بعض بيوت هذه المدينة منزلا وجهته نحو ١٥ مترا وفيها تسعة رواشن كبيرة . ولا شك أن هذه المنافذ الواسعة موافقة جداً للبلاد الحارة . ولذلك ترى النظام الجديد فى العمارات المصرية يرجع الى هذا النمط كما تراه فى أغلب المبانى الحديثة لا سيما فى الاحياء الافرنجية وعلى الاخص فى مصر الجديدة التى هى شكل مجمل مكمل من الاشكال المصرية القديمة .

ولمحمد على باشا فى هذه المدينة مبان كثيرة : منها دار الولاية ، ودار البلدية ، وثكنات العساكر ، وغيرها .

وماء الشرب فيها من الصهاريج القديمة التى تملأ من ماء المطر أو العيون الموجوده خارج المدينة ، وكلما قربت تلك العيون من البحر كانت مياهها مالحة غير صالحة للشرب . وفيها مواسير كان وضعها عثمان باشا نورى سنة ١٣٠٢ وسير الماء فيها من عين الرغامة التى تبعد عن المدينة شرقا بنحو عشرة كيلومترات . وهى الآن مهدمة . وقد اهتمت بلدية المدينة باصلاحها ولكن يظهر أن الحكومة لا يمكنها عمارتها الا بمعونة الأهالى وهم لا يساعدون على ذلك لان لهم مصلحة فى بيع مياه صهاريجهم على الحجاج بأثمان باهظة . على أن سواد الحجاج لا يشربون أثناء وجودهم فى هذه المدينة الا من المياه التى يأتون بها اليهم من الحفر والآبار وفضلا عن وساختها فان طعمها يميل دائما الى الملوحه ولولا فضل الله عليهم لهلكوا منها جميعاً !!!

وفى هذه المدينة كندانسه لبعض الفرنجة لتكرير مياه البحر وبيعها للناس ولكنها تخربت نهائياً وبلغنا ونحن بجدة أنهم أرسلوا بعض عددها الى السويس لاصلاحها فيها .

وجدة مركز تجارى كبير ويمكنك أن تقول انها الثغر العمومى للحجاز فمنها صادراته واليها وارداته . وتجارتها تكاد تنحصر فى أصداف اللؤلؤ والمرجان واليسر والسبح والاقمشة الحريرية والعطر والعطارة والبقالة الجافة والقرب والجلود والسجاجيد وجميع مايهم الحاج . وتجارتها الرئيسية فى الحبوب خصوصاً القمح والدقيق اللذين عليهما مدار حياة أهل البلاد العربية من أدناها الى أقصاها ، وهى تأتى اليها من الهند ومصر والشام والعجم والجاوه وغيرها . وسوق المدينة تمتد على طولها من الجهة الجنوبية الى الشمالية التى

تنتهى بمساكن قناصل الدول، وهى أحسن ما فى المدينة من الابنية، وأخص منها بالذكر منزل الوكالة الروسية الذى هو على ألطف مثال وأجمل هندام لما فيه من المشربيات والطُنُف (البلكونات) التى تمثل أبهة الشكل العربى القديم بما يخيل للرائى أنه أمام قصر الرصافة فى بغداد. وتجاه هذا المنزل نقطة بوليس و بجوارها مكان البوستة، وهو غرفة صغيرة يقطعها حاجز خشبى بسيط يفصل بين العمال وأرباب الأعمال، والى جوارها مكان التلغراف.

وتجار جدة من أهلين وحضارم وهنود وأعجام و بخاريين وأروام تراهم يعملون فى هذا الوسط ولا تروج تجارتهم الا فى موسم الحج. ولأحد الاروام فى جنوب المدينة وابور (ماكينه) يدار بالبترول لطحن الغلال وأجرة الكيلة الجداوية (مقدارها ثلاث أقات) ثلاثة قروش مجيدية ومع هذا فان صاحبه على الدوام تراه يصرخ مستغيثاً من قلة المكسب وكثرة ما يصرفه فى سبيل ادارته.

وتعداد أهل هذه المدينة لم يحصل بصفة رسمية، وهم يبلغون خمسين ألفاً على أضبط تقدير: منهم عشرة آلاف من الاجانب المسلمين بين فرس وحضارم وهنود وبخاريين، أما الفرنجة فيبلغ عددهم مائة أو يزيدون قليلا وأغلبهم من الأروام. وثروة البلاد تقريباً فى أيدى هؤلاء الاغراب وتقدر ثروة بعضهم بنحو مليون من الجنيهات لانهم يجدّون ويكدّون ولهم نشاط غريب فى بابه، حتى الشيالين والفلايكية فى هذه المدينة تجدهم فى الغالب من الحضارم أو العبيد.

وفى جدة مدرستان مدرسة الاصلاح وفيها نحو ثمانين تلميذاً ويصرف عليها من تبرعات الاهالى، والمدرسة الرشدية وهى للحكومة وفيها نحو مائة وعشرين تلميذاً، ولا يدرس فيهما الاشئ بسيط من الحساب والكتابة والقراءة العربية والتركية، وعلى كل حال فانهما أقل فى التعليم من مكاتب الاوقاف بمصر. وقد رأيت فى سوق المدينة لوحة مكتوباً عليها (جريدة الاصلاح ومطبعتها) فسألت عنها فعلمت أنها ابتدأت عملها بعد اعلان الدستور العثمانى ولكنها لم تجد رواجاً فاضطر صاحبها الى اغلاقها، وقفل محررها (التركى) راجعاً الى الاستانة، أما المطبعة الآن فليس لها من عمل يذكر.

وسكان جدة خليط كما أسلفنا، وقد أثرت فيهم طبيعة هـذا الاقليم فغلبت عليهـم حال البداوة فيما يختص بالتعليم الذى ليس لهم فيه حظ يذكر اللهـم الا ما كان يوصـل الى كتابة خطاب أو مزاولة قليل من الحساب . وفى المدينة أربعـة مساجد ـ المسـجد الحنفى ـ والشافعى ـ والمالكى ـ ومسجد سيدى عكاشة وهو أكبرها، وفيها أجزخانة صغيرة، ويقال ان بها نزلا صغيرا (لوكاندة) فى ميدان الجمرك ولـكنى لم أره .

وحكومة المدينة محصورة فى القائمقام ووكيل الشريف وهو الآن حضرة السرى الوجيه السيد محمد نصيف : والاول مختص بأعمال الحكومة المالية المنحصرة فى ايراد الجمارك غالباً، وتقدر هذه الايرادات بنحو خمسين ألف جنيه عثمانى فى السنة على الاكثر، والثانى قائم بجميع الاشغال المختصة بالعرب كما أن أمر القوة العسكرية موكول الى قومندانها : وقد كان والى الحجاز يسكن أولا فى جدة ولـكن نقل مركزه فى نحو سنة ١٢٨٠ الى مكة لأهميتها .

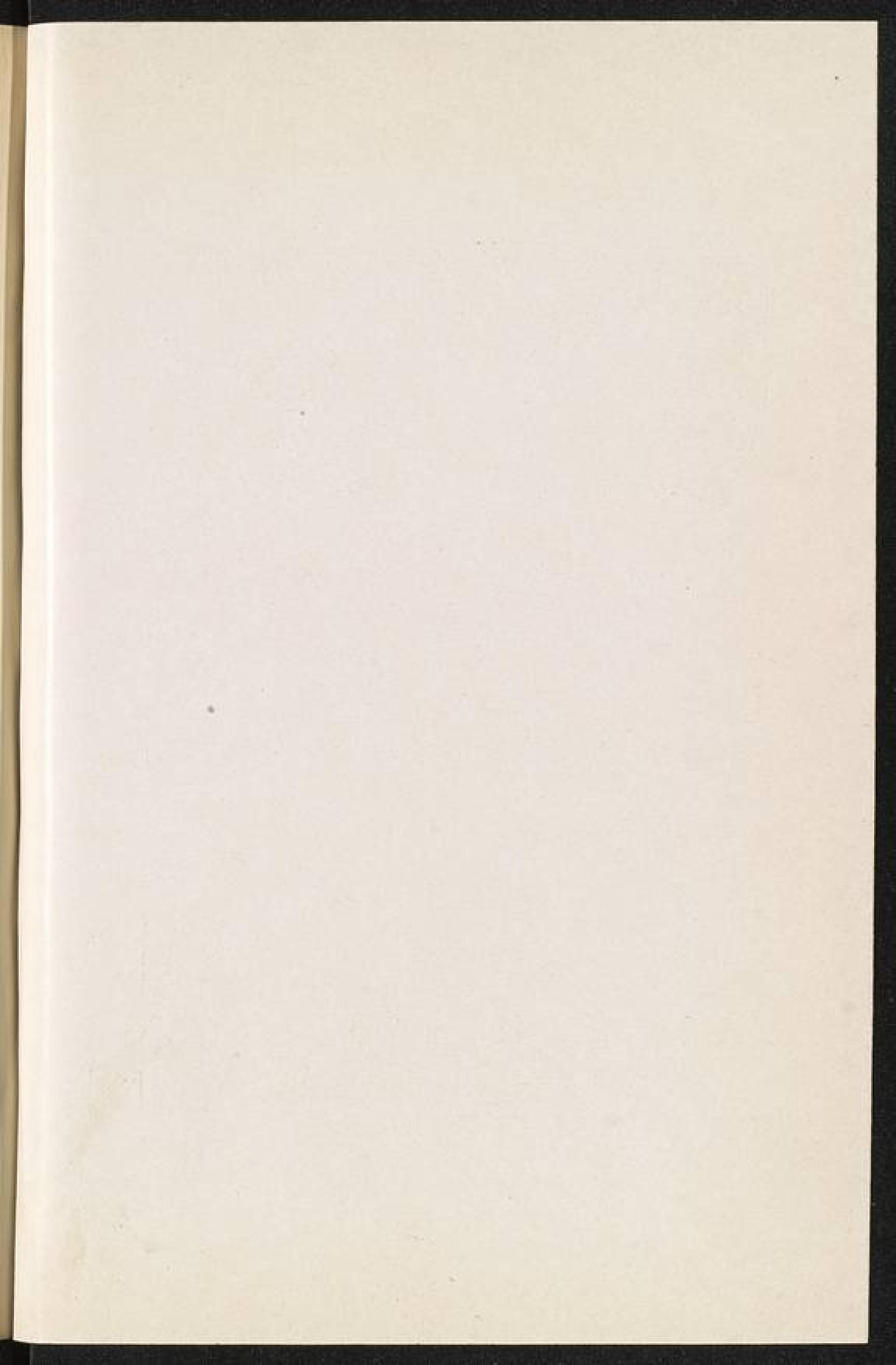
وفى موسم الحج ترى فى جدة حركة مستديمة لا تنقطع ليلا ولا نهارا من الحجاج الذين اذا وصلوا اليها وجدوا على أبواب جمركها مطوفيهـم أو وكلاءهم فى انتظارهم وهم ينادون ياحاج فلان أو ياحجاج فلان (يعنون المطوف)، فيعرف الحاج اسم مطوفه فينادى عليه وهو فى هذه الشدة، فيبادر الى مساعدته ويأخذ منه ورقة جوازه (باسابورت) ليعلم عليها من قلم الجوازات ثم يسير معه الى منزل يقيم به يوماً أو يومين يصلح فيهما من شأنه فى نظير أجر يدفعه لصاحبه ثم يؤجر حميره أو جماله ويسافر الى مكة بعـد أن يشترى شقادفه ان كان لهـا ضرورة عنـده ومتوسط ثمن الشقدف جنيه انجليزى وأجرة الهجين أو الحمار جنيه الى مكة وكذلك جمـل الحمل ، أما جمل الشقدف فتصل أجرته فى الغالب الى ضعف ذلك .





BOEHME & ANDERER, CAIRO.

مرفأ جُدّه



جبانة جدة وقبر أمنا حواء

ويوجد خارج هذه المدينة من جهة الجنوب مدفن للنصارى محاط بسور عال وعليه خفير من الاعراب لا يدع أحداً يدخل فيه من غير ذويه . أما مدافن المسلمين فانها فى جهتها الشرقية على مسافة نحو كيلومتر من بابها الشرقى الذى يسمونه باب مكة ، وعليها سور يفتح بابه للغرب ترى فى مدخله زمن الحج كثيراً من الشحاذين صغاراً وكباراً من الاعراب والاغراب فاذا دخلت من هذا الباب وجدت أمامك رأس قبر طويل ضارب الى الشمال بمسافة مائة وخمسين متراً على ارتفاع متر وفى عرض نحو ثلاثة أمتار ، وهو ما يسمونه قبر أمنا حواء : وهو أشبه شىء بقناة مسدودة من طرفها الجنوبى بثلاث حوائط من مربع ينقصه الحائط الشمالى الذى هو من جهة القبر ، وطول كل حائط أربعة أمتار فى ارتفاع مثلها ، وفى كل منها شباك تخرج منه فروع عوسجة كبيرة تكاد تسد فراغ هذا المربع الذى هو مكان الرأس عندهم . وفى نهاية هذا المستطيل من جهة الشمال حائط يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار ، فى وسطه من أعلاه شرفة تحتها شباك يطل على القبر من جهة القدمين ، وعند نهايتى القبر ترى أناساً متطوعين لارشادك عن مكان الرأس أو القدم وأيديهم ممدودة للسؤال ، وفى نحو ثلثى طوله من جهة الرأس قبة يفتح بابها الى الغرب ، وفيها شباكان يشرفان على جهتى القبر ، وفى وسطها مقصورة من الخشب عليها ستر من الجوخ فيها باب مقابل لباب القبة فتحه لنا خادم المقصورة قائلاً « هذا مكان السرة الشريفة » . فنظرت فوجدت فيه حجراً من الصوان يبلغ طوله نحو متر ، محفوراً من وسطه ، وهو أشبه شىء بناووس صغير ، ان لم نقل مذبح كان مستعملاً فى قديم الزمان لتقديم القربان . وهنالك مرّ بخاطرى أن هذا المكان ربما كان لقضاعة فيه قبل الاسلام هيكل لحواء أم البشر يعبدونها فيه كما كانت هذيل تعبد سواع ابن شيث بن آدم : وهذيل كما لا يخفى فى جنوب وشمال مكة ، وهم الآن يقولون هذيل الشام وهذيل اليمن ، وكانت مساكن قضاعة فيما بينهم : وكما كانت قبائل كلب ومراد وهمدان

وحمير يعبدون ودّاً و يغوث و يعوق ونسرا (وهم على مايزعمون أولاد سواع بن شيث) قال الله تعالى « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث و يعوق ونسرا » أما طول القبر بهذا المقدار فربما أخذه العرب فى ضمن ما أخذوه من ديانة الصابئة اليونانيين فقد كانوا يقيمون الهياكل للنجوم ومنها هيكل الزهرة الذى يقول مؤرخو العرب ان الضحاك[1] بناه فى صنعاء وكانوا يسمونه غمدان ومازال حتى هدمه عثمان بن عفان فى خلافته رضى الله عنه . وقد كان اليونانيون يبنون للمريخ أيضاً هيكلا مستطيلا : ومن القبور الطويلة التى توجد فى بلاد الدولة العلية ـ وهى طبعاً من آثار الدولة اليونانية ـ قبر يوجد للآن فى الاستانة العلية قرب أسكلة أناضولى قواق يبلغ طوله نحو عشرين متراً و يقولون أنه قبر النبى يوشع ، وهو محترم من المسلمين والنصارى واليهود على السواء . ومن يعلم أن يوشع لم يصل إلى هذه البلاد بالمرة يحكم بان هذا القبر من آثار الوثنية التى كانت فى هذه الانحاء قبل دخول النصرانية اليها . وكذلك يوجد فى كرك نوح (وهى قرية بالشام بجوار معلقة زحلة) قبر يبلغ طوله ثلاثين متراً تقريبا يزعمون أنه قبر سيدنا نوح عليه السلام ، وقد ذكره ابن جبير فى رحلته وقال ان طوله ٣٠ باعا ، وذكر انه يوجد أيضاً بضواحى دمشق الشام قبر لنبى الله شيث وطوله ٤٠ باعا ، و يقال أيضاً إنه يوجد قرب القدس قبر طويل مشهور بقبر سيدى حسن الراعى ولا أفهم لهذه التسمية معنى خصوصاً وانهم يقولون انه كان راعيا لموسى عليه السلام واذا صح ذلك فلابد ان يكون له اسم آخر .

وعليه فلا يبعد أن قبر حواء كان من الهياكل المقدسة فى الجاهلية ، فلما جاء الاسلام ومحا أثر الشرك من هذه البلاد ودالت به دولة الوثنية وهدمت هياكلها التى كان من ضمنها

---

(١) قال مؤرخو العرب ان الضحاك كان من ملوك اليمن وينسبون اليه خرافات كثيرة وفيه يقول شاعرهم :

وكان منا الضحاك تعبده ا ❊ جامل والجن في محاربها

(الجامل الحي العظيم) . ويقول مؤرخو الفرس بل هو من ملوكهم وكان اسمه ازدهاق وأنه خليفة جمشيد أعني قبل حكم قيروش بنحو قرن على الاقل (القرن الثامن قبل الميلاد) ولهم فيه أقوال أكثر سخافة من أقوال العرب في ضحاكهم ولعل الاول غير الثاني .

بالطبع هذا الهيكل ، بقي أثره في نفوس القوم بأحق الأمومة ، وأقاموا له قبة (لا ندرى متى كان تشييدها) لتكون مزارا للناس ، كما كانوا يقيمون المزارات لآل بيت النبوة عليهم وعلى جدهم الصلاة والسلام .

ولقد ذكر هذه القبة ابن بطوطة في رحلته المشهورة في القرن السابع للهجرة ولم يذكر شيئاً عن القبر . ومن أكبر الأدلة على أن هذا القبر حادث لا محالة ما ذكره ابن جبير في رحلته التي عملها سنة ٥٨٧ للهجرة قال رحمه الله : « وبها (بجدة) موضع فيه قبة مشيدة عتيقة يذكر أنه كان منزلا لحواء أم البشر عند توجهها إلى مكة فبنى ذلك المبنى عليه تشهيراً لبركته وفضله والله أعلم »

وعلى كل حال فانا لو صرفنا النظر عما غيره الطوفان من معالم الارض وقلب أغلب معالمها بطناً لظهر خصوصاً في الجهات البركانية التي منها هذه البلاد وجارينا مؤرخي العرب في أن حواء هبطت مع آدم الى جزيرة سرنديب (سيلان) ، وقطعنا النظر عن الواسطة التي انتقلا بها من الجزيرة الى القارة ، وعن كيفية وصولهما الى جدة وموت حواء ودفنها بهذا المكان ، ثم موت آدم ودفنه بجبل أبي قبيس أو بمسجد الخيف ، أو توجهه على ما يقول النصارى الى بيت المقدس وموته به ودفنه تحت صخرة هناك في كنيسة القيامة يقدسونها الى الآن : فلا تهولنا دعوى القوم بان هذا قبر حواء على ما هو عليه من الطول[1]

---

١) أرجو أن يسمح لي القارئ بأن لا أترك هذا المقام دون أن أقول كلمة عما قالوه في طول آدم وحواء :

قال المسيو هاربون العضو في المجمع العلمي الفرنساوي والعالم المستشرق « ان طول آدم كان ١٢٣ قدم وتسع بوصات (٣٧ متراً تقريباً) وان طول حواء كان ١١٨ قدم وثلاثة أرباع البوصة » (أنظر مادة آدم في معجم لاروس الكبير) .

أما العرب فانهم قالوا ان طول آدم كان ستين ذراعا (وكان طول حواء متناسباً معه طبعاً) ونحن لا ندري ما كانوا يقصدونه من طول الذراع . ولو فرضنا انه ذراع اليد الذي يبلغ متوسط طوله ٤٠ سنتمترا فان طوله يكون ٢٤ مترا وهو أقل مما قاله المسيو هاربون بكثير . ويقول بعضهم انا اذا نظرنا الى طول الموميات التي وصلت الينا من خمسين قرنا ورأينا أنها لا تختلف كثيراً عن طول جسومنا اليوم حكمنا بأن ما قاله العرب في طول آدم مبالغ فيه . ولكن من لنا

الهائل: لانه لا يلزم من طول القبر طول الجثة بهذا المقدار، وليس آدعاؤهم بان هذا موضع الرأس وذاك موضع القدم برهانا على أن طرفي جسم حواء متناسبان مع طرفي قبرها: إذ يصح أن يكون هذا التعيين جهة الرأس وذاك لجهة القدمين من غير تحديد نقطة بداية أو نهاية . ولا عبرة بقولهم ان القبة على مكان السرة، لانه بقطع النظر عن أنه كان الأولى بها أن توضع على أشرف عضو في الجسم وهو الرأس، فان المسافة بين الرأس والسرة في طول القبر ضعف المسافة بين السرة والقدمين، وهذا مخالف لطبيعة الانسان،

بأن المسافة التي بين آدم وبين الطوفان كانت أضعاف أضعاف المسافة التي بيننا وبين الزمن الذي وصلتنا منه هذه الموميات، بما تدرج معه جسم الانسان الى هذا الحد بحكم الناموس الطبيعي الذي يسير به الى الضعف والفناء . ولا أدري اذا كان يصح أن نقيم على هذا برهانا محسوساً من تلك الهياكل الضخمة التي اكتشفوها أخيراً بين طبقات الارض وثنايا الصخور، ووجدوا انها أضعاف أضعاف هياكل الحيوانات التي من نوعها الآن: نذكر من ذلك الحيوان الهائل الذي يسمونه ماستودونت (Mastodonte) وقالوا انه هو الفيل بعينه ومذكور في مادة فيل (éléphant) بدائرة المعارف الكبرى الفرنساوية، ثم ذلك الحيوان الذي يسمونه بلزيوسور (blesiosaure) وقالوا انه نوع من الورله (الورنه) وطوله عشرة أمتار، وهو مالا يكاد تربطه نسبة بطول أي نوع من أنواعه الآن . ولا يرد علينا بأنهم وجدوا في الارض الثالثة جسم انسان لا يزيد كثيراً عن أطوال جسومنا . فقد ذهب بعض الجيولوجيين الى أن الصخور البالبوزويه (أي التي وجدوا فيها بعض حيوانات مما كانت تعيش في الارض الثالثة) انما هي مكونه من رواسب مائيه سببها الطوفان . وعلى هذا فيكون هذا الانسان الذي عثروا عليه كان عائشاً في الحلقة التي انتهت بها الارض الثالثة وابتدأت بها الارض الرابعة، وهي التي بعد الطوفان والتي نعيش فيها الآن . ولا مشاحة في أن الانسان الاول كان موجوداً قبله بنصف مليون سنة على الاقل كما يؤخذ من قول فلاماريون في كتابه (as tr onomie Populaire) من أن عمر الارض الثالثة كان ثلثمائة ألف سنة، وعمر الثانية مليون ومائتا ألف سنة . والارض الثانية هي التي تكونت فيها النباتات والحيوانات التي انتهت بتكون الحيوانات الثديية التي منها الانسان، الذي ما زال مندمجا في كتلتها وغارقا في مجموعها حتى ظهر استعداده وأخذ يعمل لما وجد من أجله، وبعمله هذا ابتدأ طور جديد هو طور الارض الثالثة . على أنه يجوز أن يكون عمر هذين الطورين اكثر مما قدره لهما فلاماريون، بدليل انهم كانوا يقدرون عمر الارض في جميع أدوارها بمائة مليون سنة، ولكنهم بعد اكتشاف الراديوم قدروه بألف مليون من السنين (انظر باب الاخبار العلمية في عدد ٦ من هلال مارث سنة ١٩١١) . ولا يبعد أن يأتي زمن يرشدنا فيه العلم الى ان عمر

مخالف لشكل بني آدم أو بعبارة أخرى لشكل بني حواء في جميع أدوار حياتهم .

على اننا مع انكارنا لطول هذا القبر فاننا نحترم لحواء وجودها انى كانت وكيفما كانت لانها أم الكل و بمكانها من احترام الكل : لذلك لما قصد الشريف عون الرفيق هدم قبتها فيما هدم من قباب الصالحين بمكة وغيرها قام في وجهه قناصل الدول وحالوا بينه و بينها بدعوى انها ليست أم المسلمين وحدهم .

الارض أضعاف ذلك ولا مانع من ان قدم الانسان فيها متناسب مع قدمها بطبيعة الوجود .

على أنهم يقولون ان النباتات التي كانت تعيش في الارض الثالثة كانت اكبر بكثير من التي تعيش الآن من نوعها : ومما جاء في دائرة المعارف العربية من ذلك بمادة جيولوجيا ما نصه :

« ومما يستغرب له في نبات الارض الفحمية نموه العجيب . فان أنواع السرخس التي لا يتكون منها في عصرنا هذا الا نباتات حشيشية ، خالدة في البلاد الباردة وكان يتكون منها أشجار أعظم ارتفاعا من أشجار التنوب . وأنواع الليكوبوديون لا ترتفع في هذه الايام اكثر من متر ، مع انها كانت في الزمن القديم ترتفع من ٢٥ الى ٣٠ مترا وكان قطرها مترا » .

وينسبون هذا الخلاف الي اختلاف درجة الحرارة الهوائية لانهم يقولون انها كانت ٢٠٠ درجة سنتجراد بعدما تكونت قشرة الارض ، وصارت تقل شيئاً فشيئاً ببرودة هذه القشرة حتى وصلت الي هذه الدرجة التي هي عليها الآن . واني لا أدري اذا كان هذا التعليل صحيحاً لم لا يؤثر على الانسان تأثيره على الحيوان وعلى النباتات والكل كما لا يخفى من المملكة العضوية .

على أنا لو فرضنا ان الانسان ينقص من طوله في كل مائة سنة نصف سنتيمتر لكانت أطوال هذه الموميات في حياتها أعني وهي في نضارتها لا تزيد عن أطوالنا الا بنحو ٢٥ سنتمتر فقط ، وهو ليس بالفرق المحسوس بين أطوال الجسوم في المدتين الحاضرة والغابرة ، خصوصاً اذا لاحظنا انكماش جسوم الموميات بعد تحنيطها وتداخل ذراتها في بعضها بما يقصر من أطوالها . وعلى هذه النسبة يكون مقدار طول الانسان اذا اعتبرنا تقدير فلاماريون لا ينقص عن ٢٥ متراً .

وعلى كل حال فهذا مقام يصعب أن يوصل البحث فيه الي حقيقة ثابتة ، لانه مبني على فروض يقربها بعضهم من الحقيقة ويبعدها آخرون عنها على حسب الشكل الذى يقع من صورتها في مخيلاتهم والله تعالي أعلم بما كان وما يكون .

وصول الجناب العالى الى جدة

وسفره منها الى بحرة

ومما يذكر فى تاريخ جدة تشريف الجناب العالى الخديو اليها يوم الثلاثاء غرة ذى الحجة سنة ١٣٢٧ قاصداً تأدية فريضة الحج الشريف . فلما أشرقت شمس هذا النهار حتى أخذ الناس يردون الى الميناء زمراً زمراً و فى مقدمتهم علية القوم وأعناقهم متطاولة الى عرض البحر لرؤية وابور المحروسة المقل لهذه الذات العباسية المحبوبة . وفى نحو الساعة الثالثة العربية نهاراً حضر أصحاب السيادة والسعادة على بك وفيصل بك والشريف زيد أنجال سيادة شريف مكة ومعهم حضرات القائمقام وقومندان القوة العثمانيــة الموجودة بجدة وسعادة مكتوبجى الولاية الذى وفد للسلام على الحضرة الخديوية بالنيابة عن الدولة العلية والتشرف بمرافقة الجناب السامى بصفته مهمندارا مدة وجوده حفظه الله فى الأقطار الحجازية يتلوهم حضرات مدير البوستة والتلغرافات و وكيل شركة البواخر الخديوية وغيرهم من مستخدمى الحكومة العثمانية . وقبل أن تظهر أى اشارة تنبئ بقرب الركاب العالى ركبوا جميعاً الزوارق ونزلوا الى عرض البحر انتظاراً لمقدمــه الشريف . وكانوا قبل شروق الشمس قد أرسلوا الوابور الحربى العثمانى المقيم فى مياه جدة لاستقبال المركب الخديوية المحروســة على بعد سبع ساعات أو أكثر من مياهها .

وفى نحو الساعة السابعة العربية نهاراً ظهر دخان المركب فى الافق ، ومازالت تقرب شيئاً فشيئاً حتى ألقت مراسيها فى الساعة الثامنة . وهنالك قربت منها الزوارق وصعد الاشراف ورجال الحكومة للسلام على مولانا الخديو وتبليغه سلام مولانا أمير المؤمنين وتهانى الدولة العلية مع تحية سيادة الشريف ودولة الوالى . فقابلهم حفظه الله بما جبل عليــه من البشر والايناس والحفاوة والاكرام ، وبعد ساعة رجعوا والسنتهم كلها شكر وثناء على مكارم أخلاقه وكمال آدابه .

وما غربت شمس هـذا اليوم حتى بدت دار البلدية تختال فى حلل زينتها من جهة البر، وتألقت أنوار المراكب البخارية على اختلاف جنسياتها من جهة البحر ، وذهبت ساريات السنابك فى السماء بمصابيحها التى كانت كأنها النجوم الزواهر . وبالجملة فقد كان يوما مشهودا وليلة فـذّة فى بابها لم ير أهل جدة مثلهما بالمرة ، كما أنهم لم يشاهدوا عناية الدولة العلية بمثل احتفائها بهذه الذات الكريمة واهتمام دولة الشريف بما فيه راحة جنابه الرفيع : وأى رجل اصطفاه مولاه الى حج بيته الكريم كالعباس حفظه الله ، دعاه ربه فلباه ، وقد كشف عن رأسه تاج ملكه ونزل الى صفوف بقيـة الخلق فى تقشفهم فى ملابسهم وغذائهم ، ينام على الغبراء ويلتحف السماء ، ويركب الصعب ، ويسير بين حرارة الشمس وبرودة الليل ، فى طريق تعزرو عثاؤه ، وتكثر حصباؤه ، ولا ينقطع اعصاره ، كما لا تتناهى أخطاره . فلا غرابة اذا كانت عين الله تـكلؤه وعنايته تحرسه وقلوب الخلق ترمقه بكل تجلة واحترام .

وقبل فجر يوم الاربعاء ثانى ذى الحجة أخذت العساكر تغدو وتروح فى ميادين البلدية التى اكتظت بالجموع من عساكر الحرس الخديوى من جهة ، وعساكر الدولة وجند البيشة[١] من جهة أخرى .

وقبل الشروق ظهر من اليم الزورق البخارى المقل لمولانا الخديو حفظه الله فضرب النفير وأطلقت المـدافع من طابية المدينـة . وهنالك انتظمت العساكر على شبه دائرة مستطيلة نصفها الشرقى من رجال الحرس الخديوى ، والنصف الثانى نصفه من عساكر الدولة العليـة ونصفه الآخر من عساكر البيشة ، وطرفا هذين القوسين من باب القورنتينة الى باب البلدية .

وبعـد نصف ساعة شرف الركاب العالى على سلم القورنتينة ، وكانت ساحتها مفروشـة بالسجاجيـد العجمية وقد اصطف على جانبيها رجال الدولة العلية من جهة ، ومن الأخرى أصحاب السعادة أنجال دولة الشريف ومن حضر معهم من الأشراف لأداء واجب التحية . نطلع حفظه الله على الاسكلة وهو فى لباس احرامه كالبدر فى تمامه ، وسار وهو يحيي هـذه

١) بيشة قبيلة موجودة في شرق بلاد العرب وجنودها يركبون الهجن بلباسهم العربي وهم في نظامهم أشبه بالباشبوزوق وكل عساكر الشريف منهم وهم مشهورون بالشجاعة والامانة .

الجموع بيده الشريفة، يتلوه صاحب الدولة البرنس كمال الدين باشا، وفضيلة الشيخ بكرى الصدفى مفتى الديار المصرية ، وحضرة عزتلو على بك لبيب طبيب سموه فى هذه الرحلة المباركة ، وغيرهم من الياوران الكرام و بعض رجال حاشيته . وكان جواده على سلم القورنتينة فركب حفظه الله بين عزف الموسيقات المصرية والتركية ودعاء الجنود وهتاف الجمهور، و ركب من خلفه دولة البرنس وسعادة حسين محرم باشا مهمندار الخصوصى، ثم الياوران تتقدمهم ثلة من الحرس بهيئة باشدار (حرس أمامى) ، يحيط بهم جميعاً فرقة من الجند . ثم ركب فى أثرهم أنجال الشريف ومعهم مندوب حكومة الحجاز وجم غفير من الأشراف، تتلوهم جنود البيشة ثم قومندان نقطة جدة ومعه فرقة من عساكر الدولة . وسار حفظه الله بهذا الموكب الحافل إلى باب المغاربة ومنه إلى الباب الشامى وهنالك كان فى انتظاره مشايخ العربان من أشراف وغيرهم على هجنهم وساروا جميعاً فى ركابه العالى إلى بحرة .

والطريق من جدة الى مكة يبلغ طولها نحو ثمانين كيلومتر، وهى تدخل بعد ساحل جدة فى واد بين جبلين أعلاهما يسمى القائم، ثم تمر فى طريق على جبل الرغامة، ثم على جبل أم السلم و به قهوة العبد[1]، ثم يأخذ الوادى فى الميل الى الجنوب الشرقى فيمر بقهوة جراده، ثم يصل الى بحرة، وهنالك يتسع الوادى و يقطعه واد آخر من الشمال الشرقى الى الجنوب حتى يتصل بالبحر اسمه وادى مر (وادى فاطمة): وهو واد عظيم من أشهر أرض الحجاز خصوبة و يسكنه كثير من قبائل أشراف ذوى حسين وهم يملكون أغلب أراضيه، وفيه عيون ماء كثيرة ولذا يزرع به جميع أنواع الخضروات التى تأتى الى مكة ، و يقطعه الطريق السلطانى بين مكة والمدينة فى نقطة يوجد فيها بساتين من نخيل وأعناب يتخللها مجرى ماء يأتى من جهة الشرق (يسمونه نهرا) وكتلة الماء فيه أقل من متر مكعب وأكثر فواكه تلك البساتين من البرتقال والليمون: وأرى أنه لو عملت بهذه الجهات آبار ارتوازية لكانت تأتى بفوائد جمة .

و بحرة نزلة بها جملة أكواخ يسكنها بعض الاعراب ، وفيها عشش عمومية واسعة

(١) هو ضابط سوداني عثماني كان مقيما بهذا المكان من طرف الدولة وأظهر شجاعة وحسن تدبير في تأمين الطريق فنسب اليه .

يسمونها قهاوى، يستريح فيها من أراد من الحجاج وخصوصاً راكبى الحمير والهجن لوجود ما يلزمهم بها من خبز وجبن وبلح وبعض الفاكهة والقهوة والتنباك، وفى جوارها أفنية واسعة محاطة بأسوار من الجريد تربط فيها جمال الحجاج ودوابهم، وأغلب القوافل تبيت فيها. ويأخذ الطريق من بحرة نحو الشرق بميل الى الشمال فيمر على حدّة ويبيت فيها بعض القوافل، ثم على قهوة سالم ويقرب منها الى الشمال الغربى قرية الحديبية، ثم يمر على جبل الشميسى، ثم على المقتلة، ثم الهجالية، ثم البستان، ثم قهوة المعلم، ثم الشيخ محمود وهو باب مكة وفيه قبر جار الله الزمخشرى صاحب التفسير الشهير المسمى بالكشاف وكان قد أتى اليها حاجاً سنة ٥٣٨ فمات بها يوم التروية ودفن بهذا المكان. وكل هذه القهاوى شبه أكواخ يجد الحاج فيها بعض الراحة. أما الجبال على طول الطريق فتراها حمراء أو مائلة الى الخضرة أو الصفرة، وهذا مما يدل على أنها غنية بالمعادن المختلفة كالحديد والنحاس وغيرهما. وعلى طول الطريق أربع عشرة قلعة يوجد فيها الجند العثمانى على الدوام، وبعضها قديم من عمل الشريف غالب أو محمد على باشا والى مصر، والبعض من بناء الدولة العلية من عهد ليس ببعيد خصوصاً بعد ما كثر مجىء الحاج بحراً.

أما ما كان من أمر صاحبة الدولة والعصمة والدة الجناب العالى فانها نزلت من المحروسة الى البر فى منتصف الساعة الثالثة العربية نهاراً، وكان فى انتظار دولتها على الاسكلة بعض رجال الحاشية، وكان بعض مأمورى الحكومة العثمانية على بُعد من الباب العمومى، فركبت حفظها الله مع صاحبتى الدولة الاميرتين كريمتى الحضرة الفخيمة الخديوية عربة من طراز (لاندو) يجرها أربعة بغال، وركبت دولة الاميرة فاطمة هانم أفندى مع بعض القلفوات (كبيرات الحاشية) عربة أخرى من عربات دولة الشريف، وباقى القلفوات ركبن فى هوادج يتلوها هودج سعادة ألماس أغا باش أغاى السراى الخديوية، وعنايتلو كاظم أغا باش أغاى دولة الوالدة، ويتلو ذلك شقادف بعض رجال المعية السنية ثم جمال الحملة. وسارت عربة دولة الوالدة يحيط بها فوارس الحرس الخديوى وفى مقدمتهم عسكر الشريف ومن خلفها حرس الدولة، والناس على جانبى الطريق بحال لم يسبق لها مثيل، ولسان الجميع

يلهج بالثناء والدعاء . ومازال هذا الموكب على نظامه الجميل حتى خرج من باب جدة الشرقى المسمى باب مكة ، و بعد ذلك سارت دولة الوالدة مع رجال الحرس الى بحرة حيث استقبلت أحسن استقبال ، ونزلت فى الدائرة المخصصة لاقامتها مع حاشيتها .

وهنالك كنت ترى معسكر الجناب العالى فى نظام لم يسبق له نظير بالمرة ، والى شرقيه سرادق حضرات أنجال الشريف التى مدت فيه ظهر ذلك اليوم مائدة على النظام الأفرنكى تسع نحو مائة مدعوّ لضيافة سمو الامير ومن فى معيته ، وعلى الخصوص فى العشاء الذى حضره مولانا الخديو ، وكان أناب عنه فى الغداء دولة البرنس أحمد كمال الدين باشا . أما النظام والزينة فى هذه المائدة فقد كانا مدهشين جداً لعدم انطباقهما بالمرة على حال هذه البداوة التى رأينا أنفسنا ساعة ونحن بين فيافيها كأننا بين جدران الهوالكبير فى نزل الكونتيننتال بالقاهرة أثناء مأدبة من المآدب الكبرى : نعم كنت تجد الطعام على كثرة صنوفه جمع الى نظافته لذة طعمه ، وكانت ثريات النور الأبيض تتلألأ منتشرة فى أرجاء الصيوان مما كان ينير جو بحرة بأجمعه حتى لكأننا فى رابعة النهار . وكان يزيد فى رواء هذه الحفلة تلك الآداب العالية التى كنت تراها فى أنجال سيادة الشريف . و بعد العشاء بارح الجناب العالى صيوان الأشراف بين صنوف التبجيل والتكريم ، فاصطفت مشايخ العربان من أشراف وغيرهم فسلم حفظه الله عليهم شاكراً لهم ضيافتهم وهم له شاكرون تفضله بقبولها .



دخول الجناب العالى الى مكة

— وأيامه بها قبل عرفة —

بعد تناول العشاء فى صيوان أنجال الشريف فى بحرة استراح الجناب العالى قليلا فى سرادقه، وفى نحو الساعة الحادية عشرة أفرنكى مساء، امتطى حفظه الله جوادا كريما قاصداً مكة ، يتبعه دولة البرنس كمال الدين باشا وحضرة السرياور و بعض الحاشية . وسار الكل فى ركابه حتى اذا وافى جبل الشميسى وجد فى انتظار سموه سعادة خيرى باشا مدير الأوقاف الخصوصية ، وقدم لحضرته العلية عطوفة أمين بك القائم بأعمال ولاية الحجاز ثم سعادة قومندان القوة الشاهانية بها . و بعد تبادل التحية ساروا مع سموه حتى وصلوا الى قهوة البستان وهى على بُعد ثلاث ساعات من مكة . وهنالك كان دولة الشريف حسين باشا أمير مكة المكرمة فى جمع من علية بيته وأكابر قومه استقبالا لجنابه الفخيم ، وأراد الشريف أن يترجل عن جواده احتراما لجنابه العالى ، فاقسم عليه سموه بان لا يفعل ، و بعد تبادل التحيات وعبارات التهانى ساروا جميعاً حتى وصلوا الى الصواوين التى أعدتها الحكومة خارج مكة احتفالا بقدمه الشريف ، وكان العلماء والوجهاء والأعيان والتجار فى انتظار قدومه السعيد بها . فنزل حفظه الله فى سرادق مخصص لتشريفه ، و بعد شرب القهوة قدم له دولة الشريف حضرات أعضاء بلدية البلد الحرام : وفى مقدمتهم الشيخ الشيبى ، ثم حضرات قاضى مكة ، ومفتيها ، ونائب الحرم ، والسيد عبد الله الزواوى رئيس قومسيون عين زبيدة وقومسيون المعارف وغيرهم من العلماء والاشراف والأعيان ، فابدى سموه لهم شكرانه وعظيم امتنانه ، ثم امتطى جواده قاصداً مكة ، وسار بمن كان معه من وسط جنود القوة الشاهانية المقيمة بها ، وكانت قد اصطفت على جانبى الطريق الى ثكنة (قشلاق) الحميدية لأداء واجب التعظيم وأمامها حضرات قومندانها وضباطها بالتشريفة الكبرى ، وفى هذه الفترة كانت الموسيقى تصدح بالسلام الخديوى .

ودخـل مكة حفظه الله من باب جرول حيث كان حرس المحمـل واقفا لاداء واجب السلام، وسار فى طريق الشُبَيْكة والناس على جانبيه كأنهم البنيان المرصوص والكل يبتهل الى الله بحفظ هذه الذات السنية ، ثم مرّ امام التكية المصرية ودار الحكومة الحجازية ودار البلدية وكانت كلها مزينة بأحسن زينة ، ووصل الى باب الحرم الشريف فجر يوم الخميس ثالث ذى الحجة وصلى الصبح مع الامام المالكى، ثم طاف طواف القدوم، وخرج الى السعى بين الصـفا والمروة حيث اصطفت الحجاج على اختلاف أجناسـهم وفى مقدمتهم الحجاج المصريون على طول المسعى ،وكان كلما مرّ عليهم ساعياً لله ارتفعت أصواتهم مكبرين مبتهلين وأفئدتهم ترفع الدعاء الى رب الارض والسماء بحفظ هذه الذات العباسية المحروسة، وأعينهم تذرف دموع الفرح لمشاهـدة أنوار مليكهم المحبوب ، الذى استولى بعدله وفضله ورحمته ونعمته على القلوب، فيالها من ساعة كنت ترى فيها هذا المليك الفخيم ولا عرش يقله ، ولا تاج يظله ، وقد تجرد عن فخامـة الملك بل عن مظاهر الدنيا بأجمعها وسعى بين يدى الله سبعة أشواط كانت قلوب الناس فى أثنائها تسعى بين يديه الكريمتين ! يالها من ساعة ما كنت تسمع فيها الا زغردة النساء وآى الدعاء ومظاهرة الرعية الصادقة بالاخلاص والولاء، حتى كأنما الكل أهـل بيت واحد خرجوا لاستقبال والدهم وسيدهم وعائلهم وولى نعمتهم بعد غياب طويل . وأحسـن ما يذكر فى هذا المقام أن سيادة الشريف أشار عليه بالسعى راكباً لعدم المحظور شرعا خصوصاً وهو فى تعبه الشديد بعد هذا السفر الطويل ، فامتنع سموه قائلا « ما علىّ لو غبرت قدمى ساعة فى سبيل الله » .

و بعد السعى قصد حفظه الله دار الامارة فى سوق الليـل ، وكانت قد أعدت لاقامته مدة وجوده بمكة . وكان دولة الشريف قد استأذن جنابه العالى عند دخوله الحرم الشريف وسبق اليها استعداداً لمقدمه السعيد . ولما وصـل الركاب العالى كان دولته فى انتظاره على باب السراى العامرة ، فرحب به ترحيباً يليق بمقام الزائر وكرم المزور ، وصعد مع سموه الى قاعة الاستقبال الكبرى و بعد تكرار آيات التهانى انصرف دولته مودعا بكل شكر واحترام.

وهذه السراى كان قدبناها الحاج محمد على باشا والى مصر سنة ١٢٢٨ لتكون داراً الحكومة الحجاز ، ولما ترك ولايتها جعلت مقر الامارة مكة الى الآن لذلك لم يردولة الشريف أجمل مناسبة يجدد بها الذكرى الطيبة لجد هذه العائلة الكريمة الفخيمة الا تقديم أثر من آثار نابغة القرن الثالث عشر الهجرى الى هذا الحفيد الجليل ، ليقرأ فى عظمة أروقته بعض آيات آبائه الاكرمين : وفى هذا اشارة لطيفة الى عدم نسيان دولة الشريف ما كان لمحمد على باشا على عائلته الكريمة من اليد البيضاء ، لانه هو الذى عين فى امارة مكة جدهم محمد ابن عون سنة ١٢٢٩ ، ومن ثم وهى فى أيدى بنيه الى اليوم .

وما طلعت شمس هذا النهار المبارك حتى اطلقت المدافع من قلاع مكة ترحيباً بمقدم الجناب الخديوى ، و بعد الظهر تبادل سموه الزيارة مع سيادة الشريف ، ثم تشرف عطوفة القائم بأعمال الولاية بزيارة جنابه العالى ، وفى الساعة الرابعة بعد الغروب نزل حفظه الله للطواف ببيت الله المعظم .

أما دولة الوالدة فانها حفظها الله ركبت من بحرة بمعيتها فى فجر اليوم المذكور و وصلت الى مكة قبيل الغروب ، فدخلتها فى موكب من أفخر ما رأى الراءون وسمع السامعون بين اطلاق المدافع وعزف الموسيقات وهتاف الجموع المحتشدة على الطريق ، ومازال موكبها الجليل سائراً حتى وقف أمام باب الصفا حيث نزلت دولتها الى دار باناجا (١) باشا التى كانت أعدت لاقامتها فيها مدة وجودها بهذا البلد الامين . و بعد هزيع من الليل طافت دولتها طواف القدوم ، ثم سعت فى عربتها مع صاحبات الدولة والعصمة الاميرات الفخيمات .

وما بزغت شمس يوم الجمعة رابع ذى الحجة حتى أخذ الالاف من الناس يفدون على باب الدار الخديوية : هذا رافع يده للدعاء ، وذلك باسط كفه للعطاء ، وتسابق كبار المصريين لكتابة أسمائهم فى سجل التشريفات قياما بواجب تحية القدوم . وفى ضحوة النهار ركب سموه قاصداً دار الولاية لرد الزيارة الى عطوفة القائم باعمالها ، فاستقبل سموه بكل ما يمكن من مظاهر الاجلال والاحترام . وكانت

---

(١) وهذه الدار أيضاً من آثار محمد علي باشا كان قد ابتناها واليه على الحجاز المرحوم أحمد باشا يكن ثم ابتاعها باناجا باشا من ورثته سنة ١٣٠١ ه

فرقة من الجنود الشاهانية مصطفة على جانبى الطريق الى بابها ، ولما وصل ركابه العالى عزفت الموسيقى بالسلام الخديوى ، فأسرع عطوفة القائمقام الذى كان ينتظر على بابها مرحباً بمقدم سموه ، ثم استصحب جنابه العالى الى قاعة الاستقبال شاكراً له تفضله بهذه الزيارة ، وبعد شرب القهوة قدم لسموه حضرات العلماء والمأمورين الملكيين والعسكريين وحضرات أعضاء المجلس البلدى والاعيان والتجار الذين حضروا استعداداً للتشرف باستقبال جنابه الفخيم ، وكانت الموسيقى الشاهانية طول هذه المدة تطرب الحاضرين بنغماتها الشجية . ثم انصرف برعاية الله مودعا بكل حفاوة واعظام لزيارة التكية المصرية ، فاستقبل بما يليق بمقامه الرفيع ، وتفقد محالها ومخازنها ومطبخها وتنازل حفظه الله فأكل من خبزها ، وبعد أن أعطى التنبيهات اللازمة بزيادة العناية بأمر الفقراء وشدة الاهتمام بهم ، رجع الى دار الامارة وزار دولة الشريف .

ولما قرب وقت الظهر قصد حفظه الله الحرم الشريف لصلاة الجمعة ، وكانت أعدت له القبة التى فى أعلى بئر زمزم ففرشت بأصناف السجاجيد العجمية والبسط الفاخرة . وكنت فيمن سبق اليها الشرف القيام بخدمة استقباله بها : فدخل سموه من باب الصفا يحف به عدد عظيم من الأشراف وبعض ضباط الحرس الخديوى ، فزغردت النساء اللاتى كن فى محلهن من المسجد على يمين الباب فرحا بمقدمه السعيد ، وهنالك علت الأصوات من ارجاء المسجد بالتكبير والتهليل بما لم يسبق له مثيل : نعم علت الاصوات الى رب السموات الذى عظم شأنه وتجلى سلطانه وظهرت ربوبيته هنا بأكمل مظاهرها . فاذا قلت ان العالم كله ملكه قلنا ولكن مكة عاصمته ومظهر سلطانه وجبروته ، والكعبة بيته ومكان عظموته ورحموته . وأى مكان فى أطراف المسكونة لا يبلغ مسطحه ثمانية عشر الف متر مربع مع أنه يحتشد اليه زمن الحج فى وقت واحد نحو نصف مليون من النفوس ، والكل يدعون الله بقلب واحد ولسان واحد ، وهم وان اختلفت جنسياتهم وتباينت لغاتهم يتوجهون الى قبلة واحدة ، ويتحركون فى صلاتهم بحركة واحدة ، وهم لا يرجون غير رحمة الله الواحد الأحد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

ولما صعد الخطيب المنبر صعد معه أحد الاغوات وجلس على الدرجة التى تلى قدميه : وهذا بلاشك عادة قديمة كانت للمحافظة على الخطيب أثناء اشتغاله بالقاء الخطبة حتى لا تتسرب اليه يد أثيمة ، وأظن أنهم استغنوا عن ذلك فيما بعد بعمل ابواب للمنابر خصوصاً وقد صارت الخطبة لغير الامراء والرؤساء . وعقب هذه الخطبة التى لم تخرج عن مثيلاتها فى دواوين الخطب البسيطة، أنعم الجناب العالى على الخطيب بخلعة سنية ألبسه اياها سعادة حسين محرم باشا ، ثم صلى الخطيب بالناس تحت جدار الكعبة المكرمة بين المعجن وبابها الشريف . وكانت السماء فى أثناء الخطبة قد تلبدت بالغيوم ثم فاضت بغيثها المدرار أثناء الصلاة فلم يتزحزح الناس عن مراكزهم واستبشر جميع الخلق بهذه الرحمة التى كانت قد انقطعت عن بلاد الحجاز من ست سنوات ، وكان هذا أحسن فأل لحج الجناب العالى الخديوى . وبعد الصلاة خرج حفظه الله من باب الصفا بين صفوف الحرس الخديوى الذى حال بين سموه وبين أولئك الألوف المتزاحمة لمشاهدة محياه الشريف ، وألسنتهم تلهج بالدعاء له، وخصوصاً أهل جزيرة العرب الذين فرحوا بهذا الغيث الذى أكرم الله به وفادة ضيفه الكبير .

وفى صباح يوم السبت خامس ذى الحجة قصد حفظه الله زيارة الاماكن المباركة فى ركب من حاشيته ملكيين وعسكريين، فذهب الى المعلاة (المعلى) ،

وبعد زيارة ما فيهما من الاماكن المباركة أمر فوزعت الصدقات على من كان هناك من جيوش الفقراء والمعوزين، ثم امتطى جواده وصعد بحاشيته الى طريق الحَجُون فرعلى السلخانة وقصد جرول لزيارة المحمل المصرى، فاستقبل استقبالا فخيما، وقدم لسموه أمير الحاج جميع ضباط ومستخدمى المحمل فتشرفوا بلثم راحته الكريمة، وبعد أن أوصاهم حفظه الله بزيادة العناية بواجباتهم فى هذه البلاد المقدسة اعتلى صهوة جواده وسار تحيطه المهابة وتلازمه الكرامة الى زيارة مولد النبى صلى الله عليه وسلم، ثم مولد سيدنا على كرم الله وجهه، وبعد ذلك قصد حفظه الله دار الارقم المخزومى فزارها وعاد الى السراى العامرة .

و بعد ظهر هذا اليوم استقبل الجناب العالى كثيرا من الزائرين من علماء وأعيان مكة ومن بينهم أعضاء قومسيون عين زبيدة وفى مقدمتهم حضرة رئيسه السيد عبد الله الزواوى . و فى الساعة الخامسة العربية بعد غروب اليوم المذكور قصد زيارة بيت الله الحرام ، ففتح بابه و وضع اليه المدرج المنبرى ، وأوقد مافيه من الشموع حتى صار كانه قطعة من نور على نور . فصعد حفظه الله على المدرج ، يتبعه دولة الامير كمال الدين باشا فرجال حاشيته عسكريين وملكيين ، وهنالك صلى ركعتين لله تعالى فى القبلة التى فى مقابلة الباب (وكانت مصلى النبى صلى الله عليه وسلم) ثم اتجه الى الجدار الشمالى فصلى ركعتين أيضاً ، ثم الى الجدار الشرقى فصلى مثلهما ، وكان الجميع يصلى كذلك ، والكل فى غاية مايمكن من الخشوع تلقاء هذا الملكوت الاعظم والرهبوت الأفخم اللذين تصغر أمامهما النفوس الكبيرة حتى يكاد يتصل وجودها بالعدم : ولولا ما كنا نشاهده من تحرك الجسوم فى هيئة الصلاة ، و رفع الايدى بالدعوات ، واضطراب الشفاه بالتضرعات ، وما كنا نسمعه من دقات القلوب أمام هذه العظمة اللامتناهية ، لحسبنا أنفسنا فى حياة غير هذه الحياة : وفى الحقيقة فقد كنا فى هذه الساعة فى عالم آخر . نعم كنا فى بيت الله ، وفى حضرة الله من غير ما واسطة ، وليس فينا الا رأس يخضع ، ولسان يضرع ، ودعوات ترفع ، وعيون تدمع ، وقلب يهلع ، واخلاص يشفع . و بعد أن أقمنا على هذه الحال ساعة خرجنا وقلوبنا تقبض أقدامنا عن السعى لحيثات تزيد فى تمتع النفس بهذه التجليات العظمى ، وعاطفة الادب تدفعها بموجبات الاحترام والاحتشام . و بعد نزولنا من البيت المعظم طاف حفظه الله حول الكعبة ، ثم زار مقام الخليل ابراهيم ، ثم عاد الى مقامه شاكراً الله على توفيقه لزيارة بيته الكريم .

وقضى جنابه العالى يوم الاحد فى استقبال كثير من الناس على اختلاف أجناسهم ، وفى المساء أولم وليمة فاخرة لسيادة الشريف وأصحاب السعادة أنجاله الكرام و وكيل الولاية ونحو عشرين من علية القوم والأشراف وكبار المأمورين وحضرات القاضى والمفتى وشيخ الحرم ومديره وقومندان العساكر الشاهانية ورجال المعية السنية ، و بعد العشاء انتقلوا الى البهو الكبير وكان حفظه الله يؤانسهم بلطفه ومكارم أخلاقه . و بعد شرب القهوة قام عطوفة أمين بك

أفندى وكيل الولاية والقائم بأعمالها، وارتجل خطابة غاية فى البلاغة جمعت الى جزالة اللفظ رقة المعنى . ومما جاء فيها بعد ترحيبه بمقدم الجناب العالى الى هذه الديار المقدسة : أنه منذ وجوده فى مركز الولاية وهو يدرس بكل اعجاب وافتخار أعمال المرحوم محمد على باشا فى ولاية الحجاز ، وما عمله فيها من ترتيب ونظام ، وما حبس على أهلها من الاوقاف الواسعة ، وما ربط لهم من المرتبات الجسيمة التى لا تزال ترسل اليهم من حكومة مصر سنويا فينال منها الكبير والصغير ، وتساعد على حياة كل بائس فقير . وبعد ما انتهى ذلك الخطيب من خطابه البليغ شكر له الجناب العالى فصاحته ولطفه وأدبه ، ثم أخذوا فى السمر الى منتصف الليل ، وانفض عقد الجمع وكلهم ألسنة شكر للجناب العالى على عظيم كرمه ، وحسن لقائه ، وجميل ملاطفته ، و واسع معرفته ، وكبير آدابه . وقضى حفظه الله يوم الاثنين سابع ذى الحجة فى استقبال كثير من الزائرين ، ثم تزاور سموه مع دولة الشريف ، وفى المساء طاف بالكعبة المعظمة ، ثم رجع الى دار الامارة ، وأمر حفظه الله بالاستعداد الى الخروج لعرفة .

الطريق القديم والحديث

من مصر الى الحرمين

كانت مصر ولا تزال طريق المسلمين الى حج بيت الله الحرام و زيارة نبيه عليه الصلاة والسلام ، فى نصف الكرة الارضية الغربية باعتبار أن مكة المكرمة هى قلب [1] العالم ، أو النقطة المركزية التى تنبعث منها أنصاف أقطار الى محيط جميع دائرة الاقطار : فالاندلسى الذى كان يسكن فى غرب أوربا ، والمغربى الذى فى غرب أفريقا ، وما دونه من مسلمى البربر ، فالسنغال ، فبلاد التكرور ، والسودان الغربى والشرقى كانوا اذا قصدوا الحج الى بيت الله الحرام

١) واليهود يقولون ان قلب العالم فى المكان الذى به تابوت العهد بالقدس ، والنصارى يقولون انما هو فى كنيسة القيامة ببيت المقدس وفيها كرة من الرخام يبلغ قطرها نحو ثلاثين أو أربعين سنتيمتر مرفوعة على قاعدة من الرخام أيضاً ، ويزعمون ان هذه الكرة موضوعة فى المركز الحقيقى للكرة الارضية .

سافروا من بلادهم الى مصر بحرا أو برا، ولهذه الغاية كان يقصدها كذلك كثير من أهالي الشام والترك والقوقاز والقريم وبخارى وقازان وغيرهم من مسلمى شمال الروسيا وسيبريا وجزائر البحر الابيض المتوسط . ويجتمع الكل بالقاهرة قبل شهر رمضان، ثم يسيرون منها الى قوص ومسافتها ٦٤٠ كيلو متر كانوا يقطعونها برا أو فى النيل فى نحو عشرين يوما، ثم تسافر قوافلهم منها فى الصحراء الشرقية مدة ١٥ يوماً يقطعون فيها نحو ١٦٠ كيلومتر الى عيذاب أو الى القصير على البحر الاحمر . وكان كل من هاتين القريتين ميناء لمصر الشرقية من قديم الزمان، أى أنهما كانتا من مصر بالامس مكان ميناء السويس الآن . وكانت الاولى منهما أهم من الثانية، وكلتاهما كانت فى أيدى عرب البجاه[1] الذين كانوا يتولون نقل الحجاج

[1] قبائل البجاه أو البجه يقال انهم من البربر، وكانوا يسكنون في صحراء مصر الشرقية من سواكن الى قرية يقال لها الخزبة في صحراء قوص وهذه الصحراء عامرة بمعادن الزمرد والذهب والفضة والحديد وفيها مغاير وآبار قديمة لاستخراجها، وهي طبعاً من عهد قدماء المصريين وبعضها من عمل محمد على باشا والي مصر وكانت العرب تستخرج منها المعادن (وخصوصاً التبر) فى القرن الاول والثاني للهجرة وذلك باتفاق مع ملك البجه الذي كان مقره اسوان . وكان ينال المسلمين منه ومن قومه أذى كبير فأرسل المأمون اليه عبدالله بن الجهم فكانت له معهم وقائع، ثم وادعهم وكتب بينه وبين كنون رئيسهم كتابا نذكر لك طرفا منه لتعرف مقدار التسامح الاسلامى مع أهل الذمة وكيف أنه كان لا يفرق بينهم وبين المسلمين فى المعاملة :

هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الامير أبي اسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله ، فى شهر ربيع الاول سنة ست عشرة ومائتين ، لكنون بن عبدالعزيز عظيم البجه باسوان، انك سألتني وطلبت الي أن أؤمنك وأهل بلدك من البجه وأعقد لك ولهم أمانا على وعلى جميع المسلمين، فأجبتك الى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أمانا ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتني وشرطت لي فى كتابي هذا، وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد اسوان من أرض مصر الى حد ما بين دهلك و باضع ملكا للمأمون عبد الله بن هارون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى، وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لامير المؤمنين، الا أنك تكون في بلدك ملكا على ما أنت عليه فى البجه ، وعلى أن تؤدي اليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجة، وذلك مائة من الابل أو ثلثمائة دينار وازنة داخلة فى بيت المال، والخيار في ذلك لامير المؤمنين ولولاته، وليس لك أن تخرم شيئاً عليك من الخراج ، وعلى أن كل أحد منكم ان ذكر محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به أو قتل أحداً من المسلمين حراً أو عبداً فقد برئت منه الذمة ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين أعزه الله وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم، وعلى أن أحداً منكم ان أعان المحاربين على أهل الاسلام بمال أو دل على عورة

على ابلهم فى هذه الصحراء، وكانت أخلاقهم على غاية من الفظاعة، لا شفقة فيهم ولا رحمة، وربما بلغ بهم الأمر الى تغيير طريق الماء على القافلة لغرض شنيع وهو أن ركابها يموتون عطشاً فيستولون على متاعهم .

وفى هذه الصحراء قبر العارف بالله أبى الحسن الشاذلى قرب مكان يقال له (أمتان) توفى فيه سنة ٦٥٦ فى طريقه من المغرب الأقصى الى الحجاز ودفن به . وأهل هذه الجهة يعملون له مولداً سنويا من أول ذى الحجة الى التاسع منه ويقصد زيارته فى هذا المولد كثير من أهل الصعيد والعربان والمغاربة .

وكان الحجاج يقيمون فى عيذاب أو القصير نحو شهر من الزمان فى انتظار الفلايك التى تحملهم الى جدة ويسمونها جلابا (واحدتها جلبة) ، وهى سفن صغيرة غير محكمة الصنع وشراعها فى الغالب من الحصير . وكان أصحابها يتعسفون بالحجاج فيشحنونها بأكثر من حمولتها : وكثيرا ما كانت تغرق فى وسط البحر بمن عليها من الحجيج الذين يذهبون ضحية مطامع أولئك الاشرار ، ومن وصل به طول عمره الى جدة وصلها فى نحو أسبوعين يتقلب فى أثنائها بين تحكم الملاح ، وتبرم الرياح ، وانزعاج الماء ، واضطراب الهواء .

ولقد حج من هذا الطريق ابن جبير الأندلسى سنة ٥٧٩ فقطع المسافة بين القاهرة وجدة فى نحو شهرين ونصف ، قضاها فى أسوأ حال ، بين مشقات وأهوال ، مما هو مبين فى

من عورات المسلمين أو أثر لغرتهم فقد نقض ذمة عهده وحل دمه ، وعلى أن أحداً منكم ان قتل أحداً من المسلمين عمداً أو سهواً أو خطأ حراً أو عبداً أو أحداً من أهل ذمة المسلمين أو أصاب لاحد من المسلمين أو أهل ذمتهم مالا ببلد البجه أو ببلاد الاسلام أو بلاد النوبة أو في شيء من البلدان براً أو بحراً ، فعليه في قتل المسلم عشر ديات وفى قتل العبد المسلم عشر قيم وفي قتل الذمى عشر ديات من دياتهم ، وفى كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه ، وان دخل أحد من المسلمين بلاد البجه تاجراً أو مقيما أو مجتازاً أو حاجا فهو آمن فيكم كاحدكم حتى يخرج من بلادكم ، ولا تؤووا أحداً من آبق المسلمين فان أتاكم آت فعليكم أن تردوه الي المسلمين ، وعلى أن تردوا أموال المسلمين اذا صارت فى بلادكم بلا مؤنة تلزمهم فى ذلك ، وعلى أنكم ان نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين لا تظهروا سلاحا ولا تدخلوا المدائن والقرى بحال ولا تمنعوا أحداً من المسلمين الدخول فى بلادكم والتجارة فيها براً ولا بحراً ولا تخيفوا السبيل ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمة ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمى مالا ، وعلى ان لا تهدموا شيئاً من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولا وعرضاً فان فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة الخ وباقي الكتاب لا يخرج عن هذا المعنى .

رحلته. وفى سنة ٧٢٥ سافر ابن بطوطة من مصر الى عيذاب ولكنه لم يجد فيها مركباً يحمله الى جدة مع من قصدها من الحجاج لان السفن التى كانت عينا بها أحرقت فى واقعة حصلت هناك بين الترك وعرب البجاة، فعاد منها الى مصر، ومنها الى بلاد الشام، ثم الى بغداد وسافر منها مع المحمل العراقى فى السنة التالية.

وكان يسكن فى هذه القرية (عيذاب) حاكمان : حاكم بدوى من طرف شيخ قبائل الباجة وآخر تابع لحاكم مصر، وكانا يأخذان عوائدمر ورعشرة جنيهات عن كل حاج مغربى وسبعة على الحجاج الآخرين، ويقتسمان ما يتحصل بينهما وبين أمير مكة !! واستمرت هذه المكوس حتى أبطلها صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٩٠ زمن الشريف مكثر بن عيسى ورتب له شيأ عوضاً عن نصيبه، ثم أعادها الاشراف من بعده على الداخلين من الحجاج إلى مكة، حتى ألزم الملك الناصر محمد بن قلاوون الشريف عطيفة بن أبى نمى سنة ٧٢٦ بابطالها فى نظير ما رتبه اليه من القمح الذى كان يحمل اليه فى مكة كل سنة.

والطريق بين قفط والقصير قديم جداً، فتحه رمسيس الثالث فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد لتداول التجارة بين مصر وبلاد اليمن والهند وبلاد العرب الذين كانوا كثيراً ما يهاجرون منها إلى مصر طلباً للتجارة أو للعيش فيها. وفى سنة ٣٢٠ قبل المسيح أخذت هذه الطريق أهمية عظمى زمن بطليموس فيلادلفوس، وصارت القصير هى الميناء الوحيدة التى تصل تجارة البحر الابيض المتوسط بالمحيط الهندى وبالعكس، وهو الذى حفر أغلب الآبار التى فى هذا الطريق وبنى على طولها مخازن للتجارة وأقام بجوارها قلاعاً ورتب لها الخفر اللازم لحراستها، وهو الذى بنى مدينة بيرنيس وقامت على أنقاضها فيما بعد قرية عيذاب (أنظر عيذاب فى الخطط التوفيقية). وفى هذه الجهة إلى الآن أطلال مدينة قديمة ذهب بعضهم إلى أنها أطلال مدينة اوفير التى كان سليمان بن داود يرسل بنى إسرائيل اليها فى القرن العاشر قبل المسيح لاستخراج الذهب من ضواحيها وورد ذكرها فى التوراة فى الإصحاح التاسع من أخبار الملوك الاول.

وما زال هذا الطريق هو الطريق الوحيد للحاج المصرى من القرن الاول الى سنة ٦٤٥ التى سافرت فيها شجرة الدر مع قافلة الحاج الى مكة لأول مرة عن طريق البر على العقبة . وفى سنة ٦٦٠ أخذ هذا الطريق الأخير أهميته حيث سير الظاهر بيبرس البندقدارى قافلة الحاج منه وأرسل معها الكسوة التى عملها للكعبة ، والمفتاح الذى أمر بصنعه لبابها الشريف ، ومن ثم أخذ يقل ذهاب الحجاج عن طريق عيذاب ، ولكنها استمرت طريقاً للتجارة بين الشرق والغرب .

ويظهر أن عيذاب ابتدأت تسقط أهميتها شيئاً فشيئاً بنسبة زيادة أهمية القصير ، نظراً لأن لها خليجا طبيعيا يجعل مياهها على الدوام فى أمن من التغيرات البحرية حتى تلاشى أمرها بالمرة ، ولا تزال أنقاضها فى جنوب القصير بمسافة عشرة كيلومتر .

ولقد اهتم العزيز محمد على باشا بطريق القصير عند سوق العساكر المصرية الى بلاد الحجاز لحرب الوهابية ، فهدسبله وأصلح آباره ، واستمرت عنايته به بعد ذلك لاشتغاله باستخراج ما فيه من معادن الذهب والنحاس .

وهذا الطريق مطروق الى الآن وبه دروب كثيرة تسمى مطارق : وأول محطة له بئر عنبر ، ويسير اليها المسافر من قنا أو من قفط : وهذه البئر كانت ساقية قديمة أصلحها المرحوم إبراهيم باشا نجل محمد على باشا ، وبنى بجوارها سبيلا لسقيا المواشى ، والى جانبها مكانا له قباب معقودة لاستراحة المسافرين ، وقرر فى الرزنامجة الى خادم هذه البئر ستة جنيهات سنويا لا تزال تصرفها المالية الى من يقوم بأمرها . ومن هناك يسير الطريق الى الشمال الشرقى فى درب يسمى مطرق جيف الكلاب (لأن هناك مغاير مصرية قديمة كان بها جثث كلاب كثيرة محنطة) حتى يصل الى محطة اللقيطة ، ويقيم بها أناس من قبيلة العشابات من عرب العبابدة وهم نخذ من البجاة ، وفى هذه المحطة نخيل وجملة آبار بعضها من عهد البطالسة . ولا يزال الطريق حتى يصل الى محطة الوكالة وبها آثار قديمة . ومنها يسير فى مطرق يسمى مطرق جيف العجول (وهناك مغاير كانت بها عجول كثيرة محنطة من التى كان يقدسها قدماء المصريين) ، ثم فى مطرق الحمامات وفيه خزانات مياه طبيعية ، ثم فى

مطرق الكافر (وفيه آثار فرعونية و بئر حلزونية من الرخام ينزل اليها بمائة وثلاثة وأربعين درجة). ومن هناك يستمر الطريق الى بئر الانكليز (التى حفروها عندما وصلت جنودهم بحراً الى القصير، ومنها ساروا الى تلك الجهة متعقبين عساكر الفرنساويين وقت احتلالهم لمصر)، وماء هذه البئر يبعد عن سطح الارض بنحو أربعة أمتار. ومنها يسير الطريق الى العنبجة، وبها نبع معدنى مياهه كبريتية، ويقصده بعض الناس للاستشفاء به، وهناك مستنقعات كثيرة ينبت فيها السمار، والحكومة تبيعه سنوياً للمصريين. ومنها يستمر الطريق الى القصير. ولقد كانت هذه المدينة فى القرن الماضى عامرة آهلة بالسكان الذين كانوا يزيدون عن عشرين ألف نفس، وكانت من ضمن محافظات القطر المهمة.

ومازالت طريق القصير مستعملة للتجارة حتى عملت السكة الحديدية من القاهرة الى السويس فى مدة سعيد باشا عوضاً عن العربات التى كان سيرها محمد على باشا سنة ١٨٤٥ م بواسطة الخيل فى طريق الصحراء لحمل السياح من القاهرة اليها، وكان لها ديوان مخصوص يسمى ديوان المرور على يسار الداخل الى الموسكى، وهو معروف الآن بسوق الخضار القديم. ومع كل فقد استمرت القصير ميناء مهمة بين مصر العليا والحجاز تنقل منها الحبوب الى جدة، وينقل من هذه اليها السجاد والفلفل والبن والسنا المكى وخلاف ذلك من واردات الهند وغيرها. وكانت لها سوق كبيرة فى قنا، حتى إذا حفر قنال السويس وصارت ترسل كل هذه المحاصيل الى أوروبا رأساً، قلّت أهميتها وأصبحت من نحو عشرين سنة مأمورية صغيرة تابعة لمديرية قنا وإن كانت إدارتها فى يد مصلحة خفر السواحل.

وكان بعض الحجاج يسافرون من السويس الى جدة بواسطة المراكب الشراعية، فيقطعون مسافتها فى نحو عشرين يوماً. ولكن غالبهم كان يسير براً عن طريق العقبة مع المحمل أو مع غيره من القوافل التى كانت تقوم بهاعربان مصر من أولاد على وغيرهم، فيصل الى مكة فى نحو خمسين يوماً. وأوّل من رتب ركب الحاج على هذا الطريق وعقبه عند رحيلهم من البركة الامير جمال الدين الاستادار عندما سافر ولده شهاب الدين أميراً للمحمل سنة ٨٠٩ فكان إذا وصل الركب الى عجرود (وهى محطة قبيل السويس) يأمر الامير بكتابة أكابر

الحاج ويرتب كلا فى مكان معين من القافلة بجماله وذويه وخدمه ، ثم يجمع الركب من الطليعة الى الساقة ، ويضبط أطرافه ونواحيه بجماعة من العسكر بعد أن يسير أصحاب الحمول والاموال فى وسط الركب .

وطريق البر شاق جدا وخصوصاً فى المنطقة التى بين السويس والعقبة ، وهى لا تقل عن ثلثمائة كيلومتر ، كلها أرض رملية ناعمة تسوخ فيها اخفاف الجمال قبل اقدام الرجال ، ولا يهتدون فيها الى الطريق الا بواسطة نواطير أشبه شىء بطواحين الهواء أقيمت لهذه الغاية . وماء هذا الطريق قليل وعناؤه كثير ، وقد كان فى بعض القرى التى عليه مخازن للميرة والذخيرة ومؤن الجمال وامتعة الحجاج الذين كانوا يرسلونها اليها قبل سفرهم على سبيل الامانة فى نظير اجرة مخصوصة تتوفر بها عليهم مشقة حملها فى الطريق ، وكان فى هذه القرى فرق من الجند لحراستها . وبالجملة فانا نورد لك اسماء المحطات التى كان يقطعها الحاج فى طريق البر من القاهرة الى مكة ، ومسافة الركوب بين كل محطة والتى تليها بقافلة المحمل التى هى اسرع من القوافل الأخرى لانتظام سيرها واحكام أمرها وجودة جمالها :

من القاهرة .

ساعه		
٠٦	الى	بركة الحاج .
١٤	«	الدار البيضاء ، وبها قصر عباس باشا الاول ويليها الدار الخضراء .
١٢	«	عجرود ، وتوجد فى الجنوب الغربى من السويس على مسافة عشرين كيلومتر منها ، ومن هناك كان يرجع المرضى والمنقطعون والمشيعون .
٠٨	«	الناطور الاول ، والثانى ، والثالث ، والارض فى هذه المسافة رملية ناعمة متنقلة من جهة الى أخرى عند هبوب الرياح بشدة .
٠٦	«	العلوه .
١١	«	جنادل حسن ، وأرضها رملية .
١٢	«	قرية نخل ، وفيها نخل وشجر وقلعة وخان من عمل الغورى ، وساقية من عمل الملك الناصر حسن والى جانبها ثلاثة احواض تسع ٣٠٠٠ قربة

ساعة	الى	
		عملاً في زمن الحج . وكان يرسل اليها أربعة من الثيران من طرف الحكومة فلا تزال تدور في الساقية لملء الحيضان حتى ترجع مع قوافل الحاج الى مصر .
١٢	«	بئر قريص ، وسميت أخيرا بئر أم عباس لان والدة عباس باشا الاول اصلحتها وماؤها عطن .
٠٧	«	العقبة ، ويصعد اليها المسافر بتحدر من مسافة طويلة من الغرب حتى يصل الى قمتها ، فاذا أراد أن ينزل الى الجهة الشرقية صار نازلاً صاعدا وصاعدا نازلا في أرض حجرية تارة ، وأخرى رملية ناعمة ، وأخرى خشنة أو زلطية ، الى أن يمر في مضيق لا يسع الا جملا جملا ويسمى قطع لاز . وطريق هذا القطع حلزوني تقريبا أصلحه ابن طولون في القرن الثالث الهجري ثم محمد بن قلاوون في القرن الثامن ثم عباس باشا الأول في القرن الثالث عشر ، ومع ذلك فان المسافر فيه لابد أن ينزل عن دابته ويسير على قدمه حتى يقطع العقبة في ست ساعات نزولا وضعفها صعودا . ومن دون هذه العقبة قرية العقبة ويسمونها أيلة [1] وفيها

١) هي بلدة قديمة جداً وكانت عامرة من زمن مدين وكانت في مدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ميناء كبيرة للمراكب التي كانت تفد الى الشام من اليمن والهند وفارس وانقطع بها طريق البر من اليمن الى بطره . ولما مات سليمان رجعت الطريق الاولى الى ما كانت عليه في نقل التجارة براً ، وكان فيها أسواق كبيرة بل كانت مركزاً للتجارة بين مصر وبلاد العرب وفارس والعراق . ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم الى غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة أتاه ابن رؤبة صاحبها وصالحه وأعطاه الجزية فكتب له عليه الصلاة والسلام عهداً هذه صورته « بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه لطيبة لمن أخذه من الناس وانه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر . هذا كتاب جهم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وفي سنة ٥٦٦ استولى الافرنج عليها في الحروب الصليبية فسار اليها من مصر صلاح الدين الايوبي وأخذ معه مراكب مفصلة على الجمال حتى وافى مياهها فأصلح مراكبه وأنزلها في

ساعة	الى	
		يفصل أمير الحاج جميع المقطوعين الذين لا يمكنهم الاستمرار على السفر لمرضهم أو لفقرهم ، و يعطيهم المؤونة اللازمة من البقسماط ثم يستأجر لهم سنبوكا يسيره بهم إما الى مصر أو إلى جدة ، وكثيراً ما كانوا يصلونها بعد نزول الناس من عرفة . ومن العقبة يتجه الحاج الى جهة الجنوب .
٠٩	«	ظهر حمار ، وفى طريقها مضيق بين جبلين على البحر لا يسع إلا جملاً جملا .
١٤	«	الشرفا ، ويسمونها أم العظام .
١٢	«	مغاير شعيب ، و بها نخل و بساتين ومياه عذبة .
١٤	«	عيون القصب ، و بها ماء ونخل وشجر سنط وعبل .
١٢	«	المويلح ، وفيها قلعة أنشأها السلطان سليم العثمانى بها بعض الجند لحراستها ، ومناخها رطب غير جيد للصحة ، وسكانها يتجرون فى الفحم الذى يصنعونه من شجر الطرفا الذى ينبت بكثرة فى الوديان المجاورة لها . ومنها طريق الى تبوك مسافته مائة كيلو متر .
١٢	«	سلمى (كفافه) ، وفى طريقها مضيق شق العجوز تسير فيه الجمال جملا جملا ، و بهذا الوادى شجر الدوم والسنط والطرفا .
١٢	«	اصطبل عنتر ، وهو مكان متسع محاط بالجبال وفيه ثلاثة آبار .
١٢	«	الوجه ، سيأتى الكلام عليه فى طريق المدينة ، ومنه يتشعب الطريق الى العلا شرقا ، والى ينبع جنوبا ، والى المدينة المنورة جنوبا بشرق .

البحر وحاصر المدينة براً وبحراً حتى أخذها عنوة وطرد الافرنج منها . وهي الآن قرية صغيرة في أيدي عرب الحويطات وفيها قلعة بناها السلطان مراد الرابع بها بعض الجنود لحراستها ، وعدد سكانها لا يزيد عن مائة نفس ، وفيها نخيل وأشجار وماؤها حلو وزرع بها الخضروات . وبين العقبة ومعان نحو مائتي كيلو متر شرقا ، والطريق ضيقة وتخترق جبال السراة التي يكسوها الجليد طول الشتاء . وبينها وبين بيت المقدس شمالا بغرب نحو ٣٠٠ كيلو متر في صحراء قليلة المياه وطريقها وعر . وبينها وبين السويس نحو ٣٠٠ كيلو متر .

ساعة	الى
١٦	« عكرة ، ولا ماء فيها .
١٢	« الحنك ، ولا ماء فيها .
١٢	« الحوراء ، وفيها مضيق تسير فيه الجمال جملا جملا ، وأرضها ذات رمل ناعم .
١٥	« الخضيرة ، وفيها معادن نحاسية وأرضها صلبة .
١٠	« ينبع ، ويدخلها المحمل واكبا باحتفال عظيم ، وهى ثغر المدينة المنورة على البحر الاحمر ، وسنتكلم عليها فى طريق المدينة .
١٨	« السقيفة ، وماؤها ملح .
١٠	« مستورة ، وماؤها حلو .
١٤	« رابغ ، وهى قرية بينها وبين البحر نصف ساعة ، وفيها قلعة بها بعض الجند لحراستها ، وفيها مخازن تحفظ بها مؤن ركب المحمل وذخائره وفيها صهاريج عذبة وهى الميقات لمكة ، ومنها تتفرع الطريق الى المدينة ثلاثة أفرع : الطريق السلطانى ، والطريق الفرعى ، وطريق الغاير .
١٢	« بئر الهندى أو القضيمة (و بعضهم يكتبها القديمة) ، وهى قرية على البحر ماؤها ملح ومنها يتجه الطريق الى الجنوب الشرقى .
٠٦	« خليص ، وبالقرب منها عيون ماء كثيرة يحيط بها مزارع و بساتين .
٨	« عسفان ، وهناك بئر ماؤها حلو يسمونها بئر التفلة ، و يقولون إن ماءها كان مرا فتفل فيه النبي صلى الله عليه وسلم فصار عذبا ، وفى طريقها ممران على طول نحو كيلو متر لا يسعان الا جملا جملا .
١٥	« وادى فاطمة (وادى مر) أو مر الظهران ، ومنه الى قبر السيدة ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم الى العمرة الجديدة (التنعيم) وهى حد الحرم من هذه الجهة وأقرب حدوده اليه ، ومنه الى الزاهر ثم الى

ساعة
٤ مكة المكرمة .

٣٣٧ المجموع

وعلى حساب ان الجمل يقطع فى الساعة الواحدة أربعة كيلومترات ، تكون المسافة من مصر الى مكة من طريق البر ألفاً وأربعمائة كيلومتر تقريباً ، كانوا يقطعونها فى نحو أربعين يوماً على الاقل .

أما الآن فالحاج المصرى يركب السكة الحديدية الى السويس ويبحر منها الى جدة بغاية الراحة ومنها الى مكة فيصل اليها فى أقل من أسبوع . ومن الناس من يسافر الى المدينة أولا بطريق السكة الحديد الحجازية ، وبعد الزيارة يسافر مع القافلة الى مكة أو يرجع الى مصر ومنها الى جدة . ومنهم من يسافر بعد الحج الى المدينة بطريق البر ، ومنها يعود الى ينبع فالطور ، أو يركب السكة الحديد الحجازية الى الشام ولكنه فى هذه الحالة يصادف كثيراً من المشقة فى ضرورة عودته الى الطور لقضاء الحجر الصحى هناك : لذلك يرى الكثيرون أن أحسن حل للصعوبة التى فى طريق الزيارة أنهم يعودون بعد الحج الى مصر ، وبعد انقضاء مدة الحجر التى يلازمها الحجر الصحى عادة يسافرون الى المدينة بالطريق الحديدى ويعودون منها الى مصر مباشرة .

مكة المكرمة

مكة وتسمى بكة وأم القرى ، مدينة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٣٣٠ متر وهى على عرض ٢١ درجة و ٣٨ دقيقة وفى طول ٤٠ درجة و ٩ دقائق ، وتصعد عمارتها الى عهد ابراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام . وكان يعيش بنوه فى الخيام والمضارب حتى عاد قصى بن كلاب من الشام فى القرن الثانى قبل الهجرة ، فبنى فيها المساكن والبيوت حول الكعبة ، ومن ثم أخذت تزيد فى عمرانها الى الان . وهى عاصمة (قصبة) بلاد الحجاز وفيها محل حكومته التى تنقسم الى قسمين : الادارى وهو فى يد الشريف أمير مكة ويسمونه سيد الجميع ، والمالى والعسكرى وهو فى يد الوالى الذى يكون تركياً فى الغالب : وعليه فالشريف ينظر فى القضايا

الجسيمة ويحكم فيها على حسب نظامات أربابها ان كانوا من الاهالى أو من الأعراب ، أما القضايا الصغيرة فيحكم فيها القاضى الذى يعين من قبل السلطان .

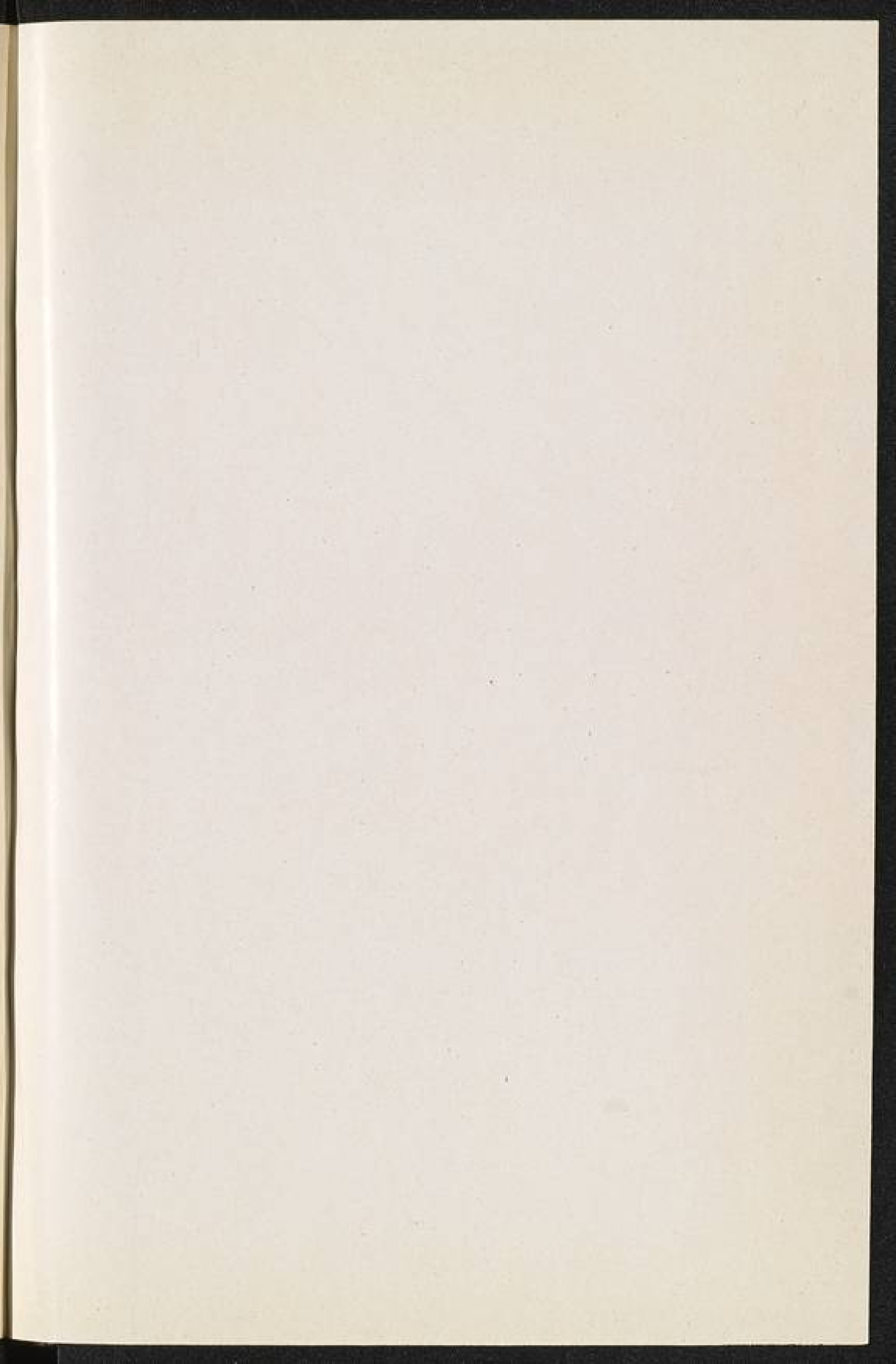
وهذه المدينة تمتد من الغرب الى الشرق على مسافة نحو ثلاثة كيلومترات طولا ، وما يقرب من نصف ذلك عرضاً ، فى واد مائل من الشمال الى الجنوب منحصر بين سلسلتى جبال تكادان تتصلان ببعضهما من جهة الشرق والغرب والجنوب ، أعنى على أبواب مكة الثلاث . ولذا لا تشاهد أبنيتها للقادم عليها الا وهو على أبوابها . والسلسلة الشمالية منها تتركب من جبل الفلج (الفلق) غرباً ، ثم جبل قيتعان ثم جبل الهندى ثم جبل لعلع ثم جبل كَداء (بفتح أوّله ومد فى آخره) وهو فى أعلى مكة ، ومن جهته دخل رسول الله البلد حين الفتح . أما الجنوبية فانها تتركب من جبل أبى حديدة غرباً يتلوه جبلا كُدَى (بضم أوّله وألف لينة فى آخره) وكُدَىّ (بالتصغير) بانحراف الى الجنوب ثم جبل أبى قبيس الى شرقيهما ثم جبل خندمة . وكل سفوح هذه الجبال من جهة الحرم تراها عامرة بالبيوت والمساكن التى تتدرج عليها الى قلب الوادى ، ويبلغ عددها نحو سبعة آلاف بيت منها الكبير والصغير يحتشد فيها زمن الحج ٢٠٠٠٠٠ ألف نفس على الاقل ، واذا كان الحج بالجمعة كان الناس أضعاف ذلك . ومساكنها على شبه مساكن جدة ، ويكثر فيها ما يسمونه بالادوار المسروقة ولا حوش لها فى الغالب الا ما كان لعظمائها وكبرائها ، وأعظم مساكنها بالقرارة . وأحسن موقع فى مكة شعب جياد لارتفاعه وسعة طرقه ومساكنه وفيه بيوت كثيرة جميلة على الطراز التركى يسكنها موظفو الولاية من الاتراك وفيه دار عظيمة للشريف عبد المطلب وداران عظيمتان للسيد محمد السقاف الذى له أملاك واسعة فى مكة والمدينة . ومع ذلك فليس بمكة على قدم عهدها بالحضارة وعظم مكانتها فى نفوس الناس من زمن بعيد جداً شىء يذكر من آثار العمارة القديمة مما هو موجود بكثرة بمصر والشام اللهم إلا بيت الشريف ناصر[1] باشا الذى هو فى فخامة المنظر وجمال الصناعة العربية بمكان عظيم ، ويصح أن يكون أحسن بيت فى مكة .

(١) الشريف ناصر باشا ولى عهد أمارة مكة وهو الآن بالاستانة وهذا البيت بناه الشريف عبد المطلب .

خريطة
مكة المكرمة

شمال
شرق
غرب
جنوب

BOEHME & ANDERER, CAIRO.



وضمن هذه المساكن بعض الدور القديمة، فترى دار ابن عباس فى المسعى على يمين السالك الى المروة ، و فى الشرق الشمالى للحرم آثار دار أبى سفيان المشهورة فى الجاهلية والاسلام، وهى مهدمة لا عناية للقوم بها ، ولو لاحظوا أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل لها يوم الفتح شأناً كبيراً حيث جعلها حرماً محترماً كل من دخلها من المشركين كان آمناً لكان المجلس البلدى بمكة أعارها شيئاً من عنايته .

والحرم الشريف بين هذه البيوت مائلا الى الجهة الجنوبية مما يلى جبل أبى قبيس . و فى هذه الجهة دار الخيزران ، يتلوها شرقا شعب بنى هاشم و يسمونه شعب على ، ثم شعب المولد، ثم شعب بنى عامر ، و فى هذه الجهة كانت مساكن بنى عبد المطلب فى الجاهلية وفيها الآن كثير من الأشراف . أما باقى قريش فكانوا فى الجهة الاخرى من الحرم خصوصاً جهة الشمال ، ومن دونهم باقى أهالى مكة .

و يتوسط مكة طريق يقطعها من الغرب الى الشرق وهو أكبر شوارعها ، و يختلف اسمه باختلاف الجهات التى يمر عليها : فاذا ابتدأ غرباً من جرول يسمى حارة الباب ، ثم الشبيكة ، حتى اذا وصل الى الحرم من جهة الشمال سمى الشامية ، فاذا انعطف الى الجنوب على يمين الحرم سمى السوق الصغير ، ثم جياد وفيه البوستة والتلغراف والتكية المصرية ودار الحكومة العثمانية و يسمونها بالحميدية ، والى جوارها إدارة الصحة وقشلاق الطوبجية والمطبعة الاميرية . فاذا وصل الى الصفا سمى المسعى ، ثم القشيشية ، ثم سوق الليل ثم الغزة ومنها الى باب مكة الشرقى أو باب المعلى . اما الشوارع التى فى شمال الحرم فهى الشامية وفيها سوق المدينة ، والقرارة ، والنقا ، والسليمانية ، والجدرية ، والبرّاضية . وليس بمكة على كبرها ميادين عمومية ، اللهم الاصحن المسجد الحرام الذى بسعته يؤدى وظيفة الميادين الكبرى . وهذه الطرق تختلف سعتها من مترين الى خمسة عشر متراً وتراها فى زمن الحج غاية فى الوساخة والقذارة مما يوجب على المجلس البلدى فى مكة أن يعتنى بنظافتها خصوصاً فى مدة الموسم ، مع عدم إهماله أمر النور ليلاً خدمة للدين والانسانية . و فى مدة الموسم يرى أهل البلاد لاسيما الأعراب يضعون دائماً سدادتين من القطن فى فتحتى مناخرهم بعد أن يغمروهما بدهن المر و يسمونهما الصمايم ، و يربطونهما بخيط يعلقونه فى رقبتهم ، حتى اذا

آنسوا عدم وجود قذارة رفعوهما وأرسلوهما على صدرهم . وهم لو علموا أن هذه السدادة ضررها أكبر من نفعها لابطلوا استعمالها : لان وظيفة الخياشيم إنما هى لتنقية الهواء من الادران فتسوقه الى الرئتين نقياً . ولو دخل الهواء الفاسد الى الرئتين من طريق الفم فانه يدخل اليهما بما فيه من المادة الغريبة فيتصل معها بالدم وهنالك يكون تأثيره الضار والعياذ بالله . أما الطبقة الراقية وخصوصاً من الأعراب فانهم يضعون طرف صمادتهم (كوفيتهم) على فمهم وأنفهم ، ويثبتونها فى عمامتهم أو عقالهم اتقاء البرد والروائح الكريهة .

ويقصد مكة زمن الحج أنواع العالم الاسلامى من جميع أطراف المسكونة : فترى بها الازياء المتباينة والسحن المختلفة ، حتى ليجدر بها أن تسمى بالمعرض الاسلامى . ولقد رأيت فيها رجلا يابانياً من كبار قواد اليابان [1] قد أسلم وقدم اليها لتأدية فريضة الحج .

وقد اعتاد الشوام والمغاربة سكنى الجهة الشمالية من مكة زمن الموسم ، والافغان والسليمانية [2] (أهالى قندهار) فى الجهة الشمالية الشرقية ، والهنود والجاوة فى الجهة الشمالية الغربية ، واليمن والتركستان والضاغستان فى المسفلة ، والعجم فى شعب على ، وماسوى ذلك فى وسط المدينة . وأهالى مكة يبلغ عددهم [3] نحو ١٥٠ ألف شخص منهم خمسون ألفاً من الاهالى والباقون من الاعراب كما تراه فى الجدول الآتى :

ألف
٥٠ أهالى
٢٥ أعراب وغالبهم حجازيون ويمنيون وحضارم (من سكان حضرموت)
٢٠ بخاريون
١٢ هنود
١٥ جاوه

(١) وأهل مكة يسمونها الثابان والنسبة اليها الثابانى ومنها الشال الثابانى المشهور .
(٢) نسبة الى رجل اسمه سليمان صاحب طريقة شائعة فى بلادهم .
(٣) التعداد فى بلاد العرب لم يحصل لحد الآن بصفة رسمية وكل مايعلم عنه انما هو على وجه التقريب وما وضعناه هنا أخذناه من مأمورى الدولة وغيرهم ممن يوثق بأقوالهم .

١٠ سليمانية وأفغان

٥ شوام

٥ مغاربة

٨ أجناس مختلفة

١٥٠ المجموع

وأغلب هؤلاء الاغراب يشتغلون بالامور المالية وخصوصاً التجارية : لذلك نبه أمرهم وأصبحت مالية البلاد فى أيديهم . وإنا نذكر لك بعض البيوت القديمة التى توطنت منهم فى مكة من زمن بعيد وفيها كثير ممن اشتهر بالوجاهة والثروة :

فمن الهنود — بيت خوقير . فتا . الدهلوى . الساب . حكيم . الرذة . الناقرو . ميره . المفتى . عبدالشكور . عبدالحق . بشاره . المرزا . أحمدوه . كمال . جان . شلهوب . نور . الطيب . دستانيه . خوج . الوشكلى . سنبل . خوجه بكر . المسكى . الياس . الزرعه . القرع . الحجمى . الخ .

ومن الجاوه — بيت البتاوى . المنكابو . الزينى . أرشد . الفنتيانا . القلمباب . قدس . دوم . الخ .

ومن البخاريين — بيت كشك . القاشقلى . الانديجان . الخ .

ومن الحضارم — بيت باحارس . باجنيد . باناجا . باحكيم . باذرعه . باعيسى . باعشن . الخ .

ومن الشوام — بيت هاشم . الجبرى . الخشيفاتى . الخ .

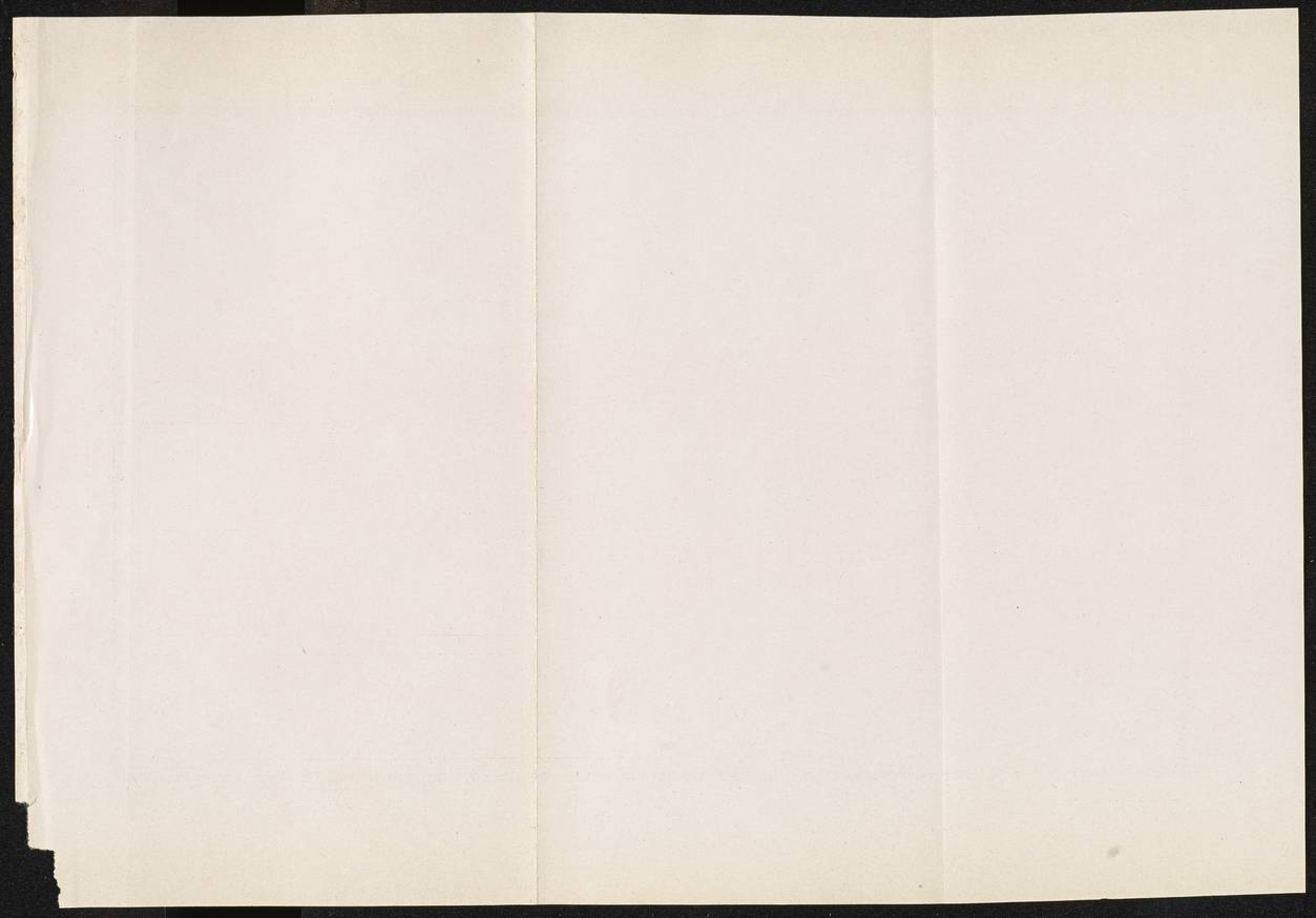
ومن الترك — بيت الدرابزنلى . القرملى . الخ .

ومن المصريين — بيت القطان . الزقزوق . الرشيدى . الرواس . القزاز . الاباصى . الخ .

وقد اختلف بعضهم فى أصل هذه البيوت ولكنا ذكرناها على ماهو مشهور من نسبتها . على أن الغرض من ذكرها هنا إنما هى لكونها غير عربية ليس الا .



BOEHME & ANDERER, CAIRO.



ومن اختلاط هذه الاجناس بعضهم ببعض بالمصاهرة أو المعاشرة صار سواد أهل مكة خليطاً فى خلقهم، خليطاً فى خلقهم : فتراهم قد جمعوا الى طبائعهم وداعة الاناضولى، وعظمة التركى، واستكانة الجاوى، وكبرياء الفارسى، ولين المصرى، وصلابة الشركسى، وسكون الصينى، وحدة المغربى، وبساطة الهندى، ومكر اليمنى، وحركة السورى، وكسل الزنجبى، ولون الحبشى. بل تراهم جمعوا بين رفه الحضارة وقشف البداوة : فبينا ترى الرجل منهم قد آنسك برقة حديثه معك، وضعته بين يديك، اذ هو قد استوحش منك وأغلظ فى كلامه، حتى كأن طبيعة البداوة تغلبت فيه على طبيعة الحضارة فلم يطق ما تكلفه فى حضرتك.

وقد وصل هذا الخلط الى أزيائهم التى تراها مجموعة مختلطة من أزياء البلاد الاسلامية : عمامة هندية، وقفطان مصرى، وجبة شامية، ومنطقة تركية فيها خنجر تراه على الخصوص فى حزام الأشراف مفضضاً أو مذهباً بشكل جميل جداً وكثيراً ما يكون مرصعاً بالاحجار الكريمة. ومع هذا فقد ترى الرجل الصانع الفقير يلبس القميص وعلى ياقته الطرافة المشغولة بالحرير، وعلى رجل سراويله شىء يشبه الركامة وهو حافى الرجل (مثلا). غير أنك لا تلاحظ ذلك فى طبقة الأشراف التى ترفعت عن هذا الخليط، فلم يدخل فى مادتهم غريب، ولم يتغلب عليهم خلق جديد، بل خلقهم هو هو بعينه العربى البحت الذى ورثوه عن أجدادهم وألفوه بما فطروا عليه من كريم العنصر وذكاء المحتد. وعلى العموم فأخلاق أهل مكة غاية فى الكمال وخصوصاً فى الطبقة العالية منهم رضى الله عنهم ولا يؤخذ على مجموعهم خسة بعض السوقة فيهم.

والذى يؤسف له أن هذا الخلط وصل الى لغتهم : فتراهم يتكلمون فى الغالب بلغة يكثر فيها الحشو من كلمات عربية مشوهة، أو فارسية، أو تركية، أو غيرها. وهم ينونون المضاف فيقولون فى هذا حق فلان مثلا « هذا حقٌ فلان » مع إبدال القاف جيما مصرية، ومنهم من يمد الحرف المنون فيقول « هذا حقون فلان »، أو يؤنث لفظه فيقول « حقة فلان »، ولا يحذفون النون من الفعل فى صيغة الأمر للجمع فيقولون « هيا صلون المغرب واركبون » بدل صلوا واركبوا. ويستعملون الترخيم فى غير المنادى فيقولون « قم لعنا » أى قم لعندنا، ويقولون فى الإبل البل بكسر الباء، وفى الجبل البَل بفتحها، ويقولون « كيمَّنا » أى كلمنا

(خلصنا)، و يقولون «وصابق» فى وامصيبتى، «واللمن» فى اليمن. و مما يكثر سماعه منهم قولهم «دحين» فى هذا الحين، و «ازهم فلان» فى ادع فلانا. و يعبرون عن الرجل بلفظ (زلمه) و يجمعون الرجل على أوادم[1]. و يقولون «زكّنه» أى اضربه. «وقل كذا» أى اعمل كذا. و يقولون «أبيض» للاستحسان. «وسنّع» فى صنّع أو أتقن. و «انجمعص»[2] يعنى اجلس. و «فصخ[3] حداك» أى اخلع نعالك. و يقولون «مشلح» للعباءة. و «شاية» للقفطان. و «امرح» اجر. و «الودْن» للفدان من الارض. و «الصُماده» للكوفية و «زكّن عليه» أى أكد عليه. و «زِلْ» بمعنى مر، «واندر» بمعنى أخرج، «والا» بمعنى نعم، و «اغد» فى رح. و يستعملون قولهم «أشكل» لافعل التفضيل من الحسن فيقولون هذا الشئ أشكل من هذا، يعنى أحسن منه و يستعملونها أحيانا للكثرة فيقولون هذا أشكل من هذا يعنى أكثر. و يسمون «الاولاد» بالبزورة، فيقولون بزورة فلان أو بزران فلان أى أولاده. و يستعملون لفظ «هرّج» فى معنى كلم فيقولون ماهرجته أى ما كلمته. و يستعملون لفظ «صاقن» التركية للاحتراس والتنبيه، و «قربوز» للبطيخ. و يستعملون غير ذلك كثيراً من الكلمات التركية والفارسية مثل «روشن» للشباك. و يقولون عن حياض مجرى عين زبيدة بازان: وهو اسم لرجل أعجمى قام بعمارة هذه الحياض وان كان تبادر للذهن لاول وهلة أنه لفظ فرنساوى (Bassin) ظننته أنه من وضع بعض المهندسين الاتراك الذين كانوا يعملون فى اصلاح هذه العين، كما استعملوا بعد ذلك من هذه اللغة ألفاظاً كثيرة فى المدينة المنورة بعد وصول السكة الحديدية اليها: فيقولون «البيليت» لتذكرة السكة الحديد (Billet) و «استاسيون» للمحطة (station) و «شماندفير» للسكة الحديد (chemin de fer) و «الفاجون» للعربة (Wagon) و «البرسونيل» للمستخدمين (personnel) وهكذا من الالفاظ التى لم يسمح الوقت لاستقصائها

---

(١) مفرده آدم ومعناه بالعبرية انسان.

(٢) لعلها محرفة عن قعمز.

(٣) محرفة عن فسخ.

وهذا كله مع كثرة أغلاطهم النحوية وعدم مراعاة القواعد الصحيحة التى لا يهتمون بها فى تقويم ألسنتهم أو أقلامهم . وانى بينما كنت محزونا لتاخر اللغة العربية فى مشرق أنوارها ومظهر اعجازها إذ عثرت على ترجمة فرنساوية لكتاب (١) عمرو بن العاص الذى أرسله الى عمر بن الخطاب لما استولى على مصر يصفها له فيه و يشرح له السياسة التى سيتخذها فيها وقد نشر هذه الترجمة الكاتب الفرنساوى الشهير المسيو أوكتاف أوزان (Octave Uzanne) فى جريدة الفيجارو الفرنساوية الشهيرة ، ونقلته عنها برمته جريدة البروجريه الفرنساوية المصرية ، مع التعليقات التى علقها عليه المسيو أوزان ، والتى وصف فيها هذا الكتاب بانه من أكبر آيات البلاغة فى كل لغات العالم ، وقال عنه انه من الفرائد فى ايجازه واعجازه ، واقترح وجوب تدريسه فى جميع مدارس المسكونة ، حتى يتعلموا منه مع قوة الوصف ومتانة التعبير صحة الحكم على الاشياء ، وكيفية تنظيم الممالك وسياسة الاستعمار . وانا اذا أسفنا شديد الاسف على ضياع هذه اللغة من الوسط الذى لا تزال فيه هذه العترة الشريفة القرشية ، التى نزل بلغتها القرآن ، وصار معجزة الاسلام بفصاحته و بلاغته ،

---

(١) وتتميما للفائدة نذكر لك هنا نص هذا الكتاب البليغ وهو (اعلم يا أمير المؤمنين ان مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها النيل المبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، يجري بالزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر ، له أوان تظهر به عيون الارض وينابيعها فيدر حلابه ، ويكثر عجاجه ، وتعظم أمواجه ، فتفيض على الجانبين ، فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الي بعض الا فى صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن المخايل ، (قطع السحاب) ورق الاصايل . فاذا تكامل في زيادته نكص على عقبه ، كاول ما بدا فى جريته وطمى فى درته . فعند ذلك تخرج ملة محقورة ، وذمة مخفورة ، يحرثون بطون الارض ، ويبذرون بها الحب ، ويرجون النماء من الرب ، ليقيم ما سعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جدهم ? فاذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه من فوق الندى وغذاه من تحت الثرى . فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، اذ هي عنبرة سوداء ، فاذا هي زمردة خضراء ، فاذا هي ديباجة زرقاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء . والذي يصلح هذه البلاد وينيرها ويقر قاطنها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها : والا يستأدى خراج الثمرة الا في أوانها ، وان يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها . فاذا تقرر الحال مع العمال على هذه الاحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالي موفق الملك والمال .

وكتب بها ابن العاص هذا الكتاب وهو فى بداوته ، وعلى نشأته الاولى ، هذا الكتاب الذى بعثه من ادراجه مدنية العصر العشرين ، من دفاتر الغابرين ، وأعطته ما يليق به من التجلة والاحترام ، فقد يجب علينا أن نفتخر بان كتاب ابن العاص بقى فى مصر ملازما لذلك الوصف الطبيعى الذى وصفها به عمرو من ثلاثة عشر قرنا ولا يزال قائما بها الى الآن بل والى آخر الزمان ، وقد أثرت بلاغته فى المصريين الذين هم والحمد لله الآن فى مقدمة الناطقين بالضاد حتى لكأنى بعصرهم فى أيامنا هذه وقد انتقلت اليها فصاحة الخطباء ومتانة الكتاب و بلاغة الشعراء فى عصر الحضارة الاسلامية . وعسى أن يكون هذا خير فأل أو فأل خير لبنيها يكون لهم من ورائه إن شاء الله شأن كبير ومقام خطير .

وغالب أهل مكة يتكلمون بالتركية ، ومن المطوفين من يتكلم بلغات مختلفة كالهندية والأوردية والجاوية والفارسية والصينية . أما أهل البادية فلغتهم عربية صرفة لا نكاد نفهمها اذا سمعناهم يتكلمون بها . ولكل قوم منهم لغة مخصوصة تختلف فى لفظها باختلاف القبائل فمنهم من يقلب القاف زايا فيقول (زربة) فى قربة . وعتيبة تقلب الكاف سينا فيقولون (سواسب) فى كواكب و (سليب) فى كليب و (سبد) فى كبد . أما بنو شيبان فينطقون بالكاف جيا فارسية (معطشة) فيقولون (چواچب وچليب) وهم كذلك يقلبون القاف جيا فارسية فيقولون فى قربة (چربة) وهكذا . والعرب لا ينطقون بالقاف بل يلفظونها جيا مصرية ومنهم من يقلب الميم باء كقولهم بكة فى مكة ومنهم من يقلب الثاء فاء فيقولون فُمَّ فى ثم ومنهم من يغير الحركات فى الكلمة كقول الحجاز بين التَحج وقول نجد الحِيج وهكذا .

وعلى كل حال فلا يزال فى عرب اليوم أثر ما كان فى لغاتهم القديمة من الكشكشة (١) والكسكسة (٢) . . .

---

١) الكشكشة هي اضافة شين على كاف المخاطب فيقولون في عليك (عليكش) وفى بك (بكش) وكانت فى قبائل ربيعة وحمير . ومنهم من يقلب الكاف شينا فيقول عليش فى عليك و (لبيش اللهم لبيش) فى لبيك اللهم لبيك .

٢) والكسكسة وهي قلب كاف المذكر سينا فيقولون (منس وعليس) في منك وعليك .

والعنعنة (١) والعجعجة (٢) والجعجعة (٣) والاستنطاء(٤) والطمطمانية (٥) والوتم (٦) مما هو مشروح بكتاب مميزات لغات العرب لحفنى بك ناصف المصرى.

وأهل مكة كلهم مسلمون ، ولا يدخلها غير مسلم من السنة التاسعة للهجرة التى نزلت فيها الآية الشريفة (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) . وكان علىّ ينادى فى الموسم الذى أعقب نزول هذه الآية الشريفة بقوله : (ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك) . وكان المراد بذلك منع المشركين من الحج ، وعدم دخولهم البلد الحرام التى بها تتم مناسكه ، لانهم مع ما كانوا عليه من سوء الضمير وخبث الطوية ، كانوا يلقون بذر الشقاق والغل بين قبائل العرب المسلمين ، ويوغرون صدورهم ، بقصد التفرقة التى يكون من ورائها الضعف . فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب فى أطراف الجزيرة بعد عشرة أيام من بيعة أبى بكر ، وذلك بتأثير المشركين منهم ، حتى بلغ من أمر هؤلاء أن ادعى النبوة منهم طليحة فى الشمال ، وطيبة فى اليمن ، ومسيلمة الكذاب مع سجاح فى اليمامة (شرق بلاد العرب) وقام غيرهم بالدعوة لنفسه فى وسط البلاد . هنالك استنفر أبو بكر المسلمين الى قتال أهل الردة ، وبعث اليهم بأحد عشر لواء ، وأمرهم

---

(١) العنعنة هي قلب الهمزة اذا وقعت فى أول الكلام عيناً فكانوا يقولون (عنك) في انك ، (وعنت) في أنت ، (وعلم في أسلم) وكانت في قيس وتميم .

(٢) العجعجة أو (العججة) هي قلب الحاء عينا مثل قولهم (عتى حين) فى حتى حين (واللعم الاعمر خير من اللعم الابيض) في اللحم الاحمر خير من اللحم الابيض ، وكانت فى هذيل .

(٣) الجعجعة هي قلب الياء جيما وكانت في قضاعة ومنهم القائل :

يارب ان كنت قبلت حجتج (حجتي) * فلا يزال شاحج يأتيك بج (بي)

(٤) الاستنطاء هو قلب العين نونا كقولهم أنطى في أعطى وكانت فى سعد .

(٥) الطمطمانية وكانت في حمير وهي قلب لام التعريف ميما كقولهم (طاب امهواء) فى طاب الهواء (وليس من امبر امصيام فى امسفر) في ليس من البر الصيام في السفر ، وهذا موجود فى فلاحي مصر فيقولون (امبارح) فى البارح .

(٦) الوتم هو قلب السين تاء نحو قولهم (النات بالنات) فى الناس بالناس . ومازن كانت تقلب الميم باء والباء ميما فيقولون (بات المعير) فى مات البعير .

أن يحاربوهم ولا يقبلوا منهم غير الاسلام . فساروا وأبلوا في قتالهم بلاء حسناً ، وخصوصاً جيش خالد بن الوليد الذي كان له الفضل الاكبر في رجوع الناس الى الاسلام .

وبعد وفاة أبي بكر سار عمر على طريقته في تطهير بلاد العرب ممن كان على غير دين الاسلام ، لانهم أهل البلاد الذين بهم عزها وبهم يكون خيرها أو شرها وبهم تكون سعادتها أو شقاوتها . وسار على سنته من أتى بعده من الخلفاء الى اليوم . لذلك ترى الآن أهل الحرمين أنفسهم يبالغون في مراقبة الاجانب الذين يفدون الى بلادهم فلا يتعدى جدة وينبع وصنعاء جنوباً ومحطة العلا شمالاً أحد من الاجانب بالمرة وان فعل فما هو الا مورط بنفسه الى حتفه من أهل البلاد ! ولذلك فان الاجانب من عمال السكة الحديدية الحجازية ما كانوا يغادرون هذه المحطة ، لجهة الجنوب ولو لضرورة .

أما أفراد الفرنجة الذين قصدوا مكة أو المدينة في أزمنة مختلفة ، وكتبوا عنهما ما كتبوا على حسب نزعاتهم سياسية أو دينية أو عمرانية أو جغرافية ، انما كانوا يتزيون بزي المسلمين بعد أن يعرفوا اللغة العربية ، ويدعون أنهم على الدين (١) الاسلامي ونخص بالذكر منهم

(١) ولا أرى اثباتاً لهذا الامر غير أن أذكر لك صورة الاعلام الشرعي الذي استخرجه برتلمون لنفسه من مكة (وكان سمى نفسه عبد الله بن بالستير) أوهم فيه محرره أنه على دين الاسلام وقد أخذت صورة هذا الاعلام بالفوطوغرافيا ووضعت في صفحة ١٥٢ من كتابه الذي عنوانه (سياحتي الى مكة) وهاك هي بنصها .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

والصلاة والسلام على النبي النبيل . القائل علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل . عليه وعلى آله أجمعين . قدوة العلماء الاعلام . وعمدة الفضلاء الفخام . حلال المشكلات ومزيل المعضلات سيدنا وأخينا في الله الشيخ ابن ذاكور حفظه الله آمين .

وبعد اهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقد ورد الينا من أراد الله له بالسعادة الدنيوية والاخروية عبد الله بن بالستير بدخوله في الاسلام فأمعنا النظر في حاله فوجدناه مؤمناً حقاً راغباً غاية الرغبة في الاسلام . هذا ممن يلزمه الاعتناء بشأنه من عرض أحكام الاسلام عليه وتعليمها له ولو كانت مدة جلوسه تسع ذلك لفعلنا معه ما يكون سبباً لكل خير ولكنه أسرع بالمسير فيلزم كل من له رغبة في الاسلام ان يقوم بشأنه من تعليم ما يحتاج اليه وقد أشار لي بأن الرغبة اليكم أكثر فأرجو على سيادتكم أن تقوموا بشأنه لاجرمنا الله واياكم من الاجر ودمتم في خير وسرور .

٧ ربيع الثاني
سنة ١٣١٢

الداعي لكم بالخير
محمد عابد ابن المرحوم الشيخ حسن
مفتي المالكية

بوركارت السويسرى ، وبورتون الانكليزى ، وهورجرنج الهولاندى ، وكورتلمون الفرنساوى ، وأولهم هو أسبقهم الى التورط بنفسه فى بلاد العرب . وبوركارت سويسرى الجنس لوزانى المولد (Lausane) وفد الى مصر ودخل الازهر بعد أن ادعى الاسلامية وسمى نفسه ابراهيم المهدى ، وتعلم فيه العربية ثم سافر الى بلاد العرب وأقام بها نحو سبع سنين ، وكتب عنها كتابه الذى هو أحسن ما كتبه الفرنجة فيها خصوصا فى صفة بلاد العرب وقبائلها ، ومات فى مصر على زيه الاسلامى ، ودفن فى قرافة باب الفتوح بجوار قبة الشيخ يونس ، ولا يزال قبره موجوداً بها ومكتوب على شاهد تربته هذه العبارة :

هو الباقى

« هذا قبر المرحوم الى رحمة الله تعالى الشيخ حاج »
« ابراهيم المهدى بن عبدالله بوركهرت اللوزانى تاريخ »
« ولادته ١٠ محرم سنة ١١٩٩ وتاريخ وفاته الى رحمة »
« الله بمصر المحروسة فى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٢٣٢ هـ . »

ومن عوائد اشراف مكة ان كبراءهم يرسلون أولادهم وهم فى نعومة أظفارهم الى البادية وخصوصا الى قبيلة عدوان التى توجد فى شرق الطائف وهى قريبة من سعد التى أرضع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فينشئون فيها على البداوة التامة مع الامية الصرفة حتى اذا ترعرعوا عادوا الى مكة وقد تعلموا بعض لغات القبائل وحفظوا من اشعارهم وأخذوا من عوائدهم وطبائعهم ، وأحسن ما تراه فيهم الفروسية والحرية فى القول والفعل وهذه العادة قديمة جدا فى القوم ، ومما يذكر عن الرشيد انه رأى ولده المعتصم وهو صبى يتأفف من الذهاب الى الكتّاب فمنعه منه وأرسل به الى البادية فما زال بها حتى عاد منها عارفا بلغتها عالما باخبارها حافظا لكثير من اشعارها وقد ولى الخلافة وهو على أميته .

ومن عادة شريف مكة أن يجلس للحكم فى دار الامارة كل يوم من الساعة الخامسة نهارا الى قبيل العصر ، فتعرض عليه المسائل الهامة وهنالك يستعد الى التوجه الى الحرم فى ركبة

بسيطة فيصلى العصر، وكثيرا ما يجلس بالحرم حتى يصلى المغرب ثم يعود الى قصره فيتناول العشاء مع من يريد من بنيه وخاصته وضيوفه .

ومن عادته أنه يجلس صباح يوم الجمعة فى دار الامارة للمقابلات، فيفد عليه الوالى وكبار الموظفين ثم أعيان مكة ووجوهها، وبعد السلام عليه يذهبون الى السلام على الوالى .

ومن عادته أن يصلى الجمعة فى الحرم حتى اذا كان فى الطائف ينزل منها فى موكبه فيصليها فيه وبعد العصر يعود الى مصيفه .

ومن عادة أهل مكة التأنق فى المأكل والمشرب واللباس، وتكثر فى لباسهم الالوان الزاهية الباهية وخصوصا الاحمر والأخضر والأزرق والوردى . وترى فى مساكنهم كثيرا من أدوات الزخرف والزينة والرياش الثمينة وخصوصا البسط العجمية النادرة المثال .

ومن عاداتهم تقديم الشاى فى أى وقت تحية للقادم عليهم ، واقامة المآدب فى حفلة يسمونها قَيْلَة (لعلها آتية من القيلولة) ويتفاخرون بكثرة صنوف الطعام المتغايرة فى شكلها وطعمها وليس لاطعمتهم نظام مخصوص فمنها الهندى والعربى والشامى والمصرى والتركى . ويقعد المدعوون فى هذه الولائم على سماط يمد على الأرض وتخدم عليهم الالوان لونا بعد آخر ، وبعد فراغهم من الطعام يجلسون للسمر أو سماع بعض الأغانى وآلات الطرب كالعود أو القانون أو الرباب ثم ينصرفون . وغالبا تكون هذه الحفلات فى ضواحى مكة كالزاهر والشهداء وهنالك يبكرون اليها ويقضون يومهم فى سرور وحبور وألعاب رياضية كالمسابقة بالجرى أو لعب الكرة أو النرد أو الشطرنج مثلا .

ولأهل كل حارة من حارات مكة عادة مع أميرها: ذلك أن يجتمعوا ويدعوا الشريف الى وليمة يقيمونها له كل سنة فى أحد منتزهاتهم خارج مكة ، فاذا قبل منهم ذلك عيّن يوم الوليمة وفيه يذهب مع خاصته الذين يدعوهم للتوجه معه فى موكب فخيم تجرى أمامه خيالة الاعراب والبيشة ، والناس يهتفون له بقولهم دائما (يعيش) حتى اذا وصل مكان الدعوة جلس مع من أراد . وفى وقت الغداء تمد الموائد على النظام الافرنكى والتركى والعربى ويجلس الشريف ويدعو خاصته للأكل معه ، وبعد الطعام تلعب الأعراب بألعاب الفروسية : تارة

بالخناجر وأخرى بالسيوف الى آخر النهار . وبعد فترة من الليل يعود الشريف فى موكبه الى مكة .

ومن عوائد أهل مكة أنهم يأكلون مرتين فى اليوم: واحدة فى نحو الساعة التاسعة صباحا، والأخرى بعد صلاة العصر . وهم يميلون الى الأبهة والفخفخة كثيرا ، ويقلد صغيرهم كبيرهم فى التظاهر بالكرم والشجاعة ، خصوصاً فى شهر رمضان . وقد كانوا يفطرون فى الحرم بعد صلاة المغرب ، فيمدون فيه الموائد هنا وهناك ، لاسيا فى زمن الحر ، ولكن الشريف عون الرفيق أبطل هذه العادة (وخيراً فعل) : لان فضلات الأكل كانت توسخ المسجد فتكثر فيه الحشرات والقطط وغيرها . ومن عوائد كثير منهم أنهم يشرطون وجنات صبيانهم ثلاث شرط فى كل جهة . ونساؤهم يدخنّ بالنرجيلة ، والزار يفشو فيهن كثيرا ، وبعضهن يخرجن الى الاسواق بملاءة واسعة سوداء فى الغالب ، وبرقع كثيف فيه ثقبان صغيران فيما يقابل العينين ، وفى أرجلهن أخفاف ضخمة لونها أصفر غالبا .

وأفراحهم وما تمهم غاية فى البساطة : ومن عوائدهم فى زواجهم أنهم يدعون الاهل والمحبين نساء ورجالا ، فتأتى الرجال ويجلسون فى الاماكن المعدة لهم خارج البيت، ووقت العشاء يمد لهم سماط مستطيل يجلسون عليه جميعاً مرة واحدة فيأكلون ثم ينصرفون . أما النساء فيدخلن البيت فيجدن على باب قاعة الجلوس قصعة كبيرة مملوءة بعجون الحناء ، فتحنى المرأة يداً من يديها ثم تدخل الى المكان وبعد السلام تجلس على هذه الحال مع باقى النسوة ، ولا يزلن يتجاذبن أطراف الحديث الى منتصف الليل ، وهناك يزففن العروس الى بعلها ، ثم يعدن الى بيوتهن بعد أن يضعن فى عنقها عقودا كثيرة من زهر الفل أو ثمر التفاح وهو فى قدر البندق .

أما ما تمهم : فعند موت الميت تصرخ امرأة من أقرب الناس اليه صرخة واحدة أو صرختين اعلانا بالمصيبة فتتوافد عليها النساء ، فيجدن قصعة الحناء بجوار قاعة الجلوس فتحنى كل واحدة منهن يداً من يديها ثم يدخلن القاعة ، وبعد أن يعزين صاحبة الفقيد بكلمات قليلة يجلسن ويأخذن فى الحديث فى شؤون مختلفة ثم ينصرفن . اما الميت

فيأخذه بعض أقاربه ويدفنونه بغير احتفال كبير، وبعد دفنه يتوارد الرجال على أهله فيعزونهم وينصرفون لوقتهم . ومن عوائدهم انهم يحتفلون احتفالا كبيرا بختم أولادهم للقرآن الكريم ويسيرون بهم بموكب عظيم فى طرق مكة . ويحتفلون فى منتصف شهر صفر بمولد السيدة ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عند مدفنها بالزاهر على مسافة نحو سبعة كيلومتر من مكة على طريق المدينة، فينصبون خيامهم فى تلك الصحراء ويتفاخرون بكثرة الطعام والشراب . ويحتفلون بمولد النبي صلى الله عليه وسلم فى ربيع الاول . ويعبرون عن المولد بالحول: فيقولون حول ميمونة، وحول النبي . وفى شهر رجب يحتفلون بزيارتهم للمدينة المنورة .

ومن عادتهم الاصطياف فى الطائف ويرتفع عن سطح البحر بمسافة ١٥٥٠ مترا، والهدى فوق جبال كرا ويرتفع عن سطح البحر بمسافة ١٧٦٠ متر وفيه جنات كثيرة تجرى من تحتها الانهار فيها مايشتهون من أثمار وأزهار . وأشهرُ مصيف فى الطائف يسمى شبرا وهو لاشراف ذوى عون أنشأه الشريف عبد الله باشا وسماه باسم شبرا مصر، ثم حدائق المثناة وهى لذوى غالب: وهى أحسن حدائق الطائف ومشهورة بخوخها وعنبها، وماؤها أعذب مياه تلك الجهة . وللطائف طريقان : طريق القافلة [1] ويبعد عن مكة بنحو ٣٦ ساعة ، وطريق [2] البغال على جبل كرا وهو على نحو نصف هذه المسافة . ومدينة الطائف [3] مشهورة بطيب هوائها وليس أحسن منها الا جبل الهدى الذى يبعد

---

(١) مكة . بئر البارود (شمالي منى) . وادى اليمانية . السولة (وهي مبدأ سوق عكاظ فى الجاهلية) . النيه قدير . أم حمض . الجيم (القيم) . الطائف .

(٢) مكة . منى . عرفة . وادي سمار . وادى النعمان (ومنه يبتدئ مجرى عين زبيدة) . قهوة شداد . وادي خريف الرأس . أبو حراجل . الكر . مجمع الدروب . عين المعسل الهدي (وفي جبل الهدى كثير من القردة الصغيرة والوحوش الضارية من سباع وغيرها) . وادي محرم (وهو ميقات احرام أهل الشرق واليمن وحضرموت وعمان) . بئر العسكر . الطائف .

(٣) ويحيط بالطائف سور عليه عدة أبراج أشهرها القلعة التي بناها عثمان المضايفي عامل الوهابيين على الطائف ، وفيها يسجن المنفيون الى الطائف من رجال الدولة العلية: وأشهر من سجن فيها ومات بها زمن السلطان عبد الحميد شيخ الاسلام خير الله أفندي (الذي أفتى بخلع السلطان عبد العزيز)، ومحمود باشا الداماد (صهر السلطان عبد العزيز)، وأحمد مدحت باشا الشهير بأبي الدستور .

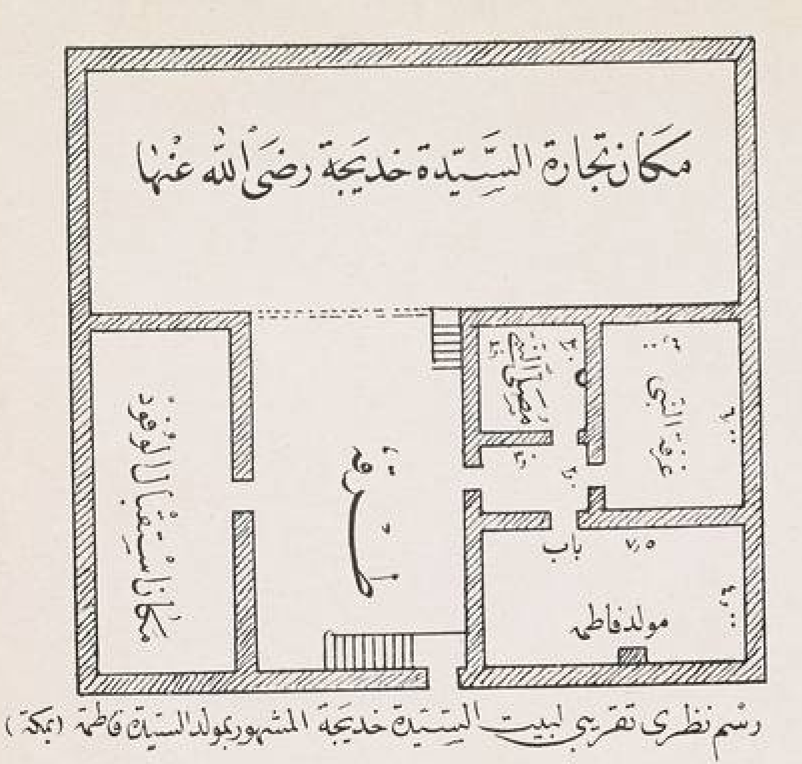
عنها بنحو ثلاث ساعات الى مكة، وأهله مشهورون بجمال خلقتهم ونعومة بشرتهم و ينسبون ذلك الى شربهم من نهر هناك يسمونه المعسل بالغون فى حلاوة طعمه . وفى الطائف قبر السيدين : الطاهر ، والطيب، ولدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبر سيدنا عبدالله بن العباس ، و يقصده اليمانيون لزيارته قبل الموسم وله على الخصوص عندهم احترام كبير . وكان بها زمن الجاهلية معبد اللات والعزى ، وكانت تدين بهما ثقيف وغيرها من القبائل المجاورة للطائف . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب اليهم فى أول نبوته وطلب منهم نصرته فأبوا عليه ذلك .

و يتخلف عن الحج كثير من أهل مكة و يقيمون فيها للمحافظة على دورهم من اللصوص الذين يكثرون فى هذه الآونة فيقطعون ليلهم سهراً بين اطلاق بنادقهم من كل الجهات اعلاناً بأنهم يقظون لكل من قصدهم بسوء .

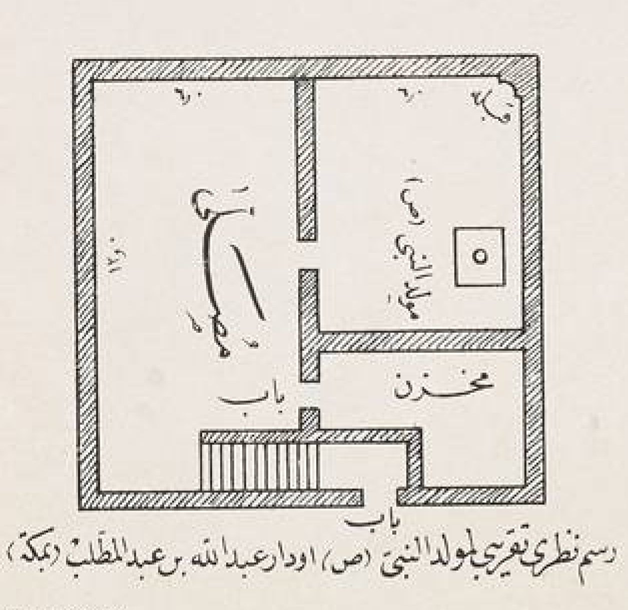
و يوجد بمكة وخارجها مزارات كثيرة منها مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد على ، ومولد فاطمة ، ودار الخيزران :

أما مولد النبى صلى الله عليه وسلم فهو فى شعب بنى عامر أو شعب المولد : وهو مكان قد ارتفع الطريق عنه بنحو متر ونصف ، و ينزل اليه بواسطة درجات من الحجر توصل الى باب يفتح الى الشمال يدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر متراً فى عرض ستة أمتار ، و فى جداره الايمن (الغربى) باب يدخل منه الى قبة فى وسطها (بميل الى الحائط الغربى) مقصورة من الخشب ، داخلها رخامة قد تقعر جوفها لتعيين مولد السيد الرسول عليه الصلاة والسلام . وهذه القبة والفناء الذى خارجها لا يزيد مسطحهما عن ثمانين متراً مربعاً ، وهما يكونان الدار التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان السيد الرسول وهب هذه الدار لعقيل بن أبى طالب ، فباعها ولده لمحمد بن يوسف الثقفى (أخى الحجاج)، فلما بنى داره

والداماد ومدحت مدفونان جانب بعضهما بمكان يقال له الجزيرة خارج السور على مسافة من باب سيدنا عبدالله بن العباس . وقد أقيم على قبرهما أخيراً قبة فخيمة سنة ١٣٢٧ وفرشت بالرياش الثمينة بمعرفة شعبة جمعية الاتحاد والترقى بمكة .

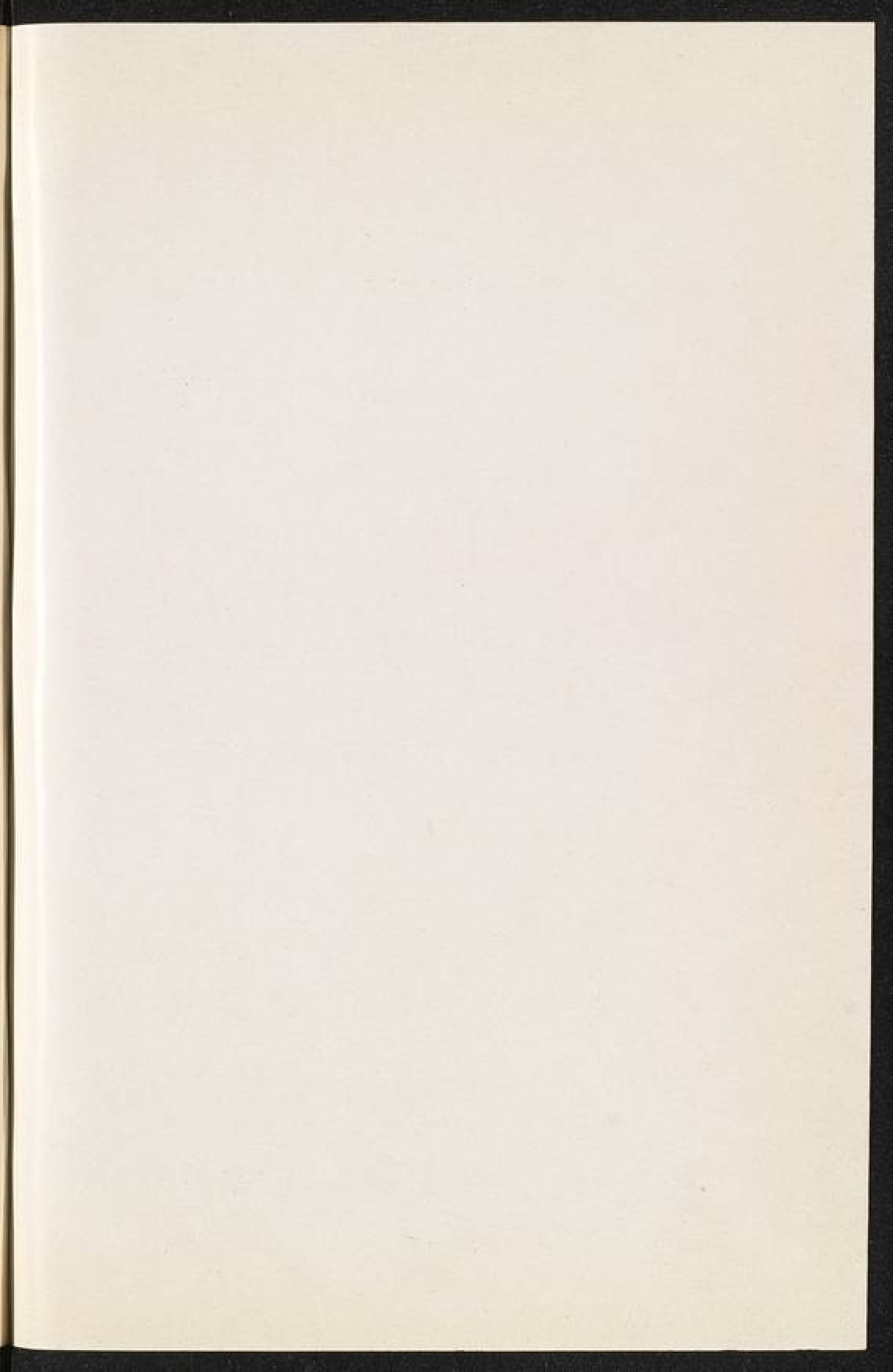


رسم نظري تقريبي لبيت السيدة خديجة المشهور بمولد السيدة فاطمة (بمكة)



رسم نظري تقريبي لمولد النبي (ص) او دار عبد الله بن عبد المطلب (بمكة)

BOEHME & ANDERER, CAIRO.



المشهورة بدار ابن يوسف وكانت بجوارها أدخلها فيها ، حتى اشترتها الخيزران أم الرشيد وفصلتها وبنتها على ما كانت عليه وجعلتها مسجداً ، وهي باقية كذلك الى يومنا هذا .

ويقرب من مولد النبي صلى الله عليه وسلم مولد سيدنا على رضى الله عنه وهو على شكل سابقه الا أنه أصغر منه .

أما مولد السيدة فاطمة ففي درب الحجر : وهو دار خديجة بنت خويلد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها ولدت جميع أولادها منه . وقبل بعثته صلى الله عليه وسلم كان يعمل فى تجارتها الى الشام ثم اختارته لنفسها لما كان عليه صلى الله عليه وسلم من كمال الصفات وصفات الكمال ، فتزوجها فى سنة ٢٨ قبل الهجرة أعنى قبل بعثته بخمس عشرة سنة . وماتت خديجة بمكة رضى الله عنها قبل الهجرة بأربع سنين وهى فى الرابعة والستين من عمرها .

وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق أيضاً ، فينزل اليها بجملة درجات توصل الى طرقة ، على يسارها شبه مصطبة مرتفعة عن الارض بنحو ثلاثين سنتيمتر ومسطحها نحو عشرة أمتار طولا فى أربعة عرضا وفيها كتاب يقرأ فيه الصبيان القرآن الشريف ، وعلى يمينها باب صغير يصعد اليه بدرجتين يدخل منه الى طرقة ضيقة عرضها نحو مترين وفيها ثلاثة أبواب : الذى على اليسار لغرفة صغيرة يبلغ مسطحها ثلاثة أمتار طولا فى أقل منها عرضاً ، وهذا المكان كان معداً لعبادته صلى الله عليه وسلم ، وفيه كان ينزل الوحى عليه ، وعلى يمين الداخل اليه مكان منخفض عن الأرض يقولون انه كان محل وضوئه عليه الصلاة والسلام . والباب الذى فى قبالة الداخل الى الطرقة يفتح على مكان واسع يبلغ طوله نحو ستة أمتار فى عرض أربعة ، وهو المكان الذى كان يسكنه صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة رضى الله عنها . أما الباب الذى على اليمين فهو لغرفة مستطيلة عرضها نحو أربعة أمتار فى طول نحو سبعة أمتار ونصف ، وفى وسطها مقصورة صغيرة أقيمت على المكان الذى ولدت فيه السيدة فاطمة رضى الله عنها ، وفى جدار هذه الغرفة الشرقى رف موضوع عليه قطعة من رحى قديمة يقولون انها من رحى السيدة فاطمة التى كانت تستعملها فى حياتها . وعلى طول هذا المسكن والطرقة الخارجة والمصطبة من جهة الشمال فضاء مرتفع بنحو متر ونصف يبلغ طوله نحو ستة عشر متراً وعرضه نحو سبعة أمتار ، وأظن انه المكان الذى كانت السيدة خديجة تخزن فيه تجارتها .

وهذه الدار التي كانت مقر آله صلى الله عليه وسلم ومحل اقامته فى مكة ومبعثه الى الخلق كافة اذا أنعمت بها نظرك وأمعنت فيها فكرك لا تراها الا البساطة بنفسها : دار تحتوى على أربع غرف، ثلاث داخلية: منها واحدة لبناته، والثانية له ولزوجه، والثالثة له ولربه، والرابعة بمعزل عنها له ولعموم الناس . يالله ما هذا الترتيب الجميل وما هذا النظام البديع ؟ بل ما هذه الآداب الكبرى والكمالات الحيوية العظمى التي صيغت فى شكل هذه البساطة المتناهيه ؟ تأمل قليلا تر أن هذا النظام هو بذاته ما قضت به المدنية العصرية لولا أنه يعمل فيها بشكل تعددت صفاته وكثرت حاجياته ! هذه هى دار السيد الرسول الذى أرسل للناس كافة ! نعم هذا هو منزل هذا النبي الأمى وذلك هو نظامه فى بيته : ذلك النظام الذى وان كان مجرداً عن مظاهر العظمة والفخامة فقد اكتسى بحلى الجلال والكمال ! اللهم انى آمنت بك و برسولك هذا الذى لم يتخذ دينك وسيلة الى عيش الأغنياء وحياة العظماء ، بل كان حسبه من عيشه ما كان يقوم بحياته التى إنما كانت كلها خيراً و بركة و يمناً وسعادة للناس أجمعين .

ولما هاجر صلى الله عليه وسلم الى المدينة استولى على هذه الدار عقيل بن أبى طالب ، ثم اشتراها منه معاوية بن أبى سفيان فجعلها مسجداً ، وعمرت فى زمن الناصر العباسى . وقد وضع فى حائط الطرقة الخارجية على يسار الداخل لوح من الرخام مكتوب عليه بالحروف البارزة : « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة مربد مولد الزهراء البتول فاطمة سيدة نساء العالمين بنت الرسول محمد المصطفى المختار صلى الله عليه وعلى آله وسلم سيدنا ومولانا الامام المفترض للطاعة على الخلق أجمعين، الناصر لدين الله أمير المؤمنين، أعز الله أنصاره، وضاعف اقتداره، وجعل منافعه ومشتغلاته وأجره عائدا على مصالحه ثم على مصالح هذا المقام الشريف المقدس الطاهر النبوى ، على ما يرى الناظر المتولى له فى ذلك من الحظ الوافر ، والمصلحة لهذا المربد والمولد المقدس المذكور بعد ذلك ابتغاء وجه الله تعالى وطلبا لثواب الدار الآخرة . تقبل الله ذلك منه وجزاه عليه أجر المحسنين . وذلك على يد العبد الفقير الى رحمة الله تعالى على بن أبى البركات الذورانى الأنبارى فى سنة أربع وستمائة ومن غيَّر ذلك أو بدَّله عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين الى يوم الدين آمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين » .

ثم عمرها بعد ذلك الأشرف شعبان ملك مصر ثم الملك المظفر صاحب اليمن ثم السلطان سليمان فى سنة ٩٣٥ .

أما دار الأرقم المخزومى المشهورة بدار الخيزران فهى فى زقاق على يسار الصاعد الى الصفا: وهى الدار التى كان يختبئ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر بعثته هو ومن آمن معه ، وكانوا يصلون بها سراً حتى أسلم عمر رضى الله عنه فقويت به عصبيتهم وجهروا بالاسلام والصلاة . وباب هذه الدار يفتح الى الشرق ويدخل منه الى فسحة سماوية طولها نحو ثمانية أمتار فى عرض أربعة، وعلى يسارها ليوان مسقوف على عرض نحو ثلاثة أمتار ، وفى وسط الحائط التى على يمينها باب يدخل منه الى غرفة طولها ثمانية أمتار فى عرض نحو نصف ذلك مفروشة بالحصير وفى زاويتها الشرقية الجنوبية حجران من الصوان موضوعان فوق بعضهما مكتوب فى أعلاهما بالحرف البارز « بسم الله الرحمن الرحيم فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال هذا مختبأ رسول الله ودار الخيزران وفيها مبتدأ الاسلام أمر بتجديده الفقير الى مولاه أمين الملك مصلح ابتغاء ثواب الله ورسوله ولا يضيع أجر المحسنين » . ومكتوب فى الثانى : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا مختبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم المعروف بدار الخيزران أمر بعمله وانشائه العبد الفقير لرحمة الله تعالى جمال الدين شرف الاسلام أبو جعفر محمد بن على بن أبى منصور الاصفهانى وزير الشام والموصل الطالب الوصول الى الله تعالى الراجى لرحمته أطال الله فى الطاعة بقاه وأناله فى الدارين مناه فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة » .

ومن الأماكن المقدسة غار حراء : وهو الغار الذى كان يتعبد فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، ومساحته تقرب من ثلاثة أمتار فى مترين ، ويوجد فى قمة جبل النور الذى على يسار السالك الى عرفة ، وفيه نزل الوحى عليه صلى الله عليه وسلم لأول مرة . ثم جبل ثور وهو الى الجنوب من جهة المسفلة وعلى ساعتين منها ، وفيه الغار الذى اختفى فيه رسول الله مع صاحبه أبى بكر حين قصد الهجرة الى المدينة ، ومساحته نحو مترين مربعين . ثم المَعْلى : وهى مقبرة مكة وتوجد خارج بابها الشرقى ، وفيها ضريح السيدة خديجة زوج النبى صلى الله عليه وسلم وهو داخل قبة تجددت سنة ١٢٩٨ ، وفى القبة مقصورة من خشب الجوز

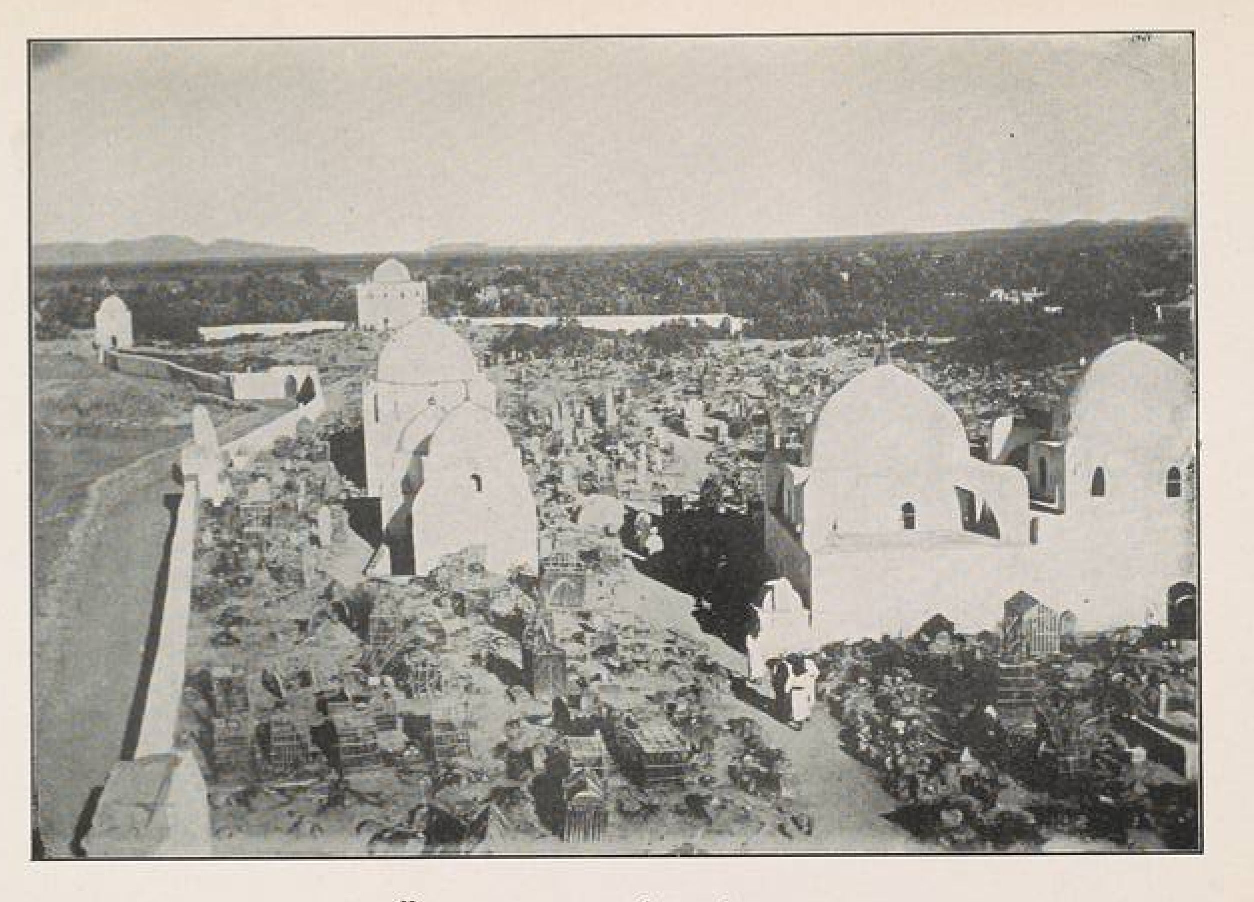
أقيمت على قبرها الشريف، والى جانبها مقصورة صغيرة مدفون فيها ستة عشر شخصاً من الاشراف . وخارج هذه القبة الى الغرب قبر السيدة الكبيرة حرم ساكن الجنان محمد على باشا، وكانت قد أتت الى الحج سنة ١٢٦٦ فماتت ودفنت بهذا المكان . وقبالة قبة السيدة خديجة الى الجنوب قبة السيدة آمنة [١] بنت وهب والدة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبجوارها مقصورة دفن فيها الشريف محمد بن عون . وفى شمالها قبة أبى طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وبجوارها قبة جده عبد المطلب، وكلتاهما تجددتا فى سنة ١٣٢٥ . وفى هذه القرافة قبر سيدنا عبد الله بن الزبير رضى الله عنه وكانت له قبة هدمها الشريف عون الرفيق فيما هدم ولم تشيد بعد، وفيها قبر أبى جعفر المنصور أمير المؤمنين وكان قد حضر الى مكة حاجا فى سنة ١٥٨ فمات ودفن بالمعلى ولا يعرف مكانه . وفيها غير ذلك كثير من قبور الصحابة والتابعين والصالحين رضوان الله عليهم .

ومن المزارات بمكة أيضاً مسجد الجن، ومسجد الراية ، ومسجد الاجابة ، ومسجد البيعة ، ومسجد أبى بكر ، ومسجد عمر ، ثم جبل أبي قبيس وفيه مسجد بلال ، ومسجد انشقاق القمر ، وزاوية السنوسى [٢] الذى له فى الحجاز شأن كبير ومقام خطير ومعظم الاعراب على شيعته .

---

(١) ذكر ياقوت فى معجمه أن آمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم دفنت بالابواء وهي قرية من أعمال الفرع من المدينة، بينها وبين الجحفة مما يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلا. والسبب فى دفنها هناك أن عبدالله والد الرسول كان خرج الى المدينة فمات ودفن بها. وكانت في كل عام تخرج الى المدينة لزيارة قبره ، ولما أتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين خرجت زائرة له ومعها عبدالمطلب وأم أيمن حاضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صارت بالابواء منصرفة الى مكة ماتت ودفنت بها .

(٢) أهالي مكة أغلبهم على طريقة السنوسية، وكثير منهم على طريقة يسمونها الرشدية وهم أتباع الشيخ ابراهيم الرشيدي ، والادريسية وهم اتباع الشيخ أحمد بن ادريس ، والمرغنية وهي شائعة في السودان ومصر .



جبانة المعلى بمكة المكرمة وفيها قبتا السيدة آمنة والسيدة خديجة
وعلى يسارهما قباب عبد المطلب وأبي طالب وغيرهما من بني هاشم



وفى مكة مكان للتلغراف والبوستة بناه المرحوم عثمان باشا نورى عند بنائه لدار الحكومة (الحميدية) وغيرها منذ كان واليا عليها لاول مرة سنة ١٨٨٢ ميلادية . والتلغراف فى هذه المدينة لا نظام فيه بالمرة لعدم وصول غالب الاشارات التى ترسل من و إلى أربابها!! ولعل ذلك ناشئ من كثرة الاعمال فى زمن الحج: أما البوستة فشئ لا نظير له بالمرة فى بوسطات العالم: فان المكاتيب تحضر فى زمن الموسم من جدة الى مكة على الجمال فى عدة زكايب ، فتلقى فى طرقة مكتب البوستة الضيقة ، و يأتى المطوفون أوصبيانهم أوالحجاج أنفسهم فيفرزونها و يأخذ كل ما يعثر عليه صدفة باسمه أو باسم معارفه ، وعليه فاغلب الخطابات لا تصل الى أربابها . وأظن أن هذا النظام أواللانظام لامبرر له بالمرة ، لأن الحكومة العثمانية فى استطاعتها أن تكثر من عمال البوستة فى موسم الحج واذا فرضنا أنها عينت بصفة ظهورات عشرين عاملا لفرز هذه المكاتيب مدة الموسم وتوزيعها على أربابها فلا يكلفها ذلك شيئا يذكر. ولو قلنا ان الزمن الماضى كان زمن فوضى لا نظام له فانا لا يمكننا أن نقول هذه الكلمة فى الحكومة الحاضرة ، وان أمكنا فلا نحب أن نقولها . وليست هذه الحال خاصة بمكة ، بل تراها بالمدينة وينبع وجدة ، وعليه فنرجو من حكومة الحجاز العناية بتنظيم البوستة قياماً بواجب رد الامانات الى أهلها حتى لا تضيع الفائدة المقصودة منها .

وفى شوارع مكة كثير من القهاوى البلدية التى ترى فى دوائرها دككا وكراسى من الخشب مقاعدها مصنوعة من شبكة من الليف أو الخوص المجدول وأحسنها فى جهة جياد، فيجلس عليها الحجاج وخصوصاً فيما كان منها خارج البلد مدة الصيف ، ويشربون بها الشاى (ويسمونه الشاهى)[1] والقهوة[2] والنرجيلة التى يجهزونها بالتمباك الحمى عادة لكثرة استعماله هناك . ولقد رأيت بعض الهنود يمر على هذه القهاوى وهو ينادى قائلا «كابوس

(١) وأظن ان هذه الكلمة نسبة الي شاه الفرس لاستعماله هذا الشراب كقولهم شراب ملوكى مثلا وربما أتى من هذه النسبة اسم ذلك القماش الحريري المشهور «شاهي» .

(٢) القهوة عندهم من البن اليمني، وكبراؤهم يضيفون عليها كثيراً من المنبهات مثل الحبهان والقرنفل وبعض العطريات مما يجعل لها نكهة لطيفة جداً ويسمونها دوش ومن أغاني البدو: يادوش ما اسمك دوش اسمك دواء لكل كبد عليله .

كابوس» (مكبسانى) ، فاذا استدعاه أحد ممن فيها فرشه على دكة وأخذ يكبسه بمهارة فائقة نحو نصف ساعة على الاقل فى نظير قرش أو قرشين . و يقرب من هذه القهاوى عادة سوامر يقوم فيها بعض أناس فى الغالب من اليمانيين يتغنون بأغنية جميلة تطرب منها النفوس وكلها فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم . وفى بعض الاحيان ترى هؤلاء المغنين متنقلين فى طرق مكة .

و فى مكة ثلاث تكايا وأكبرها وأفخرها وأنظمها وأكثرها مورداً التكية المصرية : وهى بناء فخيم شيده المرحوم محمد على باشا جد العائلة الكريمة الخديوية فى مكان دار السعادة التى كانت محل حكومة بنى زيد من الأشراف ، كما كانت دار الهناء محل حكومة بنى بركات وكانت توجد مكان دار الشريف أبى نمى تجاه باب الوداع . و فى هذه التكية مخازن وطاحونة ومخبز ومطبخ ومكان نظيف منظم لحضرة مديرها وأمكنة لمستخدميها ، و يطبخ بها يوميا الشوربة للفقراء والمعوزين الذين يغدون الى بابها صباحا لاخذها مع ماهو مرتب لهم من الخبز الذى تقوم به حياتهم و يبلغ عددهم يوميا نحو خمسمائة شخص أو يزيدون [1] .

و فى مكة قلعتان تحكمان على المدينة و يسكن بهما عساكر الدولة ، وهما قلعة جياد التى بناها الشريف سرور سنة ١١٩٦ هجرية فى الجهة الجنوبية ، وقلعة الهندى التى بناها الشريف غالب سنة ١٢٢١ فى الجهة الشمالية . وفيها حمامان على مثال الحمامات الرومية بمصر : واحد بالعمرة بناه محمد باشا وزير السلطان سليمان سنة ٩٨٠ ، والثانى بالقشاشية و يسمونه حمام النبى . و بها مطبعة للولاية وتسمى باسمها . و يصدر فيها جريدة بالتركية والعربية اسمها (حجاز) وهى شبيهة بالرسمية وكل مافيها تقريبا يتعلق باخبار الحكومة واعلاناتها .

وليس فى مكة كتبخانات تذكر اللهم الا كتبخانة بسيطة فى باب أم هانئ تسمى كتبخانة شروانى زاده محمد رشدى باشا والى الحجاز سابقا ، وأخرى فى باب الدريبة قرب

(١) وهذا العدد يزاد حسب شرط الواقف فى مدة الحج الى ثلاثة أضعافه ، على انه ربما يقصد التكية من الفقراء فى الموسم مايزيد عن ذلك كثيراً لأنها أعظم ملجأ للبائسين فى مكة ولو كانت ادارة أوقاف الحرمين تزيد فى ميزانية هذه التكية ولو فى مدة الحج كان ذلك من خير أعمالها .

باب السلام تسمى بالكتبخانة السليمانية ، أسسها السلطان عبد المجيد وكونها من شتات كتب الحرم وغيرها مما أرسله اليها من الاستانه . ولكل كتبخانة من هاتين فهرست بخطاليد ومُغَيّر يقوم بشؤونها . والكتب التي بهما نحوية وفقهية وأدبية وتاريخية وغالبها باللغة العربية وفيها شئ بالفارسية والاوردية (الهندية) والتركية والجاوية (لغة الملايو) . وقد كان بمكة كتب كثيرة مهمة وكانت موضوعة في دواليب في دائر حائط الحرم ، سرق بعضها والسيول التي أغرقت المسجد وخصوصاً في سنة ٤١٧ صعدت الى هذه الخزائن وأتلفت منها شيئاً كثيراً ، وكان في ذلك أكبر مصيبة على العلم والعلماء لأنهم فقدوا بها مالا يصلحه الزمان ولا يعوضه الانسان .

وفيها مدرستان المدرسة الصولية ، بناها المرحوم الشيخ رحمة الله الهندى الشهير (صاحب كتاب اظهار الحق) ، ويدرس فيها القرآن الشريف وعلم التجويد وشئ من اللغة العربية والأعمال الحسابية والهندسية ، ويصرف عليها من تبرعات أهل الهند ، وهو أمر لا ثبات له ولا تدوم معه حياة مدرسة نافعة مثلها : لذلك أخذت في الانحطاط ، والامل في حكومة الحجاز النهوض بها وبأمثالها . ثم المدرسة التي يقوم بها حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ يوسف محمد الخياط ، وهو من علماء مكة الاماثل ، ويدرس فيها ما يدرس في الاولى بتوسعة ، وعناية مولانا الأمير بها كبيرة ولذلك فالأمل في نجاحها عظيم . ولقد قرأت بعدد ٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٨ من جريدة المفيد الغراء نقلا عن جريدة صباح أن الحكومة العثمانية افتتحت مدرسة بمكة المكرمة بحضور الوالى والشريف وجمهور من الوجهاء والاعيان فعسى أن يكون فيها الخير المرجو لأم القرى بل لأم العواصم الاسلامية .

ولو كان مولانا الامير يقضى بان يتخرج المطوفون من مدرسة مخصوصة يدرسون فيها ماهو خاص بوظيفتهم لكان في ذلك أكبر خدمة دينية ، لأن جل الموجود منهم الآن يجهل مأموريته الكبرى . وليت بعضهم يقف عند هذا الحد بل يلقى في ذهن الحاج ماليس من الدين في شئ كمسألة الكنفانى والزلبانى مثلا : وهما حجران في طريق جدة الى بحرة يزعمون أن واحدا منهما كان كنفانيا والآخر كان زلبانيا وكانا يغشان الحجاج فمسخهما الله حجرين !!

ومسألة الناقة والحجام والحجامة بجبل عمر : ذلك أن هناك صخرة تشبه ناقة باركة والى جوارها حجران يزعمون أن النبي كان بهذا المكان بناقته فأتى رجل حجام مع امرأته وامسكا بالناقة التي لم تنهض برسول الله صلى الله عليه وسلم فسخها الله معهما على هذه الصورة ! ! ومسألة سارق الصندوق وهو صخرة الى جهة جبل النور تقرب من صورة رجل يحمل صندوقاً يزعمون أنه كان سارقاً له فسخه الله عليها ! ! وأمثال هذا كثير مما تجب العناية بازالته خدمة للدين المتين . والادهى من ذلك أنهم يحرفون ألفاظ القرآن الكريم عمداً أثناء الطواف ، بتفخيمهم مالا يجوز تفخيمه أو ترقيقهم مالا يصح ترقيقه ، بل منهم من يقلب الحرف باخر لتقريبه الى نطق السامع إن كان تركياً أو هندياً أو فارسياً ، فيقولون مثلا « وكنا عذاب النار » في قوله تعالى « وقنا عذاب النار » و « مهمد رسول الله » في محمد رسول الله و « ياأرهم الراهمين » في ياأرحم الراحمين و « اللوهم » في اللهم ونحو ذلك مما لا يجوز شرعاً ولا اجتماعا .

ويدرس في الحرم الشريف بعض العلوم العربية والتفسير على الطريقة القديمة العقيمة ، ويقدر عدد الطلبة ببضع مئات جلهم من الجاوه الذين يفرون الى هذه البلاد من المظالم التي تتساقط على رؤوسهم من حكومة بلادهم ، فتراهم يشتغلون وقت الدرس في الدراسة ووقت الفضاء منها يعملون فيه عملا يقوم بحياتهم .

ويبلغ عدد المدرسين العاملين نحو الثلاثين ، وعنايتهم بالتعليم قليلة جداً ، وذلك لقلة موارد الارتزاق ولان مرتباتهم التي تصرف لهم من طرف الدولة لا تقوم بأودهم ، لانها تختلف من مائة الى خمسمائة قرش عثماني سنوياً . ولنا في الحكومة الجديدة ، حكومة الدستور ، حكومة العلم ، حكومة العمل ، وفي كبير همة دولة الشريف عظيم الامل في انتقال حال العلم بهذه البلاد في زمن قريب الى حال تفيد القوم في دينهم ودنياهم .

وتجارة هذا البلد كلها أو جلها في يد الاغراب خصوصاً الهنود ، وغالبها من صنف العطريات والسبح والسجاجيد والاقمشة الحريرية الهندية والشامية . والصناعة فيها غير مهمة وهي لا تخرج عن صياغة بعض قطع ذهبية أو فضية وخصوصاً في عمل الدبل التي يدعون

منفعتها للبواسير شفاهم الله ! ! والحدادة عندهم بسيطة جداً ولكنها دقيقة فى عمل الاسلحة وفيها من المصانع فاخورة لعمل الدوارق والقلل وكل ذلك فى يد الاجانب أيضاً . أما الاهالى فأغلبهم يعيش من مهنة التطويف أو التظاهر بالشعار الدينى ، ولا تروج تجارتهم الا زمن الحج ، وما يأتيهم فيه من رزق يعيشون منه طول عامهم . غير أن كثيراً منهم يبرحون مكة بعد الموسم الى الجهات التى بها أناس ممن سبقت معرفتهم بهم فى الحج ، فيفدون عليهم ببعض الهدايا ثم يعودون وقد أخذوا أضعاف ثمنها منهم .

والنقود التى تستعمل فى مكة هى النقود التركية والمصرية فضية أو ذهبية ، والروبيّة والقروش الهندية والريال الشينكو وأبوطيره والريال البُرم[١] (الجاوى) وهو على أشكال مختلفة ، والجنيه الانجليزى والفرنساوى والروسى . وليس لهذه النقود قيمة ثابتة هناك ، بل تراهم يستعملونها على الدوام فى مصلحتهم ، فيأخذونها منك بأقل من قيمتها ويعطونها لك بأكثر مما تساوى ، وهذا عيب كبير من عيوب المعاملات ! ! ولعل أرباب الأمر والنهى يجتهدون فى إزالته قريباً . والريال أبوطيره هو أكثر النقود استعمالا عند الأعراب وقيمته عندهم كالريال الشينكو والمصرى . ومما يناسب ذكره هنا أنى أعطيت مرة قطعة من النقود ممسوحة قليلا الى طفل صغير أعرابى فردها الىّ قائلا هذه زلطاء : وهى كلمة بدوية صرفة كان لها وقع عظيم على سمعى ! والاعراب لا يعرفون قيمة هذه النقود ، واذا وجد معهم شىء منها يتوجهون به الى التاجر ويقولون له « سوّ بهذه من الصنف الفلانى على أمانتك » ، ولا تهمهم جودة الصنف بل تهمهم الكثرة منه .

وأسواق مكة كثيرة : منها سوق الشامية فى شمال الحرم وهى أشبه شىء بالاسواق التركية ولها سقف من الخشب على مثال الخان الخليلى بمصر لولا أن شوارعها أضيق ، وهذه السوق تضيق بالمارين خصوصاً عند مرور الجمال بها . وفيها يبيعون السبح والاقمشة الهندية والتركية وغيرها ، وفيها كثير من الفصوص الفيروز والياقوت والعقيق الذى يبيعه

(١) هذا الريال ضرب باسم شركة هولاندية ومع عدم استعماله فلا يزال ذكره يرد في أقوال بعض الذين يشحذون بنشيدهم (أدباتية) « شرم برم حالي غلبان » .

على الخصوص حجاج اليمن فى شوارع المدينة بأثمان رخيصة جداً .

ثم السوق الصغير وهو تجاه باب ابراهيم وأغلب ما فيه للغذاء، كالخبز واللحوم والبقول الجافة والخضر التى يؤتى بها من الأودية المحيطة بمكة كوادى فاطمة شمالا ، ووادى الليمون شرقا ، ووادى العبيدية (العبّادية) والحسينية جنوبا . وكثير من هذه الخضر يأتى مع الفاكهة من جهة الطائف وجبال كرا ، وفى هذه السوق دكاكين كثيرة يبيعون فيها الأسماك المقلية التى يؤتى بها من جدة ، وهى فى الغالب مضرة جداً بالصحة لتعفنها من الحرارة وطول زمن النقل . وفى شرق المسجد سوق الليل وهى سوق كبيرة مختلطة فيها جميع احتياجات الحاج . وفى كل هذه الاسواق ترى مدة الموسم حركة لا تنقطع بأى من ورائها ربح عظيم لأهل البلد . ومدار حركة الأشغال الشاقة فى مكة على العبيد فمنهم الحمالون والحطابون والحمارون والجمالون والسقاءون والخدامون . ولقد كان للرقيق بمكة سوق كبيرة أخذ أمرها يمحى شيئاً فشيئاً حتى كاد لا يكون له أثر بالمرة . وكانوا يسمون المكان الذى يبيعونه فيه بالدكة لأنه كان فى حوشه دكة يجلسون عليها ما يراد بيعه منه .

وبهذه المناسبة أقول ان ما يصرفه الحجاج بمكة ليس بالشىء الذى يستهان به ، لأنا اذا فرضنا أن متوسط عددهم يبلغ سنويا مائتى ألف نفس ، وأن متوسط ما يصرفه الواحد منهم مدة اقامته بمكة خمس جنيهات ، فيكون مجموع ما يصرفه الحجاج فى مكة على أقل تقدير مليونا من الجنيهات فى نحو شهر من الزمان : فى أجرة مسكن وبعض المأكل وأجرة مطوف وزمزمى وبعض هدايا يشتريها الذويه وأهليه . ومع هذا كله فان بعض أهالى مكة لا ينظرون الى الحاج (بقطع النظر عن كونه ضيف الله وفى بلده الحرام) بالعين التى يجب عليهم أن ينظروه بها ، وعلى الأقل من الجهة الاقتصادية التى هى مصدر حياتهم . لأنهم مع احتقارهم له يسيئون معاملته ويرون فى ماله كلأً مباحا لهم ، ويتقوّلون فى ذلك الأحاديث التى لا يخرج معناها عن قولهم « الحاج رزق لأهل الحرمين ورزق الحاج على الله » ! ولعل هذه المعاملة السيئة كانت فى ذلك الزمن السيئ زمن الاستبداد الذى كان المطوّفون فيه يوقفون أغنياء الحجاج فى سوق المزايدة ، حتى يرسو أمرهم على أيهم يتولى شؤونهم ، كما حصل لبعض سراة

المصريين فى سنة ١٣٢٦ ولا حول ولا قوّة الا بالله ! !

وجو مكة كثير الحرارة قليل الامطار ، ومع ذلك فقد تحصل فيه سيول كثيرة من الأمطار التى تنزل بكثرة فى الجبال العالية المحيطة بالطائف . وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمل فى شمال مكة قناطر لحجز مياه هذه السيول عن هذه المدينة ، وانصرافها من الجهة الشرقية نحو المسفلة الى خزان كبير فى الجهة الجنوبية يسمونه بركة الماجن ، وهناك تستعمل للأعمال الزراعية . ولا تزال لهذه السيول أضرار جسيمة بمكة ومبانيها .

وأهواء مكة تختلف فى هبوبها جملة مرات فى الساعة الواحدة . ولهذا يقول المكيون « إن الله خلق سبعين هواء جعل منها فى مكة تسعاً وستين و فى العالم كله هواء واحدا » : ذلك لأن الهواء يدور فى جو المدينة بين جبالها المحدقة بها كما تدور الدوامة على سطح الماء . فبينا تراه يدخل الى المساكن من المنافذ الغربية اذا به انقطع عنها ودخل من الشرقية أو الشمالية أو الجنوبية وهكذا ، ولذلك تجد مساكنهم كثيرة النوافذ وغالبها الى الجهات الاربع حتى لا تحرم من الهواء من أى جهة كان . والهواء البحرى عندهم وهو الغربى أحسنها وألطفها لانه يأتى من جهة البحر ، ثم هواء الشام و يسمونه الشمأل والشمال ، أما الجنوبى والشرقى فهما حاران .

و يفسد هواء مكة فى أيام الحج لكثرة الساكنين فيها وعدم العناية بنظافتها ، وتكثر فيها زمن الشتاء أمراض الصدر و يندر فيها التدرن الرئوى ، و فى زمن الصيف تكثر الاحتقانات الدماغية وضربات الشمس وأمراض العين والكبد والجهاز الهضمى والدوسنتاريا خصوصاً بين الاطفال و يسببها عندهم أكل السمك العفن والفواكه الغير ناضجة ، و فى زمن الحر تكثر فيهم الحميات لا سيما عند فساد مياه الشرب ، و يكثر فيهم مرض الجدرى و يموت بسببه سنويا أكثر من اثنين فى الالف . ومما يجدر بنا ذكره ان الكوليرا لم تظهر فى مكة الا سنة ست وأربعين ومائتين وألف هجرية أى فى نحو سنة ١٨٢٥ ميلادية ، وفدت اليها مع حجاج الهند ولا تزال تفد اليها معهم . ولو كانت الحكومة تعتنى

بشدة الحجر على حجاج الهنود والجاوه فى جزيرة قمران[١] قبل دخولهم الى جدة بزمن لامكنها الحيلولة بين حجاج بيت الله الحرام وهذا الداء الوبيل . والاوبئة الكبيرة التى حصلت بمكة فى زمن الحج وفتكت بالحجاج فتكاذريعاً كانت فى سنة ١٨٩٠ ميلاديه وسنة ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٥ وسنة ١٩٠٢ . وفى مكة مستشفى معروف الآن باسم شفخانة الخاصكية وهو من خيرات خاصكى سلطان زوجة السلطان سليمان القانونى . وفيها أربع أجزاخانات : أثنتان فى طريق المسعى و واحدة فى مصلحة الصحة بجياد والرابعة أشبه شىء بدكان عطارة بسيطة فيهامن الادوية مافسد غالبه وأصبح ضرره أكبر من نفعه وعلى كل حال فالعناية بالمسائل الصحية بمكة قليلة جداً . لأن ثقتهم بالطب القديم الذى مداره على الكى والفصد والحمية الشديدة و بعض أصناف العطارة الشرقية كالمر والصبر أكبر من ثقتهم بالطب الحديث .

وقد كان الجناب العالى الخديوى حفظه الله فكر فى ايجاد مستشفى بمكة ورتب له طبيباً وأجزاجياً فلم يتيسر لهما القيام بمأموريتهما واكتفى الحال مؤقتاً بالخدم التى تقوم بها مأمورية الأوقاف الصحية زمن الحج ومقرها فيها يكون فى التكية المصرية والحق يقال ان لها أثرا يذكر فيشكر . ومصاريف هذه المأمورية تبلغ سنوياً فوق السبعمائة جنيه مصرى ومع هذا فانا لا ننسى الخدم التى تقوم بها مأمورية المحمل المصرى الصحية لعامة الحجاج لا فرق بين مصرى وغيره .

وأهل مكة يشربون من ماء الآبار التى فيها مثل زمزم أو التى فى ضواحيها كالزاهر والعسفلانى والجعرانه وغيرها ، أومن الصهاريج التى تملأ من مياه المطر أو ماء الينابيع ، أو من عين زبيدة التى يجرى ماؤها الى المدينة فى قنوات تحت الارض لها خزانات فى شوارعها

---

١) جزيرة قمران واقعة في البحر الاحمر شمال الحديدة بمسافة أربعين ميلا وعلى مسافة ٤٨٠ ميلا من جدة . وفيها أحذية كثيرة بنتها الدولة العلية بحيث أصبحت وافية بالغرض المقصود منها . ولو كانت الدولة لا تدع الهنود والجاوه يدخلون الي ميناء جدة الا اذا كان معهم جواز نظيف من قمران لكان ذلك أنفع لبلاد هايل لبلاد العالم بأسره ولا كتفى المسلمون ما تلصقه الافرنج بمكة من انها بؤرة الاوبئة التى تتفشى فى بلاد العالم سامحهم الله .

يملأ منها السقاءون قربهم . وهذه العين لها أهمية عظيمة جداً وهي من أجل الآثار التى تنسب الى السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد رضى الله عنهما . وكان السبب فى إنشائها أن هذه السيدة البارة رأت فى حجها ما كان ينال أهل مكة وحجاج بيت الله الحرام من العناء الشديد والأهوال الكثيرة لقلة الماء فى تلك الانحاء ، فأمرت رحمها الله باجراء الماء الى أم القرى من عين حُنين التى توجد فيما وراء عرفة الى جهة الشمال الشرقى ، على مسافة نحو خمسة وثلاثين كيلومتراً من مكة . وهذه العين تخرج من جبال طاد وتسير فى وادى حنين الذى حصلت فيه (سنة ٨ للهجرة بعد فتح مكة) تلك الواقعة المشهورة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين المشركين من هوازن وثقيف ، وثبت فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثباتاً عظيماً ، كما أبلى المسلمون فيها بلاءً حسناً . وفيها قتل دريد بن الصمة وهو من أكبر رجال الجاهلية المشهورين ، قتله رجل من المسلمين يسمى ربيعة بن رفيع السلمى .

وقد اهتمت زبيدة بهذا العمل الجليل اهتماما كبيراً وأرسلت اليه العمال من جميع الأطراف ، فبنوا لهذا الماء مجرى عظيما وأوصلوا به مجرى آخر من وادى النعمان من الماء الذى ينزل اليه من جبال كَرا التى تبعد عن عرفات شرقا الى الجنوب بنحو اثنى عشر كيلومترا ، وسيروا اليه سبع قنوات أخرى من الجهات التى تسقط اليها السيول حتى تساعد ماء المجرى الأصلى الذى عندما وصل الى جنوب منى نقر له فى الصخر خزان كبير يصب فيه يسمى بئر زبيدة ، ومنه سيرت قناة الى مكة . ومن هذا المجرى امتد فرعان : واحد الى عرفات ، والآخر الى مسجد نمرة يسير الماء فيهما زمن الحج .

وفى نهاية القرن السابع الهجرى طم مجرى هذه العين وتهدمت قنواتها وانقطع ماؤها عن المدينة ونال الناس من جراء ذلك جهد عظيم . وذكر الفاكهى فى تاريخ مكة أن الاميرجوبان « نائب السلطنة بالعراق عن السلطان أبى سعيد بن خربنده (لعله خدا بنده) ملك التتار » أراد أن يعمل عملا نافعاً فى أم القرى فطلب اليه أن يعمر عين زبيدة ، فأرسل رجلا من خاصته اسمه بازان لتعميرها فأتمها فى سنة ٧٢٦ وفيها جرت مياه العين الى سقايته التى بناها فى المسعى وسماها باسمه و يظهر أن هذا الاسم تغلب على باقى السقايات التى بمكة حتى صار يطلق على كل واحدة منها

اسم بازان الى الآن .

وما زالت هذه العين حياة لاهل البلد الحرام وحجاج بيت الله المعظم حتى أهمل شأنها وتهدم بنيانها وانقطعت مياهها مرة أخرى فيما بين سنتي ٩٣٠ و ٩٧٠ ، ونال الناس من ذلك أهوال ما كانت تخطر على البال ، حتى بلغ ثمن زق الماء (قربة صغيرة تسع ٣ لترات تقريباً) بعرفة في غضون هذه المدة ليرة ذهبية : وسبب إهمال هذه العين في المدة المذكورة أن ملوك مصر هم الذين كانوا يعتنون بها ويقومون بعمارتها في الغالب . فلما تغيرت الأحوال ودخلت مصر مع أرض الحجاز سنة ٩٢٣ ضمن أملاك الدولة العلية التي كانت تشغل كل وقتها كثرة حروبها الخارجية ، أهملت الدولة ترتيبها الداخلية حكومتها ، خصوصاً ما كان بعيداً عنها . ولكن أهل الحرمين الشريفين قاموا في سنة ٩٦٩ والتمسوا من السلطان سليمان اصلاح هذه العين . وهنالك رجته كريمته صاحبة السمو الملوكاني مهرماه سلطان أن يشرفها باجراء هذا العمل المبرور من مالها الخاص ، وعينت مديراً للقيام بهذه المهمة ، وسلمته الاموال اللازمة لها ، فسافر من وقته الى مكة وشكل مجلساً من أهل الرأي فيها ، وأمر بحفر القناة وتنظيف فروعها وبناء ما تهدم من مجراها ، ولما وصل الاصلاح الى بئر زبيدة بمنى أراد رحمه الله أن يغير مجراها الى مكة ، فاضطر الى النزول في هذا الجبل الصخري على مسافة نحو خمسة وعشرين متراً من سطح الارض ، في مسافة طولها أكثر من كيلومتر ، ثم سيرها في حضن الجبل القبلي حتى أوصلها الى مكة سنة ٩٧٩ .

وينقسم هذا المجرى من الباضية شرقي باب المعلى الى أربع شعب تتخلل المدينة من جهة الى أخرى . ويبلغ عرض هذه القناة نحو متر وربع في ارتفاع نحو متر ونصف ، وتقرب من سطح الارض وتبعد عنه على حسب ارتفاعها وانخفاضها ، ولها خزانات تملأ منها السقاءون .

وفضل ماء زبيدة يسير الى المسفلة حتى يصب جنوب مكة في بركة الماجن وهناك يستعمل في سقي بعض البساتين والمزروعات التي لبعض الاشراف .

وكثيراً ما تعبث السيول بهذه القناة فتصلحها أمراء مكة بالاموال التي ترد اليها من الدولة أو من أصحاب الهمم والخيرات من المسلمين . وآخر ما حصل لها من ذلك على أثر السيول التي

وقعت فى سنتى ١٣٢٧ و ١٣٢٨ فهدمت نقطا كثيرة منها، وطم مجراها بما تخلف اليه من الرمال والاحجار ، فقام حضرة صاحب الدولة الشريف حسين باشا أمير مكة وجمع الناس وطهره وأصلح ما اعتل منه . وكان للجناب العالى الخديوى العباسى أكبر فضل فى ذلك لانه بمجرد ما بلغ مسامعه الكريمة خبر هذه الفاجعة التى أصيبت بها أم القرى، أرسل بألفى جنيه مصرى لهذا العمل الجليل ووعد بغيره كلما اقتضت الحال لمساعدته جزاه الله خيراً .

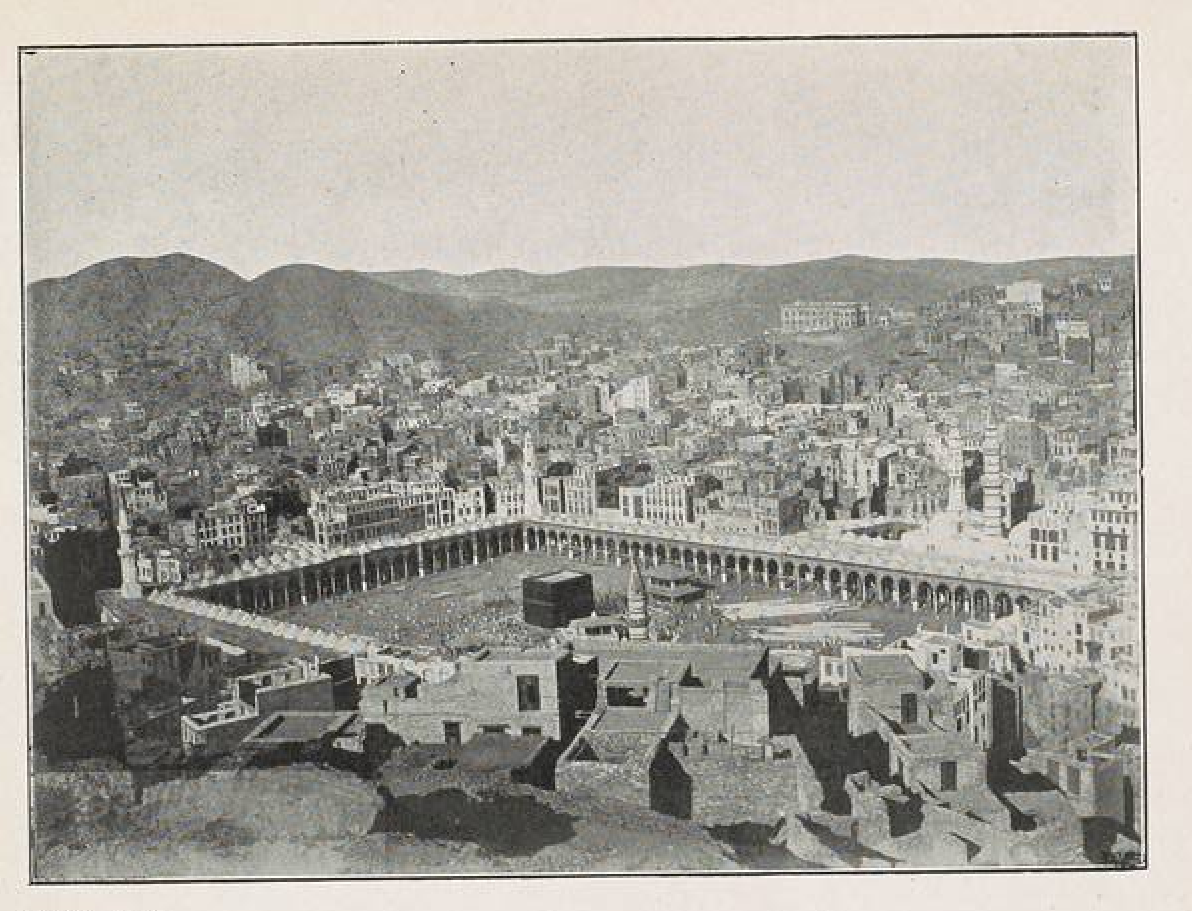
وهنا يجدر بنا أن نلاحظ على بلدية مكة أن الفتحات التى فى أعلى هذه العين من جهاتها المكشوفة فى مكة و فى أعلاها يستعملها الناس فى غسيل ملابسهم وخلافها ، مما لا ينطبق على القوانين الصحية ولا تسمح به الشريعة الغراء الاسلامية !! وهل يسمحون لى أن أقول لهم ان ذلك ولا شك العلة الوحيدة لكثير من الأمراض التى تتفشى فى مدينتهم : وعليه فيجب أن تكون العناية بأمر هذه الفتحات كبيرة ، وأن يضرب على أيدى من يعبث بها أو سدها فى وجوههم بالمرة، وهل فاتهم قول صاحب الشريعة السمحاء (النظافة من الايمان) .

و يا حبذا لو يأمر دولة مولانا الشريف بوضع طلمبات على فوهات مياه مجرى عين زبيدة فى مكة ومنى وعرفة ، وعلى بئر زمزم ، وتكون هذه الطلمبات كبيرة بحيث تكفى لحاجة الحجاج من جهة ، ومن أخرى تجعل ماءها بعيداً عن التلوث بانواع البكتريا التى تكثر منها الحميات فى الحجيج وتودى فى الغالب بحياة الكثيرين منهم .

وعندى نصيحة للذين من عادتهم العناية بأمر ماء الشرب : ذلك أنهم اذا أرادوا الحج أخذوا معهم ما يكفيهم من المياه المعدنية أثناء الطريق ، أما مدة وجودهم فى مكة والمدينة فحسبهم غلى الماء المخصص لشربهم ، ولو أضافوا على كل لتر منه عشر نقط من محلول مركب من واحد فى الالف من برمنجانات البوتاسا لكان أحفظ لصحتهم . وهناك طريقة أخرى لتنقية الماء تنقية تامة ، وهى أن يؤخذ أقراص مجهزة تسمى أقراص (فياروچورچ) ذات ثلاثة ألوان : الاول أزرق والثانى أحمر والثالث أبيض . فيذاب أولا قرص أزرق ثم آخر أحمر فى لتر من الماء المراد تنقيته ، وهنالك يتم اتحادهما بهذا الماء فتموت جميع الجراثيم التى فيه فى مسافة عشر دقائق ، ثم يوضع فيه القرص الأبيض فيتحد مع اليود الذى به و يعمل معه

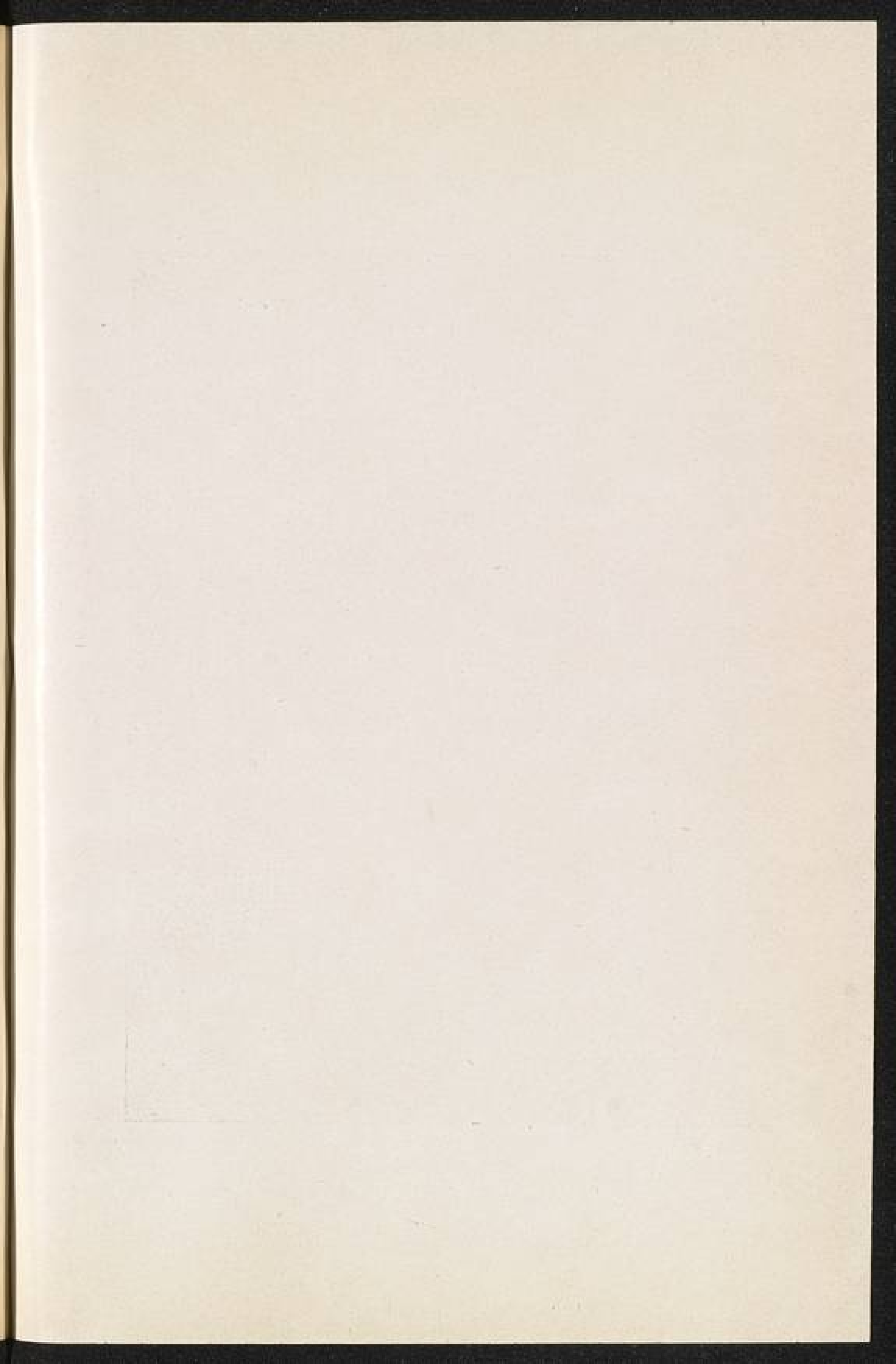
تركيباً عديم الطعم ، وبهذه الطريقة يكون الماء صالحا للشرب . واذا لم يكن لا هذا ولا ذاك فعليهم بفلتر سفرى يمتصون به الماء ولو فى الصحراء .

هذا وأرجو قبل قفل باب الكلام على مكة أن يسمح لى حضرة القارئ بكلمة أسوقها اليه : ذلك أنى زرت القدس الشريف فرأيت به لكل نوع من النصارى واليهود على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم من الأديرة والتكايا ومنازل الضيافة شيئاً كثيراً جداً ، تمهدت فيها سبل الراحة والحياة للناس أجمعين : فالفقير يجد فيها مكانا مجانا لمدة أسبوع على الأقل ، يرى نفسه فيه آكلا شاربا ناعماً لابساً كنا مخدوماً مشكوراً من غير ما يتكلف لذلك قرشاً واحداً ، والغنى يجد فيها راحته فى نظير أجر يدفعه يومياً لا يزيد عن الأجر الذى يدفعه فى لوكاندة بسيطة ، ومن الاغنياء من يتخذها مسكنا فقط ويتدارك أكله بنفسه . وهذه الأماكن التى قامت بها شركات البر والاحسان من الممالك المختلفة على اختلاف جنسياتها ومذاهبها كثيرة جداً ، وأكثرها لليهود ثم للروس ثم للأروام ثم للأرمن ثم للانكليز والفرنساويين والألمان . وقد أقام الألمان هناك أخيراً داراً للضيافة وللصحة على جبل الزيتون صرفوا عليها أكثر من سبعين ألف جنيه : وهى دار رحيبة فسيحة شامخة البنيان ، وطيدة الاركان ، وضع فى مدخل سلمها تمثال امبراطور وامبراطورة الألمان ، وافتتحت هذه الدار رسمياً بحضور ولى عهد المملكة الألمانية البرنس أيتل فى شهر ابريل سنة ١٩١٠م . وعدا هذه الدور والأديرة والملاجىء ترى هناك لكل جنس من النصارى واليهود المستشفيات العظيمة المشيدة والمدارس الفاخرة ، بحيث تكاد ترى بجوار كل بيت من بيوت المدينة مدرسة : هذه للألمان وتلك للانكليز وغيرها للروس وخلافها للفرنساويين وسواها لليهود ، بل تجد لكل فرقة من هذه الامم مدارس مخصوصة للبنات والبنين على أحسن طراز جديد ، والتعليم فيها على أحسن بر وجرام كافل لحياة المتعلمين . اللهم إن هذه هى الحياة الصحيحة وهذا هو الوجود بكامل معانيه ! وهل لاخواننا المسلمين فى جميع أقطار المسكونة أن يقوموا بعمل مثل هذا بمكة ينتفع به الفقراء من حجاج المسلمين ، ولهم من مساعدة الحكومة العثمانية ما يوصلهم الى هذه الغاية الجليلة التى تكون من ورائها راحة حجاج بيت الله الكريم ؟ ؟



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

رسم مكة والحرم بالفطوغرافيا من جهة ابي قبيس



وبهذه المناسبة نقول ان الجناب العالى حفظه الله بعد عودته من حجه المبرور ربط فى تكيتى مكة والمدينة كثيراً من المرتبات الشهرية والسنوية الى عدد عظيم من أشراف وعلماء وأهالى الحرمين الشريفين ، لا زالت تتوالى عليهم فيوضاته وإحساناته لأنهم أولى الناس بمثل هذه العناية السامية . ولعله حفظه الله يأمر فيكون له بهما أثر فخيم دائم يشكره عليه الله والناس على توالى الايام . ويا حبذا اذا كان المبلغ الذى جمع من السادة المصريين على ذمة اقامة تذكار لحج الجناب العالى الخديوى يقام به دار للضيافة بمكة لفقراء حجاج بيت الله الحرام عموماً والمصريين منهم خصوصاً ، وتقوم مصلحة الأوقاف بما يقصر عنه هذا الاكتتاب والله الموفق للصواب .

تاريخ مكة

يصعد تاريخ مكة الى سيدنا ابراهيم الخليل صلوات الله عليه . فى سنة ١٨٩٢ قبل المسيح أمره الله بالهجرة بولده اسماعيل وأمه هاجر (كما ورد فى التوراة) ، فذهب بهما الى هذا الوادى الذى لم يسكنه أحد لعدم توفر الماء فيه ، اللهم الا أولئك العماليق الذين كانوا يسكنون غالباً فى الوادى الواقع شماله و يقال له الحَجُون : وهم قوم نزحوا الى هذا المكان من جهة البحرين وكان مُلْكهم فيما يمتد الى شبه جزيرة سينا . والبابليون يسمونهم « ماليق » فأضاف عليهم العبرانيون لفظ عم (يعنى أمّة) فصارت « عم ماليق » فحرفها العرب الى عماليق ، والمصريون يسمونهم الهكسوس أى الرعاة .

فلما عثرت هاجر على بئر زمزم التى أصبحت حياة جديدة لهذا الوادى نزلوا اليها وسألوها الاقامة معها على أن يكون الأمر لها ولولدها ، فقبلت ذلك وكانت قد ابتنت لها

بيتاً تأوى اليه مع اسماعيل . وكان ابراهيم يتردد لزيارتهما من فلسطين فأمره الله تعالى بتطهير هذا البيت وجعله مصلى للناس : قال تعالى « و إذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا إلى ابراهيم و إسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » . ثم أمرهما الله برفع قواعد هذا البيت ، وهنالك هدمه ابراهيم ، و رفع مع إسماعيل على قواعده الكعبة المكرمة : قال تعالى « و إذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت و إسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » . ثم أمره الله بأن يؤذن فى الناس بالحج فقال « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » . ومن ثم ابتدأت شهرة ذلك البيت المعظم تذاع فى القبائل المجاورة ومنه أتى لفظ مكة أومكا وهى كلمة بابلية سمته بها العماليق ومعناها (البيت) .

و رجع ابراهيم الى قومه ، و بقى اسماعيل فى خدمة البيت حتى مات ، فتولى خدمته من بعده بنوه الى أن داخلهم الضعف فتغلب العماليق عليهم ، وصار أمر البيت اليهم . وما زالت السلطة فى يدهم حتى وفدت جرهم على مكة من طريق اليمن بعد قطع سد مأرب ، فى نحو منتصف القرن السادس قبل الميلاد وعليهم مضاض بن الحارث ، فزاحموهم وغلبوهم على أمرهم ، وصارت لهم الكلمة والسلطان فى مكة بل و فى الحجاز بأكمله . فلما كبر سلطانهم وعظمت شوكتهم عثوا فى الارض فسادا فوقع فيهم و باء نال منهم ، فضعف أمرهم وتغلب عليهم بنو إسماعيل واستردوا أمر البيت منهم وطردوهم من مكة ، فساروا الى أرض جهينة (شمالى ينبع) ، و فى ذلك يقول شيخهم عمرو بن الحارث .

وكنا ولاة البيت من عهد نابت[1] * نطوف بذاك البيت والامر ظاهر
كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالى والجدود العواثر

وما كادت تنحصر السلطة فى بنى إسماعيل حتى أتت خزاعة وتغلبت عليهم ، و وليت

---

(١) نابت من ولد اسماعيل .

أمر البيت من سدانة (خِدْمة البيت) وسقاية (سقيا الحجيج) زمناً طويلا بما كان لها من العصبية، رغماً عما كان فى بنى اسماعيل من الرقى الادبى والسموّ النفسانى: لانه كثيراً ما كان ينبغ فيهم رجال يبرهنون بحسن معرفتهم وكمال فضلهم على ذكاء أصلهم وكريم محتدهم، مثل كعب بن لؤى الذى اشتهر ببلاغته وفصاحته. وهو أوّل من جمع الناس فى يوم العَروبة[1] (يوم الجمعة) وكان يخطبهم فيه بما يرشدهم الى طريق الفضائل ويبعدهم عن ارتكاب الرذائل، وقد اشتهر أمره بين العرب وعظم قدره فيهم حتى كانوا يؤرّخون بعام موته الى عام الفيل، وهو زمن لا يقل عن أربعمائة سنة.

ومازال أمر البيت فى يد خُزاعة حتى رجع قصىّ بن كلاب من الشام، وكان ذهب اليها مع أمه صغيراً: وهو من أحفاد كعب والبطن الرابع والعشرون من اسماعيل. فجمع قبائل قريش بما كان فيه من حسن السياسة والذكاء وقوّة العارضة بعد أن كانت تفرقت وأخذت الشحناء تدب فيما بينهم، وسعى بأصالة رأيه حتى اشترى من خزاعة حجابة البيت (الاستئثار بمفاتيح الكعبة) ثم أجلاهم بما وجد له من العصبية عن مكة الى بطن مر (وادى فاطمة)، ومن ثم كبر شأنه ونبه أمره وعظم سلطانه واجتمعت له السقاية والحجابة والرفادة واللواء (راية الحرب)، ولم تجتمع فى رجل قبله. وقصى أوّل من أطعم الحاج وسقاه لانه ضيف الله وجاره، وبذلك سارت الركبان بسيرته وتحدّث الناس بنباهته. وكان له رأى سديد وفكر رشيد. وهو الذى بنى دار الندوة قرب البيت وجعل بابها اليه ليجتمع فيها مع قومه للبحث فى شؤونهم والاقرار على ما يتم من أمرهم فاصبح به ملك قريش عظيما وشأنهم جسيما، حتى كان لهم بعد ذلك خراج على القبائل والعشائر يؤدونه اليهم ويتقربون به منهم. وكان لقصى ولدان: عبد الدار وعبد مناف، وقد شَرُف الاخير على صغره وزاد فضله عن أخيه الاكبر. فأوصى أبوه لعبد الدار بما كان فى يده من السقاية والحجابة والرفادة واللواء والندوة، حتى يتكافأ مع عبد مناف فى شرفه الذى وصل اليه بعقله وفضله.

---

(١) كانت أيام الاسبوع عند العرب فى عصر الجاهلية الاولى كما يأتى: أول (الاحد) أهون، جبار، دبار، مؤنس، عروبه، شبار.

ولما مات قصي استولى عبد الدار على ما أوصى له به أبوه . وانتقل ذلك الى بنيه من بعده حتى ظهر بنو عبد مناف عليهم ونازعوهم ما فى أيديهم ، وكادت تدور رحى الحرب بينهم، وانتهى الأمر بتحكيم بعض القبائل فقسموا بينهم شرف هذه الامتيازات : فكان لبنى عبد مناف السقاية والرفادة ، ولبنى عبد الدار الحجابة واللواء اللذان ما زالا ينتقلان فيهم الى فتح مكة . وكانت مفاتيح الكعبة مع عثمان بن طلحة فأخذها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما دخل البيت أراد أن يحجزها عنه، فنزل قوله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » ، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه قائلا « ها كم خذوها خالدة تالدة » ، و بعد موت طلحة سلمها رسول الله الى أخيه شيبة فبقيت فى بنيه الى الان .

و وصلت قريش فى الجاهلية الى مجد كبير وشرف عظيم ،وانتهى شرفها الى عشرة أبطن منها كانوا يقتسمون امتيازاتهم القوميـة من دينية وسياسية واجتماعية وتشريعية . وكانت هـذه الامتيازات يتوارثها الأبناء عن الآباء وانتهى أمرها قبل الاسلام الى من سنذكرهم : كان العباس بن عبد المطلب (من هاشم) يسقى الحجيج واستمر ذلك فى الاسلام . وكان أبو سفيان ابن حرب (من بنى أمية) عنـده العقاب، وهى راية حربهم لا يخرجها الا اذا حمى وطيسها فيسلمها الى من يجمعون عليه الرأى لحملها . وكان للحرث بن عامر (من بنى نوفل) الرفادة، وهى ما كانوا يخرجونه من أموالهم لاعانة المنقطع من الحاج . وكان لعثمان بن طلحـة (من بنى عبد الدار) السدانة والحجابة واللواء والندوة . وكان ليزيد بن زمعة بن الاسود (من بنى أسد) المشورة فى الأمور الهامـة . وكان لأبى بكر الصديق (من تيم) الديات والمغرم ويقال لها الأشناق وكانوا يمضون على حكمه فيهـا . وكان خالد بن الوليد (من بنى مخزوم) على خيل قريش وكانت له القبة : وهى ما كانوا يجمعون فيه سلاحهم وذخيرة حربهم، وكان لعمر بن الخطاب (من بنى عـدى) السفارة فيما كان يقع بينهم و بين غـيرهم من العرب ، فيمضى عنهـم ما يراه من مصلحتهم . وكان لصفوان بن أمية (من جُمح) الأيسار وهى الأزلام [1] .

---

(١) واحدها زلم وهي أقداح ثلاثة كانت للعرب بالكعبة مكتوب على الاول أمرني ربي وعلى الثاني نهاني ربي والثالث ليس عليه شيء . وكانت العرب اذا أرادت أن تمضي في أي أمر من أمورهم ذهبوا الي الكعبة واستقسموا بالازلام فيقترع لهم صاحبها فيمضون على ما قسم لهم منها .

وكان للحرث بن قيس (من بنى سهم) الحكومة والاموال التى يقدمونها لأصنامهم .

أما بنو هاشم فقد علا أمرهم وعظم شأنهم خصوصاً فى مدة عبد المطلب بن هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم الذى كبر سلطانه بعد واقعة الفيل ، وذاعت شهرته وهابته القبائل وقصدته العرب من جميع جهات الجزيرة . ولما ظهرت نبوة سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وتجلى الاسلام بمظهره المنيع ، وتقدم بتقدمه السريع ، كمل لبنى عبد مناف فضلهم وتم بهذا الشرف سعودهم .

حكم الاشراف بمكة

من أكبر الحوادث التاريخية بمكة هجرته صلى الله عليه وسلم منها الى المدينة ، وفتحه لها بعد ثمان سنين من الهجرة . ومن ثم صارت مكة تابعة له ولخلفائه من بعده .

وكانت حكومة الاسلام فى مدته عليه الصلاة والسلام ديموقراطية «شورية» على حسب الشريعة الغراء ، وكذلك فى عهد خلفائه الراشدين ، حتى انقضت الخلافة الى مظاهر الملك فشابها شىء من الاستبداد .

وكانت حكومة الحرمين تتبع فى جميع أدوار حياتها مركز الخلافة الاسلامية . وأول من تولى إمارة مكة فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد رضى الله عنه ، ولاه عليها رسول الله بعد الفتح ، عند خروجه لواقعة حنين فى الثلث الاول من سنة ٨ للهجرة . وانتقلت الخلافة بعد الخلفاء الراشدين الى الأمويين فى سنة ٤٠ هـ وفى ابانها استولى عبد الله بن الزبير على مكة بضع سنين حتى استردها منه الحجاج بن يوسف الثقفى الى الأمويين سنة ٧٣ . وفى سنة ١٣٢ انتقلت الخلافة للعباسيين ومازالت فى أيديهم الى سنة ٣٥٨ . وتولى أمر مكة فى هذه المدة نحو مائة أمير من أشراف وغير أشراف . وفى هذه السنة انتقل حكمها الى الفاطميين وفيها دخلها جوهر القائد ، ثم دخلها مولاه المعز لدين الله العبيدى ومن ثم كانت البلاد الاسلامية من بغداد الى حلب الى البصرة يخطب فيها للخليفة العباسى ، ومن حلب الى الحرمين وسائر بلاد العرب

يخطب فيها للعبيديين : والسبب فى ذلك أن جعفر بن محمد بن الحسن الثائر بن موسى الثانى ابن عبدالله بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن على أمير المؤمنين كرّم الله وجهه تغلب على مكة فى السنة المذكورة ، وخاف من العباسيين فدعا للمعز لدين الله العبيدى صاحب مصر ، فكتب له المعز بولاية مكة وبه ابتدأت حكومة الأشراف عليها .

واستمرت فى بنيه من بعده الى سنة ٤٥٥ حيث وليها حفيد أخيه هاشم : وهو محمد بن جعفر بن عبدالله بن هاشم ، وتولى أمرها بنوه من بعده الى سنة ٥٩٧ . ويقال لهم الهواشم ، وكان حكمهم جورا وظلما حتى أن آخرهم الشريف مكثر بن عيسى ضرب ضريبة على حجاج بيت الله الحرام مقدارها سبعة دنانير ، كان يتقاضاها فى عيذاب أو فى جده على كل شخص يفد الى مكة عن طريق مصر . فاستغاث الناس بصلاح الدين الايوبى ، فاتفق مع مكثر على الغائها ، ورتب له بدلها فى كل سنة ثمانية آلاف أردب قمحا . ومن هذا الوقت ابتدأ الخطباء فى مكة يدعون لصلاح الدين عقب دعائهم للخليفة العباسى ولأمير مكة .

واستولى على مكة بعد مكثر الشريف قتادة سنة ٥٩٧ وهو الحلقة السابعة من أحفاد الشريف عبدالله أخى الشريف جعفر بن محمد بن الحسن الثائر وكان قتادة من أهل النخوة والشجاعة والهمة العالية ، واتسع ملكه من اليمن الى المدينة . الا أن أهل اليمن تغلبوا على مكة فى مدة ولده حسن لسوء سلوكه ، ومازالت فى أيديهم الى سنة ٦٣٠ ، وبعدها تغلب الشريف راجح بن قتادة عليها وصارت الامارة بعده فيها كالكرة يتلقفها القوى من بنيه أو بنى اخوته . وكانت حكومتها تتبع ملوك مصر تارة وملوك اليمن أخرى لاشتغال ملوك مصر عنها بالحروب الصليبية ، خصوصاً بعد موت الملك الكامل الذى كان يدعى له فى خطبة الحرمين هكذا : « صاحب مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها ، والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ، ورب العلامتين ، وخادم الحرمين الشريفين ، المحترمين : الملك الكامل خليل أمير المؤمنين » . وأول من استقل من ملوك اليمن لذلك العهد نورالدين بن عمر بن على بن رسول ، وكان عاملا عليها للملك الكامل صاحب مصر ، ولقب

نفسه الملك المنصور . ومازالت حكومة مكة فى هذا الارتباك والاختباط حتى آل أمرها الى الشريف أبى نمى بن حسن بن على بن قتادة سنة ٦٦٧، نخطب لبيبرس ملك مصر فاقره عليها وحج من سنته . ومازال أبونمى حتى وقعت له مع العسكر المصرى حروب ألجأته الى التنازل عن الامارة سنة ٧٠١ الى ولديه حميضة و رميثة، فغلبهما عليها أخوهما أبو الغيث بن أبى نمى . و فى مدته حج السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٢، واستمر بها حتى غلبه على الامارة أخوه حميضة سنة ٧١٤ وقتله ودعى اخوته الى وليمة عنده وقدمه اليهم مصلوقا ، وعلى رأس كل واحد منهم عبد شاهر اسيفه . ومازال حتى تغلب عليه أخوه رميثة سنة ٧١٨ فهرب ومات فى هربه . و فى سنة ٧١٩ حضر الى مكة جيش مصرى وقبض على رميثة وأتى به الى ملك مصر الملك الناصر بعد أن ولى مكانه الشريف عطيفة بن أبى نمى . و فى سنة ٧٢٢ أطلق الملك الناصر رميثة وأشركه مع أخيه فى ولاية مكة ، وذهب عطيفة الى مصر ومات بها سنة ٧٤٣ ، وانفرد رميثة بالامارة حتى جعلها الملك الكامل شعبان ملك مصر لولده الشريف عجلان بن رميثة سنة ٧٤٦ ، وعزله عنها السلطان حسن بن محمد الناصر سنة ٧٦٠ ، الا أنه رجع اليها بأمر من الملك المنصور محمد ومازال بها حتى مات سنة ٧٦٦ . وتولى بعده الشريف أحمد بن عجلان ، و فى مدته صدر أمر الملك المنصور بلغو المكس الذى كان يؤخذ على الاشياء التى كانت تدخل الى مكة ، وعوض أميرها عنه مائة وستين ألف درهم وألف أردب قمحا ، وأمر فنقش ذلك على باب الصفا . واستمرت الامارة فى بنيه حتى صدر أمر سلطان مصر بأن يكون الشريف حسن بن عجلان نائباً عنه فى ولاية الحجاز وابنه الشريف بركات أميراً على مكة : وكان بركات عالما فاضلا محدثا ، وقد استدعاه الملك بارسباى الى مصر فوفد اليها معظماً مكرما وأخذ عنه كثير من علمائها ، ثم رجع الى مكة ومات بها سنة ٨٥٩ وتولى مكانه الشريف محمد بن بركات : وكان رضى الله عنه على أحسن ما يكون من العدالة والانصاف وحسن السيرة والرفق بالناس ، وقد سافر الى مصر سنة ٨٧٧ مدة السلطان قايتباى فاستقبل بما يليق به من صنوف الاعظام والاجلال ، ثم رجع اليها معززاً مكرما . و فى مدته حج السلطان قايتباى سنة ٨٨٤ وشيد فيها لصق الحرم من الجهة الشرقية مدرسته التى

تغلب عليها ذوو غالب ولا تزال فى أيديهم الى اليوم .

ومازال محمد بن بركات على أمارة مكة و ولاية الحجاز حتى مات سنة ٩٠٣ وتولى بعده ابنه الشريف بركات، ومازالت الامارة تنتقل من يده الى يد اخوته حتى استقل بها فى سنة ٩١٠ . وفى سنة ٩١٨ أرسل اليه السلطان الغورى يدعوه الى مصر ، فاعتذر وأرسل بالنيابة عنه ابنه الشريف أبانمى وعمره ثمان سنين، فاكرمه السلطان كل الاكرام ورده الى أبيه معززا وأشركه معه فى أمر مكة والأقطار الحجازية .

ولما استولى السلطان سليم على مصر سنة ٩٢٢ أقرهما على مكة ، وسار للقياه الشريف أبونمى بمصر ، فاكرم مثواه ، وأرسل معه أمرا بقتل حسين أغا الكردى الذى كان على جدة من قبل الغورى . فلما وصل الى جدة قبض على الأغا وأغرقه وولّى غيره مكانه ، ومن هذا الوقت صارت بلاد الحجاز واليمن تابعة للدولة العلية .

وكان الشريف أبونمى من خيرة الأشراف عقلا وحلماً وعلما وفضلا وادارة ودراية ، واليه ينتهى نسب أشراف بنى حسن (الذين يحكمون الآن) و بنى زيد ، و بنى بركات (الذين كان لهم الحكم قبل محمد بن عون) ، و بنى ثقبة (وهم متفرقون فى بلاد العرب). وفى سنة ٩٩٢ مات أبونمى وتولى بعده ابنه الشريف حسن: وكان عالما فاضلا كاملا أديباً سار فى ادارة بلاده على نهج أبيه فى العدالة والكرم ومكارم الاخلاق ومحامد الصفات، وهو رأس سلسلة الأشراف الحسنيين الذين منهم محمد بن عون جد العائلة الحاكمة الآن .

وهو الذى بنى دار السعادة بمكة فى سنة ٩٦٧ فكانت محل إمارته و إمارة خلفائه زمنا طويلا ، ومما جاء فى وصفها وتاريخ بنائها قول بعضهم :

انّ بيتا بناه خير مليك * أسس الملك كفّه وأشاده

فاق فى وصفه وحسن بناه * كل قصر لاهل العلا والسياده

جاء تاريخ وصفه فى نصيف * أنابيت الملوك دار السعاده

ومازال الشريف حسن قائما بأمر ولاية الحجاز حتى مات سنة ١٠١٠ وأخذت

الشرافة تنتقل فى بنيه و بنى اخوته حتى تولاها الشريف زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن ابن أبى نمى سنة ١٠٤٣ : وكان ذا همة عالية وشجاعة تامة وادارة حسنة ، ومازال قائما بولايتها خير قيام حتى مات سنة ١٠٧٧ . وتولى بعده ولده الشريف سعد ولكنه خرج من مكة مقهوراً ومكث بعيداً عنها احدى وعشرين سنة ، تولى أمرها فيها الشريف بركات ابن محمد بن ابراهيم بن أبى نمى ، ومات سنة ١٠٩٤ ، وأعقبه عليها ولده الشريف سعيد بن بركات ، فغلبه عليها الشريف سعيد بن سعد بن زيد . ثم عزل عنها ، وأعقبه الشريف عبد الله ابن هاشم ، ثم أحمد بن غالب الذى مات سنة ١١١٣ ، فرجع الى الامارة الشريف سعد بن زيد ، وأخذ يتناوب الولاية هو و ولده الشريف سعيد جملة مرات . ومات الشريف سعد بعيداً عن مكة بالعابدية سنة ١١١٦ ، و بقيت الولاية فى يد ابنه الشريف سعيد حتى مات سنة ١١٢٩ : وكان جليل القدر عظيم الفضل بعيد الآمال شجاعا مهيبا . وأخذت الامارة بعده يتداولها بنوه و بنو اخوته حتى غلبهم عليها الشريف يحيي بن بركات ، ثم ابنه الشريف بركات بن يحيي فيما بين سنتى ١١٣٤ و ١١٣٦ . ثم رجعت الى بنى سعيد ، ومازالت فيهم حتى تولاها حفيده الشريف سرور بن مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد فى سنة ١١٨٦ . وهو مشهور بعلو الهمة وجلائل الصفات والشجاعة الفائقة : حارب عرب الشروق وقبائل حَرْب وانتصر عليهم جملة مرات وانقادت اليه جميع بلاد الحجاز ، وامتد سلطانه على جهات كثيرة من بلاد العرب . ومازال فى الامارة حتى مات سنة ١٢٠٢ وتولى بعده الشريف عبد المعين بن مساعد ، الا أنه تنازل عنها بعد أيام قليلة الى أخيه الشريف غالب . وفى مدته استفحل أمر الوهابية ، و وقعت بينه و بينهم حروب كثيرة كادت الغلبة تكون فيها لهم ، لولا أن الدولة العلية كلفت محمد على باشا والى مصر بكبح جماحهم ، فارسل اليهم جيوشا مصرية على رأسها ولده طوسون ، ثم ولده ابراهيم الذى فرق جموعهم واستولى على بلادهم بعد أن أخذ رئيسهم عبد الله بن سعود أسيرا وأرسله الى والده بمصر . وفى سنة ١٢٢٨ جاء محمد على الى بلاد الحجاز فاستقبله الشريف غالب من جدة ، وسار فى خدمته الى مكة . وكان كل منهما على خوف من صاحبه ، وانتهى الأمر بأن قبض محمد على على الشريف غالب و بنيه

وأرسلهم الى مصر عن طريق القصير ، فوصل القاهرة فى ١٧ محرم سنة ١٢٢٩ وقوبل فيها بالاحترام اللائق ، وبقى بها الى ١٩ شعبان حيث سافر مع أولاده حسب الارادة السلطانية الى سلانيك وأقام بها الى أن توفاه الله سنة ١٢٣١ ، وفيها عادت أولاده الى مكة بمقتضى أمر سلطانى .

وكانت مدة أمارة الشريف غالب على مكة ٢٧ سنة قضاها كلها فى حروب الوهابية . وكان رحمه الله عالى الهمة ، كبير الشهامة ، كثير الدهاء . ولما نفى الى مصر ولّى محمد على مكانه الشريف يحيى بن سرور فى أواخر ذى القعدة سنة ١٢٢٨ ، ومن هذا الحين صارت بلاد الحجاز تابعة لمصر .

وكان على أعمال العرب الشريف شنبر من جهة محمد على ، فنمت بينهما الضغائن ، فقتل يحيى شنبرا أمام باب الصفا وهرب الى بدر . وتولى على مكة الشريف عبد المطلب ابن غالب ، بامر من أحمد باشا يكن ، ولكن محمد على باشا أصدر أمره بتعيين الشريف محمد بن عون ، وكان اذ ذاك نزيلا عليه بمصر ، وكان سبق له أن تولى إمارة تربة وعسير من قِبَلِهِ . فسار الشريف عبد المطلب الى الطائف وجمع جموعا من العرب وحارب بها أحمد باشا ، ولكنه انهزم وطلب الامان من الشريف محمد بن عون ، فأمنه هو والشريف يحيى وأرسلهما الى مصر بناء عن أمر محمد على ومعهما عبد الله بن فهيد وآخرون . ولما وصلوا اليها أكرمهم محمد على كل الاكرام ، وبعد سنة أعادهم الى مكة الا الشريف يحيى فانه استبقاه ومات بمصر سنة ١٢٥٤ . وبعد ذلك وقع نفور بين أحمد باشا يكن والشريف محمد فاستحضرهما محمد على ثم أعاد أحمد باشا الى مكة وحجز الشريف محمد بن عون بمصر ، وبقى فيها حتى خرجت ولاية الحجاز من قبضة محمد على سنة ١٢٥٦ زمن السلطان عبد المجيد ، وصدرت الاوامر السلطانية بتولية ابن عون أمارة مكة . وكان رحمه الله عاقلا ذا دهاء وهيبة وذكاء ، ميمون الطالع عالما يحب العلم والعلماء ، ومكث زمنا طويلا وهو يدير أمر الحجاز بحسن درايته وادارته . وفى سنة ١٢٦٣ سار الى نجد لاخماد فتنة فيصل بن تركى أمير الرياض ، وتم أمرهما بالصلح بعد أن قرر على فيصل خراجا للدولة قدره عشرة آلاف ريال

كل سنة، واستمر فى ولاية مكة الى أن توفى فى ١٣ شعبان سنة ١٢٧٤ . وتعين بعده ولده الشريف عبد الله باشا كامل : وهو أول شريف منح رتبة الوزارة ولقب باشا وكان تربى فى الاستانة وتعلم فيها العلوم الشرعية والتفسير والحديث وفنون الادب . فوصل جدة بعد أن انجلى عنها مراكب الانكليز سنة ١٢٧٥ ، وهنالك قابله المندوبون البريطانيون وطلبوا منه أن يساعدهم فى وصولهم الى مكة ، فاعتذر عن احتمال هذه المسئولية ، ثم قال لهم : وماذا تريدون من بلد لا زرع فيه ولا نبات ولا ماء وربما نالكم منه مرض يذهب بحياتكم لعدم اعتيادكم على مثل هوائه ، فى حين أنكم فى غنى عنه ؟ فاقتنعوا بجوابه وعادوا الى بلادهم وسار هو الى مكة .
وفى سنة ١٢٧٧ ذهب الى المدينة لاستقبال سعيد باشا والى مصر ، ورجع معه الى القاهرة ، ثم عاد الى مكة بعد أن صادف من الاجلال وكمال الاعظام ما يليق بمقامه ، واستمر فى الامارة الى أن توفى فى ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٤ . وتعين أخوه الشريف حسن باشا مكانه ، فقدم اليها من الاستانة ، وكان على جانب عظيم من التقوى والصلاح والزهد والورع ووداعة الأخلاق ، واستمر حكمه الى سنة ١٢٩٧ ، حيث قتل أثناء دخوله جدة وكان ذهب اليها فى موكب حافل : فتقدم اليه رجل افغانى كأنه يريد تقبيل يده وطعنه فى خاصرته ، فتوفى بعد يومين مأسوفا عليه من عموم أهل الحجاز ، ونقل الى مكة رضى الله عنه وأهلها يلقبونه بالشهيد . وتولى بعده الشريف عبد المطلب للمرة الثالثة ولكنه عزل عنها سنة ١٢٩٩ لكثرة الشقاق الذى كان بينه وبين الاشراف ، وتعين بدله الشريف عون الرفيق بن محمد بن عون ، فاخذ فى تمكين قدمه فى مركز الشرافة وعمم نفوذه على العرب والمأمورين من الأتراك حتى كانت الولاة كأنهم من المأمورين عنده ، الا فى زمن ولاية عثمان نورى باشا الأولى فانه ضرب فيها على يديه ، ولكنه نقل من ولاية الحجاز بسعى عون الرفيق ومؤازريه فى الاستانة . ومن وقتها خلا له الجو : فكان يعطى ويحرم ، ويسعد ويشقى ، ويمنع وينعم . وقد كان ينزع الى مذهب الوهابية أو ما يقرب منه : فهدم كثيراً من قباب المزارات وخصوصاً فى المعلاة ومن ذلك قبة سيدنا عبد الله بن الزبير ، بل وصل به الحال الى أن أمر بهدم قبتى السيدة آمنة والسيدة خديجة الا أنه ما عتم أن استرجع أمره .

وكذلك أمر فازيلت تلك الرحى التى كانت فى مولد السيدة فاطمة (دار خديجة) رضى الله عنهما، وكانوا يزعمون أنها هى التى كانت تطحن عليها فى حياتها، وأمر أيضاً بتوسيع باب غار حراء فى جبل ثور وهو الذى خيم على بابه العنكبوت بعدما آوى اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع رفيقه أبى بكر عند هجرتهما من مكة الى المدينة: وكان بابه لا يسع الا نفرا واحدا يدخل منه زاحفا على بطنه : وكان الناس يزعمون أن لا يدخله الا السعيد وأما الشقى فلا. فاراد بتوسيع هذا الباب ازالة هذا الوهم الفاسد. الا أنه لم يكن له على كل حال أن يغير شكل أثر طبيعى مثل هذا من أجل الآثار ومن الاشياء التى كان الانسان يقدر فيها تلك المعجزة التى خدمت الطبيعة فيها أشرف مخلوق حتى حيل بينه و بين أعدائه. وقد كان يميل سامحه الله الى الرفه بكل أنواعه فكان عنده على الدوام المطربون بالالات والفراجية (الطبالون) والضاربون بالنوبة وجملة ما يقال فى معاملته للناس انه كان نهاباً وهاباً. واستقدم أتوموبيلاً من أوروبا كان يركبه فى طريق الطائف ولكنه مات بموته. وأنشأ بستاناً جميلاً شمال جرول (بمكة) وهو المكان الذى يخيم عنده المحمل المصرى، وجلب اليه أشجاراً كثيرة من مصر والهند والشام وغيرها وساق اليه الماء من عين زبيدة، ويقال انه كان فى مدته جنة من الجنات لم يسبق له نظير فى مكة. أما الآن وقد انصرفت عنه المياه فقد جفت أشجاره وذبلت أزهاره وأصبح كقطعة من غابة فى الصحراء تنعق فيها الغربان، وتزعق فيها العقبان، سبحان مغير الأحوال بيده الملك وهو على كل شئ قدير.

ومات الشريف عون بالطائف يوم الاثنين ١٦ جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ واختلف الناس فى أسباب موته ؟ ؟ وكانت الشرافة بعده لأخيه الشريف عبد الاله باشا الذى كان يقيم فى الاستانة، ولكن صدرت الارادة السلطانية بسعى راتب باشا والى الحجاز بتوجيه الامارة الى الشريف على باشا ابن عبد الله بن محمد بن عون الذى كان قائماً مقاماً للشريف فى مكة، ومازال على غاية الوئام والاتحاد مع راتب باشا حتى حصلت حركة الاستانة وقام الدستور مقام الاستبداد وعزل راتب باشا لجوره وظلمه وخرج مدحوراً الى الاستانة ومنها منفيا الى رودس بعد أن صودر فى جميع أمواله. أما الشريف على باشا فانه ظل بالطائف

متظاهراً بمشايعة الحكومة الدستورية الجديدة، وفى يوم الخميس ١٨ شوال سنة ١٣٢٧ . حدثت فتنة بين بعض أهالى مكة والعساكر الشاهانية قتل فيها من الطرفين نحو عشرين رجلا ، وقيل انها كانت بايعاز الشريف على باشا . وفى اليوم الثانى شاع فى مكة عزل الشريف على وتعيين الشريف عبد الاله باشا الذى كان مقيما بالاستانة، ثم جاء الخبر بوفاته وتولية الشريف حسين باشا ابن على بن محمد بن عون وكان مقيما فى الاستانة منذ سبع وعشرين سنة . فلما حضر الى مكة قام الشريف على منها بعائلته قاصداً الاستانة ولما وصل الى السويس نزل الى مصر ولا زال بها الى الآن .
أما الشريف حسين فانه قام بالأمر حق قيام بهمة لا تعرف الملل، وضرب على أيدى قبائل العرب الذين كانوا يتحفزون للخروج على الدولة : فكان حفظه الله يرسل بعسكره مع نجله هذا الى جهة فى حين ما يرسل بنجل آخر مع فرقة أخرى الى غيرها وهكذا حتى هدأت البلاد وضرب الامن بجرانه فى جميع أطراف الحجاز . ومما يذكر له بالثناء الجميل انه أمر بجعل أجرة الجمل من مكة الى المدينة الى ينبع أربعة وعشرين ريالا مجيديا بعد أن كانت أكثر من سبعين ريالا فى مدة سلفه . وبالجملة فحكمه عدل وقوله فصل وسيره فضل نفع الله به الدولة والملة وجعله ممثلا لشرف بيت النبوة بجاه جده الامين . ولقد تشرفت بمعرفته مدة وجودنا بمعية الجناب العالى بمكة فوجدته أنيساً وديعاً كريم الأخلاق، حسن السجايا، قد جمل الوقار رؤياه، وكمل الادب جلال محياه . وفى أوائل عام ١٣٢٩ زحف الشريف حسين بخيله ورجله الى عسير لمساعدة الدولة العلية فى محاربة الادريسى وعسى أن يجعل الله على يديه اصلاح ذات البين وحقن دماء المسلمين فيكون له بذلك أكبر فضل فى العالمين .



﴿ جدول بأسماء من تولى مكة من زمن الفتح الى اليوم ﴾

﴿ مأخوذ من السالنامة الحجازية المطبوعة بمكة سنة ١٣٠٦ بتصرف قليل ﴾

تاريخ التولي سنة هـ	
٠٨	عتاب بن اسيد •
١٣	المحرز بن حارثة •
	قنفذ بن عمير بن جدعان •
	نافع بن الحارث الخزاعي •
	خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة •
	أحمد بن خالد •
	طارق بن المرتفع •
	الحارث بن نوفل القرشي •
٢٤	على بن عدى بن ربيعة •
	الحارث بن نوفل القرشي •
	عبد الله بن خالد بن أسيد •
	خالد بن العاص بن هشام •
	عبد الله بن عامر الحضرمي •
	نافع بن الحارث الخزاعي •
٣٦	أبو قتادة الأنصاري •
	القثم بن العباس •
٣٩	عتبة بن أبي سفيان •
	مروان بن الحكم •
	سعيد بن العاص •
	عمرو بن سعيد المعروف بالأشدق •
	خالد بن العاص المخزومي •
	عبد الله بن خالد بن أسيد •
٦١	عمرو بن سعيد الأشدق •
	الوليد بن عتبة بن أبي سفيان •
	عثمان بن محمد بن أبي سفيان •
	الحارث بن خالد المخزومي •
	عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب •
٦٤	يحيي بن حكيم •
٦٤	عبد الله بن الزبير بن العوام «تولى الخلافة في مكة من سنة ٦٤ الى سنة ٧٣»
٧٣	الحجاج بن يوسف الثقفي •
٧٥	مسلمة بن عبد الملك بن مروان •
	الحارث بن خالد المخزومي •
	خالد بن عبد الله القسري •
	نافع بن علقمة الكناني •
	يحيي بن الحكم بن أبي العاص •
٨٧	عمر بن عبد العزيز بن مروان •
	خالد بن عبد الله القسري •
٩٧	طلحة بن داود •
	عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد •
	محمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن •
	عروة بن عياض •
	عبد الله بن قيس بن مخرمة •
	عثمان بن عبيد الله بن عبد الله بن سراقة •
١٠١	عبد العزيز بن عبد الله بن خالد •

تاريخ التولية سنة هـ	
١٠١	عبدالرحمن بن الضحاك بن قيس .
	عبدالواحد بن عبدالله .
	ابراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى
	محمدبن هشام بن اسماعيل المخزومى .
	نافع بن عبدالله الكنانى .
١٢٥	يوسف بن محمد الثقفى .
١٢٦	عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز .
	عبدالواحدبن سليمان بن عبدالملك .
	أبوحمزة الخارجى .
	عبدالملك بن محمدبن عطية السعدى .
	مروان بن محمد بن الوليد .
	الوليدبن عروة السعدى .
	محمدبن عبدالملك بن مروان .
١٣٢	داود بن على بن عبداللهبن عباس .
	عمر بن عبدالحميد بن عبدالرحمن .
١٣٦	العباس بن عبدالله بن معبد .
	زيادبن عبدالله الحارثى .
	الهيثم بن معاوية العتكى الخراسانى .
١٤٣	السرى بن عبدالله بن الحرث .
١٤٥	محمدالحسن بن معاوية .
	السرى بن عبدالله .
١٤٦	عبدالصمدبن على بن عبدالله .
١٤٧	محمدبن ابراهيم الامام .
١٥٨	ابراهيم بن يحيى بن محمدبن على .
	جعفر بن سليمان بن على بن عبدالله .
١٦٦	عبيدالله بن القثم بن العباس .

تاريخ التولية سنة هـ	
	الحسين بن على .
١٦٩	أحمد بن اسماعيل .
	حمادالبربرى .
	سليمان بن جعفر .
١٨٧	الفضل بن العباس بن محمدبن على .
	محمدبن عبدالله بن سعيدبن المغيرة .
	عباس بن موسى .
	عباس بن محمدالامام .
	عبدالله بن القثم .
	على بن موسى .
	موسى بن عيسى بن محمدبن على .
١٩١	داود بن عيسى بن موسى بن على .
	الحسين بن الحسن بن على الاصغر .
	على بن محمدبن جعفر الصادق .
	عيسى بن يزيد الجلودى .
٢٠٢	هارون بن المسيب .
	حمدون بن على .
	يزيدبن حنظلة .
٢٠٣	ابراهيم بن موسى الكاظم .
	عبيداللهبن الحسن بن عبدالله .
	صالح بن العباس بن محمد .
	سليمان بن عبداللهبن سليمان بن على .
	محمدبن سليمان المذكور .
	الحسن بن سهل .
	عبيدالله بن عبداللهبن الحسن .
٢١٨	صالح بن العباس بن محمد .

تاريخ التولية سنه هـ		تاريخ التولية سنه هـ	
	اشاس الچركسى •	٣٠١	ابن محارب •
	محمد بن داود بن عيسى •	٣١٧	حافظ أبو الفضل •
٢٣٢	على بن عيسى بن جعفر •		أبو طاهر القرمطى •
٢٣٩	عبد الله بن محمد بن داود •		القاضى الشريف أبو جعفر محمد •
	محمد بن سليمان بن عبد الله •		عيسى بن أبى جعفر •
	محمد بن المنتصر •		أبو الفتوح الحسين بن جعفر •
	ايتاخ التركى •	٣٨٥	حسن بن جعفر •
٢٤٧	عبد الصمد بن موسى •		أبو الطيب بن داود •
	جعفر بن الفضل •	٤٣٠	الشريف محمد بن حسن بن جعفر •
	اسماعيل بن يوسف •	٤٥٥	« محمد بن جعفر بن محمد •
٢٥٢	عباس بن المستعين •	٤٨٤	« القاسم بن محمد •
	محمد بن طاهر بن الحسين •	٥١٨	« فليته بن القاسم •
٢٥٢	عيسى بن أحمد بن المنصور •	٥٢٧	« هاشم بن فليته •
	محمد بن أحمد بن عيسى •	٥٤٩	« القاسم الملقب بعمدة الدين •
	على بن الحسن الهاشمى •	٥٥٧	« عيسى الملقب بقطب الدين •
٢٥٦	الموفق طلحة بن المتوكل •	٥٧٠	« مالك بن فليتة •
	ابراهيم بن محمد بن اسماعيل العباسى •		« القاسم •
	ابو المغيرة محمد بن احمد بن عيسى •		« قطب الدين عيسى •
	أبو عيسى بن محمد •	٥٧٠	« داود بن عيسى •
	الفضل بن العباس بن الحسين •	٥٧١	« مكثر بن عيسى •
	هارون بن محمد بن اسحق •		« القاسم بن مهنا •
	أحمد بن طولون •	٥٨٧	« مكثر بن عيسى •
	محمد بن أبى الساج •		« القاسم بن مهنا •
٢٧٩	عج بن محلب •		« بكر بن عيسى •
	ابن المهلب •		« محمد بن مكثر •
	مؤنس الخادم •	٥٩٧	« قتادة بن ادريس •

تاريخ التولية سنه هـ		تاريخ التولية سنه هـ	
	عبدالله بن محمد الثائر بن موسى •	٨٢١	الشريف الحسن بن عجلان •
	المثنى بن الحسن •	٨٢١	« بركات بن حسن •
٦١٧	الشريف الحسن بن قتادة •	٨٢٧	« على بن عنان بن مغامس •
٦١٩	نور الدين على بن عمر بن رسول •	٨٢٨	« الحسن بن عجلان •
٦٢٦	صارم الدين ياقوت بن مسعود •	٨٤٥	« على بن الحسن بن عجلان
٦٣٠	طغتكين التركى • «تداولا الامارة جملة	٨٤٧	« أبو القاسم بن الحسن •
٦٥٢	راجح بن قتادة مرات مكان بعضهما»	٨٥١	« بركات بن الحسن بن عجلان •
	الشريف الحسن بن على بن قتادة •	٨٥٩	« محمد بن بركات •
٦٥٢	« جماز بن حسن بن قتادة •		« بركات بن محمد وأخوه •
٦٥٢	« راجح بن قتادة •		« هزاع بن محمد بن بركات •
٦٥٢	« غانم بن راجح بن قتادة •		« أحمد بن محمد بن بركات •
	« أبو نمى على بن قتادة •		« بركات بن محمد •
٦٨٨	« جماز بن شيحة الحسينى •		« حميضة بن محمد •
	« أبو نمى على بن قتادة •	٩١٠	« بركات بن محمد وأخوه •
٧٠١	حميضة ورميثة • «تداولوا الولاية		« بركات ومعه ابنه محمد •
	عطيفة وأبو الغيث • جملة مرات بالاتحاد والانفراد»		« بركات بن محمد وولداه •
		٩٣١	« أبو نمى بن محمد بن بركات •
٧٤٠	ثقبة وعجلان ابنا رميثة «تداولا الامارة جملة مرات»	١٠٠٣	« حسن بن أبى نمى •
٧٦٤	الشريف سند بن رميثة ومحمد بن عطيفة •	١٠١٠	« أبو طالب بن حسن •
٧٦٥	« أحمد بن عجلان •	١٠١٢	« إدريس بن حسن •
	« عنان بن مغامس •	١٠٣٤	« محسن بن أخى إدريس •
	« عنان وأحمد وعقيل •	١٠٣٧	« أحمد بن عبد المطلب •
٧٨٩	« على بن عجلان	١٠٣٩	« مسعود بن ادريس •
٧٩٧	« محمد بن عجلان	١٠٤٠	« عبدالله بن حسن •
٨٠٩	« الحسن بن عجلان	١٠٤١	« محمد بن عبدالله مع زيد •
٨١٨	« رميثة بن محمد بن عجلان	١٠٤١	« نامى بن عبد المطلب •

تاريخ التولية سنة هـ		تاريخ التولية سنة هـ	
١٠٤٢	الشريف زيد بن محسن .	١١٤٦	الشريف مسعود بن سعيد .
١٠٧٧	« سعد بن زيد .	١١٦٥	« مساعد بن سعيد .
١٠٨٣	« بركات بن محمد .	١١٧٢	« جعفر بن سعيد .
١٠٩٤	« سعيد بن بركات .	١١٧٣	« مساعد بن سعيد .
١٠٩٥	« أحمد بن زيد .	١١٨٤	« عبد الله بن سعيد .
١٠٩٩	« سعيد بن سعد بن زيد .	١١٨٤	« أحمد بن سعيد .
١٠٩٩	« أحمد بن غالب .	١١٨٤	« عبد الله بن حسن .
١١٠١	« محسن بن حسين .	١١٨٤	« أحمد بن سعيد .
١١٠٣	« سعيد بن سعد .	١١٨٦	« سرور بن مساعد .
١١١٣	« عبد المحسن بن أحمد .	١٢٠٢	« عبد المعين بن مساعد .
١١١٣	« عبد الكريم بن محمد .	١٢٠٢	« غالب بن مساعد .
١١١٣	« سعد بن زيد .	١٢٢٨	« يحيى بن سرور .
١١١٣	« عبد الكريم بن محمد .	١٢٤٢	« محمد بن عبد المعين .
١١١٦	« سعيد بن سعد .	١٢٦٧	« عبد المطلب بن غالب .
١١١٧	« عبد الكريم بن محمد .	١٢٧٢	« محمد بن عبد المعين .
١١٢٣	« سعيد بن سعد .	١٢٧٤	« عبد الله باشا ابن محمد بن عون
١١٢٩	« عبد الله بن سعيد .	١٢٩٤	« حسين باشا .
١١٣٠	« يحيى بن بركات .	١٢٩٧	« عبد المطلب بن غالب .
١١٣٢	« مبارك بن أحمد .	١٢٩٩	« عون الرفيق بن محمد بن عون
١١٣٦	« عبد الله بن سعيد .	١٣٢٣	« على باشا ابن عبد الله .
١١٤٣	« محمد بن عبد الله .	١٣٢٧	« عبد الاله باشا ابن محمد بن عون
١١٤٥	« مسعود بن سعيد .	١٣٢٧	« حسين باشا ابن على « « « «
١١٤٥	« محمد بن عبد الله .		

﴿ انتهى الجدول وبعض ما فيه يخالف لما جاء بكتاب مرآة الحرمين وغيره من التواريخ ﴾

الوهابيه ومحمد على في الحجاز

في سنة ١١٤٢ ظهر رجل من عرب بادية نجد اسمه محمد بن عبد الوهاب ، تلقى العلم في مكة على بعض شيوخها وأخذ يذيع عقيدة جديدة في الدين الاسلامى ، تجاوز فيها الحد الذى ذهب اليه الامام أحمد بن حنبل ، بل تغالى فى بعض الامور غلواً كبيراً ، وأخذ يمر على أحياء العرب حياً بعد حىّ يذيع فيهم عقيدته حتى اتبعه كثير من الناس ، ومازال يزداد مريدوه ويكثر تابعوه حتى قوى أمره وخافته البادية . ولما قربت أشهر الحج أرسل الى شريف مكة الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد عشرين رجلا من قومه ليعرضوا عليه مذهبه ، وليستأذنوا له فى حج بيت الله الكريم . فأمر بالقبض عليهم وسجنهم وحكم بكفرهم ففر منهم نفر الى الدرعية مقر الوهابى وأخبروه بما حصل ، فاستمر مع قومه ممنوعين عن الحج الى سنة ١٢٠٥ . وكان فى امارة مكة الشريف غالب فاستأذنوه فى الحج فأبى فقامت لذلك الحرب بينهم . ورغماً عن موت محمد بن عبد الوهاب فى سنة ١٢٠٧ فان الحرب مازالت رحاها دائرة بينهم الى سنة ١٢١٣ ، وحصل فى أثنائها خمس عشرة واقعة كانت الحرب فيها سجالا الا فى الاخيرة التى تسمى غزوة الخرمة فقد كان فيها للوهابيين النصر المبين . وفى هذه السنة تم الصلح بين الشريف غالب وعبد العزيز بن محمد بن سعود أمير الدرعية « الذى كان يقوم بنصرة الوهابى رغبة فى اتساع ملكه حتى ضخم وكاد يستولى على أطراف جزيرة العرب بتمامها » وتحددت فى هذا الصلح منطقة نفوذ كل من الطرفين ، وسمح الشريف للوهابيين بالحج فى سنة ١٢١٤ . فحج سعود بن عبد العزيز ومعه خلق كثير . ثم حج أيضاً فى عدد عظيم من قومه سنة ١٢١٥ . وفيها حدثت منافرة بين عربان الشريف وقوم سعود أدّت الى استئناف الحرب بينهما ، وحصل من جرائها بين الطرفين ثلاث عشرة موقعة استولى ابن سعود فى الأخيرة على الطائف سنة ١٢١٧ . وبعد أن تفرق الحجيج فى تلك السنة خافه الشريف غالب ففر الى جدة مع واليها شريف باشا . وصار الناس

فى مكة لا يقر لهم قرار من الخوف . فعند ذلك قام الشريف عبد المعين بن مساعد وأرسل كتابا الى سعود يطلب منه أمانا لجيران بيت الله الحرام ، على أن يطيعوه ويكون هو عامله على مكة . وأرسله مع وفد من أفاضل أشراف البلد الحرام وعلمائها، فاجتمعوا بسعود فى وادى السيل (على مرحلتين من مكة) وعاهدوه على الطاعة . فكتب لهم أمانا فى ورقة صغيرة هذه صورته : « بسم الله الرحمن الرحيم من سعود بن عبد العزيز الى كافة أهل مكة والعلماء والاغوات وقاضى السلطان، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد فأنتم جيران الله وسكان حرمه آمنون بأمنه، انما ندعوكم لدين الله ورسوله . يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . فأنتم فى وجه الله ووجه أمير المسلمين سعود بن عبد العزيز، وأميركم عبد المعين بن مساعد فاسمعوا له وأطيعوا ما أطاع الله ورسوله والسلام » . وأرسل هذا الامان اليهم فى يوم الجمعة سابع محرم سنة ١٢١٨ . فصعد مفتى المالكية على المنبر وتلاه على رؤوس الاشهاد وقابله الناس بالطاعة .

وفى اليوم الثانى دخل سعود مكة محرماً ، فطاف وسعى ونحر نحو مائة من الابل ، ثم صعد الى بستان الشريف الذى فى المحصب ، وفى ثانى يوم نزل وصعد الى أعلى الصفا وخطب فى الناس وتجددت له البيعة . وفى اليوم التالى أمر بهدم القباب التى فى المعلى بما فيها قبة السيدة خديجة ، ثم هدم قبة مولد النبى صلى الله عليه وسلم ومولد أبى بكر وعلى رضوان الله عليهما ، ثم أمر بمنع المؤذنين من الدعاء بعد الأذان وبعدم تكرار صلاة الجماعة فى المسجد الحرام : فكان يصلى الصبح الشافعى، والظهر المالكى، والعصر الحنبلى، والمغرب الحنفى، وكانت العشاء لجميعهم . وارتحل سعود عن مكة بعد أن أقام بها أربعة عشر يوماً ، وسار بجنوده الى جدة طالباً الشريف غالباً وحاصرها أياماً فلم يتيسر له أخذها لحصانة سورها وقوة مدافعها التى نالت من رجاله كثيراً . ثم ارتحل الى الشرق، فعاد الشريف غالب الى مكة فى أواخر شهر ربيع الاول ودخلها ظافراً ولم يعارضه الشريف عبد المعين . وأخذت تفد اليه رؤساء القبائل لمحالفته، واستأنف الحرب مع الوهابيين الى شهر ذى القعدة سنة ١٢٢٠ .

وفيه انعقد الصلح بينه وبينهم على دخولهم مكة لاداء مناسك الحج ثم يعودون الى بلادهم .
ومع ذلك فقد كان الشريف غالب يمالئ الوهابيين اتقاء لشرهم ، ويتظاهر لهم بما يوافق مذهبهم:
فكان أحيانا يأمر بهدم ما بقى من قباب الصالحين بمكة وجدة ، وأخرى ينبه باختصار المؤذنين
على الاذان دون السلام ، وغير ذلك من الامور التى توافق مذهب الوهابية . وفى سنة ١٢٢١
أحرق سعود المحمل المصرى بمكة واشترط شروطا على المحمل الشامى وهو فى هدية فلم يقبلها
ورجع من غير حج ، ومن ثم انقطع المحملان عن الذهاب الى مكة . وفى هذه السنة أخذ
سعود جميع الجوهرات التى فى الحجرة الشريفة النبوية بالمدينة المنورة وكانت لا تقدر بثمن ،
وطرد قاضى مكة والمدينة وكانا من طرف الدولة العلية ، واستبد بأمر الحرمين الشريفين
استبدادا مطلقا . فلما بلغ السلطان محمود كل هذا أرسل الى محمد على باشا بان يسير جيوشه
لقتال الوهابى ، فلم يتيسر له تلبية هذا الامر فى وقته ، لانه منذ تولى على مصر فى سنة ١٢٢٠ وهو
يصل الليل بالنهار فى ترتيب داخليتها وتنظيم ماليتها وتقوية حربيتها . فلما توالت عليه
الأوامر السلطانية بذلك جهز أول حملة وأرسلها الى ينبع تحت امرة ولده طوسون باشا فى
رمضان سنة ١٢٢٦ ، فملكوها وما بعدها الى الصفراء بلا صعوبة ، وهنالك حصلت موقعة
بينهم وبين عثمان المضايفى حاكم الطائف من قبل سعود وكان معه من الوهابيين عدد
لا يحصى ، فانهزم الجيش المصرى وتشتت شمله فى هذه القفار ، وسار طوسون الى
القصير وبقى فيها منتظراً أوامر والده .

وفى محرم سنة ١٢٢٧ جهز محمد على جيشا وأرسله بحرا الى ينبع وأمر طوسون باشا
بالذهاب اليها للمحافظة عليها . وجهز فى شهر صفر جيشا آخر وأرسله من طريق البر تحت
قيادة صالح أغا السلحدار ، ثم أخذ يوالى ارسال الجنود والذخائر برا وبحرا حتى اجتمع له فى
ينبع قوة كبيرة . وكان طوسون يكاتب الشريف غالبا ويسترشد برأيه ويعمل بتدبيره ،
وأرسل الى مشايخ حرب فجاءوا فأحسن استقبالهم وأهال عليهم الخلع والاموال ، فساروا
فى خدمته حتى دخل المدينة المنورة فى شهر ذى القعدة وأخرج من كان فيها من الوهابيين ،

وسارت فرقة من الجنود التى فى ينبع الى جدة من طريق البحر فدخلوها من غير ممانعة . فلما علم بذلك عسكر الوهابى الذين بمكة خرجوا منها وتركوا اقلاعها خاوية . ثم سارت فرقة من الجنود المصرية من جدة الى مكة، فقابلهم الشريف غالب بالاكرام التام ، ودخلوها واحتلوا قلاعها . وبلغ ذلك عسكر الوهابى الذين بالطائف فتركوه وساروا الى الدرعية . ولما وصلت البشائر الى مصر باستيلاء العساكر المصرية على المدينة المنورة وجدة ومكة، أمر محمد على باشا بتزيين القاهرة خمسة أيام وأرسل مبشرا الى الحضرة السلطانية بهذا الفتح المبين، فكان لذلك يوم مشهود فى الاستانة .

وفى شهر ربيع الثانى سنة ١٢٢٨ مات سعود بالدرعية وتولى مكانه ابنه عبد الله . وفى ١٤ شوال منها سار محمد على باشا من مصر قاصدا الحجاز ، فوصل الى جدة فى أواخره وكان الشريف غالب حضر لاستقباله فيها . وما استقر بها محمد على حتى أتته رسل من عند ابن سعود بطلب الصلح ، فاشترط أن يدفع له الوهابى جميع المصاريف التى صرفت على العساكر من أول الحرب الى ذلك اليوم، وأن يأتى هو لامضاء هذا الصلح بنفسه . وفى اليوم التالى استعرض عسكره أمام هؤلاء الرسل فأدهشتهم حركاته ونظامه . ثم سار محمد على الى مكة وفى خدمته الشريف غالب ونزل فى بيت القرطسى، ونزل طوسون باشا فى بيت السقاف بالشامية . وكان كل من محمد على والشريف غالب على حذر من بعضهما ، فأراد محمد على أن يخلو له الجو فأمر ولده طوسون باشا بالقبض على الشريف غالب وأولاده وكان ذلك فى أواخر ذى القعدة سنة ١٢٢٨ ، ثم أرسله مع أولاده الى مصر ومنها الى سلانيك . وولّى مكانه الشريف يحيى بن سرور .

ومكث محمد على بمكة يرتب أمورها ويغزو بجنوده كل قبيلة نبذت طاعته أو نقضت عهده، وبعد أن حج سنة ١٢٢٩ توجه بعسكره الى الطائف، ووقع بينه وبين الوهابيين فى افتتاح سنة ١٢٣٠ جملة وقائع ملك بعدها تربة ورنية وبيشة وعسير . وكان كل جهة يملكها ينظم شؤونها ويعين عليها أميرا من عنده . ومازال ينتقل من امارة الى أخرى فى جزيرة

العرب حتى عاد الى مكة فى شهر جمادى الاولى ، فرتب بها مرتبات الى كثير من الأشراف وغيرهم على حسب ما تقضى به المصلحة العامة، وهى باقية لأولادهم الى الآن . ثم رجع الى مصر بعد أن عين حسين باشا الارناءوطى والياً على مكة ، وأقام ابنه طوسون باشا قومندانا عاما على القوة العسكرية التى بالحجاز .

وفى شهر شعبان من هذه السنة عقد طوسون باشا صلحاً بينه و بين عبد الله بن سعود على أن يتركا الحرب و يحقنا الدماء وأن يذعن الوهابى لحكومة الحجاز . وأرسل ابن سعود وفدا من علية قومه الى طوسون ليؤكدوا له هذا العهد، فبعث بهم الى والده بمصر فلم يرق فى عينه هذا الصلح . واستمر طوسون باشا فى الحجاز الى ذى القعدة ، ثم رجع الى مصر بأمر من أبيه فوصلها فى شهر ذى الحجة ، وعملت له فيها زينة كبيرة . وكان ولد له فى غيبته ولده عباس باشا الأول . ومازال بمصر حتى توفى سنة ١٢٣١ بالطاعون وعمره نحو عشرين سنة .

وفى محرم سنة ١٢٣٢ أرسل محمد على ولده ابراهيم باشا الى الحجاز لمحو أثر الوهابيين . فسار فى عسكر كثيف الى مكة ومنها قصد الدرعية . ولما وصل الى مكان يقال له مرنان وقع بينه و بين الوهابيين قتال شديد انتصر فيه عليهم ، واستولى بعد ذلك على مدينة الشقراء ، ثم سار الى الدرعية فحاصر فيها عبد الله بن سعود واستولى عليها فى ذى القعدة سنة ١٢٣٣ بعد قتال شديد، وقبض على عبد الله بن سعود أمير الوهابيين وعلى كثير من بنيه وأهليه وذويه، وبعد ان جعل عالى مدينتهم سافلها سيّرهم الى مصر . فلما أتت البشائر الى محمد على زيّن القاهرة زينة كبرى وأمر باطلاق ألف مدفع . ووصل ابن سعود ومن معه الى القاهرة فى أوائل شهر المحرم سنة ١٢٣٤، فدخلوها فى موكب عظيم، وقابل محمد على ابن سعود ثانى يوم فى سرايه بشبرا بصدر رحب ، وقدم اليه الوهابى صندوقا صغيرا فيه ما تبقى عنده من الجواهر التى أخذها أبوه من الحجرة الشريفة النبوية: ومن ذلك ثلاثة مصاحف مكللة بالجواهر الثمينة، وثلثمائة حبة كبيرة من اللؤلؤ ، وقطعة كبيرة من الزمرد . ثم أرسل عبد الله بن سعود الى الاستانة فصلبوه على باب همايون . وفى هذه السنة حج ابراهيم باشا وعاد الى مصر فعملت له فيها زينة كبيرة مدة سبعة أيام، ومن ثم صارت بلاد الحجاز من أدناها الى أقصاها خاضعة لحكم محمد على .

اما ما كان من أمر آل سعود فانهم اجمعوا أمرهم لاسترجاع نجد الى حكمهم بعد ان هدم ابراهيم باشا دار ملكهم فتم لهم ذلك . وكان الامير عليهم فيصل بن تركى ابن عم عبد الله بن سعود ، فلما استفحل ملكه خافه محمد على وسير اليه خورشيد باشا سنة ١٢٥٣، فاستولى على الدرعية بعد جملة وقائع بينه و بين الوهابيين ، وقبض على فيصل فى سنة ١٢٥٤ وأرسله الى مصر ومعه كثير من آل سعود . وولّى الامارة بعده خالد بن سعود ، فثار عليه عبد الله ابن ثنيان وانتزعها من يده . فبلغ ذلك فيصلا بمصر وهو سجين بالقلعة : وكانت له صلة بعباس باشا الاول ، فشكا اليه ما يلقاه من تغلب ابن ثنيان على بلاده و وعده ان هو خلصه من سجنه وصار له الحكم فى قومه يصير من رجاله ومن رجال محمد على . فساعده عباس باشا على الهرب . فسار فيصل حتى نزل على ابن الرشيد أمير شمّر ، فاكرم وفادته وسير معه بعض رجاله الى ابن ثنيان . و بلغ ذلك قومه فبادر اليه كثير منهم وساروا معه الى القصيم فحاصرها وأخذ ابن ثنيان أسيرا ومازال فى سجنه حتى مات ، وتم لفيصل استيلاؤه على نجد سنة ١٢٥٨ واستقامت له الامور فيها الى أن توفى سنة ١٢٨٢، وله من البنين (عبد الله . وسعود . ومحمد . وعبد الرحمن) . فاستولى عبد الله بن فيصل على الامارة، فوقع خلاف بينه و بين أخيه سعود الذى فر الى البحرين فساعده أميرها وخرج فى قبائل العجمان وسار الى نجد، والتقى برجال أخيه عبد الله وعليهم أخوه محمد بن فيصل ، فحصلت بينهم موقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من الفريقين، وكانت الغلبة لسعود بن فيصل ففر عبد الله أخوه الى العربان وجمع له جموعا والتقى بجيش أخيه سعود الذى كانت له الغلبة عليه أيضا . فقصد عبد الله أطراف نجد يستنجد قبائلها فلم يحصل على طائل، ومن ثم توطدت قدم سعود فى الامارة وأخذ يرتكب كثيرا من المظالم، ولكن مدته لم تطل بأكثر من سنة حتى عصت عليه قبائل نجد، وتكدرت عليه أيامه ومات حتف أنفه . وتولى الامارة بعده ولداه محمد وعبد العزيز، فاستجمع عبد الله ابن فيصل قوة واستولى على الرياض عاصمة الامارة . وفر محمد وعبد العزيز الى مدينة الخرج القريبة من الرياض ، وحصلت بينهما و بين عمهما مناوشات انتهت بهدنة بين الطرفين . ثم حصلت بينهما وقائع كانت الغلبة فيها لعمهما عبد الله . وفى هذه الاثناء كانت امارة الرشيد

تتقوى بانقسام الكلمة بين آل سعود ، حتى علا أمره . فطمع فى امارة نجد وتحرك لغزوة ابن فيصل من الحائل وحصره فى الرياض مدة انتهت باستيلائه عليها وأسر عبد الله بن فيصل وأتى به الى الحائل معززا مكرما فاقام فيها نحو سنة ثم طلب الرجوع الى الرياض ، و بعد وصوله اليها توفى فيها . وكان ولدا أخيه سعود (محمد وعبد العزيز) فى الخرج . وكان ابن الرشيد غير مستريح منهما فترقب الفرص فيهما حتى قتلهما واستولى على نجد . اما الرياض فكان فيها ولدا فيصل محمد وعبد الرحمن وكان لهما الامر فى بلدهم خاصة وتوفى محمد واستقل بالامر عبد الرحمن . وكانت بلاد القصيم بعد زوال حكم آل سعود مستقلة بيد أميريها حسن بن مهنا و زامل بن سليم فحصل بينهما و بين ابن الرشيد خلاف وقع بسببه حرب كانت الغلبة فيه لابن الرشيد وكان عبد الرحمن بن فيصل قد سار لمساعدة أهل القصيم فلما حصل الظفر لابن الرشيد واستولى على القصيم التجأ عبد الرحمن بن فيصل الى الكويت وهى فى امارة ابن صباح واستجمع له قوة لقى بها ابن الرشيد ، فظهر عليه ابن الرشيد و بذلك صار له الحكم فى كل نجد . وأقام عبد الرحمن فى الكويت و رتبت له الدولة العثمانية مرتبا يصله من البصرة حتى مات ، وله من البنين عبد العزيز ومحمد وسعد .

وكانت حصلت فتنة بين مبارك بن صباح وأخوته فقتلهم ففرت أولادهم مع خالهم يوسف ابن ابراهيم الى البصرة . واستعانوا بالدولة العثمانية فلم تلتفت اليهم . فاستنجدوا بأمير نجد عبد العزيز بن الرشيد فكتب عبد العزيز الى الحكومة العثمانية بان ترخص له بالزحف على الكويت والاستيلاء عليها مدعيا ان ابن صباح قصد الاستنجاد بالانكليز وتسليم الكويت اليهم . وقصد بذلك اغراء الحكومة العثمانية به واقلابها عليه . فقبلت الحكومة كلامه وامدته برجالها وحصل بينه و بين ابن صباح واقعة كبيرة كان النصر فيها لابن الرشيد . فابلغ انتصاره الى الحكومة العثمانية وأخبرها انه قتل ابن صباح «وكان خبره غير صحيح» وطلب منها أن يستولى على الكويت . فجهزت العسكر لذلك من البصرة ، وعندها طلب ابن صباح ان تكف الحكومة عداءها عنه وتدع الطرفين لبعضهما . فلم تلتفت الدولة الى ذلك فقام عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل من الكويت بجيشه ، وهجم على عامل ابن الرشيد

فى الرياض فقتله واستولى عليها وحصنها بسور متين، ثم حصلت بينه وبين ابن الرشيد وقائع كثيرة كانت تارة له وأخرى عليه، واستولى بعدها على أغلب بلاد نجد الا الحائل وجبال شمر فانها بقيت فى يد ابن الرشيد الى الآن .

وهنا يجمل بنا أن نذكر كلمة عن اسرة الرشيد لتتم بها الفائدة فنقول :

كان عبد الله بن الرشيد أميرا على شمر وكان له ثلاثة بنين وهم طلال ، ومتعب ، ومحمد . فلما مات تولى بعده ولده متعب ، فقتله بدر وبدر ولدا أخيه طلال واستوليا على الامارة ، فقتلهما عمهما محمد واستولى عليها : وكان رجلا عاقلا كريما سارت الركبان بسيرته وتحدث الناس بنباهته خصوصا بعد ان انتهى حرب الوهابية وأسر عبد الله بن سعود وتشتت آله وذووه . لذلك أخذت سلطة محمد بن الرشيد تمتد فى اطراف نجد خصوصا بعد ان اشتعلت نار الشحناء بين بنى فيصل بن تركى . ومات محمد بن الرشيد ولم يعقب ولدا فتولى الامارة عبد العزيز ابن أخيه متعب ، فقتله سلطان وسعود ولدا حمود بن الرشيد واستوليا على الامارة معا ، ثم وقع بعد ذلك خلاف بينهما فقتل سعود أخاه سلطانا وانفرد بالولاية .

وكان لعبد العزيز بن متعب ولد صغير اسمه سعود هرب به خاله السبهان بعد قتل أبيه الى المدينة ، وأقاما بها مدة طويلة ثم سارا منها بجيش كبير بتواطؤ مع قبائل شمر ، وهجموا على سعود بن حمود فى الحائل وقتلوه واستولى سعود بن عبد العزيز بن متعب على امارة شمر ولا يزال فيها الى الآن .

الحرم المكى

كان الحرم المكى فى مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم على حدود المطاف الآن ، وهى حدوده القديمة من عهد ابراهيم عليه السلام . فلما كثر سواد المسلمين زاد فيه عمر وعثمان شيئا مما اشترياه من الدور التى كانت حوله ، وزاد فيه عبد الله بن الزبير عندما بنى الكعبة وأقام ما كان تهدم منه . وكذلك زاد فيه الوليد بن عبد الملك وعمره عمارة تذكر فتشكر ، وهو

أوّل من نقل اليه أساطين الرخام: واهتمام الوليد بالعمارات لاينكر ، يعرفه من شاهد قبة الصخرة بالقدس الشريف ورأى ما بقى فيهما من آثار الموزاييك الذهبية وغيرها من أعمال القيشانى التى تدهش العقل ويحار فيها الفكر . ويوجد فى المسجد الأموى بدمشق الى الآن شىءٌ من أثر عمارته لم تصل اليه يد الحريق ، وبه أعمال موزاييك ذهبية بديعة جداً على حائطى الصحن الجنوبى والغربى .

ولما حج الخليفة محمد المهدى سنة مائة وستين رأى أن البيت ليس فى وسط المسجد فاشترى كثيراً من البيوت خصوصاً فى الجهة الشرقية القبلية وزادها فى المسجد ، وأدخل اليه كثيراً من الازورارات التى كانت فيه وكانت فى ملكية الغير ، ثم أتى من بعده ابنه الهادى فأكمل مانقص فى مدة والده .

وكانت دار الندوة عامرة بالحرم تجاه الكعبة من الجهة الشمالية الغربية ، وكان ينزل بها الخلفاء والأمراء فى حجهم فى صدر الاسلام ، ولكنها أهمل أمرها فى منتصف القرن الثالث الهجرى فأخذ يتهدّم بناؤها ، فكُتِب فى ذلك الى الخليفة المعتضد العباسى فأمر بها فهدمت فى سنة إحدى وثمانين ومائتين وجعلت مسجداً وفيها قبلة الى الكعبة، ثم جعلوا الهاقبة عالية، ثم غير شكلها فيما بعد الى شكل آخر ،واستمر مقاما يصلى فيه الامام الحنفى الى أن أتى الامير كلدى أميرجدة فى سنة ٩٤٧ فهدمها ، وبنى المقام مرتفعاً ذا طبقتين: الأولى للامام والمصلين ، والثانية للمؤذنين والمبلغين وهو على هذا الشكل الى الآن .

وفى سنة ٨٠٢ احترق الرواق الشرقى ،فأمر الملك الناصر فرج بن برقوق ملك مصر بتعمير ماخرب منه ، ووضع بدل الاعمدة الرخام التى احترقت أعمدة من الحجر الشميسى . ومن ثم كانت تقوم بعمارة الحرم ملوك مصر ، وحسبك العمارة التى قام بها السلطان قايتباى فى سنة ٨٨٦ .

وفى سنة ٩٧٩ ، مال الرواق الشرقى من الحرم ميلاً محسوساً فأمر السلطان سليم الثانى بأن يرسل المعماريون والمهندسون والصناع من جميع الاصقاع لعمارته، فأنزلوا سقفه

جميعه وأساطينه كلها وهدموا محيطه وبنوه على التربيع الحالى، وأقاموا أعمدة الرخام بين أساطين حجرية متناسبة الوضع، وبنوا عليها قبابا بدل السقوف التى كانت تطحنها يد الرطوبة المتخلفة من الامطار، مع ما كان يكثر فيها من الحيوانات التى اشتهرت بعداوتها للأخشاب كالارضة والسوس وغيرهما من الحشرات المضرة. وفى أثناء هذه العمارة مات السلطان، وكان الذى انتهى منها الجانب الشرقى والشمالى فقط، أعنى من باب على الى باب العمرة. ولما تولى السلطان مراد خان أمر بتتميم العمارة على الوجه الذى كان قد أمر به والده، فتمت على أحسن حال بالشكل الذى تراه الآن. وليس لمن بعده من السلاطين بهذا الحرم الاعمارات ترميمية أو تكميلية.

وفى هذه العمارة نزل العمال بأرضية الشارع الموصل الى المسفلة، بحيث صار يصرف ماعساه يدخل الى الحرم من مياه السيول التى كثيراً ما كانت سبباً فى نقض أركانه وهدم بنيانه.
وكانت الزيادات التى تتخلف من الدور التى دخلت فى تربيع الحرم الشريف فى كل عماراته يبنى بعضها مدارس وبعضها أروقة يسكن فيها فقراء طلبة العلم فى المسجد، وكان لها أوقاف جمة، ولكن كثيراً ما تغيرت أوقافها واستبدلت بغيرها أو خرجت من يد واقف الى يد غيره أقوى منه، ومن ذلك مدرسة قايتباى التى لا تزال للآن على يسار الداخل من باب السلام، فانها بعد أن كانت مدرسة تدرس فيها علوم الدين ولها أوقاف بمصر تصرف غلاتها عليها، ضعفت أوقافها شيئاً فشيئاً، فنقلوها من دار علم الى دار ضيافة كان ينزل اليها أمراء الحاج المصرى، ثم صار يسكنها بعض أشراف ذوى غالب وهى فى أيديهم الى الآن. ولا يزال المحملان المصرى والشامى يوضعان أيام وجودهما بمكة لصق حائطها الذى من داخل الحرم، وبجوارهما من الخدم مايقوم بحراستهما. وعلى يمين باب السلام مدرسة يقال لها المدرسة السليمانية بها كتبخانة تقدم الكلام عليها فى مكة.

والحرم من داخله على شكل مربع (منتظم تقريباً) وفى وسطه (يميل الى الزاوية الجنوبية) الكعبة المكرمة. وطول ضلع الحرم المقابل للحطيم وهو الذى فيه باب الزيادة مائة وأربعة وستون متراً، وطول الذى يقابله وهو الذى فيه باب الصفا مائة وستة وستون مترا،

وضلعه الذى فيه باب السلام مائة متر وثمانية ، والذى يقابله وهو الذى فيه باب ابراهيم مائة وتسعة أمتار : فيكون مسطحه من الداخل سبعة عشر ألفاً وتسعمائة واثنين من الامتار المربعة ، وهو ما يزيد عن أربعة افدنة وربع . أما من الخارج فمتوسط طوله مائة واثنان وتسعون متراً ، وعرضه مائة واثنان وثلاثون متراً (وهذا حسب تحقيق المرحوم محمد صادق باشا أمير الحاج المصرى) . ويحيط بالحرم من داخله أربعة أروقة فيها ثلاثمائة وأحد عشر عموداً ، يتخللها مائتان وأربع وأربعون اسطوانة من الحجر الشميسى الاحمر ، تقوم عليها قباب على محيط المسجد . وعلى بعض هذه العمد كتابة محفورة فيها ، تدل على ما كان لبعض الملوك من العمارة فى المسجد أو من الاعمال التى فيها نفع للمسلمين كإبطال المكوس ونحو ذلك : ومن هذه الاعمدة عمود بقرب باب الحزْوَرة لا يزال منقوشا عليه عهد كتبه الاشرف شعبان سلطان مصر بابطال المكوس التى كانت تأخذها أشراف مكة على الحجيج . وأغلب هذه العمُد مطلىّ بالجبس : لأن بعض أمراء مكة سامحهم الله كانوا اذا أرادوا نقض العهود المحفورة عليها ، عمدوا الى تلك النقوش وكسوها بعجينة من الجبس فلا يظهر لها أثر .

وأبواب الحرم ثمانية فى الجهة الشمالية : وهى باب الدريبة ، وباب المدرسة ، وباب المحكمة وباب الزيادة (١) ، وبجواره الى الغرب باب القطبى (٢) ، وباب الباسطية (٣) ، وباب الزمامية ، ثم باب عمرو بن العاص (٤) . ويليه من الجانب الغربى ثلاثة أولها باب العمرة (٥) وباب ابراهيم (٦) ، ثم باب الحزورة (٧) . ويليه من الجهة الجنوبية سبعة أبواب : أولها باب أم هانئ (٨) ، وباب العجلة (٩) ، (ويسمونه باب التكية) ، وباب الرحمة (أو المجاهدية) ،

---

(١) لان هذه الجهة زادت في المسجد في عمارته الاخيرة . (٢) نسبة الي القطبي صاحب تاريخ مكة وكانت له به مدرسة يقيم فيها . (٣) لانه مجاور لمدرسة عبد الباسط . (٤) وكان يسمي الباب العتيق وباب السدة . (٥) لانهم يخرجون منه الي العمرة ويقال له باب بنى سهم . (٦) وهو نسبة الي رجل خياط كان يسكن بجواره . (٧) وكان يسمي باب بني الحكم ، والحزورة اسم لسوق في الجاهلية كانت في هذا المكان ودخلت في الحرم عند توسعته . ويسمونه باب الوداع لان الناس يخرجون منه عند سفرهم .

(٨) وهي زوجة هبيرة بن عمرو المخزومي ولعلها كان لها بيت هناك أدخل فى الحرم .

(٩) وكان يقال له باب بني تميم .

وباب أجياد أو (السنبلة)، وباب الصفا، وباب بنى مخزوم، ثم باب بازان [١]. ويلى ذلك من الجهة الشرقية أربعة أبواب: وهى باب بنى هاشم (أو باب على)، وباب العباس [٢] (أو باب الجنائز)، وباب النبي [٣]، ثم باب السلام [٤] وهو الذى يدخل الحاج منه الى الحرم عند طواف القدوم. ومجموع هذه الابواب اثنان وعشرون باباً، ولكن منها ماله مدخل واحد ومنها ماله مدخلان أو ثلاثة أو خمسة فيكون مجموعها تسعة وثلاثين مدخلا.

وفى رحبة باب ابراهيم تجد آلافا من فقراء حجاج الدكارنة والهنود والمغاربة وفيهم كثير من المقعدين [٥] الذين لا يقدرون على الحركة، فيمضون هناك أيامهم عائشين من حسنة أرباب الخير، وربما كان منهم بالمسجد ما تلجئهم الضرورة اليه مما لا يصح التوسع فى شرحه!! وهذا أمر لا يليق بكرامة حرم الله! فهل لحكومة الحجاز أن تفكر فى أمر هؤلاء البؤساء وتقيم لهم دار ضيافة يأوون اليها ولو فى مدة الموسم؟ وعسى أن ديوان الاوقاف بمصر أو الاستانة يتدارك ما أهملته حكومة الحجاز فيكون له الثواب الجزيل.

وفى المسجد ست منارات: الاولى منارة باب العمرة وهى من أعمال الخليفة المنصور العباسى فى عمارته للمسجد سنة مائة وثلاثين، ومنارة باب السلام، ومنارة باب على، ومنارة الحزورة وهى من أعمال المهدى العباسى فى عمارته للمسجد سنة مائة وثمانية وستين،

---

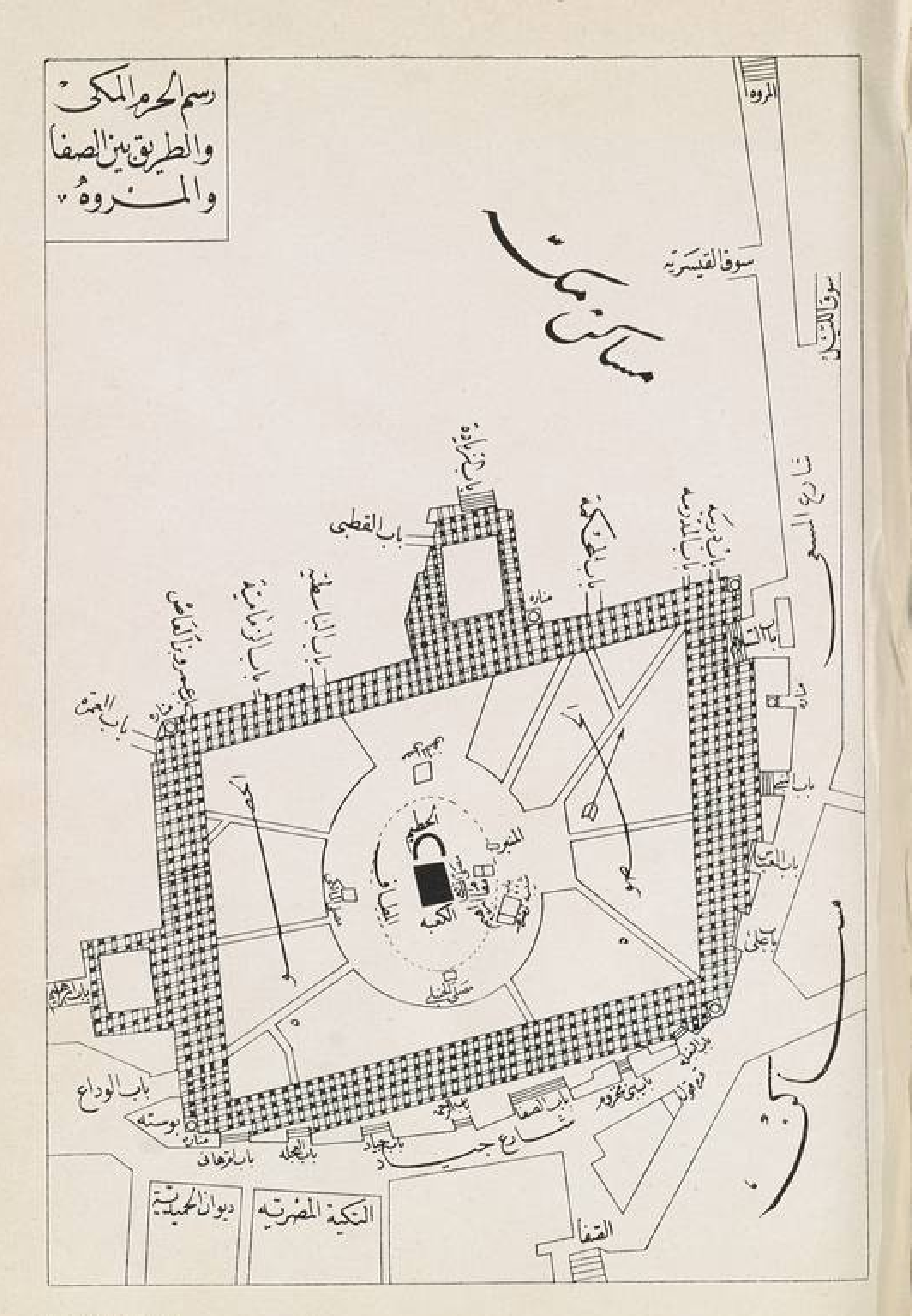
(١) لقربه من سقاية بازان ويسمونه باب البغلة.

(٢) لانه مقابل لدار العباس وسمي باب الجنائز لانها تخرج منه الي المعلى.

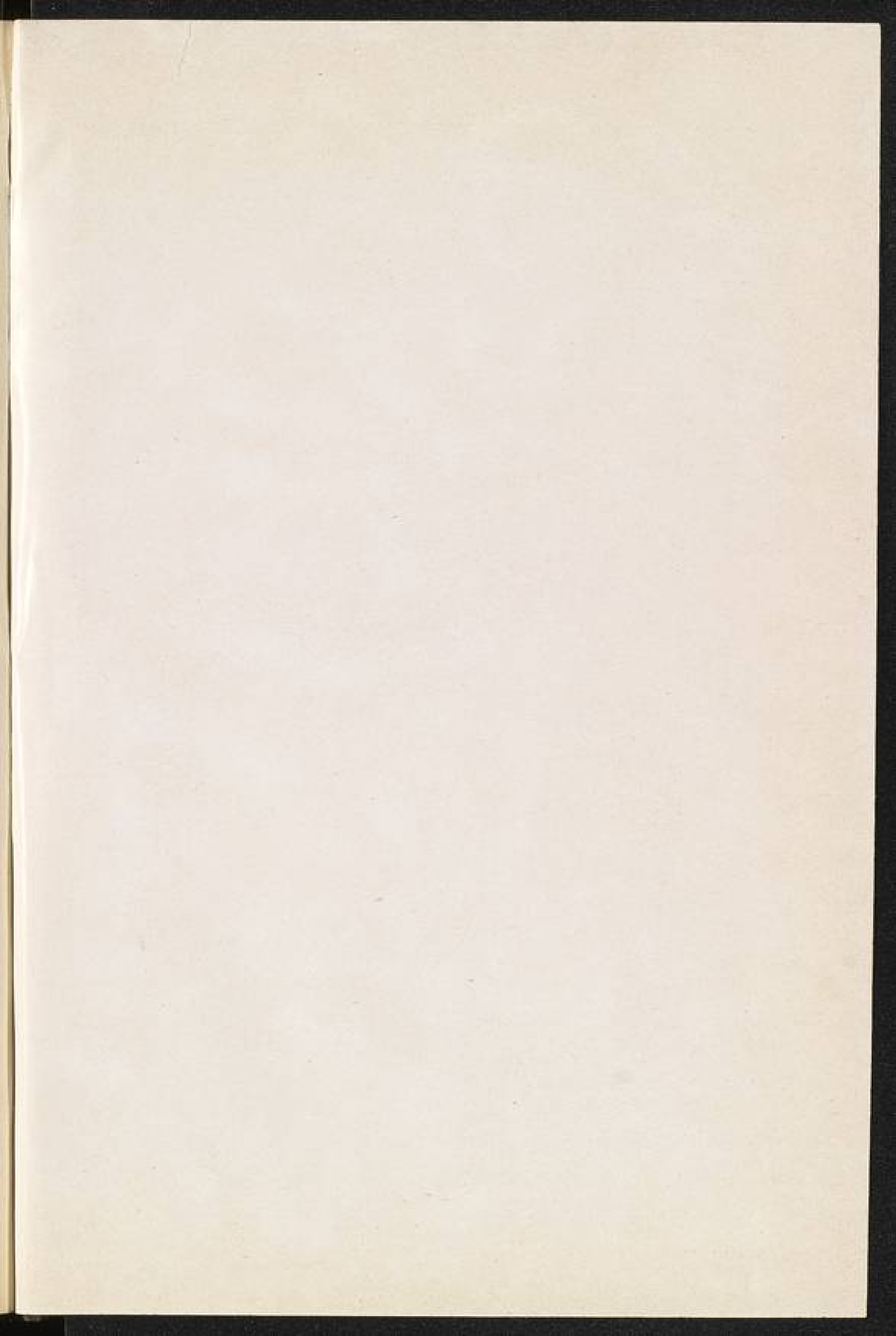
(٣) لانه كان صلى الله عليه وسلم يدخل المسجد منه لقربه من دار خديجة.

(٤) وكان يسمي فى الجاهلية باب بني عبد شمس ويعرف الآن بباب بني شيبة. وسمي باب السلام لدخول الناس منه عند طواف القدوم الذي هو تحية المسجد الحرام.

(٥) أغلب هؤلاء المقعدين من عبيد أهل مكة الذين اذا وصلوا الى الشيخوخة أو اعترتهم عاهة تقعد بهم عن العمل طردهم سادتهم تخلصاً منهم، فيلجئون الى بيت الله الحرام ويتعيشون من لقيمات أهل الخير حتى يتولاهم الله باحدى الحسنيين: فان كانت القاضية فقد أراحهم الله من دنياهم، وان كانت العافية استردهم سادتهم الى خدمتهم!!. ولا بد لحكومة الحجاز من ان ترى رأيا فى هؤلاء التعساء فتجعل لهم ملجأ يأوون اليه خدمة للانسانية. وبهذه المناسبة نقول لك ان أهل مكة يعملون مثل ذلك فى حمرهم أو خيلهم التي تقعد بها كبر السن أو المرض: فيتركونها في شوارع مكة تتلحس القمامة من طرقها وما يصح منها أخذه أصحابه لاستعماله فى خدمتهم مرة أخرى!!



BOEHME & ANDERER, CAIRO.



ومنارة باب الزيادة وهى من أعمال المعتضد العباسى سنة مائتين وأربع وثمانين، ومنارة السلطان قايتباى . وقد حصلت فى جميعها ترميمات وزيادات فى مدة العمارة التى قام بها السلطان سليم الثانى فى المسجد ، وكلها باقية للآن يؤذن عليها فى الاوقات الخمس . وشيخ المؤذنين أو الميقاتى يؤذن على قبة زمزم، وفيها مزولة مثبتة فى حائطها الجنوبى، من عمل رجل من مراكش أهداها الى الحرم، وهى غاية فى الضبط والاحكام وعليها ميقاتهم فى النهار . فاذا دخل الوقت بدأ الرئيس بالاذان فيتبعه المؤذنون الذين على المنارات بأصوات يحركها الهواء على طبلة الاذن فتحدث لها اهتزازات فى القلب يمتلئ منها خشية و رهبة وخشوعا وخضوعا .

وعلى حدود المطاف تلقاء كل ضلع من أضلاع البيت، سقيفة قامت على أعمدة من الرخام: فالشمالية منها مصلى الامام الحنفى ، والغربية للامام المالكى، والجنوبية للامام الحنبلى ، أما الامام الشافعى فيصلى فى مقام ابراهيم أو فى المطاف مما يلى الكعبة مباشرة جاعلا بابها على يساره . والحنفى يبتدئ بالصلاة فى جميع الاوقات ويتلوه المالكى ثم الشافعى ثم الحنبلى ، الا صلاة الصبح فيبدأ بها الشافعى و يتأخر بها عنهم الحنفى . و مما يلاحظ فى الحرم ان أهل كل جهة من العالم الاسلامى يجلسون عادة فى الجهة التى يستقبلون فيها الكعبة فى بلادهم: فالاعجام تجدهم عند باب السلام ، والشوام والاتراك بينه و بين باب الزيادة، والمصريون وراء المقام المالكى، واليمانيون والجاوه والهنود وراء المقام الحنبلى . ومن أغرب ماشاهدت ان بعض المصريين يستعمل هناك البوصلة التى عملت للصلاة بمصر ولوحظ فيها الاتجاه لجهة مخصوصة ، ولا يمكن أن تؤدى وظيفتها الا فى البلاد التى على اتجاه مصر من الكعبة ، أما اذا وضعت مثلا فى طريق المدينة أو اليمن أو الطائف فانها لا تؤدى وظيفتها بالمرة ، فليفهم ذلك من يجهله .

وللحرم صحن كبير غير مسقوف تقطعه مماش محجورة، وما بينها أرض بها زلط دون الفولة يسمونها الحصباء، وأول من حصب أرضية الحرم عمر رضى الله عنه . والكعبة فى وسط صحن المسجد بميل الى الجنوب و يليها من الشرق مقام ابراهيم . وفى جنوبه الشرقى قبة زمزم التى بناها

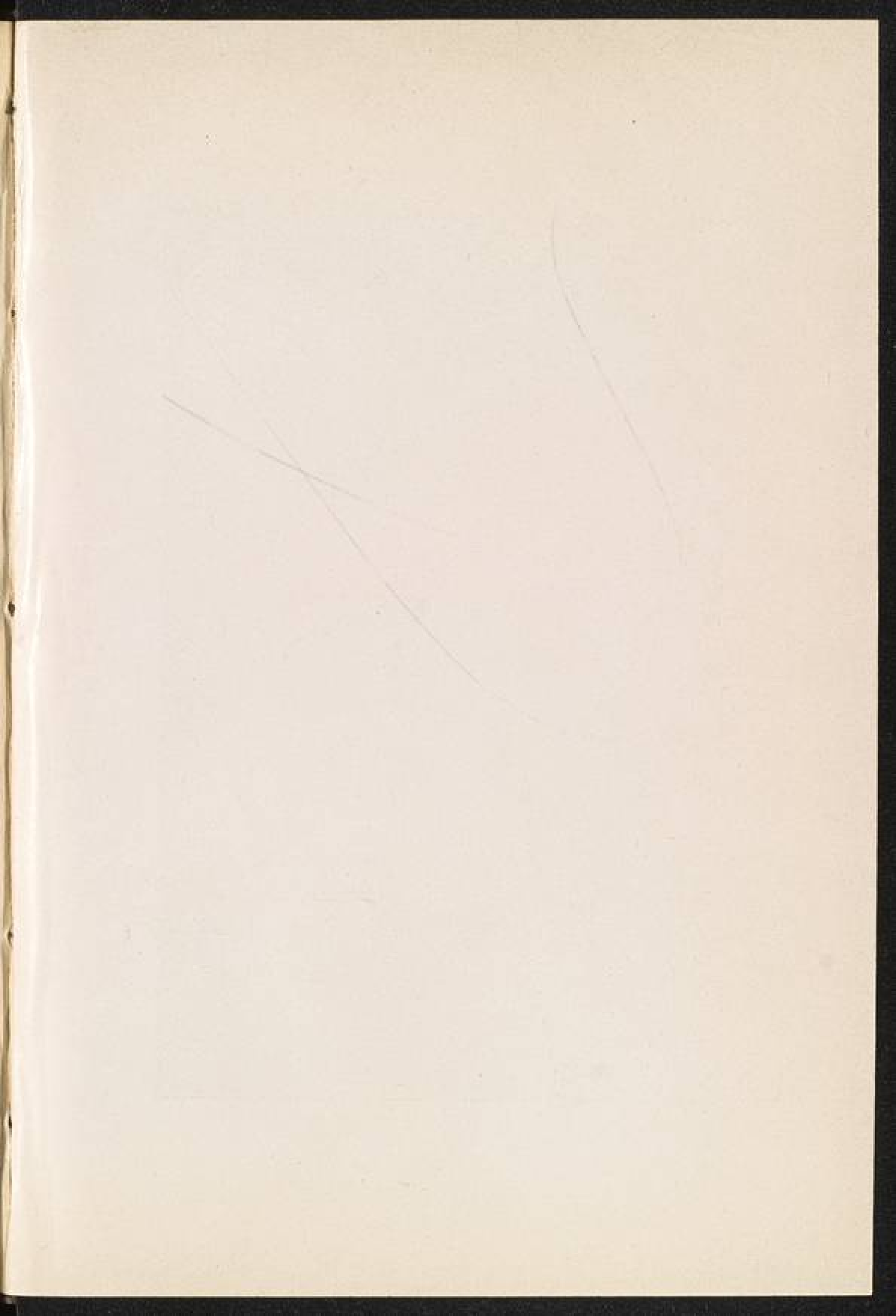
أبو جعفر المنصور فى سنة مائة وخمسة وأربعين وفرش أرضها بالرخام، وعمقها المأمون ، أما الشبكة التى على فوهتها فقد أمر بعملها السلطان أحمد العثمانى . وشرقى زمزم الى الشمال باب شيبة، وهو باكية كبيرة قامت وسط الحرم فى حدود المطاف، على عمودين من البناء المكسو بالرخام، فى المكان الذى كان به باب المسجد فى مدته صلى الله عليه وسلم . وفى شمال المقام المنبر، وهو من الرخام غاية فى حسن الصناعة اهداه الى الحرم السلطان سليمان القانونى ، ومكتوب على بابه بالخط الذهبي الجميل (انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم) . وأول من وضع المنبر فى المسجد الحرام معاوية بن أبى سفيان حين قدومه الى مكة حاجا . وكان الخلفاء قبله يخطبون على أرضية المسجد تحت جدار الكعبة أو فى الحِجْر ، ثم أُهدى اليه سنة مائة وسبعين منبر من خشب جميل من صناعة مصر لمناسبة حج الرشيد الذى خطب الناس عليه فى حجه فى السنة المذكورة . وفى خلافة الواثق أمر فعمل له ثلاثة منابر: واحد وضع فى الحرم، والثانى فى عرفة، والثالث فى منى ، وخطب فى حجه عليها جميعها . وقد كان الخطباء اذا أرادوا الخطبة فى الحرم وضعوا المنبر لصق جدار الكعبة بين الركن الاسود والركن اليمانى، فاذا أراد الخطيب ان يخطب استلم الحجر أولا ثم دعا وصعد المنبر . وبعد الخطبة كان ينقل المنبر الى مكانه بجوار زمزم ، فلما أهدى السلطان سليمان اليه منبره الرخامى بقى مكانه واستمرت فيه الخطبة الى اليوم . وفى حوائط المسجد الحرام من الداخل أبواب بعضها منافذ لبعض المدارس على الحرم، وبعضها مخازن فى يد خدمة المسجد أو الزمازمة، وهؤلاء يستعملونها أحيانا لاستحمام كبراء الحجاج فيها بماء زمزم أو وضوئهم منها .

وبالجملة فشكل [1] الحرم المكى على بساطته فى بنائه فخيم جدا ، ووضعه صحي ،

(١) ومما تراه على شكله تقريباً جامع عمرو بمصر القديمة ، ومسجد أحمد بن طولون بالقاهرة وان كان فى مساحته أكبر من الحرم: ويقال أن هذا المسجد بني تماما على شكل مسجد فى مدينة سر من رأى ، وهي بلدة كانت تبعد عن بغداد بنحو ثلاثين ميلا ، وكان اسمها أولا سامرا فكبرها المتصم بالعمارة وبنى له فيها قصراً جميلا وسماها سر من رأي . وفي وسط صحن مسجد ابن طولون قبة عالية تحتها ميضاة وضعت على شكل مربع تقرب وضع بيت الله المعظم من المسجد الحرام وتسميها العامة بالكعبة ، وبجوار هذه القبة من جهة القبلة ميدة (بفتح الأول وسكون الثاني) من الخشب يزعمون أنها من سفينة نوح ولكنهم سامحهم الله اذا كانوا وضعوا ذلك اكباراً لشأن هذه الكعبة المزورة فهل يمكنهم أن يرشدونا عن الزمان والمكان اللذين عثروا فيهما على آثار أول سفينة فى العالم ؟



باب الصفا بالحرم المكي



وصحنه الكبير يؤدى بلا شك للمدينة وظيفة الميادين الكبرى، كما سبق لك بيانه فى الكلام على مكة .

وشيخ الحرم هو الوالى عادة . وللحرم الشريف نائب، وقائمقام للنائب، ومدير يقوم بشؤونه . وعدد خدمة الحرم الشريف ٧٠٠ نفس : منهم ١٢٢ خطباء وأئمة للمذاهب الاربعة . و ١٠٧ مدرسون . و ٥٤ مؤذنون . و ١٠٠ مشدون . و ١٢ فراشون . و ٨ وقادون و ٢٠ كناسون . و ٣٠ بوابون . و ١١ جبادون (ملاءون) من بئر زمزم . و ١٠٨ غسالون لقناديل الحرم . وهناك وظائف أخرى أخصها وظائف الاغوات وعددهم ٥١ وهم يقومون بخدامات مختلفة فى الحرم ، وأول من رتب الاغاوات فى الحرم المكى للخدمة فيه هو الخليفة أبو جعفر المنصور . أما الذين يقومون بخدمة الكعبة المكرمة فهم سدنتها من بنى شيبة . والخدمة فى الحرم وراثية غالباً ما عدا شيخه ومديره فانهما يعينان من طرف السلطنة العظمى ، ووظيفة الاول تكاد تكون سياسية أكثر منها ادارية . والخدمة فى الحرمين الشريفين محترمة جداً ويتشرف بالنسبة اليها الخلفاء والسلاطين من زمن بعيد الى الآن . ويوجد ضمن رتب الدولة العلية العالية رتبة مخصوصة اسمها «خادم الحرمين» .

الكعبة المعظمة

كان الله تعالى يرسل رسله الى خلقه فى ظروف مخصوصة ليعلموهم واجباتهم فى دينهم ودنياهم ويرشدوهم الى طريق الخير الذى به تتم السعادة الحقيقية . فاذا مضت على ذلك فترة من الزمن خبط الناس فى سيرهم وخلطوا بين عمل صالح وآخر سيئ ، حتى اذا تغلب عليهم عامل الفساد بطبيعة الحال ساء أمرهم ونسوا رسالة ربهم اليهم وضلوا ضلالا مبيناً . ولما كان من طبيعة الوجود ضرورة وجود خالق قوى قادر، صار كل انسان يتخذ له معبوداً على ما يتجسم فى ضميره ويتعاظم فى وجدانه : فكان هذا يعبد النار لزعمه انها القادرة على كل شئ . وذلك يعبد الشمس لان بها نظام العالم ، وآخر يعبد الاحجار لانها هيولى هذا الوجود : وهؤلاء الاخيرون

هم الوثنيون الذين كان منهم سواد العالم خصوصاً فى الفترة التى بين نوح وابراهيم ، بعد ان تفرقت الناس وتبلبلت الالسن وتغايرت طبائعهم باختلاف مواطنهم . وهذه الفترة على ماورد فى الطبرى ألف وتسع وتسعون سنة .

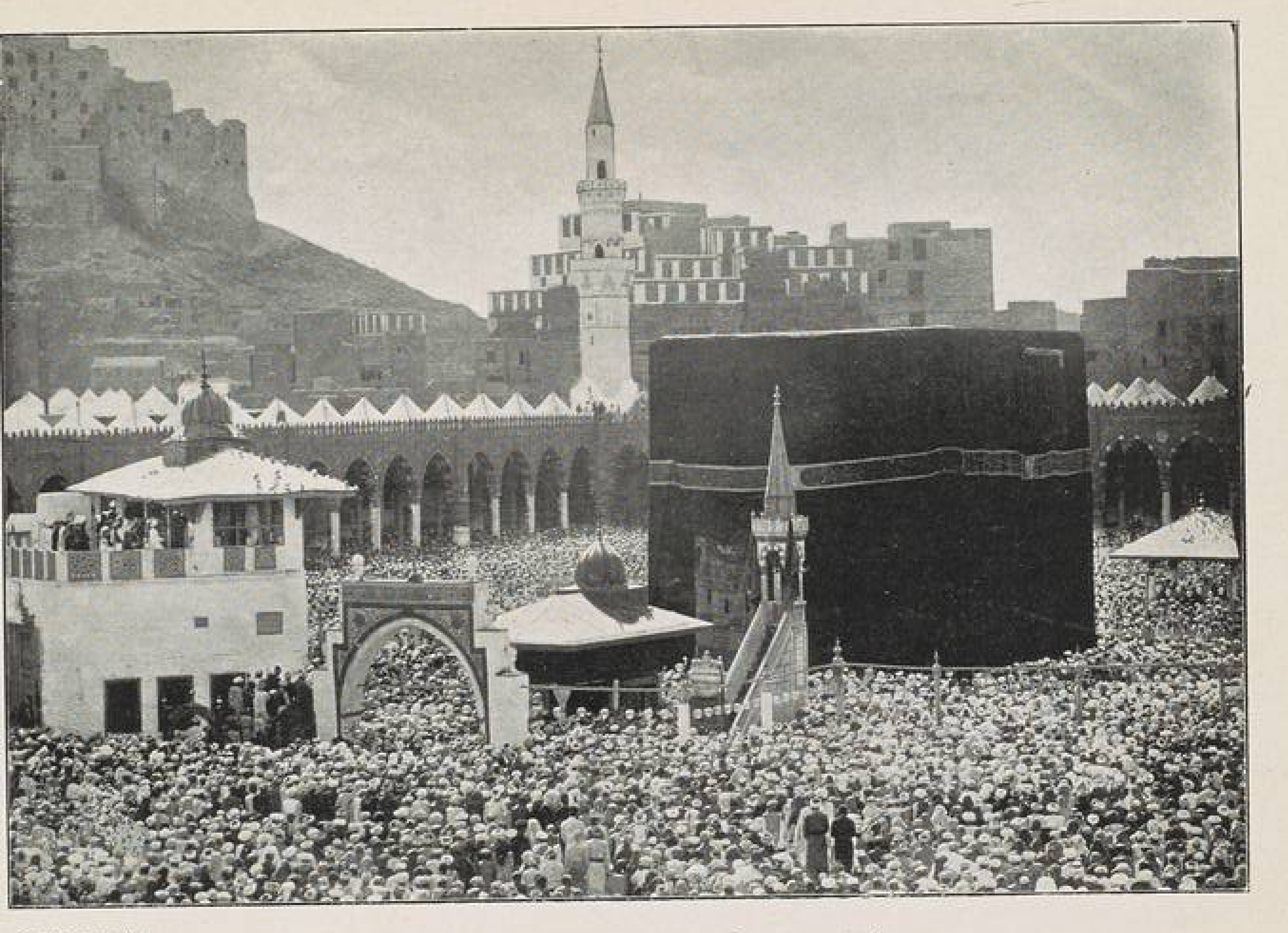
وكان الكلدانيون فى جنوب بابل فى نقطة متوسطة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب فأرسل الله تعالى منهم ابراهيم فوجدهم يعبدون النجوم والاوثان وكان أبوه يصنعها لهم فعاتبه على ذلك : قال الله تعالى مخبراً عنه « واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين »

وترك ابراهيم قومه وهاجر الى مدين ، وهناك أمره الله تعالى بالهجرة بولده اسماعيل وأمه هاجر الى بلاد العرب . فاقاموا بمكة حتى اذا كثر عمرانها أمره الله أن يبنى له بيتاً . وكان أول بيت وضع للناس يعبدون فيه ربهم عبادة صحيحة : قال تعالى « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » . وهذا البيت هو الكعبة المكرمة التى بناها ابراهيم على شكل مربع ، زواياه الى الجهات الاربع ، حتى تتكسر عليها تيارات الهواء لكيلا يؤثر ضغط الرياح على كتلتها ، وهذه هى بعينها القاعدة التى بنيت عليها أهرام مصر وصارت محل اعجاب علماء العمارة الى الآن .

ومازالت الكعبة على بناء ابراهيم حتى بنتها العماليق ثم جرهم [1] كما ذكر الازرقى بالسند عن على أمير المؤمنين وعبد الله بن العباس رضى الله عنهما .

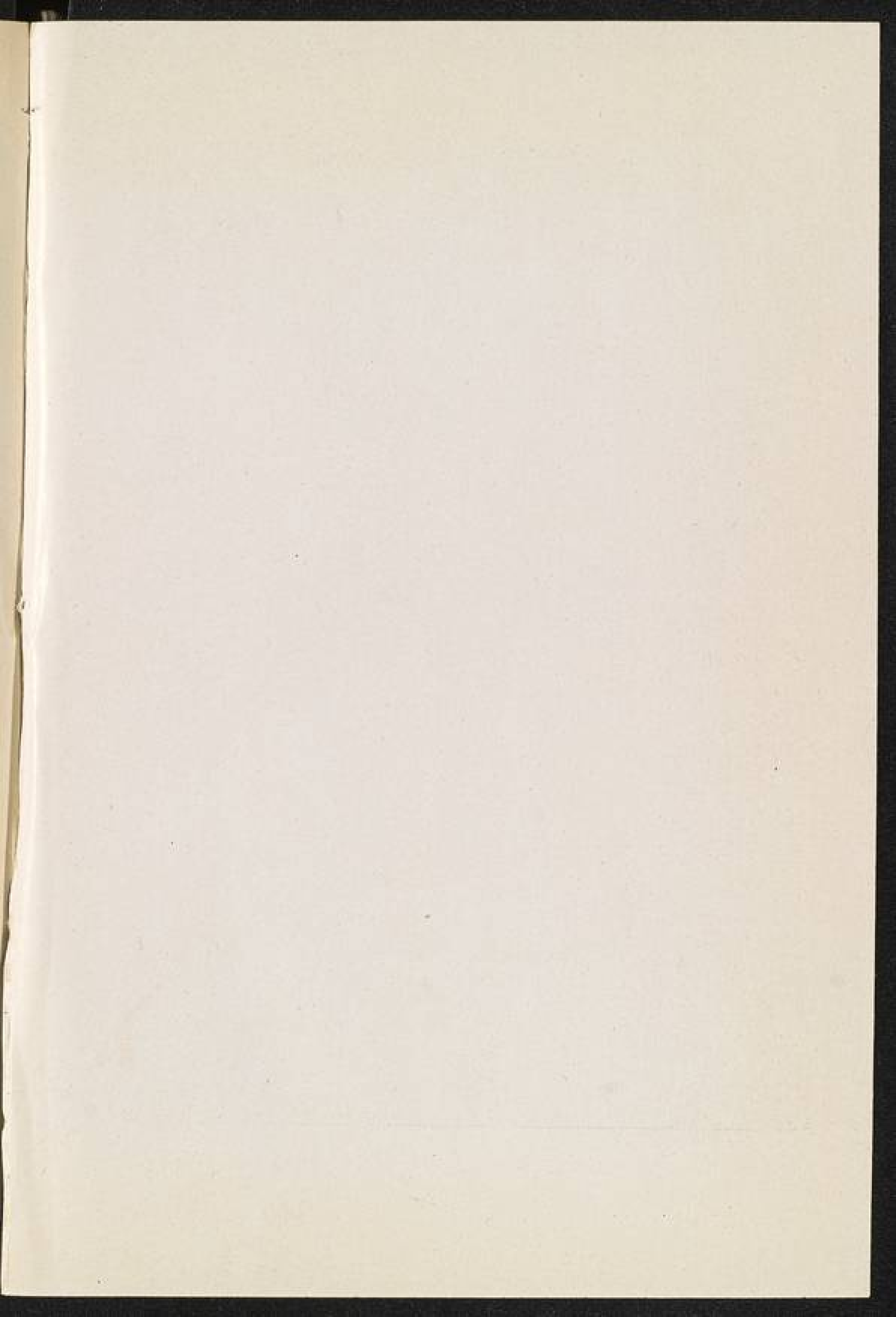
ولما آل أمر البيت الى قصى بن كلاب فى القرن الثانى قبل الهجرة هدمها و بناها فاحكم بناءها وسقفها بخشب الدوم وجذوع النخل . و بنى الى جانبها دار الندوة وهى أول بناء بعد الكعبة فى مكة : وكان بها حكومته ومحل الشورى مع صحابته ، وكان لا يتم لهم أمر من الامور السياسية والاجتماعية الا فيها . ثم قسم جهات البيت المعظم بين طوائف قريش ، فبنوا دورهم على المطاف حول الكعبة وفتحوا عليه أبوابها . وقبل بعثته صلى الله عليه وسلم بنحو خمس سنين هدم السيل الكعبة ، فاجمعت قريش أمرها واقتسمت القبائل بناءها ، وكان الذى يبنيها لهم باقوم الرومى بمساعدة نجار مصرى . فلما انتهوا الى وضع الحجر الاسود اختلفوا

(١) وهذا خلاف لمن قال بأن جرهم بنتها قبل العماليق .



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

الكعبة المعظمة ومنظر الحرم المكي في اوقات الصلاة زمن الحج



فى أى القبائل تختص بشرف وضعه فى محله ، وكاد يفضى الامر الى اشهار السلاح فيما بينهم . وكان صلى الله عليه وسلم يعمل معهم وعمره اذذاك خمس وثلاثون سنة ، وكان له فيهم شأن عظيم لحسن سيرته وكمال اخلاقه ، وكانوا يسمونه بالامين ، فارتضوه حكماً . فطلب رداء ووضع فيه الحَجَر وأمر القبائل فامسكت بأطرافه ، و رفعوه بالحجر حتى اذا وصل الى مكانه من البناء فى الركن الشرقى وضعه فيه بيده الشريفة : و بهذه الفكرة السامية والسياسة الرشيدة انتهت الشحناء من بين القبائل ، وهم له شاكرون و بشدة ذكائه متحدثون . وكانت النفقة قد قصرت بهم فبنوا الكعبة على ماهى عليه الآن . وكان الحِجْر أولا داخلا فيها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة رضى الله عنها : « لولا ان قومك حديثو عهد بالاسلام لهدمت الكعبة فالزقتها بالارض ، ولجعلت لها بابا شرقيا و بابا غربيا ، و زدت فيها ستة أذرع من الحِجْر فان قريشا استقصرتها حينما بنت الكعبة » . فلما ولى عبد الله بن الزبير أمر مكة ، سيّر يزيد بن معاوية اليه الحصين بن نمير فى عسكر كثيف . فالتجأ ابن الزبير الى المسجد الحرام ، فضربه الحصين بالمنجنيقات فاصابت بعض مقذوفاتها الكعبة فهدمتها واحرقت كسوتها مع بعض اخشابها ، حتى اذا بلغه هلاك يزيد رجع بمن معه عن مكة . ثم رأى ابن الزبير ان يهدم الكعبة و يبنيها على قواعد ابراهيم مستندا على حديث عائشة السابق ذكره . فهدم الكعبة وأتى لها من اليمن بالجص النقى فبناها به ، وادخل الحِجْر فى البيت ، والصق الباب بالارض وجعل قبالته الى الغرب بابا آخر ليخرج الناس منه ، وجعل ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعا . ولما فرغ من بنائها طيبها بالمسك والعنبر داخلا وخارجا من أعلاها الى أسفلها وكساها بالديباج . وكان انتهاؤه من عملية هذا البناء فى ١٧ رجب سنة ٦٤ للهجرة .

فلما كانت خلافة عبد الملك بن مروان سيّر الحجاج بن يوسف الثقفى الى ابن الزبير فحاصره فى مكة ، و رماه بالمنجنيق حتى استشهد رضى الله عنه فى سنة ٧٣ . ودخل الحجاج مكة وكتب الى عبد الملك بما جدده ابن الزبير فى الكعبة ، فولاه عليها وأمره أن يعيدها كما كانت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهدم الحجاج من جانبها الشامى (الشمالى) قدر ستة أذرع وشبر ، و بنى ذلك الجدار على أساس قريش ، و رفع الباب الشرقى وسد الغربى ولم يغير من

باقيها شيأ ، ثم كبس أرضها بالحجارة التي فصلت عنها .

وعليه فالكعبة الان على بناء ابن الزبير من جوانبها الشرقى والجنوبى والغربى ، وبناء الحجاج من جانبها الشمالى . ولم يطرأ عليها بعد ذلك الا العمارة التى تغير فيها سقفها فى زمن السلطان سليمان سنة ٩٦٠ ، ثم العمارة الترميمية التى حصلت فى زمن السلطان أحمد سنة ١٠٢١ وتاريخها محفور فى قطعة من الرخام مثبتة فى الشاذروان على يمين المعجن وهذا نصه « بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أمر بعمارة سقف البيت الشريف وبتجديد ميزاب الرحمة وتقوية جدار بيت الله الحرام السلطان أحمد فى شهر محرم سنة ١٠٢١ » . ثم اعقبتها العمارة التى قام بها السلطان مراد الرابع على اثر السيل الهائل الذى حصل فى سنة ١٠٣٩ ووصل ارتفاعه الى مترين فوق أرضيتها ، فهدم من حوائطها الشمالى والغربى والشرقى ، أما ما عمر فيها بعد ذلك فشئ لا يذكر .

شكل الكعبة

الكعبة الآن من الخارج على التعديل الذى رجع اليه الحجاج ، وهو ما كانت عليه مدة النبي صلى الله عليه وسلم ، ذات شكل مربع تقريباً ، مبنى بالحجارة الزرقاء الصلبة . ويبلغ ارتفاعها خمسة عشر مترا ، وطول ضلعها الذى فيه الميزاب والذى قبالته عشرة أمتار وعشرة سنتيمترات ، . وطول الضلع الذى فيه الباب والذى يقابله اثنا عشر مترا . وبابها على ارتفاع مترين من الارض ، ويصعد اليه بواسطة مدرج يشبه مدرج المنبر . والمدرج الحالى من الخشب المصفح بالفضة أهداه الى الكعبة أحد أمراء الهند ، ولا يوضع فى مكانه منها الا اذا فتح بابها للزائرين فى الاحتفالات الكبرى : وهى غالباً لا تزيد عن خمس عشرة مرة فى السنة . وفيما عدا ذلك ترى هذا المدرج بجوار قبة زمزم من جهة باب شيبة ، ويصعدون اليها

بسلم صغير من الخشب . وفى الركن الذى على يسار باب الكعبة الحجَر الاسود على ارتفاع متر وخمسين سنتيمتراً من أرضية المطاف .

ويحيط بالكعبة من خارجها قصة من البناء فى أسفلها، متوسط ارتفاعها خمسة وعشرون سنتى متراً، ومتوسط عرضها ثلاثون سنتى متراً، وتسمى بالشاذروان، وهى من أصل البيت تركت خارجة عنه فى بناء قريش لها قبل الاسلام لاختصارهم فى بنائها .

والشاذروان معناه ما يحيط بالسلسبيل، وكانوا يطلقونه فى العمارات المصرية القديمة على محيط النافورات التى كانت فى وسط القاعات الكبرى .

وعلى ظنى انه هنا من أثر عمارة الحجاج ، أقامه ليقى جدار البيت المعظم من تأثير الامطار والسيول التى كانت ولا تزال تنزل بكثرة الى المطاف : ودليلنا على ذلك انما هو لفظه الفارسى الذى لابد أن يكون من وضع عملة من الفرس استحضرهم الحجاج بن يوسف لعمارتها . ولا يبعد أن يكون ذلك من عهد ابن الزبير ، يؤيده ما ورد فى الاغانى من أن ابن سريج سئل عن من تعلم الغناء على القاعدة التى كان يغنى عليها مع انها ما كانت معروفة عند العرب ؟ فقال إنه تعلمها من عملة من الفرس كان ابن الزبير استحضرهم لبناء الكعبة ، وكانوا يتغنون بأغنية لطيفة فأخذها عنهم وأضاف نغماتها على النغمات العربية وغنى بها . وعلى كل حال فالشاذروان والميزاب لفظان أعجميان، ولم يرد ذكرهما على مدته صلى الله عليه وسلم .

ويسمون زوايا البيت الخارجة بالاركان : فالشمالى منها يسمونه بالركن العراقى لانه الى جهة العراق ، والغربى يسمونه الشامى لانه متجه الى جهة الشام ، والقبلى يسمونه اليمانى لاتجاهه الى اليمن وفيه حجَر يسمونه الحجر الاسعد، والشرقى يسمونه بالركن الاسود لان فيه الحجر الاسود : وهو حجر صقيل بيضاوى غير منتظم ولونه أسود يميل الى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء ، وهى أثر لحام القطع التى كانت تكسرت منه، وقطره نحو ثلاثين سنتيمتراً ، ويحيط به اطار من الفضة عرضه عشرة سنتى مترات ، والمسافة التى بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم ، وهو ما يلتزمه الطائف فى دعائه واستغاثته .

ويخرج من منتصف الحائط الشمالى الغربى من أعلاه الميزاب (المزراب) ويقال له

ميزاب الرحمة ، وهو من عمل الحجاج وضعه على سطحها حتى لا تقف عليه مياه الامطار : وكان من نحاس فغيره السلطان سليمان القانونى سنة ٩٥٩ بآخر من الفضة ، وتجدد فى سنة ١٠٢١ مدة السلطان أحمد بغيره من الفضة المنقوشة بالميناء الزرقاء تتخللها النقوش الذهبية ، وقد رأيته محفوظا فى دار الآثار السلطانية الخصوصية بالاستانة . وفى سنة ١٢٧٣ أرسل اليها السلطان عبد المجيد ميزابا من الذهب وهو الموجود بها للآن .

وقبالة الميزاب من الخارج يوجد الحطيم : وهو قوس من البناء طرفاه الى زاويتى البيت الشمالية والغربية ، ويبعدان عنها بمسافة مترين وثلاثة سنتيمترات ، ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه متراً ونصفاً ، وهو مغلف بالرخام المنقوش وفى محيطه من أعلاه كتابة محفورة بالخط المعلق فيها آيات قرآنية وتاريخ من قام بعمارته . ومسافة ما بين منتصف هذا القوس من داخله الى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار وأربع وأربعون سنتياً ، والفضاء الواقع بين الحطيم وحائط البيت هو ما يسمونه بحجر اسماعيل (بكسر الحاء وسكون الجيم) وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً فى الكعبة فى بناء ابراهيم ، والباقى كان زريبة لغنم هاجر وولدها ، ويقال ان هاجر واسماعيل مدفونان به .

أما الكعبة من الداخل فشكلها مربع مشطور الزاوية الشمالية ، وهى التى على يمين الداخل ، وبهذه الشطارة باب صغير اسمه باب التوبة ، يوصل الى سلم صغير يصعد به إلى سطحها . وبوسطها من الداخل ثلاثة أعمدة من العود القاقلى ، عليها مقاصير ترتكز على حائط الميزاب من جهة وحائط الحجر الاسود من اخرى . وقطر كل عمود نحو ثلاثين سنتى متراً . وهذه الاعمدة من زمن عبد الله بن الزبير ، وقيمتها أكبر من أن يقدر لها ثمن ، ويقال ان عليها كتابة محفورة فيها ولكنى لم أرها . وقد ذكر أنه كان بالكعبة قبل الاسلام ستة اعمدة ولا أدرى ان كانت من البناء أو من الخشب . ويغطى سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردى عليها مربعات مكتوب فيها « الله جل جلاله » ، قد أهداها اليها السلطان عبد العزيز رحمه الله ، وفى قبالة الداخل من الباب محراب كان يصلى فيه النبى عليه الصلاة والسلام .

ويحيط ببناء البيت من الداخل إزار من الرخام المجزع على ارتفاع نحو مترين ، وقد وضع فى الحائط الغربى ألواح محفور فى الاول منها : « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت المعظم العبد الفقير الى رحمة ربه يوسف بن عمر بن على رسول ، اللهم أيده يا كريم بعزيز نصرك واغفر له ذنوبه برحمتك يا كريم يا غفار يا رحيم » . ومكتوب حول هذه اللوحة : « رب أوزعنى أن اشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه لى بتاريخ سنة ثمانين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » . والى جواره لوحة مكتوب فيها : « أمر بتجديد سقف البيت الشريف وجميع داخل الحرم وخارجه مولانا السلطان ابن السلطان محمد خان سنة سبعين وألف » . ثم لوحة أخرى فيها « ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ، تقرب الى الله تعالى بتجديد رخام هذا البيت المعظم المشرف العبد الفقير الى الله تعالى السلطان الملك الاشرف أبو النصر برسباى خادم الحرمين الشريفين بلغه الله آماله وزين بالصالحات أعماله بتاريخ سنة ست وعشرين وثمانمائة » . وفى لوحة أخرى « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة البيت المعظم الامام الاعظم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله أقصى آماله وتقبل منه صالح أعماله فى شهور سنة تسع وعشرين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » . ثم لوحة أخرى منقوش فيها « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت العتيق المعظم الفقير الى الله سبحانه وتعالى خادم الحرمين الشريفين مؤمّن الحجاج فى البرين والبحرين السلطان ابن السلطان السلطان مراد خان ابن السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان خلد الله تعالى ملكه وأيد سلطته فى آخر شهر رمضان المبارك المسطر فى سلك شهور سنة أربعين بعد الالف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية » . وفى الجدار الشرقى لوح مكتوب فيه « أمر بتجديد داخل البيت السلطان الملك أبو النصر قايتباى خلد الله ملكه يارب العالمين ، عام أربع وثمانمائة من الهجرة » . وفى الجدار الشمالى مكتوب على باب التوبة هذه الابيات .

قد بدا التعمير فى بيت الاله[1] ❊ قبلة الاسلام والبيت الحرام

---

(١) من هذا الشعر يمكنك أن تحكم على مقدار تأخر اللغة العربية ببلاد العرب وخصوصاً في القريض منها حوالي القرن الحادي عشر للهجرة .

أم خاقان الورى مصطفى خان * دام بالنصر العزيز المستدام

بادرت صدقا الى التعمير ذا * انما كان بالهام السلام

وارتجت من فضله سبحانه * أن يجازيها به يوم القيام

قال تاريخاً له قاضي البلد * عمرته أم سلطان الانام

بمباشرة أحمد بك فى سنة تسع ومائة وألف» . و بلغنى ان فى البيت حجراً مكتوبا بالكوفى و يقال انه قديم جداً وانه من القرن الاوّل للهجرة ، وان صح ذلك كان من عمل الحجاج ابن يوسف . و بجانب الباب على يسار الداخل طاولة من الخشب مغطاة بستارة من الحرير الاخضر موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة ، وهو من الاطلس الاخضر المزركش بالقصب ، يأتى اليها سنويا من مصر مع الكسوة الشريفة . ومعلق بسقف البيت كثير مما بقى من الذخائر التى أهديت اليه ، ومن ذلك عدة مصابيح ذهبية وفضية لا تقل عن مائة ، ومنها مصباحان ذهبيان مرصعان بالجوهر أهداهما للكعبة السلطان سليمان القانونى سنة ٩٨٤ .

وتفتح الكعبة فى العاشر من المحرم للرجال ، وفى ليلة الحادى عشر منه للنساء ، و فى ليلة الثانى عشر من ربيع الاول للدعاء للسلطان من غير أن يدخلها أحد من الزائرين ، وفى صبيحته للرجال ، وفى مسائه للنساء ، وفى العشرين منه لغسيل الكعبة بحضور الشريف والوالى ، وفى أول جمعة من رجب للرجال ، وفى تاليه للنساء ، وفى صباح تاليه للرجال ، وفى مسائه للنساء ، وفى ليلة النصف من شعبان للدعاء للسلطان ، وفى صباح تاليه للرجال ، وفى مسائه للنساء ، وفى يوم الجمعة الاولى من رمضان للرجال ، وفى تاليه للنساء ، وفى السابع عشر منه للدعاء للسلطان ، وفى آخر جمعة منه كذلك ، وفى نصف ذى القعدة للرجال ، وفى تاليه للنساء ، وفى عشرين منه لغسيل الكعبة ، وفى الثامن والعشرين منه لاحرامها (أعنى احاطتها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من أرضية المطاف) . وتفتح فى موسم الحج غير مرة لمن يزورها من الحجاج نظير أجر يأخذه سدنتها . وتفتح الكعبة

أيضاً بعد الحج في نحو العشرين من ذي الحجة لغسيلها .

ولغسيلها احتفال كبير يحضره الشريف والوالي وأعيان مكة وعظماء الحجيج : وكيفية ذلك أن يدخل دولة الشريف في مقدمة الداخلين اليها ، و بعد أن يصلي ركعتين يؤتى اليه بجرادل الماء من عين زمزم ، فيغسل أرضها بمقشات صغيرة من الخوص و يسيل الماء من ثقب في عتبتها ، ثم يغسلها بماء الورد ، و بعد ذلك يضمخ أرضيتها وحوائطها على ارتفاع الايدي بالخلوق وأنواع العطر كدهن الورد والمسك ، وفي أثناء ذلك يكون البخور بالند والعود صاعداً من جميع جهاتها . ثم يقف الشريف على الباب و يلقي على الحجاج الذين يكونون قد وقفوا آلافاً مؤلفة في المطاف الى باب شيبة تلك المقشات التي كانت تُغسل بها الكعبة وهي مقشات صغيرة من الخوص طولها نحو ٣٠ سنتيمتراً ، فيتزاحمون عليها و يتلقفونها بحال غريبة جداً ، ومن يحصل منهم على واحدة كأنه حصل على أثمن شيء في العالم ، بل تكون عنده خيراً من الدنيا وما فيها ، و يحفظها على سبيل البركة أثراً شريفاً من بيت الله المعظم . وقد يأتي بعض القوم وخصوصاً المطوّفين والزمازمة بمقشات كثيرة يغمرونها بالماء ، و يدعون أنها من التي غسلت بها الكعبة و يبيعون منها على الحجاج كل واحدة بنصف ريال على الاقل !!

الكعبة قبل الاسلام و بعده

كانت الكعبة قبل الاسلام بنحو ٢٧ قرناً ذات منزلة سامية عند العرب باجمعهم ، لافرق بين وثنيهم و يهودهم ونصاراهم . وقد تجاوزت مكانتها جزيرة العرب الى بلاد الهنود وكانوا يعتقدون ان روح شبوه أحد آلهتهم (وهو الاقنوم الثالث من تمثال بوذا) قد تقمصت في الحجر الاسود ، حين زيارته مع زوجته لبلاد الحجاز ؟ (انظر سياحة بريتون في بلاد الحجاز) . و يسمون مكة (مكشيشا) أو (موكشيشانا) يعني بيت شيشا أو شيشانا وهما على ما أظن من أسماء آلهتهم .

وقد ورد فى مروج الذهب فى الكلام على البيوت المعظمة «ان الصابئة كانوا يعتقدون ان الكعبة كانت من البيوت السبعة المعظمة عندهم، وكانوا يعتقدون انها بيت لزحل وانها باقية ببقائه على مرور الدهور وكرور العصور» . وكانت أغلب بلاد الشرق تدين بدين الصابئة وعلى الخصوص بلاد العجم والهند والكلدان التى منها ابراهيم، ولا يزال مذهب الصابئة فيها الى الآن . وقد قال الله تعالى فى القرآن الكريم حكاية عن ابراهيم : «فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين» . وقد ذكر المقريزى فى باب فرق الخليقة ان من الصابئة فرقة كانت تسمى الكاظمة أصحاب كاظم بن تارح ، وان منهم من كان يزعم أن الشمس اله كل اله ، وان السيارات السبع آلهة وكانوا يسمونها المدبرات . وكانوا يقيمون لها الهياكل يعبدونها فيها . وذكر بعض المؤرخين انهم كانوا يحيطون معابدهم بحرم لا يطؤه الغرباء . وعلى ظنى انهم أخذوا هذا الحرم من الدائرة التى تحيط بفلك كل كوكب من هذه الكواكب لئلا يتعداها اليه نجم آخر: وبهذا كان نظام[1] جميع العوالم . ولا يبعد انهم كانوا يطوفون حول هياكلهم: وربما أخذوا ذلك من دوران هذه الكواكب حول الشمس بما يفيد تبعية الدائر للشىء الذى يدور حوله . كما لا يبعد انهم كانوا يطوفون بهياكلهم أسابيع لعلاقة ذلك بالكواكب السبعة ، يعنى انهم كانوا يطوفون حول كل هيكل من هياكلهم سبعة أشواط لكل كوكب شوطاً : فاقرها ابراهيم فى دينه وجعلها كلها لله وحده . ولا يخفى ان

---

(١) لا يخفى أن نظام العالم انما هو بتجاذب أجرامه مع بعضها سواء كانت ثابتة أو متحركة بنسب مخصوصة تحفظ نظامه ، ثم تحفظ هذا النظام الغريب الذى هو من أكبر الادلة على واجب الوجود وقدرته . ولكل سيار من هذه الاجرام دورة مخصوصة لا يتعداها اليه نجم آخر الا ذوات الاذناب فان دوائرها غير منتظمة . لذلك ترى الناس اذا رأوا شيئاً منها تظننوا فيه الظنون وتقولوا فيه الاقوال وتوتعوا منه الاهوال: لانهم يخشون مصادمته فى سيره بأحد النجوم التى ربما يصادفها فى طريقه فتختل الموازنة فى هذه العوالم ويكون من ذلك الاضطراب الذى يعقبه الفناء .

العبادات كلها انما هي مستمدة من شيء واحد: هو الاحترام الحقيق والاخلاص الصادق ، وانما المدار في صحتها على جهة توجيهها . وكل مشرّع في العالم لابدله أن يراعي الزمان والمكان في تشريعه ويراعي تلك العوائد المتأصلة في النفوس لعدم قدرته على ازالتها مرة واحدة ، ولنا في تدرج الاسلام في تحريم الخمر أكبر برهان على ذلك وحسبنا صراحة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله لعائشة عن بنيان الكعبة : لولا أن قومك حديثو عهد بالاسلام لهدمت الكعبة وبنيتها على قواعد ابراهيم .

وليس ذلك بغريب فشريعة كل قوم مستمدة من الشرائع التي قبلها باختلاف يسير أو كثير في بعض موادها . وشريعة ابراهيم انما كانت مستمدة من شرائع عمالقة الشمال الذين كانت لهم في العراق دولة زاهية راقية في القرن الخامس والعشرين قبل المسيح . وقد عثر النقابون لهم أخيرا في اطلال بابل وآشور على آثار كثيرة تدل على مدنيتهم وحضارتهم وفيها شيء كثير من شرائعهم: وتوجد الآن مجموعة كبيرة من هذه الآثار في متاحف برلين ولوندره . ومما ينسب الى هؤلاء العمالقة انهم أول من عرف علم الفلك وحركات النجوم والافلاك لانه كان عندهم علما دينيا محضاً ، ولذلك فقد فشا هذا العلم في الصابئة على اختلاف أجناسهم .

ومن الصابئة أخذ العرب علم النجوم واشتغلوا به كثيرا حتى ان ابن قتيبة ذهب الى تفضيلهم فيه عن العجم . ومن علم الفلك عرفوا علم الانواء (جمع نوء) ، وهو ما يسمونه الآن بعلم الظواهر الجوية ، فكانوا يعرفون منه تغير الزمن ووقت نزول المطر واختلاف هبوب الهواء . وللعرب في النجوم خرافات كثيرة: منها قولهم ان سبب دوران بنات نعش (الدب الاكبر) ان الجدى قتل والدهن نعشا فهن يدرن حوله حتى اذا لحقنه اقتصصن منه . وهذا على ما أظن أخذوه من خرافات اليونانيين التي تفوق غيرها في هذا القبيل ، وكانت سببا في رقي الخيال عند كتاب الفرنجة وشعرائهم الذين لا يزالون يرمزون بها في أقوالهم ، وللقوم فيها كتب خاصة يسمونها (مثولوجيا) . ولما فشت في العرب عبادة الاوثان عبدوا النجوم في أشخاص هذه الاصنام: فعبدوا اللات ويرمزون به الى الزهرة ، والعزى ولعلهم كانوا يرمزون به الى الشعرى ، وهبل وكانوا يرمزون به الى زحل .

ويصح أن لا تكون لاشواط الطواف السبعة علاقة بذلك وانها انما كانت بهذا العدد لان عدد سبعة عند الرياضيين هو العدد الكامل . وعلة ذلك كما ورد فى كتاب (عين النبع على طرد السبع للامام الصفدى) ، ان السبعة جمعت العدد كله . لان العدد أزواج وافراد: والازواج فيها أول وثان . والاثنان أول الازواج والاربعة زوج ثان: والثلاثة أول الافراد، والخمسة فرد ثان ، فاذا اجتمع الزوج الاول مع الفرد الثانى، أو الفرد الاول مع الزوج الثانى ، كان سبعة . وكذلك اذا أخذ الواحد الذى هو أصل العدد مع الستة التى هى عند الحكماء عدد تام ، يكون منها سبعة التى هى عدد كامل ، لان الكمال درجة فوق التمام . وهذه الخاصة لا توجد فى غير السبعة: ولذلك يفصلون بينها وبين الثمانية بالواو فيقولون واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية وتسعة وعشرة الخ: ومن ذلك قوله تعالى فى سورة الكهف « ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » . ومن هذا استعمل الناس السبعة اذا أرادوا المبالغة فى العدد فيقولون اذكر الله سبع مرات، وصل على النبى سبع مرات ، وصم سبعة أيام ، واغسل نجاسة الكلب سبع مرات، وارجم بسبع جمرات ، مما هو مستعمل كثيرا فى العبادات : وكان من ذلك السموات السبع، والسيارات السبع ، والارضون السبع والسبع المثانى . ولما بنى جوهر القاهرة جعل لها سبعة أبواب تيمنا ، ومن ذلك تيمنهم وقت الاحتفال بالحمل بدورته سبع مرات . ومما هو مشهور عند العامة السبع حبوب ويعملون منها تمائم لبنيهم، والسبعة معادن ويستعملونها فى عقاقيرهم ، ومما يذكر فى مبالغاتهم قولهم : فلان يعرف السبعة ألسن وقطع السبعة بحور، ولف السبعة أقاليم . ويقولون لا أعطيك ذلك ولو عملت السبعة؟ ولغة الاطفال فيها شىء من ذلك : فيقولون الذئب فات وذيله سبع لفات . الخ الخ . وكأن استعمال السبعة فى المبالغة لم يقتصر على العرب بل تعداهم الى الفرنجة الذين أخبرونا بأدوار العمر السبعة ولا يزالون يحدثوننا بعجائب العالم السبعة .

على ان هذا كله لا معول عليه عند السادة الفقهاء: لانهم لا يبحثون فى أصل الاعداد التى وردت فى عباداتهم كعدد ركعات الصلاة وأشواط الطواف وغيرها . ولكنهم يأخذون

أمر الله بها قضية مسلمة محترمة و يصدعون بما أُمروا به من غير بحث عن علة أو سبب .

ولقد ذكر المسعودى ما يفهم منه أن العرب كانت تحترم مكان الكعبة قبل بناء ابراهيم لها : فانه قال عند الكلام على قوم عاد لما أصابهم القحط «وهم من العرب البائدة وكانت مساكنهم من بلاد اليمن الى حضرموت بجنوب بلاد العرب» ما ملخصه : انهم كانوا يعظمون موضع الكعبة وكان ربوة حمراء ، فوفدوا الى مكة يستسقون ، ولكنهم عكفوا فيها على شرب الخمر ، فقالت لهم جرادة جارية معاوية سيد العماليق مخاطبة رجلا منهم اسمه قيل ولعله كان رئيس الوفد :

ألا ياقيل و يحك قم فهينم (١) * لعل الله يمطرنا غماما

فيسقى أرض عاد إنَّ عادا * قد امسوا لا يبينون الكلاما

الى آخر ما قالت : ومن هذا يفهم أن مكان الكعبة كان محترما فى القوم قبل بناء ابراهيم لها .
و ربما كان هناك معبد قديم للعماليق تلاشى أمره قبل وصول ابراهيم الى تلك الجهة ، و بنى المؤرخون على أساسه أقوالهم فى بنيان الكعبة قبل ابراهيم : فقال بعضهم ان آدم بناها قبله ، وقال آخرون غير ذلك ؟ ؟

و يظهر أن هذه الجهة كلها كانت مقدسة عند العرب : يؤيد ذلك تسمية قدماء المصريين بلاد الحجاز بالبلاد المقدسة .

والفرس كانوا يحترمون الكعبة و يعتقدون أن روح هرمز حلت فيها وكانوا يحجون اليها من زمن بعيد جدا وفى ذلك يقول شاعرهم بعد الاسلام :

ومازلنا نحج البيت قدما * ونلقى بالاباطح آمنينا

وساسان بن بابك سار حتى * أتى البيت العتيق يطوف دينا

فطاف به و زمزم عند بئر * لاسماعيل تروى الشاربينا

وقال غيره :

زمزمت (٢) الفرس على زمزم * وذاك من سالفها الأقدم

(١) الهينمة الصوت الخفي . (٢) اجتمع وتكاثر .

واليهود كانوا يحترمون الـكعبة وكانوا يتعبدون فيها على دين ابراهيم . والنصارى من العرب لم يكن احترامهم لها باقل من احترام اليهود إياها . وكان لهم بها صور وتماثيل : منها تمثال ابراهيم واسماعيل وفى أيديهما الأزلام، وصورة العذراء والمسيح . وقد وضعت العرب أصنامها عليها على تغاير معبودات القبائل والعشائر حتى اجتمع على سطحها من الاصنام ٣٦٠ صنما . وأول من أدخل عبادة الاوثان الى مكة ووضع الاصنام على الـكعبة عمرو بن لُحَيّ كبير خزاعة حينما ولى أمر البيت، وكان سافر الى الشام فاخذ عنها عبادة الاوثان، وأخذ عن الثموديين عبادة هبل واللات ومناة وكانت من آلهتهم كما تدل عليه النقوش الموجودة على آثارهم . وتبعته فى ذلك قبائل العرب فكانت كل قبيلة تأتى بصنمها وتضعه عليها . ومع شيوع الوثنية فى العرب فانها كانت فيهم أقل منها فى سواهم ، لانهم لم يكونوا يعبدون الاوثان لذاتها ولا لصفاتها كما كان الشأن فى وثني الهند والصين والرومان والمصريين وغيرهم، بل كانوا يعبدونها لتقربهم الى الله زلفى .

ومازالت الـكعبة على هذا الشأن حتى دخل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح فى السنة الثامنة للهجرة فامر بازالة ما عليها من الاصنام . وفى حديث أسامة انه صلى الله عليه وسلم دخل الـكعبة فرأى صورا فدعا بماء فجعل يمحوها . وقد ذكر الازرقى عن ابن عائذ عن سعيد بن عبد العزيز أن صورة عيسى وأمه بقيتا فى الـكعبة حتى رآهما بعض من أسلم من نصارى غسان . وقال عمر بن شيبة: حدثنا أبو عاصم عن جريج قال سأل سليمان بن موسى عطاء : أأدركت فى الـكعبة تماثيل ؟ قال نعم أدركت تمثال مريم فى حجرها ابنها عيسى مزوّقا (انظر صفحة ٦٠ من كتاب بلوغ الأرب فى مآثر العرب) .

هذا كان شأن الـكعبة فى الجاهلية قد أجمعت الناس مع اختلاف دياناتهم على احترامها واتخذها كل منهم معبدا يعبد الله فيه على حسب دينه أو مذهبه ، وهذا فى بابه لم يقع له نظير فى الوجود بالمرة ، اللهم الا بيت المقدس الذى يحترمه المسلمون والنصارى واليهود ، وان كان لـكلٍّ مكانٌ يتعبد فيه على حدته . وهل تريد برهانا على شرفها واحترامها غير هذا الاجماع من قوم كانوا بقطع النظر عن اختلاف دياناتهم اذا جمعتهم كلمة فرقتهم أخرى ؟

ولقد بلغ من سمو مكانة الكعبة فى النفوس أن جعلوا لها حرماً من جميع جوانبها واسع الاطراف بعيد الاكناف، لا يدخله الانسان الا وهو مُحْرِم، وكل من دخله صار آمناً: قال تعالى محتجاً على أهل مكة «أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً و يُتَخطَّف الناس من حولهم».

ولم يقف احترام هذا الحرم على تأمين الانسان، بل تناول الحيوان، بل تناول النبات، بل لم يقف احترام الناس لها فى حدود حرمها. وقد كان بمكة قبل الاسلام حزب يقال له حلف الفضول، اجتمع اليه بنو هاشم و بنو المطلب و بنو أسد و بنو عبد العزى و بنو زهرة و بنو تيم، فتعاقدوا و تعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد اليه مظلمته. وقد حضر هذا الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال فيه: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو دعى به فى الاسلام لاجبت».

ومسافة ما بين دائرة هذا الحرم ونقطتها المركزية التى هى الكعبة من جهة الشمال والشرق والجنوب تبلغ تقريباً خمسة عشر كيلومتراً، أما من جهة الغرب فتبلغ ثلث هذه المسافة. وعلى حدّ الحرم من الجنوب مكان يقال له أضاه (على وزن نواه)، ومن الغرب بميل قليل الى الشمال قرية الحديبية (وهى التى تمت بها بيعة الرضوان)، ومن الشرق على طريق الطائف مكان يقال له الجِعرّانه، اعتمر من كليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن وراء هذه الدائرة دائرة أخرى يُحرم منها كل من تجاوزها قاصداً الدخول الى مكة، وهى وان كانت حلا لا إلا أنها تعتبر فناء للحرم: ولا شك أنه لوحظ فى أبعاد الحرم عمران الجهات الثلاث الاولى، حتى اذا قصد مكة منها من أرادها بشرّ، فانه لا يصل الى حدود حرمها حتى يكون أهله قد استعدوا لحربه ودفعه عن حوزتهم. أما الجهة الغربية وهى جهة البحر فليس فيها من القبائل ما يخشى من عدوانه: لذلك جعلوا حدّ الحرم فيها من التنعيم، وهو مكان على مسافة نحو خمسة كيلو مترات من مكة. وعليه فميقات الاحرام أشبه شىء بالجهة التى يصلح المرء فيها من شأنه عند ما يريد مقابلة ملك من الملوك. وحد الحرم هو فناء بيت الملك، حتى اذا دخل اليه أكمل استعداده للتشرف بلقائه: فتراه وقد أخذ منه الاحتشام كل مأخذ، يسير الى قاعة

الاستقبال بغاية ما يمكن من الادب ، حتى لكأنه على مرأى منه ومسمع . وقد شاهدت ما يماثل ذلك فى طوب سراى بالاستانة العلية : رأيت حجارة منصوبة الى اليوم على أبعاد مختلفة فى الحوش الداخلى لهذه السراى ، وفى الفناء الذى كان مخصصاً لجلوس السلطان من بنى عثمان فى الزمن الخالى ، وكان القادم على السلطان من الامراء والسفراء اذا حاذى كل حجر من الاحجار المذكورة يسلم بسلام مخصوص ، حتى اذا وصل اليه قبّل الارض بين يديه .

ولقد بلغ من شأن الكعبة فى الجاهلية أن الناس كانوا يحجون اليها من جميع أنحاء البلاد العربية وغيرها . وكانت أشهر الحج عندهم شوّالا وذا القعدة وذا الحجة . وكانوا يحرّمون الشهر الذى يكون فيه الحج وهو ذو الحجة ، والذى قبله لانه وسيلة اليه ، والذى بعده لانه تابع له : لان الحاج كان يسافر فيه الى بلاده فوجب أن يكون فيه آمناً على نفسه وماله . وترى ذلك فى أسماء هذه الشهور نفسها ، فذو القعدة يعنى الشهر الذى يقعدون فيه عن الحرب ، وذو الحجة هو شهر الحج ، والمحرم هو ما حرموا فيه القتال . وكانوا يحرمون أيضاً شهر رجب ويسمونه شهر الله الاصم ، أى الذى لا يسمع فيه صوت سلاح ولا صوت مستغيث ، على خلاف فى أنه هو الشهر الذى بمكانه من السنة القمرية الحالية كما كان عند مُضَر أو هو شهر رمضان كما كان فى عرف ربيعة . وذلك لان ربيعة كانت تسكن فى شمال بلاد العرب الى العراق ، وأظن ان هذا كان من الاسباب التى حملتهم على تأخير شهر رجب الى رمضان ، حتى يمكنهم السفر فيه الى مكة ومنها الى اليمن ، فيمضون بها شوّالا يبتاعون فيه ما يريدون من تجاراتهم ثم يعودون الى أداء حجهم ، ويرجعون الى بلادهم وهم فى أمن على أنفسهم وأموالهم ، لان حركتهم كلها كانت فى الاشهر الحُرُم : لذلك تراهم يقولون رجب مضر ورجب ربيعة لتعيين وقت كل منهما . وربما وقع تحريم رجب فى شهر شعبان فى سنى النسىء ، فينادى الناسئ بذلك فى الموسم بقوله « اللهم انى أحللت رجب القادم وحرمت شعبان » . فمضى العرب على ذلك فى سنتها » . ولذلك فانهم يعبرون عن شهرى رجب وشعبان بالرجبين كما كانوا يعبرون عن المحرم وصفر بالصفرين .

والعرب كانت تنسئ الشهور حتى توفق بين السنين القمرية والشمسية فكانوا يؤخرون

سنتهم كل ثلاث سنين شهراً (هو تقريباً الفرق بين السنين القمرية والشمسية فى هذه المدة) . وكان السبب فى ذلك جعل زمن الحج ثابتاً فى فصل من فصول السنة كأحد الربيعين ، حتى يتيسر لهم القيام به فى غير وقت الحر أو البرد الشديدين ، وخصوصاً فى الزمن الذى تتوفر فيه مادتهم التى يتجرون بها من أصواف وأوبار وسمن ودهن وماشية ومافى معنى ذلك . وهذا كله لا يتوفر على الدوام فى شهر مخصوص من السنة القمرية كما لا يخفى .

وكان يتولى ذلك منهم النساءون وهم من بنى كنانة وكانوا يسمونهم القلامس . وقد ابتدأت مضر فى نسء الشهور فى القرن الثانى أو الثالث قبل الهجرة . وكانوا يعملون ذلك فقط فى آخر شهرى المحرم ورجب : فكانوا يؤخرون المحرم الى صفر أو رجباً الى شعبان فيكون شعبان رجباً ، والذى بعده شعبانا ، والشهر الذى بعده رمضانا وهكذا حتى يستوفوا كل أشهر السنة . وفى ذلك يقول شاعرهم :

ألسنا الناسئين على معد * شهور الحل نجعلها حراما

وبهذه العملية كانت السنة القمرية تدور معهم مرة فى كل ثلاثين سنة تقريبا . وفى سنة عشر للهجرة كانت شهور السنة القمرية دارت ورجعت الى أصلها فى مكانها الطبيعى من فصول السنة . فأشار الى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله فى خطبة الوداع بعرفة فى السنة المذكورة « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض » . وحرّم الله النسىء فى هذه السنة . فقال تعالى : « إنما النسىءُ زيادة فى الكفر يُضَلّ به الذين كفروا يُحلّونه عاماً ويحرّمونه عاما » .

والعرب كانوا يسمون شهر رجب بالفرد لعزلته عن الاشهر الحرم الاخرى . وربما كانوا يستعملون رجباً لحجهم الاصغر [1] يعنى العمرة ، وهم يقولون للآن الحج الرجبى ، ولا يزال هكذا يستعمل فى الموالد بعصر ، فيقال المولد الرجبى أى الاصغر . على أن عدة الاشهر الحرم كانت عند غطفان ثمانية أشهر فى السنة ، وكانوا يسمون ذلك البَسْل (بفتح الباء وسكون

(١) جاء في تفسير الآلوسى في الكلام عن قوله تعالى « الحج أشهر معلومات » انه الحج الاكبر وان الحج الاصغر هو العمرة .

السين) يعنى التحريم ، و فى ذلك يقول لهم اعشى بنى قيس :

أجارتكم بَسْل علينا مُحرّم * وجارتنا حِلٌ لكم وحليلها

ومعنى تحريمهم لهذه الشهور انهم كانوا يحترمونها ، و يلقون فيها السلاح ، و يتركون الغزو الذى كان عليه مدار حياتهم ، وهو لا يزال كذلك الى الآن فى كثير من أطراف جزيرة العرب . وكانت هذه الشهور كلها هدنة بين القبائل بأجمعها حتى لا يقف العداء حجر عثرة فى طريق الحاج منهم . ولذلك كانت العرب تستفضح من الحروب الاربعة التى وقعت لها فى هذه الاشهر ، و يسمونها بالفِجار أى التى فجروا فيها ، و فى ذلك يقول خداش بن زهير العامرى

فلا توعدينى بالفجار فانه * أحل ببطحاء الحَجون المخازيا

وقد أقر الاسلام الحرمة فى الاشهر الحُرُم : قال تعالى « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتالٌ فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله » . وسبب نزول هذه الاية أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش الى نخلة ، وأعطاه كتابا وأمره أن لا يفتحه الا بعد مسيرة يومين . فلما فتحه وجد فيه : « امض حتى تنزل بنخلة فأتنا من أخبار قريش بما اتصل اليك منهم » . فقال لاصحابه من كان منكم له رغبة فى الشهادة فلينطلق معى فانى ماض لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن كره ذلك فليرجع فان رسول الله قد نهانى أن أستكره منكم أحداً . فمضى معه القوم وكانوا ثمانية حتى نزلوا نخلة ، فمر بهم عمرو بن الحضرمى فى نفر من قريش ومعهم تجارة ، وكان ذلك آخر يوم من رجب ، فقتلوا ابن الحضرمى وأسروا رجلا من قومه وهرب بعضهم الى مكة ، ثم ساقوا العير فقدموا بها على المدينة ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » . ولما بلغ ذلك قريشا قدم منهم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أيحل القتال فى الشهر الحرام ؟ فنزلت هذه الاية الشريفة بتحريم القتال فى الاشهر الحرم . ثم نزل بعد ذلك قوله تعالى « فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » .

وكانت قبائل العرب تجتمع قبل الحج : أهل الشمال فى بدر ومجنة بمرّ الظهران : الذى هو على بعد نحو مرحلة من مكة الى الشمال الغربى . وأهل الجنوب فى ذى المجاز : وهو على مرحلة

من عرفة شرقا الى الجنوب . وأهل الشرق فى عكاظ : وهى واقعة فيما بين قرن المنازل والطائف ، وتبعد بمرحلتين كبيرتين عن مكة (مائة كيلومتر تقريباً) ، وقد اتخذها العرب سوقا بعد الفيل بخمسة عشر سنة واستمرت الى سنة ١٢٩ ه ، ثم أبطلت اكتفاء بسوق عرفة ومكة . وعليه فقد كانت هذه الاسواق (١) بمثابة معارض للتجارة ومؤتمرات للآداب ومكارم الاخلاق . وأظنك تحكم معى بأن العرب من أسبق الناس اليها ، بل سبقوا بها الحكومات المتمدنة بقرون عديدة .

نعم سبقهم اليونانيون الى مثل هذا الاجتماع فى الجنازيونات (Gymnasumes) التى كانوا يقيمونها لالعابهم ، وأخصها تلك التى كانت فى أولمبية فى القرن الثامن قبل المسيح

---

(١) وأشهر هذه الاسواق بعد عكاظ سوق دومة الجندل فى صحراء نجد ، ثم مجنة وذو المجاز . وقد كان للقوم غير ذلك مجالس خصوصية للمناظرة والمذاكرة والمحاضرة في كل حى من أحياء العرب . وكان فى مكة قبل الاسلام دار الندوة ونادي قريش بجوار الكعبة . فلما جاء الاسلام كان أغلب اجتماعهم فى المساجد : فكانوا يخطبون فيها وينشدون أشعارهم وكلها كانت حثاً على الفضيلة ومكارم الاخلاق . وكان القوم في المدينة يجتمعون في سقيفة بنى ساعدة لانها كانت لسعد ابن عبادة سيد الانصار ، وخطب أبي بكر وعمر بها يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أشهر من أن تذكر ، لما كان لها من التأثير الذى حفظ للاسلام كيانه ووطد بنيانه . ولاشتغال مركز الخلافة مدة الراشدين بالفتوحات ، كثرت بالكوفة والبصرة دور العلم بطبيعة الحال لقربها من مدنية الفرس وحضارتهم . وظهر الخط الكوفي بهما خصوصاً بعد أن وضع أبو الاسود الدؤلي الحركات ووضع لهم نصر بن عاصم الاعجام (النقط) فى ولاية الحجاج بن يوسف . وقد كانت الحروف العربية قبل ذلك منقوطة ، ولا حاجة لابداء الصعوبة التى كانت تعترى القراء في تعيين مثل الباء من التاء من الياء ، فكان ذلك أول خطوة في رقي الكتابة العربية فنشأ عن ذلك كثير من المشتغلين بها مما كان داعية لاهتمام الناس بالعلوم العربية من لغة ونحو ونثر ونظم والشرعية كالحديث والفقه وغير ذلك ، فظهر فيها كثير من العلماء والشعراء والخطباء . وكانت لهم فيها أندية للمناقشة والمفاخرة . وأكبرها كان في البصرة وهو المربد وكانوا يسمونها بعكاظ البصرة ، وفيه حصلت جملة مفاخرات بين الشعراء وعلى الخصوص بين جرير والفرزدق والراعي في مهاجاتهم بعضهم البعض . وكثيراً ما كانت هذه المفاخرات تحصل فى مجالس الخلفاء لاسيما فى زمن معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد وهشام بن عبد الملك . وكانت مجالس المنصور والمهدى والرشيد والمأمون ومجالس الخلافة فى قرطبة بالاندلس حافلة بمفاخرات الشعراء ومجادلات العلماء مما كان سبباً لشحذ القرائح ونمو المدارك وكثرة المباحث التى نضجت بها العلوم على اختلاف أنواعها وكانت سبباً لترقي الدولة الاسلامية في القرون الثلاثة الاولى الى أوج عرفتها وحضارتها وعمرانها .

وكان لهم تاج يسمونه بالتاج الأولمبي يُلبسونه لمن برّز فى هذه الالعاب ، التى كان الغرض منها تربية الجسوم وإعداد الامة لان تكون أمة حربية . ثم انتهى بهم الامر بعد ضخامة ملكهم أن استعملوا هذه المنتديات لعرض معلوماتهم وبنات أفكارهم . ومازالت حتى صارت تطلق الآن على دور التعليم فى أوروبا وخصوصاً فى ألمانيا . ومن هذا ترى أن أسواق العرب كانت أعم من أمثالها عند غيرهم .

وكانت سوق عكاظ تقوم فى صبح هلال ذى القعدة ، وقد قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة بعد البعثة لينشر فى القبائل دين الاسلام . وفيه تقابل صلى الله عليه وسلم بقُس بن ساعدة واحترمه كثيرا . وكانت عكاظ أكبر أسواق الجاهلية لانها تلى أكثر جهاتها سكانا وأعظمها قوّة ومنعة ، وكانوا يبيعون فيها ويشترون ويتناشدون أشعارهم ويتفاخرون بما لديهم من نسب عظيم وعمل خطير ، خصوصاً فى القرن الأوّل قبل الهجرة . وكان لهم مجلس تحكيم يعرف للناس مكانتهم وشجاعتهم وفصاحتهم وآدابهم ، وربما كان فيه العدوّ يشهد لعدوّه بالسبق من طريق الحق . وكثيراً ما كان هذا الاحتكاك السلمى يؤدى الى المصالحة بعد المكافحة فتنال الانسانية من وراء هذا الاجتماع خيراً كثيرا . وكانت كلمات السابقين من هؤلاء الشعراء تؤخذ وتعلق داخل الكعبة تكريماً لهم واشهاداً من الناس بأنهم من المفوقين . وأشهر هذه المعلقات وأكبرها بلاغة سبع [1] كان معظمها ولا يزال مدرسة لسموّ النفوس ومعالى الهمم وقد ترجمت الى كثير من اللغات الاجنبية ليتعرفوا منها كثيراً من عوائد العرب وأخلاقهم قبل الاسلام : وكانوا يسمونها بالمذهبات [2] .

(أنظر صفحة ١١٦ من الجزء الثالث من العقد الفريد لابن عبد ربه طبع بولاق)

(١) وأصحاب السبع المعلقات على ترتيب بلاغتهم هم : امرؤ القيس بن حجر ومات سنة ٩٤ قبل الهجرة . وزهير بن أبي سلمى ومات سنة ٥٢ ق ه . والنابغة الذبيانى ومات سنة ١٩ ق ه . وعمرو بن كلثوم ومات سنة ٢٣ ق ه . والحارث بن حلزة ومات سنة ٣٤ ق ه . وطرفة بن العبد ومات سنة ٨٤ ق ه . وعنترة العبسى ومات سنة ٨ ق ه . وبعضهم يلحق بأصحاب المعلقات أعشى قيس ، ولبيد الذى مات سنة ٥٤ هجرية وبشعره ضربت الامثال في الاسلام .

(٢) ذكر صاحب جمهرة أشعار العرب ان أصحاب المذهبات هم : حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ومالك بن عجلان . وقيس بن الخطيم . واحيحة بن الجلاح . وأبو قيس بن الاسلت . وعمرو ابن امرئ القيس . وكلهم من الاوس والخزرج .

فيقولون مذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير مثلا لانهم كتبوها بماء الذهب وعلقوها فى البيت الحرام، وبقى بعضها فيه الى يوم الفتح وحرق أغلبها فيما حرق من الكعبة قبل الاسلام.
ولم تقتصر هذه السُنة على الجاهلية بل وجدت فى الاسلام: فقد كتب هارون الرشيد عهدا بالخلافة الى ولده الامين من بعده ثم الى ولده المأمون، وأرسل به فعلق فى الكعبة الى زمن الامين فاستدعى به ومزقه. ثم صار بعد ذلك كل من قام بشرف الخدمة فى البيت الحرام من الملوك والسلاطين يتيمن بكتابة اسمه داخلها بجوار ذكر الأثر الذى له فيها.

ومازالت الكعبة محترمة فى الجاهلية حتى أتى الاسلام وجعلها الله فى السنة الثانية للهجرة قبلة للمسلمين حيثما كانوا (وكانوا يصلون الى بيت المقدس)، قال الله تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم «قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره». فكان كذلك، ومن ثم صارت الكعبة قبلتهم فى صلاتهم تتوجه اليها وجوههم، وتعنو لله فى قبالتها جباههم، فى أى نقطة كانوا من هذه الكرة الارضية، لا فرق بين شمالى وجنوبى وشرقى وغربى بعيد أو قريب، وبذلك أصبحت الكعبة عندهم مركز الدائرة التى يرتبطون بها جميعا بحبل دينهم المتين: دين التوحيد، دين المساواة، دين الاخاء، دين الحرية الصحيحة، ولها فى نفوسهم من الاجلال والاعظام مالا يقوى على تعبيره لسان، أو يتخيله جنان، لا فرق فى ذلك بين أهل مذهب ومذهب آخر. بل ترى المسلمين على اختلاف مذاهبهم يصلون حولها وراء أى امام كان: وهذا لا يدل فقط على التسامح الموجود بين المسلمين، بل فيه أكبر برهان على توحيد الغاية التى يرمون اليها فى عبادتهم، والتضامن الذى يجب أن يكون بينهم، وهذا التسامح لا نراه موجوداً بالمرة بين مذاهب الديانات الأخرى.

وقد جعل الله تعالى الطواف بالكعبة من فرائض الحج الذى هو فرض عين على كل مسلم يستطيع اليه السبيل فى أى زمان ومكان، وفرض كفاية كل سنة على عموم المسلمين يسقط بقيام البعض به فان أهملوه أثموا جميعاً.

ومن الغريب ان كل من يقع بصره لاول وهلة على الكعبة تراه فى دهشة كبيرة، لا لكون بصره وقع على شئ لم يتعود النظر اليه، ولكن لما يعتريه من الخشية والرهبة!! فترى هؤلاء

المشاهدين تأخذهم هزة كبيرة من هذا المنظر المهيب ، ومنهم من يقف لحظة فى مكان المتأدب المستكين المتصاغر امام هذه العظمة الكبرى ، ومنهم من يصرخ بصوت الخوف ولسانه يلهث بكلمات منفصلة عن بعضها ، ومنهم من يجهش بالبكاء فلا تسمع له غير نحيب يختنق معه صوته وتتقطع منه أنفاسه . وعلى كل حال فنسبة خوف الانسان من ربه على نسبة مع قوة دينه ومتانة يقينه .

— الطواف —

الطواف هو قطعك ما يحيط بالكعبة من دائرة المطاف سبع مرات وتسمى أسبوعا [١] و يقال لها أشواط و يشترط فى الطواف الطهارة التامة ، و ينبغى أن لا يكون فى يدك مثل نعال أو غيرها من الاشياء الوسخة . وتبتدئ كل شوط من الحجر الاسود ، فاذا حاذيته تقربت منه وقبلته ان أمكنك والا توجهت اليه قائلا : « اللهم انى نويت طواف بيتك المعظم سبعة أشواط فيسرها لى وتقبلها منى » ، ثم تسير مسلماً بيدك قائلا « بسم الله الله أكبر » . وتطوف جاعلا البيت على يسارك من وراء الحِجر و بعيدا عن الشاذروان .

والمطاف على شكل دائرة بيضاوية من الشمال الى الجنوب ، وقد فرشت أرضه بالرخام من مدة بعيدة ، وأصلحت مدة السلطان سليمان القانونى . وهو على حدود الحرم فى عهده عليه الصلاة والسلام . ومسافة ما بين آخره والكعبة من جهة الغرب والجنوب نحو ١٩ مترا ، ومن جهة الشمال والشرق نحو ١٢ مترا ، وفيه لصق البيت مما يلى باب الكعبة الى الشمال جزء

---

(١) بحثت فى كتب اللغة عن لفظ أسبوع فلم أجده ينصرف الا الى سبعة أيام الاسبوع أو الى سبعة أشواط . الطواف مع ان سبعات القوم كثيرة وقد مر بك شيء منها : فتبادر لذهني أن لهذه التسمية علاقة بين المسميين وأن القوم ربما كانوا يطوفون في أحد أيام الاسبوع سبعة أشواط لكل يوم شوطا وربما كان يدعوهم الى ذلك ضيق زمنهم الذى كانوا يستعملونه وهم بعيدون عن مكة فى الحصول على عيشهم فى هذه البلاد التي تضيق بطبيعتها عن القيام بحياة أهلها . فلما جاء الاسلام لم يفرق بينها ، وجعلها كلها واجبة ، ولم يجعل لها زمنا معينا يؤدونها فيه .

وأشواط الطواف سبعة من زمن بعيد يؤيده قول تبع حسان ملك حمير .

ثم طفنا بالبيت سبعاً وسبعاً ❊ وسجدنا عند المقام سجودا

انظر داليته فيما يأتي من هذا الكتاب وهي التي وصف فيها ذهابه الى مكة فى القرن الثالث قبل الهجرة بقصد هدم الكعبة ورجوعه عن فكره واحترامه لها وكسوته اياها وطوافه حولها .

مربع منحط عنه ، سعته نحو مترين من كل جهة يسمى المعجن : وهو ما كان يعجن فيه اسماعيل المؤنة التي كان يستعملها ابراهيم في بناء الكعبة وقد وجدنا فيه كتابة محفورة في قطعة من الرخام مثبتة في الشاذروان هذه صورتها « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة المطاف الشريف سلطان الانام الامام الاعظم ، المفروض الطاعة على سائر الامم ، أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله آماله ، و زين بالصالحات أعماله ، في شهور سنة ستة وثلاثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله » .

وعليه فقطر دائرة المطاف من الشمال الى الجنوب نحو ٥١ مترا ، ومن الشرق الى الغرب نحو ٤١ مترا ، والكعبة تقريباً في وسطها . فاذا اعتبرنا أن متوسط ما يقطعه الطائف حول الكعبة مائة متر في كل مرة ، ففي السبعة الاشواط يقطع سبعمائة متر . واذا عرفت ان الحاج يطوف مرات متعددة في اليوم الواحد أقلها مرة قبل كل صلاة من الصلوات الخمس أو بعدها ، علمت أن الحاج بين شاب وشائب وصبي ذكر أو أنثى يقطع في طوافه اليومي على رجليه نحو أربعة كيلومترات على الاقل ، بل منهم من يقطع أضعاف ذلك قبل و بعد الصلاة الواحدة .

وذكر ابن بطوطة في رحلته انه رأى وزير غرناطة وكبيرها أبا القاسم محمد الازدي يطوف كل يوم سبعين أسبوعا ، ولم يكن يطوف وقت القيلولة لشدة الحر : فكأنه كان يقطع في طوافه كل يوم سبعين كيلومترا .

وللطواف مرشدون يقال لهم المطوفون . ولكل مطوف حجاج مخصوصون على حسب تغاير البلاد وتقاسيمها : فترى للاتراك أو الهنود أو البخاريين أو المصريين مثلا مطوفين خصيصين بهم ، بل لكل قسم من أقسام البلاد مطوف معلوم يتوارث عن أبيه خدمة حجاجه ، تعينه امارة مكة لهذا الغرض ، وكانوا قبيل الدستور كالملتزمين يحتكر كل منهم رسمياً صنفا من أصناف الحجيج لا يمكنه أن يتعداه الى غيره ، لانهم كانوا يشترون من أصحاب السلطة بمكة هذه الالتزامات : ولذلك كان لبعضهم سلطان على حجاجهم يأمرون فيهم وينهون ولا تأخذهم فيهم شفقة ولا رحمة ، حتى اذا جاء الدستور أزال هذا التحكير ،

وأطلق الحرية للحجيج يطوفون مع أى شخص أرادوا .

وكيفية التطويف أن يجمع المطوف فى الغالب حجاجه قبل الصلاة أو بعدها و يسير هو أو واحد من صبيانه على رأس كل جماعة منهم ، فيطوف بهم حول الكعبة وهو يتلو أدعية الطواف بصوت عال ، فترد عليه الجماعة التى تتبعه . و ربما كان المطوف ولدا صغيرا لا يزيد عمره عن ست سنين أو سبعة : فيحمله بعض الطائفين على عاتقه و يطوف به وهو يلقنهم الدعاء على هذه الحالة . ومن الطائفين من يطوف وحده و يكون دعاؤه بينه و بين ربه .

و بعد صلاة الصبح والعشاء على الخصوص ترى المطاف مزدحماً بجماعات الطائفين بحيث لا يمكن أن يتحرك الرجل الا بحركة المجموع من كثرته . فاذا حاذوا الحجر الاسود انقض بعضهم عليه لاستلامه ولا يزال يزاحم بمنكبيه حتى يصل اليه . ولكن البعض الآخر يكتفى بالاشارة من بعد وخيراً فعل . ومن لم تكن لهم قدرة على المشى من الطائفين يجلسون فى محفة يحملها أربعة على رؤوسهم أو أكتافهم و يطوفون بهم حول الكعبة ، وأغلب هؤلاء من الهنود وخصوصاً البنغاليين أو الجاويين : لان سواد حجاجهم ممن جاوز والثمانين ، يأتون الى هذه الاماكن المقدسة رجاء موتهم بها ، وهم يرون فى ذلك كل سعادتهم و يعملون له طول حياتهم : لذلك تجد هذين الجنسين بؤرة الامراض التى تتفشى فى الحجيج لان حالتهم الصحية تتأثر بأى مؤثر بسيط وليس فيهم من القوة ما يقوى على دفعه و ربما كانت حالتهم المعاشية تساعد الامراض بالف يد على الفتك بهم !!

ولقد ذكر أهل السنة للطواف فضائل كثيرة وحثوا على الكثرة منه ، وقالوا ان لم يتيسر للانسان ذلك فانه يجمل به أن يجلس فى المسجد مستقبلا الكعبة مشاهداً فيها .

و بعد الطواف يذهب الطائف الى حِجْر اسماعيل فيصلى به ركعتين سنة الطواف يختمه بهما ، وان لم يستطع ففى مقام ابراهيم . وهو قبة قامت على أربعة أعمدة وأحاطت بها مقصورة نحاسية مربعة يبلغ طول كل ضلع منها نحو ثلاثة أمتار وستين سنتيمترا وهى على آخر المطاف تجاه باب الكعبة وفى داخلها الحجر الذى كان يقف عليه ابراهيم حال بناء الكعبة ، وبه أثر يقال انه أثر قدميه ، وذُكِرَ أن أثر قدمى ابراهيم فى هذا الحجر انما كان باستناده عليه عند زيارته لمكة

بعد بناء الكعبة ، وكان هذا الحجر قبل الاسلام موضوعا بالمعجن الى جوار الكعبة ثم أبعد عنها بعد الفتح حتى لا يكون هناك أثر للوثنية بالمرة ، ودفن بمكانه الحالى ، وبنى عليه فيما بعد القبة الحالية ، ويقولون ان تحته آلة البناء التى كان يعمل بها ابراهيم فى الكعبة . والعرب قبل الاسلام كانوا يعتقدون فى هذا الاثر ويحترمونه بل يقدسونه ، وهو المقصود بقول أبى طالب فى لاميته :

وموطئ ابراهيم فى الصخر رطبة (١) * على قدميه حافياً غير ناعل

وربما أخذ العرب قبل الاسلام هذا الاثر من أثر القدم الذى بقبة الصعود بجبل الزيتون بالقدس الشريف ، ويزعم النصارى أنه لعيسى عليه السلام وهم يقدسونه ويحترمونه . ومن ذلك أتى احترام المسلمين لآثار تلك الاقدام التى ينسبونها الى النبى عليه الصلاة والسلام : كما تراه فى قبة السيد البدوى فى طنطا ، وفى جامع المؤيد ، ومسجد قايتباى بالقاهرة ، وفى قبة الآثار النبوية فى الاستانة ، وفى خزانة الآثار النبوية بقبة الصخرة ببيت المقدس ، وفى مسجد ابراهيم بحبرون . وعلى صخرة بيت المقدس آثار أقدام غير منتظمة يدعون أنها آثار أقدام الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أسرى به ، والى جوارها أثر قدم ينسبونه الى سيدنا إدريس عليه السلام ، والمسلمون هناك يقدسونها جميعاً كما يقدسون أثر قدم عيسى التى تراها فى محراب على يمين منبر المسجد الاقصى ، ويقول النصارى ان المسلمين فصلوها عن أختها التى فى قبة الصعود ووضعوها بمكانها هذا . ويقال ان فى محطة قدم التى فى جنوب دمشق أثر أقدام غائصة فى الصخر ينسبونها الى موسى عليه السلام وذكرها ابن جبير فى رحلته . وقد رأيت فى الفصل الرابع والثلاثين من كتاب محاضرة الاوائل للسكتوارى ان أول موضع اهبط الله فيه آدم جبل سرنديب ، وفيه أثر قدم آدم عليه السلام غائص فى الصخرة طوله سبعون شبراً الخ ؟ ؟ ؟ وعليه فلابد أن تكون فكرة تلك الاقدام أخذتها العرب عن اليهود أو الهنود ان لم يكونوا أخذوها عن المسيحيين وبقى أثرها فى المسلمين الى الان .

ولمقام ابراهيم كسوة من الحرير المزركش بالقصب تأتى اليه سنويا من مصر مع كسوة الكعبة . ويتصل بمقصورته من الشرق سقيفة على طولها ، بعرض متر وثمانين سنتيمتراً ،

---

(١) وفى رواية وطئة

يزدحم الناس لصلاتهم فيها ركعتى الطواف ، ثم يذهبون الى قبة زمزم . وباب هذه القبة الى الشرق وفيها بئر زمزم المشهورة وخرزتها من الرخام من عمل السلطان سليمان وهى مرتفعة عن سطح الارض بنحو متر ونصف ، ومن دونها حوض يصب الملاءون فيه بدلائهم ، ومن هذا الحوض يملأ السقاءون جرارهم، الا ما كان لخاصة القوم فانه يملأ مباشرة من الدلاء الخارجة من العين . وهذه الحركة لا تكاد تنقضى فى مدة الحج أبداً . وللحجيج اعتقاد كبير فى ماء زمزم و يتهادون به فى آنية من الصفيح أو الدوارق المختومة . و يزعم أهل مكة انه نافع لكل شئ بدليل حديث « ماء زمزم لما شرب له » . و يدعى بعضهم أنه يشرب به اتقاء الجوع فيشبع ، وأظن ان خدمة العين يبالغون فى فوائده مبالغة يتجسم معها الوهم عند شاربيه . ومن ذلك يقع طعمه من أذواق الناس على نسبة اعتقادهم فيه : فنهم من يقول انه لا يعادله شئ فى لذته ، ومنهم من يرى انه أحلى من العسل وألذ من اللبن ، و يرى غيرهم خلاف ذلك قال المعرى :

تباركت أنهار البلاد سوائغ * بعذب وخصت بالملوحة زمزم

والذى يفهم من ظاهر الحديث المذكور أن هذا الماء نافع لما شرب له من الادواء التى من طبيعته اشفاؤها، و يفسره بذلك حديث « انها شفاء سقم » . وحقيقة فانه ماء قلوى تكثر فيه الصودا والكلور والجير والحامض الكبريتيك وحمض الازوتيك والبوتاسا، مما يجعله أشبه شئ بالمياه المعدنية الصحية فى تأثيرها، و يفيد قليله ولا تخلو الكثرة منه من الضرر، خصوصاً فى غير موسم الحج حيث تكون بئرها مهجورة : لان أهل مكة لا يشربون منها لملوحتها . وفى هذه الحالة يزيد فيها الحامض الازوتيك بدرجة تجعل ماءها غير صالح للشرب . وربما كانت نصيحة بعضهم بالتضلع (كثرة الشرب) منها بعد طواف القدوم ، لتأثيرها على الجهاز الهضمى بما ينظفه من المواد التى تكون قد انفرزت اليه مدة هذا السفر الشاق ، مما يكون نتيجته رد فعل تنشط به الاعضاء وتصح الجسوم . وقد قال الاطباء ان هذا الماء نافع للكلى والمعدة والامعاء والكبد .

ولفضل ماء زمزم وشدة اعتقاد الناس فى بركته ، تجرأ بعض خدمة المساجد فى مصر ،

وادعى تغريرا بالجهلاء من المسلمين بان عين الماء التى عنده فى مسجده لها منفذ على عين زمزم بمكة (كما هى الحال فى شهرة العين التى بمسجد الحنفى بالقاهرة !!) و يثبتون هذه الاكذوبة بغريبة أشنع منها !! فيقولون ان رجلا من مصر كان حاجا فسقطت طاسة من يده فى بئر زمزم فلما حضر الى القاهرة عثر عليها فى تلك العين ! ولهذا ترى كثيرا من الناس يتبركون بها و يستشفون بمائها .

ولقد بلغ من اعتقاد الناس فى عين زمزم (وخصوصا الدكارنة والهنود) أنهم يأتون بقطع طويلة من القماش و يغرقونها فى مائها ثم ينشرونها على حصباء صحن الحرم ، حتى اذا جفت حافظوا عليها وأوصوا بها لتكون كفنا لهم عند مماتهم . و بلغ من اعتقاد بعضهم فيها أنهم يرجون أن تكون هذه البئر المقدسة مقبرة لهم ، حتى يكون لهم من بركتها وعالى مكانتها مقام كبير فى حياتهم الاخرى !!! ولقد حدث فى سنة ١٣٢٦ ھ ان القى بعض الهنود بنفسه فيها حياً على غرة من خدمتها ، فاهتم الناس لهذا الأمر واستدعوا بالغواصين من جدة للبحث عن جثته ، ولم يعثروا عليها الا بعد عناء شديد . فاخرجوها ونزحوا من البئر كمية كبيرة صلح معها ماؤها ، أما هذا الجاهل فقد ذهب ولا أدرى الى رحمة الله أو الى نقمته !!

ولقد أجمعت التواريخ العربية ان مبدأ ظهور هذه العين من عهد قدوم هاجر مع ولدها اسماعيل الى مكة فكانت سبباً لعمارتها . وقد غاضت مياهها زمنا طويلا ولذلك يسمونها المضنونة ، و بقيت هكذا الى زمن عبد المطلب فحفرها ، واهتم بتوسعتها و تعميقها أبو جعفر المنصور والمأمون وغيرهما ، ولا تزال محل عناية الملوك والسلاطين الى الآن .

والأعراب يكادون يلصقون زمزم بنفس أركان الحج : فان الشخص منهم يضيف زمزم الى البيت الذى يحج اليه فى نفس الأمر ، واذا حلف فانه يقدم زمزم على مقام ابراهيم فى قسمه فيقول « والبيت الحرام و زمزم والمقام ما فعلت كذا مثلا » . وهذا قسم تصعد معرفتنا به الى معرفتنا بالعرب من عهد اسماعيل ، لذلك ترى الحجاج من الأعراب يدخلون الى زمزم جماعات و زرافات آخذين فى صدورهم كل من كان فى طريقهم ، حتى اذا وصلوا الى الحوض الذى بجوار البئر نزحوا ما فيه على رؤوسهم ، فيسيل الماء على ثيابهم الى أن تبتل

جميعها ، ثم يخرجون فرحين مستبشرين تظلهم عصى خدمة العين التى لا تؤثر فيهم بالمرة دون القيام بهذا الواجب الاقدس .

وليس الاعتقاد فى مثل ماء زمزم خاصا بالمسلمين فان للهنود اعتقاداً عظيما فى نهر الكنج و بحيرة مادن . والنصارى يعتقدون فى ماء الاردن الذى يبعد بنحو عشرين كيلومترا الى شرق بيت المقدس و يسمونه نهر الشريعة لذلك ترى حجاجهم يذهبون اليه ، و يتبركون بالاستحمام به فى المكان الذى تعمد فيه المسيح ، و يأخذون من مائه فى آنية من الصفيح يتهادون بها عند عودتهم الى بلادهم . وأكثر النصارى اعتقادا فى ذلك الروسيون والاقباط أما الافرنج فاعتقادهم فى ماء لورده (Lourdes) فى جنوب فرنسا لا يقل عن اعتقادهم فى ماء الاردن .

﴿فشل الامراء والملوك في تحويل الناس عن الكعبة﴾

مما سبق ترى أن الكعبة مشرفة فى الجاهلية مشرفة فى الاسلام . لذلك اجتهد غير واحد من الملوك قبل و بعد الاسلام فى تحويل العرب عن وجهتهم للكعبة الى شئ غيرها . وأول ما نذكر من ذلك أن تبع ابن حسان ملك ملوك حمير ، وهو عائد من حرب الاوس والخزرج بيثرب ، أراد هدم الكعبة وكان يهوديا فمنعه من ذلك من كان معه من أحبار اليهود ، فكساها وعاد الى بلاده . وقد كانت غطفان بنت حرما مثل حرم مكة فى القرن الاول قبل الهجرة بقصد تحويل العرب اليه ، وقد كان على العرب ملك اسمه زهير بن حباب ، فلما بلغه ذلك قال لا والله لا يكون ذلك أبداً وأنا حى ثم نادى فى قومه وقال لهم ان أعظم مأثرة تدخرها عند العرب أن تمنعهم من ذلك فأجابوه الى مراده وجرى بينهما قتال شديد ظفر فيه زهير وأبطل حرمهم . وفى نحو سنة ٦٠ قبل الهجرة ، دخلت جيوش الحبشة الى اليمن انتقاما من ذى يزن ملك حمير الذى كان يفتك بنصارى نجران من قومه ، فغلبوه على أمره وأخذوا البلاد ودانت لهم رقاب أهلها . ثم تفرد ابرهة الاشرم بالحكم فيها ، و بنى فى صنعاء القليس (الكليسه) ، وأراد أن يحول اليها حج العرب فسار بجيوشه الى هدم الكعبة . فلما وصل الطائف عرج على مكة ، و بعث من ساق اليه أموال أهلها وفيها مائتا بعير لعبد المطلب . فأتى

أبرهة وطلب منه أن يردها اليه . فقال له أبرهة « أتكلمني فى إبلك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك وأنت تعلم أنى انما جئت لهدمه ؟ » فقال عبد المطلب « أنا رب الابل وللبيت رب يحميه » . فأعطاه أبرهة ابله فساقها هديا، ودخل عبد المطلب مكة وهو يخاطب أهلها بقوله :

يا أهل مكة قد وافا كم ملك * مع الفيول على أنيابها الزرد
هذا النجاشي قد سارت كتائبه * مع الليوث عليها البيض تتقد
يريد كعبتكم والله مانعه * كمنع تبع لما جاءها حرد (١)

و زحف أبرهة على مكة ، فلما وصل قريبا من المزدلفة عند جبال يسمونها جبال النار وجد نوعا من الطير الابابيل (٢) قد حلق على الجو وأخذ يرميهم بحجارة من سجيل «طين» بمقدار حبة العدس ، فلما وصلوا مكة فشا فيهم داء الجدرى الذى أصابهم ولا شك من مكروب كان كامنا فى الحجارة التى كانت تتساقط عليهم من تلك الطيور: و يؤيده قول عكرمة « ان من أصابته الحجرة جدرته » . ولعل هذه الحجارة كانت فى بيئة مجدورة فى بلاد العرب أو فى غيرها، فتشربت من هذه المكروبات وحملتها الطيور الى هذه الجهة فكان منها ما كان . وكان مع جيش الحبشة ذلك الفيل الشهير عند العرب باسم محمود، وهو لفظ يصح أن يكون هنديا ان لم يكن مغوليا كان يطلق على نوع عظيم الخلقة من الفيلة ولا يزال هكذا مستعملا فى اللغات الافرنكية (Mamouth) ، فارادوا سوقه على مكة فلم يتمكن من الحركة الهاومات ، و يقال انه دفن بمكانه المشهور بباب جرول الذى يخيم عنده المحمل المصرى ، وكانت له قبة كسرها الشريف عون الرفيق . ولما رأى أبرهة كثرة الامراض التى تفتك بقومه هرب وتشتت شمل جيشه، وصادف قومه السيل فاغرق أغلبهم، وهلك الباقى فى شتاته و لم يصل منهم الى اليمن الا من أخبر بحادثهم . وكان ذلك فى عام ولادته صلى الله عليه وسلم، والعرب تسميه عام الفيل ،وكانت تؤرخ به الى الهجرة : فيقولون وقع الامر

(١) حرد يعني غضبان .

(٢) وهو مثل صغار العصافير السوداء ونوعه لا يزال موجوداً بالحرم يعيش في قبابه. وهو معروف في مكة باسم أبابيل، ويطلقونه على المفرد والجمع. وهو ما ذهب اليه أبو عبيدة والفراء حيث قالا لا واحد له من لفظه . وقال بعضهم مفرده ابيل كسكين أو أبال كغراب أو اباله بتشديد الباء وتخفيفها . وقال آخرون ان أبابيل وصف للطير بمعنى جماعات .

الفلاني قبل الفيل أو بعده بخمس سنين مثلا . وذهب ابن الكلبي الى أن واقعة الفيل كانت قبل ولادته صلى الله عليه وسلم بثلاث وعشرين سنة .

ولقد ذكر المؤرخ اليوناني مالالاس (Malala) في تاريخه الذي طبع في اكسفورد سنة ١٦٩١م، «ان أبرهة الاشرم في حملته على مكة كان يركب عربة يقودها أربعة من الفيلة» وقد قال ابن الزبعرى أبياتاً يشير فيها الى هذه الحادثة منها هذان البيتان:

سائل أمير الجيش عنا ماترى * ولسوف ينبي الجاهلين عليمها

ستون ألفا لم يؤوبوا أرضهم * بل لم يعش بعد الاياب سقيمها

ومرض الجدري ما كان يعرف ببلاد العرب قبل هذا الوقت . وذكر المؤرخ بروكوبيوس (Procope) الذي ولد سنة ٥٠٠ من الميلاد ووصل الى رتبة الوزارة في القسطنطينية في سنة ٥٦٢، ان أول ظهور الجدري في مصر كان سنة ٥٤٤ للميلاد في مدينة بيلوسيوم : وهي مدينة عظيمة أطلالها بين بورسعيد ودمياط للآن ، ونقلت جراثيمه الى القسطنطينية سنة ٥٦٩ وهي نفس السنة التي ظهر فيها المرض في جيوش أبرهة حول مكة، ولا يبعد أن الرياح أو الطيور نقلت اليها مكروبها في تلك الاثناء ، فكان منها ما كان . ولا شك أن قوله هذا حجة لان مصر كانت لذلك العهد من أعمال الامبراطورية الرومانية . ويؤيد ذلك ماقاله الرحالة بروس (Bruce) الايقوسي في رحلته الى بلاد الحبشة فيما بين سنتي ١٧٦٨ و ١٧٧٢ م التي كتب فيها عن كثير مما عثر عليه من الامور التاريخية والجغرافية والتاريخ الطبيعي ، وذكر فيما ذكره أنه رأى في كتب الحبشة ان أبرهة رفع الحصار عن مكة للمرض الذي أصاب جيشه اذ ذاك ، واستنتج من صفاته أنه مرض الجدري الذي انتشر من ذلك الوقت في الشرق وأخذ يفتك في الناس فتكا مريعا ، حتى ألف فيه الرازي رسالته المشهورة في الجدري والحصبة . وهذه الرسالة لها قيمة كبرى عند أطباء الافرنج للآن خففت من مصابه كثيراً ، غير أن هذا المرض الخبيث ما زال يفتك ببني الانسان حتى اخترع الاستاذ (جونر) (Jonner) الانكليزي مادة تلقيح الجدري وأشهر أمرها سنة ١٧٦٩م وباستعمالها خفت هذه المصيبة وأصبحت لا أثر لها تقريبا في البلاد المتمدنة ، الا أنها لا تزال موجودة بكثرة في البلاد العربية لعدم العناية بها . لذلك يجدر

بكل من قصدها أن يلقح جسمه بهذه المادة قبيل سفره اليها . ومن أعجب ما شاهدت بالبلاد العربية عناية صاحب الجمل السليم بعدم قطره مع جمل أجرب خوفا من سريان العدوى اليه ، فى حين أن العرب أنفسهم لا يهتمون بفصل الاجرب من بينهم عن اخوته الاصحاء الذين لا يعتمون ان يصير واطعمة لهذا الداء المهلك !!! ولله فى خلقه شؤون .

وفى أيام المقتدر العباسى ظهرت فى العراق طائفة القرامطة ، وهم قوم ينسبون الى موالاة محمد بن الحنفية بن على كرم الله وجهه ، ويكفرون من لم يكن على مذهبهم . وأول من ظهر منهم أبو طاهر القرمطى ، وقد بنى دارا فى هجر [1] سماها دار الهجرة ، وأراد أن ينقل الحج اليها : لذلك كان يقصد الطرق الموصلة الى مكة ويفتك بحجاج بيت الله الحرام ، فانقطع الحج فى أيامه خشية منه . وسار القرمطى الى مكة فى عسكر كثيف أيام الحج ودخل بخيله ورجله الى الحرم ووضع السيف فى الطائفين والعاكفين والركع السجود على بغتة منهم ، وقتل فى مكة وشعابها نحو ثلاثين ألفا واقتلع باب الكعبة وجرده مما كان عليه من صفائح الذهب ، وأخذ جميع ما فى خزينة بيت الله الحرام من المجوهرات الثمينة ، واقتلع الحجر الاسود من مكانه ، وانصرف به الى بلاده بعد أن هدم قبة زمزم !! وبقى مكان الحجر خاليا يتبرك الناس بمحله ، وبعد موت أبى طاهر رأى قومه أن من المستحيل تحويل الحج عن الكعبة الى بلادهم . فقام شنبر بن الحسين القرمطى بالحجر الى مكة ، وكان يحيط به بروازمن الفضة يضبط بعض القطع التى تكسرت منه حين قلعه ، فوضع فى مكانه على الحالة التى تراه عليها الآن .

وفى سنة ٤١١ دخل رجل الحرم بصفة درويش وضرب الحجر بعمود من حديد كان معه . فقامت عليه الاهالى وقتلوه شر قتلة . وكانت قد تطايرت من الحجر ثلاث قطع مثل ظفر الانسان فاخذت والصقت فى مكانها بحيث لا يمكن ملاحظتها . ويزعمون أن الحاكم بأمر الله الفاطمى هو الذى كان أرسل ذلك الرجل حتى اذا كسر الحجر الاسود أمكنه تحويل وجهة المسلمين عن الكعبة الى مسجده بجوار باب الفتوح بالقاهرة .

ولقد ذهب بعضهم الى ان اهتمام عبد الملك بن مروان بعمارة بيت المقدس بالفخامة التى

(١) قرية مشهورة من أعمال البحرين .

كان يعمره بها، انما كان لصرف مسلمي الشام ومصر وما والاهما شمالا وغربا الى حجهم اليه اذا تمت الغلبة لابن الزبير على بلاد الحجاز. كما زعموا أن المنصور العباسي لما بنى مدينة بغداد وشيد فيها قصره المشهور بقصر الذهب بنى الى جواره القبة الخضراء وبالغ فى زخرفها ليولى وجوه الناس شطرها، وهي تهمة لا نراها فى مكانها لما نعتقده من كمال دينهما ومتانة يقينهما رحمهما الله .

هذا وانى أظن أن ما يجرى للآن على لسان بعض السذج من فلاحى مصر من أنه يجئ يوم ينقطع فيه طريق الحج الى مكة، وعندها يحج الناس الى مقام السيد البدوى فى طنطاء انما كان أثرا سياسيا لبعض ملوك مصر يقرب به الى الوهم امكان حصول ذلك، حتى اذا سنحت له الفرصة مضى فى سبيلها . ومع زوال هذه الفكرة بزوال صاحبها فان هذا الاثر السئ بقى على السنة بعض السذج للآن !! ومن هذا تلك الجرأة التى ذهبت بتسمية بعضهم لقبة الميضاة التى نراها فى وسط صحن مسجد ابن طولون فى القاهرة بالكعبة، ولا أدرى اذا كانت هذه التسمية قديمة على عهد ابن طولون فنشك فى علتها أو من وضعيات بعض الجهلاء فنرجو الله أن يغفر ها له .

لهذا كله نرى خدمة الكعبة الشريفة كلهم عيونا تباشر حركة الطائفين حول الكعبة المكرمة وخصوصا الاعجام الذين ينسب لهم أهل مكة ظلما أنهم لا يتأخرون عن تدنيس الحجر الاسود اذا سنحت لهم فرصة تمكنهم من ذلك، ويقولون انهم دنسوه فى سنة ١٠٨٨ وفى سنة ١١٤٣ وفى سنة ١١٥٥ حتى يصرفوا الناس عنه، وهو أمر ان لم يكن بعيدا عن الصحة فلا شك فى أنه مبالغ فيه : والسبب فى ذلك هو كراهية أهل مذهب لمذهب آخر، يؤيده ما قاله العصامى فى تاريخه من أنه رأى بنفسه القذارة على الحجر وعلى أستار الكعبة فى سنة ١٠٨٨، وظن أنها عجينة من دقيق العدس كان الغرض منها الايقاع باهل الشيعة .

أما ما حصل فى سنة ١١٥٥ فاصله سياسى محض : ذلك ان ملك الفرس نادرشاه طومان أرسل الى الشريف مسعود فى تلك السنة يطلب منه ضرورة اقامة صلاة خامسة فى

الحرم للشيعة . فارسل الشريف بالخبر الى الدولة العلية فاتهمته بانه مشايع للاعجام . فتخلصا من هذه التهمة اتهمهم هو بهذه الفعلة الشنعاء حتى يوغر عليهم صدور الناس وأمر بان تلعن الرافضة على المنابر ولا يزالون يلعنونهم عليها فى الحرمين الى الآن !!!

هدايا البيت الحرام

لعظم مكانة بيت الله الحرام عند الناس كانوا يتقربون اليه قديما وحديثا بالهدايا الجزيلة والهبات الجليلة والحلى الفاخرة . فكانت تحفظ أولا فى بئر فى الكعبة يسمونها غبغب (١) أو عبعب ، ولكن سدنتها كانت تلتهمها أولا فأولا . ومما وصل من هداياه القديمة الى عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم غزالان وسيفان من ذهب ، كان ساسان (٢) ملك الفرس أهداها الى الكعبة (انظر تاريخ ابن خلدون) فضرب بهما صفائح وصفح بهما بابها .

فلما كان عبد الله بن الزبير حلى أساطينها بصفائح الذهب . وأرسل عبد الملك بن مروان بثلاثين ألف دينار الى عامله على مكة ، خالد بن عبد الله القسرى ليحلى بها باب الكعبة والاساطين التى فى جوفها وأركانها من الداخل . وزاد فى ذلك ولده الوليد فى عمارته للمسجد الحرام . وأرسل الرشيد الى عامله على مكة سالم ابن الجحاج ثمانية عشر ألفا من الدنانير فضربها صفائح سمرت على الباب ، وجعل مساميرها وحلقتى الباب وعتبتها من الذهب . وذكر ان المتوكل العباسى عمل زاوية من زوايا الكعبة بالذهب (ولعلها كانت تشققت فملأ هاذهبا يربط به طرفيها ، ولا يخفى ان هذه المادة تستعمل الآن لمتانتها فى ربط الاجزاء الثمينة بعضها ببعض) ثم كسا عتبة الباب بالفضة ، وعمل له عضادتين من الذهب بدل اللتين أخذهما بعض

(١) الغبغب فى اللغة المنحر ولا يبعد انهم كانوا ينحرون على حافته قرابينهم فى الجاهلية ولما جاء الاسلام سدت هذه البئر وأزيل ما حولها من الاصنام والانصاب والازلام .

(٢) ساسان هو رأس الدولة الساسانية التى حكمت بلاد الفرس من سنة ٢٢٥ ميلادية الى سنة ٦٥١ التى استولت فيها العرب على بلاد العجم .

أمراء مكة . وذكر أيضا أن أم المقتدر العباسى أمرت فى سنة ٣١٠ فالبست جميع اسطوانات البيت ذهبا . حتى اذا دخلت القرامطة سنة ٣١٧ الى مكة جردت البيت من جميع ما كان به من الحلى والذخائر .

وفى سنة ٥٥٢ اقتلع الخليفة المقتفى باب الكعبة وصنع عوضه بابا مصفحا بالذهب وعمل من القديم تابوتا ليدفن فيه بعد موته .

وقد كانت أيدى السلاطين والأمراء والملوك لا تقف فى أى زمن من الازمان عن تقديم الهدايا النفيسة الى بيت الله الحرام ، كما كانت يد الاشقياء لا تقف عن التطاول اليها ! سواء فى ذلك حجبتها أو غيرهم !! وممن جدد بعض الحلى التى عبث بها هؤلاء الاشرار كثير من الملوك والامراء نخص بالذكر منهم السلطان الناصر قلاوون ثم السلطان سليمان القانونى ثم السلطان مراد الرابع .

كسوة الكعبة

أما كسوة الكعبة فهى من زمن بعيد . وأول من كساها تبع أبو كرب أسعد ملك حمير ، حين مر عليها راجعا من غزوته ليثرب سنة ٢٢٠ قبل الهجرة : كساها بالبرود المقصبة وعمل لها بابا ومفتاحا وفى ذلك يقول مفتخرا :

ورد الملك تبع (١) وبنوه * ورثوهم جدودهم والجدودا
اذجبينا جيادنا من ظفار (٢) * ثم سرنا بها مسيرا بعيدا
فاستبحنا بالخيل ملك قباذ (٣) * وابن اقلود (٤) جاءنا مصفودا

(١) تبع لقب كان يطلق على ملك ملوك حمير وهو فى قوة لفظ امبراطور الآن .

(٢) ظفار كانت مدينة عظيمة من مدن اليمن واطلالها باقية الى الآن فيما بين عدن وصنعاء ولها اقليم يسمى الى الآن باسمها .

(٣) ملك من ملوك العجم . (٤) لعله أمير من أمراء العراق أو الشام .

فكسونا البيت الذى حرم الله ملاء مقصباً وبرودا
وأقمنا به من الشهر عشرا * وجعلنا لبابه اقليدا (١)
ثم طفنا بالبيت سبعا وسبعا * وسجدنا عند المقام سجودا

وتبعه خلفاؤه فكانوا يكسونها بالجلد والقباطى (قماش مصرى) زمنا طويلا. ثم أخذ الناس يقدمون اليها هدايا من الكساوى المختلفة فيلبسونها على بعضها، وكان اذا بلى منها ثوب وضع عليه ثوب آخر الى زمن قصى، فوضع على القبائل رفادة لكسوتها سنويا واستمر ذلك فى بنيه. وكان أبو ربيعة بن المغيرة قبل الاسلام يكسوها سنة وقبائل قريش تكسوها أخرى فسمى بذلك العدل لعدله بين قبائل قريش فى كسوة الكعبة. وقد كساها النبى صلى الله عليه وسلم بالثياب اليمانية. ثم كساها عمر وعثمان وابن الزبير وعبد الملك بن مروان. ولما حج الخليفة المهدى العباسى سنة ١٦٠، كان على الكعبة جملة كساوى فشكا اليه سدنتها من كثرتها فأمر بها فأنزلت تخفيفا عن سقفها، وأمر بان لا تعلق عليها الا كسوة واحدة فكان كذلك الى الان. أما كسوتها من الداخل فقد ورد فى محاضرة الاوائل للسكتوارى أن أول من كسا البيت بالديباج والدة العباس بن عبد المطلب حين ضل العباس صغيرا فنذرت ان وجدته لتكسون الكعبة فوجدته ففعلت.

وكان العباسيون يبالغون فى العناية بكسوتها، وكانت من الحرير الاسود (وهو شعارهم)، وكانوا يعملونها بمدينة تنيس المصرية التى كانت لها شهرة عظيمة فى المنسوجات الثمينة (انظر مادة تنيس بالمقريزى) وكانت ثغر المصر فى شمال دمياط فهدمها الملك الكامل سنة ٦٢٤ لكثرة ما كانت توقع بها مراكب الافرنجة فى الحروب الصليبية، ولما كانت تتكلفه مصر فى المحافظة عليها، ولا تزال أطلالها موجودة قرب مدينة المطرية (دقهلية).

وقد قال الفاكهى فى أخبار مكة: رأيت كسوة مما يلى الركن الغربى (من الكعبة) مكتوبا عليها «مما أمر به السرى بن الحكم وعبد العزيز ابن الوزير الجروى بامر الفضل بن سهل ذى الرآستين وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة» ورأيت شقة من قباطى مصر فى

(١) الاقليد هو المفتاح.

وسطها مكتوبا فى أركانها بخط دقيق اسود « مما أمر به أمير المؤمنين المامون سنه ست ومائتين » و رأيت كسوة من كساوى المهدى مكتوبا عليها « بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مما أمر به اسماعيل بن ابراهيم أن يصنع من طراز تنيس على يد الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة » و رأيت كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها « مما أمر به عبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أصلحه الله ، محمد بن سليمان أن يصنع من طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع وخمسين ومائة » وكان من أعمال تنيس قرية يقال لها تونة وكانت تصنع بها كسوة الكعبة أحيانا . قال الفاكهى : و رأيت أيضا كسوة لهرون الرشيد من قباطى مصر مكتوبا عليها « بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هرون أمير المؤمنين أكرمه الله ، مما أمر به الفضل بن الربيع ان يعمل من طراز تونه سنة تسعين ومائة » .

ومازال العباسيون يهتمون بأمر كسوة الكعبة حتى اذا ضعف أمرهم صارت ترسل تارة من ملوك اليمن وأخرى من ملوك مصر ، الى ان استقرت فى سلاطين مصر فوقف عليها الملك الصالح ابن الملك الناصر بن قلاوون قريتى باسوس وسنديس من أعمال القليوبية . ومن ثم صارت ترسل الكسوة الخارجية السوداء اليها سنويا . وكان كلما يتجدد ملك أو سلطان يرسل للكعبة بكسوة داخلية من الحرير الاحمر ، وباخرى خضراء للحجرة الشريفة النبوية . فلما استولت الدولة العلية على مصر اختصت بكسوة الحجرة الشريفة النبوية وكسوة البيت الداخلية ، واختصت مصر بكسوة الكعبة الخارجية . ومن ذلك الوقت صارت هذه الكسوة المباركة ترسل من مصر سنويا : وهى ثمانية ستاير من الحرير الاسود المكتوب بالنسيج فى كل مكان منه « لا اله الا الله محمد رسول الله » وطول الستارة نحو خمسة عشر مترا ، ومتوسط عرضها خمسة أمتار و بعض سنتيمترات . وكل ستارتين تعلقان على جهة من جهات الكعبة ، فتربطان من أعلاها فى حلقات من الحديد غاية فى المتانة قد ثبتت فى سقف الكعبة ، ثم تربطان الى بعضهما بواسطة عرى وأزرة ، وتثبتان من أسفل فى حلقات وضعت فى الشاذروان ، وهكذا كلما وضعت ستارة تثبتت فى التى

بجوارها بواسطة هذه الازرة، حتى اذا انتهت كلها صارت كالقميص المربع الاسود، ثم يوضع على محيط البيت المعظم فوق هذه الستاير فيا دون ثلثها الاعلى حزام يسمى رنكا، مركب من أربع قطع مصنوعة من المخيش المذهب مكتوب فيه بالخط الجميل العربى آيات قرآنية، كتبها مع غيرها من أعمال الكسوة الشريفة (فى زمن المرحوم اسماعيل باشا خديو مصر) الخطاط الطائر الصيت النادرة النابغة المرحوم عبد الله بك زهدى أحسن الله اليه. ومكتوب على الحزام من الجهة التى فيها باب الكعبة «بسم الله الرحمن الرحيم، واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى، وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل، أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود. واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل، ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا، انك أنت التواب الرحيم» ومكتوب فى الجهة التى تليها من جهة الحجر الاسود «بسم الله الرحمن الرحيم قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين. ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام ابراهيم. بسم الله الرحمن الرحيم، واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر، يأتين من كل فج عميق» ومكتوب فى الجهة المقابلة للمقام المالكى «ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق» ومكتوب فى الجهة الرابعة وهى التى بها الميزاب «فى أيام دولة مولانا السلطان الاعظم ملك ملوك العرب والعجم السلطان محمد الخامس خان ابن السلطان عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان الغازى ابن السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان ابن السلطان ابراهيم خان ابن السلطان مراد خان ابن السلطان عثمان خان خلد الله تعالى ملكه».

والكسوة الشريفة تعمل فى مصر سنويا بدار فسيحة بالخرنفش وادارتها موكولة لمديرها الهمام صديقنا عبد الله فائق بك الذى ترقت الكسوة فى مدته رقيا ظاهرا باهرا بالتحسينات

التى يدخلها عليها من آن الى آخر .

ومصاريف الكسوة تصرف الآن من المالية وميزانيتها سنويا ٤٥٥٠ جنيها مصريا وبيانها هكذا .

جنيه

٠٥١٥ ثمن مخيش فضة وملبس بالذهب ١٤٩٣٥ مثقالا و ٣٨٠٥ مثقالا فضة بيضاء .
١٦٦٤ اجرة شغالة فى الزركشة وعددهم ٤٧ نفراً .
١١١١ ثمن حرير واجرة نسيج والذين يشتغلون فيه عددهم ٧٠ نفراً .
٠٢٠٠ ثمن أدوات للتشغيل مثل بفتة وخلافها .
٠١٥٠ مصاريف ليلة المهرجان المعتاد عمله للاحتفال بموكب الكسوة السنوى .
٠٠٦٠ عوائد تصرف للشغالة يوم نهاية عمل الكسوة .
٠٨٥٠ ماهيات مستخدمين ومرتبات خدمة ادارة الكسوة .

٤٥٥٠ الجملة

الآن الجناب العالى الخديوى بعد عودته من الاقطار الحجازية أمر حفظه الله بزيادة العناية بالكسوة الشريفة مما زاد فى ميزانيتها وسيزيد فى بهائها ورونقها .

ويتبع هذه الكسوة الشريفة ستارة باب الكعبة من خارجها ويسمونها بالبرقع ، وستارة باب التوبة من داخلها ، وكيس مفتاح بيت الله الحرام ، وكسوة مقام الخليل ابراهيم عليه السلام ، وستارة باب منبر الحرم الشريف وهى من الاطلس المصنوع بالمخيش الذهبى والفضى .

وعند اتمام عمل الكسوة يعمل لها موكب عظيم فى نحو منتصف شهر ذى العقدة بحضره الجناب العالى الخديوى أو نائبه فيسيرون بها فى موكب فخيم من المكان المعروف بمصطبة المحمل الى مسجد سيدنا الحسين رضى الله عنه ، حيث يسلمها حضرة مأمور تشغيلها الى المحاملى فى مجلس يعقد بحضور نائب من قبل سماحة قاضى مصر وبشهادة حضرة أمير الحاج للسنة المرسلة فيها ، وبعد أن يعمل بذلك اشهاد شرعى توضع فى صناديق وترسل

مع ركب المحمل الى مكة . ويرسل معها غلايتان من النحاس مملوءتان بماء الورد النقى لغسيل الكعبة المكرمة .

وهنالك تسلم الكسوة لحضرة الشيبي القائم بسدانة الكعبة باشهاد شرعى بحضره العلماء والكبراء فتبقى فى منزله الى صباح يوم عيد النحر فيؤتى بها على أعناق الرجال وتعلق على الكعبة بعد ازال الكسوة القديمة ، ويكون المسجد عادة خلوا من الناس لان سوادهم يكون بمنى ، ولا يصبح بمكة منهم الا نفر قليل .

اما الكسوة القديمة فيرسل المقصب منها عادة الى سيادة الشريف ، واذا كان الحج بالجمعة يرسل الى جلالة السلطان ، والغير المقصب يأخذه الشيخ الشيبي فيبيعه على الحجاج ، وبجوار باب السلام دكاكين مخصوصة لذلك . وقبيل الحج يقطع الشيبي نحو مترين من أسفل ستاير الكعبة ويعوضها بازار من البفتة البيضاء يسمونه احراما ، وليس لهذا عندى من معنى ، اللهم الا لحاق الوقت لبيعه قبل الموسم على الحجاج بثمن كبير . وكان عمر ينزع الكسوة القديمة كل سنة ويفرقها على الحجاج وتبعه فى ذلك عثمان ، الى أن وجد شيئا منها على حائض فأمر بحفر حفرة وألقى فيها الكسوة القديمة وأهال التراب عليها خوفا من أن يلبسها جنب أو حائض ، فقالت له عائشة « ان ثياب الكعبة اذا نزعت عنها لا يضرها من لبسها من حائض ولكن بعها واجعل ثمنها فى سبيل الله تعالى وابن السبيل » . ومن ثم صاروا يبيعونها ، وهم يأخذون ثمنها الآن لانفسهم .

ولم يكن بيع استار الكعبة أو كسوة مقام الرسول صلى الله عليه وسلم للتبرك بهما مما يؤخذ على المسلمين فى دينهم الذى لم ينص فيه على شئ من ذلك . لان الاعتقاد فى آثار الانبياء والصالحين شئ قديم فى جميع الشعوب . واعتقاد النصارى من الفرنجة فى آثار البابا عظيم جدا : فقد حدثنى صديقى عزيز بك الفلكى أن خالته (وهى فرنساوية الجنس كاثوليكية المذهب) كان عندها قطعة صغيرة من نعل البابا « بى » التاسع طولها ٢ سنتى متر فى عرض نصف سنتى ، اشترتها بار بعين جنيها وغلفتها بصفيحة من الذهب ، وكانت تحملها تميمة عينة تتقى بها جميع الامراض والطوارئ السيئة ، على أن مجرد الاعتقاد فى مثل هذه الامور

لايخلو من الفائدة الفعلية .

المحمل

ذهب بعض المؤرخين الى أن المحمل يبتدئ تاريخه من سنة ٦٤٥ هجرية ، وقالوا انه هو الهودج الذى ركبت فيه شجرة الدر ملكة مصر فى حجها فى هذه السنة ، وصار بعدها يسير سنويا أمام قافلة الحاج وليس فيه من أحد لان مكان الملوك لايجلس فيه غيرهم .

والذى أراه أن المحمل قديم جدا وربما كان من قبل الاسلام ، وكان يطلق على الجمل الذى يحمل الهدايا الى الكعبة المكرمة ، وقد سير رسول الله صلى الله عليه وسلم محملا الى مكة بهداياه الى البيت المعظم ، ومن ذلك مانراه فى التواريخ من اسم المحمل العراقى والمحمل اليمنى وما نشاهده الآن من محمل ابن الرشيد[1] ومحمل ابن سعود ومحمل ابن دينار ، وكل ذلك ليس الا جمالا تحمل صرتهم الى الحرمين مغطاة بقطعة بسيطة من الجوخ ، وكذلك محمل النظام ملك حيدر أباد بالهند يأتى مكة مع الحاجين من بلاده حاملا هداياه الى أهل الحرمين الشريفين . ولقد جاء فى الكلام على دارفور فى تاريخ السودان لنعوم بك شقير تحت عنوان صرة الحرمين مانصه : « وكانت سلطنة الفور مستقلة عن دول الارض كلها لاتدفع جزية لاحد ماعدا الحرمين الشريفين فانها كانت تخدمهما بمحمل وصرة كل سنة فكان موكب المحمل يأتى[2] الى مصر ومعه الريش والصمغ وغيرهما من خيرات البلاد فيبيعها ويتم بثمنها نقود الصرة ثم يستطرد الحج الى الحرمين مع الركب المصرى » .

وعليه فمحمل شجرة الدر انما كان يسير امامها حاملا الهدايا التى أخذتها معها للبيت المكرم فى هودج مزين بابهى زينة وغاية ماهناك انها عنيت به ورتبت له كثيرا من الخدم

(١) وأمير محمل ابن الرشيد يسمونه سبهان .

(٢) أما الآن فمحمل ابن دينار يتوجه الى الخرطوم ومنها بالطريق الحديدي الي بورسودان ومنها يبحر الى جدة .

والحشم ، ومن ثم صار عادة تقوم بها ملوك مصر كل سنة ، ومازالوا يبالغون فى زينته من سنة لاخرى حتى صارت كسوته بحيث لا يستطيع الجمل حمل غيرها معها ، (وكسوة المحمل الحالية مع هيكله الخشبى لا تقل عن ١٤ قنطاراً) ، وصار ما كان يحمل عليه من الهدايا يحمل فى صناديق على جمال أخرى تسير مع الجملة .

ويعمل للمحمل يوم خروجه من مصر احتفال كبير من أيام الدولة الايوبية . وهذا الاحتفال الآن له يوم مشهود بالقاهرة تمشى فيه الجنود الراكبة والبيادة وحرس المحمل وركبه وخدمته من ضوية وعكامة يتقدمهم أمير الحج الذى يعينه الجناب العالى الخديوى سنويا ، وهو من الباشوات العسكريين فى الغالب ، وبعد أن يدور المحمل دورته المعتادة فى ميدان القلعة يمر على المصطبة ، وهى المكان المعد لجلوس الجناب العالى الخديوى يوم هذا الاحتفال ومعه رجال حكومته السنية من الوزراء الفخام والعلماء الاعلام وكبار وذوات العاصمة ، وهنالك يأتى حضرة مأمور الكسوة الشريفة وبيده زمام جمل المحمل فيستلمه الجناب العالى منه ويسلمه الى أمير الحاج ، وعندها تضرب المدافع ويسير الموكب تتقدمه أشاير السادة الصوفية ثم الجنود ثم جمل المحمل يتقدمه أمير الحاج ويتلوه المحاملى والجمالة ثم الفراجية (الطبالون) على جمالهم . ويستمر هذا الموكب سائرا الى المحجر فالدرب الاحمر ويمر من بوابة المؤيد فالغورية فالنحاسين فباب النصر فالعباسية . وهنالك يتفرق الموكب وينزل ركب المحمل الى خيامهم التى ضربت لهم فى فضاء العباسية ، وينصب المحمل فى وسط ساحتها لزوره من يريد التبرك به حتى اذا كان يوم السفر الى السويس نقلوه مع أدواتهم وذخائرهم الى وابور المحمل الذى يكون مهيأ فى محطة العباسية ، وبعد الشحنة يسير الى السويس ومنها يبحر الى جدة ، ثم يقصد مكة براً .

وفى سنة ١٣٢٨ سافر المحمل مع قوته على الاسكندرية وعمل له فيها احتفال عظيم يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ حضره الجناب العالى الخديوى ومنها أبحر الى يافا وركب الوابور الى المدينة المنورة ، وبعد الزيارة سافر الى مكة من الطريق الفرعى ، وبعد أداء فريضة الحج عاد الى جدة ومنها الى الطور ثم الى السويس ثم الى القاهرة . والحكومة الآن تهتم فى تقرير

قاعدة لسيره فى الطريق الاقل كلفة ومشقة .

وللمحل المصرى كسوتان : كسوته اليومية وهى من القماش الاخضر ، وكسوته المزركشة ولا يلبسها الا فى المواكب الرسمية . وفى أيام وجوده بمكة يوضع فيما بين باب النبي وباب السلام بكسوته اليومية . فيكون هناك مزاراً للناس على اختلاف أجناسهم ، ولا ينقلونه من هذا المكان الا فى مواكبه الرسمية . وعند السفر به الى المدينة المنورة يسير اليها ركبه اما بالبر من الطريق السلطانى أو الفرعى أو الشرقى ، و إما من طريق البحر من جدة الى ينبع ومنها برا الى المدينة أو الى الوجه ، ومنه الى محطة العلا ، ثم يتوجه فى السكة الحديدية الى المدينة ، والمحمل الآن يسير فى هذا الطريق الاخير لتعنت أعراب الطريق البرى من مكة و ينبع وتشددهم فى طلباتهم وزيادة مرتباتهم .

وعند وصول المحمل الى المدينة المنورة يدخلها باحتفال كبير من باب العنبرية ، وهنالك يطلق له واحد وعشرون مدفعاً ، حتى اذا وصل الى الباب المصرى ترجل كل من فى موكبه اجلالا لمقام الرسول صلوات الله عليه ، فاذا وصلوا الى باب السلام أتى شيخ الحرم واستلم زمام الجمل وأصعده على سلم الباب وأناخه على تلك الصدفة الواسعة ، وهنالك يرفع المحمل و يوضع فى مكانه من الحرم غربى المنبر الشريف وترفع كسوته المزركشة و يلبسونه الكسوة الخضراء ، و يلبس أمير الحاج ومن معه من المستخدمين لباس الخدمة فى الحجرة الشريفة (وهو عمامة وفرجية بيضاء مشدود عليها حزام أبيض) ، ثم يحملون كسوة المحمل بكل احترام و يدخلونها فى الحجرة الشريفة من الباب الشامى و يتركونها فى جانب من ساحة مقام السيدة فاطمة رضى الله عنها . ولا تزال بالحجرة الشريفة حتى يخرجوها يوم سفر المحمل من المدينة المنورة ، و يركبون بها فى يوم خروجه من المدينة كما كانت الحال فى يوم دخوله .

وعند عودة المحمل الى مصر يحتفل بقدومه رسمياً احتفال كبير يحضره الجناب العالى الخديوى أو من ينيبه عنه ، فيسير الموكب من العباسية الى القلعة من الطريق التى كان خرج منها ، حتى اذا وصل الى مكان الجناب العالى الخديوى فى المصطبة استلم سموه زمام الجمل من أمير الحاج وسلمه الى حضرة مأمور تشغيل الكسوة ، وعندها تطلق المدافع و يتم

الاحتفال . وتحفظ كسوة المحمل بمخزن فى المالية ، وهذه الكسوة تجدد كل عشرين سنة مرة وتبلغ تكاليفها نحو ألف وخمسمائة جنيه مصرى . اما كسوته الخضراء فيكسى بها سنويا بعد عودته ضريح سيدى يونس السعدى (بجبانة باب النصر) وأظن أنه كانت له مدة حياته خدمة فى سفرية المحمل .

واليك كشفاً ببيان ما يصرف من المالية سنويا فى تسفير المحمل والمرتبات الجارى صرفها فى مكة والمدينة المنورة حسب الوارد فى الميزانية الاخيرة .

جنيه	
٠١٢٨٢	مرتبات وتعيينات لاميرالحاج ومستخدمى المحمل .
٠٢٥١١	« العربان .
٠١٤٩٣	« الاشراف بمكة والمدينة المنورة .
٠١٩٦١	« تكية مكة .
٠١٦٥٧	« تكية المدينة المنورة .
٠٢٨٧٩	« أهالى مكة والمدينة .
٠٣٠٠٠	« لمكة والمدينة تصرف سنويا من أوقاف الحرمين والاوقاف الخصوصية والاهلية والخيرية ومن الخاصة الخديوية والمالية .
٢٢٥٠٠	ثمن ومصاريف قمح الصدقة بمكة والمدينة .
٠١٦٢٩	« شمع وقناديل للحرمين .
٠٠١٥٥	« خيام وقرب وخلافها .
٠٤٢٤٨	أجرة منقولات براً أو بحراً أو أجر جمال .
٠٦٤٢٠	قيمة ما يرسل كل سنة الى الحرمين الشريفين من الزيوت والحصر وخلافها من ديوان الاوقاف .
٠٠٢٦٥	مصاريف نثرية .
٥٠٠٠٠	مجموع المنصرف سنويا .

واذا قارنت هذا المبلغ بما جاء فى المقريزى عند الكلام على قافلة الحاج وجدت أنه نحو نصف ما كان يصرف عليها فى زمن الفاطميين . قال المقريزى : « قال فى كتاب الذخائر والتحف ان النفقة على الموسم كانت فى كل سنة تسافر فيها القافلة مائة الف وعشرين الف دينار ، منها ثمن الطيب والحلوى والشمع راتباً فى كل سنة عشرة آلاف دينار ، ومنها نفقة الوفد الواصل الى الحضرة أربعون الف دينار ، ومنها فى ثمن الحمايات والصدقات واجرة الجمال ومعونة من يسير من العسكرية وكبير الموسم وخدم القافلة وحفر الآبار وغير ذلك ستون الف دينار ، وان النفقة كانت فى أيام الوزير البازورى قد زادت فى كل سنة و بلغت الى مائتى الف دينار ولم تبلغ النفقة على الموسم مثل ذلك فى دولة من الدول » .

ولقد كان لركب المحمل فى الدولة المصرية شأن كبير ومقام خطير، وكانت مرتبة أميره فى المرتبة الثالثة من مراتب الدولة، وكان صاحبها فى عهد المماليك مرشحا لان يكون حاكما للعاصمة التى هى اهم وظيفة عندهم بعد وظيفة الوالى والسلطان ، وله رأى مسموع وكلمة محترمة ، وكانت وظيفته مستديمة وتوليته بفرمان سلطانى ، وله المكانة العليا والكلمة النافذة فى بلاد الحجاز ، وكثيراً ما كان يصدر أمره بعزل وتولية امراء مكة . ولقد بلغ من مبالغة ملوك مصر بالاحتفاء بالمحمل أنهم قضوا على جميع حكام البلاد التى كان يمر عليها فى طريقه بان يقبلوا خف جمل المحمل عند استقباله ومازالت امراء مكة يقبلونه أيضاً فى استقبالهم له الى أن أعفاهم من ذلك السلطان جقمق فى سنة ٨٤٣ . وكان الاحتفال بطلوع وعودة المحمل مدة سيره على البر فى أواخر زمن اسماعيل من الفخامة بمكان عظيم ، وكانوا عند عودته يبلون السكر فرحا به فى احواض كبيرة يشرب منها الغادون والرائحون مدة ثلاثة أيام وهى عادة قديمة جداً . وكان يسافر فى خدمته غير مستخدميه من أمير وأمين صرة وكتبة وصيارف، كثير من الخدم والحشم والعكامة والجمالة والفراشية والنجارين والفراشين والخيمية والسقائين ، وكان ضمن وظائف المحمل وظيفة اسمها أمين الكساوى والحلويات ومن شأنه توزيع الحلويات والكساوى التى كانت ترسل للعرب

واستعيض عنها الآن بصرف أثمانها لاربابها . وكان يخرج معه موظف برسم مأمور الذخيرة في عهدته البقسماط الذى كان يؤخذ لما عساه يحصل فى الايام الغير المعتادة التى كانوا يحتاجون فيها للصرف على الحجاج اذا اقتضت الضرورة . وكان من ضمن خدمته رجل يقال له شيخ الجمل ، وآخر اسمه أبو القطط ، ثم سائس الهرجلة (الهركله) ومقدم العيط ، ثم سواق المقاطيع وكانت وظيفة الاول أن يشترى الجمال اللازمة للمحمل ، ويركب وراء جمل المحمل فى موكبه لملاحظته فى سيره من الخلف كما يلاحظه المحاملى فى سيره من الامام . أما الثانى فيقولون انه كان يقوم بغذاء القطط التى كانت تتبع ركب المحمل مدة سفره فى البر ، ويقول آخرون انما كان هذا اسمه أما وظيفته فهى التى غيروها بوظيفة امام المحمل . ويقال ان وظيفته كانت من عهد حج شجرة الدر ، أما الثالث فقد كان رئيسا للضوية والعكامة يستدعيهم عندما تكون هناك حركة مهمة ، فيأتون بغير نظام بين صياح وهياج وكلام . والرابع كان يباشر الذين يقعد بهم المرض أو ضيق ذات اليد عن الاستمرار مع الركب . وجميع هؤلاء كان تعيينهم بفرمانات مخصوصة بعضها من السلطنة وبعضها من ولاة مصر ، ولهم مرتبات بالرزنامجه من عهد بعيد . وقد استغنى الآن عن كثير منهم فى سفرية المحمل لعدم الحاجة اليهم مع صرف مرتباتهم لهم ، كما استغنى أخيراً عن وظيفة أمين الصرة التى يؤديها الآن واحد من كتبة المالية تنتدبه النظارة لذلك .

وكان للمحمل عشرون جملا لهذه المأمورية . وكان لها مناخ فى بولاق بجوار شيخ اسمه سيدى سعيد . وكانت الحكومة فى الزمن السابق تشترى مع هذه الجمال جملا تجعله فداء عنها كل سنة : فيأتى به الجمالة قبل موكب الحج ويُركبون عليه شيخ الجمل ويسيرون به ومعهم العكامة والضوية وأمامهم الفرايحية يحيط بهم كثير من الغوغاء ، ويمرون فى القاهرة ثم يذهبون الى باب الشيخ سعيد ويذبحونه هناك . وكان المحاملى يأخذ ربعه ، والجمالة ربعه ، وخدمة الشيخ سعيد ربعه ، وخدمة الشيخ يونس الربع الباقى . وكانوا يبيعون لحمه الى الناس على سبيل البركة مدعين أن لحمه ينفع للصداع وشحمه للبواسير ، ولذلك فانهم ما كانوا يلقون به الى الارض بقصد ذبحه ، حتى يهجم عليه الحاضرون من العامة ويقطعونه اربارباً بعدا مهم قبل

ذبحه ويأخذ كل منهم ما تسمح به قوته . وكان كثيرا ما يؤدى ذلك الى ضرر جسيم يستهين به هؤلاء الجهلاء فى جانب هذا الاعتقاد السخيف . فلما بلغ ذلك الجناب العالى حفظه الله أمر بابطال هذه العادة الشنيعة مع صرف قيمة ثمن الجمل الى أربابه جزاه الله عن الدين والانسانية أحسن الجزاء .

حمام الحمى

حمام الحرم المشهور بحمام الحمى يملأ سطوح المسجد الحرام ومنافذه وطاقاته . فتجده معششاً هنا وهناك ، ويجتمع زرافات زرافات فى جهات كثيرة من صحن الحرم وعلى الخصوص فى الجهة الشرقية ، وله فيها مكان مخصوص فيه أحواض لشربه ، وبجواره مكان يلقى فيه حب القمح المرتب له من أوقاف مخصوصة . وكثيرا ما تراه فى الجهة الغربية ، حيث يوجد غير واحدة من فقراء القوم يبعن حب القمح للحجاج والزوار بقصد القائه الى جيوش هذه الحمامات المستأنسة ، التى تكاد ترفرف على رؤوس الناس ، لانها لم تعرف منهم فى حياتها الا كل لطف وأنس . وليست هذه الخصيصة قاصرة على نوع الحمام ، بل كل حيوان دخل الحرم فهو آمن ، حتى ذهب بعضهم الى عدم قتل الحية أو العقرب فى الحرم ، احتراما له واكراما لها فيه . وانفراد الحمام بوجوده فى الحرم لا أظنه الا لسهولة أنسه وقلة جفائه . ومن أغرب ما يروى عنه أنه مع كثرته فى الحرم لم يشاهد منه شئ على الكعبة الا نادرا جدا . وفى الجهة الشرقية من مكة تحت جبل أبى قبيس بئر يقال لها بئر الحمام يجتمع عندها كثير منه ليشرب بحريته ثم يذهب الى حيث أراد . وهذه البئر قديمة جدا وأظنها من زمن الجاهلية . كما أنى أظن أن احترام الحمام هنا أيضا من زمن بعيد . وعلى كل حال فهو مكرم للبيت سواء قبل الاسلام وبعده . والقول بأنه من نسل تلك الحمامة التى عششت فى الغار على النبى صلى الله عليه وسلم انما يزيد فى احترامه واعظامه .

وليس الحمام يحترم فقط هنا بل هذه عادة قديمة جدا : فبنو نوح كانوا يكرمونه لانه أول

من بشرهم بظهور اليابسة مدة الطوفان . واحترامه عند النصارى يقرب من درجة التقديس ، لانه يمثل عندهم روح القدس ، ويقولون انه عندما كانوا يغسلون المسيح فى نهر الاردن وهو صغير جاءت حمامة وحطت على رأسه ، لذلك يرسمونها فى كنائسهم وعلى صورهم الدينية بكثرة . ومن هذا ترى الحمام قد أطلقت له الحرية فى كنائس القوم فى أوربا وخصوصا فى كنائس ايطاليا والنمسا وبعض كنائس فرنسا ، وقد تعدى هذا الكنائس الى منافذ المساكن وكرانيشها وأسطحتها وأشجار الشوارع العمومية وبساتينها: فاذا ذهبت الى فينا أورومامثلا وجدته هنا وهناك فى كل مكان من غير أن يؤذيه أى انسان .

وأثر هذه العقيدة باق فى الحمام الذى لا يزال فى مدينة القسطنطينية الى يومنا هذا، وتراه على الخصوص فى مسجد بايزيد ومسجد أبى أيوب الانصارى ، غير أن أهل الاستانة قد بالغوه فى اكرامه حتى حرموا ذبحه ، فهم لا يأكلونه أبدا سواء فى ذلك مسلموهم ونصاراهم ويهودهم . أما ماذكر من أن المسلمين يعتقدون أن حمام الاستانة من ذرية حمام الغار (الذى يقولون عنه انه كان يخبر الرسول بجميع ما كان يفعله المشركون) ، فانه لا أصل له عندهم ، كما لا أصل فى دينهم لتلك المأمورية التى كان يؤديها حمام الغار . والشيعة من العجم يعتقدون مثل هذا الاعتقاد فى حمام الحرم ، ويزعمون أنه هو الذى أخبر أهل المدينة المنورة بقتل الحسين رضى الله عنه .

والصينيون يستعملون الحمام من زمن بعيد فى استكشاف بختهم على مثل ما يستعمله بعض الاروام الآن فى طرقات مصر : فيأتون للحمام بطبق فيه جملة أوراق مطوية مكتوب فيها شئ من الخير والشر ، فتأتى الحمامة وتستخرج بمنقارها واحدة يكون منها فألهم ، ويسمون هذه الحمامة باك ـ كوب ـ بن (Pak-pKo-Pin) يعنى الحمامة ذات الورقة البيضاء .

ولقد كان الحمام عند الساميين هو الحيوان المقدس للالاه عشطورت (Astarte) . وكان عند الفنيقيين واليونانيين والسوريين يمثل السماء والنجوم . وأظن أن احترامه عند العرب فى الجاهلية لم يأت الامن هذا الطريق . ولذلك كانوا يضعون تمثال حمامة داخل الكعبة بجوار تمثال هبل : ولقد ورد فى سيرة ابن هشام عن صفية بنت شيبة ، أن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزل مكة بعد الفتح وطاف بالبيت ، دعا عثمان بن طلحة وأمره بفتح الكعبة فلما

دخلها وجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها .

على أنا لو صرفنا النظر عن كون الحمام لطيفا فى شكله ، أنيسا فى نوعه ، جميلا فى صورته ، نظيفا فى لباسه ، يمثل فى عائلته المحبة الحقيقية والشفقة الحسية ، فانا نرى فيه درسا عائليا كبيرا : نرى الذكر منه مع انثاه يعملان لحياتهما وحياة عائلتهما عمل المجدين المجتهدين ، حتى اذا فرغا من واجبهما الاهلى تفرغا الى حياتهما الزوجية : فتراهما بين توامق وتعاشق وتعانق ، لا ينفصلان الا ليتصلا ، ولا يفترقان الا ليجتمعا ، فى جلابيب جمال ، وأساليب دلال ، مما لا يرى له مثال ، فى زوجين من غير نوعهما على كل حال .

على أن الحمام له على الانسان خدمة تذكر فتشكر : فقد كان من القرن الثامن قبل المسيح الى منتصف القرن التاسع عشر يؤدى وظيفة التلغراف بين الامم المختلفة ، حتى أعلن مرس وطسون سنة ١٨٤٤م تلغرافهما الكهربائى ، الذى لا يشك أحد فى أنه أفاد العالم بأسره فائدة جسيمة ، وكان من أكبر الاشياء التى ساعدت على التمدن العصرى وانتشاره بسرعة . ولكن هل هذه الفوائد الجسام ، تنسينا فضل ذلك الحمام ؟

ولتكملة الفائدة نقول لك ان أول من استعمل الحمام فى الزجل هو رجل من جزيرة أوجين (من جزر اليونان) ، أتى فى سنة ٧٧٦ قبل المسيح الى آتينا ليحضر الالعاب الاولمبية ، واستحضر معه حمامة كانت عنده أخذها من بين أفراخها . فلما برز فى هذه الألعاب أرسل الحمامة فذهبت الى عشها ، ومن قدومها علم أهل الرجل بنجاحه فى مأموريته . ومن ثم استعمله اليونان والرومان والعرب والمصريون فى مراسلاتهم . وكان لمصر وخصوصاً زمن الايوبيين والفاطميين مصلحة للرسائل ، وكان بها فى كل جهة بيت للحمام ، وكله غريب من جهات متعددة : فكانوا اذا أرادوا ارسال مكتوب الى أى مكان ، أرسلوه على جناح حمامة مأخوذة من هذه الجهة . الا أنهم كانوا يرسلون الخبر من صورتين على حمامتين بعد الذى حصل فى حصار الفرنجة لعكا : ذلك أن المسلمين فى عكا أرسلوا رسالة الى صلاح الدين الايوبى بواسطة حمامة من حمامهم ، فتبعها طير جارح وضربها ، فسقطت فى معسكر العدو والذى عرف منها مواقع الضعف من عدوه . ولعلك تذكر لما نزل لويس التاسع

ملك فرنسا الى دمياط سنة ١٢٧٠ م وسار بجنده الى المنصورة ، أخذ ملك مصر الملك الكامل خبره بواسطة الحمام الزاجل ، فسير اليه جيوشه لوقته فأوقفته عند حده ، وكان ما كان من انهزام جنوده عند المنصورة وأسر لويس وسجنه بها الى أن تم الصلح بينه وبين ملك مصر ، فأطلقه وسافر الى تونس ومات بها . وفى حبسه يقول بعضهم .

قل للفرنسيس وان أنكروا   حبس لويس فى مقال صحيح

دار ابن لقمان على حالها   والقيد باق والطواشى صبيح

والحمامة تقطع فى طيرها من سبعين الى ثمانين كيلومترا فى الساعة ، ولها صبر على الجوع جملة أيام ولكنها لا تصبر على العطش .

وكان لهذا الحمام فى حصار المانيا لباريس بين سنتى ١٨٧٠ و ١٨٧١ أكبر فضل فى ربط أجزاء المملكة الفرنساوية بعاصمتها .

وربما كانت هذه الحكومات قد قضت أن لا يمس جنس الحمام بسوء حتى لا يكون نوع الزاجل منه عرضة لأذى الصيادين وخلافهم فيؤدى مأموريته وهو فى غاية الهدو والطمأنينة .

ولقد كان عباس باشا الاول والى مصر رجع الى تربية هذا الحمام واستكثر من أنواعه . ولكنه مات رحمه الله قبل أن يتم غرضه . وأخذ بعض ذوات القاهرة عنه هذه الغية ، ولكنهم اقتصروا على تربيته وتطييره فى محيط ديارهم . وقد يعلمه بعضهم الصبر على الطيران حتى اذا التحم بحمام غريب طار معه الى أن تنفد قواه ثم يرجع به الى صاحبه الذى يكون فرحه به لا يقدر . وللحمام عندهم أسماء مختلفة فمنها الجزغندى ــ والريحانى ــ والمزرزر ــ والقزازى ــ والابلق ــ والعنبرى ــ والغزار ــ والقشاقى ــ وغيرها ، الا أن هذه الغية لم تقف عند أفنية الاغنياء بل تعدتهم الى الفقراء وهم الى الآن يضيعون فيها وقتهم الذى هم وعيالهم فى حاجة اليه لعمل حيوى مفيد . ولقد شاهدت فى بستان سراى يلدز الداخلى ، بعد خلع السلطان عبد الحميد ، دارا كبيرة من السلك وفيها ما لا يحصى من أنواع الحمام وهو من جمال الخلقة بمكان عظيم . وربما كان يتسلى به فى سجنه الذى قضى على نفسه به طول حياته سامحه الله .

الحج

الحج فى اللغة القصد ورجل محجوج أى مقصود . وفى اصطلاح المسلمين قصد مكة لأداء المناسك فى زمن مخصوص من كل سنة قمرية . والواحدة حجة ، وتطلق على السَّنة فيقال عمر هذا الصبى سبع حجج أى سبع سنين .

وهو سُنَّة قديمة جدا فى الامم ، والغرض منه على كل حال أمر دينى محض ، وان كان الاجتماع فيه لا يخلو من فائدة دنيوية ، تزيد فى رقى الامة أدبيا وماديا . وقد كان المصريون قبل أربعين قرنا يحجون الى هيكل معبودهم ايزيس بمدينة سايس (صا) ، وفتاح فى منفيس ، وأمون فى طيبة .

واليونان كانوا يحجون قبل المسيح بخمسين قرنا الى هيكل ديانا فى افسوس ، ثم انتقلوا فى مبدأ القرن الثانى قبل المسيح الى حج معبد ميتار فا فى أثينا ، وجو يتير فى اولمبيا . واليابان يحجون من عهد بعيد الى هيكل عظيم مشهور فى ولاية اسجى ، وتجب زيارته عندهم على كل فرد منهم فى عمره ولو مرة واحدة : فيتوجهون اليه بلباس أبيض على شكل مخصوص ، وسوادهم يقصدونه عراة ليس عليهم الا ما يستر عورتهم ، ويقطعون اليه كل المسافة ركضاً . والصينيون يحجون الى هيكل المعبود تيان من زمن بعيد جداً . والهنود لا يزالون يحجون الى هيكل جاغرنات ، أو هيكل الوراف فى حيدر أباد وهو محفور فى الصخر على طول فرسخين ، وكذلك يحجون الى هيكل بوذا بجزيرة مناقرب سيلان . وهم يكثرون من الطواف حول هيا كلهم ، ولهم بحيرات مقدسة يتبركون بمياهها مثل بحيرة مادن قرب بحر قزوين . واليهود يحجون من القرن الرابع عشر قبل المسيح الى المكان الذى به تابوت العهد ، وكانوا يحجون اليه ثلاث مرات فى السنة . وكان ذلك أكبر سبب لعمار أورشليم ، حتى أحرقها الامبراطور طيطوس الرومانى وأجلى اليهود عنها سنة ٧٠ مسيحية ، ومازالوا بعيدين عن مدينة بيت المقدس حتى استولت العرب عليها سنة ٦٣٦ م (سنة ١٦ هـ) ، فاقرهم عمر رضى الله عنه مع

النصارى على ما كان لهم فى بيت المقدس . ولما قامت الحروب الصليبية قطعت عليهم طريق حجهم الى أن استولت دولة بنى عثمان على أورشليم فى سنة ١٥١٧ م فأمنت الطرق ومهدت السبل الى بيت المقدس، وهم يحجون الآن الى قطعة من السور القديم لهيكل سليمان فى الجهة الغربية من المسجد الأقصى ويسمونها البراق .

أما النصارى فانهم يحجون الى بيت المقدس من سنة ٣٠٦ للمسيح ، أى منذ سارت هيلانة أم الامبراطور قسطنطين الى أورشليم وابتنت بها كنيسة القبر المقدس المشهورة باسم كنيسة القيامة . وكانوا يخرجون اليه من غرب أوربا باحتفال عظيم ، وكان رئيس الجهة الدينى يزود كلا منهم بعصا ورداء من الصوف الخشن فيلبسه لوقته ، وكان لهم على طول طريقهم تكايا وأديرة يأوون اليها مدة سفرهم ، واذا وصل الحاج الى بيت المقدس يتطهر فى نهر الاردن الذى يبعد بنحو عشرين كيلومترا شرقى القدس ، ثم يلتحف برداء يحمله معه ليكون له كفناً عند موته . فلما استولى السلجوقيون على بيت المقدس قل حجاج الافرنج الى أورشليم وحولوا وجوههم الى كنيسة القديس بطرس وبولس فى رومه ، وفى تريف (Treves) بجرمانيا . ويزعمون أن بالأخيرة قميص المسيح الذى كان يلبسه ، وقد بلغ عدد حجاجها سنة ١٨١٤ مليونا ومائة ألف نفس من الافرنج . وهم يحجون أيضاً الى كنيسة لورده (Lourdes) فى جنوب فرنسا بعد أن شاع فى أوربا أن السيدة مريم العذراء ظهرت لاثنين من رعاة هذه المدينة . والزائرون لهذه الكنيسة يشربون من ماء ينبع قريباً منها يسمى باسمها ويعتقدون الى اليوم بأن فيه شفاء للناس ويرسلون منه الى جميع أقطار المسكونة للتبرك والاستشفاء . ولم تكثر حجاج بيت المقدس الا بعد عمل السكة الحديدية اليها من يافا .

والعرب كانت تحج الى الكعبة قبل الاسلام بنحو خمسة وعشرين قرنا ، لأنهم كانوا يعتقدون أنها بيت الله على ما كانوا عليه من اختلاف الآلهة وتعدد الديانات وتغاير المذاهب . وكانوا يقصدونها سنويا للطواف بها من غير أن يدعيها لنفسه فريق منهم دون الآخرين ، لانها كانت عندهم بيت الله الذى هو إله العالمين . ورغماً عن شيوع عبادة الأوثان فى سواد

قبائل العرب فانه لم يرد عنهم أنهم عبدوا هيكل الكعبة ، وليس ما ورد فى أسمائهم من عبد الكعبة (وكان أبو بكر يسمى عبد الكعبة فلما جاء الاسلام سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله) الا زيادة اجلالهم اياها ، كما هو الشأن فى تسمية عبد النبي عند المسلمين ، مع كراهيته فى دينهم . وكذلك لم يسمع عنهم أنهم عبدوا الحجر الأسود مع احترامهم له ذلك الاحترام الذى لا يمكن تصويره . وكانوا يعتقدون أن هذا الحجر نزل من السماء ، وبه أخذ بعض الفقهاء ، ونحن لا ندرى ان كان وصل اليهم من طريق النيازك أو من طريق آخر . وكان لهذا الحجر فى العرب شأن عظيم جداً حتى انه لما حصلت الحرب بين اياد ومضر ابنى نزار ، ودارت رحاها على اياد ، قلعت الحجر الاسود ودفنته بجبل أبى قبيس فرأت ذلك امرأة من خزاعة فأخبرت قومها ، فاشترطوا على مضر إن هم ردوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم ، فوفوا لهم بذلك فردوه ومن ثم صارت ولاية البيت فى خزاعة .

واحترام الاحجار[1] فى الناس قديم جداً : فمنهم من كانوا يعبدونها لذاتها ، ومنهم من كان يجعلها رمزاً لآلهتهم كما كان الشأن فى الدول الراقية فى عمرانها كدولة الرومان واليونانيين الذين كانوا يرمزون بها لمعبوداتهم من الكواكب وغيرها : ولم يكن نبوغهم الى الآن فى نحت الاحجار وعمل التماثيل وتبرزهم فى التصوير ، الا لاحترامهم اياه من قديم الزمان ، واستعمالهم له فى الأزمنة الخالية تمثيلا لمعبوداتهم . والصينيون واليابان والهنود لا يقلون عنهم فى هذه الصناعة ، ولهم فيها دقة غريبة وخصوصاً فى الاعمال الخشبية التى يمثلون فيها كثيراً من معبوداتهم مثل بوذا وكونفوشيوس وغيرهما .

أما العرب فقد كانت أصنامهم ساذجة مثل جميع طبائع الاشياء فيهم ، وقد كانوا يعبدونها لتقربهم الى الله زلفى ، وفى عتبة باب السلام الخارجية بالحرم المكى ترى حجراً ضخماً أشبه شئ بدرجة سلم غير منتظمة . نازلة فى الارض يطئونها بنعالهم ، وأهل مكة يقولون عنه انه صنم من أصنام الجاهلية واسمه اساف ؟

(١) وفى باريس بجهة التروكادير ومتحف اسمه جيميه (Musèe Guimet) فيه مجموعة كبيرة من الاحجار الدينية وهي أكبر مجموعة فى بابها وقد زرتها سنة ١٩٠٦م مع صديقي الفاضل على بك بهجت وكيل دار الآثار العربية فاستقبلنا صاحبها والقائم بادارتها بكل أنس ولطف .

وكان أنبياء بني اسرائيل يقيمون الاحجار في مناسبات كثيرة : منها ما هو تذكار لحادثة من الحوادث الجسيمة، كما فعل يعقوب عند ما تراءى له ربه في نومه ، فانه أقام حجراً تذكاراً لهذه الحادثة الكبرى في مكان سماه بيت إيل (بيت الله)، كما أقام حجراً غيره تذكاراً للعهد الذي تم بينه وبين لابان (أنظر الاية الرابعة والاربعين والخامسة والاربعين من الاصحاح الحادي والثلاثين من سفر التكوين) . ومن هذا تلك الحجارة التي نصبها موسى في ذيل الجبل تذكاراً لكتابة كلام الرب (أنظر الآية الرابعة من الاصحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج)، ثم الاثنا عشر حجرا التي نصبها يشوع تذكاراً لعبور الاسباط نهر الاردن بتابوت العهد (أنظر الاية التاسعة من الاصحاح الرابع من سفر يشوع) ،

ومن حجارة التذكار أيضاً تلك الحجارة التي يقيمها صغار الحجاج على حافة طريقهم مع القافلة . فتراهم اذا صادفوا في طريقهم أحجاراً صغيرة تسابقوا اليها وأخذ كل بين يديه ما أراد منها، ووضعها على بعضها حجراً حجراً قائلا : هذا لابي هذا لأمي هذا لأخي هذا لاختي هذا لصديقي فلان مثلا . ويسمون كل كوم منها ناطوراً ، وهم يزعمون أنه ما دامت هذه الرجمة على وضعها كان أصحابها على قيد الحياة ! ! ولو لم يكن في عملهم هذا من حسنة سوى تنقية الطريق من الحجارة التي يتعثر فيها الانسان والحيوان لكفى . وقد رأيت بعضهم في مصر يقيم هذه النواطير في طريقهم الى الموالد وكثيراً ما ترى ذلك في جبانات الأرياف قرب بعض الاضرحة . وجبانات النصارى بالارياف لا تخلو من ذلك .

ومن الحجارة ما كانوا يقيمونها للاستشهاد بها : كالحجر الذي أقامه يشوع عندما أخذ العهد على شعبه قائلا لهم هذا الحجر يكون شاهداً علينا (أنظر الاية السادسة والعشرين والسابعة والعشرين من الاصحاح الرابع والعشرين من سفر يشوع) .

ومن حجارة الشهادة ما يستعمله الناس في الاقتراعات [1] السرية في أيامنا هذه مما هو

---

(١) وذلك انهم اذا خافوا على حرية الشخص في ابداء رأيه في الاقتراع العلني، ذهبوا الى الاقتراع السري : وهنا لك يدار على الاعضاء باناء به حجارة سوداء وأخرى بيضاء ، فيأخذ المقترع حجرا من هذه للاقرار على الرأي المقترع عليه أو من تلك اذا كان مخالفاً له، ويضع هذا الحجر في كيس يقدم اليه بحيث لا يشعر به أحد . وبعد أخذ جميع الاقتراعات يقدم الكيس الى الرئيس ، فاذا وجد أن الحجارة البيضاء أكثر من السوداء كان الاقتراع ايجابا بغالبية الاصوات والا كان سلبا .

مستعمل على الخصوص فى دوائر الحكومات الكبرى كمجالس النوّاب وغيرها .

وكان المصريون يقيمون الاحجار الجسيمة كالمسلات وغيرها تذكاراً للحوادث التاريخية الكبرى . وقد اقتفت آثارهم الدول المتمدنة وعلى الخصوص ما يقيمونه منها اعترافا بفضل من ينبغ من أفراد الأمة ، وهذه الآثار لا يكاد يخلو منها ميدان من ميادين عواصم أوروبا .

وجميع الحكومات من قديم الزمان تقيم الاحجار لتعيين تخومها وتحديد ممالكها . وقد عم هذا الاستعمال فى تحديد ملكية الأفراد حتى أطلق لفظ الحجارة على الحدود ، وأجمعت الشرائع كلها على احترامها .

واليهود الى الآن يقدسون قطعة من حائط سور المسجد الاقصى من جهة القبلة يسمونها البراق ، ويبلغ طولها نحو ثمانية وأربعين متراً فى ارتفاع مترين ، لزعمهم أنها القطعة الوحيدة التى بقيت من قاعدة سور الهيكل الاصلى الذى بناه سليمان عليه السلام ، وهدمه بختنصر وسنحاريب وغيرهما من ملوك الاشوريين والرومانيين . وهم يحجون الى هذه القطعة مرتين فى كل سنة وخصوصاً فى العيد الذى يسمونه عيد الدجاج (عيد القربان) . ويهود القدس يجتمعون عند هذا السور كل يوم وعلى الخصوص فى عصر يوم الجمعة مع رؤسائهم الدينيين ، ويستلمون حجارته باكين شاكين منتحبين متضرعين الى الله بأن يرد عليهم ملكهم وأن يعيد الى أورشليم فخامتها وجلالتها . وقد وصل بهم احترامهم لحجارة ذلك الهيكل الى أنهم لا يدخلون فى حوش بيت المقدس أصلاً ، بل لا يدخلون من بابه مطلقاً ، خوفا من أن تطأ أقدامهم حجراً من الحجارة التى تكون ربما تخلفت من هيكلهم القديم ، وألقت بها يد الصدفة فى أرضية هذا المكان . وهم يقدسون أيضاً جانباً من سور منارة المكفيلة التى بها قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب فى حبرون ، ويجتمعون عندها مساء كل يوم جمعة ويصلون ويبتهلون ويستغيثون ، صارخين الى الله تعالى أن يعيد اليهم ملك بنى اسرائيل .

وللنصارى أحجار كثيرة يقدسونها ، ومنها شئ كثير فى بيت المقدس . وقد بلغ تقديسها منهم الى حد لا يمكن تكييفه . ومن تلك الأحجار الحجر الذى تحت قبة الصعود : وفيه أثر صدر

قدم يمنى يقولون انه أثر قدم السيد المسيح عند ما صعد الى السماء . وقد شاهدت بنفسى هذا الحجر الذى ملس وكاد يذهب أثره من كثرة لمسهم له وتقبيلهم اياه . وفى أسفل جبل الزيتون من الجهة الغربية مما يلى وادى سدرون (الذى يسميه العامة وادى مريم) قطعة من صخرة خارجة عن سور الكنيسة الروسية الشمالى ، فيها بعض تقعر رأسى ، يقولون ان السيد المسيح أسند ظهره اليها عند ما نزل من جبل طور زيتا (جبل الزيتون) الى المدينة . ولقد اجتهدت الكنيسة الروسية فى ادخال هذا الحجر اليها ، فقامت من أجل ذلك قيامة الطوائف الأخرى ، وكادت تحصل لذلك فتنة كبيرة ، لولا أن الامر انتهى بجعلها منطقة عامة لجميعهم حتى لا يحرم الكل من التبرك بها . وازاء هذه الصخرة الى جهة الشمال توجد صخرة أخرى محاطة بسور للأروام ، يقولون ان السيد المسيح كان جلس عليها اذ ذاك ليشاهد منها صخرة بيت المقدس ، وباب هذا السور يفتح للزيارة فى أيام مخصوصة . وللقوم فى كنيسة القيامة أحجار كثيرة تكاد تفوق حد التقديس : منها حجر نصف الدنيا الذى تراه فى وسط هيكل الاروام ، وحجر المغسل الذى يزعمون أنهم غسلوا المسيح عليه ، وحجر الكأس الذى نزل به جبريل الى المسيح ووضعه عليه ، وعمود الجلد الذى كان المسيح مربوطا به عند ما جلده أعداؤه ، وحجر الاكليل الذى أجلسوا عليه المسيح وقت ما وضعوا على رأسه اكليل الشوك ، ويوجد فى بيت لحم كثير من هذه الحجارة المقدسة عند النصارى .

ومن الحجارة المقدسة المحترمة عند اليهود والنصارى والمسلمين على السواء ، صخرة بيت المقدس التى كانت محل قربات ابراهيم واسحاق ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من أنبياء بنى اسرائيل عليهم السلام ، وكانت قبلة للمسلمين قبل الكعبة ، ثم صخرة أيوب (النبى) التى فى قرية الشيخ سعد على طريق السكة الحديدية بين المزيريب والشام ، ويقصد زيارتها والتبرك بها خلق كثير من جميع الآفاق على اختلاف جنسياتهم ودياناتهم .

من ذلك ترى أن هذه الحجارة لم تقدس لذاتها ، ولكن لعلاقتها بشىء مقدس محترم : وعليه فالحجر الاسود الذى وضعه ابراهيم عليه السلام فى الكعبة إما أن يكون وضعه تذكاراً لصدعه بأمر ربه برفع قواعد هذا البيت المعظم ، وإما أن يكون للعهد الذى أخذه ابراهيم

على نفسه و ولده بجعله هذا البيت مثابة للناس، و إما أن يكون قد أقامه ابراهيم حجة عليه وعلى ولده بأن هذا البيت قد انتقل من ملكيتهم الى الله تعالى ليكون للناس مصلى ومسجداً للطائفين والعاكفين والركع السجود. و وضعه فى الركن الاقرب الى الباب ليكون أوّل حدود هذا البيت المكرم الذى يبتدئ منه الطائفون، وجعل لونه أسود لسهولة تعيينه وتحديد مكانه: لذلك كان هذا الحجر محترما من ابراهيم، محترما من ولده، محترما من المسلمين الى اليوم والى الغد. ولا عبرة بما ذهب اليه بعض السائحين الذين قصدوا مكة والمدينة تحت ستار شعار الدين الاسلامى، وكتب عليهما كل بحسب نزعته سياسية كانت أودينية، وافترى بعضهم على المسلمين بأنهم فى حجهم يعبدون الحجر الاسود الذى هو أثر من آثار الوثنية العربية الاولى!! وانى لا أذكر شيئاً أدحض به هذه الفرية سوى ما رواه الامام أحمد والبخارى ومسلم ورواه ابن أبى شيبة والدارقطنى فى العلل، من أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف عند الحجر فقال «إنى لاعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع» ثم قبله، ثم حج أبو بكر فوقف عند الحجر ثم قال «انى لاعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ماقبلتك»، وقال عمر «أما والله انى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ماقبلتك» ثم دنا فقبل. على أنه لم يسمع عن عرب الجاهلية مطلقاً أنهم عبدوا هذا الحجر فيما عبدوا من الاحجار بالمرة، مع احترامهم له كل الاحترام واجلالهم له كل الاجلال. وعلى كل حال فان الحجر الاسود عند المسلمين محترم مكرم معظم لا لذاته ولكن لكونه شعاراً لربوبيته تعالى ورمزاً لسلطانه. يعرض عليه المسلمون فيستلمونه و يقبلونه، أو يسلمون عليه من بعد بكل احترام واحتشام: وعليه فهو فى ذلك كاعلام الدول التى لا تحترم لكونها قطعة بسيطة من القماش مرفوعة على قطعة من الخشب أبسط منها، بل لانها تمثل سلطان الملوك وعظمة الممالك: وهلا حضرت استعراض جيش من جيوش الدول العظام و رأيت القوم اذا حاذوا علمهم أحنوا أمامه رؤوسهم وسيوفهم علامة على الخضوع والاحترام؟

ومازال الحج عند عرب الجاهلية على ملة ابراهيم واسماعيل ، ومشاعره [١] كلها محترمة عندهم ، حتى اذا عظمت قريش بعد واقعة الفيل ، وقال الناس فيهم انهم أهل الله يدافع عنهم ، شمخوا بأنوفهم على العرب ، وقالوا نحن ولاة البيت ، وليس لاحد من العرب مثل منزلتنا ،

---

(١) ولابى طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم قصيدة مشهورة ببلاغتها وهى لاميته التى تبلغ واحداً وثمانين بيتاً نذكر لك منها هنا بعض قِسْمِهِ الذى تعرف منه المشاعر التى كانت تقف بها العرب فى الجاهلية . قال رحمه الله :

وثَوْرٍ [١] ومن أرسى ثبيراً [٢] مكانه * وراق ليرقى فى حِرَاءٍ [٣] ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة * وبالله ان الله ليس بغافـل
وبالحجر المُسْوَدّ إذ يمسحونه * اذا اكتنفوه بالضحى والاصائل
ومَوْطِىء ابراهيم بالصخر رطبة * على قدميه حافياً غـير ناعـل
وأشواط بين المروتين الى الصفا * وما فيهما من صورة وتماثل [٤]
ومن حج بيت الله من كل راكب * ومن كل ذى نذر ومن كل راجـل
وبالمشعر [٥] الاقصى اذا عمدوا له * ألال [٦] الى مفضى الشِّراجِ [٧] القوابل
وتوقافهم فوق الجبال عشيّة * يقيمون بالايدى صدور رواحـل
وليلة جَمْعٍ [٨] والمنازل من منى * وهـل فوقها من حرمـة ومنازل
وجمع اذا ما المُقْرِبات [٩] أجزنه * سراعا كما يخرجن من وقـع وابل
وبالجمرة الكبرى اذا صمدوا [١٠] لها * يؤمون قذفا رأسها بالجنادل [١١]

والقصيدة موجودة برمتها فى الجزء الاول من سيرة ابن هشام

---

(١) و(٢) و(٣) جبال بجوار مكة (٤) التماثل التماثيل وهي الاصنام (٥) واحد المشاعر الحرام وهي المواضع التي بها مناسك الحج ، والمشعر الاقصى هو عرفة لانه أبعدها . (٦) بفتح الهمزة وكسرها جبل عرفة . (٧) مفرده شرج وهو مسيل الماء ، ومفضى الشراج مجمعها فى مجرى واحد وفي هذا ما فيه من بلاغة التعبير اشارة الي اجتماع الناس في مكان واحـد وهو عرفة . (٨) هي ليلة المزدلفة . (٩) هي الخيل التي ضمرت للركوب والابل التي عليها رحالها . (١٠) قصدوا . (١١) الحجارة .

واتفقوا على أن لا يعظموا شيئاً من الحل: فتركوا الوقوف بعرفة والافاضة منها، مع علمهم بأنها من المشاعر الحرام وأنها مكان الحج من زمن ابراهيم، وأفاضوا من جُمَع (المزدلفة)، وقالوا لا ينبغي لاهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل فى الحرم اذا جاءوا حجاجاً أو عماراً، وأن لا يطوفوا بالبيت الا فى ثياب الحمس (وهم قريش وسموا بذلك لتحمسهم فى دينهم أى تشددهم)، فان لم يجدوا طافوا بالبيت عراة. فدانت لهم العرب بذلك، وكانت المرأة فى طوافها تضع عنها ثيابها الا درعها.

وقد كان السعى بين الصفا والمروة من لوازم الحج فى الجاهلية، وكان لهم صنم على الصفا يسمى (أساف) وآخر على المروة يسمى (نائلة)، وكان للعرب فيهما اعتقاد سخيف كغيره من الاعتقادات الوثنية، وكانوا ينحرون عندهما هَدْيَهم. فلما جاء الاسلام امتنع المسلمون عن السعى كيلا يكونوا مثل أهل الجاهلية فى وثنيتهم، فنزل قوله تعالى «ان الصفا والمروة من شعائر الله»: ومن هذا نرى ان الشكل فى العبادات لا يعول عليه وانما المدار فيها على النية.

وبالجملة فالشعائر التى كانت مستعملة فى الحج من زمن ابراهيم واسماعيل، واتخذها الناس بعدهما لمعبوداتهم على تغاير هم فى العقائد، قد أقرها الاسلام وجعلها كلها لله تعالى وحده، (وانما الاعمال بالنيات)، وجعل الحج من قواعد الاسلام: قال عليه الصلاة والسلام «بنى الاسلام على خمس: شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله، واقام الصلاة، وايتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع اليه سبيلا». وقد وقف صلى الله عليه وسلم بالناس فى عرفة وقال «الحج عرفة» وأفاض منها، ونزل فى ذلك قوله تعالى «ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس» (يعنى قبل الحمس)، وطاف الحجاج بالثياب التى معهم من الحل، وأكلوا من طعام الحل فى الحرم، ولا يزال المسلمون يحجون على ماشرع لهم من هذه النسك الى اليوم.

ولكن يظهر للمتأمل فى طواف البدو الآن وعلى الخصوص أهل الشروق من عُتيبة ومطير، أن حجهم الصق بالبيت منه بعرفة: ذلك لان هؤلاء القوم يفدون على مكة فى الخمس الاول من شهر ذى الحجة، فيرتبون مساكنهم شرق المدينة من خارجها، ثم يدخلون المسجد الحرام جماعات جماعات، ويطوفون حول البيت طواف القدوم ماسكين بايدى

بعضهم ، لا يوقفهم فى طوافهم زحام المطاف بغيرهم ، بل يأخذون فى طريقهم كل من صادفهم فيه وهم يقولون « الله محمد ، لبيك لبيك ، حجيت ، تقبل أولا تقبل حجيت ، الا ّ تقبل » . واذا كان معهم نسوة (ولا يكن فى الغالب الا من المتقدمات فى السن) ، تراهن فى مؤخرتهم ماسكات با كتافهم ، ولا يظهر منهن سوى أعينهن و فى أيديهن القفازات ، حتى اذا وصل الكل الى الحجر الاسود تعلق المتقدم منهم بكسوة الكعبة ، وأمسك بها بقوة بحيث لا يزحزحه عنها أحد ، وتبعه اخوانه وأزاحوا غيرهم من المستلمين بقوة وصبر لا يعتورهما ملل ، محتملين فى ذلك ضرب الضارب وانتهار الناهر ، حتى اذا كشفوا الناس عنه واستلموه جميعاً وقبّلوه ، أتت نساؤهم لتقبيله ، فيضرب الزوج رأس امرأته لتصطدم جبهتها فى الحجر ، فيحصل فيها أثر يكون عندهم علامة الحج (كالوشم عند حجاج بعض النصارى الى بيت المقدس) ، وعندها يصرخ الرجل قائلا لزوجته « حجيت ياحاجة » ؟ فتصيح قائلة « حجيت حجيت » ثم تلتفت الى الحجر الاسود قائلة « حجيت ، خبر ربك[1] انى حجيت » ثم ترفع رأسها الى السماء قائلة « تقبل أولا تقبل حجيت الا ّ تقبل غصباً تقبل » . هذا كله قبل وقوفهم بعرفة ، ومنه ترى أن اعتبارهم أنفسهم أنهم حجوا بمجرد الطواف والاستلام قبل الوقوف انما هو بعض ما كانت سنته قريش بعد واقعة الفيل ومحاه الاسلام .

وأخلاق هؤلاء الأعراب فى الحرم الشريف بخلاف ما هو معروف عنهم من شدتها فانك تراهم فيه على غاية ما يكون من السكينة واللين والتسامح ، لا يقابلون الاهانة الشخصية الا بالسكوت المطلق عن الاجابة عليها ، وما ذلك الا لشدة احترامهم حرم الله واجلالهم لبيته المعظم .

ولا شك ان قصد الشارع من الوقوف بعرفة انما هو وحدة الوجود فى مكان واحد ، تجمع اطرافه جميع أولئك الذين وفدوا من الاقطار المختلفة ، وهم وان اختلفت أجناسهم وتغايرت لغاتهم فقد توحدت وُجهتهم وتفردت غايتهم . نعم تجمعهم صحراء عرفة وتضمهم

---

(١) من تأمل في هذه العبارة بر ولا شك أنها من آثار الجاهلية ومنها يحكم قطعياً أن القوم قبل الاسلام ما كانوا يعبدون الحجر الاسود .

الى فؤاد ذلك الجبل حتى اذا اجتمع الشخص بالآخر، عرف كل واحد ما يُهم من أمر صاحبه، فيسيان وقد اهتم كلاهما بأمر أخيه مما تنصلح به أحوال الافراد وتستقيم به أمور الامم . وكيف لا وقد كان هذا الاجتماع بين يدى الله تعالى وفى حضرته، فى يوم يكون الانسان فيه بكليته عاطفة شريفة : هى الاخلاص بحقيقته، لا يشوبه رياء ولا يتطرق اليه مراء .

وكان موسم الحج موعدا بين الناس يقضون به أشغالهم ويمضون فيه أمورهم وذلك لصعوبة المواصلات التى كانت بينهم قال بعضهم :

ما أحسن الموسم من موعد * وأحسن الكعبة من مشهد

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يهتم بالحج من مبدأ الاسلام . وقد خرج من المدينة غير مرة حاجا أو معتمرا الى مكة ، وهى فى أيدى أعدائه من المشركين، غير حاسب أى حساب للخطر الذى ربما كان يصيبه منهم . فنعوه من دخوله البلد الحرام . وفى عام الحديبية أناب عنه أبا بكر بان يحج بالمسلمين . وفى السنة العاشرة من الهجرة حج بهم صلى الله عليه وسلم حجة الوداع . وفى خلافة أبى بكر أناب عنه فى الحج عمر لاشتغاله بحروب الردة . وحج عمر بالمسلمين فى خلافته تسع أو عشر مرات وهكذا كانت الخلفاء فى الغالب يقومون بفريضة الحج فى صدر الاسلام حتى يقفوا بأنفسهم على حال رعاياهم، وقد أفادهم هذا الامر فى سياسة ملكهم داخله وخارجه سياسة عظمى، ومن كانت مشاغل الملك تحول بينه وبين هذه الفريضة، أناب عنه على أمارة الحج رجلا من قرابته أو من عظماء أمته . وما زالوا يتراخون فى القيام بهذا الامر، حتى صار من النادر أن نسمع بخليفة أو ملك أو أمير أو وزير اسلامى يقوم باداء هذه الفريضة . ولعل أمراء المسلمين يعودون الى ما كان عليه سلفهم الصالح من احياء هذه الفريضة، لتحيا بها نفوسهم وممالكهم . نعم تحيا بها حياة طيبة : لانهم اذا تنازلوا لحظة الى منزلة الناس فى جميع طبقاتهم، واختلطوا مع العامة منهم قريبهم وبعيدهم، وسمعوا نداء الفقير وبكاء الضرير، وشاهدوا حاجة البائس ومقدار ما تعمل الفاقة فى احشاء هؤلاء المساكين الذين يحول سياج الملك بينهم وبين معرفتهم بحقيقتهم، هنالك يشعرون بما يجب عليهم لرعاياهم ويعملون على اعانة الضعيف واغاثة اللهيف . ويقلدهم فى ذلك الكبراء والعظماء مسوقين بطبيعة تقليد الصغير للكبير

(والناس على دين ملوكهم): فيصبحون وأممهم فى أهنأ بال، وأحسن حال، وهذه هى سعادة الراعى والرعيــة على السواء . نعم يجب على الامراء والعظماء والاغنياء أن يحجوا، حتى اذا وقفوا الحظة فى صف هؤلاء التعساء والبؤساء، ترققت قلوبهم وتحننت أفئدتهم وأصبحوا بعيدين عن عوامل الظلم والاستبداد، قريبين من مؤثرات الرأفة والرحمة . نعم نعم اذا وقف أولئك الملوك فى سلك هؤلاء الناس والكل مفلوك بعرش إله واحد عادل، وهو القادر القاهر، مالوا الى الاشتراكية الحقة واهتموا بحال المفلوكين والمظلومــين : فيردون عن هذا ظلامته، و يخففون عن ذلك محنته، و يحولون بين براثن القوى ومهجة الضعيف : و بذلك تستقيم أمور الرعية، وتعود الى ما كانت عليه فى خلافة الراشدين من الحياة الصحيحة .

ولقد شهدنا فى ذلك برهانا محسوساً : فان الجناب العالى الخديوى عند ما وقف هــذا الموقف أخذ يذكر حال البؤساء من حجاج بيت الله الحرام عموما والمصريين منهــم خصوصاً، مهتما بأمرهم كل الاهتمام ، مفكرا فى الواسطة التى تخفف من مصائبهم وتسهل من مصاعبهم . فكنت تسمع منه على الدوام ، ووجهــه حفظه الله محتقن بدماء الانفعال بعامل الرحمــة والحنان، عبارات الاسف على ما يقاسيه البؤساء من حجاج بيت الله الحرام، و يبحث على الطريق التى يكون من ورائها راحتهم وطمأنينتهم . وهــذه الفكرة لا تزال تشغل فكره الشريف الى الآن . كذلك كان الخلفاء والامراء فى صدر الاسلام، وكثيرا ما كانوا يحجون . حتى ان الرشيد كان يغزو عاما و يحج عاما (وقيل انه حج ماشيا غير مرة)، ولذلك كانت حكومته من أحسن الحكومات نظاما وأمتنها احكاما . فلما تقاعد الخلفاء عن تأدية هذا الواجب القومى وأهملوا شؤون رعاياهم ، استهان الناس بهم، وما زالوا كذلك حتى غلبوا على أمرهم !! نسأل الله أن يعيــد الى الاسلام عظمته ومجده .

على ان الحج له تأثير كبــير فى الاخلاق : فترى الحاج يتوب الى الله فى حجــه، ولا يتم مناسكه الا وهو على اعتقاد تام بمغفرة الله له وتفضــله بمحو ذنوبه من صحيفة أعماله . فاذا عاد الى بلاده سار فى طريق الفضيلة و يصعب عليه أن يتركه الى غيره مهما كان شابا : فان تمثل له شيطان غوايته، جرد له وازعا من نفسه يحول فيما بينهما ، و فى الغالب يكون هذا الوازع أقوى

من خصمه الذى ينهزم أمامه. واذاً فليس من مهذب حقيقى للنفس أحسن من تربية الحج ، فهو نعم المربى للنفوس الشريرة ونعم المهذب لها. ولقد قرر علماء التربية أخيراً أن الانسان لا بدله من شخص يسهل له طريق عمله ، حتى اذا انطلق فى سبيله فلاشىء يرده عنه : لذلك تراهم يستعملون كل الوسائل فى تحسينهم الى الصبى البليد أو الكسلان الاندفاع فى طريق العمل ولو مرة واحدة ، فاذا ذاق حلاوة الاجتهاد صعب عليه رجوعه الى الكسل والبلادة. على أن الحاج ان لم تردعه نفسه عن اقتراف الرذيلة فانه لا يحرم من الناس مؤنباً عليها ، أو معيراً على اقترافها ، فيرجع اذ ذاك عن غيه طوعاً أو كرهاً. وهذا أظنه حسبك فى فضيلة الحج التى لا تماثلها فضيلة ، والتى لو فطنت لها الحكومات الاسلامية لسهلت طريقه على رعاياهم ، حتى اذا كثر سواد الحاجين منهم كثرت فيهم الفضيلة التى تؤدى الى الخير العام والسعادة الحقيقية. ولقد كانت الحكومة المصرية فى الزمن الغابر تُخرِج الى الشوارع والحارات فى أشهر الحج اناساً يتغنون باناشيد (يسمونها تحانين) تحرك عواطف الناس الى أداء هذه الفريضة ، كما كانت خطباء المساجد تحث عليها وترغب الناس فيها (ولا يزالون كذلك الى الآن).

المسجد الاقصى

هو ثالث المساجد المقدسة عند المسلمين لقوله عليه الصلاة والسلام (لا تُشدّ الرحال الا الى ثلاث : المسجد الحرام ـ ومسجدى هذا ـ والمسجد الاقصى). وهو مسجد الصخرة ببيت المقدس. وكثير من المسلمين يزورونه بعد زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ويقولون لمن زاره فلان قدّس (بصيغة الماضى). وليس لزيارتهم له وقت مخصوص ولا شروط مخصوصة مثل ما فى الحج. ولكنها زيارة بسيطة يؤدونها فى أى زمن شاءوا ، واختيارها فى موسم شم النسيم انما هو للحاق مولد سيدنا موسى عليه السلام. وأهل تلك الجهة يحتفلون بهذا المولد احتفالا عظيماً جداً : ذلك أنهم بعد صلاة الجمعة التى قبل سبت النور

يذهب المتصرف والقاضي والمفتي ومشايخ الحرم الشريف وأرباب الطرق وأرباب الدولة من ملكيين وعسكريين في آلاف من الناس من عرب وأهلين وحاجين ، ويجتمعون حول شجرة الزيتون التي في حوش الحرم بين مصطبة الصخرة والمسجد الاقصى . وهذه الشجرة (١) ينسبونها الى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقولون انه هو الذي غرسها بمكانها هذا ؟؟ وهنالك ينشرون جملة أعلام يسمون بعضها بعلم النبي ، وبعضها بعلم داود ، وبعضها بعلم موسى ، وبعضها باعلام الصخرة ، ويسير الموكب من الحرم الشريف الى مشهد موسى عليه السلام ، وهو على مسافة ست ساعات من بيت المقدس في الجهة الشرقية الجنوبية . وهناك ينتهي الاحتفال الذي يبدأ به المولد ويستمر خمسة عشر يوما في الجبل وتقام فيه الاسواق لبيع ما يلزم للأعراب القاطنين بتلك الجهات .

أما الصخرة الشريفة فقد كانت قبلة للمسلمين بعد ما فرضت الصلاة مدة ستة عشر شهرا حتى أمرهم الله تعالى بتوجيه وجوههم الى الكعبة المكرمة في السنة الثانية للهجرة . وهي صخرة كبيرة ضربت عليها قبة عظيمة جدا ، فيها من أعمال القيشاني والفسيفساء (الموزاييك) والنقوش الذهبية وغيرها ما يدهش الفكر ويحار له العقل . وهذه الاعمال من عهد عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد . وللمأمون فيها أثر عمارة تشكر . وقد أصلح الحاكم بامر الله قبتها وضرب عليها قبة أخرى من الخشب لتحفظها من عبث الامطار وتأثير الاجواء . وارتفاع

---

(١) ويوجد في الوادي الذاهب من المزيريب الى جرش شجرة يزعم أهالي تلك البلاد ان عليا ابن أبي طالب غرسها هناك ؟ ولها عندهم مقام كبير ويأتون لزيارتها من جميع الجهات . وكذلك يوجد قرب العزيزية بولاية سيواس صخرة في رأس جبل يبلغ ارتفاعه ٢٠٠ متر تقريبا يسمونها طاش ديلن (ثاقب الحجر) ويزعمون ان سيدنا عليا كان مارا بهذا الوادي وكان راكبا فرسا فتأخر فلوها البرعي ولما توارى في منعطف الوادي نظرت الفرس فلم تر فلوها فصهلت فسمع فلوها صوتها فقفز من مكانه فوق الجبل فوقع في الصخرة فخرقها ومات وهناك له قبر معروف ، وفي طريق السالك في هذا الوادي الى قيصرية صخرة عظيمة يزعمون ان عليا ألقى بها على حاكم قيصرية الذي كان بقصده أن يسد عليه الطريق ، وفي جوار قرية القنيطرة (من أعمال الشام) جنوبا جبل علي ويزعمون ان عليا لما توفي وضعوه على جمل وأطلقوه فسار به الى هذا الجبل وله مسجد يقصده الناس لزيارته وخصوصاً الشيعة .

الاولى منهما وهى السفلى ١١,٥٠ مترا وقطرها عشرون مترا ، أما الثانية (العليا) فارتفاعها ثلاثون مترا . ولقد عمرها صلاح الدين الايوبى بعد أن عبث الصليبيون بها وحولوها الى كنيسة وجعلوا هيكلها فوق الصخرة . ثم عمرها السلطان سليمان القانونى . وهذه القبة الآن آية من آيات الصناعة الرومية والعربية القديمتين ، مما يستعصى على عمال زمننا الحاضر اصلاح مااعتل منها . وهى قائمة على قاعدة مثمنة الشكل ، طول كل ضلع منها ٢٠,٤٠ مترا وحوائطها مكسوة بألواح كبيرة من المرمر فيها نقوش طبيعية جميلة جدا ومتناسبة مع بعضها تناسباً غريبا : حتى ليتخيل للانسان انها مرسومة بيد الرسامين الماهرين لا بيد هذه الطبيعة المتواضعة التى لا تريد أن تعلن عن نفسها باى حال من الاحوال !!! وأرضية القبة من الداخل مفروشة بالرخام المجزع ، وحوله أعمال الموزاييك المرمرية من ألوان مختلفة . أما حوائطها من الخارج فكلها بالقيشانى الغريب فى بابه ، والقديم منه ثمين جدا ، حتى أن القيشانى الذى رممت به مدة عمارة السلطان سليمان القانونى أقل منه فى قيمته . وعلى كل حال فهذا وذاك لا يمكننا أن نعوض ما تعبث به يد الضياع منهما . ولو فقه ذلك حماتها وخادموها لما تجرءوا على اغتيالها وبيعها من الفرنجة السائحين بثمن بخس لا يسمن ولا يغنى من جوع !!

وفى وسط هذه القبة ترى الصخرة الشريفة : وهى من الجرانيت الاسود ، وحولها درزين من الخشب على شكل مربع طوله من الشرق الى الغرب ١٧,٧٠ مترا ، وعرضه ١٣,٥٠ مترا ويبلغ ارتفاعه نحو مترين . وفى زواياه جملة محاريب الى القبلة ، يسمون واحدا منها بمحراب ابراهيم ، وآخر بمحراب داود ، وآخر بمحراب على رضى الله عنه ، ولا أدرى معنى لهذه التسمية الاخيرة لانه لم يعرف عن علىّ رضى الله عنه انه قدم بيت المقدس .

ويبرز من الصخرة لسان الى جهة القبلة يميل الى الشرق ، لهم فيه أقوال كثيرة : منها انه سلم على النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء ، وسلّم على عمر رضى الله عنه عند قدومه لفتح المقدس !!! وتحت هذا اللسان مغارة صغيرة ، ينزل اليها بنحو ١٥ درجة ضيقة . وهى لا تزيد عن أربعة أمتار طولا فى ثلاثة أمتار عرضا ، والحوائط التى بنيت فى محيطها تجعل شكلها مربعا تقريباً . وفى سقف هذه المغارة فوهة تنفذ الى ظهر الصخرة ، كانت مكان القرابين التى كان

يقدمها ابراهيم وخلفاؤه الى الله تعالى ، ومنها أتى تقديس هذه الصخرة . وفى قبالة هذه الفوهة بلاطة من أرضية المغارة تغطى بئراً يسمونها جُب الارواح، وللقوم فيها حكايات كثيرة أشبه شئ بالخرافات ! ولعل لهذه التسمية أصلا أخذوه من دماء القرابين التى كانت تنزل اليها ، وربما كان القوم يلقون فيها الهدايا النفيسة التى كانوا يقدمونها الى الصخرة ، كما كان الشأن فى البئر التى كانت فى جوف الكعبة . وعلى ظهر الصخرة من جهة الشرق آثار اثنى عشر قدما : كان النصارى فى القرون الوسطى ينسبونها الى عيسى عليه السلام، فلما تغلب المسلمون على بيت المقدس قالوا انها آثار قدمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين سار عليها ليلة الاسراء . ومع ماهى عليه من عدم النظام ، وانها على خط مستقيم تقريبا ، وهو مالا يمكن السير عليه لفتحة ما بين الرجلين ، فانها تكاد يكون شكلها واحدا ، وهو مالا ينطبق على شكل القدمين ، خصوصاً وانها أصغر بكثير من الاقدام المنسوبة له صلى الله عليه وسلم مما ذكرناه فى صفحة ١٢٥ من هذا الكتاب . ومن هذا وذاك ترى انها كلها موضوعة لا أثر لها من الصحة : يؤيد ذلك أنه لم يرد فى ديننا الحنيف ما يشير الى شئ من ذلك بالمرة . وبجوار هذه الاقدام أثر قدم آخر ينسبونه الى ادريس عليه السلام . ويوجد بجانب الصخرة من الجهة الغربية بجوار الدرابزين خزانة من الفضة فيها قطعة من الحجر عليها أثر قدم ينسبونه أيضا الى نبينا صلوات الله عليه ، وفيها أيضا بعض شعرات من لحيته الشريفة .

ويزعمون أن هذه الصخرة معلقة فى الهواء ، وانما بنيت تحتها هذه الحوائط حتى لا يفتتن الناس بها . واظن أن فكرة تعليق الصخرة مأخوذة عن اليهود ، وربما كان لهم شبه حق فى ذلك لكثرة الفضاء الذى حولها ، كالصهاريج وغيرها من السراديب والمغاير . على أنه لا يبعد أن الصخرة الشريفة لا تتصل نقطتها المركزية بالجبل الا فى النقطة الصخرية التى تشاهد فى الجهة الغربية الشمالية من أرضية حوش الحرم . وعلى ذلك تكون كانها ممتدة فى الفضاء على مسافة ستين أو سبعين مترا ما بين رأسها وقاعدتها . وكأن بناء هذه المصطبة حولها انما كان دعامة لها من جهة ولسهولة الوصول الى رأسها الذى كان مكان القرابين من جهة أخرى .

ولقبة الصخرة أربعة أبواب : واحد فى شمالها ، والثانى فى جنوبها ، والثالث فى شرقيها ، والرابع فى غربيها . والاول منها يسمى باب الجنة . وفى الاضلاع التى ليست بها أبواب توجد شبابيك كبيرة ، فيها أشكال كثيرة من الزجاج الملوّن ، غاية فى حسن الصناعة ، وخصوصاً فى تنسيق الالوان المختلفة التى بانعكاسها على جُدُر القبة تعطى أشكالا بديعة جداً تزيد فى رونقها ، لاسيما اذا كانت الابواب مقفلة !!

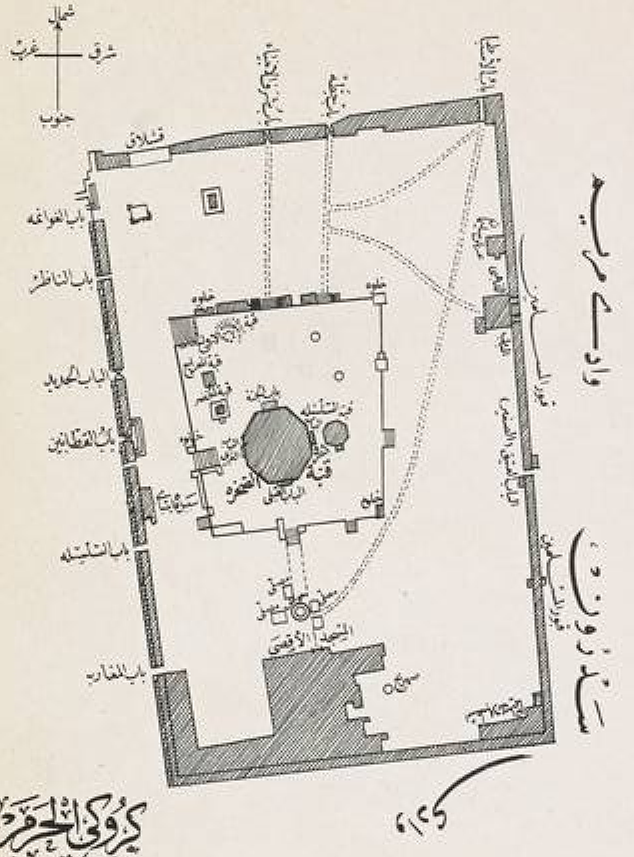
ويحيط بالقبة من الخارج فناء كبير أرضه مفروشة بالرخام يسمونه مصطبة الصخرة . وطول هذه المصطبة من الشرق الى الغرب لا يقل عن مائة وثمانين متراً ، وعرضها يزيد عن مائة متر . وترى بها هنا وهناك حول قبة الصخرة جملة قباب صغيرة ، يسمون واحدة منها بقبة المعراج ، يعنى أنها ضربت على المكان الذى عرج منه النبى صلى الله عليه وسلم . والثانية يسمونها قبة الخضر . والثالثة قبة الارواح الخ . وغالبها فى الجهة الغربية من قبة الصخرة . أما الشرقية ففيها قبة السلسلة ، وهو شكل مصغّر لقبة الصخرة الا أنها قامت على عمد من المرمر : ويزعمون أنها كانت محل حكومة داود عليه السلام ، ويقولون انه كان بجوارها سلسلة تنزل من السماء اذا أمسك الشخص بها وحلف عليها كذبا انفصلت عنها حلقة فصعقه لوقته ؟؟؟

وهذه المصطبة ترتفع عن أرضية الحرم بنحو ثلاثة أمتار ونصف ، ويصعد اليها بثمانية سلالم فى كل جهاتها : منها ثلاثة فى الغرب ، وسُلّمان فى الشمال ، وسلمان فى الجنوب ، وسلم واحد فى جهة الشرق . وسعة الدرجة الواحدة من هذه السلالم لا تقل عن عشرين متراً . ويقوم على طول الدرجة العليا من جميعها خمسة أعمدة قامت عليها أربعة أقواس لا يقل ارتفاعها عن عشرة أمتار ، وهى أشبه شىء بمداخل المعابد الرومانية . وربما كانت من أعمال هيرودوس ملك اليهود ، حين بنائه للهيكل سنة ١٩ قبل المسيح . ويسمون هذه الاقواس بالموازين : يعنى التى تزن أعمال الخلق يوم القيامة ؟؟ كما يزعمون أن الصخرة تكون عرش الله فى ذلك اليوم ؟؟؟ ومسلمو القدس يشتركون فى هذه الافكار مع اليهود واذاً فأصلها يهودى صرف .



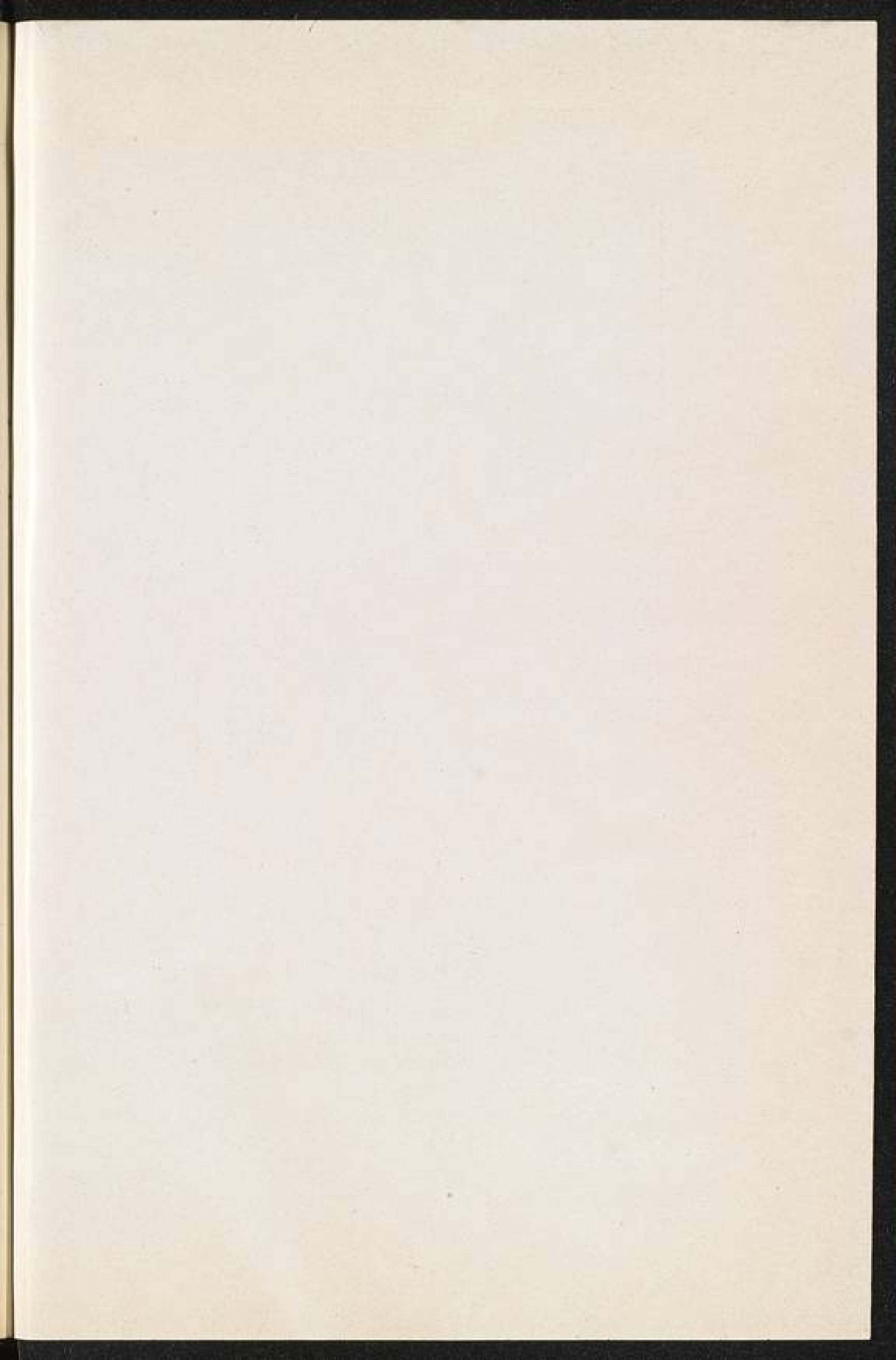
BOEHME & ANDERER, CAIRO.

قبة الصخرة وإلى جوارها قبة السلسلة



كروكي الحرم الأقصى

BOEHME & ANDERER, CAIRO.



وحول مصطبة الصخرة يوجد حوش الحرم القدسى ، وهو على هيئة مستطيل غير منتظم من الشمال الى الجنوب : وطول ضلعه الغربى ٤٩٠ متر ، والشرقى ٤٧٤ متر ، والشمالى ٣٢١ متر ، والجنوبى ٢٨٣ متر . وفى الجهة الشرقية وبعض القبلية سور به مزاغل ارتفاعه ٨ أمتار تقريباً ، وهو قديم جداً رممه السلطان صلاح الدين الايوبى ، والسلطان سليمان القانونى . وهاتان الجهتان تشرفان على وادى سدرون (وادى مريم) ، وبعضهم يسميه وادى جهنم ، واليهود يسمونه وادى يوسفات ، وقد ورد ذكره فى التوراة بلفظ يوشافاط ، ويزعمون أن به يحشر الناس يوم القيامة ، وهنالك يتسع فناؤه وتنفسح أرجاؤه ؟ ؟ وهذا الوادى يفصل بين جبل الزيتون وجبل صهيون الذى بنيت عليه مدينة بيت المقدس . أما الجهتان الاخريان (الغربية والشمالية) ففيهما جملة مدارس على محيط الحرم ، اشهرها مدرسة قايتباى فى الجهة الغربية ويسكنها الناس الآن ، وأما التى فى الجهة الشمالية ففيها قشلاق للعسكر .

وفى حوش الحرم جملة مصاطب صغيرة يصلون فيها ، وفى كل واحدة محراب الى القبلة . وفى الجهة الغربية قبة جميلة جداً أقيمت على سبيل للاشرف قايتباى . أما الجهة القبلية ففيها مسجد كبير فخيم يسمونه بالمسجد الاقصى : وليس هو المراد بما ذكر فى القرآن الكريم : لانه كان كنيسة بناها الامبراطور جوستنيان فى منتصف القرن السادس للمسيح ، وحوّلت الى مسجد اسلامى بعد الفتح . وانما كان المراد به المسجد الذى حول الصخرة نفسها كما تقدم . ولما حضر سيدنا عمر رضى الله عنه الى بيت المقدس ، صلى فى الجانب الشرقى الجنوبى للمسجد الاقصى ، وترى مصلاه الى الآن على بساطة تامة فى بنائه بجوار الفخامة التى عليها باقى المسجد . وباب هذا المسجد الى الشمال فيما يقابل مسجد الصخرة ، وطوله من الشمال الى الجنوب ٨٠ متراً ، ومن الشرق الى الغرب ٥٥ متراً ، من غير الزيادات التى أضيفت عليه شرقاً وغرباً . وجميعه مسقوف ، ويحمل سقفه أعمدة عظيمة من الرخام المرمر الجميل : ومن ضمنها عمودان بجوار بعضهما الى جهة القبلة من الشرق ، عليهما دربزين من الحديد ليمنع الناس من الولوج بينهما ، بدعوى أن من يمر من بينهما يكون سعيداً والا كان شقياً

(كما يقال عن العمودين اللذين بمسجد عمرو بن العاص بفسطاط مصر) ! !

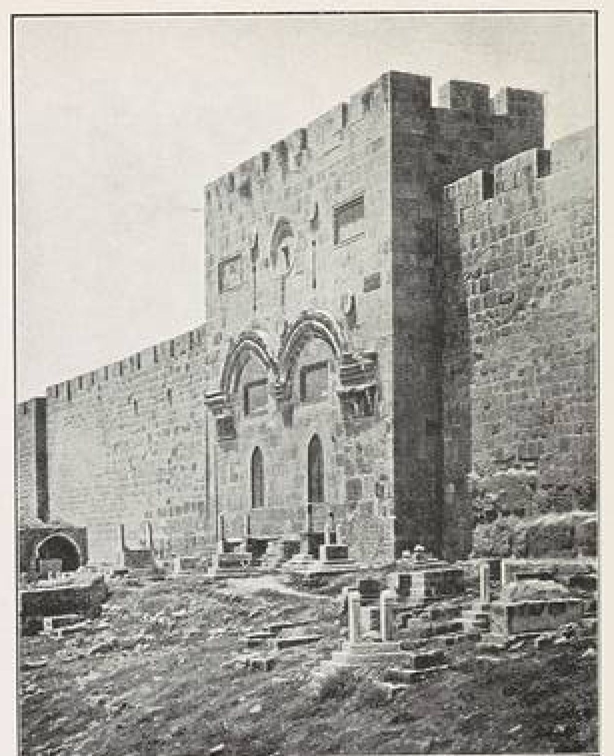
و فى هذا المسجد منبر جميل جداً من خشب الابنوس المطعم بالسن والصدف أهداه اليه نور الدين الشهيد محمود بن زنكى . والى جواره من الغرب محراب صغير فى أرضيته حجر به أثر قدم ينسبونه الى عيسى عليه السلام .

و يوجد فى حوش الحرم وخصوصاً فى الجهة الغربية والقبلية صهاريج كثيرة ، وأبواب توصل الى كهوف تحت الارض : واحد منها بجوار المسجد الاقصى من جهة الشرق : و ينزل اليه بجملة درجات من الحجر ، توصل الى مكان واسع مربع الشكل ، فى وسطه عمودان كبيران من الحجر الصلد ، يحملان قباباً يستند عليها سقف المكان ، و فى جوانبه حوائط بها فتحات مسدودة .

وأهم هذه الكهوف ما يسمونه باصطبلات سليمان : وتوجد فى الزاوية القبلية الشرقية للحرم . و ينزل اليها بواسطة سلالم صغيرة بجوار السور الشرقى ، وترى فى وسطها صدفة كبيرة بجانبها دخلة فيها اناء كبير من الرخام ، و يزعمون انه مهد مريم أو محراب مريم و يقولون ان زكرياء كان يأتيها بالطعام هناك ؟ ؟ وهذه السلالم توصل الى فناء رحيب ، يحمل عرشه اثنا عشر صفا من العمد الكبيرة ، يكوّن مجموعها ٨٨ عموداً ، ارتفاع متوسطها ثمانية أمتار أو أكثر . وكل هذه العمد تحمل أقواساً عليها قباب تدعم أرضية الحرم . وحول هذا الفناء حوائط من البناء العتيق ، و فى الجهة القبلية منه باب مسدود ينفذ على وادى سدرون . وفى الجهة الشمالية والغربية فتحات مسدودة بعضها صغير و بعضها كبير ، ربما كانت توصل الى مثل هذا المكان : مما جعل بعضه فيما بعد صهاريج لخزن مياه الامطار معروفة بأسماء من اتخذها لهذا الغرض ، وقد رأيت فى زيارتى للقدس سنة ١٩١٠م أمام بعض هذه الفتحات آثار حفر قديم .

ومن هذا يتضح لك ان أرضية الحرم كلها معلقة على مثل هذه العمد : مما يدل على أن هذا كله إنما هو الهيكل الذى بناه سليمان أو خلفاؤه وسماه الصليبيون باصطبلات سليمان .

ولا يبعد أن اليهود استعملت جانباً من هذا المكان وقت الكوارث التى حلت بهم زمن



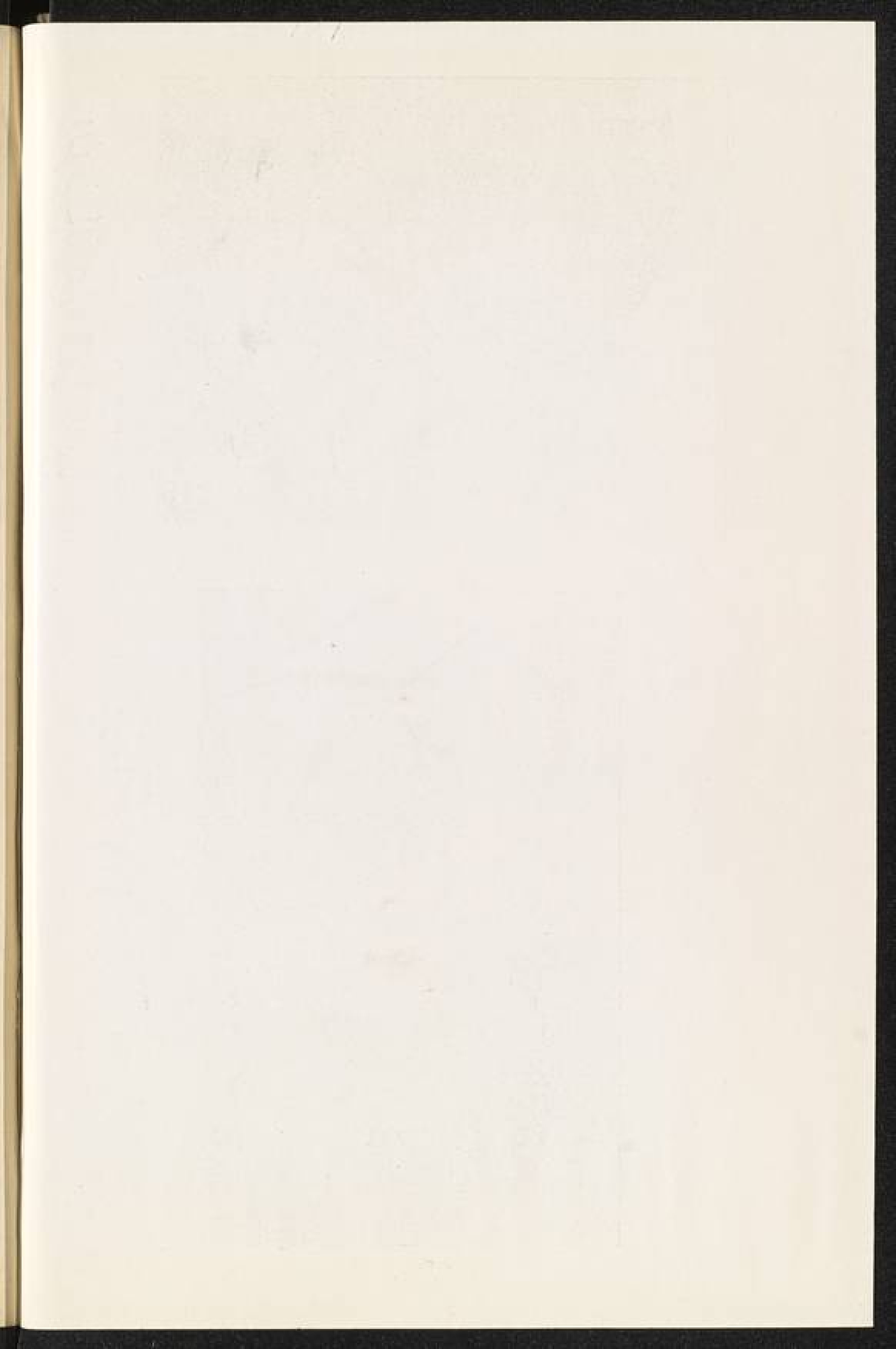
BOEHME & ANDERER, CAIRO.

الباب الذهبي للمسجد الاقصى



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

اليهود يستلمون احجار سور المسجد الاقصى



سنحاريب و بختنصر وطيطوس، ودفنوا فيه دفائنهم الثمينة ، التى أ كثرت الجرائد أخيرا من ذكر العثور عليها أو على بعضها ، وخبطت فى شأنها و وصفها كثيرا سواء بحق أو بغير حق، واهتمت الدولة بها اهتماما عظيما .

وللحرم الشريف عشرة أبواب : سبعة منها فى الجهة الغربية، أهمها باب السلسلة فى الوسط، ثم باب المغاربة الى جنوبه ، و باب القطانين الى شماله . و فى الجهة الشمالية باب شرف الانبياء وهو الذى دخل منه عمر الى المسجد ، ثم باب الاسباط و يسمونه باب حطة ، و يزعمون أنه هو الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم فى قوله تعالى فى سورة البقرة « وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة » . و يوجد فى جهة الشرق باب الظاهرية و ينزل اليه بسلالم توصل الى دهليز يحيط ببناء مربع ، فيه أعمدة من الرخام من جوانبه الغربى والشمالى والجنوبى يقوم عليها سقف المكان . وقد أحيطت هذه الاعمدة بدر بزين من الحديد عليه قطع كثيرة من الخرق البالية ، يضعها العامة تذكارا لزيارتهم له . و يقولون ان هذا المكان كان محل حكومة سليمان عليه السلام ؟ و به الى الان عمودان من السماق (نوع جميل جدا من المرمر يندر وجوده الآن)، يقولون انهما أرسلا الى سليمان هدية من بلقيس ملكة سبأ . و بجوار هذا المكان باب له منفذان مغلقان على وادى سدرون : القبلى منهما يسمى باب التوبة ، والشمالى باب الرحمة ، وهذا الباب كان يسمى مدة العمارة التى قام بها هيرودوس فى الهيكل باب سوزان ، وهو الذى دخل منه هرقل الى بيت المقدس سنة ٦٣٩ ميلادية، ومن ثم سمى بالباب الذهبى . ومفاتيح المسجد الاقصى والصخرة من مدة مديدة فى يد عائلة الخالدى الشهيرة ، وكذلك فى يدهم مفاتيح كنيسة القيامة لعدم اتفاق طوائف النصارى عليها .

أما المدينة فهى واقعة فى درجة ٣١ و ٢٧ دقيقة من خطوط العرض الشمالى، ودرجة ٣٢ و ٥٤ دقيقة و ٤٥ ثانية من خطوط الطول الشرقى ، ومتوسط ارتفاعها عن سطح البحر ٧٧٠ متر . وهى مبنية على هضبتين عاليتين احداهما على جبل صهيون والثانية على جبل عكره ، وتنحدر مبانيها نحو الشرق الى وادى سدرون ، ونحو الجنوب الغربى الى وادى هنوم . وعدد سكانها الآن ٧٠ ألفا : منهم عشرة من المسلمين، وخمسة وأربعون من اليهود،

وخمسة عشر من النصارى من أجناس مختلفة وأغلبهم من الاروام .

ولمدينة القدس طريق حديدى ضيق من يافا طوله نحو ٨٠ كيلومترا ، وهو لشركة فرنساوية قامت بعمله فى منتصف القرن الماضى .

ولقد كانت هذه المدينة فى منتصف القرن الخامس عشر قبل المسيح عامرة ، وكانت تسمى يَبُوس وكان سكانها يُسَمَّوْنَ اليبوسيين .

وفى مبدا القرن العاشر قبل الميلاد استولى عليها داود ملك بنى اسرائيل ، وكان ملكه فى حبرون ، وأتى اليها بتابوت العهد وعَمَّر فيها كثيرا وسماها أورشليم ، وبنى فى غربها الجنوبى مدينته التى سماها باسمه ، وقبره موجود فيها على جبل موريا ، وخَلَفه ابنه سليمان فزاد فى عمارتها وبنى على الصخرة الهيكل المقدس . ولما تقسمت مملكة فلسطين بين أسباط بنى اسرائيل ، وقعت مدينة أورشليم فى نصيب يهودا . وفى مدة بنيه حاصرها سنحاريب ملك بابل سنة ٧١٢ ق م ورجع عنها بعد أن هدم جانبا منها ونهب شيئا من أمتعة هيكلها . ثم استولى عليها بختنصر ثلاث دفعات : سنة ٦٠٦ و ٥٩٦ و ٥٨٨ قبل الميلاد . وبعد أن نهبها واستولى على كل ما عثر عليه من ذخائرها ، أمر بها فهدمت ولم يتركها الا بعد أن جعل عاليها سافلها .

وفى سنة ٥٣٦ ق م استولى عليها قيروش ملك العجم ، وأمر بها فبنيت وجدد بناء هيكلها سنة ٥١٦ ق م ، وأعاد اليه جميع ذخائره التى نهبها الاشوريون . ومازالت أورشليم عامرة حتى استولى عليها الرومانيون مدة الملك بومبيوس سنة ٦٤ ق م . وفى مدة حكم الرومان ظهر فيها المسيح عليه السلام . ولما استولى عليها الملك طيطوس سنة ٧٠ م ، أحرق هيكلها وهدم المدينة بعد أن طرد اليهود منها . ومازالت حتى عمرها الملك ادريان وسماها ايليا . ومنع اليهود من أن يطئوا أرضها ، وجعل الديانة الرسمية فيها المسيحية ، وبنى فيها كنيسة القيامة سنة ١٣٨ م . ومازالت مدينة القدس فى يد الرومانيين حتى استولى عليها العرب فى سنة ٦٣٦ م ، وكانوا يسمونها بيت المقدس ، وأتى اليها سيدنا عمر بن الخطاب بنفسه لفتحها وأطلق الحرية المطلقة للنصارى واليهود فى مزاولة دياناتهم والتصرف فى أموالهم ، ومنحهم كثيرا من فضله فى عهده الذى كتبه لهم !!! مما يدل على منتهى التسامح الاسلامى الذى

كثيرا ما ينساه أو يتناساه أعداؤه خصوصاً فى هذه الايام . و فى سنة ٩٦٩ م تغلب الفاطميون على هذه المدينة ، ثم استولى عليها السلجوقيون فى سنة ١٠٨٦ م ، ثم أخذها الصليبيون فى سنة ١٠٩٩ م ، وأقاموا فيها مملكة سموها مملكة القدس ، مكثت فى أيديهم كل مدة الحروب الصليبية الاولى ، وأحسن ملوكها هو الذى كانت تسميه العرب البردويل (Bauduin) ، ومازالت هذه المملكة فى يد الصليبيين حتى غلبهم عليها صلاح الدين الايوبى فى سنة ١١٨٦ م ، و بقيت فى حكم ملوك مصر حتى استولى عليها الاتراك سنة ١٥١٧ م ، وهى باقية بايديهم الى الآن . وللسلطان سليمان القانونى فى هذه البلاد آثار كثيرة تذكر له بالشكر ، ولكن أهلها اختلط عليهم الامر فينسبون كل اصلاح له الى سليمان بن داود عليه السلام .

ولتتمة الكلام على بيت المقدس نقول لك : انه يوجد فيه مزارات كثيرة : منها وراء سور المدينة فى الجهة الغربية القبلية فى قمة جبل صهيون ، مسجد فيه قبر سيدنا داود عليه السلام ، و يقول بعضهم ان سليمان ولده مدفون معه ، و يقول آخرون بل هو مدفون فى مصطبة الصخرة . و بعضهم يقول انه داخلها تحت البلاطة السوداء . و يوجد تحت سور المدينة من جهة الشرق قبر سيدنا عبادة بن الصامت وسيدنا شداد بن أوس الانصارى . والى ناحية من هناك المغارة التى فيها قبر السيدة مريم . وفى جبل طور زيتا قبر سيدنا سلمان الفارسى الصحابى ، والسيدة رابعة العدوية ، وقبة صعود سيدنا عيسى عليه السلام ، وقبر الشيخ حسن الراعى وقبر العزير عليه السلام . وعلى بعد ست ساعات بالعربة من جنوب بيت المقدس مدينة الخليل ، و يسميها اليهود حبرون . وفيها مسجد مرتفع عن الارض بنحو عشرة أمتار ، و به قبر ابراهيم وسارة واسحق و يعقوب و يوسف عليهم السلام ، وهذه القبور كلها فى مغارة تحت أرضية المسجد ، وهى مغارة المكفيلة التى اشتراها ابراهيم ليدفن بها ، ولها مزارات على سطحها فى أرض المسجد . وعدد سكان هذه المدينة عشرون ألفا منهم ١٥ من اليهود والباقى من المسلمين . و فى الطريق بين الخليل و بيت المقدس مدينة بيت لحم ، وفيها كنيسة فخمة أقيمت على المكان الذى ولد فيه المسيح . ترى فى داخلها على الدوام عسكرا من الجند العثمانى لحفظ النظام الذى كثيراً ما يعبث به تشاحن بعض الطوائف المسيحية مع بعضهم .

كيف تحج أيها المسلم

اعلم وفقك الله لطاعته، أن الحج فُرِضَ على المسلمين فى أواخر سنة تسع من الهجرة، مرة واحدة فى العمر على كل مسلم، حر، مكلف، صحيح البدن، ميسور الزاد والراحلة، قادر على نفقة عياله مدة سفره فى حجه، مع أمن الطريق اليه . ويحرم الحج بمال حرام، و يكره بدون اذن من له الولاية على من يريده ، وتجوز الانابة فيه عند العجز عن أدائه بحبس أو مرض، فان زال وجب اداؤه بالذات .

فاذا تيسر لك ذلك كله فسافر على بركة الله لاداء هذه الفريضة . فاذا وصلت الى ميقات الاحرام فأحرم بنية الحج (أو العمرة [1] ان شئت أو هما معا) قائلا : اللهم انى نويت الاحرام لحج بيتك المعظم فيسره لى وتقبله منى (وكيفية الاحرام ان يتجرد الرجل من مخيط الثياب، و يلبس ازارا معه رداء و نعلان ان تيسر له ذلك . أما المرأة فتلبس ملابسها و تكشف كفيها و وجهها ان لم تخش الفتنة . و يسن تقليم الاظافر وحلق ماشعث تحت البطن «العانة» وتسريح الشعر والغسل قبل الاحرام وصلاة ركعتين يبدؤه بهما) . ثم تلبي قائلا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك . ولا تزال تكرر التلبية من وقت الى آخر، حتى اذا دخلت مكة قلت : اللهم ان هذا الحرم حرمك والامن أمنك والعبد عبدك ، اللهم انى جئتك من بلاد بعيدة بذنوب كثيرة راجياً أن تستقبلنى بمحض عفوك وكرمك وأن تحرم جسدى على النار ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

---

(١) العمرة فى اصطلاح الحجيج زيارة البيت الحرام . وهي سنة عند المسلمين وأركانها احرام، وطواف، وسعي . وحلق أو تقصير، وليس لها زمن مخصوص، وكثير من الحجاج اذا وصلوا الى مكة يذهبون الي التنعيم، وهو أقرب مكان في الحل على طريق المدينة قبل وادي فاطمة، ويتوضئون من ماء هناك ثم يحرمون بنية الاعتمار ويصلون ركعتين سنة احرام العمرة، ثم يعودون الي مكة فيطوفون ويسعون ثم يحلقون أو يقصرون ثم يتحللون .

وصحبه وسلم . فاذا جئت الى الحرم فادخل من باب السلام قائلا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا بالسلام وأدخلنا الجنة دار السلام بفضلك ياذا الجلال والاكرام . ثم سر نحو البيت من جهة الشرق قائلا : اللهم ان هذا الحرم حرمك وهذا الامن أمنك ، اللهم حرّم جسمي على النار . فاذا وقع بصرك على الكعبة فقل : بسم الله والله أكبر (ثلاثا) لا إله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . وادخل من باب شيبة قائلا : رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ، وقل جاء الحق و زهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا . فاذا أتيت الحجر الاسود فاستقبله وقل : بسم اللهِ اللهُ أكبر ولله الحمد ، اللهم اغفر لى ذنبي وطهّر لى قلبي واشرح لى صدرى وعافنى برحمتك فيمن تعافى . ثم استلمه بيمينك وقبله (ان أمكنك) وانو الطواف قائلا : اللهم انى نويت طواف بيتك المعظم سبعة أشواط لوجهك الكريم ، اللهم يسرها لى وتقبلها منى ، ثم انطلق فى طوافك قائلا : اللهم ايمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء بعهدك واتباعا لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، اشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده و رسوله ، اللهم ان هذا البيت بيتك والحرم حرمك والامن أمنك وهذا مقام العائذ بك من النار فاعذنى منها يا عزيز يا غفار ، اللهم انى أعوذ بك من الكفر والفقر وضيق الصدر وعذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ، اللهم انى أسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة ، اللهم أظلنى تحت عرشك يوم لا ظل الا ظلك واسقنى بكأس نبيك محمد صلى الله عليه وسلم شربة هنيئة مريئة لا أظمأ بعدها أبدا ، اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا وذنبا مغفورا وتجارة لن تبور ، اللهم انى أعوذ بك من الشك والشرك والنفاق وسوء الاخلاق وسوء المنقلب وسوء المنظر فى المال والاهل والولد ، اللهم انى عبدك وابن عبدك قد أتيتك بذنوب كثيرة ، اللهم ما كان لك منها فاغفره لى وما كان منها لعبادك فاحمله عنى . وكلما قربت من الحجر الاسود قل : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، فاذا حاذيته فقل مستلما ان أمكنك أو مسلما عليه بيمينك

من بعد : بسم الله الله أكبر ، ثم ادع الله تعالى بما تشاء من الادعية السابقة أو بما يحضرك من غيرها ، والا فحسبك الذكر والتوحيد والاستغفار ويجمعها قولك : سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . ويسن الاضطباع فى طواف القدوم : وهو اخراج الذراع الأيمن فوق الرداء الذى تشتمل به ، وكذلك يسن فيه الرمل (أى الجرى بخطى ضيقة اشارة الى أن الجسم ممتلئ قوة وشهامة ، ولم تؤثر فيه عوامل مشقة السفر فى سبيل الله) .

وبعد طوافك سبعة أشواط على هذا النظام توجه خلف مقام ابراهيم وصل ركعتين سنة الطواف ، ثم قل : اللهم انك دعوت عبادك الى بيتك الحرام وقد جئت طائعا لامرك فاغفر لى وارحمنى ، اللهم اغفر لى ولوالدى وارحمهما كما ربيانى صغيرا ، اللهم اغفر لى ولجميع المؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات . ثم اقصد الملتزم وقل اللهم يارب البيت العتيق أعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا واخواننا وأولادنا من النار ، اللهم أحسن عاقبتنا فى الامور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم انى عبدك وابن عبدك واقف تحت بابك ملتزم لاعتابك متذلل بين يديك أرجو رحمتك وأخشى عذابك ، اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واغفر لى ذنبى . ثم اذهب الى بئر زمزم فاشرب منها هنيئا مريئا . ثم توجه الى المسعى فاذا خرجت من باب الصفا فقل : بسم الله الرحمن الرحيم ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما ، ثم اصعد على درجات الصفا وتوجه الى الكعبة فاذا شاهدتها قل : بسم الله الله أكبر ولله الحمد ، ثم اسع الى المروة قائلا : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ، لا اله الا الله ولا نعبد الا اياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، اللهم انى أعوذ بك من عضال الداء وخيبة الرجاء وشماتة الاعداء وزوال النعمة ونزول النقمة ، وتهرول بين الميلين الاخضرين (وهما عمودان مبنيان فى جدار الحرم : واحد بجوار باب البغلة ، والآخر بجوار باب على ، ومسافة ما بينهما سبعون مترا) قائلا : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم انك أنت الاعز الاكرم ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار يا عزيز يا غفار

يا أرحم الراحمين ثم ادع الله بما شئت، حتى اذا أتيت المروة فاصعد على سلمها وتوجه الى المسعى [١] وادع بما شئت . و يعد هذا شوطاً من السعي . وهكذا تسعى في الاشواط السبعة . وتستحضر أثناء سعيك ذلك الجهد الذى أصاب هاجر فى هرولتها طلبا للماء عند قدومها بولدها الى هذه الفلاة ورحمة الله بها بعثورها على عين زمزم، فكان عليها استعمار مكة التى أصبحت قبلة للمسلمين فى جميع أطراف الارض . واذا كنت متمتعاً (محرما بالعمرة) حلقت أو قصرت وتحللت (فككت احرامك)، حتى اذا كان يوم التروية (اليوم الذى قبل يوم عرفة)، أحرمت للحج . أما ان كنت قارنا (أعنى محرما بالحج والعمرة معا) أو مفردا (محرما بالحج فقط)، بقيت باحرامك فى مكة الى يوم التروية ، ثم تتوجه الى عرفة فتبيت فيها ان لم تكن أردت المبيت بمنى . وتقضى بعرفة [٢] يوم التاسع من ذى الحجة وجزأ من ليلة العاشر فى الذكر والتوحيد والتسبيح والتهليل والتلبية والصلاة على النبي والاكثار من تلاوة سورة الاخلاص ومن قولك لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي و يميت وهو على كل شئ قدير، وتكثر من الدعاء والتضرع الى الله بقبول حجك وغفران ذنبك خصوصاً بعد العصر . و يسن الجمع (تقديم العصر مع الظهر) مع الامام بعرفة . فاذا أفاض الامام أو نائبه

---

(١) المسعى هو مابين الصفا والمروة وطوله نحو أربعمائة وعشرين متراً، وهو شارع عمومي محاط بالبيوت والمخازن والدكاكين، مما يجعله مزدحماً بالناس زمن الموسم لاسيما عند دخول القوافل بالحجيج الي مكة، وهنا لك يكثر الساعون ويصادفون في سعيهم مشقات كثيرة . وعلى طرفي المسعي وخصوصاً من جهة المروة دكاكين للحلاقين يحلق أو يقصر فيها من أراد ان يتحلل من احرامه .

(٢) يكفي فى الوقوف بعرفة لحظة من يوم التاسع وليلة العاشر . ولو فاتك الوقوف فقد فاتك الحج من عامك ، فتحلل بعمرة ، وعليك قضاؤه في العام القابل ولو كان حجك نفلا . هذا عند أهل السنة ، أما عند الشيعة من الاعجام فحاجهم لو فاته الوقوف فانه لا يتحلل حتى يقضى حجه في عام قابل : لذلك تراهم يبالغون في الاحتياط لوقوفهم فيقفون فى اليوم التاسع والعاشر، ولا ينزلون من عرفة الا بعد قليل من ليل الحادي عشر .

ولقد فاتهم الوقوف سنة ١١٤٣ فأقاموا بمكة محرمين حتى أدوا الفريضة سنة ١١٤٤، ولكن أهل مكة قاموا عليهم بدعوى أنهم وضعوا نجاسة فى البيت وأرغموا الشريف محمد بن عبدالله بن سعيد على اصدار أمره باخراجهم من البلد الحرام فساروا الي الطائف وجدة وأقاموا بهما الي الموسم التالي .

من عرفة فانفر معه الى المزدلفة ، وان كنت مالكياً فحسبك من اقامتك بها مقدار ماتجمع فيه جمارك وهى تسع وأربعون حصاة فى حجم الفولة تقريباً ، وان كنت شافعياً فحسبك الاقامة فيها جزأ من نصف الليل الثانى ، وان كنت حنفياً فبت بها وانزل بعد صلاة الصبح الى منى ، وارم جمرة العقبة بسبع حصيات تقول فى أثنائها : بسم الله ، الله أكبر رجماً للشيطان وحزبه ، اللهم تصديقاً بكتابك واتباعاً لسنة نبيك وخليلك عليهما الصلاة والسلام . ثم اذبح ان كان عليك هدى ، ثم احلق أو قصّر وقل : الحمد لله الذى قضى عنى نسكى ، اللهم زدنى ايماناً ويقيناً ، وهنالك يحل لك كل ماحرُم عليك فى الاحرام الا النساء والطيب . وفى اليوم الثانى ارم جمرة العقبة بعد الزوال ، ثم ارم الجمرة الثانية ثم الثالثة بسبع حصيات فى كل جمرة ، وكذلك تفعل فى اليوم الثالث . ثم انزل الى مكة وطف طواف الافاضة ، واسع ان لم تكن سعيت بعد طواف القدوم . ومن الناس من ينزل فى عاشر ذى الحجة الى مكة ، حتى اذا طاف طواف الافاضة وسعى (ان كان عليه سعى) عاد من يومه الى منى ، ونزل منها الى مكة بعد زوال اليوم الثالث عشر وبهذا ينتهى الحج . ويقيم الحجاج فى مكة أياماً يصلحون فيها من شؤونهم ، ثم يقصدون السفر الى الزيارة أو العودة الى بلادهم .

محرمات الاحرام

يحرم على المحرم لبس المخيط وتغطية الرأس وازالة شعره بنتف أو حلق ، فان فعل شيئاً من ذلك متعمداً أو ناسياً فعليه الفدية (بذبح شاة) : الا اذا كان الشعر الذى أزيل منه يسيراً لا يتجاوز اثنتى عشرة شعرة فعليه حينئذ أن يتصدق بحفنة من بر . ويحرم عليه أيضاً تقليم أظافره ، وعليه الفدية ان فعل : الا اذا كان ظفراً أو ظفرين فعليه أن يتصدق بمد أو مدين . ويحرم عليه الطيب فى بدنه أو ثوبه أو فراشه أو أكله أو شربه أو فى عطوس أو دهان ، ويجب عليه به الفدية . ويحرم عليه صيد الحيوان أو قتله أو تنفيره أو ازعاجه كما يحرم عليه قطع حشيش

الحرم وشجره وعليه به دم . و يحرم عليه الجماع و به يفسد الحج .

واذا فات الحاج شيء من أركان الحج أو العمرة أو شروطهما سهوا أو عمدا بطل حجه وعمرته، وان فاته شيء من الواجبات وجب عليه دم لكل واجب تركه : وذلك بان يذبح شاة في الحرم ، فان عجز عن الذبح صام ثلاثة أيام في الحج من وقت احرامه الى يوم النحر ، وسبعة اذا رجع الى بلده . هذا اذا كان ترك شيئا منها قبل الوقوف، أما ان تركه بعده فله صوم العشرة الايام بعد عودته الى وطنه . وان فاته شيء من السُنن أو المندوبات فعليه أن يتصدق .



	الحنبلي	الشافعي	المالكي	الحنفي	
الاحرام للعمرة	ركن	ركن	ركن	شرط ✿	✿ وقيل انه ركن
طواف العمرة	»	»	»	ركن	
السعي في العمرة	»	»	»	واجب	
الاحرام للحج وهو نية الدخول فيه	»	»	»	شرط	
التلبية مع الاحرام واعادتها بعد السعي	سنة	سنة	واجب	سنة	
الاحرام من الميقات	واجب	واجب	»	واجب	
طواف القدوم	سنة	سنة	واجب	سنة	
البدء بالحجر في الطواف	شرط	شرط	»	واجب	
ستر العورة في الطواف	»	»	شرط	»	
الطهارة في الطواف من الحدثين	»	»	»	»	
ركعتا الطواف	سنة	سنة	واجب	»	
وقوع السعي بعد الطواف	شرط	شرط	»	شرط	
عدم الفصل بين السعي والطواف	سنة	سنة	»	سنة	
البدء في السعي من الصفا	شرط	شرط	شرط	واجب	
المشي في الطواف والسعي مع القدرة	سنة	سنة	واجب	»	
موالاة الاشواط في الطواف والسعي	شرط	»	»	سنة	
الوقوف بعرفة نهاراً	ركن	ركن	»	ركن	
الوقوف بعرفة ليلا	واجب	واجب	ركن	واجب	
الدفع من عرفة مع الامام (النفرة)	سنة	سنة	واجب	»	
الوقوف بمزدلفة	واجب	واجب	»	»	
تأخير جمع المغرب والعشاء بمزدلفة	سنة	سنة	سنة	»	
المبيت بمنى ليالي أيام التشريق	واجب	واجب	واجب	سنة	
رمي الجمار	»	»	»	واجب	
عدم تأخير الرمي الى الليل	سنة	سنة	»	سنة	
الحلق أو التقصير	واجب	ركن	»	واجب	
الترتيب بين الرمي والذبح والحلق	سنة	سنة	سنة	»	
الحلق بالحرم وتوقيته بأيام النحر	»	»	»	»	
طواف الافاضة	ركن	ركن	ركن	ركن	
طواف السبعة الاشواط	شرط	شرط	شرط	واجب ✿	✿ الركن عنده أربعة أشواط فقط
الطواف من وراء الحجر والشاذروان	»	»	»	»	
تأخير طواف الافاضة عن الرمي	سنة	سنة	واجب	سنة	
فعل طواف الافاضة في أيام النحر	»	»	» ✿	واجب	✿ الى آخر شهر ذي الحجة
السعي في الحج	ركن	ركن	ركن	»	
طواف الوداع	واجب	واجب	مندوب	»	

الاحرام

يجب أن يكون الاحرام من الميقات . ولكل جهة ميقات معين : فقد روى عن عمر وابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مَهَلّ أهل الشام الجُحْفَة، ومهل أهل المدينة من ذى الحُلَيْفة، ومهل أهل نجد من قرَن، ومهل أهل اليمن من يَلَمْلَم » والجحفة وتسمى مَهْيَعة قرية صغيرة على طريق المدينة الى مكة ، وهى شرقى رابغ وعلى نحو ستة أميال منها (ويراد بأهل الشام هنا ما كان شمالى مكة) . وذو الحليفة (آبار على) منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خرج من المدينة المنورة لحج أو عُمْرة ، وكان عليه الصلاة والسلام يحج من هذا الطريق ويهل من هذا المكان ، واذا عاد الى المدينة دخل من طريق المعرس وهو بطن الوادى . وكان طريقه الى مكة على الصفراء و بدر وعسفان، ومنازله على غير منازل الحاج فى أيامنا هذه، وربما اتفقت فى كثير منها وان اختلفت اسماؤها . وأما قرن المنازل فهو مشتبك طريق نجد مع طريق القافلة من الطائف الى مكة ، وهو على مرحلة من الطائف ومرحلتين من مكة (وقد كان فى قرن لعدنان مع بختنصر واقعة كبيرة فى القرن الثالث عشر قبل الهجرة انتصر فيها الاشوريون على العرب ثم رجعوا عنهم الى بلادهم) . اما ذات عرق التى يحرم منها القادمون من نجد فهى غربى قرن، والحد الفاصل بين نجد وتهامة ، قال الشاعر .

كأن المطايا لم تنخ بتهامة * اذا صعدت عن ذات عرق صدورها

ويلملم بفتح أوله وثانيه جبل على ليلتين من مكة، وهو فى طريق اليمن اليها، وأودبته تنحدر الى البحر .

وهذه المواقيت للخارج عن حدودها، أما الداخل فيها فيحرم من أى نقطة من الحل . ولا بد لنا ان نلاحظ أن جعله صلى الله عليه وسلم ميقات احرام أهل المدينة من ذى الحليفه ، التى هى على نحو عشرة مراحل من مكة ، فى حين أن مهل الجهات الاخرى لا يبعد عنها الا بنحو مرحلتين ، انما هو لزيادة عنايته صلى الله عليه وسلم بالاستعداد للدخول الى حرم الله ،

وأراد ذلك لاهل المدينة لانهم أحب الناس اليه وأقربهم منه : وانما الاجر على قدر المشقة .
وكثير من الناس اذا عزموا على الحج يحرمون من بيوتهم ، وترى ذلك كثيرا فى أهل المغرب .
وقد ذكر أن عبد الله بن عامر والى البصرة لعثمان بن عفان ، لما أكرمه الله بفتح بلاد الفرس
من أدناها الى أقصاها ، حتى وصلت فتوحاته الى حدود الهند شرقا وتخوم سبيريا شمالا والمحيط
الهندى جنوبا ، قال له أحد خاصته : لم يفتح الله لاحد ما فتح عليك : فقال لا جرم لأجعلنّ
شكرى لله أن أخرج مُحرما من موقفى هذا وأحرم بعمرة من نيسابور .

لباس الاحرام

كان الناس قديما يصنعون ملابسهم من القطن أو الكتان أو جلود الحيوان بحال بسيطة
جدا . والمصريون كانوا يستعملون فى أول أمرهم المئزر ثم البرنس : وهو قطعة من القماش
تلقى على الاكتاف ، وتربط بحزام وترسل الى الركبتين فى العامة أو الى أسفل منها فى الخاصة .
حتى اذا ترقت الدولة فى عمرانها أطالوا من ذلك البرنس الى الكعبين ، ولبسوا من تحته قميصا
لا أكمام له أخذوه عن الانيوبيين [١] . وكانوا فى مبدأ أمرهم يلونون ملابسهم بلون واحد
(أخضر أو أزرق أو أحمر) ، ثم انتهوا باستعمال كثير من الالوان فى ثيابهم مع ما كانوا يوشون
به دوائرها بالاشرطة المنقوشة .

أما الاشوريون فقد كانوا يشتملون بقطعة كبيرة من القماش ، ويمرون بها من تحت ابطهم
الايمن ويغطون بها الصدر ، ثم يرسلونها على الكتف الايسر ، حيث يثبت طرفها اما بعقدة أو
بمشبك (انظر سطر عشرين من صفحة ١١٥٣ من الجزء الثانى من دائرة المعارف الفرنساوية
الكبرى) . ثم غيروا هذا الزى بان لبسوا قميصا صغيرا ومن فوقه شئ يشبه العباءة . والاعجام
كانوا يزيدون على ذلك سراويل واسعة .

(١) هم سكان اثيوبيا : وهى مملكة قديمة كانت فى جنوب مصر فى المنطقة التى بها الحبشة
وما والاها شرقا الى السومال ، وشمالا وغربا الى جزء عظيم من السودان المصرى .

واليونان كانوا يلبسون رداء طويلا واسعاً و يمرون به من تحت ابطهم الايمن ، بعد أن يلفوا به وسطهم ، ثم يرسلونه على ظهرهم بعد أن يغطوا به كتفهم الآخر . ثم صاروا يشملون به الجسم جميعه : ذلك بانهم كانوا يأتون بهذا الرداء الطويل و يربطون طرفيه ، ثم يدخلون ذراعهم الايمن مع الرأس من فتحة ما بينهما ، بحيث تكون العقدة على الكتف الايسر ، ثم يلف الجسم بباقى هذه الشملة ويسمونها شيون (Chion) ، كما تراه الى اليوم فى عرب البادية المصرية خصوصاً عرب المغرب ، ولا شك فى أنهم أخذوا هذا الزى من الرومانيين أو القرطاجيين ، ولبث فيهم على بداوته الاولى الى الان . وهذا الشكل يوجد منه صور كثيرة على الآثار الرومانية ، وقد شاهدت شيئاً يماثله تماما على قاعدة المسلة التى فى القسطنطينية فى ميدان السلطان أحمد ، وعلى بعض النواويس الموجودة فى متحف الاستانة ، وفى النقوش الموجودة فى سقف جامع القهرية (القعرية): وهو أول كنيسة بنيت فى الاستانة وحولت الى مسجد بعد الفتح .

أما دار الآثار المصرية فقد شاهدت فيها أن ملابس المصريين فى قديم الزمان كانت تنحصر فى لبس المئزر : وهو فوطة يلف بها النصف الاسفل من الجسم على هيئة ما يكون الرجل فى أيامنا هذه داخل الحمامات العمومية [1] ، وأخص بالذكر مما رأيته على هذه الصورة تمثال كفرين المشهور بشيخ البلد فى القاعة حرف (B) ، وهو بانى هرم الجيزة الثانى ، ومن ملوك العائلة الرابعة المصرية التى كانت توجد فى القرن الخمسين قبل المسيح ، ثم تمثال (رعنفر) من العائلة الخامسة فى القاعة حرف (D) ، ثم تمثالى أمور وأمون وهما من معبودات المصريين ، ثم صورة للمسيح بالدخلة الصغيرة للطرقة اليمنى تمثله بمئزر بسيط . و يوجد غير ذلك كثير من التماثيل البرنزية والنحاسية التى فى دواليب المتحف لابسة شبه احرام كامل ، وقد شاهدت من بينهما تمثالا من الفخار للعذراء وهى ملتحفة بشملة تغطى جميع جسمها وابنها على يدها .

أما القاعات الرومانية واليونانية التى على يمين صحن المتحف من الدور الاول ، ففيها مثال

---

(١) هذا اللباس شائع للآن فى أغلب بلاد السودان وغيرها من البلاد التى لاتزال على فطرتها الاولى ، ونشاهده على كثير من أعراب البادية فى احرامهم وفى غير احرامهم .

الاحرام باشكاله التامة : فترى فى وسط القاعة حرف (T)، امرأة رومانية من الرخام الابيض الوردى بهيئة احرام كامل : أعنى أنها ملتحفة برداء أبيض يغطى كل جسمها ماعدا رأسها . ويقرب منها مثال رجل من الجرانيت الاسود ملتحف برداء قد انحسر عن ذراعه الايمن : وهو ما يسمونه فى الاحرام بالاضطباع ، وفى رجله نعلان لا يغطيان ظاهر القدم ، اللهم الاعروة يدخل فيها الابهام ، ويخرج منها سيران رفيعان يتصلان على مادون الكعبين ، ويربطان فيما دون العقب : وهى ما يسمونها فى الحجاز بالنعال الشرقية ، التى أجمعت المذاهب الاربع على صحة الاحرام بها . وهذه النعل تراها أيضاً فى قدم منفصلة عن جسمها ، موضوعة على يسار الداخل فى القاعة حرف (R) .

ومتاحف الفنون الجميلة فى جميع انحاء الدنيا غاصة بصور الناس فى العهد القديم وهم فى لباسهم البسيط الذى يماثل لباس الاحرام بل هو بعينه . والآن يمثلون هذا اللباس تماما فى تشخيص الروايات التى تشخص الزمن القديم الرومانى أو اليونانى ، وخصوصاً فى تمثيل صور الانبياء والحكماء .

ويقال ان اليهود كانوا يستعملون فى معابدهم لبس غير المخيط ، أما الآن فيكتفون بوضع رداء على أكتافهم من الصوف يسمونه تليت أو تسيسوت ، ليتشبهوا بموسى عليه السلام فى بساطة لباسه .

ومن هذا ترى أن ملابس الناس فى الزمن القديم ، بل فى جميع أدوار الامم الخالية حتى فى ابان حضاراتها ، كانت على هذه البساطة . وليس هذا بغريب ، فان آلة الخياطة ما كانت معروفة فى تلك الازمان : ولقد كان الناس يستعملون أولا فى خياطة ملابسهم شوك الاسماك وسل النخل ، ثم توصلوا الى استعمال الابر الحديدية ، أما الابر التى من الصلب فانها لم تخترع الا فى القرن الرابع عشر للمسيح ، ولم يذع استعمالها فى أوربا الا فى القرن السادس عشر .

وكان أبسط تلك الملابس شكلا ونوعا ملابس الاشوريين الذين هم اخوان الكلدانيين ، الذين خرج منهم ابراهيم (لان كليهما من الجنس السامى) : وعليه فلباس الاحرام كان هو هو بذاته ذلك اللباس البسيط الذى كان يلبسه ابراهيم عليه السلام حين أمره الله تعالى بالحج قائلا : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

ومازالت هذه السنة قائمة فى حج البيت الى الآن . وأما كونه أبيض فلأن لون البياض شعار الطهارة والنظافة ، والا فالغرض من الاحرام لبس غير المخيط مطلقا : اشارة الى أن الانسان خرج الى ربه من زخارف الدنيا ومافيها الى بساطة الوجود وبداوته ، خرج الى ربه من أبهة الحياة ورفهها ، وتمثل بين يديه تعالى بحال رجع فيها الى طبيعة الوجود البشرى من حيث البساطة التامة ، التى كان مظهرها ذاك الزى الذى يمثل الاشتراكية الحقة بكل معانيها ، فيستوى فيه الصعلوك والملوك ، هذا الزى الذى يستقبل الانسان فى مهده ويشيعه الى لحده ، حتى كأنه يقول لربه : اللهم انى قد نزعت عن نفسى ظاهرها وباطنها رداء قد وشته الاباطيل وموهته الاضاليل ، وخرجت اليك وقد جردت نفسى لك مما أملك طامعا فى نيل مالا أملك من نعم ان عشت أعود بها الى حياة جديدة كلها فضيلة وخير وبركة ، وان مت أقضى بها فى سبيلك ومحبتك وطاعتك ، وأنتقل بها الى دار السعادة الحقيقية فأحشر فى زمرة المقبولين والصديقين ، زمرة الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . وهلا رأيت ذلك اللباس الاكليروسى البسيط (لباس الرهبان) الذى رسم عليه كل من تمثالى غليوم الثانى أمبراطور المانيا والامبراطورة قرينته ، وأرسل بهما فوضعا فى الملجأ الالمانى الذى بنى فى بيت المقدس ؟ وسافر البرنس ايتل لافتتاحه رسمياً بالنيابة عن والده الامبراطور فى شهر ابريل الماضى سنة ١٩١٠ .

على أنه لا يعزب عن فطنتك وينبو عن فكرتك أن الاطباء وجدوا أخيراً أن الانسان لابد له من تعريض جسمه الى الهواء المطلق ومؤثرات الجو نحو شهر من كل سنة ، يسترجع فيه الجسم قوته ويستعيد نشاطه ، بفضل ملاصقة أوكسيجين الهواء لجميع مسام جسمانه : وبهذه العملية يحترق مافى الدم من الكربون الذى تشبع به أثناء دورته من الفضلات التى تخلفت فى الجسم ، فيعود الى القلب دماً نقياً زكياً صالحاً لتغذية الحياة بمادة القوة ، التى تكون بها العافية التامة والصحة العامة ، التى هى قوام الوجود بل الحياة بجميع معانيها .

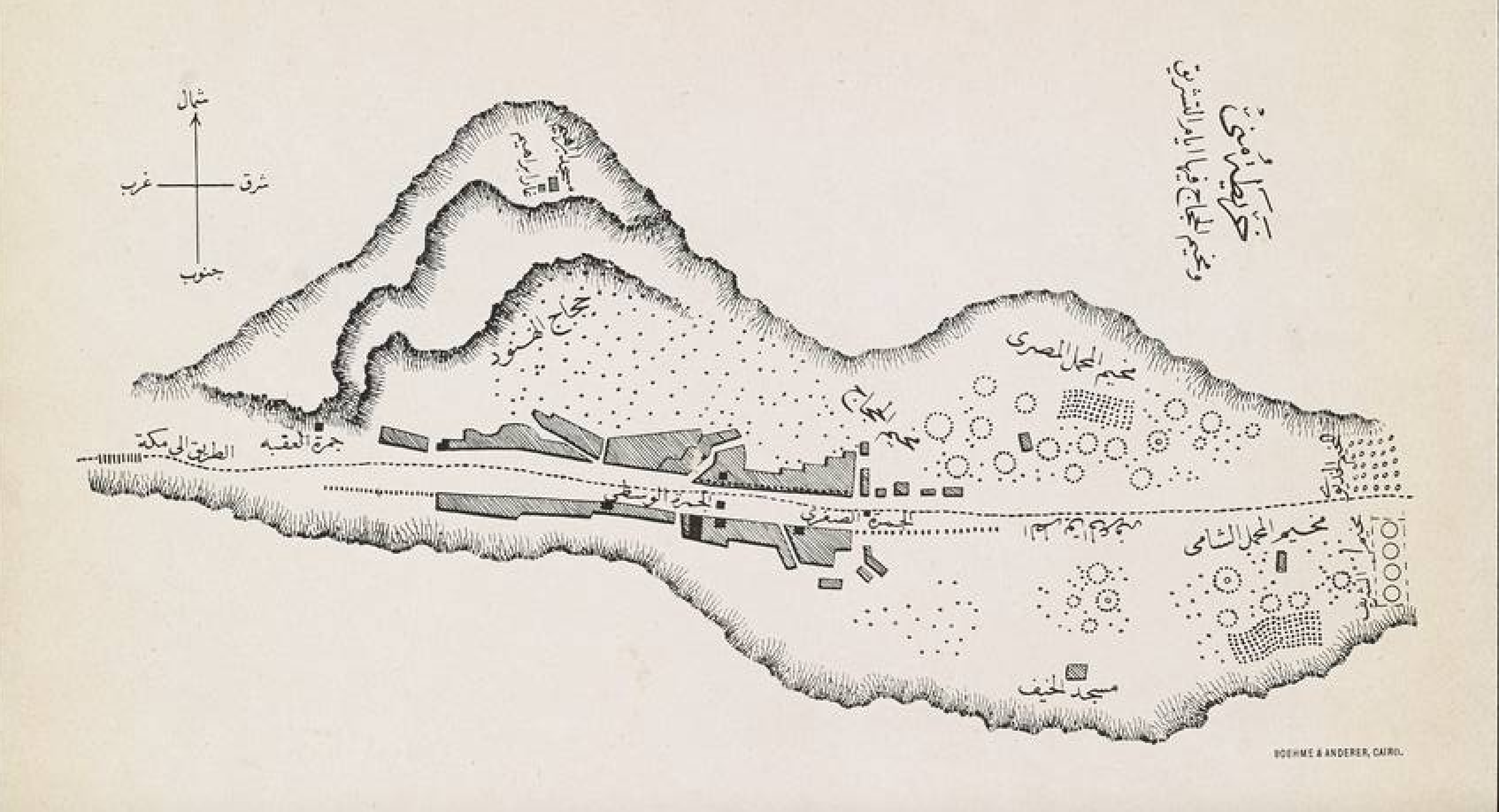
لذلك ترى الاوروباويين ، وعلى الخصوص الانجليز (لاعتنائهم بصحتهم أكثر من غيرهم) يعمدون كل سنة الى الجبال ، أو الى شواطئ البحار ، فيخلعون ثيابهم الا مايسترعورتهم

و يقيمون على هذه الحال شهراً أو أكثر يستعيدون فيه مافقدوه من قوامهم فى سبيل العمل طول سنتهم . وكثيراما رأيت الفرنجة فى هذه الاماكن الصحية على شاطئ البحر، حفاة عراة معرضين بكل جسمهم للهواء و برودة الجو أو حرارة الشمس جملة ساعات، وليس عليهم الا تلك العانة المستعارة التى يغطون بها السبيلين ، و يسمون ذلك بعلاج الطبيعة أو علاج الهواء (Cured' atr) . ولا غرابة اذا رجعت بنا المدنية الحديثة الى كثير من العوائد التى كان عليها القدماء فى بداوتهم مما يسميه الجهلاء خشونة وتوحشاً .

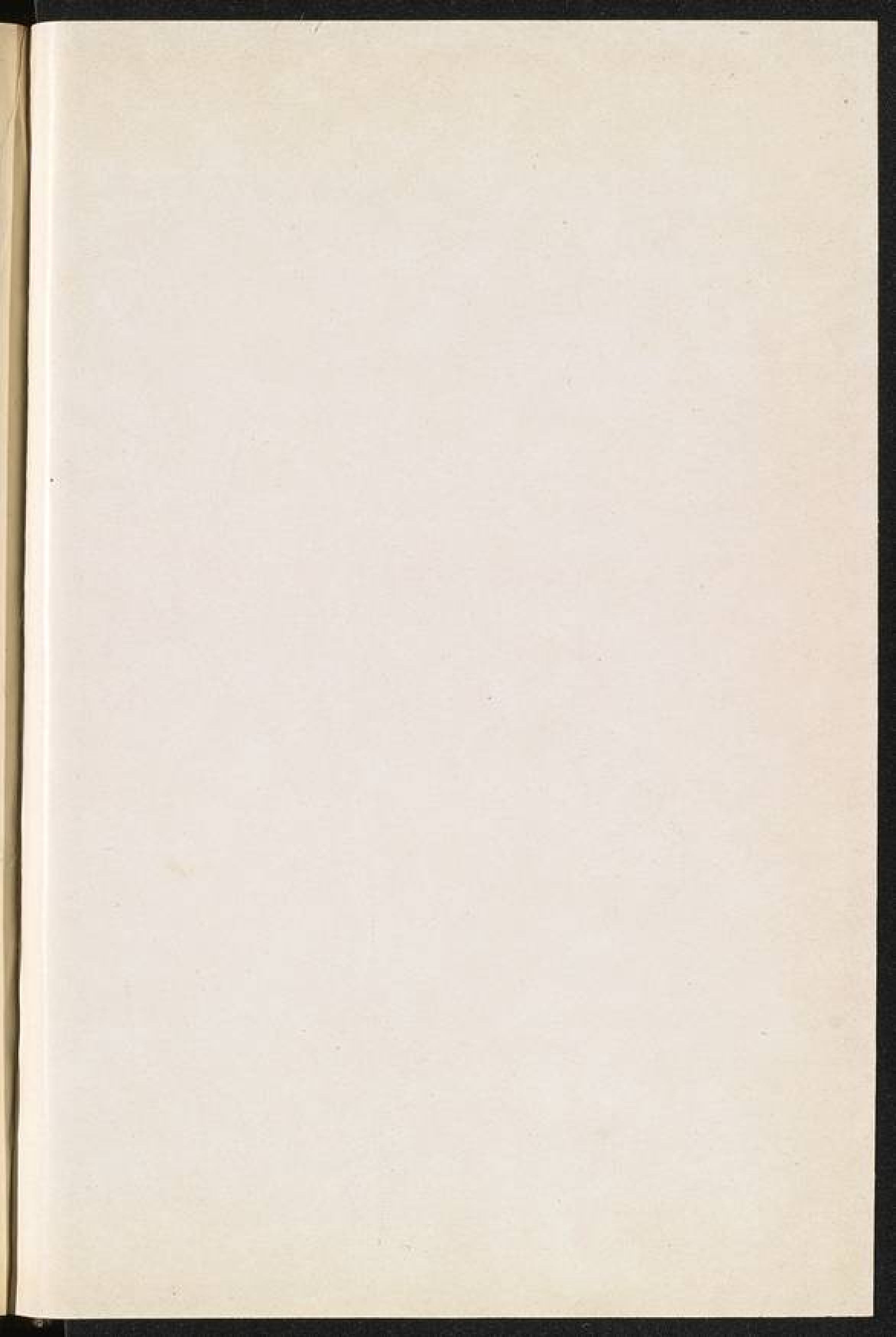
واذاً فلا عبرة بما يقوله المخرفون أو المتحاملون على الدين الاسلامى المتعصبون عليه، من أن الاحرام هو سبب كثير من الامراض التى تعترى الحاج بمكة وعرفة ! ولو أنصفوا لنسبوا كل ما يقع لبعض المحرمين من البرودة شتاء والاحتقانات الدماغية صيفاً الى علته الحقيقية وهو الفقر ، الذى يموت منه يومياً آلاف من الناس على قوارع الطرق فى عواصم الدنيا المتمدنة . ولقد شاهدت فى بعض أسفارى بعاصمة من عواصم أوروباشاباً يموت من البرد والناس حوله ينظرون الى مايعترى جسمه من انفعالات الموت، بين ضاحك منه وساخط عليه !! واذاً فالمحرم الذى يحرم بثوب واحد يكون من عادته لبس ثوب واحد ، والافلا حجر عليه أن يلبس ماشاء من غير مخيط ، أو يضع على رأسه مظلة ، أو يلبس ماشاء من مخيط و يفدى عنه بما يساعد على حياة البائس والفقير .

خروج الحجيج الى عرفة وافاضته منها

فى السابع والثامن من شهر ذى الحجة يبتدئ الناس فى الخروج من مكة الى عرفة على جمالهم أو حميرهم أو أقدامهم ، و يتجهون الى طريق الشرق مارين بالمعلى ، ثم يسيرون نحو الشرق بميل خفيف الى الجنوب بين جبلين فى واد عرضه يختلف من مائة متر الى خمسمائة، وحركة الناس فيه لا تنقطع فى هذين اليومين . و فى نهاية مكة من هذه الجهة « البياضية » وفيها قصر الشريف عبد المطلب على يمين السالك الى عرفة، يحيط به بستان أغلب أشجاره



خريطة منى
ومخيم الحجاج فيها ايام التشريق
شمال
جنوب
شرق
غرب
مخيم المحمل المصري
مخيم الحجاج
حجاج الهنود
جمرة العقبه
الطريق الى مكة
الجمرة الوسطى
الجمرة الصغرى
مخيم المحمل الشامى
مسجد الخيف
BOEHME & ANDERER, CAIRO.



من شجر السدر . وبعد نحو ثلاثة كيلومترات منه تجد جبل النور على يسارك ، وقمته عالية جداً قد أقيمت عليها قبة بيضاء ضاربة بنورها الى السماء : وكان هذا المكان يتعبد الناس فيه قبل الاسلام ، وتعبد به النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وابتدأ نزول الوحي عليه فيه . ثم تنعطف قليلاً نحو الجنوب ، وبعد نحو خمسة كيلومترات تصل الى مِنًى ، فترى في مبدإ دخولك في طريقها العمومي على اليسار جمرة العقبة : وهي حائط من الحجار تقاعه نحو ثلاثة أمتار في عرض نحو مترين ، قد أقيم على قطعة من صخرة مرتفعة عن الارض بنحو متر ونصف ومن أسفل هذا الحائط حوض من البناء تسقط اليه حجارة الرجم (الجمار) الذي يقوم الحاج بعمليته عند الافاضة من عرفة . ولقد كانت منى [1] مكاناً مقدساً عند عرب الجاهلية وكان بها لهم بيت لاصنامهم . وهي الآن مكان متسع طوله من الغرب الى الشرق ، قد أقيمت فيه بيوت أغلبها لاشراف مكة وأغنيائهم ، يسكن بعض الحجاج فيها بالاجرة عند ذهابهم الى عرفة أو عودتهم منها ، أما غالب الحجيج فانه يكون مخيماً بالفضاء الذي يحيط بها ، وفي غير الموسم لا يكون فيها أحد في الغالب . وفي هذه المدينة شارعان متوازيان على طول الوادي . وفي شارعها العمومي ترى الجمرتين الاخريين في وسط الطريق واحدة بعد الاخرى .

وبعد هذه المساكن الى الشرق ترى الوادي يتسع من الجنوب على مسافة اثنين كيلومتر ، وتشاهد به على يمينك مسجد الخيف ، ثم المصطبة التي تنصب فيها خيم الشريف والوالي مدة اقامتهما في منى زمن الحج . ومن ثم يضيق الوادي ويسمى بوادي محسر ، حتى اذا وصل الى المزدلفة وهي على مسافة ساعتين من منى أخذ في الاتساع مرة أخرى . وهنالك ترى على يمينك المَشعر الحرام الذي يجب الوقوف عنده في النزول من عرفة ، وفي هذه الجهة [2] مسجد على جبل قزح عَمَّره السلطان قايتباي ، ومن هناك يضيق الوادي ثانياً ويسمى بوادي عُرَنَة (بضم العين وفتح الراء والنون) حتى اذا اقترب من مسجد نَمِرَة (ويسمى مسجد عرفة أو مسجد ابراهيم) انفتحت أرجاؤه الى الشمال والجنوب . وهذا المسجد كبير قد أحاطت به

(١) لا يبعد أن يكون العرب أخذوا هذا الاسم من جزيرة منا التي فيها هيكل بوذا قرب جزيرة سيلان .
(٢) الموجود من هذا المسجد الحائط الغربي (الذي هو جهة القبلة) فقط .

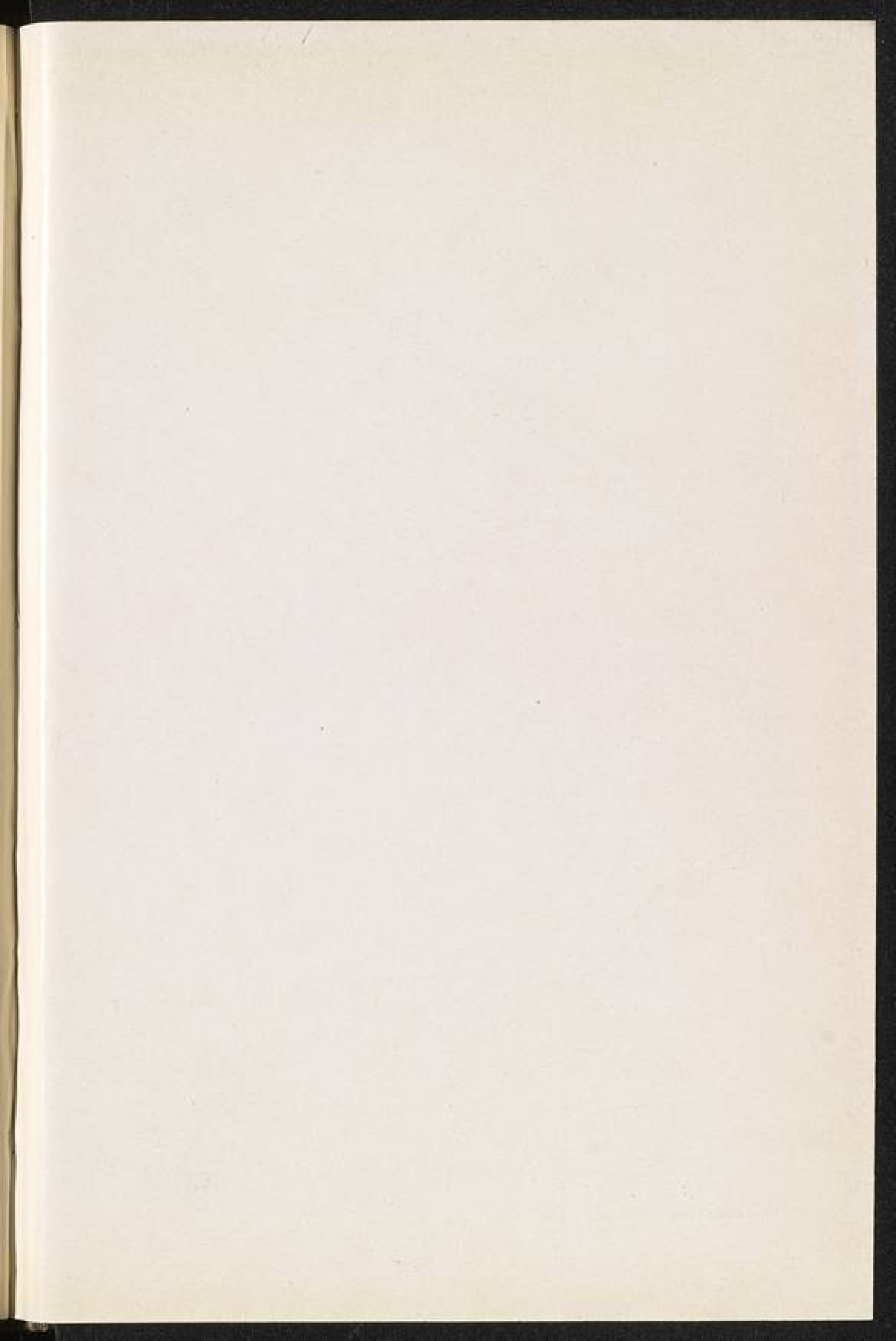
البواكى فى جهاته الاربع من داخله، وعمّره قايتباى عمارة تشكر. ونصفه الغربى (الذى الى مكة) فى الحرم والنصف الآخر فى الحل، وبوسطه مجرى ماء يُسيّر اليه زمن الحج من مجرى عين زبيدة. وفى شمال هذا المسجد بقليل الى الشرق ترى العلمين: وهما عمودان من البناء بعيدان عن بعضهما، بارتفاع نحو خمسة أمتار فى عرض نحو ثلاثة، قد أقيما فى فضاء الوادى للدلالة على حدود عرفة من الغرب، وهنالك تجد الجبل قد حلق على الوادى وقفله أمامك من الشرق بشكل قوس كبير وهو ما يسمونه جبل عرفة. وعلى طرف القوس من جهة الجنوب الطريق الى الطائف على كرا. وفى طرفه من جهة الشمال لسان يبرز الى الغرب يسمونه جبل الرحمة، وسفحه الجنوبى هو حد عرفة من الشمال، وفيه صخرة عالية كان يقف عليها الرسول صلوات الله عليه فى حجه ليخطب فى قومه: وهى مكان وقوف الخطيب الى الآن. وفى أعلى جبل الرحمة منارة يعلق فيها ليلة عرفة مصابيح لارشاد السالكين اليه، وفى أسفله مصلى تسمى مسجد الصخرات لان فى أرضيتها صخور كبيرة الى جانب بعضها يقال ان النبى صلى الله عليه وسلم صلى فيها، وبجوارها ترى مجرى عين زبيدة الذى سيّرته الى مكة.

الوقوف بعرفة

عند وصول الحجاج الى هذا الوادى ينزل ركب المحملين بخيامهم قريباً من جبل الرحمة يليهما مضارب الحجاج على اختلاف أجناسهم. وعلى سفح عرفة من عاليه الى جبل الرحمة ترى حجيج الاعراب محتشدين الى جوف الجبل بعضهم فوق بعض كالحجر المرصوص، أما باقى الحجيج فانه ينصب الخيام فى بطن الوادى الذى يزدحم اليه الناس حتى لا تكاد ترى فيه مكاناً خالياً من واقف أو قاعد، وجمالهم وحميرهم مربوطة بجوارهم، وترى الكل فى صعيد واحد، حتى يتعذر على الانسان السير الى أى جهة أراد ولو لضرورة فى نفسه. ولو كان مولانا الشريف يأمر بتقسيم وادى عرفة الى أحذية أفقية يقسمها شارع رأسى، ويخصص



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

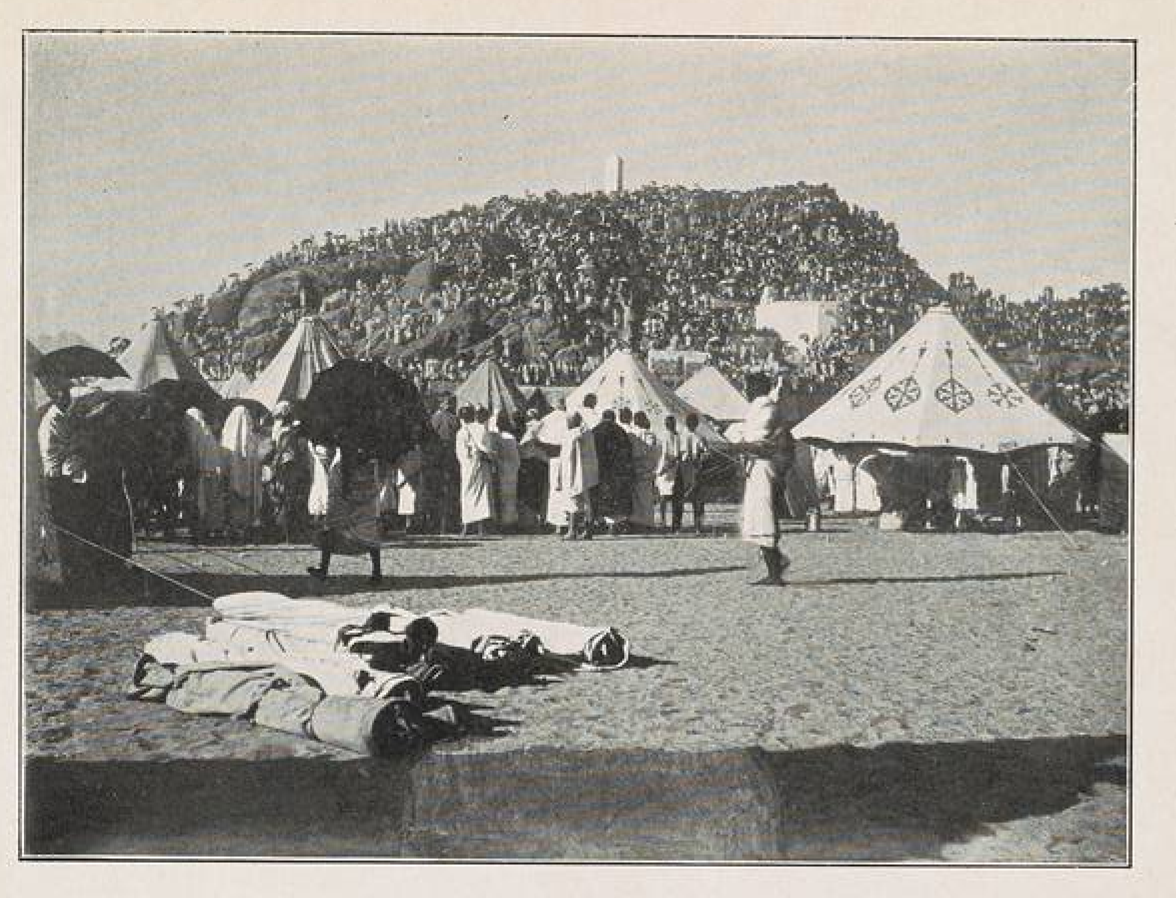


كل حذاء لسكنى جماعة من الحجيج ، وجمالهم من ورائهم ، وتوضع لذلك علامات من البناء لا يتجاوزها الحجاج فى وضع مضاربهم ، ولا الجمالة فى ربط جمالهم ، و يعين لهذا النظام من يحفظه مع الدقة ، لكان له شكر الله والملائكة والناس أجمعين . و فى سعة الوادى ما يضمن لدولته اقامة الكل على الراحة التامة ، لان هذا التزاحم انما سببه التقرب من مجرى الماء ، ومن السوق الذى تراه بجوار مسجد الصخرات (و يباع فيه بعض الاغذية الضرورية) . وربما كان لتزاحمهم سبب آخر وهو خوفهم من الاعراب ، الذين يكون لهم من سعة هذا الرحاب عون على النهب والسلب . و بسبب هذا التزاحم يضل الناس عن أمكنتهم اذا تركوها لامر ما ، ولذلك تراهم ينادون على بعضهم إما بأسمائهم ، أو بألفاظ اصطلح عليها أهل كل جهة ، حتى اذا سمعها واحد منهم أجابه بصوت عال وقصد مصدر الصوت . وهذه الحركة لا تكاد تنقطع مدة الاقامة بعرفة .

و يجدر بدولة مولانا الشريف إصدار أمره الكريم بالعناية التامة بملاحظة فتحات مجرى عين زبيدة ، وتعيين خدمة مخصوصين لها لا يدعون أحداً من الحجاج يعبث بها أو يغتسل فيها ، خصوصاً أولئك المجذومين الذين يغتسلون فى الحوض الذى يسمونه بحوض المجذومين زاعمين أن فيه شفاءهم ، وهم بعملهم هذا انما يضرون اخوانهم المسلمين بنقل العدوى اليهم . ولا يعزب عن فكره السامى أن علماء البكتريولوجيا ذهبوا الى أن الماء هو أكبر موصل للعدوى وخصوصاً فى وباء الكوليرا : نسأل الله تعالى السلامة لعباده .

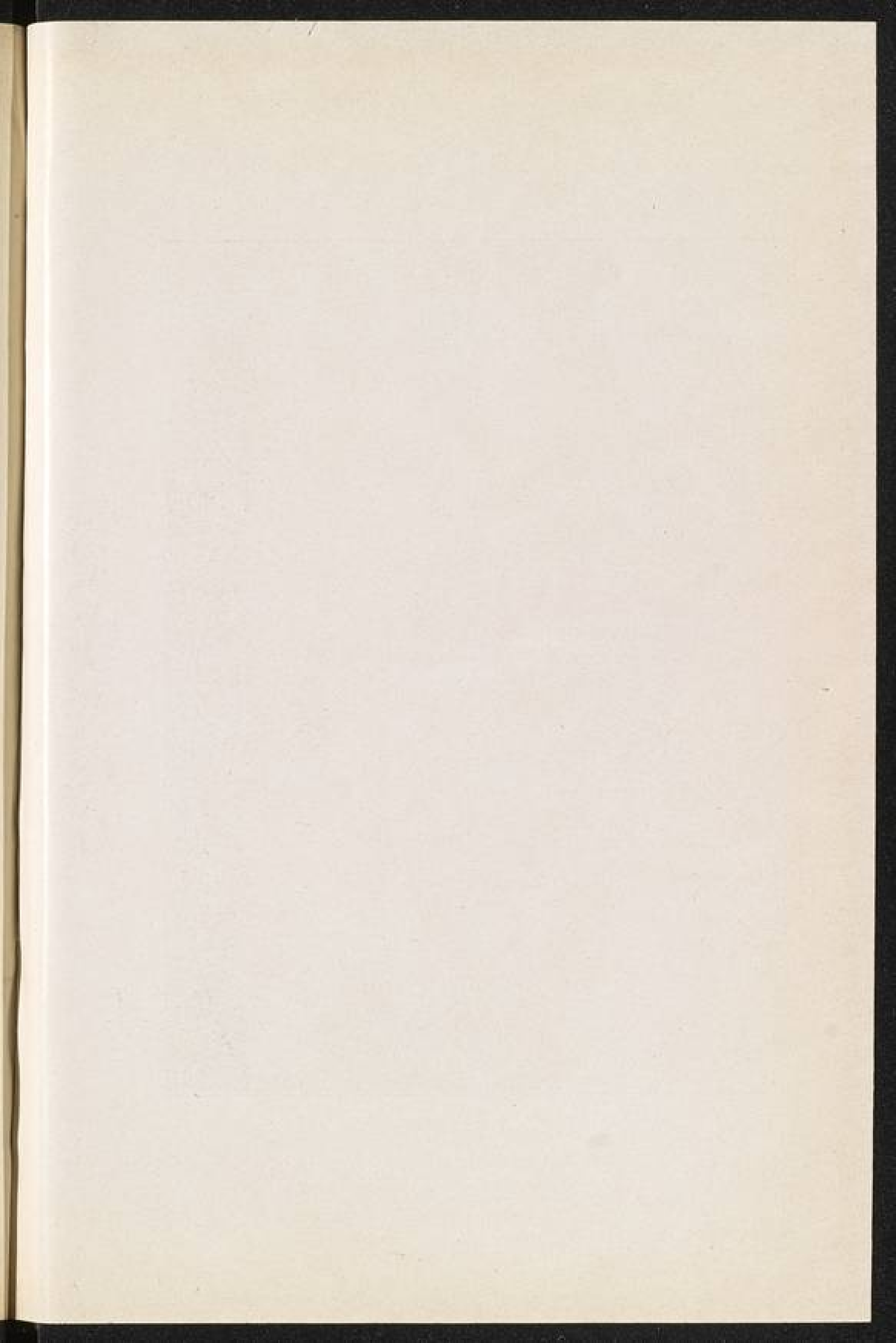
و يوم الوقوف هو التاسع من ذى الحجة مع قليل من ليلة العاشر باتفاق المسلمين . فاذا ثبت هذا اليوم عند القاضى بالصفة الشرعية وقف جميع المسلمين على اختلافهم فى الجنسيات والمذاهب من غير أن يكون للشك تأثير عليهم ، الا الشيعة من الاعجام فانهم لو حصل عندهم أدنى شك فى رؤية هلال ذى الحجة ، بمعنى أنه لم يشاهده منهم الجم الغفير ، وقفوا يوم التاسع والعاشر احتياطاً . و فى عرفة ترى الناس مشتغلين كل بشأنه ، وهم وان انفصلوا فى هياكلهم ، فان قلوبهم مرتبطة ارتباط ذرّات الجسم الواحد ببعضها . و بعد صلاة العصر يتحرّك المحملان بحرسهما الى منحدر جبل الرحمة و ينهض خطيب عرفة (وهو فى الغالب قاضى مكة

الذى يتعين من قبل السلطان) ، فيصعد بناقته من طريق حلزونى الى صخرة فى صدر هذا الجبل ، و يخطب نيابة عن خليفة رسول الله خطبة يُعلّم الناس فيها مناسك الحج و يُكثر فيها من الدعاء والتلبية ، ومن دونه مبلغون بأيديهم مناديل يشيرون بها فى كل تلبية الى الواقفين دون الصخرة فيقول الكل « لبيك اللهم لبيك » ، بصوت يكاد يصعد بالاحشاء الى عنان السماء ، فيالها من ساعة ترى الناس فيها قد تجردوا بالمرة عن أنفسهم ، فلا يكادون يشعرون بما يحيط بهم من معالم الحياة ، وقد تغلب وجدانهم على وجودهم وظهرت روحانيتهم على جسمانيتهم ، حتى كانهم فى لباسهم الابيض الطاهر النقى ملائكة لله فى هذا الوادى الذى يردد أصواتهم وابتهالاتهم الى واجب الوجود ، الى الملك المعبود ، الى الواحد الاحد الفرد الصمد الذى لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد . فاذا تراجع اليهم صدى هذا الصوت احدث فى نفوسهم هزة تدق لها قلوبهم وتضطرب منها أفئدتهم خشية من رب الارباب ومالك الرقاب ، هنالك تسوخ النفوس فى ظروفها و تنكمش الجسوم على هياكلها من رهبوت هذا الملكوت ، وحشاشات القلوب تتصبب من آماق عيونهم أسفا على ما اقترفوه من ذنوب وعيوب ! ! وتتلاحق الارواح الى التعلق بأستار رحموت رحمانها ، تائبة مستغفرة ضارعة اليه تعالى بقبولها فى ساحة غفرانه ، مؤملة فى عظيم كرمه واحسانه ، ولا تلبث أن تتراجع وهى على يقين من قبولها فى ساحة الرحيم الرحمن ، وقد وقر فى نفوس ذويها حب الفضيلة و بغض الرذيلة ، وحسب الانسان من فضيلة الحج هذه الحسنة الجميلة . ويستمر الناس على هذه الحال حتى اذا غابت الشمس فى الافق ، أطلق صاروخ من قبل الخطيب اعلاناً بتمام الموقف . عندها تتحرك المحامل بين ضروب المدافع وعزف الموسيقات ، وأصوات الابتهالات ، وكثرة الدعوات ، وانهمال العبرات ، و يكون كل حاج قبل ذلك قد حمّل حموله واستعدّ للافاضة ، فتنفر الناس مرة واحدة من عرفات مسرورين هاتفين بهتاف الفرح والحبور حتى اذا وصلوا الى ذينك العلمين خرجوا من بينهما . وهناك ترى الزحام لا يوصف والناس فى حركة هائلة الى المزدلفة . فاذا وصلوها نزلوا بها ، وأقام بها الحنفية الى ما بعد صلاة الصبح ، والشافعية الى ما بعد نصف الليل ، أما المالكية فحسبهم من الاقامة بها قدر ساعة يجمعون



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

الحجاج على جبل الرحمة بعرفات



فيها جمارهم من الحصى الموجود فى أرضية واديها : وهى تسع وأربعون حصاة فى قدر الفولة يتناولها الحاج من رمال تلك الصحراء الواسعة ، ليرجم بها فى منى التى ينزل اليها من ليلته .
وأغلب الحجاج يقلدون مالكا ويسرعون فى النزول اليها حتى يجدوا لهم فيها مكانا يقيمون به على راحتهم . وفى صباح النحر وهو يوم العيد الاكبر يكون عموم الحجاج وصلوا الى منى . ويخيم المحمل المصرى فى شمال المصطبة التى فيها مخيم الشريف ، والمحمل الشامى الى جوار مسجد الخيف : وهو مسجد كبير ذو فضاء واسع مربع يحيط به سور متسع ، والى حائطه الغربى رواق على طوله ، قام سقفه على أعمدة من البناء . وباب هذا المسجد الى الشمال ، وفى وسط صحنه تجاه الباب قبة كبيرة أقيمت على مكان يصلى الناس فيه ، وهو المكان الذى صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبجوار هذه القبة مأذنة صغيرة بناها السلطان قايتباى سنة ٨٨٤ ، وبنى بجانب هذا المسجد داراً كان ينزل اليها أمير الحاج المصرى فاندثرت ، ولكن المسجد باق على حاله ، الا أنه يحتاج من داخل سوره وخارجه الى عناية ذوى الشأن ، حتى يكون نظيفاً بعيداً عن عبث العابثين ، ان لم يكن لموجبات الدين فلموجبات الصحة العمومية ، وخصوصاً فى منى التى تكتب فيها صحيفة الحاج الصحية وتساق على أجنحة البرق الى جميع أقطار المسكونة .

وبمجرد وصول الحجاج الى منى يقصدون من فورهم جمرة العقبة فيرمونها وينحرون ويحلقون أو يقصرون ثم يلبسون ملابسهم : وعندها يحل لهم كل شئ ما عدا النساء والطيب .

وذبائح القربان تذبح فى شرقى منى وتلقى فى حُفَر تحفر هناك لهذا الغرض وكلما امتلأت حفرة بجثث القرابين ردمت وحفرت غيرها وهكذا ، ويكون لها بعد الحج رائحة كريهة جداً ، ولو كانت الحكومة تعتنى بجمع ما يتراكم فيها من العظام مع ما يتخلف منها حول مكة ، وتبيعه لاحدى الشركات بجدة ، وتصرف ثمنه فى تحسين طرق الحجاج ونظافة شوارع مكة لكان فيه فائدة كبيرة . وقد طلبت شركات كثيرة التزام ذلك من الحكومة السابقة فلم يقبل طلبها . أما الحكومة الحالية فاظن انها لا ترى مانعا فى ذلك مادام فى مصلحة البلاد

ويقيم الحجاج بمنى الى عصر اليوم الثالث عشر من ذى الحجة ، ثم ينزلون الى مكة لاداء الركن الباقى من أركان الحج وهو طواف الافاضة والسعى لمن لم يكونوا سعوا بعد طواف القدوم، ومن الناس من ينزل الى مكة أوّل يوم بعد رمى جمرة العقبة لاستكمال جميع مناسك الحج ، ثم يرجعون من يومهم الى منى فيقيمون فيها مع اخوانهم ثانى وثالث أيام التشريق ، ويرجمون فى كل يوم منهما الجمرات الثلاث ، وفى عصر اليوم الثالث ينزلون الى مكة .

الرجم

الرجم فى اصطلاح الحجيج رمى غرض مخصوص فى منى بسبع حصيات فى حجم الفولة، وهذا الغرض يسمى جمرة . والجمرات ثلاث: جمرة العقبة ، والجمرة الوسطى، والجمرة الصغرى (ويسميها العامة ابليس الكبير والوسطانى والصغير) . ولكل جمرة مكان مخصوص (مذكور فى وصف الطريق الى عرفة) ، ورميها واجب باتفاق المذاهب: فيرمى الحاج فى أوّل أيامه بمنى (يوم الاضحية) جمرة العقبة وحدها ، ثم يرمى ثلاثتها فى كل يوم من اليومين التاليين ، فيكون جملة ما يرميه سبع حصيات فى سبع (٤٩ حصاة) . ومكان الجمرات تراه على الدوام غاصاً بالرامين فلا تصل اليه الا بمشقة عظيمة ، وكثيراً ما تشاهد بين هؤلاء الرماة اناساً يَجمُرون بتشفٍّ شديد ، ومنهم من يغلو فى ذلك فيرمى هذا الغرض برصاص طبنجته كأنما يرمى عدواً ألد ، والكل يتخيل أنه انما يرمى ذلك الشيطان الرجيم الذى لاتخفى عداوته لبنى الانسان ، فكأنهم بهذا الرمى يشهرون عليه حرباً عواناً لما سبق من إغوائه لهم ، ويقطعون كل صلة بينهم وبينه .

والعرب كانوا يرجمون هذه الجمرات الثلاث فى حجهم قبل الاسلام، لانهم كانوا يعتقدون ان الله تعالى أوحى الى ابراهيم وهو فى تلك الجهة بذبح ولده اسماعيل . فأخذه وسار ليصدع بامر ربه فوسوس له الشيطان بأن لا يفعل ، فأخذ حصيات ورماه بها ، وكان ذلك فى المكان الذى به الجمرة الاولى، فتركه وسار الى هاجر وأخذ يقبح لها عمل ابراهيم، فأخذت

بحجارة و رمته بها ، وكان ذلك فى مكان الجمرة الثانية . فذهب الى اسماعيل يشنع له عمل أبيه ، فأخذ قبضة من الحصى و رماه بها ، وكان ذلك فى مكان الجمرة الثالثة . لذلك كانت ترجم العرب هذه الامكنة مشخصين ذلك الشيطان ، وتابعهم عليه الاسلام ، ولا غرابة فى ذلك : لان الناموس الطبيعى يقضى بأن يكون كل معنى من المعانى مصدره المادة . وعليه فهذا الرمى المادى يوصل بلا شك لمعنى دقيق جليل فى ذاته : هو تربية ملكة جديدة فى شخص الرامى وهى مخالفة شيطان النفس والابتعاد عن مسالك الشرور .

والرجم أمر قديم فى الامم : قال الله تعالى فى سورة الشعراء فى اجابة قوم نوح على نصائحه لهم « لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين » . وقال تعالى فى سورة هود فى جواب أهل مدين على نصيحة نبيهم شعيب لهم « قالوا ياشعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز » .

وكان الرجم فى بنى اسرائيل ، وقد ورد فى الآية ٢٤ و ٢٥ من الاصحاح السابع لسفر يشوع ما نصه : « فأخذ يشوع عخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب و بنيه و بناته و بقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع اسرائيل معه ، وصعدوا بهم الى وادى عخور ، فقال يشوع كيف كدرتنا يكدرك الرب فى هذا اليوم ، فرجمه جميع اسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار و رموهم بالحجارة » .

والنصارى يرجمون مكان شجرة التين التى لعنها المسيح حينما أراد أن يأكل منها ولم يجد فيها ثمراً ، أنظر آية ١٩ من الاصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى . ومكان هذه الشجرة على طريق الذاهب من بيت المقدس الى نهر الاردن فى الوادى الذى ينزل على يسار جبل الزيتون .

والعرب كانوا يرجمون فى الجاهلية من سخطوا عليه حياً وميتاً . فكانوا يرجمون الزانى المحصن حياً لشناعة عمله ، وتابعتهم عليه الشريعة الغراء ، كما كانوا يرجمون قبور من ينقمون عليهم : وهم يرجمون من القرن الاول قبل الهجرة الى الآن قبر أبى رغال فى المغمس بين مكة والطائف ، لانه كان يقود جيش أبرهة الى مكة ، فمات فى هذا المكان قبل وصوله اليها .

قال جرير يهجو الفرزدق :

اذا مات الفرزدق فارجموه * كما يرمون قبر أبي رغال

والمسلمون يرمون قبر أبي لهب خارج مكة لانه عدو نبيهم صلى الله عليه وسلم ، و يرمون قبر أبي جهينة في طريق العمرة لانه كان من حكام مكة الظالمين ، و يرمون قبر يزيد بن معاوية (١) لسوء سيرته وشناعة فعلته مع آل البيت رضوان الله عليهم ، و يرجمون قبر مسلم ابن عقبه (٢) في ثنية المشلل بين مكة والمدينة ، لانه فتك باهل المدينة ولم يراع حرمة رسول الله في صحابته وجيرته . وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب عند ذكر اليمن وملوكها ، انه يوجد في طريق العراق الى مكة نحو النظامية ، موضع يعرف بقبر العبادي (٣) ترجمه المارة ؟

(١) قبر يزيد بن معاوية بدمشق الشام في حارة النحالية شرق مقبرة الباب الصغير يفصل بينهما طريق . وهو مكان مسور يبلغ طوله نحو ثمانية أمتار في عرض أربعة وعليه تل من حجارة الرجم يبلغ ارتفاعه نحو ستة أمتار ، وأهل دمشق يبغضونه . وبهذه المناسبة أذكر لك اني زرت في هذه المقبرة قبر معاوية بن أبي سفيان وهو في قبة بسيطة وقد دفن الى جواره بعض التابعين ، وقبر عبد الملك بن مروان بجواره يحيط به سور مهدم من الطوب الني ولا سقف له !! وهنا لك مر بخيالي عظم ملكهم وفخامة سلطانهم وكبير ابهتهم وجليل مظهرهم في حياتهم وهو مالا ينطبق على ما نراه من حقارة منازلهم الحالية التي لم تقم لها من مبدأ حكم العباسيين قائمة ! سبحان من بيده الملك يعز من يشاء ويذل من يشاء .

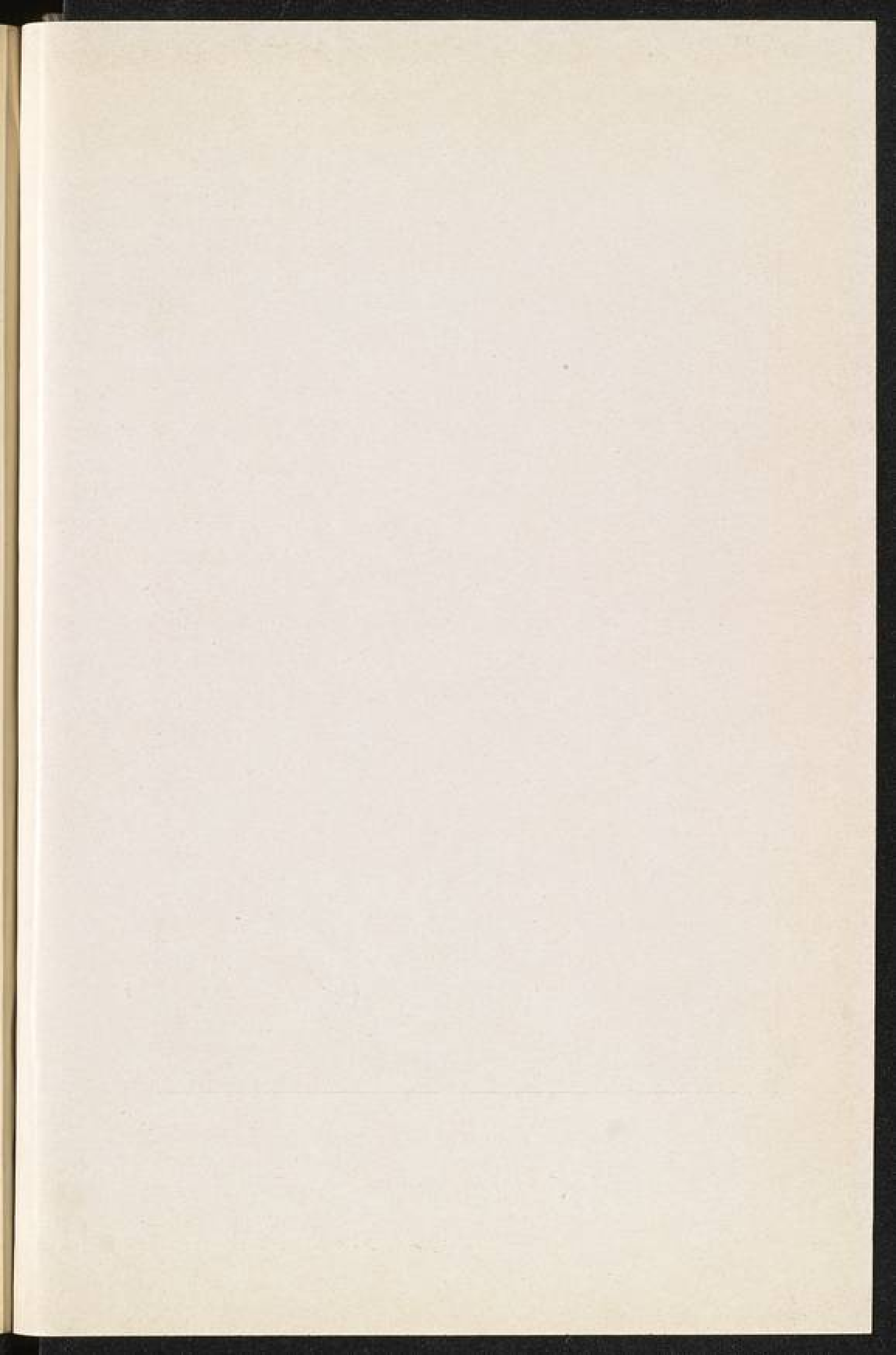
(٢) مسلم بن عقبة هو أعور بني مرة سيره يزيد بن معاوية الى مكة لقتال عبد الله بن الزبير وأمره أن يجعل طريقه على المدينة ، وكان أهلها قد نبذوا طاعته ، وقال له ان هم أطاعوك اركهم الى مكة والا حاربهم وأوقع بهم . فلما وصل اليها أقفلوا أبوابها في وجهه وكانوا قد خندقوا عليها لما بلغهم تحركه اليهم . فدخلها عنوة في يوم الثلاثاء ٢٧ ذي الحجة سنة ٦٣ وأخذ يقتل في صحابة رسول الله وتابعيه حتى قتل منهم نيفاً وأحد عشر ألفاً ونهب المدينة ثلاثة أيام : ويسمون ذلك اليوم المشئوم يوم الحرة . ثم ارتحل عن المدينة قاصداً مكة فمات في الطريق ودفن في ثنية المشلل . فأتت أم ولد ليزيد بن عبد الله بن زمعة ، وكان قد قتل ولدها مسلم فيمن قتل ، فنبشت قبره وصلبته على المشلل ورجمته ولا يزال قبره يرجم للآن .

(٣) لعله أبو منصور العبادي المشهور بالامير والمولود بعباد احدى قرى مرو سنة ٤٩١ ﻫ وقد ورد في دائرة المعارف «انه مات في طريقه الى خوزستان من بغداد وكان غير موثوق به في دينه وله رسالة يبيح فيها شرب الخمر» . وربما كان له في الجهة التي مات بها ما أسخط أهلها عليه فرجموه ولا يزالون يرجمونه



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

الحجاج يرمون الجمرات بالجمرة الوسطى



القربان

القربان شيء كان يتقرب به الناس من قديم الزمان الى الله تعالى، وكان يختلف نوعه باختلاف الازمنة والامكنة. وأول ما وصلنا من أمر القرابين أن قابيل بن آدم قرّب الى الله شيئاً من ثمرات أرضه، وقرّب أخوه هابيل ذبيحة من أبكار غنمه: قال الله تعالى « واتل عليهم نبأ ابنَيْ آدم بالحق اذ قربا قربانا فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتَقَبَّل من الآخر »، وبعد الطوفان بنى نوح مذبحاً لله قرب اليه فيه كثيراً من الحيوانات وكان يحرقها على المذبح. وكان ابراهيم يتقرب الى الله تعالى بالخبز والخمر، وقد أمره الله أن يذبح له عجلة وعنزا وكبشاً وحمامة ويمامة (انظر سفر التكوين أية ٩ و١٧)، كما أمره أن يفتدي ولده الذبيح بكبش يذبحه قربانا، وذهبت على سنته العرب قبل الاسلام، ثم المسلمون من بعدهم في أضحيتهم. وكان بنو ابراهيم يقربون الى الله الذبائح ويحرقونها، حتى أتى موسى فقسم الذبائح الى دموي وغير دموي: وهذا القسم الاخير كان ينحصر في الماشية التي كانوا يطلقونها في البرية لله تعالى، ومنها أتت السائبة [1] والبحيرة [2] والحامي [3] عند العرب: وهي التي كانوا يطلقونها لاصنامهم، ومازالت فيهم حتى حرّمها الاسلام. ولا يزال شيء من هذه العادة عند بعض خدمة الاضرحة في أرياف مصر: فانهم يرسلون عجلا صغيرا في حقول بلدهم معلنين أنه عجل هذا الولي، ولا يزال سائبا على حريته في حقول البلد وما جاورها يأكل مما يشتهيه منها، وأربابها لايجسرون على طرده أو اهانته خوفا من الولي الذى هو في حمايته،

---

(١) السائبة الناقة اذا ولدت عشر اناث ليس بينها ذكر سيبت فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها الا ضيف وتهمل لآلهتهم.

(٢) البحيرة هي بنت السائبة يخلى سبيلها مع أمها بعد أن تشق أذنها.

(٣) الحامي هو الفحل اذا نتج له عشر أناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمي ظهره وخلي في ابله يضرب فيها فلا ينتفع به بغير ذلك، والعرب يلحقون بها الوصيلة: وهي الشاة التي أتأمت عشر أناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر.

حتى يأتى مولده فيأخذه الخدمة سميناً معلوفا و يذبحونه و ينتفعون به (وعجل السيد أشهر من أن يذكر ، كما أن فحل العزب لا ينكره أحد) . أما الذبائح الدموية فكانت تنقسم الى ثلاثة أقسام: الذبيحة المحرقة، وذبيحة التكفير عن الخطايا ، وذبيحة السلامة . وكانوا يحرقون الاولى ولا يبقون منها شيئا الا جلدها فيأخذه الكاهن . والثانية كانوا يحرقون منها جانباً والباقى يأكله الكهنة . أما الثالثة فكانت اختيارية ولحمها حل لهم . وكانوا يشترطون فى هذه الذبائح أن تكون خالية من العيوب . واذا عجز الانسان عن تقديم ذبيحة من ذوات الاربع كان يكتفى بتقديم ذبيحة من الطيور .

أما الذبيحة عند المسيحين فهى محصورة فى لحم المسيح ودمه اللذين يقدمهما الكاهن فى صورة خبز وخمر للمتناولين منهما .

فلما فشت عبادة الاوثان والكواكب فى الناس كانوا يقدمون اليها شيئا من نباتات حقولهم ، و يحرقونها على هياكلهم ، ثم آل أمرهم الى استعمال النباتات العطرية كالند والعود وأمثالهما من الاصماغ ذات الروائح الحسنة . وفشا استعمالها بعد ذلك فى الحفلات الدينية على اختلاف أنواعها .

وكان قدماء اليونان يُدخلون الملح فى قرابينهم لانه كان عندهم رمزاً للصداقة ، كما كان رمزا لحسن القرى . وكانوا يضعونه مع حب الشعير فى سلة و يقدمون منه شيئا الى الحاضرين : و يظهر أن عادة بعض المصريين من رش الملح فى مجتمعاتهم على رؤوس الناس مختلطا فى الغالب مع حب القمح ، وكذلك ما يرشونه منه فى أسبوع المولود ، انما هى مستمدة من هذا الاصل

أما الرومان فكانوا يقدمون الذبائح الى آلهتهم بكثرة ، وكان الحاضرون يأخذون من لحومها تبركا . و يفرقون منه جانباً على من لم يكن حاضره من ذويهم وأهليهم : وهى عادة باقية فى حجاج الهنود والجاوه المسلمين الى الآن . وكانت كهنتهم وقت تقديم ذبائحهم يرشون على الحاضرين بواسطة غصن من شجر الغار عسلا وماء . وترقى الناس فى ذلك حتى صاروا يرشون ماء الورد فى اجتماعاتهم ، ولا تزال هذه العادة مستعملة فى الحفلات الدينية على اختلاف مذاهبها الى الان .

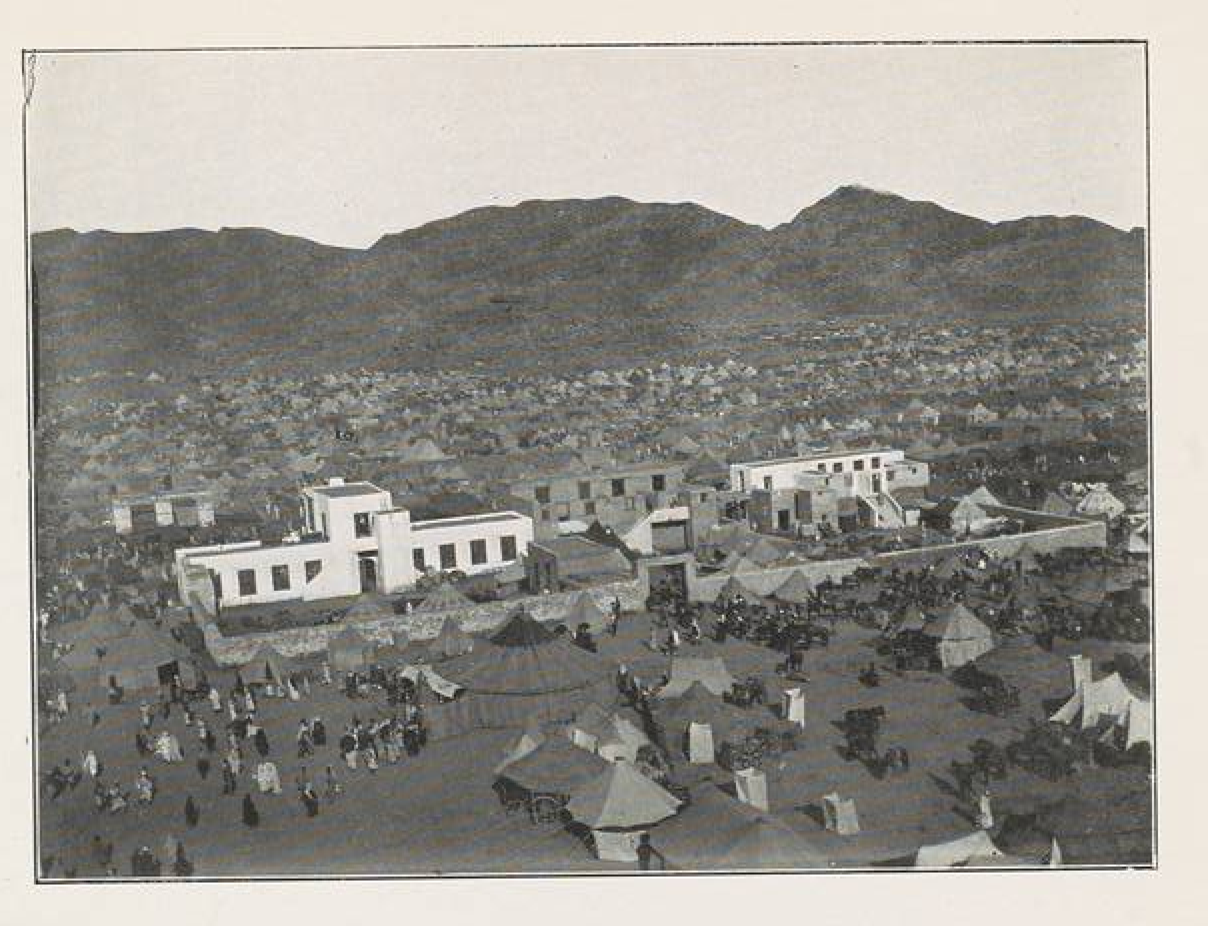
ولم تقتصر ذبائح القربان على الحيوانات ، بل بالغ كثير من الامم فيها، حتى كانوا يقدمون ذبائحهم من البشر كالفنيقيين والكنعانيين والصوريين والفرس والرومان والمصريين وغيرهم، ومازالت هذه العادة الشنيعة فاشية، وعلى الخصوص فى أوروبا حتى صدر قرار من مجلس الاعيان الرومانى بمنعها سنة ٦٥٧ ميلادية . ومع ذلك فقد استمرت فى بلاد الغال و بلاد الجرمان الى ما بعد هذا التاريخ بمدة طويلة .

وكان المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء ملك الحيرة يقدم الى معبوده العزى الذبائح من البشر، ولا شك أنه أخذ هذه العادة عن وثنى الفرس .

وقد كان قدماء المصريين يقدمون الى النيل (وكان من معبوداتهم) فى يوم ١١ بؤونه من كل سنة غادة من فتياتهم، و بعد أن يزينوها بأحسن زينة يغرقونها فيه استمطاراً لرحمته بهم . ومازالت هذه العادة السخيفة حتى أبطلها عمرو بن العاص و وافقه عليها ابن الخطاب رضى الله عنهما ، كما هو مبسوط فى المقريزى فى الكلام على مقاييس النيل وزيادته . وكثير من العجائز المصريات الى الآن يعملن عروسة من الطين و يغرقنها فى اناء من الماء فى هاته الليلة التى يسمونها ليلة النقطه ، و يزعمن أن ماء الاناء اذا زاد ثانى يوم عما كان عليه ، كان النيل عاليا فى سنته والا فلا . ولا شك أن هذه العادة صورة بسيطة من التى أبطلها عمرو . ومن هذا ترى أن المسلمين كانوا أسبق الامم فى تحريم الذبائح البشرية . وهم يسوقون ذبائحهم الى البيت الحرام بمكة فى حجهم و يسمونها هَدْياً ومعناه الهدية . وهو اما من البُدْن (الابل) ، أو البقر، أو الغنم، والابل أحسنها، و يشترط ألا يكون عمرها أقل من خمس سنوات ، وألا يكون عمر البقر أقل من سنتين، والغنم أقل من سنة . وقد قسموا الهدى الى واجب فى دم الكفارات ، ومندوب فى دم الشكر . واشترطوا أن يكون ذبح الهدى بمنى فى أيام النحر وهو الافضل أو بمكة فى غير أيام التشريق، وأن يفرق لحمه على الفقراء من عباد الله .

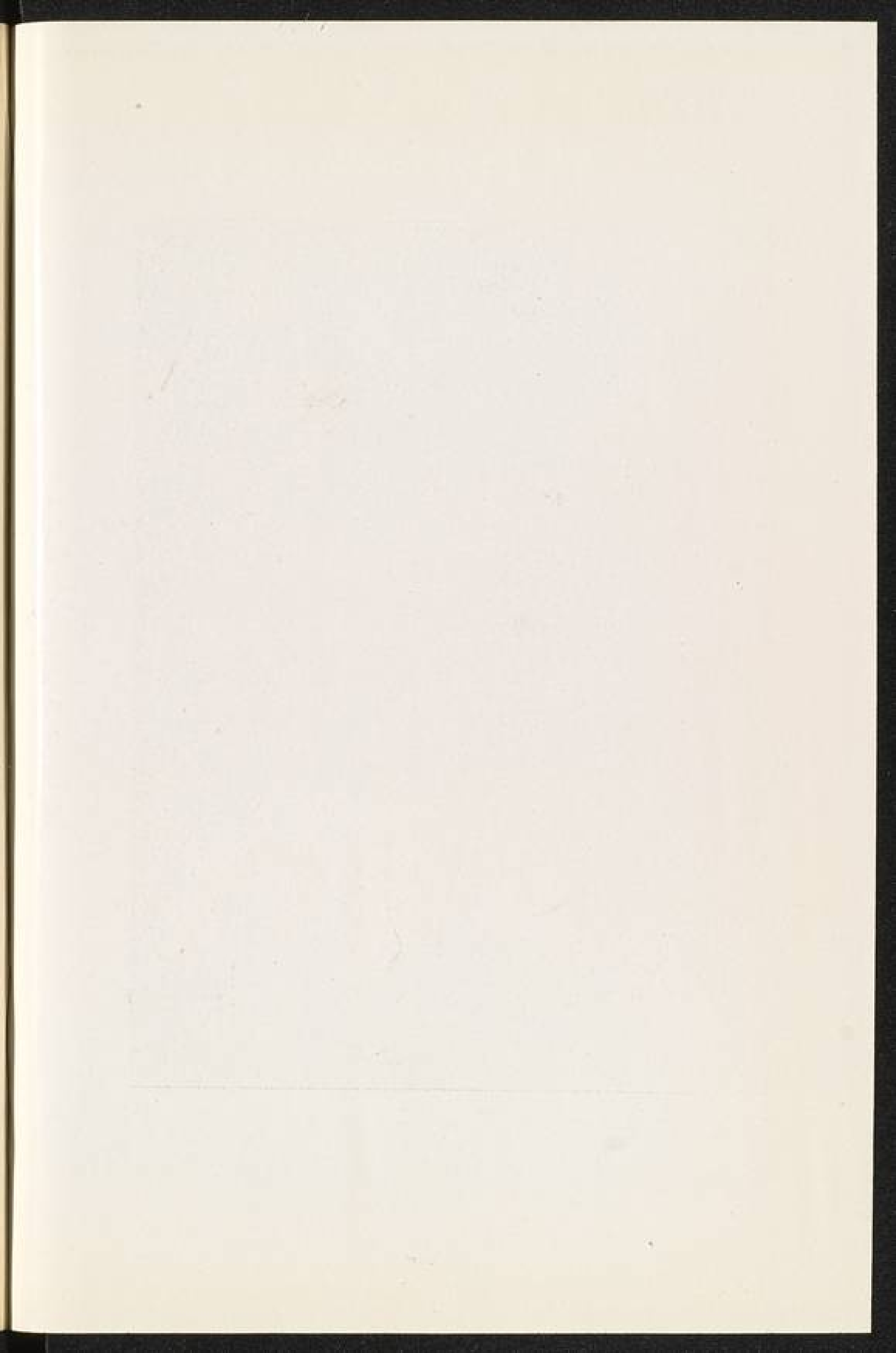
الآثار فى منى

يوجد فى منى غير مسجد الخيف غار قريب فى الجبل الجنوبى يسمى بغار المرسلات، كان يتعبد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام ، ونزلت فيه عليه سورة المرسلات، ويقصده الناس للزيارة والتبرك به . وفى الجبل الشمالى منها مغارة يقولون ان ابراهيم عليه السلام سكن فيها مع هاجر ، ويبلغ طولها ٤ متر وعرضها متران ونصف ، وعلى يمين الداخل فيها كهف نقر فى جوف الجبل . ومن خارجها مصلى فى مكان يقولون عنه انه مذبح اسماعيل ، وبجوارها صخرة كبيرة فى جوف الجبل فيها فلح كبير، يزعمون أن تلك السكين التى أراد أن يذبح بها ابراهيم ولده فلتت من يده رحمة بالذبيح فغاصت فى هذا الصخر ففلحته على ماترى، وهذا الاعتقاد باق بمكة الى يومنا هذا ! ولو ادعوا أن هذا الفلح انما هو ناشئ عن حادث طبيعى ، واختاره ابراهيم مذبحاً ليسيل فيه دم ولده حتى يسمع صوته فى عالم السموات اعلانا بصدعه بامر الله وكمال طاعته له ، لكان أولى . وبقرب هذه المغارة يقيم حجاج الهنود ولهم فيها اعتقاد هائل : فتراهم هناك وقد فرشوا على الحصباء خارج خيامهم وداخلها شطرات نيئة من لحم الاضحية، وبعد جفافها فى الشمس يحتفظون عليها ويأخذونها معهم الى بلادهم هدية مباركة مقدسة لمن كان عزيزا عليهم . وأظن أن هذه عادة قديمة للعرب كانوا يقومون بها فى أيام منى ومنها سميت بايام التشريق أى التقديد . وهى الثلاثة الايام التى تعقب يوم النحر ، وقد مر بك فى باب القربان مثل ذلك فى عوائد الرومان ولعلهم أخذوها من اليونان ،وهؤلاء أخذوها ضمن العوائد الكثيرة التى أخذوها عن الهنود أنفسهم فيكون أصلها منهم ومرجعها اليهم . ولو علموا أن أجرهم من ذلك انما هو ما يصيبهم من الامراض التى تنشأ عما يحدث من مكروباتها الضارة لكانوا ألقوا بها الى بطونهم من يومها، خصوصاً وسوادهم فى حاجة اليها لكثرة الفقراء فيهم . وعلى كل حال ففقراء حجاج الهنود فى غاية من الوساخة، ومن وسطهم تظهر الامراض والاوبئة وتفتك بهم فتكا ذريعا ولا قدرة لهم على مقاومتها لان غالبهم فى سن الشيخوخة .



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

منظر عمومي لمنى والحجاج مخيمون فيها



خروج الجناب العالى الى عرفة

وافاضته منها

فى صباح يوم التروية خرج الجناب العالى من مكة الى عرفة ، راكباً جواداً كريماً وهو بملابس احرامه . وسار فى موكب رهيب ، ومن خلفه رجال معيته الكريمة من ملكيين وعسكريين ، يتقدمهم دولة البرنس كمال الدين والكل محرمون . وكان فى رفقة سموه سعادة عبدالله بك نجل الشريف . ومعه كثيرون من علية الاشراف وحضرة مكتوبجى الولاية وياوران دولة الشريف ، وفى مقدمة هذا الركب الميمون فصيلة من عساكر الحرس الخديوى السوارى بمزاريقهم تخفق عليها البنود ، ومن ورائها فرقة من جند البيشة على هجنهم وهم يضربون نوبتهم ويوقعون عليها أناشيدهم ، ويحيط بالركب جميعه فرقة أخرى من الحرس الخديوى . ولما تجاوز حفظه الله المعلى ، مر على جنود الدولة وهى واقفة وقفة الاحتشام لتقديم واجب السلام والاعظام ، وطلقات المدافع تدوى فى فضاء هذا الوادى احتفاء بقدمه الشريف فحياهم سموه تحية الشاكر ، وسار حتى اذا حاذى جبل النور ، وقف برهة مستقبلا فيها هذا الاثر النبوى الكريم ، قرأ فيها الفاتحة ودعا الله تعالى بما شاء . ومازال حتى وافى صيوان الشريف الخصوصى بمنى ، وقد كان خصص لجنابه العالى ، والى يمينه الصيوان الخديوى يتلوه صيوان دولة البرنس ، ثم صواوين دولة الشريف والوالى وحاشيتهم . وكانت خيم المعية السنية ، وباقى الحاشية قد نصبت فى الجانب الآخر من الطريق على يسار السالك الى عرفة . وبعدما استراح حفظه الله فى صيوانه ركب قبل الزوال وسار فى حاشيته الكريمة الى مسجد الخيف فصلى به الظهر ، ثم سار لزيارة دولة الوالدة بمنزل دولة الشريف الذى جهز لاقامتها فيه بمنى ، وعاد سموه الى مقره بعد صلاة العصر ، ومازال هناك والمحامل وجيوش الحجيج تمر بين يديه الكريمتين الى عرفات ، حتى ركب حفظه الله بعد صلاة الصبح يوم ٩ ذى الحجة فى موكبه الحافل قاصدا عرفة ، وسار تحدوه العظمة والفخامة ، وفرقة الأعراب من

أمامه تضرب نوبتها ويوقعون عليها بنشيدهم الرخيم ، وأصوات الخلق فيما بين ذلك تعلو بالتلبية وراء التلبية . وقد عرج جنابه العالى فى طريقه على مسجد نمرة ، وبعد زيارته سار الى عرفة ، فوصلها فى الساعة الرابعة العربية نهاراً ، ونزل الى الصيوان الذى أعده لسموه دولة الشريف فى الجهة الجنوبية من هذا الوادى . وكان الى جواره صيوان دولة الوالدة وخيم حاشيتها ، يتلوها خيم المعية السنية ، والى جانبها غرباً صيوان مولانا الشريف وخيم حاشيته ، وأمضى الجناب الخديوى يومه معتكفاً فى صيوانه ، وبعد صلاة العصر بنحو ساعة ركب جواده وسار والى يساره دولة الشريف ، ومن خلفهما دولة البرنس وعطوفة وكيل الولاية وجم غفير من كبار الاشراف ورجال الدولة ، حتى وقفوا حذاء جبل الرحمة ، وما زالوا واقفين هناك حتى أفاض الناس فافاضوا معهم .

وكانت افاضة الجناب العالى حفظه الله من عرفات من الفخامة بتمام يشاهد له مثيل بالمرة : فانه بمجرد ما تحرك المحملان سار حفظه الله والى جانبه حضرة الشريف ، ثم من فى معيتهما من الامراء والعظماء يحيط بالجميع سياج من الحرس الخديوى يتلوه آخر من حرس الشريف . ثم انتظم الموكب فسار وفى مقدمة الركب كوكبة من عسكر البيشة بهجنهم ، وفى وسطهم فرقة منهم تدق نوبتهم ، والباقون يتغنون بنغمات تدخل رناتها فى القلوب فتملؤها سروراً وحبوراً . ومن ورائهم شرذمة من عسكر الحرس ، يتلوها الجناب العالى وحضرة الشريف يتلوهما حاشيتهما ، ومن ورائها فرقة الموسيقى العربية تعزف بنغماتها الشجية ، ثم رجال الاشراف من حضر وبدو . وسار الجميع فى هذا الموكب الرهيب حتى وصلنا الى المزدلفة ونحن على غاية ما يكون من الراحة .

وكان موكب ذات الجلال والعظمة والدة الجناب الخديوى ، وصاحبات الدولة البرنسيسات يسير بعد ركب الجناب العالى . وكان مما يأخذ بالالباب بهاء وسناء : فكانت جنود الحرس المشاة والخيالة تحيط بعرباتهن ، يتقدم الجميع فرقة من عسكر الدولة وجند البيشة بموسيقاها ، يتبعها هوادج الحاشية ، وآلاف المشاعل فى جوانب الركب تملأ الجو نوراً ، وغناء الضوية والخدم وزغردة نساء الحجيج تزيد الافئدة سروراً .

وقد قطعنا المسافة من عرفة الى المزدلفة فى ساعتين ، كان الجناب العالى فى أثنائهما محل أنظار الناس على اختلاف أجناسهم . والمصريون منهم يرفعون له كلما مر عليهم أصوات الدعاء وعبارات الولاء . وكانت قد أعدت هناك الخيام ونصبت الصواوين لنزوله حفظه الله الهمام ودولة الوالدة وحاشيتهما ، فقضوا فيها ليلة النحر فى صفاء وهناء . وبعد صلاة الصبح نزل جنابه العالى فى موكبه الى منى ، فرمى جمرة العقبة ، وذبحت الضحايا الكثيرة بحضوره حفظه الله ، وتحلل من احرامه (لبس ملابسه العادية) ، ثم نزل الى مكة بموكب حافل ومعه دولة الشريف ، فصليا العيد فى الحرم الشريف بالمقام المالكى ، وطافا طواف الافاضة ، ثم تناول سموه طعام الغداء فى دار الامارة ، وعاد بعد صلاة العصر الى منى فى موكبه الفخيم .

ايام الجناب الخديوى بمنى

—والاحتفال بتلاوة فرمان الشريف بها—

مابزغت شمس يوم الجمعة ١١ ذى الحجة الموافق ٢٤ ديسمبر حتى التفت الجنود التركية والمصرية حول المصطبة الكبرى التى كانت عليها سرادقات سمو خديوينا المعظم ودولة الشريف وسعادة وكيل الولاية ، يتقدم كل فرقة موسيقاها استعدادا للتشريفات بحفلة تلاوة فرمان دولة الشريف . وفى الساعة الثانية العربية نهارا اصطفت رجال المعية السنية فى الجهة اليمنى من الصيوان الكبير المعد للجناب العالى الخديوى . وكان دولة الشريف أرسل بعض حاشيته لمقابلة الوفد الحامل للفرمان والخلعة السنية ، ثم سار الى صيوان الجناب العالى وجلسا يتجاذبان أطراف الحديث ، حتى اذا وصل الوفد الى سلم المصطبة ، خف الجناب العالى ومعه مولانا الشريف نحو السلم ، واستقبلا الفرمان بتقبيله ، ثم قصد الكل الصيوان الخديوى وجنابه العالى فى مقدمتهم . ولا يخفاك ما فى هذا الترتيب من المعنى الدقيق اللطيف الذى يشير الى علو مكانة جنابه الرفيع ، وأن مقامه هنا هو المقام الاول ، ومنزله هو المنزل

الاجل . فجلس حفظه الله فى صدر المكان ، وعن يساره دولة الشريف ثم نائب الوالى ثم أنجال الشريف ثم علية الاشراف ، ومن خلفهم مشايخ القبائل العربية وصاحبا الفضيلة مفتى وقاضى مكة وكثير من علمائها وأعيانها ، ثم رجال العسكرية العثمانية وفى مقدمتهم سعادة ناظم باشا قومندان قوة الحجاز . وجلس على يمين الجناب العالى دولة البرنس كمال الدين باشا ، ثم أصحاب السعادة شفيق باشا وعزت باشا وخيرى باشا ثم موظفو المعية السنية ، يليهم مستخدمو قوة المحمل الشريف المصرى . وهنالك توسط ساحة الصيوان عزتلو مكتوبجى الولاية وأخذ فى تلاوة الفرمان الذى كان يمسك بطرفيه اثنان من التشريفاتية فتلاه بالتركية ، وعند ما أتى على لفظة الخلعة السنية التى قدمها جلالة السلطان « محمد الخامس » الى دولة الشريف فكها أحد المهمندارين من غلافها الاطلسى وألبسه اياها . وبعد تلاوة الفرمان قام كاتب يد الشريف وتلا ترجمته المرسلة معه بالعربية : وفحواها أن مولانا السلطان حفظه الله لما يعلمه فى دولة الشريف من أصالة الرأى ، وعلو الكعب فى حسن الادارة ، وكمال الدراية ، ومحاسن الاخلاق ، وواسع المعرفة وكريم السجايا ، ومحامد الخصال ، ومعالى الفضائل ، وجّه لدولته مركز الشرافة العظمى ، وهو يرجوه على الدوام مساعدة حجاج بيت الله الحرام ، والقيام بكل ما فيه راحتهم وصحتهم ، مع تأمين الطرق وتسهيل المواصلات والضرب على أيدى الخارجين من الاعراب عن الصراط السوى المستقيم . ولفت نظره الى الدقة فى صرف المرتبات وتوزيع الصدقات على أربابها بكل ضبط ، مع مساعدته لمأمورى الدولة من عسكريين وملكيين على أداء وظائفهم . وكان كلما ذكر اسم واحد منهم ألبسوه كركا ، حتى اذا تمت الحفلة أمر الجناب العالى فاديرت أكواب الشربات على الجميع ، وبعد شرب القهوة انصرف الشريف مودعا من الجناب السامى بكل تجلة واحترام .

ومما يجمل بنا ذكره تلك الالقاب التى وردت فى هذا الفرمان موجهة من قبل صاحب الخلافة العظمى الى دولة الشريف حتى تعرف مكانته السامية : « جناب الامين الامجد ، الاجل الاوحد ، المقتفى آثار أسلافه الاشراف ، من آبائه الغر صناديد آل عبد مناف ، وأجداده الحميدى السير الجميلى الاوصاف ، فرع الشجرة الزكية النبوية ، طراز

العصبة العلوية المصطفوية، المنتمى الى أشرف جرثومة علا عنصرها ، والمنتسب الى أنفس أرومة غلا جوهرها ، زبدة سلالة الزهراء البتول ، عمدة آل بيت الرسول ، المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى من أعاظم وزراء سلطنتنا السنية، الحامل لنيشانى الافتخار المرصع العثمانى والمجيدى ،وزيرى سمير الفطانة أمير مكة المكرمة الخ »

وعلى هذا يجدر بنا أن نسوق اليك شيئاً من الالقاب التى كان يكتب بها الى أمير مكة فى عهد الدولة الجركسية : فقد ورد فى صبح الاعشى فى رسم المكاتبة الى أميرها هذه العبارة: « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى ،الاميرى ،الكبيرى ،العالمى ،العادلى ،المؤيدى ، العضدى ،النصيرى ،الذخرى ،العونى، المقدمى ،الاوحدى ،الظهيرى ،الزعيمى ، الكافلى ،الشريفى ،الحسيبى ، النسيبى ، الاصيلى ، الفلانى (الحسينى مثلا) ، عز الاسلام والمسلمين ،سعد الامراء فى العالمين ،جلال العترة الطاهرة ، كوكب الاسرة الزاهرة ،فرع الشجرة الزكية ،طراز العصابة العلوية ،ظهير الملوك والسلاطين ، نسيب أمير المؤمنين ، لازال حرمه أميناً ، ومكانه مكينا ، وشرفه يبيض له بمجاورة الحجر الاسود عند الله وجهاً ويضيء جبيناً ، صدرت هذه المكاتبة من المجلس العالى تحمل اليه سلاما تميل اليه الركائب الخ » .

ومنه ترى ما كان وما يكون لمركز الشرافة العظمى من جليل المقام وعظيم الاحترام لدى الملوك والسلاطين . وليس هذا بغريب فى بابه فحسب هذه الاسرة فخاراً أن

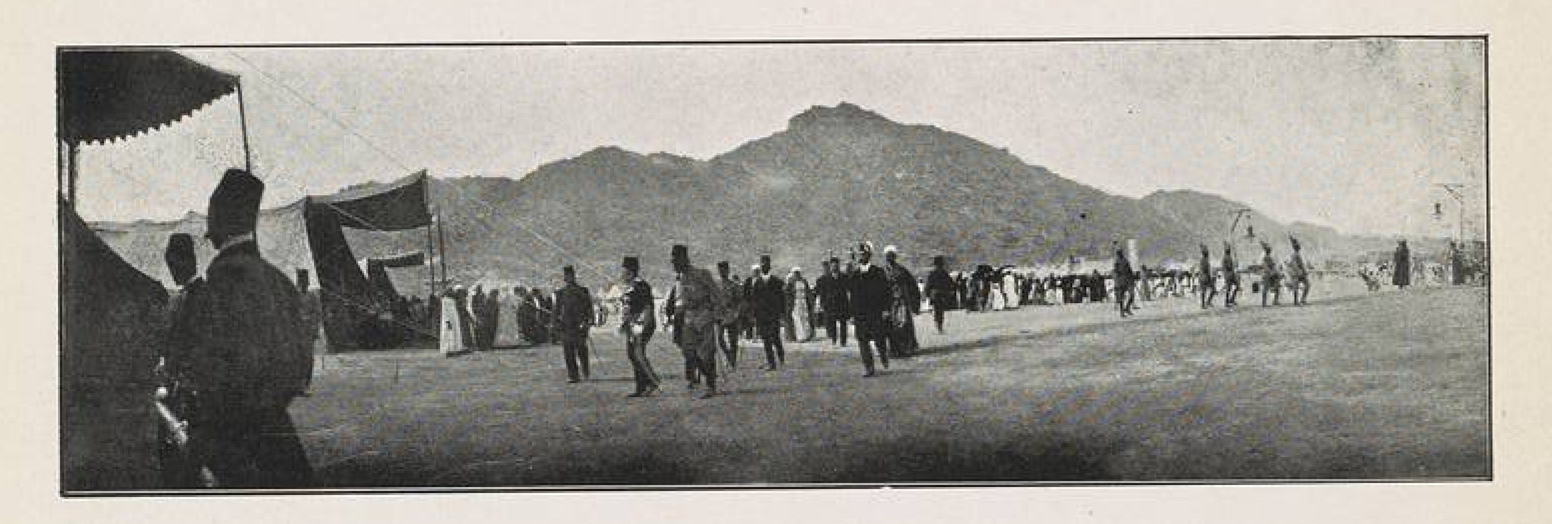
عائلة اشراف مكة اقدم اسرة[1] شريفة فى العالم

(١) لان هذه الاسرة الشريفة تصعد حلقات سلسلتها من غير شك الي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: وكل فرع من فروع هذه الشجرة الكريمة النبوية ، يترك الوالد منه الي ولده من مبدا الاسلام الي يومنا هذا ، نسبته الى هذه العترة المباركة ، ارثا ثمينا لا يضاهيه عنده فى منزلته شيء بالمرة . ويوجد كثير من هذه الفروع في بلاد الاسلام وعلى الخصوص بمصر التى كانت محط رحال آل البيت رضى الله عنهم ، ولكل فرع سلسلة نسب توصلهم الي أحد سبطي النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : السادة الحسنيون ، أو الحسينيون مثلا . وهذه النسب مسجلة فى دفاتر مخصوصة عند نقيب الاشراف ، ولاربابها مرتبات تصرف اليهم سنويا فى مواعيد يعلن عنها في الجرائد اليومية . ومن هذا تعلم من غير شك أن نسب هذه العائلة بوصوله الي النبي صلى الله عليه وسلم يصعد الي أربعة عشر قرنا تقريباً .

وبعد تلاوة الفرمان خرج سمو أفندينا الخديو حفظه الله مع دولة الشريف الى رصيف المصطبة ، وفى أثرهما جميع رجال المعية السنية ورجال الشريف والدولة وموظفو المحمل الشامى ، حيث استعرضت جنود القوة الحجازية يتبعها حرس المحمل الشامى ، ثم الحرس الخديوى يتبعه حرس المحمل المصرى . أما الترتيب والنظام فى القوتين الاخيرتين فقد كانا مما دهش له جميع المتفرجين من ملكيين وعسكريين وخصوصاً رجال الدولة : حتى أن رئيس قوة الحجاز رأى أنه لا يحسن سكوته عن الاعتراف بذلك ، وأبدى اندهاشه من النظام العسكرى المصرى . وكان دولة الشريف وسعادة وكيل الولاية يبديان اعجابهما مما شاهداه ، وشكرا للجناب العالى الخديوى عنايته الكبرى برقى حكومته السنية . ومما يذكر بالمنة

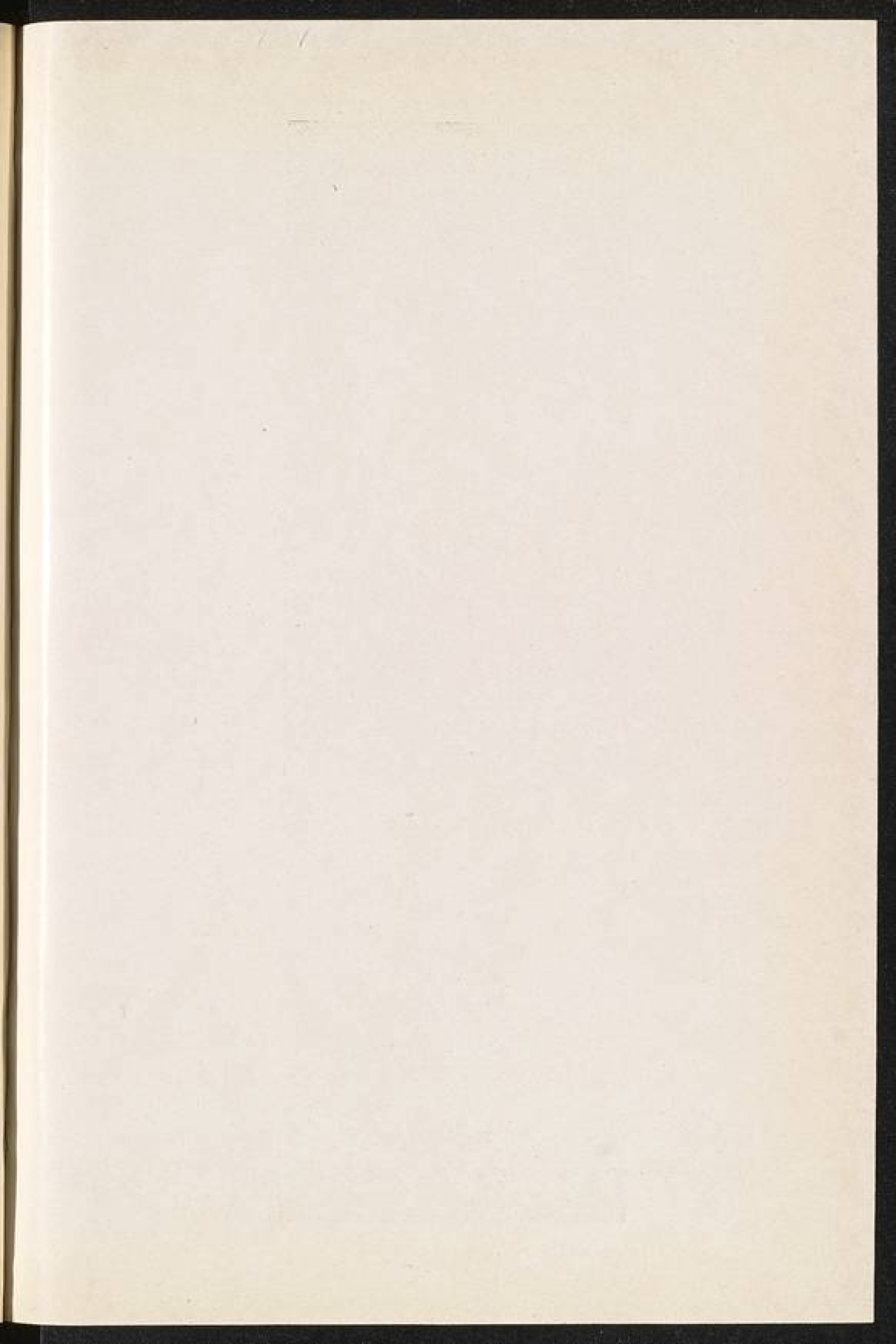
وحيث ان النسابين والمؤرخين قد حققوا بالاجماع أن نسبه عليه الصلاة والسلام يصعد الي عدنان فلا يكون هناك أى شك في تحقيقهم نسبه اليه . لان الانتساب كان من الخصيصات التى امتازت بها العرب على سائر الامم ، وهو من خصائصهم الى الآن . وكلما كان انتسابهم الي جد أعلى (أعنى كلما كانت حلقات سلسلة نسبهم أكثر) كان مجدهم أعظم ، وأصلهم أكرم . وقد أجمع المسلمون من مبدا الاسلام الي يومنا هذا على صحة هذا النسب العالي ، وهم يحفظونه عن ظهر قلب من نعومة أظفارهم وهاك هو : محمد ، بن عبدالله ، بن عبدالمطلب ، بن هاشم ، بن عبدمناف ، بن قصى ، بن حكيم ، بن مرة ، ابن كعب ، بن لؤى ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ، ابن الياس ، بن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان . وحيث انه من الثابت فى التاريخ أنه كانت لعدنان واقعة مع بختنصر في مبدا القرن السابع قبل المسيح ، فتكون المسافة بين حلقة السلسلة الحالية (أى الموجودة فى يومنا هذا) والحلقة العدنانية نحو ٢٦ قرنا . واذا جارينا النسابين الذين أوصلوا نسب عدنان باسماعيل بن ابراهيم ، وقالوا ان عدنان ، بن اد ، بن ادد ، بن الهميسع ، بن سلامان ، بن بنت ، بن حمل ، بن قيدار (نابت) ، بن اسماعيل ، كانت المسافة بين الحلقة الحالية من هذا النسب الكريم والحلقة الاسماعيلية أكثر من سبعة وثلاثين قرنا .

على أنا لو وقفنا بنسب هذه الاسرة الشريفة عند الحلقة النبوية ، فانها تكون أعرق الاسر (العائلات) الموجودة على ظهر البسيطة حسباً ، وأقدمهم نسباً : لان الاسر التى يحترمها التاريخ فى أوربا ويجلها الفرنجة عامة ، ويعظمون شأنها لمجرد اصالتها فى حسبها ، وعراقتها فى نسبها ، لم تظهر الا بعد أسرة الاشراف بمكة بقرون عديدة : اذ لا يخفي ان أسرة البربون (Bourbon) التي هي أقدم أسرة أوربية ، والتى تشعب حكمها فى فرنسا وايطاليا واسبانيا ، لم يبتدئ تاريخها الا فى سنة ٩١٣ بعد الميلاد . ويتلوها أسرة هابسبورج (Habsbourg) التي لها الحكم الآن في النمسا ، ويبتدئ تاريخها من سنة ٩٥٤ ميلاديه . ثم أسرة السفواى (Savoie) التي منها ملوك ايطاليا الحاليون وتبتدئ من سنة ١٠٢٧ . ثم أسرة ملوك آل عثمان وتبتدئ من سنة ١٢٧٧ . ثم أسرة قياصرة الروسيا وهي أسرة رومانوف (Romanov) وتبتدئ من سنة ١٥٤٧ ميلاديه .



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

الجناب العالي الخديوي وهو متوجه لرد الزيارة لدولة الشريف الذي كان في انتظاره امام مخيمه بمنى



للجناب العالى أثناء ذلك، أنه لاحت منه التفاتة فرأى عسكر على بن دينار (سلطان دارفور)، مع رئيسهم الذى أتى بحملهم، وراء صفوف الناس من بعد، فارسل فاستحضر رئيسهم، وبعد أن لاطفه وحياه بما يليق بكرمه، أمره حفظه الله بان يسير بجنده فى هذا الاستعراض، فسار يتقدم رجاله الذين كانوا يحركون حرابهم على نغمة الموسيقى بحماسة كانهم يتحركون الى حرب أوطعان.

و فى نهاية الاستعراض قصد الجناب العالى صيوانه، و بعد ما استراح قليلا ابتدأت التشريفات العيدية لجنابه الرفيع: فتقدم العسكريون يتلوهم الملكيون من رجال المعية السنية وغيرهم ممن حضر لاداء هذا الواجب من وجهاء المصريين، ثم موظفوا المحمل المصرى، وتشرف الكل بلثم راحته الكريمة، داعين له بطول العمر وكمال السعود والرفاهية، مهنئين بفريضة الحج الشريف. ثم تلا ذلك العدد الكثير من الاشراف وعظماء مكة وغيرهم من كبار الحجيج، وكانوا يفدون على سموه بواسطة دولة الشريف، فيقدمهم الى جنابه العالى تارة أحد أنجاله الكرام وأخرى أحد رجال تشريفاته أو ياورانه. وكان حفظه الله يقابل الجميع بصدر رحب، وثغر باسم، ووجه باش، مما جعل الكل يخرج من حضرته داعياً شاكرا. وفى أثناء هذه المقابلات كانت تعزف فى أطراف المصطبة موسيقات الحرس الخديوى، والمحمل المصرى، والشامى، وموسيقى القوة العسكرية الموجودة بمكة، والى جانبها المزمار البلدى، تتخلل نغماتها طلقات المدافع وهتاف الحجيج باصوات السرور والحبور من كل جانب بما لا يمكن وصفه.

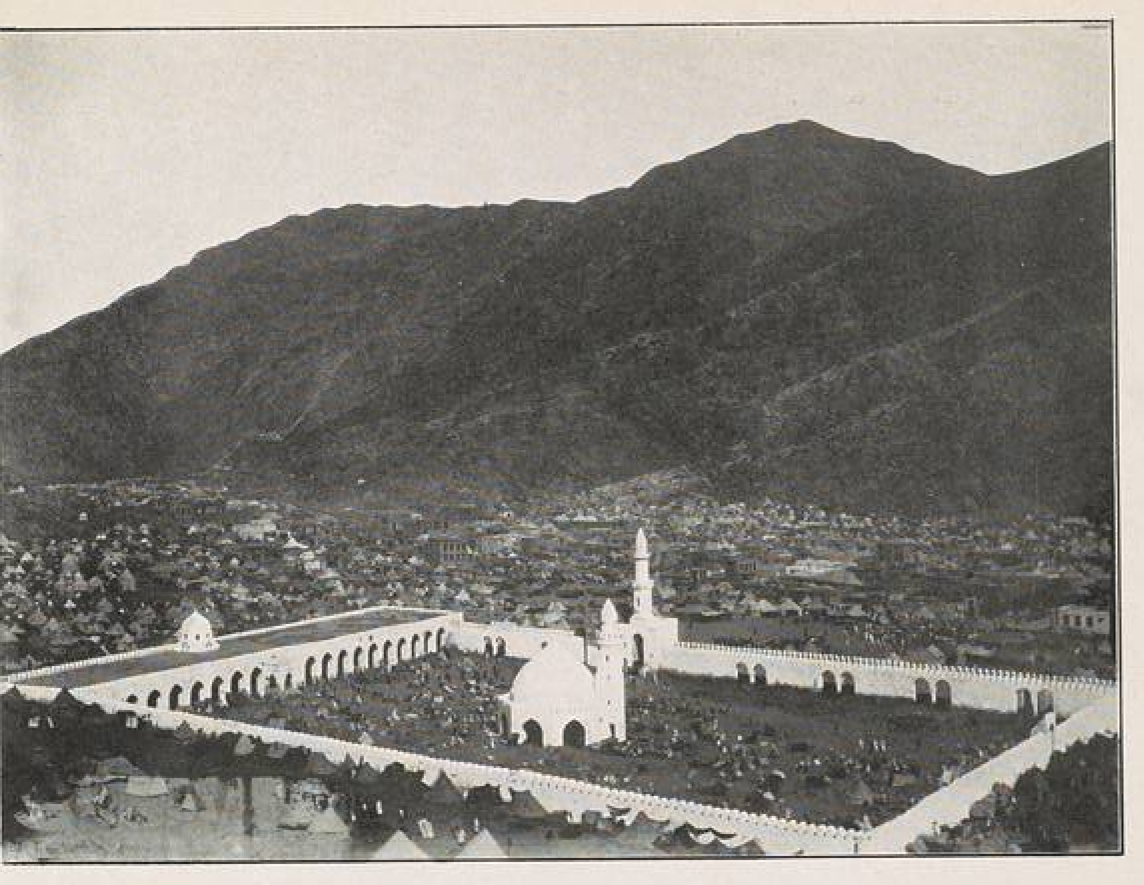
و بعد تمام التشريفات قصد الجناب العالى صيوان الشريف لرد الزيارة وتقديم واجب التهانى، فاستقبله دولته من خارج الخيمة بكل ما يمكن من واجبات التبجيل والتعظيم وأجلسه فى صدر المكان وجلس عن يسار سموه. وهنالك دخل رؤساء الديوان الخديوى يتبعهم جميع الموظفين المصريين عسكريين وملكيين لتهنئة دولته، وكان الجناب العالى حفظه الله يقدمهم لسيادته واحداً واحداً كلا باسمه، و بعد شرب الشربات انصرفوا الى أماكنهم، وتوجه الجناب العالى محاطاً برؤساء معيته الكريمة الى خيمة وكيل الوالى، فاستقبله بغاية

الاجلال والاحترام ، و بعد تناول المرطبات وشرب القهوة توجه حفظه الله الى صيوانه ومكث فيه يستقبل وفود المهنئين الذين كانوا يتقدمون اليه بواسطة دولة الشريف أو بعض حاشيته .

و بعد الظهر زار دولة الشريف ومعه عطوفة وكيل الوالى معسكر المحمل المصرى ، فتو بلا بما يليق بمقامهما من الاحترام بين اطلاق المدافع وعزف الموسيقى بالسلام الشاهانى . و بعد صلاة العصر ركب الجناب العالى ومعه دولة الشريف فى موكبهما الفخيم لرمى الجمرات ، ثم عادا الى مقرهما . و فى المساء كان الجناب العالى الخديوى قد أعد وليمة فاخرة لسيادة الشريف ومعه ثلاثون من عظماء قومه ، و بعد صلاة العشاء حضر المدعوون يتقدمهم سيادة الشريف فاستقبلهم الجناب العالى بما جبل عليه من الايناس ، وكان رجال التشريفات الخديو ية يقومون بالخدمة اللازمة ، و بعد ما أكلوا ما لذ وطاب هنيئا مريئا رفعت الموائد ، وجلس القوم للسمر ساعة من الزمان ثم خرجوا شاكرين للجناب العالى كرمه ، ذاكرين فضله وآدابه ، داعين مبتهلين الى الله بان يكثر من أمثاله فى أمراء المسلمين وملوكهم . وكانت فى أثناء هذه الحفلة موسيقى الحرس الخديوى تشنف أسماع الحاضرين ، وسهام الالعاب النارية تشق كبد السماء فتزيد درار يها زينة على زينتها ، وسواقيها النارية تنثر فى فضاء الارض تبرها المتلهب فيزيدها نورا على نورها . وكان آلاف المتفرجين من عرب وعجم ومغاربة ومصريين وسودانيين وأتراك وجاوه وهنود وغيرهم ، فرحين مبتهجين مهللين مندهشين لهذه المظاهر البديعة التى لم يسبق لها نظير فى منى بل ولا فى جميع هذه الديار . وكان أكثرهم دهشة من سبق له الحج قبل هذه السنة : وحقيقة فان هؤلاء هم الذين كانوا يحسون بالفارق بين الحج فى السنين الماضية ومظاهره فى هذه السنة المباركة . ومازال الناس فى سرور وحبور الى نصف الليل ، ثم انصرفوا وكلهم داع بعزة الاسلام ونصرة أمرائه وتوفيقهم .

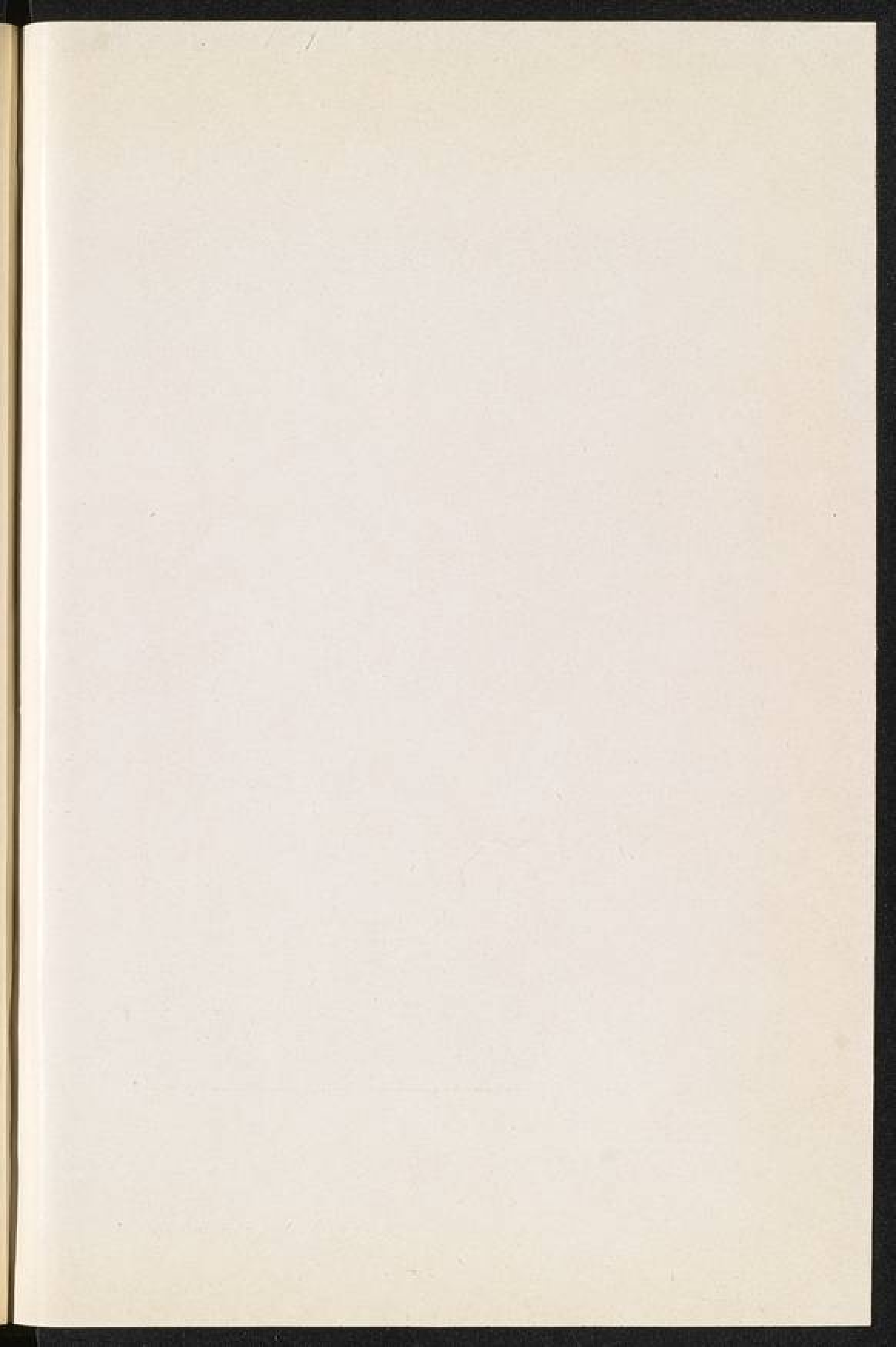
وقد أمضى الجناب العالى يوم ١٣ ذى الحجة فى تزاور مع دولة الشريف و وكيل الولاية واستقبال بعض الزائرين ، و بعد صلاة العصر نزل الى مكة فى موكبه الفخيم .

و بالجملة فقد كان سموه بمنى محطا للرحال ، ومكانا لتحقيق الآمال ، ومنهلا للخيرات ،



GOEHME & ANDERER, CAIRO.

مسجد الخيف ومخيم الحجاج بمنى



ومصدر المحسنات ، وكان صيوانه على الدوام غاصاً بالزائرين من عظماء الحجيج على اختلاف أجناسهم .

مواكب الشريف

يركب دولة الشريف فى مواكبه الرسمية على النظام الآتى :

تتقدم فرقة من الخيالة والقرّابة، ثم جماعة من الهجانة من عرب البيشة، ثم بعض السياس تتلوهم الجنائب : وهى جملة أفراس عربية يتلو بعضها بعضاً، يقود كلا منها سائسان : واحد الى اليمين والآخر الى اليسار ، ومن وراء الافراس بعض البغال ، وعلى الكل الرخوت الذهبية . ويعقب ذلك عربة يجرها زوج من الجياد ، ومن خلف العربة بمسافة خمسين متراً دولة الشريف على فرس مرخوت ، يحيط به الخدم والحشم وغيرهم من الخزنجية (الخزندارية) ، ومن على يساره مائلا الى الوراء قليلا حامل الشمسية على حصانه : وهى شمسية كبيرة من الحرير المزركش بالقصب ، والكنتير المذهّب ، وقطع التبر المثقّب (الترتر) ، يتخلل ذلك كثير من الفصوص الكريمة الجيلة . ولهذه المظلة وضع خاص بها : تكاد تكون نصف كرة منتظمة ، قطرها نحو متر ونصف ، وقائمها من المعدن الابيض ويطول حتى يرتكز فى ركاب حامله أثناء السير ، ويثبت فى الارض أمام صيوان الشريف اشارة الى وجوده فى مخيمه ، وهذا يغنى عن رفع العلم عليه وان كان للشريف علم أحمر خاص به .

ويسير من وراء الشريف الجم الغفير من السادة الاشراف ، يتلوهم أعيان مكة على خيلهم أو حميرهم ، والكل بملابسهم الرسمية ونياشينهم ، يتخلل ركابهم الخدم والحشم والعبيد ، ومن خلفهم ضاربو النوبة : وهم موسيقيون عربيون راكبون على خيلهم يضربون بالمزمار البلدى والنقرزان ، يحيط بهم عرب البيشه على هجنهم وهم يتغنون من وقت الى آخر باغنية حماسية

على نغمة الموسيقى ، ولا يزال الموكب سائراً على هذا النظام حتى يصل الى المكان الذى يقصده دولة الشريف .

ونظام هذه المواكب عادة قديمة فى ملوك الشرق: وقد كانت تركب فيها على المثال المتقدم الخلفاء من العباسيين والفواطم وملوك الجراكسة وغيرهم مما تراه مبسوطاً فى المقريزى وغيره . وكانت هذه الشمسية تسمى عند الفاطميين بالمظله وحاملها كان من كبار القوم وله مكانة مخصوصة ، ويسمى بحامل المظله ، وبعضهم يسميه حامل القبة . وقد رأيت فى تاريخ السودان لشقير بك فى الكلام على دارفور ، أن أميرها على بن دينار يركب فى احتفالاته الرسمية بما يقرب من هاته المواكب . وهاك نص عبارته تحت عنوان ركوب السلطان « وقبل الظهر بساعتين يركب السلطان جواداً مزركش العدة ، وأمامه العساكر الحاملو الاسلحة النارية مشاة ، ومن ورائه الخصيان راكبين الخيول ، وبينه وبين الخصيان بعض الجياد بسروج الرهط كاملة العدة يقودها السياس خلفهم صفاً واحداً ، وعن جانبى السلطان نفر من المشاة يتناوبون حمل مظلة واسعة تظلله وتظلل جواده ، وهى مصنوعة من نسيج متين مطرز بالقصب ومبطن باطلس مختلف الالوان كل شقة بلون ، تتدلى من أطرافها شراريب قصب ، ولها يد طويلة من خشب متين مغشاة بنسيج ملون كل شبر بلون » اهـ .

سفر الحجيج من مكة

بعد النزول من عرفة ينتظر الحاج فى مكة صدور أمر الشريف بسفر الحجاج منها ، ولا يكون ذلك فى الغالب الا فى الاسبوع التالى لنزولهم من حجهم . والغرض من هذا التأخير رواج تجارة هذا البلد . فاذا جهز الانسان نفسه سافر الى المدينة المنورة ، أو الى بلده ان كان سبق بالزيارة قبل الحج أو شغله عنها شاغل : فينزل مع القافلة الى جدة ومنها الى حيث يريد .

وعلى كل حال فانك ترى مكة اذ ذاك فى حركة هائلة بالجمالة وجمالهم وهى مجهزة للحمل غادية رائحة ليلا ونهارا فى طرق مكة وعليها شقادفها (١) ومحفاتها وسحلياتها : لان هذا هو الموسم الوحيد الذى يستمد منه هؤلاء الاعراب حياتهم بواسطة هذه الابل التى هى رأس مالهم الوحيد، بل هى حياتهم بجميع معانيها : فهم من البانها ولحومها يأكلون، ومن أوبارها وجلودها يلبسون، وبروثها وبعرها يدفئون، وهى مركبهم ومحملهم فى هذه المسافات الواسعة الشاسعة، التى لا يمكن غيرها من جنس الحيوان أن يقوم بالمأمورية التى تقوم هى بها فى وسطهم: ذلك لان الجمل سفينة الاسفار فى القفار، وله قدرة على احتمال مشقات الحياة الصحراوية، خلقه الله مقوس الظهر لاحتمال الاثقال، وجعل خفه واسعاً مدوراً طرياً حتى لا ينزلق على الاحجار ولا يسوخ فى الرمال، يحمل العطش أياماً (وزعم بعضهم أنه يحمله شهرين): لان القدرة الالهية جعلت له أربع معدات لهضم الغذاء، يعقبها تجويف كبير يخزن به الماء، فاذا نفد ما فيه رجعت اليه عصارة مائية من الاوعية الكثيرة التى حوله مما يأتى اليها من رشح البدن (وتقدر بعشرين لتراً). ويساعده على احتمال العطش انه كغيره من المجترات، له خاصة اخراج الغذاء من معدته الى فيه، بواسطة ضغط عضلات المعدة على بعضها، فتتقلص وتطرد الغذاء الى فمه فيلوكه: ومن هذه العملية تتنبه غدد الفم واللسان والزور فتفرز من اللعاب ما يلطف من غلته ويخفف من عطشه. والجمل يحمل الجوع أيضاً

(١) الشقدف عبارة عن سريرين من الخشب وقاعدتهما من الحبال على مثال العنجريب، وعلى حافة كل سرير من الجنب الخارجي والخلفي شبكة من عيدان اشجار السنط بحيث اذا ضم السريران الي بعضهما على ظهر الجمل بحبال متينة يكونان قبة يغطونها بشيء من الحشيش وركابها يضعون عليها في الغالب بعض الاكلة المغربية أو التركية فتقي الراكب من الشمس والمطر. ولو كانوا يغطونها في الشتاء بشيء من المشمع كانت الفائدة أكبر وأعظم. والشقدف يسع نفرين ويمكنهما أن يناما فيه كما يمكن أن يجلس فيه الراكب على راحته بواسطة مخدات صغيرة خفيفة يضعها على ما يحب. والمحفة هي كرسيان من الخشب اذا ضما الي ظهر الجمل جلس فيهما راكبان على مثال جلوسهما على الكراسى ووجههما الى رأس الجمل، وأغلب ما ترى المحفات فى الركب الشامي. أما السحلية فهي سرير من أسرة الشقدف يشد على ظهر الجمل مستعرضاً ويجلس فيه نفران وهي في الغالب من غير مظلة ويركب فيها الفقراء من الناس وخصوصاً من الهنود الذين يحتملون حرارة الشمس.

أياما متعددة بتغذيته من الدهن الذى فى سنامه ، ولهذه المزية الكبرى استُخدم فى الحروب من زمن بعيد جداً ، و لفرق الهجّانة المصرية فى فتوحات السودان شأن يذكر فيشكر . وغذاء الجمل فى بلاد الحجاز امامن الحشيش أو نوى البلح أو اللبن ، وقد رأيت بعضهم يلقمه الثريد المصنوع بمرق اللحم ، و بلغنى ان عرب السواحل تلقمه السمك نيئاً . والعرب يقولون ان أنثى الجمل تعرق من جميع جسمها ، أما الذكر فانه لا يعرق الا من دوماته وهى شعر بين أذنيه ، والبدو يشبعون فتيلة قد يحتهم بعرق جمالهم فتصير سريعة الاشتعال بمجرد ضرب الزناد عليها . وجمال الحجاز صغيرة ضئيلة فى الغالب ، والتى لقبائل حرب منها هى المتعودة على الحمل . أما التى لغيرها من القبائل وخصوصاً البعيدة عن مكة والمدينة فانها غير معتادة على الاحمال و يعانى ركابها مشقة جسمية وخصوصاً ركاب الشقادف . و يوجد غير الجمل فى مدن الحجاز وعلى الخصوص فى مكة والمدينة كثير من الحمير الحساوية (الحصاوية) المتينة ، و يؤتى بها من بلاد الحسا فى شرق بلاد العرب . ومع ما هى عليه من السرعة فى السير . فانها تحتمل المشى فى هذه الصحراء ثلاثة أو أربعة أيام متتابعة . و يمكنها أن تمشى فى اليوم نحو مائة كيلو متر من غير أن ترى عليها أثراً كبيراً من التعب . وغالب هذه الحمير لا يخلو جلدها من البرص . و يوجد هناك أيضاً بغال متينة يؤتى بها على الخصوص من بلاد الشام أو العجم . والخيل فى هذه المدن قليلة ، وهى تتحمل أيضاً مشقة السفر هناك أياما متوالية ، وجنسها ليس بالجيد لان الجنس الطيب محصور فى جهة نجد ولا يفرطون فيه إلا بأثمان غالية ، وعلى كل حال فان الجنس الطيب من الخيل فى نجد قليل الآن جدا : لان الانكليز بالهند يشترون منه كل سنة عددا كبيرا يستعملونه فى الغالب فى المسابقات و يأخذون من نسله من أفراسهم نسلا مختلطا قويا متينا .

الطريق الى المدينة

تقوم قوافل الحجاج من مكة الى المدينة المنورة : فيسيرون فى واحد من أربع طرق على حسب تبعية المقوم والجمالة اليها . وهذه الطرق هى : السلطانى — والفرعى — والغاير — والشرقى .

والطريق السلطانى هو أحسنها سيراً وأكثرها ماء . فاذا قامت القافلة منه خرجت من باب العُمْرة وسارت الى الشمال الغربى وتمر على المحطات الاتية :

وادى فاطمة — ويجرى فيه ماء عذب يأتى من السيول التى تنزل من جبال الطائف ، وبه مزارع كثيرة ، ويسكن فيه عرب الاشراف من ذوى حسين وذوى غالب ، ويسكن فى المنطقة التى بينه وبين مكة الى بحرة بنو لحيان .

عسفان — ماؤها قليل وفى طريقها عقبة لا تسع الا جملا جملا ، والعرب التى تسكن فى هذه الجهة بشور (بِشْر) وحمران .

خليص — بها بئر التفلة وماؤها غزير ويسكنها قبائل زبيد ، ويقرب منها واحة بها مياه جارية وفيها بساتين ونخيل .

القديمة — (القضيمة) قرية على البحر ومساكنها أكواخ صغيرة وماؤها من الحفر التى يخزنون فيها ماء الامطار ، وأهلها من زبيد ويشتغلون فى الغالب بصيد البحر ومنها يتجه الطريق نحو الشمال .

رابغ — وهى قرية على البحر الاحمر وفيها قلعة بها بعض الجند العثمانى ، وماؤها من الحفر والآبار وأهلها من زبيد . ويأتى الى مياهها بعض السفن الصغيرة لمشترى ما يصيده أهلها من الاصداف وغيرها ، ويُنزلون اليها خفية كثيرا من الدخان وغيره من الاشياء الممنوعة وعلى الخصوص الاسلحة وما يلزمها من زخيرتها . ويبيعونها بأثمان رخيصة جدا .

مستورة — ماؤها غض (ومنها طريق الى بدر، الى الصفراء يسمونه الملف)، ويسكن هذا الطريق قبائل صبح فى بدر، والاحامدة فى الصفراء.

بئر الشيخ — وتسكنها قبائل صبح. والمياه على طول هذا الساحل لا ترغى الصابون.

ديار بنى حصانى — ماؤها غض ويسكنها صبح، والحوازم.

الحمراء — وهى قرية بها نهر عذب وفيها بساتين ونخيل ويكثر فيها البرتقال والليمون والموز والحناء، ويزرع بها كثير من الخضر كالقثاء والبطيخ وغير ذلك، ويسكنها الحوازم، ومنها ينثنى الطريق الى الشمال الشرقى.

الجديدة — وهى قرية ماؤها عذب وبها قبر ولى الله سيدى عبد الرحيم[1] البرعى المصرى ويسكنها قبائل الحوازم والاحامدة. ومنها يميل الطريق قليلا نحو الشرق.

بئر عباس — ويسكنها جانب من الحوازم وصبح والاحامدة وماؤها قليل، ومنها يميل الطريق الى الشرق قليلا.

بئر درويش — ويسكن هذه الجهة قبائل الاحامدة والرِّحلة (بكسر الراء وفتح الحاء).

آبار على — ويسكنها قبائل عوف وعمرو وماؤها عذب وهى على مسافة نحو خمسة كيلومتر من المدينة المنورة، ويترك فيها القوافل شقادفهم وسحاليهم حتى لا يدفعوا عليها قوشانات فى دخولها المدينة. ومن يريد أن يدخلها بحمله دفع عليه الرسوم المعتادة من جيبه. وربما طلب منه الجمال أكثر من اللازم فليتدبر.

الطريق الفرعى

والطريق الفرعى يبتدئ من رابغ متجها الى الشمال الشرقى ويمر على المحطات الآتية:

وادى حرشان.

نقر الفار — وهو محجر ضيق منحدر تمر منه الجمال جملا جملا ويسكنه بنو سالم.

(١) وهو المقصود بقول بعض الشحاذين فى أغنيتهم «ياسعد قل للنبى عبد الرحيم منحاش» ولعل المرض دهمه فى طريق المدينة فمات ودفن بهذا المكان وله ديوان شعر مطبوع كله مدائح فى الرسول

بئر رضوان – وماؤها عذب .

أبوضباع أو أم ضباع – وماؤها عذب و يسكن فيها بنو عوف .

الرياض أووادى الريان – وماؤها عذب وشجرها كثير و يسكنها بنو عمرو .

الغدير – وفيه مجرى ماء .

وادى المعظم – ماؤه عذب .

بئر الماشى – ماؤها حلو و يسكنها عوف .

آبار على .

المدينة .

طريق الغاير

وطريق الغاير يبتدئ من رابغ أومن مستورة و يقطع جبل الغاير الى الشمال وهو أقل هذه الطرق مسافة . فاذا وصل المسافر الى الغاير صعد من عقبة عالية تشرف على هاوية عميقة طريقها ضيق جداً بحيث لا يسع الا دابة دابة . وهذا الطريق خطر فى صعوده وهبوطه وخصوصاً على الركاب ، ومع ذلك تسير فيه الدواب بسهولة لانها متعودة عليه ، ومسافة الصعود الى ظهر هذه العقبة لا تقل عن ست ساعات . و يسكن الغاير ومنحدراته [1] قبائل اللهبة ومسروح وهما شر العرب على الحجاج . وهذا الطريق يسمونه الطريق المدنى ، لان أهل المدينة يستسهلونه فى حجهم لقربه : فيركبون هجنهم أو حميرهم أو خيلهم و يسيرون فيه قوافل ، قوافل . ولهم منازل ينزلون فيها حيث يكون الماء و يقيمون بها ريثما يأكلون و يصلون ثم يستأنفون السير الى مكة . وكثير من الحجاج الاقوياء الخفاف الاثقال وخصوصاً من المصريين كانوا يصحبونهم من المدينة الى مكة ، أومن مكة الى المدينة عقب أيام التشريق مباشرة و ينتظرون بالمدينة حتى اذا جاءت القوافل اليها انصرفوا معها الى ينبع .

وكل حارة من المدينة تكوّن قافلة تسير تحت زعامة شيخ هذه الحارة و يسمون ذلك

(١) جل القبائل الموجودة فى هذه الطرق الثلاثة بطون من حرب .

ركباً فيقولون « ركب فلان حضر الى مكة أو قام منها فى يوم كذا » . وكذلك الحال فى زيارة
أهل مكة للمدينة المنورة قبيل شهر رجب .

﴿ الطريق الشرقى ﴾

والطريق الشرقى يخرج من مكة من باب المعلى ويتجه الى البياضية ثم يسير فى طريق
شمال طريق منى ويتجه الى الشرق ويمر على المحطات الآتية :

بئر البارود – ماؤها عذب .

وادى الليمون – ويكثر فيه شجر الليمون والنارنج والليمون الحلو ، ويزرع فيه البطيخ
والخضر . وفيه ماء جار ينزل اليه من جبال الهدى ويسير فى مجرى
مبنى الى بساتينه وغياضه . ومنه يتجه الطريق نحو الشمال .

الخفاير – (الضريبة) مياهها عذبة وقريبة من سطح الارض .

بركة سمرة – لا ماء فيها مدة الصيف .

بركة المِسْلَح – (حارة) ماؤها غزير وعذب وبساتينها كثيرة .

الحبيط – (الضيعة) .

سُفَيْنَة – (صفينة) وبها نخل وآبار عذبة .

السُّوَيْرِجِيَّة – (السويرقية) قرية يسكنها سادات من بنى حسين وبها آبار ومزارع كثيرة .

الحجرية – ويبعد الماء عنها بنحو ربع ساعة .

غُرابة – أو غراب وفيها مياه كثيرة على عمق ذراع أو ذراعين من سطح الارض .

الغدير – أو الحنك وبعضهم يكتبها الحنق وفيها بركة كبيرة تملأ من مياه الامطار .

سيدنا حمزة –

المدينة المنورة .

وعرب ان هذا الطريق من الزيود[١] واللهبة[٢] وعتيبة[٣] ومطير[٤] والرحلة[٥] وهم أبعد الاعراب عن الحضارة ٠

نظام القوافل

قلنا ان الحجاج لا يخرجون من مكة الى المدينة الا فى ركب القافلة التى تكون جمّالتها من أهل الطريق الذى يسيرون فيه ٠ وغالباً ما تكون جمال الحاج تابعة لجمال واحد وهو الاحسن، أما لو كانت تابعة لجمالين فتكون مشغوليته أكبر وتعبه بينهما أعظم ٠ وعلى كل حال فعلى الحاج أن يجتهد فى تخفيف أحماله وأثقاله ٠ فاذا كملت شحنة القافلة نهضت الجمالة بجمالهم وأخذوا يقطرونها فى بعضها قطاراً واحداً أو قطارين بجوار بعضهما، وفى المقدمة يكون غالباً أكبر الركب وجاهة وعصبية ٠ وجمال كل رجل تسير من خلفه مقطورة فى جمله، ومنهم من يرى تقدمها على جمله حتى تكون على الدوام تحت نظره خوفاً عليها من عبث العابثين ٠ والجمل عندهم ينقسم الى قسمين جمل الشقدف: ويركبه اثنان ومعهما اللازم من فراشهما ومؤنتهما اليومية، وجمل الحمل ويقال له العصم يحمل المتاع ويركب فوقه رجل واحد أو رجلان ان كان المتاع قليلا ٠ وأجرة العصم فى الغالب ثلثا أجرة جمل الشقدف الذى يكون من الجمال المتينة القوية حتى

(١) الزيود شيعة ينسبون الى سيدنا زيد بن على زين العابدين ٠ ومن عوائدهم أنهم لا يختتنون بل يسلخون جلد عانتهم وقضيبهم، ويموت من جراء ذلك منهم خلق كثير، وأطفال مكة يعيرونهم بذلك ٠

(٢) اللهبة مشهورون بالغدر والخيانة ٠

(٣ و ٤) هما من أكبر قبائل بلاد العرب قوة ومنعة وأكثرها عدداً وأمتنها شجاعة، وأغلبهم لا يلبسون الا المئزر، ونساؤهم على جانب عظيم من الشجاعة ٠ وقد بلغ من المرأة العتيبية أو المطيرية أنها تمسك بذيل الفرس وهو يعدو وتجري معه ثم تضغط على ذيله بيدها وتقذف بنفسها فوق ظهره، وهي كذلك تركب الجمل فى عدوه ٠

(٥) وعرب الرحلة لا يقيمون في محل واحد بل تراهم كما يشير اليه اسمهم متنقلين وراء الكلأ من مكان الي آخر ٠

يتيسر له حمل مافوقه . وليس لهذه الاجرة من رابطة بل يقدرها الشريف كل سنة باتفاقه مع الوالى، على حسب أهوائهما وتحت رحمتهما بضيوف الله، ثم ينادى بها المنادى فى الاسواق، ولذلك تراها كالترمومتر ترتفع وتنخفض على نسبة مطامع ولاة الامور بمكة . ولقد كانت أجرة جمل الشقدف فى سنة ١٣٢٨ ست ليرات عثمانية من مكة الى المدينة الى ينبع ، أما قبل الدستور فقد بلغت ١٣ جنيها مصريا ونصفاً ، كانت تؤخذ من الحاج فى مكة بواسطة المطوف، وهذا عدا ما كان يصيبه من الجمال فى طريقه من طلبه زيادة على الاجرة المذكورة مدعياً بانه لم يصله شىء من أجرته .

وعليه فاذا كان الحاكمون فى بلاد العرب من الاخيار البعيدين عن المطامع، كانت الجمالة على أخلاقهم ، والعكس بالعكس (والناس على دين ملوكهم).

والمطوفون بعد أن يتفقوا مع الجمالة على حمل حجاجهم يسافرون غالباً الى المدينة فى قافلتهم بحجة المحافظة عليهم ، وكثيرا ما يغرر الجمالة بضعاف الحجاج فيأخذون الاجرة منهم ويخبرونهم بان الجمال خارج البلد ، ويرجونهم فى أخذها من هناك حتى يوفروا عليهم دفع القوشان (كلمة تركية معناها المكس ، وهو عوائد تأخذها الحكومة على الجمال الخارجة من مكة أو جدة أو المدينة أو ينبع، وليست لها قيمة مخصوصة بل ترتفع وتنخفض على نسبة مطامع ذوى الكلمة هناك ، وربما بلغت ريالين أو أكثر قبل الدستور مع أن الذى يرد لخزينة الدولة منها ستة قروش عثمانية فقط) . فاذا خرج الحجاج المساكين من مكة لايجدون الا جمالا ضعيفة ضئيلة ينالهم منها مشقات جسيمة، وكثيرا ما يتركونها ويسيرون على أقدامهم جل مسافة الطريق أو كلها.

والقافلة لا تنتظم عادة الا بعد أول محطة حيث ينظم الجمالة جمالهم ويرتبون قطاراتهم التى لايخالفونها طول سفرهم .

والجمالة فى الغالب نحيفوا الجسم رفيعو الساقين قصار القامة يكاد أن لا يكون فى جسمهم عضل بالمرة، أما عظمهم فهو الحديد أو أشد صلابة ، ولهم قدرة على العدو بحيث لا يلحقهم فيه أحد: ولقد رأيت رجلا منهم يعدو وراء جمل شارد حتى تعلق بذيله فعاقه عن الجرى ثم أمسك

بزمامه . أما ملابسهم فهي قميص عليه حزام من الجلد به عادة سكين طويلة أو سيف صغير، و في يدهم عصا غليظة قصيرة يسمونها المطرقة وعلى رؤوسهم تلك الصمادة (الكوفية)[1] التي يلفونها عليها بأشكال مختلفة . و بعض عرب الشروق واليمن يستعملون غير الطاقية شيئاً من الخوص يشبه البرنيطة الواسعة ان لم يكن هو هي و يسمونها الظلة .

و بعض الجمالة يلبس نعلا في رجله تقيها من حرارة الارض وحصبائها . أما نظافة ملابسهم فلا يمكنني أن أقول لك عنها غير أنها اذا اتصلت بجسومهم لا يخلعونها مطلقاً حتى تنخلع هي عنها ، وهذا لا يكون الا اذا أكل عليها الدهر وشرب . والمترفون منهم يغيرون ملابسهم كل سنة مرة في موسم الحج ، و بعضهم يلبس عليها عباءة من الصوف أيام الشتاء تقيهم شدة البرد يسمونها مِشْلَحاً . ولون هذه الملابس كلون الجبال أو الرمال : فتراها صفراء قاتمة أو حمراء طوبية ، و ربما كان اختيارهم لهذه الالوان حتى لا تُرى بسهولة من بعد بل يشكل فيها الأمر على الرائي . وفي ذلك ما لا يخفاك من الفكرة التي أساسها الخبث والغدر!! و ربما أخذ من هذا تغطية الاستحكامات الجديدة في أوروبا بطبقة ترابية تشبه أرض المنطقة المحيطة بها . و بعض كبراء الحجيج يعطون جمالتهم عباءة من الجوخ الاحمر فيفرحون بها فرحاً عظيماً و تقع في نفوسهم موقعاً حسناً و يتباهون بها على أقرانهم .

والجمالة بعد الابتعاد عن مكة يلحفون للحجاج في السؤال ، و يغلظون لهم في الاقوال : فترى أصواتهم هنا وهناك قائلين لركابهم « جرجوش ــ هلله ــ سكر ــ جرش » . فيجيبه هذا الحاج أنت أخذت ، و يقول الآخر ما بقي شيء أو ما في معنى ذلك . وهناك يكثر بينهم الاخذ والرد الذي ينتهي بأخذ الجمالة ما يريدون . وكثيراً ما ترى في الطريق بعض أعراب من غير جمالة القافلة ومعهم جمال ضئيلة وهم ينادون (يارُ و يكِبْ يارُ و يكِبْ) و يكون ذلك غالباً في المحطات الآهلة بالسكان : وتصغيرهم للراكب في ندائهم لا يخلو من معنى ينطبق على حقيقة من ركب معهم من هؤلاء الذين لم تسمح لهم ذات يدهم بالاستعداد على ركائبهم قبل سفرهم ، ولهذا فانهم يتساهلون في أجرتها كثيراً . وترى ذلك على الخصوص في طريق عرفة .

---

(١) أظن ان لفظ الكوفية: نسبة الي الجهة التي كانت تعمل فيها وهي الكوفة .

وعلى طول طرق القافلة ترى كثيرا من حجاج الفور (التكرور) مشاة باطفالهم ، وكثيرا ماترى الام حاملة طفلها فى شبه كيس ملتصق بظهرها بحيث لا يظهر منه غير رأسه ، وعلى رؤوسهم بعض أمتعتهم ، و فى أيديهم صفيحة أشبه بالكشكول يضعون فيها غذاءهم . واذا كانت لهم حاجة الى السؤال سألوا ركاب القوافل بلطف وأدب ، ومارأيتهم يطلبون غير الماء لانه يصعب عليهم حمله ، وخصوصاً فى مدة الصيف الذى تجف فيه القرب وتنشف الركايا . فاذا مرت القافلة قرب بيوت قبيلة من القبائل وجدت كثيرا من الاعراب ينادون على البطيخ الكبير بقولهم برطيخ ، وعلى صغيره بقولهم الخربز (وأصلها قاربوز بالتركية) ، وينادي بعضهم الما الما ، خُبز خُبز . التمر ، الفجل الخ الخ ، فاذا اقتربت من ديارهم وجدت شرذمة من أولادهم يحيطون بك وأيديهم ممدودة للعطاء وهم يتغنون بقولهم : ياحاج سلامات ، يافندى سلامات ، يابو ياسلامات ، ان شاء الله سلامات ، ان شا الله عرفات ، ان شا الله بركات و بعضهم يقول : حج حجيج (حج الحجيج) بيت الله : والكعبة و رسول الله الخ .

وكانى بالجمالة واللقمة تهضم فى أكفهم والحسنة تضيع بين أصابعهم لا يعرفون الكرامة الا وقت امتداديدك بها اليهم ، فاذا انقضت حركتها صارت كانها ما كانت !! وهذا أمر لا ينطبق على ما هو مشهور فى الطبع العربى من ذكره للنعمة وحفظه للجميل . ولهم أغنية يتغنون بها فى طريقهم ، وهى فى الغالب على النغمة العراقية والرومية التى أخذوها عن حجاج الاتراك والشوام . وجمالهم ترتاح اليها وتسمع لها فتنسيها لحظة ما هى فيه من التعب والعناء . وهذه الاغنية لا يكاد يعرفها من يسمعها لانها أقرب الى الرطانة منها الى العربية ، على أنها لا تخلو من معان دقيقة لطيفة وأغلبها غرامية تمثل حكاية محب ومحبوب أو عاشق ومعشوق ومنها ما هو مدح فى المطايا ودونك شيئاً منها :

« ياحبيبى لوترى حالى   واللّى جرى لى بعد فراقك
والله ماغبت عن بالى   ولا نسيت الحصافه ذاك »

« ياسيدوايش غربك فى دايرة الحفا والشوك ، يارهيف ، يامرود العين ، ياريت خدى ينقسم نعلين ، الله يحاسبهم كما حاسبونى ، كما رمونى بجوف الوقيدة واناحى » .

« لواهنى بالحج واوفى بجماره ، واقف على العيرات ساجدين مع الربع ، (الجبل المرتفع) صبح أربع تمسى شعيب الخضارة ، مع مثلهن يمسى بوادى الربيع ، مع مثلهن كل تهنى بداره ، وادى النعيم اللى عذوقه مهابيع » .

« ياالله ياراد كل غريب بلاده والذوق (النوم) بعد القسا (القسوة)

(يعنى التعب الشديد) ، حمت اللّمن (اليمن) والشام وكل دايره جيت من وراها ، لى فى اللمن سيد ولى فى الشام باشا ، ان جيت عند اللى فى اللمن يبقى السيد علكنى ، وان جيت عند اللى فى الشام يبجى الباشا يحكمنى » . و ينطقون بالقاف جيما غير معطشة

وصغار الحجاج من المصريين لهم أغنية يتغنون بها فى طريقهم وعلى الخصوص نساؤهم . وهى لاتخرج عن ذكر الطريق للحج وذكر البيت وعرفة و زمزم ، وخصوصاً ذكر النبي عليه الصلاة والسلام . وكلها عبارات بسيطة ليس فيها شىء من المعانى العالية نذكر لك شيئاً منها :

« أنا امدح محمد ، والحسن والحسين والقاسم أحمد ، بلّغ العاشقين يارب زيارة محمد ، مدح باشتياق أنا ماامدح الا النبي ، ياهنا اللى انوعد .

ياليلة ان برّزوا و باتوا البِرّه ، و بات قلبي فى حنين ، و يطلب من الله يرجعوا سالمين ، بنصره من الله ، ياهنا اللى انوعد .

وان جيت حبيبي ياو بور وان جيت حبيبي ، لا كنسك وأرشك و بالشمع أقيدك ، مروق بخوخه يابحر ، يابحر مروق بخوخه ، لا يمسك عكار ، ولا ريح بدوخه ، تحت ظل القلوع أبو شال وجوخه ، فى رابغ نوى الاحرام ولبس احترامه ، يانهار الهنا يوم خلوه يفك احترامه ، يافرح قلبي يوم طلوع الجبل ، والخطيب على الجمل ، والمُبلّغ يرقى ، يافرح قلبي ساعة النفره ، وفرحت عيونا و نزلنا بفرحه ، وفوتنا من بين العلمين كان الفجر لايح ، يوم دخولنا منى ونصبنا الخيم وذبحنا الذبايح ، وافتكرنا العيال و بقى الدمع سايل ، و بعد

ثلاث أيام حملنا المكة ، وطفنا طواف الوداع و برّزنا ، والجمال حمّلنا ، وعلى أبو ابراهيم سرنا ، وصلنا قبة المصطفى والاعتاب زمرد ، حول مقام النبي ، قال الطواشى منين يا جماعة ، زوروا النبي زوروا وأطلبوا الشفاعة » .

والحداء قديم جداً فى العرب . والمؤرخون يقولون ان أول من حدا الجمال مضر بن ربيعة وكان حسن الصوت و يملك كثيرا من الابل ، وذهب بعضهم الى أن توقيع الجمال فى سيرها هو الباعث الاول على وزن الشعر فيهم . ولهم لكل سير من سير الجمال بحر مخصوص : فاذا سارت الهوينا فالرَّجَزْ واذا أسرعت فالخَبَبَ . وقد كان الخلفاء يأمرون شعراءهم فيحدون لجمالهم . ومن ذلك أن عبد الملك بن مروان كان راكباً جملا فى سفر له (ولعله فى حجه) وجماله يحدو بقوله :

يأيها البكر الذى أراكا * عليك سهل الارض فى ممشاكا
ويحك هل تعلم من علاكا * ان ابن مروان علا ذراكا
خليفة الله الذى امتطاكا * لم يعل بكر مثل ما علاكا

و وقت تحميل القافلة وتنزيلها تكثر السرقات من الجمالة أنفسهم . وقد يتفق جمالك مع جمال آخر فيحضر فى هذا الوقت الذى يلهيك فيه بصريخه وصياحه فى حين ما الآخر ينقض على عفشك و يسرق منه ما تصل اليه يده ، حتى اذا هدأ روعك شعرت بما نقص من متاعك . وهنالك يكثر الصياح فيقول هذا : خرجى ، و يقول الآخر : ملابسى ، وغيره يصيح : لحافى وهكذا ، و بعد هرج ومرج من غير فائدة يسكت الصائحون شاكين أمرهم الى الله ، و يشتغلون بتجهيز شؤونهم . وليست الجلبة قاصرة على هؤلاء بل ترى الصراخ من انحاء القافلة بتمامها فهذا يصيح قائلا : ياحاج فلان ، وذلك ينادى : ياحاجة فلانه ، وآخر يقول : اندر ، وغيره يوهم بانه يشاهد الحرامى فيقول : شايفك ، وآخرون يشتغلون بنصب خيامهم فيدق هذا بمطرقته ، ويتصارخ الآخر مع جاره الذى زحزحه عن مكانه ، وهو فى أثناء ذلك يزعق مع الذى من ورائه لانه يزاحمه على محله . وتسمع فيما بين ذلك أصوات الاعراب هذا يقول : الحطب الحطب ، وآخر يقول : الما الما

وهكذا ، وماهم الاسارقون ماتصل اليه أيديهم، ويفرون من حيث لا يشعر بهم أحد .
وبالجملة فتستمر هذه الجلبة صاعدة فى هذا الفضاء الى عنان السماء نحو ساعة من الزمان ، أعنى ريثما ينزل الحجاج حولهم ، وينصبون خيامهم ، ويمهدون فراشهم بين رحالهم ، ويحيطونها بشقادفهم التى تلتف بها جمالهم وجمّالتهم . وهنالك يبدأ هذا فى جلب الماء بنفسه أو بواسطة جمّاله، وآخر يستقضى الخشب ، وغيره ينصب القدر لطبخ بعض الاغذية الجافة كالعدس والارز واللحم المجهز ، وذلك فى المحطات الصغيرة التى لا تطول الاقامة فيها، أما المحطات الكبيرة فيشترون منها اللحم الطرى الذى يذبحه بعض أعرابها، وبعد العشاء يشربون قهوتهم وينامون بعد أن يعطوا الجمّالة عشاءهم . والرفقاء من الحجاج يتناوبون السهر على حراسة عفشهم ، ومن يسهر منهم تراه على الدوام يصرخ بكلمات الاضطراب والانزعاج كقولهم ، « شايفك ، ابعد، لا تقرب » وهكذا. والحجاج يقضون حاجتهم بين رحالهم فى الغالب ، ومن ابتعد عنها لا بد أن يكون معه أنيس يحرسه عند اشتغاله بنفسه ، والا فانه لا يحرم واحدا من الأعراب ينقض عليه ويضربه فى رأسه بعصا يابسة قصيرة تخمد معها أنفاسه !! وهنالك يشلحه من ملابسه أو يكتفى بقطع كمره من حزامه أو من ذراعه. فاذا استغيبه صحابته قاموا للبحث عنه فيجدونه إما فاقد للحياة فيوارونه التراب على حاله !! واما فاقد الشعور فيأخذونه ويقومون بشأنه ،وقليلا ماينجو من هذه الضربة .
وعلى كل حال فالناس فى القافلة تراهم جلوسا قياما نياما مع ماشيتهم وخدمهم وجمالتهم وتبعهم بلا فارق بين الجميع ، بل ترى السيد على الدوام يبالغ فى السؤال عن خدمه والاهتمام بشأنهم حتى لكأنه يتقرب بذلك منهم : وهنا تتحقق مسألة السادة الصوفية (سيد القوم خادمهم).
وقد يقطع الجمالة بعض الجمال من القافلة أثناء سيرها، ويتظاهرون باصلاح حمولها حتى اذا ابتعدت القافلة عنهم أوقعوا بركابها وهم يستغيثون ولا يغاثون ، وسلبوهم متاعهم ، وكثيرا مايجهزون عليهم، ويفرون بجمالهم الى حيث أرادوا . والادهى من ذلك كله مايهدد القافلة من خطر هجوم بعض القبائل التى فى طريقها عليها ، أوعلى الاقل وقوفهم فى وجهها فلا يدعونها تمر الا بعد أن يأخذوا منها مايرضيهم باسم أجرة المرور فى أرضهم، وربما كانت لهم مع المقوم

وكبار الجمالة مناقشات حقيقية أو ظاهرية تنتهى على الدوام باقناع المقوم لحجاجه باعطائهم مايطلبون .

وبالجملة فركب القوافل لا ضمانة له بالمرة ، وهو بين أيدى المقومين والمطوفين كالطيرة الضعيفة فى يد الطفل ان شاء أكرمها وان شاء أهال عليها المصائب والمتاعب من كل جهة ، لانهم طبعا فى هذا الفضاء ، أرباب الحكومة والقضاء . وهم الذين يفصلون فيما عسى أن يقع من الحجاج من الشغار أو الصغار الذى هو شأن الطبقة السافلة منهم على الدوام ، لاسيما صغار الحجاج المصريين الذين لا تسمع منهم على طول الطريق الا عبارات تافهة أو مشاجرات أساسها شىء لا قيمة له بالمرة ربما أدت الى أخذ البعض بخناق الآخر ، وذو والعصبية منهم هم الغالبون . أما اذا كان الشجار بين بعض الحجاج والجمالة ، فان كان الحاج ضعيفاً احتمل الاهانة لاول مرة ، والا دافع برفع لسانه ويده بسرعة يعقبها ردفعل بالاعتذار اليهم والاستكانة لهم ، ولا يعدم الحاج المتشاحن فى هذه الحال من اخوانه من يعنفه على شجاره مع الجمالة منتصرا اليهم لا بلسان الحق ولكن بعبارة الملق والمداهنة اللذين أساسهما الجبن والنفاق والعياذ بالله ، مما يجعل روح ذوى الاحساس الرقيق تتردد بين حناجرهم وخناصرهم !! واذاً فمن يريد بنفسه خيرا فعليه أن يصم أذنيه ويربط لسانه عن أمثال هذه المهاترة ، فترتاح روحه ويطمئن قلبه وان كان ضميره فى ألم مستمر .

وعلى كل حال فيجب أن يكون الناس فى طريق القافلة كلهم عيونا تحافظ على حياتهم ومتاعهم . وعندى أنه يجب على حجاج كل قافلة أن تكون لهم بصيرة على أنفسهم : فيرتبون أمورهم وينتخبون لقافلتهم رئيساً منهم قبل قيامهم من مكة . وهذا الرئيس يرتبهم فى خارجها فيعين منهم خفراء بالنوبة يقومون بحراسة القافلة فى أثناء سيرها وفى اقامتها . واذا حدث حادث فى القافلة أثناء المشى أوقف سيرها ونظر فيما فيه صالحها : وهذا أظنه أولى من تسليم زمام أمرهم الى مقومهم . وما على حكومة الحجاز اذا رتبت لكل قافلة خفراء من العسكر تقوم بحراستها فى نظير رسوم مخصوصة تتقاضاها من ركاب القوافل ؟ فذلك يكون فيه شىء من الضمان للحجاج ، اللهم الا اذا صادفوا منه ضغثاً على ابالة .

من غص داوى بشرب الماء غصته * فكيف يصنع من قد غص بالماء

على أنا سمعنا ونحن نكتب هذه الكلمات أن حكومة الحجاز مهتمة بتسيير السكة الحديدية بين مكة وجدة . فاذا تحققت هذه الامنية سهل على الحجاج الطريق الى الحرمين الشريفين بواسطتها . وهنا نرجو من حكومة الحجاز أن لا تجعل هذه السكة ضيقة مثل السكة التى بين الشام والمدينة ، حتى لا تصادف شيئا يعوق سرعة سير القطارات عليها ، والله تعالى يوفقها بمنه وكرمه الى ما فيه الخير العام .

سفر الجناب العالى

من مكة الى الوجه

أمضى الجناب العالى بمكة يوم ١٤ ذى الحجة وهو يستقبل زواره ، ويفيض نضاره ، على البائسين والمحتاجين ، بعضهم بواسطة رجال المعية السنية ، وبعضهم بواسطة حضرة مأمور التكية الذى أحيل عليه البحث فى الالتماسات الخاصة بالمرتبات اليومية أو الشهرية .

وفى ظهر ذلك اليوم أمر حفظه الله فسارت حملة الحاشية الكريمة الى بحرة تحت قيادة حضرة الاميرالاى على بك اسماعيل ومعها كثير من فقراء الحجاج المنقطعين مصريين وغير مصريين ممن صدرت الارادة السنية بتسفيرهم الى بلادهم بناء عن التماسهم على نفقة الخاصة الخديوية . ثم قامت فى عقبها حملة دولة الوالدة فوصلت حفظها الله بحرة فى منتصف الساعة الثالثة بعد الغروب .

وبعد صلاة العشاء طاف الجناب العالى طواف الوداع ، وركب سموه وفى ركابه الفخيم من بقى فى خدمته من رجال معيته ، وبمجرد ما خرج من باب مكة وجد دولة الشريف وحضرة وكيل الوالى وكثيرا من الاشراف والكبراء قد اجتمعوا لوداعه ، وساروا فى موكبه ساعة شاكرين له همته السامية ، وآدابه العالية ، مكررين آيات الثناء على فضائله

وفواضله . فشكرهم جنابه العالى مودعا . وسار و فى خدمته أصحاب السيادة أنجال الشريف وسعادة مكتوبجى الولاية والشريف ناصر الذى تعين من قبل الشرافة العظمى مهمندارا لجنابه السامى مدة وجوده فى أرض الحجاز ، و وصل ركابه العالى بسلامة الله الى بحرة فى منتصف الليل . وأمضى فيها يوم ٢٧ ديسمبر ، و بعد صلاة العشاء ركب الى جدة .

وكان حفظه الله كلما مر فى طول الطريق على طابية ، وجد عسكرها نزلوا من طوابيهم لأداء واجب التعظيم ، وضرب نفيرهم منبئا الطابية التى بعدها بقرب تشريفه اليها . ولما اقترب من جدة وجد سعادة قائمقامها وحضرة قومندان عساكرها مع كثير من أعيانها فى انتظار تشريف جنابه العالى ، وسار الكل فى ركابه حتى وصل الى سلم الكورنتينة فى نحو منتصف الليل . وهنالك سلم عليهم سموه شاكرا لهم عنايتهم وآدابهم ، و ركب الزورق البخارى الى وابور المحروسة مع بعض رجال معيته . وكانت دولة الوالدة قد سبقت اليه مع حاشيتها ، أما باقى رجال الحرس والمعية السنية فقد نزلوا الى وابور الرحمانية الذى كان فى انتظارهم .

و فى صباح يوم ٢٨ ديسمبر قابل الجناب الخديوى فى يخته أصحاب السيادة انجال الشريف وسعادة قائمقام جدة وحضرة قومندان عساكرها ، ثم قناصل الدول الموجودين فى هذا الثغر ، وكانوا قد أتوا بصفة رسمية لتوديع جنابه العالى ، فشكرهم سموه على آدابهم ، وأرسل تلغرافات الامتنان والشكران الى جلالة السلطان ، ومقام الصدارة العظمى ، ودولة الشريف ، وحكومة الحجاز ، على ما لاقاه حفظه الله من كمال العناية منذ حضوره الى هذه الاراضى المقدسة . و فى هذه الأثناء كان ينظر حفظه الله فى أوراق حكومته التى أتت الى جدة مع آخر بريد . و بعد ان أصدر أوامره السنية فى الشؤون الهامة ، أمر حفظه الله فسارت مركب المحروسة وقت الظهر تماما قاصدة الوجه : وهى ميناء فى ساحل بلاد الحجاز على البحر الاحمر ، وتبعد عن جدة شمالا بمسافة ٢٤٠ ميلا فوصلها ركابه العالى ظهر يوم ٢٩ ديسمبر ، و فى يوم ٣٠ وصلت مركب الرحمانية ، وهنالك أخذ فى اجراء الاستعداد اللازم لسفر سموه براً من الوجه الى محطة البدايع للسفر منها الى المدينة المنورة بطريق السكة الحديد الحجازية .

الوجه والسفر منه الى المدينة المنورة

الوجه قرية على عرض ٢٦ درجة و ١٤ دقيقة وطول ٣٦ درجة و٢٧ دقيقة ، وفيها نحو أربعين بيتاً صغيراً . وعدد أهلها لا يزيد عن خمسمائة نفس : كلهم تقريباً عائلة واحدة تسمى عائلة البديوى ، و يشرف على القرية تلة من ورائها ، عليها قلعة حصينة ، وفى هذه القرية على صغرها ثلاثة مساجد يقصدها فى أيام الجمعة كثير من العربان التى فى ضواحيها من قبيلة بلِى . وكانت لقرية الوجه اهمية عندما كان يمر عليها ركب المحمل مدة سفره على البر : فقد كانت تنصب فيها الاسواق وتفرق فيها العوائد على العربان . أما الآن فحياة أهلها من صيد الاسماك وتجارة السمن والاصواف التى تأتى اليها من وراء الساحل والفحم الخشبي الذى يؤتى به من داخل البلاد . وأغلب تجارتها مع السويس ، ومنها تقوم اليه فى كل خمسة عشر يوما بوسطة على احدى مراكب الشركة الخديوية . ولما كانت الوجه محطاً لرحال المحمل المصرى وممرا للحجاج المصريين كانت ادارتها وما وليها شمالا من المويلح وضبا والعقبة فى يد الخديوية المصرية ، وكان يعين عليها محافظ من طرف حكومة مصر مع قاض للنظر فى الاحكام الشرعية ، وكان لها جند يحرسون الطرق ، حتى اذا انقطع الحج من هذا الطريق عادت ادارة هذه البلاد الى الدولة العلية .

ولقد كانت هذه القرية مدة وجود الجناب العالى بمياهها على أكمل ما يكون من معالم الافراح : فكنت ترى الرايات الحمر على بيوتها وعلى سوارى فلايكها ، والعلم العثمانى كان يخفق طول هذه المدة فوق قلعتها . وفى الليل كانت القرية تلوح كأنها الثريا زهاء وبهاء لمصابيح الزينة التى كانت على دورها ، وخصوصاً دار القائمقام والقلعة ، وبالجملة فقد كانت البلد فى حركة هائلة لم ترها طول عمرها .

ومن سنة ١٣٢٧ رجع المحمل المصرى الى الوجه من جدة لتأدية واجب الزيارة بالطريق الحديدى من محطة العلا . وسبب ذلك تعرض عربان الدرب الطويل ودرب ينبع له

بغير حق . ولعلهم يرجعون عن غيهم فيعود الى مجراه الاصلى .

و فى يوم السبت الموافق آخر شهر ديسمبر نزل الجناب الخديوى الى البر ، وكان فى انتظاره حضرة قائمقام الوجه وسليمان باشا أبو رفادة شيخ قبائل بلى والمتعهد بحملة الركاب العالى ، فركب حفظه الله الهجن مع حاشيته وسار الى جهة الشرق فى ركب حافل من علية عربان هذه الجهة ، و فى مقدمتهم نحو خمسين نفراً من عرب عقيل على هجنهم (وهم جند للدولة من العرب مثل جنود البيشه) و فى أيديهم مزاريق مرفوع عليها العلم العثمانى ، وعلى رأسهم ضابط برتبة صاغ قول أغاسى ، وأمامهم فرقة منهم تضرب نوبتهم بالنقرزان (النقره زان) على طول الطريق . ومازال حفظه الله سائراً بموكبه و فى خدمته حضرة قائمقام الوجه و بعض مأمورى الدولة هناك فى واد يقال له أبو عرايش ، حتى وصلوا بعد مسيرة أربع ساعات ونصف الى ماء يسمى رأس حرامل ، وفيه مكان يسمى الرحبة . وقد كانت جملة الخيام سبقت اليه واستعدت فيه لقدومه الشريف ، فقصد سموه سرادقه ونزل من فى معيته كلٌّ الى خيمته .

أما دولة الوالدة حفظها الله فقد ركبت مع صاحبات السمو والعصمة كريمتى الجناب العالى ، ودولة البرنسيس فاطمة هانم افندى ، ودولة والدة البرنسيس نازلة هانم أفندى حلیم و بعض حاشيتها ، عربات صنعت بصفة خصوصية للسير فى طرق الجبال يجر كل واحدة منها ثمانية من الجمال ، ومن ورائها تختروانات تحملها البغال ، على جملة اشكال ، حتى اذا تعبن من هذه استرحن فى تلك . وكان خلفهن هوادج لمن كان فى معيتهن من القلفوات ، يتلوهن باقى حملة الركاب الخديوى من حرس وخدم وحشم ، يتقدمهم رجال المعية السنية . ومازالت هذه الحملة سائرة حتى وصلت الى المكان الذى فيه المخيم الخديوى فى مسافة عشر ساعات .

و فى يوم أول يناير ركب سمو الجناب العالى بعد صلاة الفجر وسار بركبه فى وادى السِرْسِر حتى نزل فى مخيمه بوادى أبى القزاز ، و به ماء يسمى باسمه ، ومسافة السير اليه على نحو اليوم السابق .

و فى هـذا الوادى يكثرشجر العِشار والشَرَاة (نوع من السنط) والقُرَيْظَة (نوع من الحلفـة يرتفع عنها وتأكله الابل) والدوم والاراك (السواك) ، وكذلك يكثر فيـه نبات العوسج والخروع والضُرْمه (تشبه الحلفة الا انها قصيرة) والرِمْث (نبات كالشيح) والخِرْمة (مثل البتونيا) والسَيال والحنظل وله عنـدهم فوائد كثيرة وخصوصاً فى قطرانه الذى يستخرجونه منه . والعرب يدقون خشب السيال مع الحنظل و يعملون منـه شريطاً يضربون عليه بزنادهم فيورى ناراً ، وهم فى غنى به عن الكبريت .

و فى يوم ٢ يناير ركب الجناب العالى بعـد صلاة الفجر وسار بموكبه الى مكان يقال له مسيل النجد ، وفيـه ماء اسمه البَدا، ومنه تبتدئ الارض فى الارتفاع نحو الشرق ، فنزل فيه حفظه الله وقطع اليه المسافة مع ركبه فى مثل الايام السابقـة . وقد وجـدنا هناك أورطة من سوارى الجيش العثمانى كانت قد أتت لحراسة جنابه الرفيع من قبل الدولة العلية، وكانت تريد السفر الى الوجـه لانتظار سموه بها والسير فى ركابه العالى فـلم تمكن، لانها كانت تظن أن سموه يشرفها بعد هذا التاريخ .

و فى يوم ٣ يناير سار ركب الجناب العالى فى وادى النجد ، ومعه فرقة من خيالة الدولة حتى وصل الى خَشْم سِلْع ، فنزل به و بات فيـه مع باقى ركابه ، والمسافـة اليـه كالمسافات السابقة . و يكثر فى هـذا الوادى شجر العشار والطلح (نوع من السنط) والماء فيـه قليل .

و فى صباح اليوم الرابع من يناير ركب حفظه الله بعـد صلاة الصبح وسار صاعداً من عقبـة سلع (و يسمونها البوق لانها على شكله) الى شرفـة النجد فى أرض صخرية يكثر مدرها ، و يضخم حجرها ، و يصعب السير فيها على الخيـل والبغال ، والحُمُر والجمال ، بل وعلى النساء والرجال ، حـتى ان أحـد سـوارى الترك كان يسرع فيها بجواده فانقلب به وارتطم رأسه بحجر فانكسر وأخـذ الدم يتدفق من أم ناصيته ومن وجهه وأذنه، بما فقد معه شعوره وكاد يموت حتف أنفـه ، لولا أن الدكتور الحسـنى طبيب الحرس الخـديوى كان قريباً منه ، فقذف بنفسه عن راحلته ، وتبعته باجزخانتى الخصوصـية فضمدنا

جراحه ، واشممناه بعض المنعشات التى أفاقتـه لوقته ، فركب جواده بين اخوانه الذين تلاحقوا اليه، وهم شاكرون لرجال الجناب العالى عنايتهم به واستعدادهم لمثل هـذه الطوارئ ، ذاكرون لهم حسن خبرتهم وعالى هممهم .

ولقد شاهدت فى الجبل الذى كان على يسارنا بعد مدخل البوق أثر كتابة بالخط الكوفى محفورة حفراً بسيطاً فى صخرة مشرفة على الطريق ، قرأت منها هـذه الكلمات : « بسم الله ما شاء الله باسم الله . . . المستنصر بالله » وانى لا أدرى اذا كان ذلك كتب فى مدة المستنصر بالله الفاطمى فى مبدا النصف الثانى من القرن الخامس للهجرة ، وقتما وقع بمصر ذلك الغلاء الفاحش الذى بلغ فيه ثمن الاردب القمح مائة وعشرين ديناراً والذى أكل الناس فيه بعضهم بعضا : اذ لا يبعد أن يكون هجرها فى ذلك الوقت جماعة الى المدينة المنورة وساروا من هذا الطريق وقيدوا تاريخ مرورهم والاشارة لعلة هجرتهم ، بذكر اسم الخليفة لذلك العهد . كما يصح ان يكون ذلك حصل فى مدة المستنصر بالله العباسى الخليفة ببغداد فى نحو سنة ستمائة وثلاثين هجرية ، على مدة الملك الكامل صاحب مصر ، والذى خلف صلاح الدين الايوبى فى محاربته للصليبيين : اذ لا يبعد أنه سيّر فى هذا الطريق فرقة من عساكره لترود الطريق من الشام الى بيت الله الحرام ، وبيت نبيه عليه الصلاة والسلام ، خصوصاً بعدما كان الافرنج قد ملكوا أيله (العقبة) ، واجلاهم عنها صلاح الدين فى سنة ٥٦٦ هـ وربما كانت هذه البعثات هى التى سهلت طريق البر لحج شجرة الدر .

وبعد ذلك أخذ الوادى فى الانفراج ورسم أمامنا قوساً حتى تخيلنا انه أقفل امامنا . ولم نزل سائرين فيه الى الشرق حتى وصلنا الى مدخل بين جبلين شاهقين أحمرين (لون كربونات الحديد) ، تتخللهما طبقات قاتمة سوداء أو صفراء تتقابل بعضها مع بعض فى موازاة واحدة فى الجبلين بما يحكم معه الرائى لاول وهلة انهما جبل واحد قد تمزق عن بعضه بحادث طبيعى ، ويسمون سلسلة هذه الجبال حرّة العويرقال الشاعر :

واشرق أجبال العوير بفاعل * اذا خبت النيران بالليل أوقدا

﴿ وقال أيضا ﴾

حتى وردن رَكيّات العوير وقد * كاد المُلاء من الكتان تشتعل

والعوير احدى لابتى المدينة اللتين حرم عليه الصلاة والسلام ما بينهما فقال « حرام ما بين لابتيها » . وفى الصحاح « انهما حرتان تكتنفانها » . ويظهر أن نيران هذا الجبل البركانى كانت تظهر أحيانا من قبل و بعد الاسلام . والعرب تعرف ذلك كما قال القطامى فى شعره السابق من قصيدة يمدح بها يزيد بن معاوية . و يسمون نارها بنار الحجاز وقد ورد ذكرها فى الحديث الشريف .

وفى الظهر وصلنا الى رأس الحرة ، وهى قمة عالية سوداء تشرف على واد ضيق فرشت أرضه بحجارة صوانية حمراء وصفراء ، و فى جهته الشمالية ممر للسيول فيه بعض شجر الطرفاء ونبات الارطى « تأكله الابل » ، ويكثر فى هذا الوادى البعثران الذى يعطره بروائحه الزكية . ومازلنا سائرين فى هذا الوادى الضيق ونحن فى شدة ما يكون من الحر حتى نزلنا منه الى وادٍ متسع يسمى وادى الدهيث ، وليس فيه ماء ، ولكن يكثر فيه شجر الغضا ، وهو نوع من الطرفاء ناره شديدة يضرب بها المثل . وصعدنا منه الى وادى بو بلى (أبى بلى) وهو واد حصباؤه كثيرة ، ومدرانه كبيرة ، و زلطه كالبطيخ فى حجمه ، وفيه يكثر شجر الشراة والسنط . ومن هنا يأخذ الطريق فى العلو ، والجبال فى الدنو ، وقد ضرب لونها الاحمر الى السواد ، وأخذت تتجزأ الى اشلاء هرمية ذكرتنا بمصر التى تجلت صورتها الى أفئدتنا ونحن فى سبيلنا الى الله تعالى و رسوله بأجمل صورة ، وأفخم مثال ! ! وهل هى الا وطننا العزيز الذى بحبته يكمل الايمان ، ويرضى الديّان ؟ نعم ذكرنا هذا الوطن العزيز ونحن فى ركاب مليكه ، وفى خدمة هذا الروح الامين الذى منه حياته وفيه خيراته ، و بركاته . نعم ذكرناه فى هذه القفار ، التى ترسل عليها الشمس شواظاً من نار يشوى وجوه السفار . نعم ذكرناه ، وذكرنا رياضه وغياضه ، ونحن نسير فى أرض نبتها المدر ، وغرسها الحجر ، وثمرها الصخر ، و زهرها الوعر ، ومساكنها القفر ، وساكنها الفقر ، ونسيمها

لهيب الجمر! نعم ذكرنا مصر وذكرنا نيلها، وظلالها، وليس هناك ماء الا ماينصبب عرقا من جسومنا، حتى لكأنها شماع باستور، أو مرشح شوقى، وليس من ظل الاظل عوسجة أوطلحة يكاد يلتهب من شدة مايحيط به من الحرارة فى شهر يناير!! نعم ذكرنا مصرهنا وذكرنا أهلها ومافيهم من أخلاق قويمة، وعواطف كريمة، وسجايا سلمية، وآداب لايصل اليها الاعراب!!!

ومازلنا سائرين فى هذا الوادى حتى وصلنا الى مضيق دخلناه فوجدناه كثير التعاريج، يلتوى بعضه على بعض كطريق الثعبان، وأرضه غير معتدلة، وفيها ثنيات كثيرة، صادفت العربات فيها مشقات كبيرة. وينتهى هذا الطريق بعقبة كئود صخرية فى أرضها نتوءات جمة يصعب السير فيها على كل من مربها!! لذلك انتظر فيها الجناب العالى حفظه الله لمساعدة قافلة الركب الخديوى فى المرور منها، وبحسن نظره الثاقب وهمته العلياء، مر الركب جميعه منها على أحسن حال، وسار الى مخيمه الذى نصب فى مكان اسمه النجوة وراء هذه العقبة التى تدّعى قبيلة بلى أن جدها مدفون فيها.

وفى صباح يوم ٦ يناير ركب الجناب العالى وتبعته عربات دولة الوالدة وباقى حملة الركاب الخديوى، وسار حفظه الله فى هذا الوادى الذى يسمونه وادى حلاوة. ومن هنا أخذت الجبال تتقطع أشلاء على جانبيه حتى اتهينا الى مفرق بين جبلين، فصعدنا اليه بمنحدر رملى ميله يبلغ ٣٠ فى المائة، ونزلنا من الجانب الآخر فى واد واسع أرضه رملية خشنة ذات لون أحمر. وما زال سائراً بهذا الوادى حتى نزل منه الى وادى العلا الذى يسير من الشمال الى الجنوب، ويكثر فيه شجر الطرفاء ونبات الحَمْض (تأكله الابل) وان كانت أرضه مسبخة، وفى وسطه محطة البدايع التى وصلها حفظه الله فى الساعة العاشرة صباحاً.

وكان فى انتظار ركابه العالى، سعادة محاسبجى المدينة المنورة وحضرات مدير وخازندار الحرم الشريف، والبكباشى فؤاد بك الذى تعين مهمنداراً لجنابه الفخيم، وأصحاب السيادة الشريف شحات وكيل امارة مكة المنورة، والشريف محسن والشيخ عبدالله شيخ ناحية العوالى، والشيخ ابراهيم أسعد شيخ خطباء الحرم المدنى، والسيد حسن أسعد، والشيخ

يحيى الدفتردار امام الحرم الشريف ، وعزتلو حضرة صالح بك وكيل ادارة السكة الحديد الحجازية ، وحضرات قائمقام محطة العلا وشيخ عربانها وقاضيها وشيخ مشايخ عربان عنزة وشيوخها وشيخ قبيلة بنى سليم (من حرب) .

و بمجرد ماشرف الركاب العالى تقدموا جميعا نحو سموه بواجب التحية والتعظيم ، وهنئوا جنابه الفخيم ، بقدومه بسلامة الله . فشكرهم حفظه الله ، وسار معهم الى صيوانه الخصوصى . وكانت قد اصطفت على طريقه فرقة من الجند البيادة العثمانى وأمامها حضرات ضباطها لاداء واجب السلام . و بعد أن استراح جنابه العالى قليلا استقبل وفود المهنئين على ماجبل عليه من اللطف والايناس ، فخرج الكل شاكرين ذاكرين مالقوه من آداب سموه .

وأمضى حفظه الله ذلك النهار بالبدايع بين تواردآى التهانى من كل جهة ، واصدار الاوامر بالاحسانات على فقراء هذه القبائل ، وخصوصاً من كان فى ركابه العالى منها ، كما أصدر أمره الكريم بتوزيع الكساوى على من كان فى خدمة الركاب الخديوى من الضاوية والسقائين والعكامة والفراشين والخيمية : و بالجملة فقد كان يوما كله حسنات ودعوات وابتهالات بحفظ جنابه الفخيم . و بعد ظهر ذلك اليوم أمر حفظه الله بسفر الحرس السوارى الخديوى و بعض بلوكات البيادة الى محطة العلا لانتظار عودة جنابه الرفيع بها ، كما أمر بتجهيز قطار مخصوص يقوم مساء ذلك اليوم الى المدينة المنورة بجانب من الحرس والخدمة و بعض رجال المعية السنية ومعهم الخيام والصواوين اللازمة لنصبها فيها .

أما قطار الجناب العالى ودولة الوالدة فقد تحرك من البدايع صباح يوم ٧ يناير .

وما زال القطار الاول سائراً فى وادى الحمض حتى وصل صباحا الى محطة الجداعة وهناك استوقفه ناظرها ، لان السيول كانت قطعت جسر السكة على بعد ٢ كيلومتر منها . وقد أخطر الجناب العالى تلغرافيا بهذا الحادث ، ولكنه حفظه الله بمجرد وصوله الى محطة هدية (قبيل الغروب) ، أوقف قطاره هناك ، وسار بالقاطرة الى محطة الجداعة التى تبعد عنها بنحو عشرين كيلومترا ، و بعد أن تقدم الى القطع و رآه بنفسه عاد قائلا (ليس من الممكن اتمامه قبل يومين) ، ولذا أمر سموه بتأخير القطار الاول الى

محطة هدية ليكون الكل فى حماه ، حفظه الله .

وهَدِيّة مكان به محطة مبنية بالحجر الاصم الازرق على شكل قلعة صغيرة فى محيطها مزاغل لتكون مكان دفاع للعمال، وسط هذه الجبال ، اذا لزم الحال . و بجانبها بناء كبير عليه أحواض من الحديد لتستقى منها القطارات ، و يصعد الماء اليها بواسطة آلة رافعة تدار بالبترول (موتور) كما هو الشأن فى جميع المحطات الرئيسة فى هذا الخط . ومن خلف هذا البناء عشش بعضها بالحجر و بعضها بالطوب التى يسكنها عمال المحطة و بعض العساكر المحافظين على السكة الحديد . وعلى جانبى الطريق الحديدى ، فوق ذروة الجبل الشرقى والغربى، قلعتان يصعد الى كل منهما قره قول من عسكر الدولة لحماية المحطة و يقيم بها طول النهار، و ينزل فى المساء الى سكناه من هذه العشش . وهنالك يصنعون الخبز لانفسهم وقد رأيناهم يعملونه بحال نظيفة . وهو أشبه شىء بما كانوا يسمونه بالصامولى عند العساكر المصرية .

ولقد أمضينا جميعاً ليلتنا بعربات السكة الحديدية مشمولين برعاية الجناب العالى الخديوى حفظه الله . وما أسفرت شمس يوم ٨ ينايرحتى أخذ الكل يستعد لهذا العيد السعيد، الذى هو عيد مصر الحقيقى ، ولكنه حفظه الله رأى عدم تكليف عبيده المخلصين بما لا تسعه حال هذه البادية ، وعندها أجمع الرأى بتكليف هذا العاجز بكتابة كلمة اخلاص رفعناها الى أعتابه السنية وها هى بنصها:

ولى النعمة ومليك الامة ،

انا لنرجو أن يسمح لنا سيدنا ومولانا بان نردد فى هذا اليوم السعيد، الذى هو عند مصر والمصريين أكبر عيد، صدى صوت رعيتك حيثما كانوا وأينما وجدوا ، فى ابتهالهم الى الله تعالى بحفظ شخصك المحبوب ، الذى استولى بفضله وكرمه على الارواح والقلوب . نعم نرفع لاعتابكم السنية ونحن هنا فى هذه البقعة الطاهرة ، بين يدى الله تعالى و رسوله ، ما تكنه ضمائرنا لذاتكم العلية ، من صادق الاخلاص والعبودية . نعم نرفع لسموكم ما بين جنوبنا من أفئدة كلها صدق و ولاء لجنابكم العالى، حتى اذا تشرفت بتقبيل الاعتاب الكريمة، تضرعت الى الله تعالى بان يحفظ هذه الطلعة العباسية تاجا على مفرق الزمان ، وأن يجعل من فضلها

ونوالها نعمة فى عنق كل انسان .

مولاى ،

لقد بارحت دار ملكك ، وخرجت الى الله تعالى ورسوله ، فابى الا أن يظلك السحاب فى هذه القفار ، وأن تغسل طريقك الامطار ، وتنبت مع خطاك حياة هذه الديار ، بعد أن قضت سبع سنين لا ضرع فيها ولا نبات : وهل هذا أيها العزيز الا برهان الله الاكبر بقبوله لك برده لعباده ؟

وبعد ان أتممت حجك المبرور ، وسعيت سعيك المشكور ، يممت شطر رسول الله المصطفى . فعلوت متن البحار ، وامتطيت صعاب القفار ، ثم ركبت سنام البخار ، حتى اذا كنت على مرحلة منه صلى الله عليه وسلم ، أراد من فضله وكرمه ، ان ينفع بك فى حرم حبيبه كما نفع بك فى حرمه : فانزل الغيث مدرارا ، وسير البحار أمطارا ، وأسال من سيولها أنهارا ، أوقفتك فى طريقك لحظة شممت فيها نيل بلادك يسعى بين يديك ، ليروى بفيضه مواطئ أقدامك ، فى هذه البرارى التى يشهد أهلوها بانهم لم يروا مثل سنتهم هذه فى خيرها وبرها . وهل تريد يا مولاى دليلا غير هذا يعبر لك به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بانك قدمت عليه وعلى قومه خير مقدم ، ونزلت منه فى المكان الاول المحترم ؟؟

وانا لنسأل الله تعالى بعد تمتعك بزيارة السيد المصطفى أن يردك الى بلادك ومن معك من آل بيتك الاكرمين فى أكمل صحة وأتم عافية ، تكلؤكم عين الله تعالى وترعاكم عين رسوله ، كما نرجوه جل شأنه أن يشكرك معنا على نعمتك التى نسير فى بحبوحتها ، وأن يحمدك على نوالك الذى نتفيأ فى ظلاله ، وأن يجزيك عنا خير الجزاء .

وقضينا هذا اليوم المبارك فى وسط هذه الفلاة ، التى لم نر فى أرضها أثرا لذى حياة ، اللهم الا أعمال الطريق الحديدى . فيالله من هذه البلاد التى لا ترى بها من جنوبها الى شمالها ، ومن غربها الى شرقها ، غير صحراء حجرية ، وجبال صخرية ، ونفود رملية ، واحقاف من بحار الرمال ، تسوخ فيها الاقدام كما تسوخ فى الماء ، لولا أنها تتخلص من هذا بسهولة ولا يدين لها على الحركة فى تلك ! اياشكرانك ربى وحمدانك على نعمتك التى أنعمت بها على عبادك فى جميع

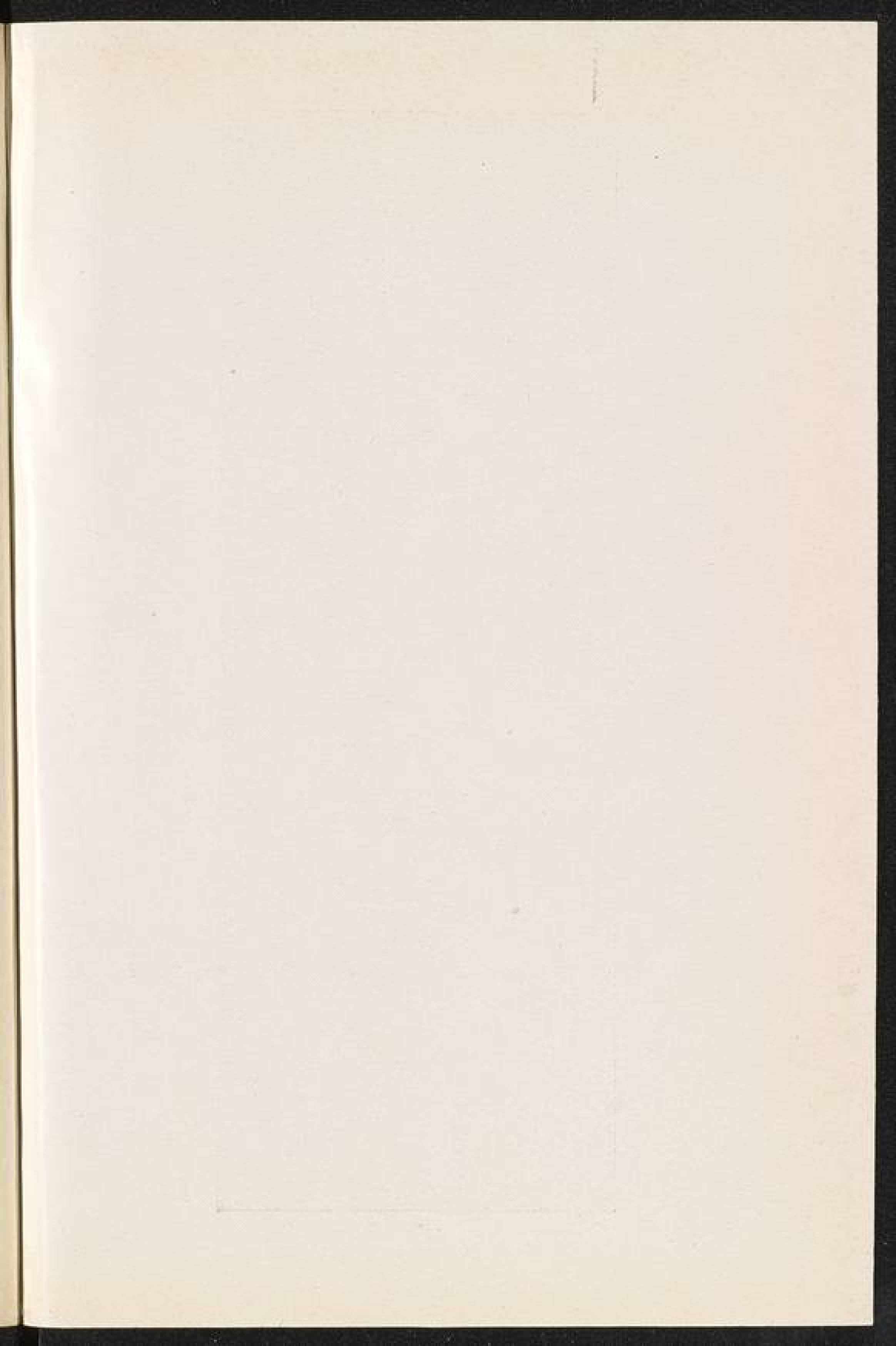
الاقطار والامصار ! فقد جعلت فى طبيعة أرضهم ما يكفل لهم حياتهم : فليس من أرض حتى فى منازل الثلوج ومراقد الجليد الا وفيها فصل ينبت فيه النبات ، ويقدم لاهلها شيئا من لوازم الحياة ، الا هذه الارض التى أسكنت فى جوفها من ذرية خليلك ، فاقام بها بيتك وقام بنوه بشرف خدمته ، فهوت اليهم قلوب زائريه من العرب الى أن أصبح يأتيه الناس من كل فج . حتى اذا أرسلت من ذريتهم الطاهرة ، وسلالتهم العاطرة ، نبيك الامين ، ورسولك الامى الذى هجر الى هذه الديار أهله ووطنه ، ليتمكن من القيام برسالتك ، والدعوة الى طريقتك ، ضرب الكفر ضربة لم تقم له بعدها قائمة . ونشر فى الناس هذا الدين القويم الذى أنقذهم من همجيتهم الاولى ، وفك ما كان فى رقابهم من سلاسل المظالم وما كان فى أرجلهم من قيود الذلة والهوان . وسار على أثره الشريف صحابته والقائمون بعدهم بخلافته : فقام شأن الاسلام واستولى المسلمون فى أقل من ربع قرن على ملك الرومان ، واليونان ، والفرس ، وبلغوا سويداء الهند ، ومجاهل افريقا ، وصحارى بلاد المغرب . وما زالوا كذلك حتى امتد ملكهم فى القرن الثانى من بلاد الصين شرقا ، الى مدينة بواتييه (Poitier) قرب باريس غربا . وبالجملة فقد جمعت حكومتهم بين دفتيها ملك الرومان ، واليونان ، والفرس ، والمصريين ، والاشوريين ، والبابليين ، والفنيقيين ، والقرطاجيين ، والبربر والفرنجة ، وغيرهم ، واستمرت دولتهم الطويلة العريضة نحو سبعمائة سنة وهى كالمشكاة تنير دياجير المعمورة بنبراس المدنية الصحيحة التى من أجل آثارها ـ وهو ما لا ينكره عليه اعداؤها ـ رقى الاخلاق والاخذ بناصر الفضيلة التى انما هى عمار الكون ، ونظام الوجود .

فيالله من كان يظن أن هذه الفيافى والقفار يخرج من جوفها هذا النور الذى أضاء الكائنات ، وتلك اليد القوية التى ضربت على أيدى المظالم التى كانت تسقطها الملوك على رؤوس رعاياهم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا فى القرون الوسطى ؟ من كان يظن أن أحقاف هذه الرمال ، وأجلاف تلكم الجبال ، تنشئ هذه المدنية التى يرفل فى بحبوحتها العالم أجمع ؟ هذه المدنية التى خدمت العلم خدمة تذكر فتشكر : نعم خدمت العلوم الطبية ، والكيماوية والطبيعية والفلكية والنباتية والرياضية ، حتى أن فرنسا كانت تستمد من مدرسيهم ، كما هو الحال فى



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

الركب المدني وهو داخل المدينة في عودته من الحج



الممالك الشرقية الان مع أوربا !! ولقد بلغ من عمران الدولة العربية فى الشرق والغرب مالا يبلغه عمران أى دولة قبلها : انظر الى الامويين فى دمشق والاندلس ، والعباسيين فى بغداد ، تر من رقيهم فى الصناعات ومعارج العرفان مالا يقوى الافرنج على انكاره ، ودونك كتاب مدنية العرب (Civilisation des Arabes) تأليف « جوستاف لوبون » فانك ترى فيه المعجب والمطرب !! فهل تريد بعد ذلك كله برهانا على صحة دين الاسلام وحجة على حقيقة من اهتدينا بهديه وانتهجنا سبيله ؟

لذلك كان من اللياقة ، ان لم نقل من الواجب ، التوجه لزيارة هذا النبى المصطفى ، الذى قضى حياته جميعها فى سبيل خدمة الانسانية العامة ، وانارة سبلها المدلهمة ، بمشكاة هذا الدين المتين ، دين الحرية ، دين الاخاء ، دين المساواة ، دين العدالة ، دين الفضيلة ، دين الحياة الصحيحة .

وفى ظهر اليوم التاسع من يناير وصل الخبر باستعداد الخط . فأمر حفظه الله بتسيير القطار الاول فقام من محطة هدية فى الساعة الثامنة عربى نهاراً ولما وصل محطة الجد٣اعة (وهى فى الكيلو ١١٥٦) سار الهوينا حتى غادر مكان القطع الذى كان طوله نحو الفى متر ، والذى أبلت فى اصلاحه عساكر الدولة التى استدعيت اليه من المدينة بلاءً يذكر فيشكر . ومياه هذا السيل كانت آتية من جبال الطائف ، مما يدل على كثرة الامطار التى نزلت فى تلك الجهة ، ونزل منها مجار كثيرة الى مكة والمدينة والى الطرق التى بينهما .

واستمر القطار سائراً فى وادى النعام الذى يبتدئ من مجرى السيل ، ويكثر فيه شجر السنط ، ومر على محطة النعام ، ثم محطة عنتر وفيها قلعة قديمة على قمة الجبل الغربى ، ولعلها كانت على طريق الحاج أيام سيره على البر . وهذا الجبل يسمونه أيضا جبل عنتر ، ولا أدرى لهذه التسمية من سبب ، غير أن ديار عبس كانت شمال المدينة مع شرق ، وربما كان هذا الوادى من منازلها أو كان لها فيه واقعة باسم بطلها المشهور الذى مات قبيل الاسلام . وكان عليه الصلاة والسلام يسر بحديث الناس فى سيرته . ومازال القطار سائراً حتى وصل الى محطة الحفيرة والقى عصا التسيار للمبيت بها .

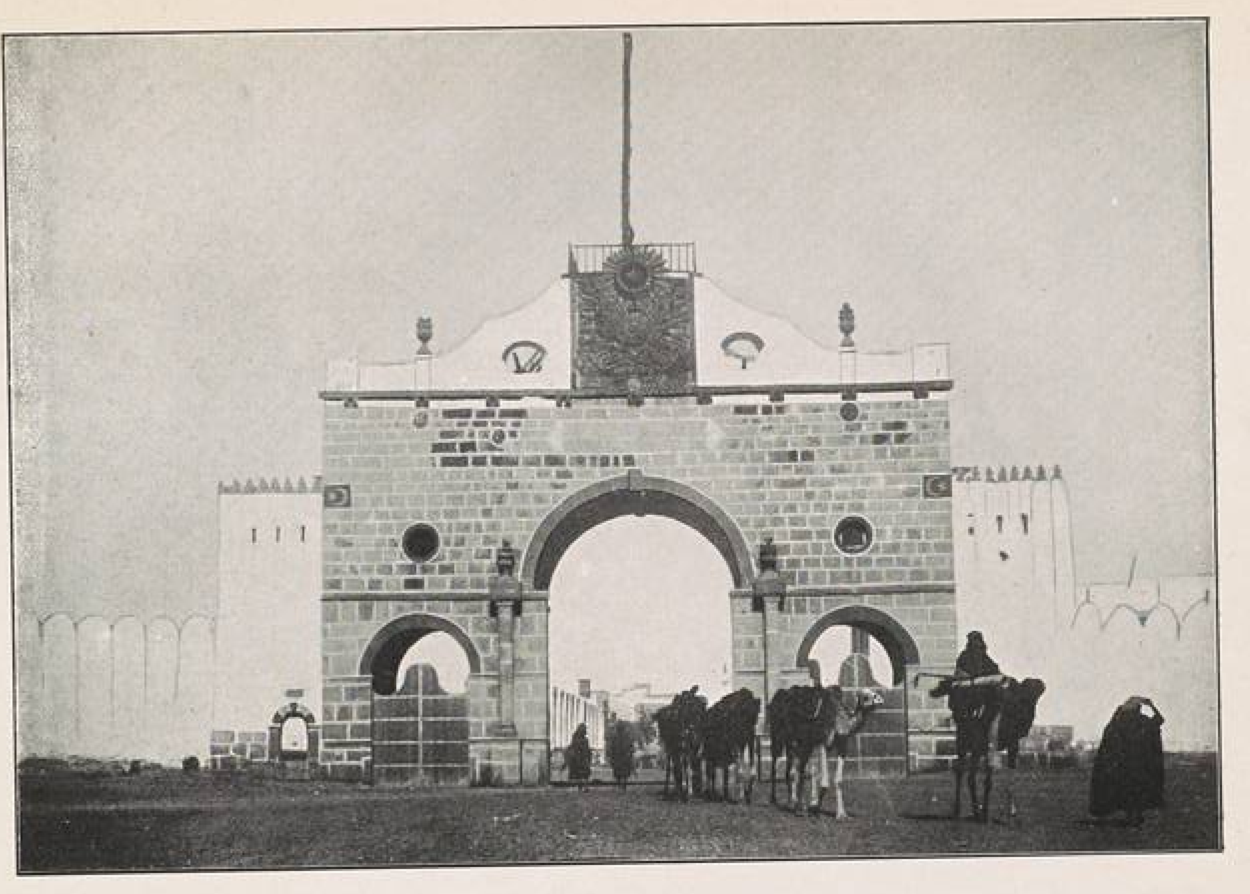
أما الجناب العالى فقد بات فى المحطة التى قبلها وتسمى محطة البوير.

والمحطات من هدية الى المدينة المنورة لم تكمل عملية البناء بها ، وكان العمل فيها جاريا على قدم وساق ، وكان يعمل فيها كثير من المصريين وأغلبهم من مديرية قنا وجرجا ، وهم فى شدة الفرح بمقدم مليكهم المحبوب . وكانت العساكر على طول السكة الحديدية يقفون فى كل محطة لاداء واجب التعظيم للجناب العالى الخديوى من البدايع الى المدينة . وقد كان عدد العساكر بهذا الخط قبل تشريف الركاب العالى ثلاث أورط عثمانيـة للمحافظه عليه ، فزادوا عليها أربع أورط قبـل تشريفه أيضاً للمحافظة على ركابه الفخيم ، فكنت تراهم منتشرين هنا وهناك وفوق الجبال على طول السكة .

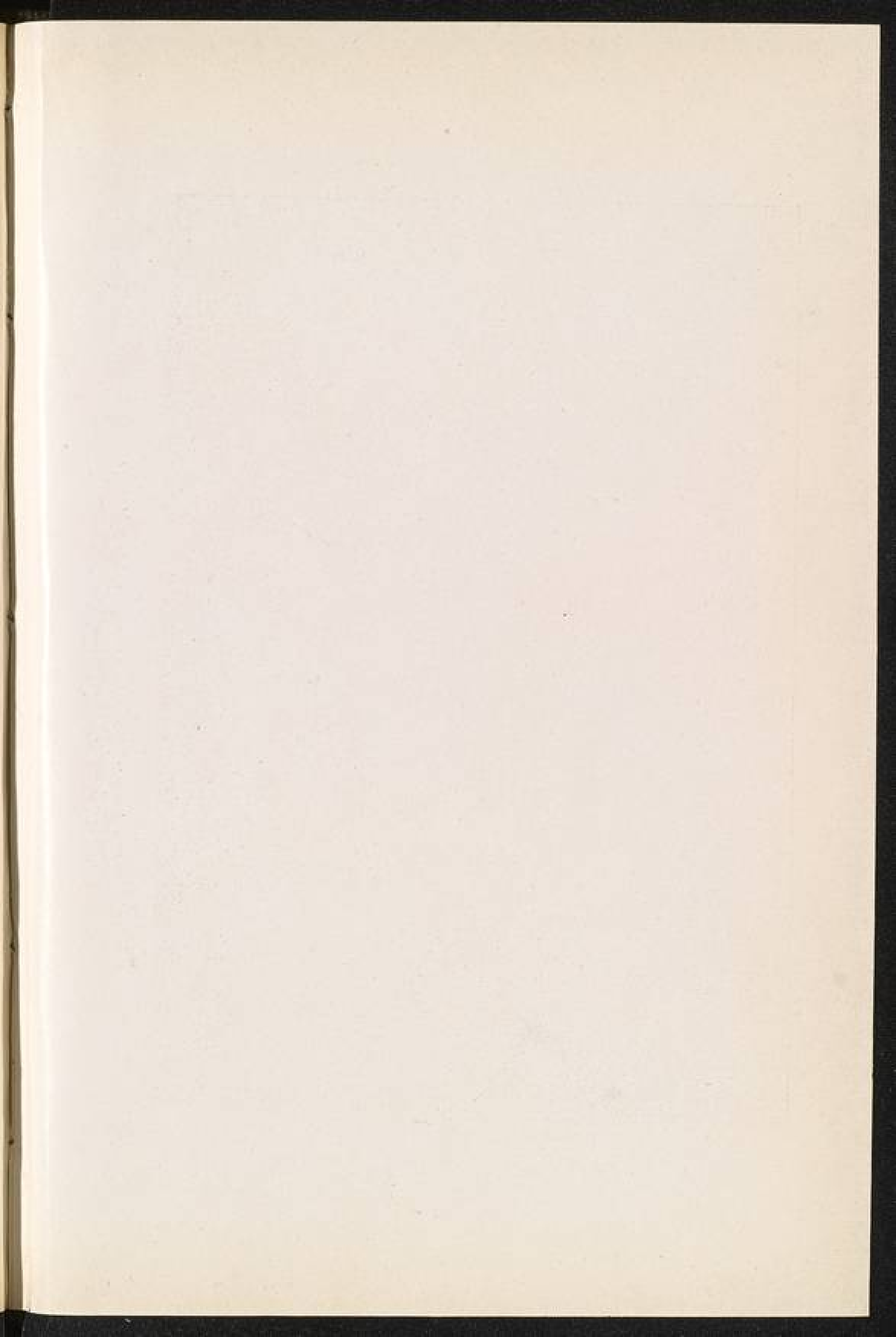
ومازلنا حتى مررنا على القطع الثانى الذى كانت أحدثته السيول فى الجسر قبيل المدينة المنورة بنحو خمسة كيلومترات . وهناك شاهدنا قبة سيدنا حمزة رضى الله عنه ، ثم أهـلّة مآذن الحرم الشريف . وعندها أخذت الاعناق تتطاول، والابصار تتجاول، فى هاتيك الارجاء ، مستطلعة أنوار القبـة الخضراء . حتى اذا تجلت لنا بفخامتها امتلأت القلوب افراحاً، والصدور انشراحاً، والعيون قرّة ، والافئدة مسرة، وزاولت الارواح أن تخرج عن نظامها ، وتطير من جسومها، الى نور الانوار، وسيد الابرار، ومصـدر سعادة العالمين فى جميع الامصار ، لولا أن الجسوم كانت تتعلق بها، ناهضة بركابها، ضاربة آباط وابورها ، مهللة ، مكبرة ، داعية ، ملبية .

نعم نعم كنت ترى الارواح ترفرف بظروفها ، والقلوب ترحف فى تجاويفها ، لتسبق الركاب ، الى ذلك الجناب . وهنالك كنت ترى نفس الجنان ، وحقيقة الوجـدان ، يتطايران، من أطراف اللسان ، فى صورة تحيات خالصات ، وتسليمات سنيات ، الى سيد الـكائنات . وجميع الحواس متهيئة الى التمتع بهذه المنـة الـكبرى، والنعمة العظمى ، والعين تفتخر عليها بشرف سبقها الى هذه السعادة التى لانهاية لها ، ممتنة عليها بانها هى التى زفت اليها بشرى الوصول ، الى غاية المأمول .

ومازال القطار حتى دخل بين بساتين المدينة ونخيلها الغربية . وأخذ يسير بنا الهوينا حتى وصلنا الى محطة المدينة المنورة فى الساعة الخامسة عربى نهاراً . وكان العـدد الجم من الاهالى



باب العنبرية (الباب الرشادي) بالمدينة المنورة



نساء و رجالا على جانبي الطريق الحديدي الى المحطة التي اكتظت ساحتها بوفود الناس على اختلاف طبقاتهم، و في مقدمتهم سعادة على رضا باشا محافظ المدينة وقومندان عموم القوة العسكرية الموجودة بها ، ومعه كثير من المأمورين العسكريين والملكيين الذين كانوا يقومون بامر النظام العام استعداداً لمقدم الجناب العالى الخديوى . وكانت علية القوم على رصيف المحطة يتقدمهم حضرات شيخ الحرم ونائبه ونقيب الاشراف وصاحبا الفضيلة قاضى ومفتى المدينة .

و فى الساعة السادسة تماما ضربت المدافع ايذانا بوصول الركاب العالى فتشارفت الاعناق، وتماددت القامات، لمشاهدة القطار من بعد ، ومازالت الابصار تلمحه حتى وقف فى رحبة المحطة (لان رصيفها ما كان كمل بناؤه) . وهنالك صعد سعادة المحافظ الى صالون الوابور لتأدية واجب الاعظام ، وتبليغ جنابه العالى سلام الدولة العلية ، وتهانى الحكومة المحلية . ثم صعد شيخ الحرم ونقيب الاشراف ، و بعد واجب السلام نزل حفظه الله من القطار، وسلم على أعيان المدينة الذين قدمهم حضرة المحافظ الى جنابه العالى واحداً بعد الآخر ، وسار ومن خلفه سعادة المحافظ ودولة البرنس كمال الدين و رجال معيته السنية يتلوهم شيخ الحرم وأعيان المدينة المنورة بين صفوف العساكر التى كانت تؤدى التعظيم ، وموسيقاها تضرب السلام الخديوى ، فدخلوا من باب العنبرية : وهو باب عال مشيد يبلغ ارتفاعه نحو عشرين مترا منقوش بالليقة الذهبية و يسمونه الآن بالباب الرشادى تيمنا باسم صاحب الخلافة العظمى . ومازال الكل سائراً حتى وصلوا الى الصيوان الخصوصى الخديوى الذى كان قد نصب فى مقدمة خيام حاشيته الكريمة داخل سور المدينة الكبير . فاستقبلهم جنابه العالى بكرمه وايناسه ، كما استقبلوه بصنوف تحياتهم وتهانيهم . ولقد كان الصيوان الخديوى حافلا بكبراء القوم ، وكانت رؤساء المعية السنية يقدمون اليهم كل ما فيه راحتهم . وهنالك قام الشعراء والخطباء ، هؤلاء يرتلون آى الثناء والدعاء ، وأولئك يصوغون التهانى ، فى اسلاك المثالث والمثانى ، حتى كان يخيل الينا أننا بين وفود العرب على الرشيد ، فى يوم عيد . ومما يذكر من آداب القوم أنهم لما فرقت عليهم السيكارات أكبروا المقام على التدخين ، و بعد ساعة انصرفوا شاكرين ، و بكرم الجناب الخديوى متحدثين .

الجناب العالى الخديوى بالمدينة المنورة

لما استراح الجناب العالى من عناء السفر ، امتطى صهوة جواده بعد صلاة العصر ، وقصد الحرم الشريف لاداء واجب الزيارة ، ومعه دولة البرنس وفضيلة الاستاذ المفتى وسعادة محرم باشا و بعض رجال المعية السنية . فدخل حفظه الله من باب السلام ، وبعد تأدية الزيارة وصلاة المغرب بالحرم الشريف ، أدى واجب الخدمة بالمقصورة الشريفة ، ثم قصد زيارة دولة الوالدة وكانت اقامتها مدة وجودها بالمدينة فى بيت شيخ الحرم ، الذى هو دار عثمان ابن عفان رضى الله عنه ، ثم عاد حفظه الله الى مقامه فى معسكره .

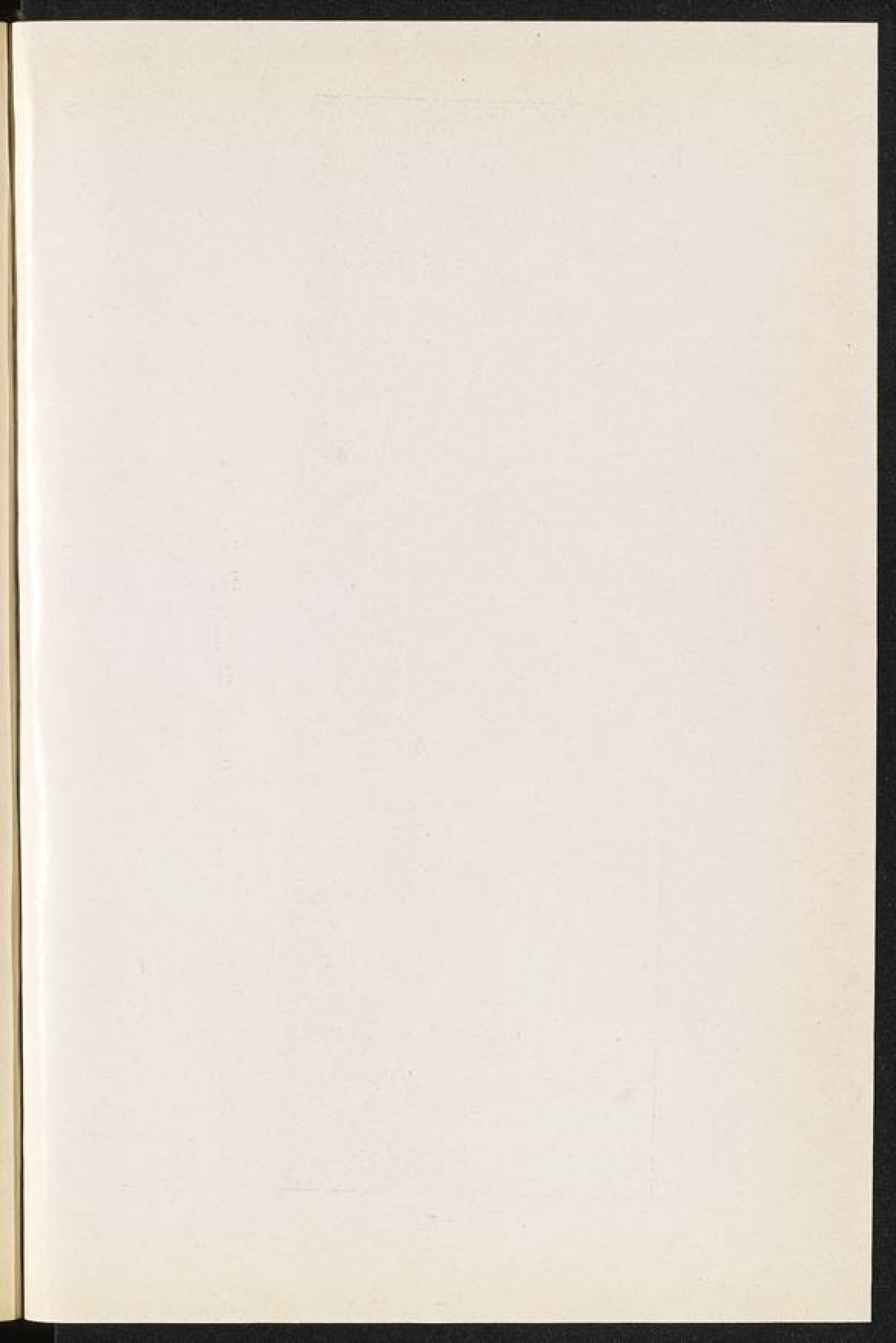
وقد كنت توجهت الى الحرم مع بعض اخوانى من المعية السنية ، وكان يبعد عن مخيمنا الذى كان بجوار باب العنبرية بنحو ثلث ساعة سيراً على القدم . فدخلنا كالعادة من باب السلام ، وصلينا ركعتين فى الروضة الشريفة تحية للمسجد ، ثم خرجنا الى الرواق القبلى واتجهنا الى المقصورة الشريفة ، وتمثلنا بمنتهى ما يمكن من الخضوع والاستكانة امام أول باب منها ، تجاه مسمار من الفضة جُعل فى مقابلة الكوكب الدرى الذى وضع فيما يحاذى الوجه الشريف . هنالك وقفت النفس بالمركز الذى ينبغى لها تلقاء هذا الجلال وهذه العظمة : فكنت ترى الروح بجموعه ، والقلب بخشوعه ، والطرف بدموعه ، واللسان بخضوعه ، ترفع عبارات السلام ، الى سُدّة سيد الانام . و بعد أن دعونا الله بما شاء الله ، انتقلنا الى مقام سيدنا أبى بكر بالشباك الذى يليه ، فسلمنا ودعونا . ثم انتقلنا الى مقام عمر بجواره ، فسلمنا ودعونا . ثم اتجهنا الى حائط المقصورة الشرقى ووقفنا بباب فاطمة ، فسلمنا ودعونا . ولست فى حاجة لان أردد القول بان جلالة المكين ، وفخامة المكان ، لهما على الانسان ، مهما كان تأثير يقف به فى موقف الخاضع الخاشع !! وعلى كل حال فالكل يرى نفسه فى موقفه هذا قد وصل الى غايته ، و بلغ منتهى سعادته .

وكان الجناب العالى مدة وجوده بالمدينة المنورة يكثر من الصلاة فى الحرم ، ولا اذكر أنه



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

استقبال الجناب العالي الخديوي بمحطة السكة الحديد بالمدينة المنورة



انقطع عنه فى صلاة الفجر والعصر والمغرب والعشاء . وكان حفظه الله يؤدى شرف (١) خدمة اسراج القناديل فى الحجرة الشريفة مساء ، واطفائها صباحا ، طول مدة الاقامة بها . ولقد سعدنا بالدخول فى معيته السنية الى هذه المأمورية الشريفة غير مرة : فكنا قبل صلاة المغرب نلبس فروجيات بيضاء ، ونشد عليها أحزمة ، ونلف على رؤوسنا عمامة على نظام خدمة الحجرة ، ثم نتشرف بالدخول ، من باب البتول ، وبعد مرورنا على حرم السيدة الزهراء ندخل من باب فى غربه الى الحجرة الشريفة بقدم مُتَلَمِّس ، وطرف منخفض ، وقلب خافق ، وفؤاد مضطرب ، ومثال متأدب . ووجدان متغلب ، وروح ينكمش خضوعا ، ونفس تذوب خشوعا ، وحشاشة تتصبب دموعا ، وألباب ترفع لاعتاب ذلك الجناب ، آيات السلام ، بكل اجلال واعظام . وبعد تأدية ما يسره الله تعالى من شرف الخدمة ، نخرج من باب فى الجهة الشرقية ، الى حجرة السيدة فاطمة رضى الله عنها ، وبعد أن نقرأ ما تيسر من القرآن نبارح المكان ، والجنان واللسان ، لا يستطيعان تصوير ما كان . وغاية ما كنا نشعر به عقب هذه الزيارة ، انما هو قوة تجددت فى روحنا الذى امتلأ سرورا وحبورا ، وراحة تعددت فى وجودنا كنا نرى فيها كل يمن وسعادة .

وفى يوم الثلاثاء بعد صلاة الفجر فى الحرم الشريف ، أدى الجناب العالى خدمته بالحجرة الشريفة ، ثم قصد زيارة البقيع وهو مقبرة المدينة ، فابتدأ بزيارة قبة سيدنا عثمان بن عفان وهى فى الشرق ، ثم قبة سيدنا الامام مالك وهى فى وسطها ، ثم قبة سيدنا ابراهيم ابن النبى صلى الله عليهما وسلم ، ثم قبة زوجات الرسول عليهن رضوان الله ، ثم قبة (٢) سيدنا العباس وسيدنا الحسن بن على فى الزاوية القبلية الغربية بالبقيع ، وهى أفخم القباب الموجودة

(١) هذه الخدمة يقوم بها الامراء والعظماء وغيرهم من أعيان المسلمين فى زيارتهم للرسول عليه الصلاة والسلام . ولا تكون الا بتصريح من شيخ الفراشة النبوية الذي يصدر فرمانا لمن يتشرف بالانتظام في سلك هذه الخدمة . ومن عادة هؤلاء الامراء ان ينيبوا عنهم ، فى أثناء المدة التي يكونون بعيدين فيها عن المدينة أناساً من أهلها يقومون بادائها عنهم في مقابل مرتب يرسلون به اليهم سنويا .

(٢) بجوار هذه القبة قبر بطل القوقاز الشيخ شامل الذى توفى سنة ١٢٨٨هـ .

به، ومقصورة سيدنا الحسن فيها فخيمة جداً : وهى من النحاس المنقوش بالكتابة الفارسية، وأظن أنها من عمل الشيعة الاعجام . ثم زار حفظه الله كثيرا من قبور الصحابة والتابعين والصالحين . وبعد الظهر زار التكية المصرية وأثنى على مأمورها لما رآه من حسن نظامها، ثم ركب حفظه الله وقصد دار الحكومة العثمانية ليرد الزيارة الى سعادة محافظها، فاستقبل بما يليق بمقامه العالى من مظاهر الاجلال والاعظام .

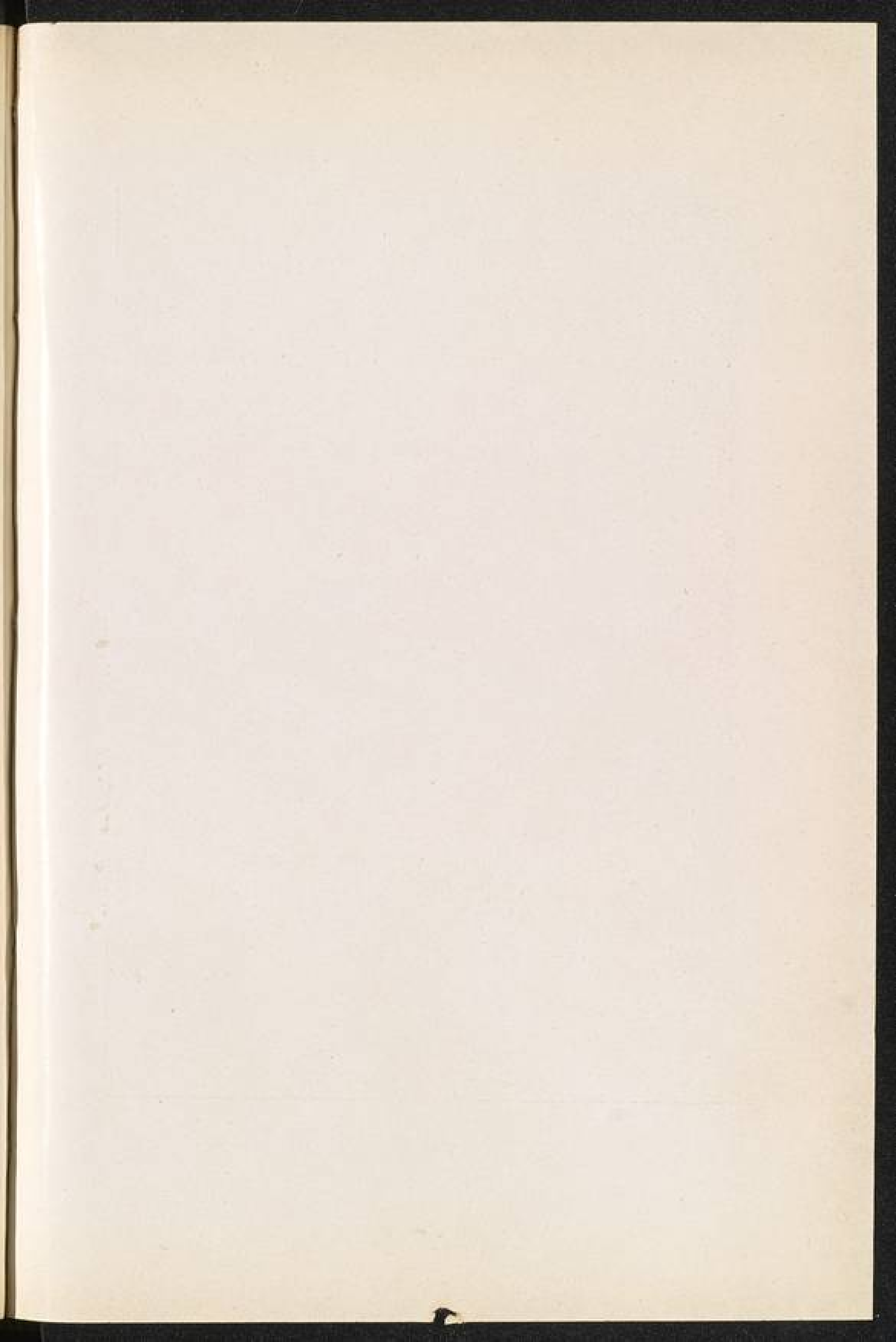
وفى يوم الاربعاء بعد صلاة الفجر واداء الخدمة فى الحجرة الشريفة، قصد الجناب العالى زيارة مسجد قُباء مع بعض رجال معيته السنية ، ثم عاد حفظه الله قبيل الظهر الى المسجد الشريف ، فصلى الظهر فيه ، ثم رجع الى مخيمه وأمضى بقية النهار فى استقبال زائريه من رؤساء المدينة وأعيانها .

وفى يوم الخميس أدى الخدمة على حسب عادته، ثم قصد زيارة سيدنا حمزة ، وكان السيل قد قطع طريقه على زائريه ، ولكن ذلك لم يوقف همة جنابه العالى عن تنفيذ عزيمته ، فدفع بجواده فى الماء الذى كان على ارتفاع نحو متر، قاصداً عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحظى بزيارته، ووصل الى بغيته، ولا غرو فعزائم الملوك ملوك العزائم .

وفى يوم الجمعة بعد اداء جنابه السامى خدمته بالحجرة الشريفه صباحاً رجع الى المعسكر الخديوى، واستمر الى قبيل الظهر فى استقبال زائريه، ثم قصد الحرم الشريف لصلاة الجمعة، وبعدها زار دولة الوالدة ، ثم قصد منزله الشريف وأمضى يومه فى توزيع الصدقات ، واسداء الاحسانات ، والنظر فى ترتيب المرتبات ، لذوى الحاجات ، من أهل المدينة والمجاورين ، مصريين وغير مصريين . وكان فى اثناء ذلك يصدر أوامره الكريمة بتجهيز حملة ركابه العالى للسفر الى تُبُوك فى اليوم التالى . وبالجملة فقد كان حفظه الله مدة اقامته بالمدينة محط الآمال، ومكان الاعظام والاجلال ، من جميع الطبقات، وكانت موسيقى المحافظة الحربية تحضر يومياً نهاراً وليلا أمام الصيوان الخديوى وتشنف الاسماع بنغماتها الشجية .



باب السلام بالحرم المدنى



الحرم المدنى

الحرم المدنى وهو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، واقع فى وسط المدينة بميل الى الشرق، وهو لطيف الشكل، جميل المنظر، على هيئة مستطيل، متوسطُ طوله من الشمال الى الجنوب مائة وستة عشر متراً و ربع، وعرضه من الشرق الى الغرب من جهة القبلة ستة وثمانون متراً وخمسة وثلاثون سنتيمترا، ومن جهة الباب الشامى ستة وستون متراً. وينقسم فى وضعه الى قسمين المسجد والصحن: والمسجد يبتدئ من قبلة عثمان، أعنى من الحائط القبلى الى الصحن من جهة، وفى طول ما بين باب الرحمة وباب النساء من جهة أخرى. وهذا القسم جميعه مغطى بقباب ترتكز على أقواس قامت على عمد من الصوان المكسو بطبقة من المرمر الموشى بماء الذهب. والقسم الثانى وهو الصحن، ويسمونه الحصوة، شكله مستطيل الى الباب الشامى ويحيط به من جهاته الثلاث، أروقة ثلاثة فيها أعمدة تحمل أقواسا رفعت عليها قباب تناطح السحاب!

وعدد جميع أعمدة الحرم الشريف بما فيها المتصقة بحوائطه يبلغ ثلثمائة وسبعة وعشرين عمودا، منها ٢٢ داخل المقصورة الشريفة. وفى مدخل الباب الشامى المدرسة المجيدية، وفيها كتابان لتعليم القرآن على الطريقة القديمة فى ريف مصر، غير أن القرآن لا يحفظ فيها عن ظهر قلب بأجمعه[1]. ويوجد فى الدور الثانى كتاب يقال انه يدرس فيه غير القرآن المجيد شئٌ من الحساب. ولهذا المدخل بابٌ للحرم من الداخل يسمونه باب التوسل. والى جانبه فى جهة الغرب محل للاغوات المخصصين لخدمة الحرم الشريف، وفيه ميضاتهم وامكنة راحتهم. والى جواره مخزن الزيت المخصص لتنوير الحرم، ثم باب لمدرسة (على

(١) لا يوجد فى بلاد العالم الاسلامي من يحفظ القرآن بأجمعه عن ظهر قلب الا مسلمو مصر، ويليهم أهل المغرب، أما باقي الجهات الاخري فيقرءونه غالبا في المصاحف. وتمتاز فقهاء مصر بحسن الترتيل: لذلك تراهم ملحوظين بعين الاحترام اذا شخصوا للبلاد غير بلادهم، وخصوصا فى الاستانة.

ما أظن)، وهذه الابواب الثلاثة فى الرواق الشمالى • وفى وسط الصحن بميل الى الشرق حظيرة صغيرة سُوّرت بدربزين من الحديد ، وفيها بعض نخل صغير نبت حول نخلة عالية يقال انها أم نخلة كانت فى هذا المكان للسيدة فاطمة رضى الله عنها • وقبلى هذه الحظيرة بئر ماؤها لذيذ اسمها بئر النبي و بعضهم يسميها زمزم المدينة • ومن وراء هذه الحظيرة اقيمت شبكة من خشب الشيش على طول الرواق الشرقى عملت فى عمارة السلطان عبد المجيد، اشارة الى أنه مخصص [1] للنساء، ففيه صلاتهن واقامتهن فى الحرم • وفى جنوب هذا الرواق دكة للاغوات المخصصين لخدمة الحرم الشريف : وهى مصطبة مسطحها نحو ١٢ مترا طولا فى ٨ متر عرضاً وترتفع عن الارض بمسافة نحو أربعين سانتى متر ، وكانت فى عهده صلى الله عليه وسلم مكانا لاهل الصفة [2] وهم قوم من العفاة والمتقاعدين كان يصرف اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما كان يقوم بحياتهم من غذاء وكساء، وكان منهم أبو هريرة وأبو ذر الغفارى رضى الله عنهما • وتجاه هذه الدكة من الجنوب دكة أخرى أصغر منها متصلة بالمقصورة الشريفة من جهة الشمال، وكان يتهجد فى مكانها النبى صلى الله عليه وسلم • ويفصل بين الدكتين طريق الى باب جبريل شرقا ، وعلى يمين الداخل منه دكة صغيرة يجلس عليها شيخ الحرم ، والى جوارها مخزن خاص بالمقصورة الشريفة التى توجد فى الجهة القبلية الشرقية من الحرم •

والروضة الشريفة فى غرب المقصورة الشريفة : وهى مسافة ما بين القبر الشريف ومنبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه لقوله « ما بين قبرى [3] ومنبرى روضة من رياض الجنة» وهى تبلغ ٢٢ متراً طولا فى نحو ١٥ عرضاً • ويفصل الروضة عن زيادتى عمر وعثمان اللتين فى جنوبها ، دربزين من النحاس الاصفر ارتفاعه نحو متر •

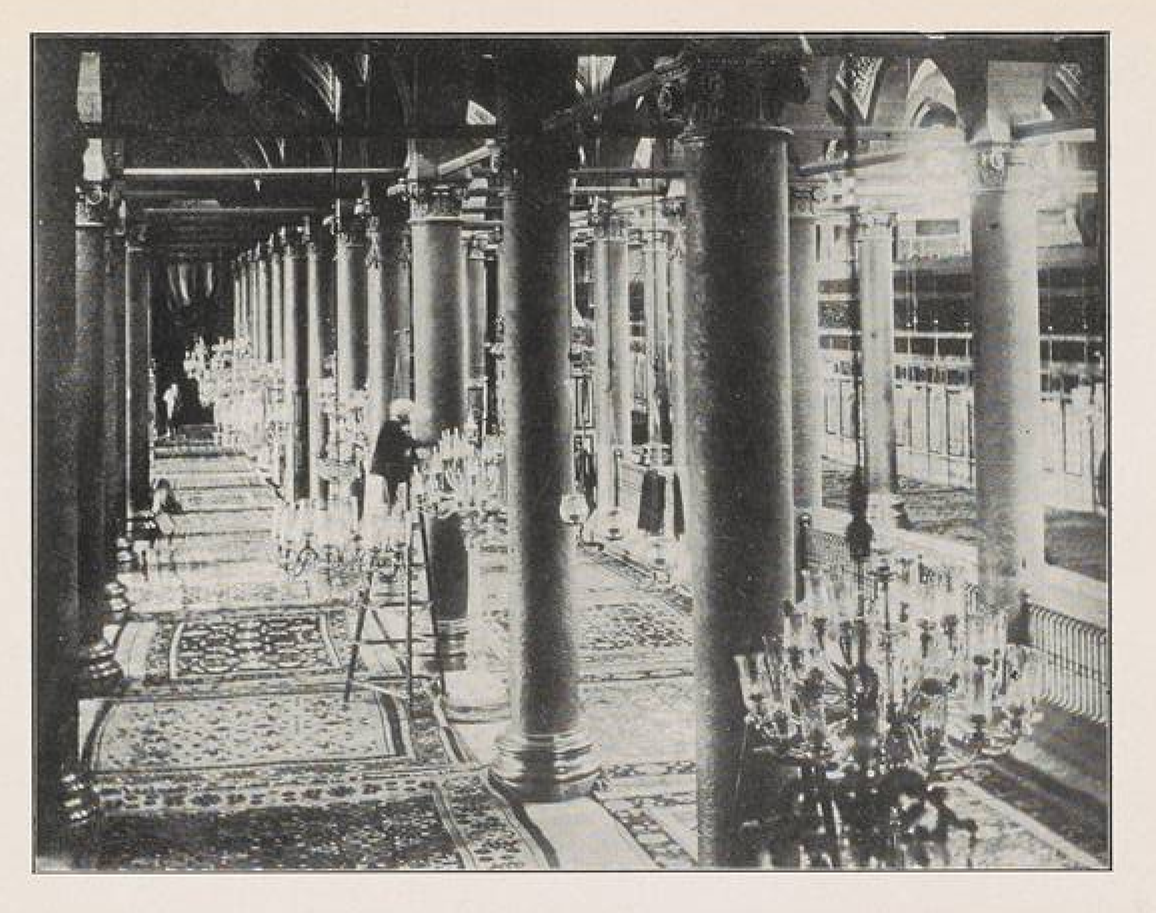
والروضة على الدوام غاصة بالناس لشرف مكانتها • وفيها مما يلى هذا الدربزين

---

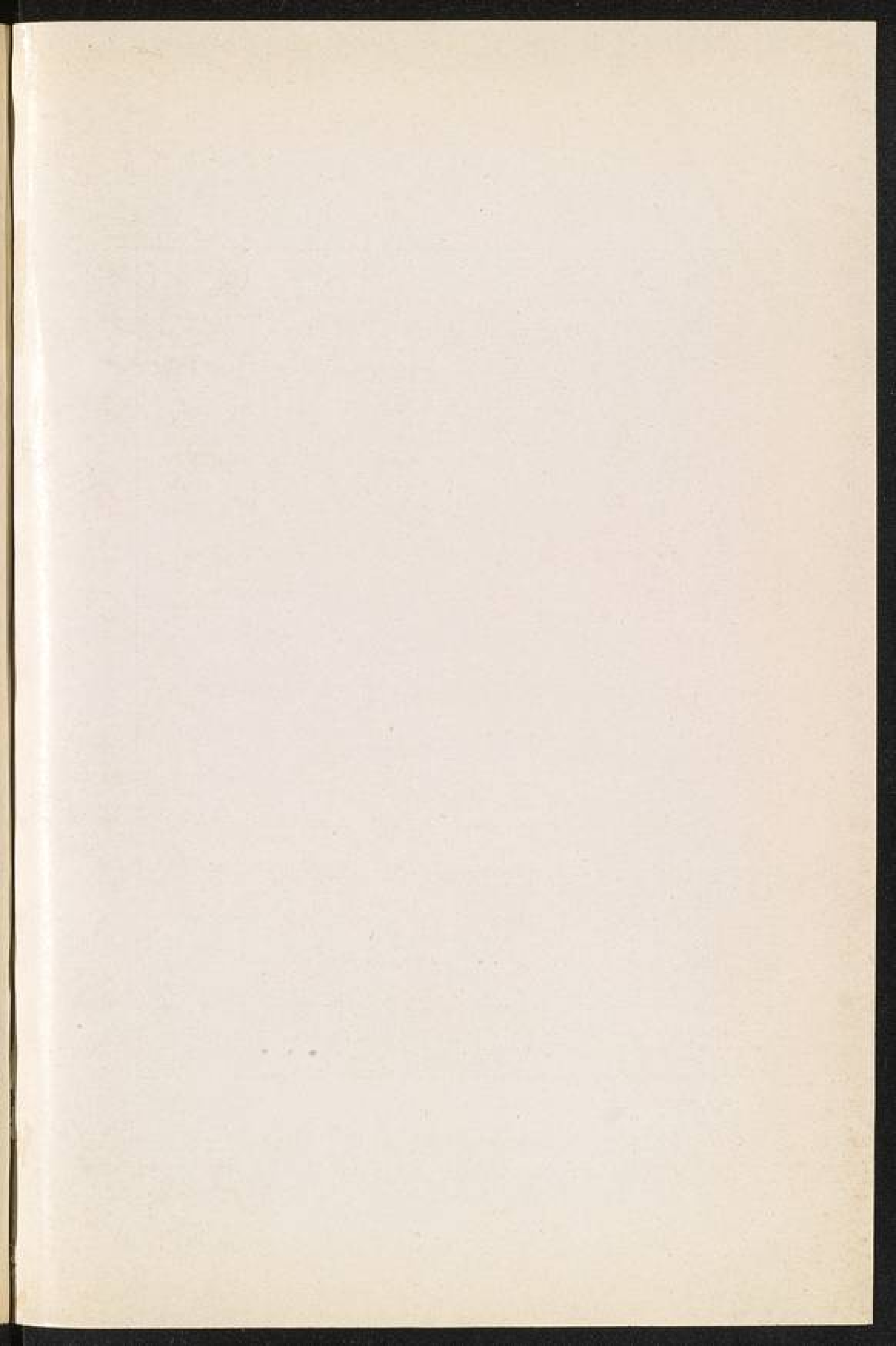
(١) ربما كانت هذه الجهة مخصصة لصلاة النساء من صدر الاسلام يؤيده تسمية الباب الموصل اليها باب النساء من زمن بعيد •

(٢) وكان بالمدينة غير الصفة دار تسمي دار القرى أو دار المضيف كانت توجد فى الجنوب الغربي للمسجد وكانت مخصصة أيامه صلى الله عليه وسلم لنزول ضيوفه اليها •

(٣) وفى رواية أخرى : ما بين بيتي ومنبري الخ



الروضة الشريفة وما يليها غرباً من الحرم النبوي



ربعات قرآنية كثيرة ، وعدد كبير من المصاحف المختلفة الحجم ، منها ما هو بحرف الطبع ، ومنها ما هو بخط اليد الجميل ، والى جانبها نسخ كثيرة من دلائل الخيرات ، وكل ذلك موقوف عليها للقارئين من الزوار . وفى غرب الروضة الشريفة قبلته صلى الله عليه وسلم ، وهى آية من آيات الله فى كمال بهجتها ، وجمال صنعتها ، وهى على استقامة المقصورة الشريفة من جهة القبلة ، وضعها عليه الصلاة والسلام يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة عندما أمره الله تعالى بالصلاة الى الكعبة المكرمة . والى غرب القبلة المنبر الشريف (١) وهو من الرخام المنقوش بالليقة الذهبية الفاخرة وعلى غاية فى الجمال ودقة الصناعة ، ارسل هدية من السلطان مراد الثالث العثمانى الى الحرم سنة ثمان وتسعين وتسعمائة للهجرة ، فوضع فى مكان المنبر الذى كان به لقايتباى ، وهو نفس المكان الذى كان به منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومما ينبغى الاشارة اليه أننا صلينا الجمعة فى المسجد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والتحية ، وكان الزحام شديداً ، وبعد أن زار الخطيب المقصورة الشريفة واستأذن للخطبة ، من الحضرة النبوية ، على حسب عادتهم حضر لابساً قاووقا يسمونه كودابان (٢) ، تحف به الاغاوات من كل جانب ، ثم صعد المنبر ومال الى جهة اليمين أعنى الى المقام الاشرف الاقدس النبوى ، وبعد أن سلم بغاية الادب ، حمد الله وجعل خطبته كلها مبنية على سرد كثير من الاحاديث الشريفة فى موضوع الحج والزيارة ، وضرورة

(١) وكان صلى الله عليه وسلم يخطب على جذع نخلة ، ثم عمل له منبر من خشب الاثل مركب من ثلاث درجات أو أربع ووضع في مكان الجذع الذى دفن فى شرق المكان الذي كان فيه حذاء عمود القبلة الغربي . وكان معاوية أضاف درجتين على هذا المنبر فأحرق في حريق المسجد الاول الذي حصل في سنة ٦٥٦هـ ، وما بقي منه وضع في صندوق ودفن في جوار الجذع ، ووضع مكانه منبر من عمل الملك المظفر صاحب اليمن ، ثم استبدله بغيره الظاهر بيبرس ، ثم غيره الملك المؤيد بآخر أحرق في الحريق الثانى سنة ٨٨٦ هـ ، وعمل بدله الملك قايتباى المنبر الذي نقل الى مسجد قباء (ولا يزال به الي الآن) بعد ان استبدلوه بالمنبر الحالى

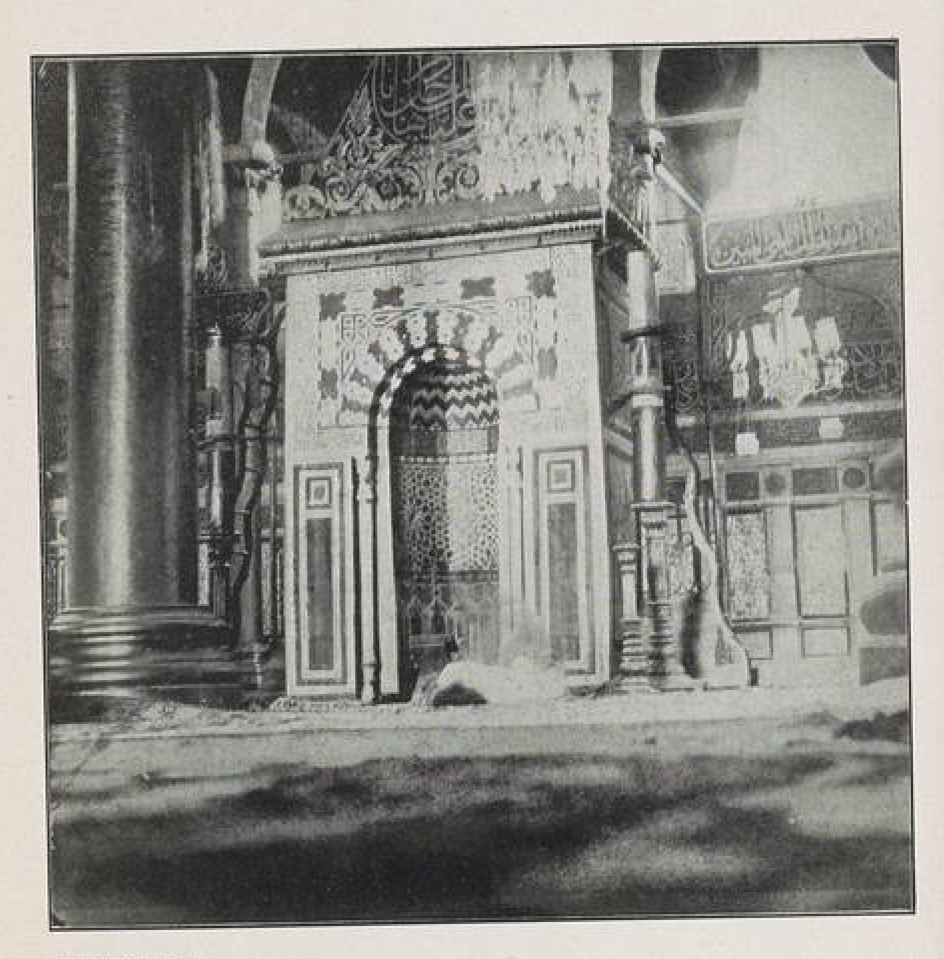
(٢) وقد رأيت الخطيب فى المسجد الاقصى يلبس مثل هذا القاووق فى الخطبة وهو من لباس القرن العاشر الهجرى فى الدولة التركية .

توحيد القلوب ، وتقوية الوصلة والرابطة بين أفراد المسلمين . وكان يستند فى نصائحه على أحاديث نبوية : فكان يقول مثلا ورد عن فلان عن فلان عن نبيكم هذا ، ويشير بيده الى الحجرة الشريفة ، ثم يسرد الحديث فكان لخطبته تأثير على القلوب لا يمكن تكييفه ولا توصيفه

ويوجد بالحرم النبوى للخدمة فيه نحو ألف نفس منهم ٤٦ خطيباً ، يتولى الواحد منهم خطبة الجمعة مرة واحدة فى السنة ، طبقاً لترتيب مخصوص لا يتعدونه ولهم وكلاء كثيرون يتناوبون الخطبة عند غياب الخطيب ، و ٣٨ اماما ، و ٦٢ مساعد امام يتناوبون الامامة فى الصلاة ، و ٥٠ مؤذنا ، و ٢٦ مساعد مؤذن ، و ٥١ كناسا ، و ١١ بوابا ، و ٢٦ صائغا وحاجبا وخياطا وخلافهم ، و ١٠ سقائين ، و ٤ ملائين ، و ٥٧٠ لغسيل وتنظيف وتعبئة قناديل الحرم . أما الذين يقومون بحراسة الحجرة الشريفة والخدمة فيها فهم الاغاوات ، وأول من رتبهم للخدمة نور الدين الشهيد ، وكانوا اثنى عشر ، واشترط أن يكونوا من حملة القرآن الكريم وحفظته ، وجعل عليهم شيخاً منهم ، وزادهم يوسف صلاح الدين الايوبى اثنى عشر آخرين . ومن ثم أخذت الملوك والسلاطين تزيد فى عددهم الى الآن ، وقد وصل عددهم فى بعض الازمان الى أكثر من مائة شخص ، ولهم أوقاف مخصوصة ومرتبات تأتيهم سنويا من الاستانة وغيرها ، ولهم دور بالمدينة يسكنون بها . وأغلب خدمة الحرم الشريف من غير مرتبات ويعيشون من خيرات ذوى البر والاحسان . والقاعدة فى خدمة الحرم الشريف : أن من يموت منهم توزع وظيفته ومرتبه على أولاده جميعاً : فاذا مات الخطيب مثلا وكان مرتبه مائة قرش تعين بنوه فى مركزه ووزع مرتبه عليهم وتولى العمل مكانه أكبرهم وهكذا باقى الخدمة : لذلك ترى مرتبات الكل غير كافية بمعاشهم .

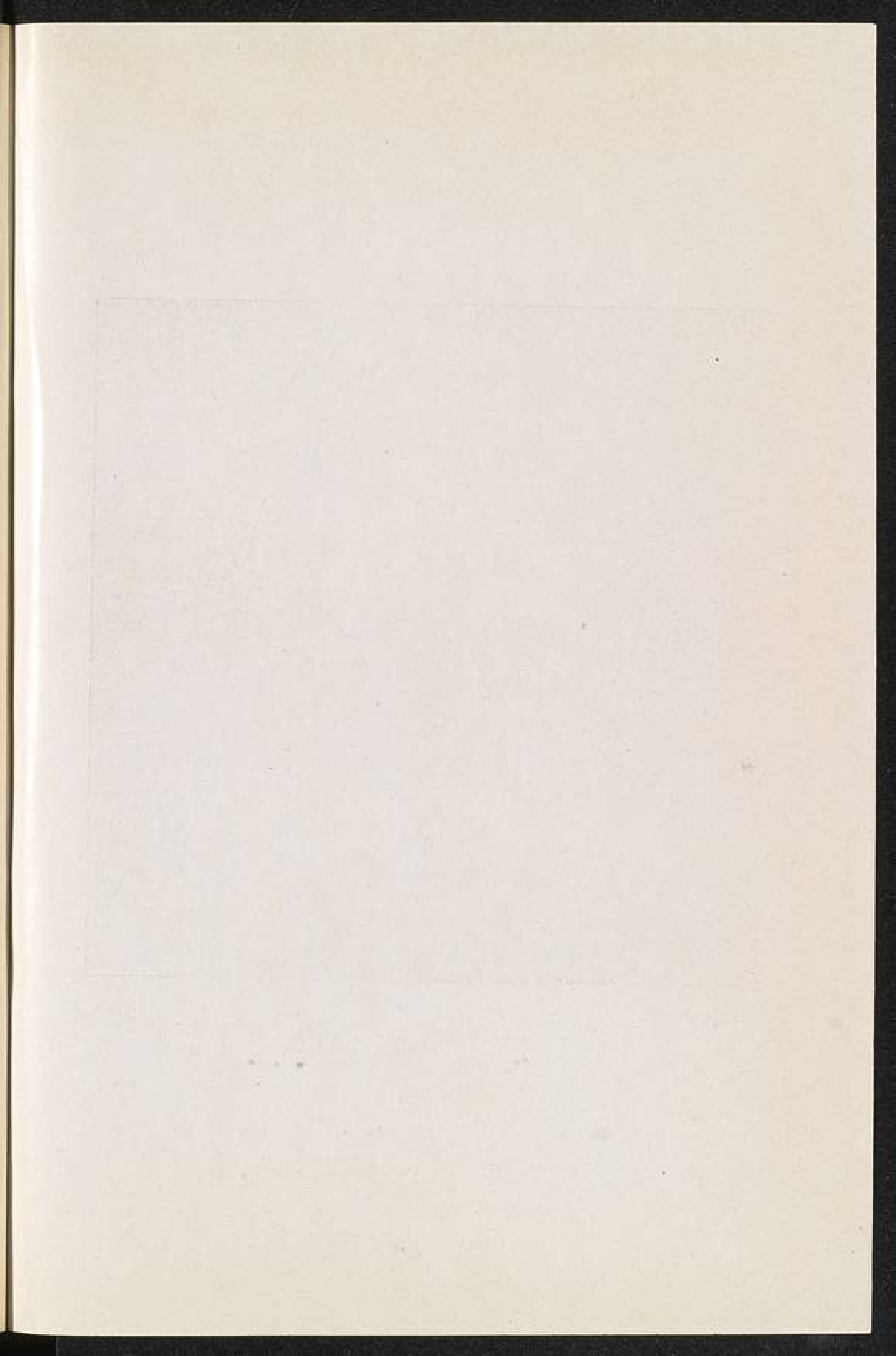
والحرم مفروش بانواع السجاد العجمى الثمين ، وفيه شىء كثير من الابسطة المصنوعة بفوريقة هركه الشهيرة ، وخصوصاً فى الروضة الشريفة . وبالجملة فهو آية من آيات الله فى نظافته ، ولطافته ، وحسن بهائه وروائه ، حتى أن الذى يدخله لا يود أن يبارحه مطلقاً .

وله خمسة أبواب : باب السلام ، وباب الرحمة فى الغرب ، والباب المجيدى فى الشمال ، وباب النساء ، وباب جبريل (أو باب البقيع) فى الشرق . وتقفل هذه الابواب



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

القبلة النبوية بالروضة الشريفة



كلها بعد صلاة العشاء الى قبيل الفجر ، وهى سنة من عهد عمر رضى الله عنه . و يوجد بجوار باب الرحمة و باب السلام من الخارج حنفيات للوضوء من عمل السلطان عبد المجيد كما توجد أمكنة للحاجة على بعد منها .

﴿ أصل الحرم المدنى وعمارته والزيادة فيه ﴾

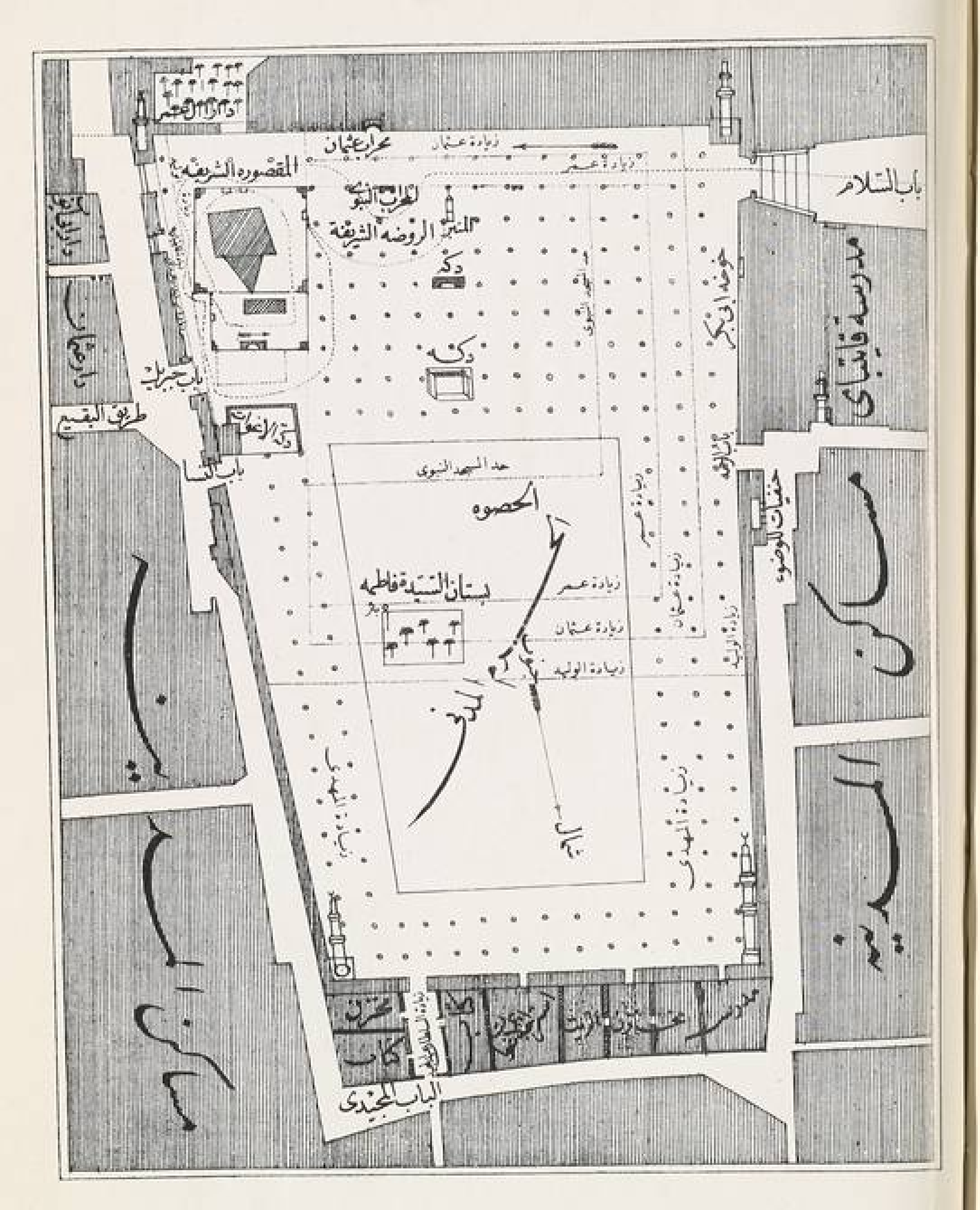
الحرم الشريف يحتوى الآن على مسجده صلى الله عليه وسلم ، وعلى بيت عائشة التى دخل عليها فيه فى الشهر السابع للهجرة ، وعلى حجرات زوجاته رضى الله عنهن ، مع الزيادة التى زيدت فيه . وكان يحيط بمسجده الشريف فى مدته صلى الله عليه وسلم مساكن زوجاته وأصحابه رضى الله عنهم ، فكانت مساكن أزواجه فى الجهة الجنوبية و فى بعض الشرقية من الحرم ، وكان يفصل بينه و بينها طريق عرضه خمسة أذرع .

وكانت دار أبى أيوب الانصارى ، ودار عثمان بن عفان رضى الله عنهما ، جهة الشرق ، ولا تزالان موجودتان الى الآن ، وان كانت صورتهما قد اختلفت عما كانت عليه فى صدر الاسلام . و فى زاوية دار عثمان المقابلة للحرم الشريف حجرة فيها شباك عليه لوحة من الخارج مكتوب فيها (مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه) و يسكن شيخ الحرم عادة فى هذه الدار .

وكانت منازل آل عمر رضى الله عنهم الى جنوب المسجد الشريف و يوجد الى الآن بستان ملاصق للحرم فى اتجاه الحجرة الشريفة من جهة القبلة جعل حرماله ، و به باب فى خارجه مكتوب عليه (ديار آل عمر) . وكان بجوارها من الغرب دار العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دار مروان بن الحكم وكانت على يمين الداخل من باب السلام . وكان فى غرب المسجد دار أبى بكر رضى الله عنه ، والى جوارها شمالا مما يلى باب الرحمة دار عبد الرحمن ابن عوف . وهذه الدور كانت لها فتحات على المسجد ، فرأى صلى الله عليه وسلم أن يسدها فقال (لا يبقين فى المسجد خوخة الا خوخة أبى بكر) فسدت جميعها الا خوخته رضى الله عنه : ولا يزال فى جدار المسجد شمال باب السلام باب صغير (لخزن تجاه المقصورة

الشريفة) يمثل هذه الخوخة، وموضوع عليه لوحة كبيرة مكتوب فيها الحديث المذكور بخط غاية فى الجمال .

وأول من جدد فى عمارة المسجد النبوى عمر رضى الله عنه ، فبنى حوائطه وغير بعض أساطينه ووسع فيه قليلا . أما عثمان فقد زاد فيه الى قبلته الجنوبية وبناه بالجص والحجارة، وفى سنة ثمان وثمانين أرسل الوليد بن عبد الملك لعامله على المدينة عمر بن عبد العزيز فزاد فى المسجد شرقاً وغرباً وجنوباً ، وأدخل فيه حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وبنى له أربع مآذن ، وفرش أرضه بالرخام ، ووشى حوائطه بالفسيفساء (الموزاييك) وكسا سقفه بالذهب ، وجعل أساطينه من المرمر ، ثم زاد فيه المهدى العباسى سنة مائة وستين ، وقام بعمارته أحسن قيام . ثم عمره الخليفة المستعصم ، ثم الظاهر بيبرس . وفى سنة ثمان وسبعين وستمائة أقام الناصر قلاوون قبة الحجرة الشريفة ، ولم يكن لها قبة قبل ذلك . ثم عمره الاشرف برسباى سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة . ثم الظاهر برقوق سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة . وفى سنة ست وثمانين وثمانمائة انقضت صاعقة على المسجد فأحرقته جميعه بحال مريعة لم ير الراءون مثلها ، ولم يمكن أهل المدينة أن يقوموا فى وجه النار التى لم تكن تبقى على شئ فى طريقها ، الا أنها لم تمس الحجرة الشريفة بشئ بالمرة ! ! وبمجرد ما بلغ هذا الخبر السلطان قايتباى ملك مصر ، أمر فى الحال بأن ينقل الى المدينة جميع عماله الذين كانوا يشتغلون فى الحرم المكى ، ومازالوا يشتغلون بهمة فائقة فى الحرم المدنى حتى أتموه على أحسن هندام ، على هذا القوام الحالى ، وبنوا الحجرة الشريفة على الفخامة والجمال اللذين تراهما عليها الى الآن ، وأقاموا على القبة الشريفة قبة أخرى أعلى منها ، وبنوا فى الجهة الغربية من الحرم على شمال الداخل من باب السلام مدرسة عظيمة وأوقف عليها قايتباى الاوقاف الكثيرة وتسمى بمدرسة قايتباى الى الآن . وقد رأيت له باباً كان أرسل من مصر أثناء هذه العمارة ووضع على باب السلام ، ولما وسع هذا المدخل فى عمارة السلطان عبد المجيد نقلوه الى الباب المجيدى : وهو من الخشب الثمين المغطى بالقطع النحاسية المنقوشة أو المكتوبة ، بل هو من أفخر ما يرى الناظرون من الصناعة المصرية القديمة التى قربت من



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

عهد بعيد ! ! وفى سنة ٩٨٠ عمره السلطان سليم الثانى ، و بنى فيه بين المنبر الشريف ومدرسة قايتباى قبلة جميلة وشاها بالفسيفساء المنقوشة بماء الذهب وكتب اسمه على ظهرها بالخط الثلث الجميل ، يشاهده السالك من باب السلام الى الحجرة الشريفة . وفى سنة ١٢٣٣ بنى السلطان محمود القبة الشريفة ، ثم أمر بترميمها ودهانها باللون الاخضر فى سنة ١٢٥٥ ، ومن ثم سميت بالقبة الخضراء . وفى سنة ١٢٧٠ أمر السلطان عبد المجيد خان رحمه الله بعمارته والزيادة فيه الى الشمال ، فكان ذلك وتمت عمارته على ما هى عليه الا ن ، و وشاه بالنقوش والزخارف التى تفوق حد الوصف ، وكتب على جداره مبتدئاً من باب السلام الى الشرق ، سورة الفتح بالخط الثلث المجوّف ، و فى السطر الذى تحتها سورة أخرى بخط أرفع منه ولكنه أكثر تعليقاً ، ومن تحته سطر آخر أصغر من الذى فوقه ، فيه أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، وقصيدة البردة مكتوبة فى محيط قباب المسجد ، و فى الزوايا التى ترتكز عليها هذه القباب أسماء الله و رسوله وآله و بعض صحابته . وكل ذلك مكتوب بخط غاية فى جماله وحسن تنسيقه ، وكمال وضعه : وحسبك أنه أثر ذلك الخطاط الشهير المرحوم عبد الله بك زهدى الذى أوفده السلطان عبد المجيد الى المدينة لهذه الغاية ومكث فيها بضعاً وعشر سنين يعمل فى بيت رسول الله بما آتاه الله من إحكام فى صناعته ونبوغ فى مهنته . وقد ورد فى مرآة الحرمين أن هذه العمارة صرف عليها نحو مليون ليرة عثمانية . وليس هناك أثر(١) يذكر لمن بعده من الملوك سوى ما أدخل اليه من أسلاك النور(٢) الكهربائى فى زمن

(١) رأيت عند صديقي الفاضل الشيخ مصطفى الحريري الخطاط الشهير بمصر لوحة مأخوذة بالفوطوغراف من خط المرحوم عبد الله بك زهدي على باب الحرم المدنى فيها هذه الابيات :

مفتاح باب الله طه المرتجي ☆ بحر المكارم ملجأ الطلاب
سلطاننا عبد العزيز لجابه ☆ ليفوز بالآمال والآراب
وغدا لسان مقاله متمثلا ☆ اذ كان خادم هذه الاعتاب
ان الوسائل للملوك ببابهم ☆ ووسيلتى العظمى بهذا الباب

(٢) ومدة زيارتنا للمدينة كان الحرم الشريف منارًا بالزيوت والشموع على عادته لان المهندس الكهربائى المختص لمباشرة الالة التي تنير الحرم كان أصيب منها بما أفقده الحياة فأوقف عملها الي أن يستحضر لها مهندس آخر من الاستانة !!

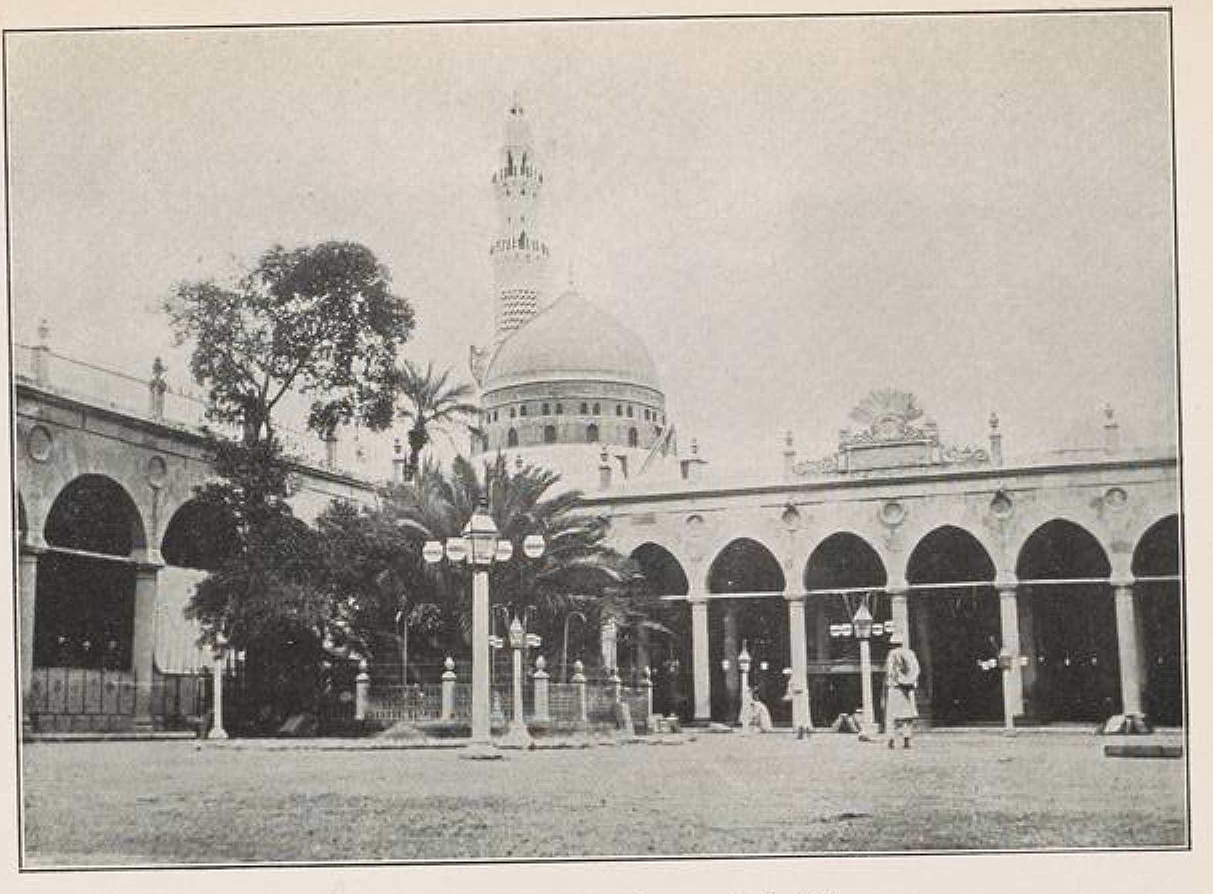
السلطان عبد الحميد ، وابتدأت الانارة به فى الحرم الشريف رسمياً فى يوم الاحتفال بافتتاح السكة الحديد الحجازية بالمدينة المنوّرة فى ٢٥ شعبان سنة ١٣٢٦ .

والمقصورة الشريفة من نحاس أصفر غاية فى حسن الصناعة ، عملت فى مدة العمارة التى قام بها قايتباى فى سنة ٨٨٨ ، ولها باب على الروضة الشريفة يسمى باب الرحمة أو باب الوفود ، وإلى جانبه من جهة الجنوب شباك يفتح عليها يسميه الحجاج شباك التوبة ، وهو الذى يذكرونه فى قسمهم فيقولون « وحياة النبى الذى وضعت يدى على شبّاكه » ، ولها أيضاً منفذ الى جهة القبلة فى المواجهة الشريفة و يفتح عند الامور الهامة للدعاء والاستغاثة .

و يتصل بهذه المقصورة من جهة الشمال مقصورة السيدة فاطمة ، وهى على استقامتها من الغرب ، وتدخل عنها بمسافة متر ونصف من الشرق .

وطول المقصورة النبوية الشريفة من ضلعها الجنوبى والشمالى ١٦ متراً ، ومن الشرق والغربى ١٥ متراً . وفى زواياها الاربع أعمدة مزوية عظيمة ، بنيت من الحجر الصلد على ارتفاع السقف ، وعليها ترتكز قواعد القبة الشريفة . أما مقصورة السيدة فاطمة الزهراء فطولها من الجنوب ١٤ متراً ونصف ، ومن الشمال ١٤ متراً فقط ، ومن الشرق والغرب نحو سبعة أمتار ونصف . وهى تتصل بالمقصورة الكبرى من الداخل ببابين : أحدهما الى الشرق والآخر الى الغرب ، قد أقيم فيما بينهما ضريح على المكان الذى دفنت[1] فيه السيدة فاطمة على قول الكثيرين . و فى داخل المقصورة الكبرى الحجرة الشريفة وهى المكان الذى توفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الاوّل سنة ١١ للهجرة ودفن فيه عليه الصلاة والسلام فى اليوم التالى : لقوله صلى الله عليه وسلم « ماقبض نبىٌّ إلا دفن حيث قبض » ، و رأسه عليه الصلاة والسلام الى الغرب . ولما توفى أبو بكر فى ٢٢ جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة دفن الى جانبه من جهة الشمال و رأسه الى قدمى الرسول عليه الصلاة والسلام . ولما طعن عمر رضى الله عنه استأذن من

(١) وكانت وفاتها بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم بنحو شهرين، ويقول بعضهم انها دفنت بقبتها المعروفة الى الآن باسمها فى الزاوية الغربية القبلية من البقيع .



منظر الحرم النبوي من داخل الصحن والحجرة الشريفة
وبستان السيدة فاطمة رضي الله عنها



عائشة أن يدفن مع صاحبيه ، فأذنت له، فلما مات يوم الاربعاء ٢٧ ذى الحجة سنة ٢٣ للهجرة دفن الى جوارهما ، و رأسه محاذية لمنكبي أبى بكر رضى الله عنهما. وقد أقيمت على هذه القبور الثلاثة مقصورة من البناء على شكل ذى خمسة أضلاع ارتفاعه أكثر من ستة أمتار . وأوّل من بنى هذه المقصورة عمر بن عبد العزيز فى عمارته للمسجد ونزل بأساسها الى غور بعيد، وجعلها على الشكل المزْوَرّ المتقدم حتى لا تكون مثل الكعبة فى تربيعها خوفا من أن يتخذها الناس قبلة لهم . وكانت الحجرة الشريفة تسع قبراً رابعاً و يزعمون أنه مكان قبر عيسى عليه السلام بعد نزوله من السماء فى آخر الزمان ؟ ؟ ؟ وقد قيل فيه لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة لو أتيت المدينة وأقمت بها فان مت دفنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه رضى الله عنهما . فقال والله لأن يعذبنى الله عز وجلّ بكل عذاب الا النار أحب إلىّ من أن يعلم أنى أرى نفسى لذلك أهلا ! فانظر الى درجة أدب الرجل ونسكه مع ما كان فيه من سعة الملك الذى حلق على أطراف المعمورة بأجمعها رضى الله عنه .

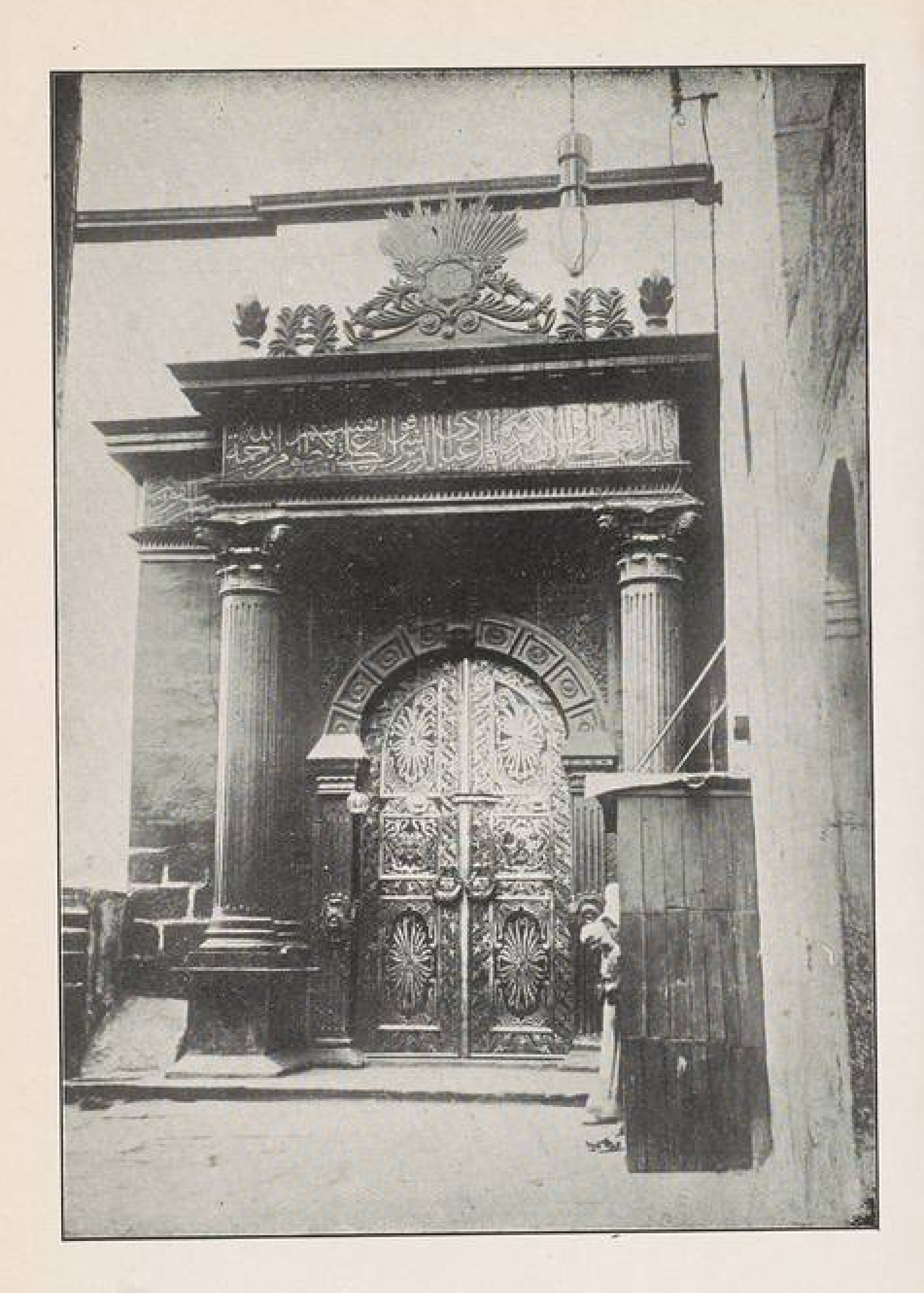
و فى سنة ٥٥٧ بلغ نور الدين زنكى أن الصليبيين الذين كان مشتغلا بحاربتهم كانوا يعملون لسرقة الجثة الشريفة ، فأمر باحاطة الحجرة الشريفة ببناء آخر ، نزل بأساسه الى منابع الماء ، ثم صب الرصاص على دائره حتى صار بحيث لا يمكن أن تتناوله يد الزمان وقد وضع على هذا البناء ستر من الحرير الاخضر مكتوب فيه «لا اله الا الله محمد رسول الله» يحيط بها أحجبة مكتوب فيها قوله تعالى « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكنْ رسولَ اللهِ وخاتمَ النبيين » وفيما بين ذلك دوائر مكتوب فيها أسماء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، و يحيط بهذا الستر (على ارتفاع مترين ونصف تقريباً) حزام من الحرير الاحمر عرضه نحو ثلاثين سنتيمتراً مكتوب فيه بقصب الذهب اسم السلطان الذى أمر بعمل الستر الشريف . وهذه الكسوة ترسل من الدولة العلية عند تولية كل ملك من ملوكها ، والكسوة الحالية وصلت الى الحجرة الشريفة بعد اعلان الدستور . وأوّل من كسا الحجرة الشريفة الخيزران أم هٰرون الرشيد ، عندما قدمت فى جهاز يارة النبي عليه الصلاة والسلام .

وصارت من بعدها سنة الملوك والسلاطين . و بين بناء المقصورة والشبكة النحاسية الخارجة طرقة متوسطة سعتها نحو ثلاثة أمتار من جهاتها الشرقية والغربية والقبلية ، و فى زاوية هذه الطرقة من الجنوب كرسى موضوع عليه مصحف شريف كبير ، أهداه الى الحجرة الشريفة الحجاج بن يوسف الثقفى ، و يقولون انه من المصاحف الستة التى كتبها عثمان بن عفان .

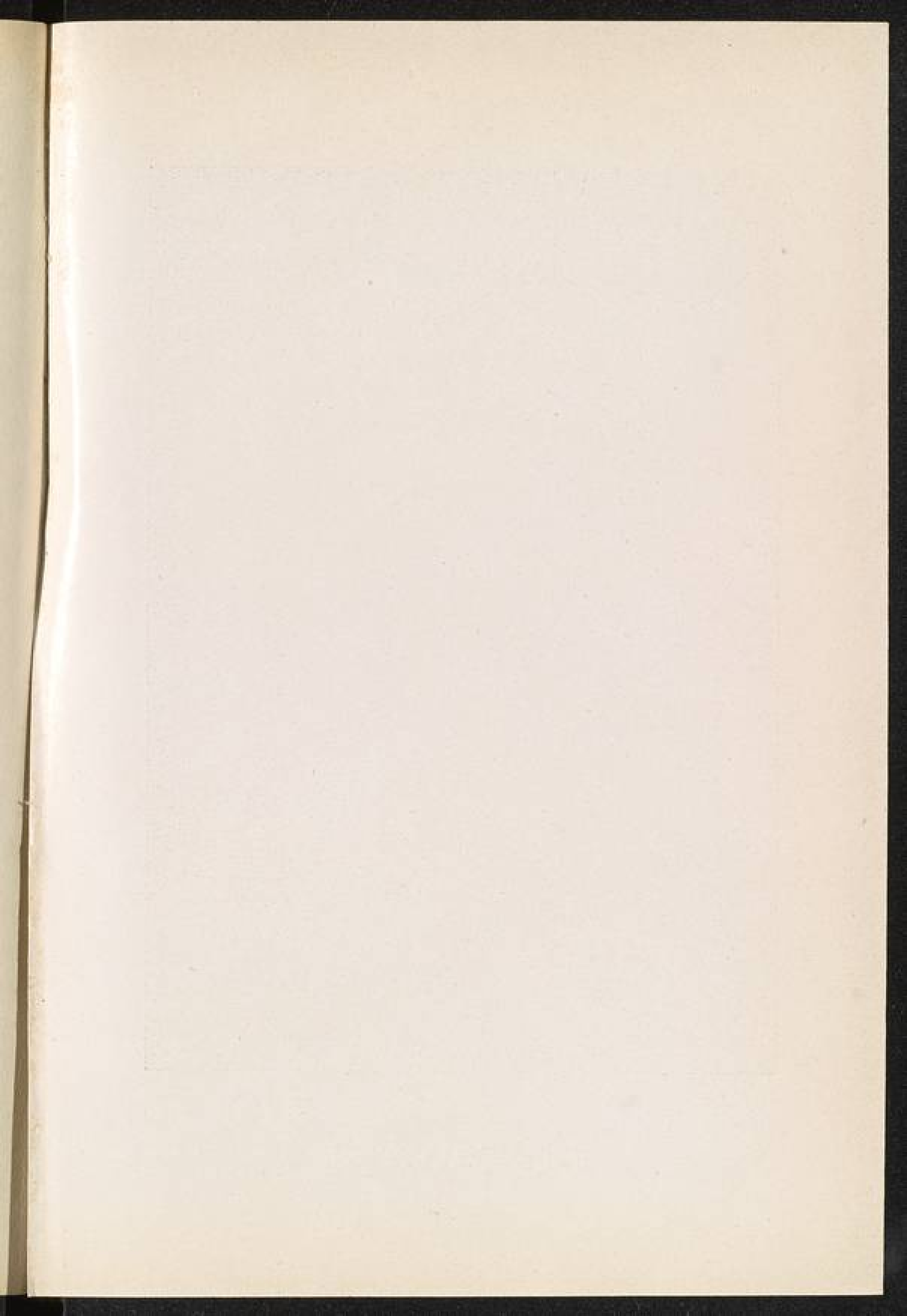
وسماء هذه الطرقة مملوءة بثريات من الذهب والفضة ، وخصوصاً فى الجهة الجنوبية فيما يقابل الوجه الشريف : فان فيها كثيراً من المشاكى الذهبية ، منها إحدى وثلاثون مشكاة مرصعة بالماس والزمرد والياقوت ، ومعلقة بسلاسل النضار . ومجموع مصابيح الحجرة الشريفة مائة مصباح وستة .

و فى مقابلة الوجه الشريف على جدار المقصورة حجر من الماس البرلانتى فى حجم بيضة الحمام الصغيرة ، يحيط به اطار من الذهب المرصع . و يقدرون ثمنه فى ذاته بثمانمائة ألف جنيه ، أما فى شرف نسبته الى الحجرة الشريفة فقيمته أكبر من أن تقدر بثمن ، و يسمونه بالكوكب الدرى لشدة تألقه وعظيم سنائه و بهائه . وهو مثبت فى لوحة من الذهب و رصع محيطه بمائتين وسبع وعشرين قطعة كبيرة من الجواهر الثمينة . وهذا الكوكب أهداه للحجرة الشريفة السلطان أحمد خان الاوّل ابن السلطان محمد خان من سلاطين آل عثمان فى مبادئ القرن الحادى عشر الهجرى . وقد علق تحته كف من الذهب المرصع بالجوهر ، و فى وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدرى ، أهداه اليها السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الاوّل فى سنة سبع وأربعين وألف للهجرة . وهناك لوح كبير من الذهب منقوش فيه بخط جميل جداً بحجارة الماس البرلانتى «لا إله الا الله محمد رسول الله» أهدته اليها صاحبة السموّ والعصمة عادلة سلطان بنت السلطان محمود سنة ألف ومائتين واحدى وتسعين هجرية .

و فى هذه الحجرة الشريفة غير هذا ، كثير من الجواهر الفاخرة التى لا تقدر بثمن : منها قطعة كبيرة على مثال الكردان مكتوب فيها بالماس اسم السيدة فاطمة الزهراء



باب الرحمة بالحرم المدني



وهى موضوعة على مقصورتها الداخلية فى الجانب الشرقى ، والى جوارها عقد من اللؤلؤ الكبير الحجم ، لا يماثله شئ فى عظمه وجوهره ، وعقود أخرى من المرجان النادر المثال .
ويوجد فيها شمعدانات من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريمة ، منها اثنان كبيران طول الواحد منهما نحو مترين ، أهداهما اليها السلطان عبد المجيد خان فى سنة أربع وسبعين ومائتين وألف ، وشمعدانان آخران أهداهما السلطان محمود . والى جانب هذه الشمعدانات مكانس من اللؤلؤ ، ومراوح مرصعة بالاحجار الكريمة ، وعصاق ومباخر مرصعة ، وهذا عدا ما يوجد فى خزائن الحجرة الشريفة من المصاحف المجوهرة والتحف الفاخرة ، وكثير من الاحجار الكريمة والجواهر الثمينة التى لم تكن مشغولة ، وغير ذلك من الاساور والاقراط وخلافها . وبالجملة فقد قدر ثمن ما للحجرة الشريفة من الذخائر بسبعة ملايين من الجنيهات .

ولقد كانت الملوك والكبراء والعظماء يهدون لها فى كل الازمان كثيراً من الجواهر الفاخرة والذخائر الثمينة . وكثيراً ما كانت تتطاول اليها يد الاشرار من ولاة المدينة مثل جماز ابن هبة الذى نهب فى سنة احدى عشرة وثمانمائة من ذخائر الحرم المدنى ما قدره السمهودى بعشرين قنطاراً من الذهب . وتبعه فى ذلك الشريف حسن بن زبير المنصورى سنة ٩٠١ هجرية فأخذ منه شيئاً كثيراً . وفى مبدا القرن الثالث عشر الهجرى كانت الحجرة الشريفة عامرة بما لا يحصى من الذخائر الثمينة ، فنهبها الوهابى سنة احدى وعشرين ومائتين وألف ، وباع بعضها الى الشريف غالب بمبلغ خمسين ألف ريال ، وبعد تميم الصلح بين ابن سعود وطوسون باشا اشترى منه هذا الاخير بعض ما نهبه أبوه من آثارها الذهبية بمبلغ ألفى جنيه مصرى ، وردها للحجرة الشريفة . وكذلك رد اليها محمد على ما أعطاه اليه الوهابى من ذخائرها وأهداها هو بشمعدان كبير من الذهب الخالص وشمعدانين من الفضة مكتوب عليها « العبد المذنب محمد على والى مصر سنة ١٢٢٨ » . وأهداها عباس باشا الاول شمعدانات من الفضة وثريتين (نجفتين) من الفضة : واحدة ذات ٣٦ شمعة معلقة فى المحراب العثمانى ، والاخرى ذات ثلاثين شمعة معلقة تجاه الوجه الشريف ، وثريات

وشمعدانات أخرى من البلور . ولسعيد باشا وبعض كريمات العائلة الخديوية بالحرم الشريف هدايا أخرى . وآخر ما قدم للحجرة الشريفة لهذا العهد دواليب ثمينة جدا أقدمتها الهادولة والدة الجناب العالى الخديوى لتحفظ فيها هذه الآثار الكريمة جزاها الله خيرا .

وخدمة الحجرة الشريفة يغسلونها فى السنة ثلاث مرات : واحدة فى يوم ٩ ربيع الاول ، والثانية فى أول رجب ، والثالثة فى الثامن عشر من ذى القعدة . ويكون لذلك احتفال كبير ، وماء غسيلها يفرقونه فى قوارير على أكابر المسلمين للتبرك به .

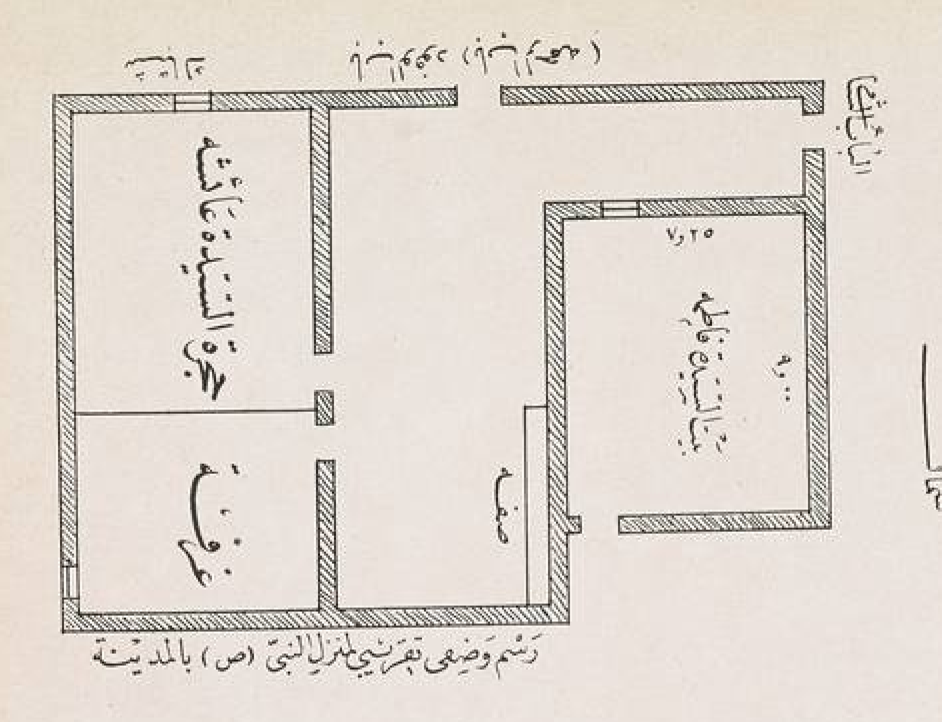
﴿ بحث فيما كان عليه بيته صلى الله عليه وسلم بالمدينة ﴾

من ينظر الى المقصورة الشريفة الحالية ، ويعلم أنها أقيمت على مكان بيت النبى صلى الله عليه وسلم (المشهور ببيت عائشة) ، ويفكر فى أبوابها ، وتسمية كل باب باسم مخصوص ، ويضف الى ذلك أن بيت السيدة فاطمة كان بجانب بيته صلى الله عليه وسلم ، وأنه كان فيه شباك يطل على بيت أبيها ، وكان صلى الله عليه وسلم يستطلع أمرها منه حتى سدّه محبة فى استقلال كل بيت عن الآخر ، يحكم معى بأن وضع بيته مدة وجوده صلى الله عليه وسلم كان على نحو الشكل الآتى :

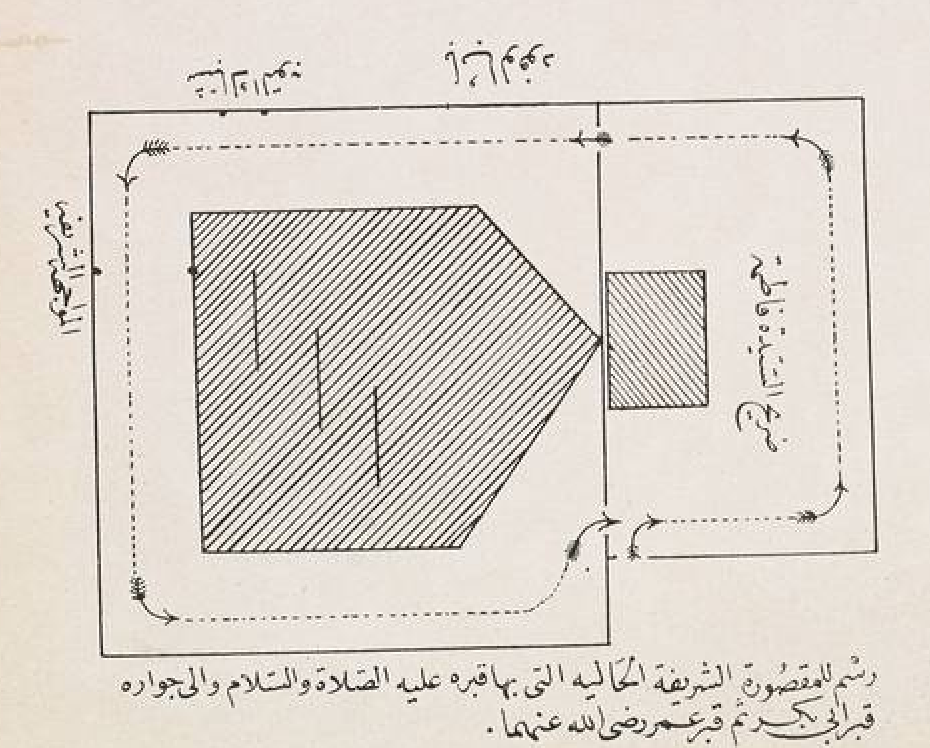
والذى ساعدنى على هذا الوضع ما ورد عن مالك رضى الله عنه « قسم بيت عائشة باثنين ، قسم كان فيه القبر ، وقسم كانت تكون فيه عائشة ، وبينهما حائط ، وكانت عائشة ربما دخلت حيث القبر فضلا (يعنى سافرا) ، فلما دفن عمر رضى الله عنه لم تدخله الا وهى جامعة[1] عليها ثيابها » .

ومن ذلك تعلم أن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان به حجرتان . أما بابه فقد قال بعضهم انه للشام ، وقال آخرون انه للغرب ، ولكن يستنتج من رواية ابن سعد أن له بابين حيث قال : « لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا (الصحابة) كيف نصلى عليه ؟ قالوا ادخلوا من ذا الباب ارسالا ارسالا فصلوا عليه واخرجوا من الباب الآخر » ،

(١) أنظر حفظك الله ورعاك الي هذا الادب العالي والحياء الغالي الذى بلغ بكمال القوم رضوان الله عليهم فى المحافظة على الحجاب حتى على الاموات وحتى مع عمر وهو ميت .

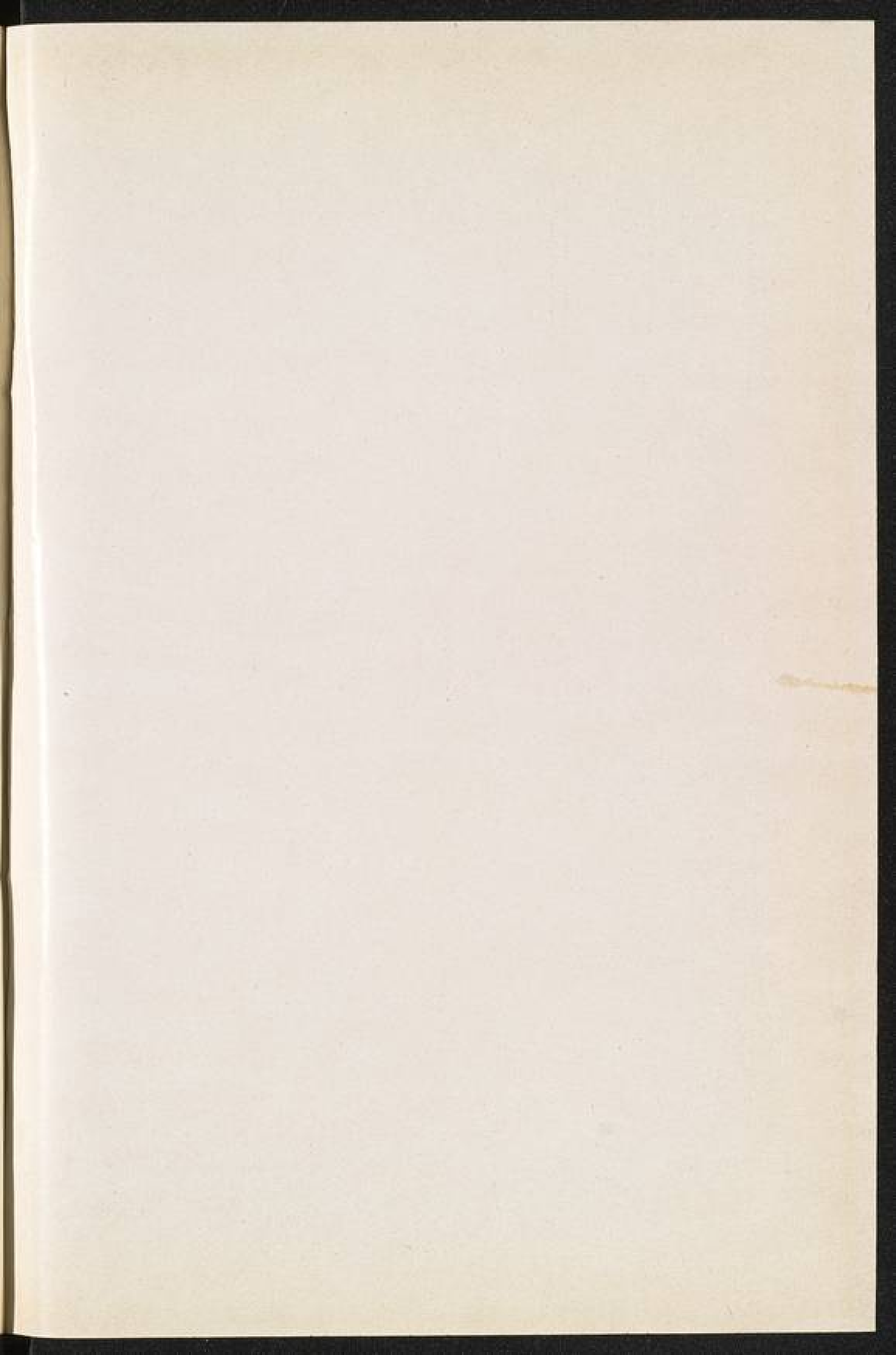


رسم وضعى تقريبي لمنزل النبى (ص) بالمدينة



رسم للمقصورة الشريفة الحالية التى بها قبره عليه الصلاة والسلام والى جواره
قبر ابي بكر ثم قبر عمر رضى الله عنهما.

BOEHME & ANDERER, CAIRO.



ومما ورد أيضاً أن بيت السيدة عائشة كان به صُفّة الى منزل فاطمة ، وكان به فتحة الى القِبلة يؤيد ذلك قول ابن ذُبالة : « كان بين بيت حفصة ومنزل عائشة الذى فيه القبر الشريف طريق ، وكانتا تتهاديان الكلام وهما فى منزليهما من قرب ما بينهما » . وحفصة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم و بنت عمر بن الخطاب وكان بيتها كما لا يخفى على يمين خوخة آل عمر ، أى فى جنوب بيت عائشة الى الشرق .

و إنى لم أجسر على هذا الوضع الا بعد تدقيق شديد فى أقوال الصحابة والتابعين الذين كانوا يتحرون كل مواقفه عليه الصلاة والسلام ، وخصوصاً فى بيته الذى أجمع المسلمون على أن موضع قبره صلى الله عليه وسلم فيه أشرف بُقعة على سطح الارض . وعلى كل حال فهذا استنتاج لى أو رده لك وأنت حر فى تحسينه أو توهينه ، ولو بدون دليل تقيمه عليه .

وعليه فيكون بيت السيد الرسول مدة حياته فى المدينة على الرسم (الموضوع فى جنوب المقصورة الشريفة) وهو أكثر بساطة من مسكنه فى مكة . وكان من دونه كما سبق منازل أزواجه رضى الله عنهن : وكان محيطها مع منزل عائشة مبنياً باللبن ، وقواطعها الداخلة من الجريد المكسوّ بالطين والمُسُوح الصوفية : ومن ذلك يمكنك أن تحكم على مقدار بساطته صلى الله عليه وسلم فى مسكنه . بحيث انه ما كان يتعدى فى أى حال من الاحوال الضرورىّ لحياته ، وحياة أزواجه . وقد ورد عن عطاء الخراسانى أنه قال : « أدركت حُجَر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فحضرت كتاب الوليد يُقرأ يأمر بادخالها فى المسجد فما رأيت يوما كان أكثر باكياً من ذلك اليوم ، فسمعت سعيد بن المسيب يقول « والله لوددت أنهم تركوها على حالها ، ينشأ ناس من المدينة و يقدم قادم من الآفاق فترى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، ويكون ذلك مما يزهد الناس فى التكاثر والتفاخر فيها » .

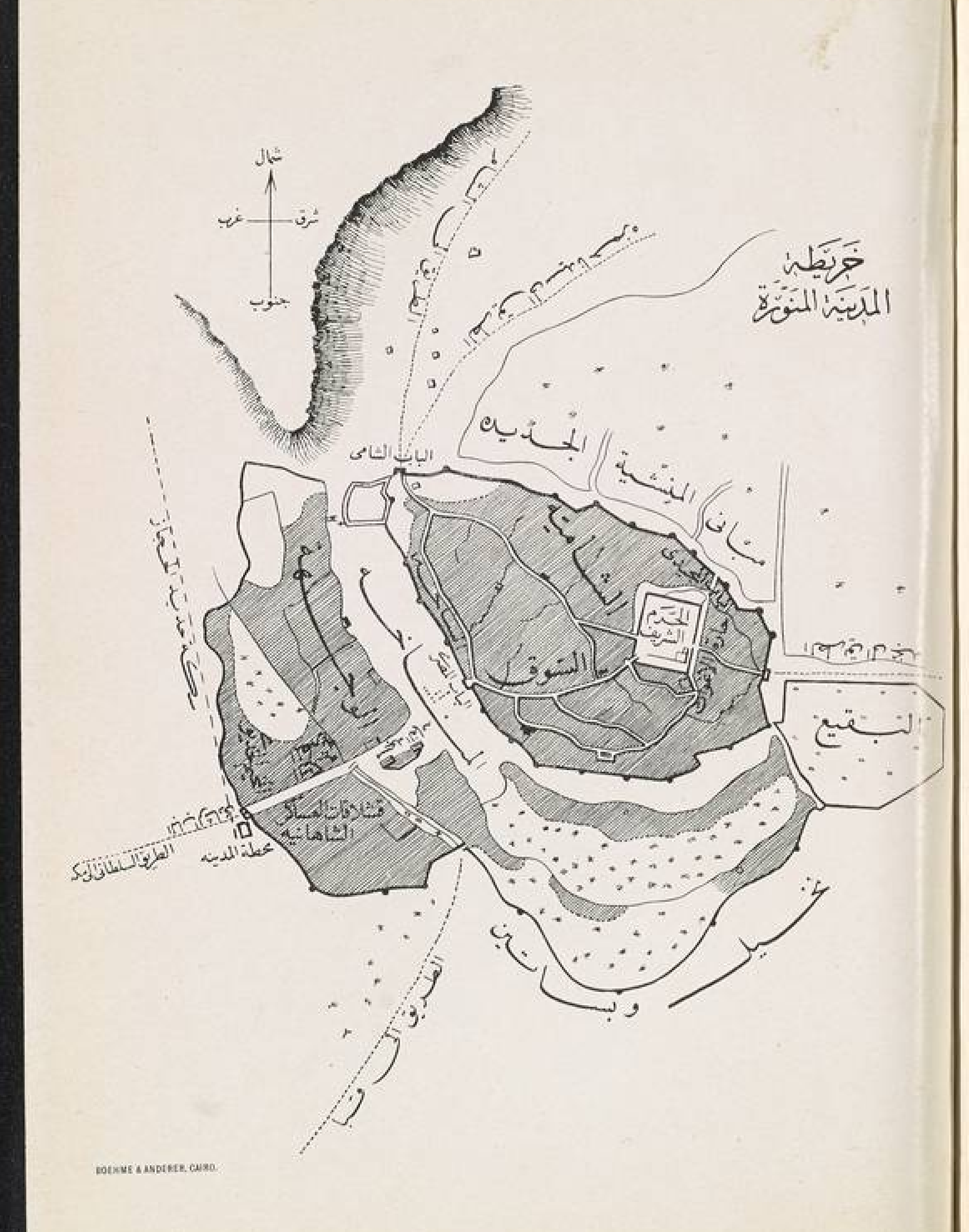
ومع هذا فانك اذا أنعمت النظر فى هيئة المكان على بساطته ، وفكرت فى وضعه الصحى ، وكيف كانت منافذه منقية للهواء ، وأبوابه داعية الى السهولة فى الدخول والخروج وخفة الحركة مع وفرة الزمن والسرعة الى المقصد ، مما شرع فيه الآن فى العمارات الكمالية ، عرفت ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من القناعة ، والزهد ، وحسن

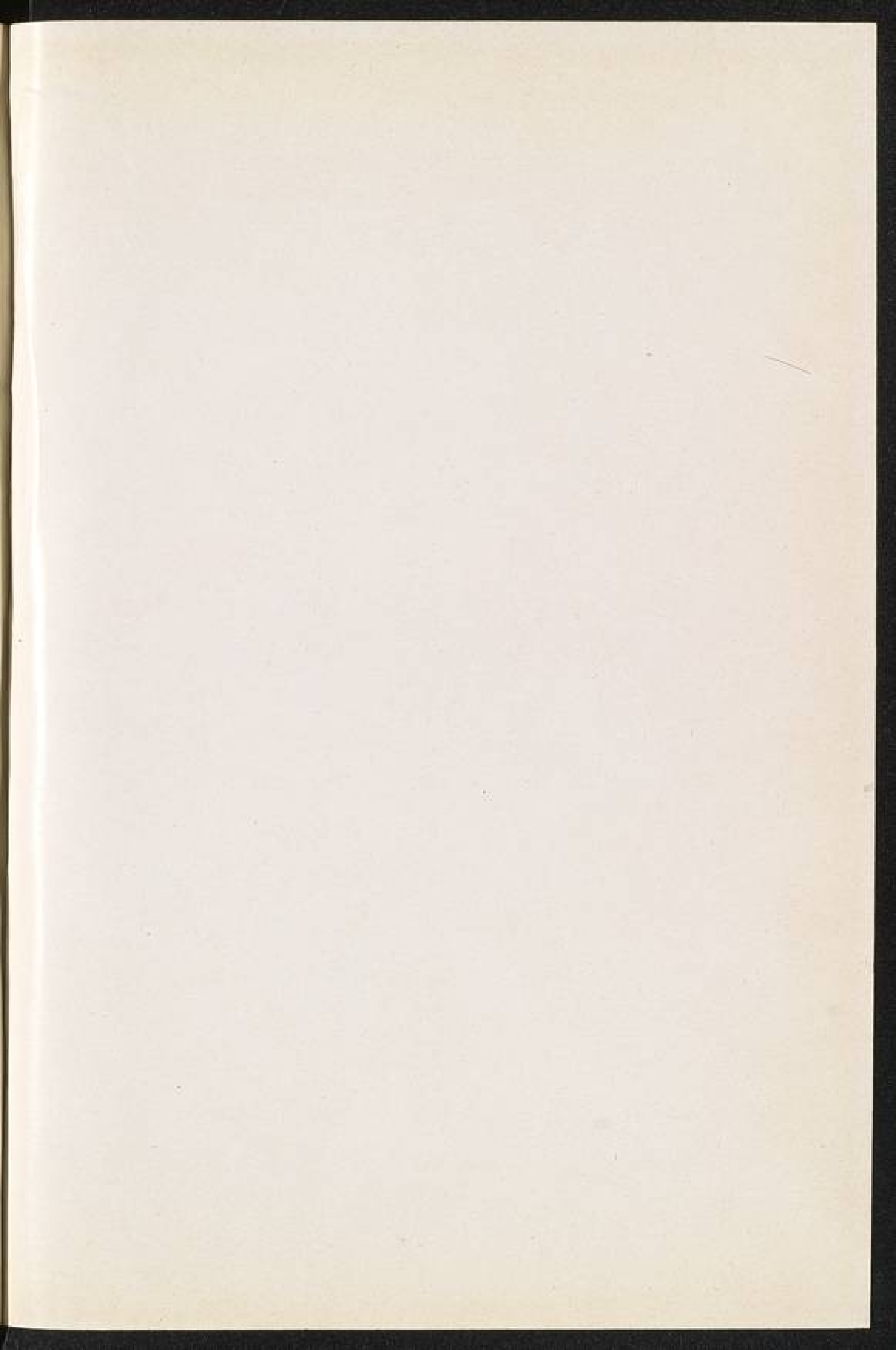
الذوق . ومن يتأمل فى ذلك ير فيه خير درس للناس يتعلمون منه كمال وضع الامور فى مواضعها ، من غير زيادة عن الحاجى ولا نقص عن الضرورى ، وهنالك يرى الغنى فى ماله فضلة يساعد بها الفقراء من عيال الله : فتتبادل عاطفة الحنو والشفقة فيما بينهم ، وتثبت قدم المحبة فى أفئدتهم ، فيصبح الكل بين محب ومحبوب ، وشاكر ومشكور ، وحامد ومحمود ، وهنالك تزول عوامل الحسد وتموت شياطين التنافر والبغضاء ، ويتحد الكل على العمل ، بل ويعمل الكل للكل ، ويكون الناس على اختلاف طبائعهم وعوائدهم كأعضاء جسم واحد تعمل كلها لحياته ووجوده ، واذاً يكونون قد قاموا بالمأمورية التى وجدوا من أجلها وهى خدمة الانسانية .

المدينة المنورة

المدينة المنورة ، أو مدينة الرسول ، واسمها طيبة ، وكانت تسمى قبل الهجرة يثرب ، ترتفع عن سطح البحر بنحو ٦١٩ متر ، وهى واقعة على طول ٣٩ درجة و ٥٥ دقيقة شرقا ، وعلى عرض ٢٤ درجة و ١٥ دقيقة من شمال خط الاستواء ، (أعنى على عرض خط دراو التى توجد فيما بين اسنا واسوان) ، ودرجة حرارتها فى الصيف تصعد الى ٢٨ درجة سنتجراد ، وتنزل فى الشتاء الى عشر درجات فوق الصفر نهارا ، والى خمسة تحت الصفر ليلا ، وكثيرا ما يرى فيها الماء متجمدا فى آنيته عند الصباح فى زمن الشتاء ،

واذا صح ما ذهب اليه بعضهم من أن كلمة يثرب محرفة عن الكلمة المصرية (إتريبس) كان لنا أن نفكر فى أن الذين بنوها انما هم العمالقة بعد خروجهم من مصر ، ولنا فى يهوديتهم ما يؤيد قول من ذهب الى أن موسى فى طريقه الى فلسطين ، أرسل فرقة من قومه لتكتشف له تلك الجهة ، فساروا اليها ، وبلغهم موته فبنوا مدينة اتريبس وأقاموا فيها . وعليه فعمران المدينة يبتدئ من سنة ألف وستمائة قبل المسيح أو ألفين ومائتين واثنتين وعشرين قبل


خريطة
المدينة المنورة
شمال
شرق
غرب
جنوب
الباب الشامى
الحرم الشريف
السوق
البقيع
قشلاقات العساكر
الشاهانيه
محطة المدينه
BOEHME & ANDERER, CAIRO.



الهجرة : وعلى ذلك يمكنني أن أقول أن لفظ طيبة ان كان مستعملا اسما لها من قبل الاسلام فلا بد أن يكون مصريا أيضاً .

والمدينة مركز لواء وكانت الى عهد قريب ملحقة بولاية الحجاز وجعلت الان متصرفية قائمة بنفسها (كما بلغني) وفيها عاملان كبيران يقومان بادارة شؤونها وهما: شيخ الحرم، والمحافظ، وهذا الاخير في يده السلطة العسكرية التي هي الان أهم السلطات في بلاد الدولة العلية . ويتبع المدينة قضاء الوجه، وقضاء ينبع، والكور، وتيماء، ودومة الجندل، والفرع، وذو الرمة، ووادي القرى، وقرى عرينه، والسياله، والرهط، وكحل، ومدين، وفدك، وخيبر . وفي المدينة وكيل لشريف مكة ينظر في قضايا العربان اسمه الشريف شحات .

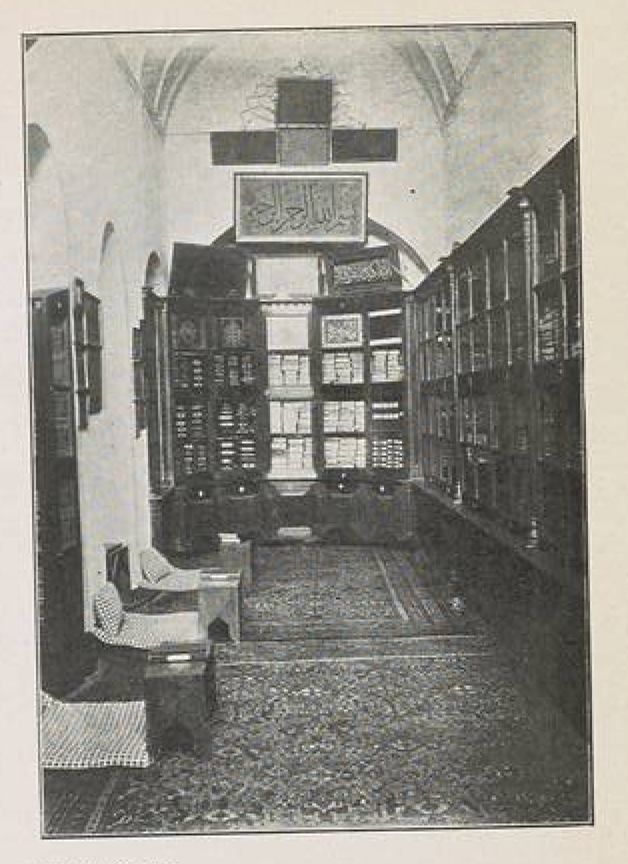
والمدينة مبنية في وسط واد شاسع يمتد الى الجنوب، واغلب مبانيها من الحجر المجلوب اليها من المحاجر القريبة منها . وفيها نحو ١٢ ألف بيت، وشكل الابنيه فيها هو بعينه ما رأيناه بمكة وجدة، لولا أن منازلها أصغر، وشوارعها أضيق، وخصوصاً ما كان منها حول الحرم الشريف، وكان يجب أن يكون حوله ميدان متسع يساعد على تنقية جو المدينة من جهة، وعلى سهولة الوصول الى الحرم من جهة أخرى . وأحسن شارع في المدينة غرب الحرم، ويسمونه بحارة الساحة وهي أطول حاراتها، وفيها أحسن مبانيها، وبها مكان المحافظة في قلعة على السور الداخلي . ومما ينبغي ذكره أني رأيت بهذه الحارة منزلا (للسيد هاشم) مشغولا باعمال الاويمة بما استوقفني أمامه باهتاً لجمال صنعته ودقتها، وهي من صناعة جاوه، وبكل أسف أقول ان هذه الصناعة البديعة قد انقطعت عن المدينة بالمرة . وفي هذه الحارة زقاق يدخل منه الى مقام سيدنا عبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان قد أتى الى المدينة قبل الاسلام لعمل له فمات بها، ودفن عند أخواله من بني النجار في بيت رجل منهم يقال له النابغة . وهذه الحارة تسمى الابواء، أو زقاق الطوال، وفيها منازل آل أسعد .

وأغلب حارات المدينة يسمونها لضيقها أزقة: منها في شمال الحرم، زقاق البقر، وزقاق الخياطين، وزقاق الحبس، وزقاق عنقيني، وزقاق السماهيدي، وزقاق البدور: وزقاق الاغاوات، وفي جنوبه زقاق ياهو، وزقاق الكبريت، وزقاق القماشين، وزقاق

حيدر ، و زقاق الحجامين ، و زقاق مالك بن أنس الخ .

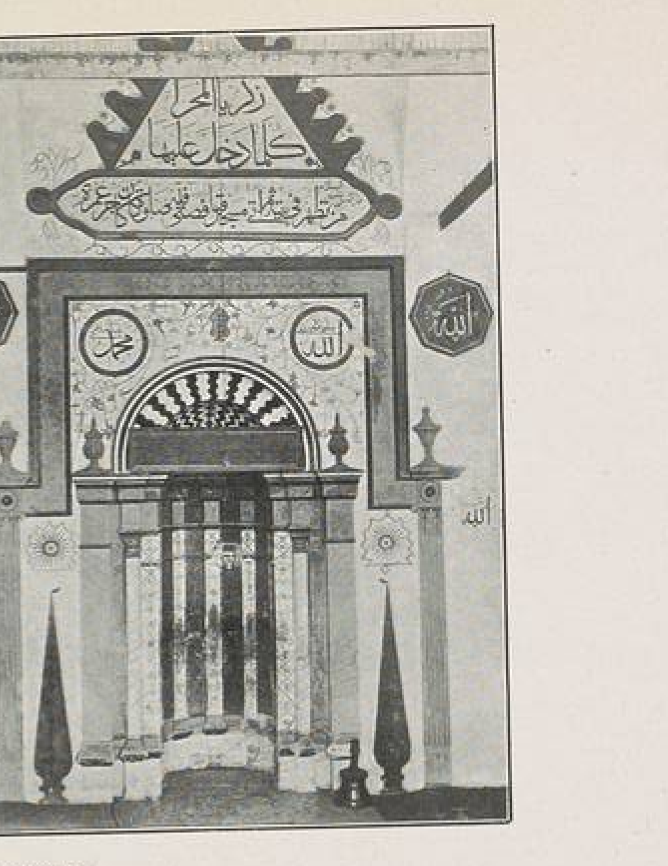
وعلى كل حال فحارات المدينة نظيفة وضيقها يساعد كثيرا على تلطيف الحرارة فيها زمن الصيف ، كما هو الشأن فى أغلب بلاد الشرق . وسوق المدينة يبتدئ من الباب المصرى الى الحرم الشريف فى شارع ضيق طوله ٥٠٠ متر تقريباً يقطعه على المارة تقابل جملين فيه مع بعضهما ، والحركة فيه تكاد تنحصر فى مدة الحج ، والموسم الرجبي : وهو موسم الزيارة الرسمية فى بلاد العرب . وتجارة المدينة مدارها على وارداتها الخارجية ، لا سيما واردات جاوه والهند والشام ، وعلى الخصوص فى الاقمشة القطنية والصوفية والحريرية والسبح والليف الابيض والحناء والبسط والسجاجيد والحنابل (الاكلمة) العجمية والهندية والمغربية والاناضولية ، واثمانها أغلى منها فى مكة بل و فى مصر ، وانما ابتياع الحجاج لها على سبيل البركة وسهولة الصرف فى هذه الجهات . وتجارة البلح فيها هى أكبر التجارات وأوسعها لان ضواحيها فيها كثير من البساتين وفيها نخيل كثيرة تنتج نحو سبعين صنفا من التمر وأحسنها البلح العنبرى ، ثم الحلبي ، ثم السكرى وهو أكثرها حلاوة ، ثم بلح السبح ، و يكثر نخله فى جهة الخيف بين المدينة والحمراء وكيفية تجهيزه : هى أن ينظم فى خيط ثم يلقى به فى الماء المغلى زمناً ما ثم يجفف فى الشمس . ولقد اشترينا منه شيئاً من دكاكين أقيمت خارج الباب المصرى بالمناخة ، وكان البائع يروج تجارته باحاديث يسردها ، و ينسبها الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فى مدح بعض أنواع البلح المتقدمة . فعجبت من أن القوم لا يستحون من الكذب على الرسول حتى وهم بين يديه الشريفتين ، وقلت له يا هذا ، انا نشترى منك بلحاً لا أحاديث وأوريته أن مصيبة المسلمين أساسها الجرأة فى التقول على الله ورسوله !! فاعتذر الرجل بجهالته قائلا انه أخذ هذا عن غيره من الباعة السابقين أو بعض المتمشيخين . و يبيعون البلح بالكيلة و وزنها ٦٠٠ درهم ، أما كيلة الارز فزنتها ٣٠٠ درهم . والسمن يبيعونه بالرطل وهو ١١ أو ١٢ أوقية ، والرطل ٢٠٠ درهم ، والاردب ١٢٠ أقه .

و فى المدينة كتبخانات كثيرة أحسنها كتبخانة شيخ الاسلام عارف حكمت ، وهى قريبة من باب جبريل الى جهة القبلة ، وهذه الكتبخانة آية فى نظافة مكانها وحسن تنسيقها



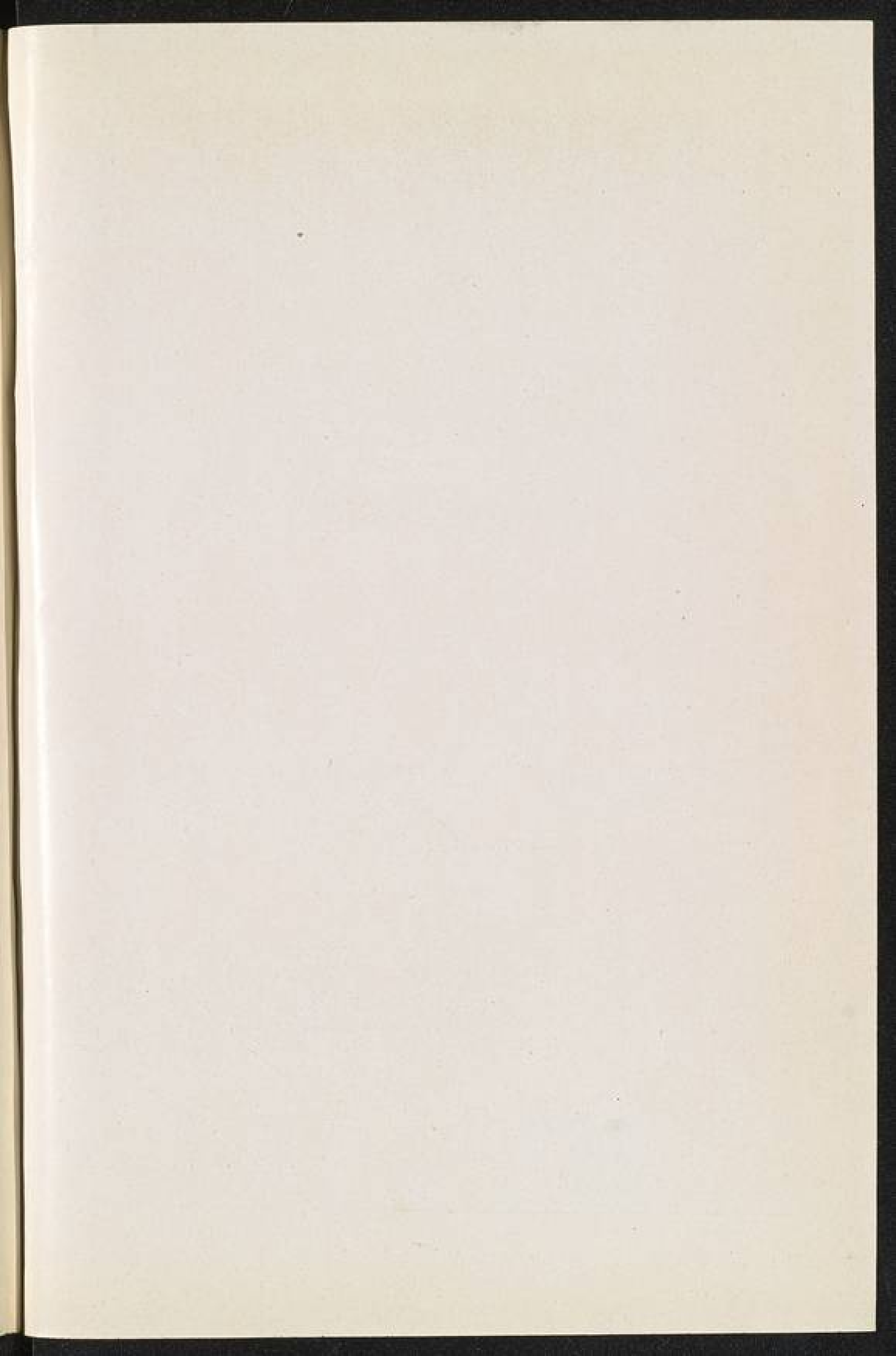
BOEHME & ANDERER, CAIRO.

كتبخانة السلطان محمود بالمدينة المنورة



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

محراب مسجد قبا



وترتيب كتبها، وأرضها مفروشة بالسجاد العجمى الفاخر ، و فى وسط حوشها نافورة من الرخام، فيها حنفيات للوضوء، وفيها كتب ثمينة جدا لا يقل عددها عن ٥٤٠٤ كتاب . ولقد رأينا بها شيئاً من غرائب الصناعة النادرة فى بابها : وهو كتاب أشعار فارسية مكتوب بالخط الابيض الجميل لملاّ شاهى ، و بينا نحن نعجب من جودة الخط واتقان الصناعة و نظافتها وحسن تنسيق حروفها على صغرها ودقتها ، لفت نظرنا حضرة مدير الكتبخانة الى أن حروف الكتابة انما هى ملصوقة على الورق . فتأملناها فوجدناشيئاً يبهت الطرف لرؤيته و يعجز اللسان عن نعته ، خصوصاً عندما أخبرنا أنهم كانوا يكتبون هذه الكتابة ثم يفصلونها عن ورقتها بظفرهم ، ثم يلصقونها على ورقة أخرى !!!

و فى باب السلام كتبخانة للسلطان محمود ومقدار الكتب التى فيها ٤٥٦٩ كتاب وهى وان كانت أصغر من كتبخانة عارف وأقل منها نظاما الا أنها جميلة ومرتبة . وفيها كتبخانة للسلطان عبد الحميد الاول بها ١٦٥٩ كتاب ، وفيها أيضا كتبخانة بشير أغا ، فى زقاق الخياطين بها ٢٠٦٣ كتاب وقد بلغنى أن هناك كتبخانات أخرى منها واحدة فى رباط عثمان حافلة بنفائس كتب مذهب مالك ، و يقدر مجموع هذه الكتب بثلاثين ألف كتاب من الكتب النادرة المثال . ولو جمعت كل هذه الكتب فى دار واحدة وعمل لها نظام مخصوص لكان ذلك أنفع والفائدة منه أكبر .

و فى المدينة جريدة اسمها (المدينة المنورة) تصدر باللغة التركية والعربية على مطبعة البالوزه كلما كان هناك داع لصدورها ، ومديرها حضرة الفاضل الشيخ محمد مأمون ، وكانت تصدر مدة وجود الجناب العالى بها، شارحة حركاته اليومية ، وناشرة كل ما كان يقدم لذاته السنية من المدائح نظماً ونثرا ، ومن ضمن ما رأيت فيها قصيدة لحضرة مديرها تهنئة للجناب العالى بقدومه قال فى مطلعها

البدر فى أفق العلياء قد طلعا * وكوكب السعد فى اسعاده سطعا

وليس فى المدينة من المدارس ما يستحق الذكر ، الا أن فيها ١٧ مكتباً لتعليم مبادئ العلوم البسيطة ، والذى يدرس فى الحرم شيء بسيط من الفقه والتفسير .

وفى المدينة حمامان تركيان أحدهما داخل المدينة: وهو من عمل السلطان سليمان القانونى والثانى بالمناخه . وفيها ٨ تكايا أهمها التكية المصرية، والباقى يسمونها رباطات، لهامرتبات قليلة لا تفى بحاجة من يسكن فيها من الفقراء والمعوزين

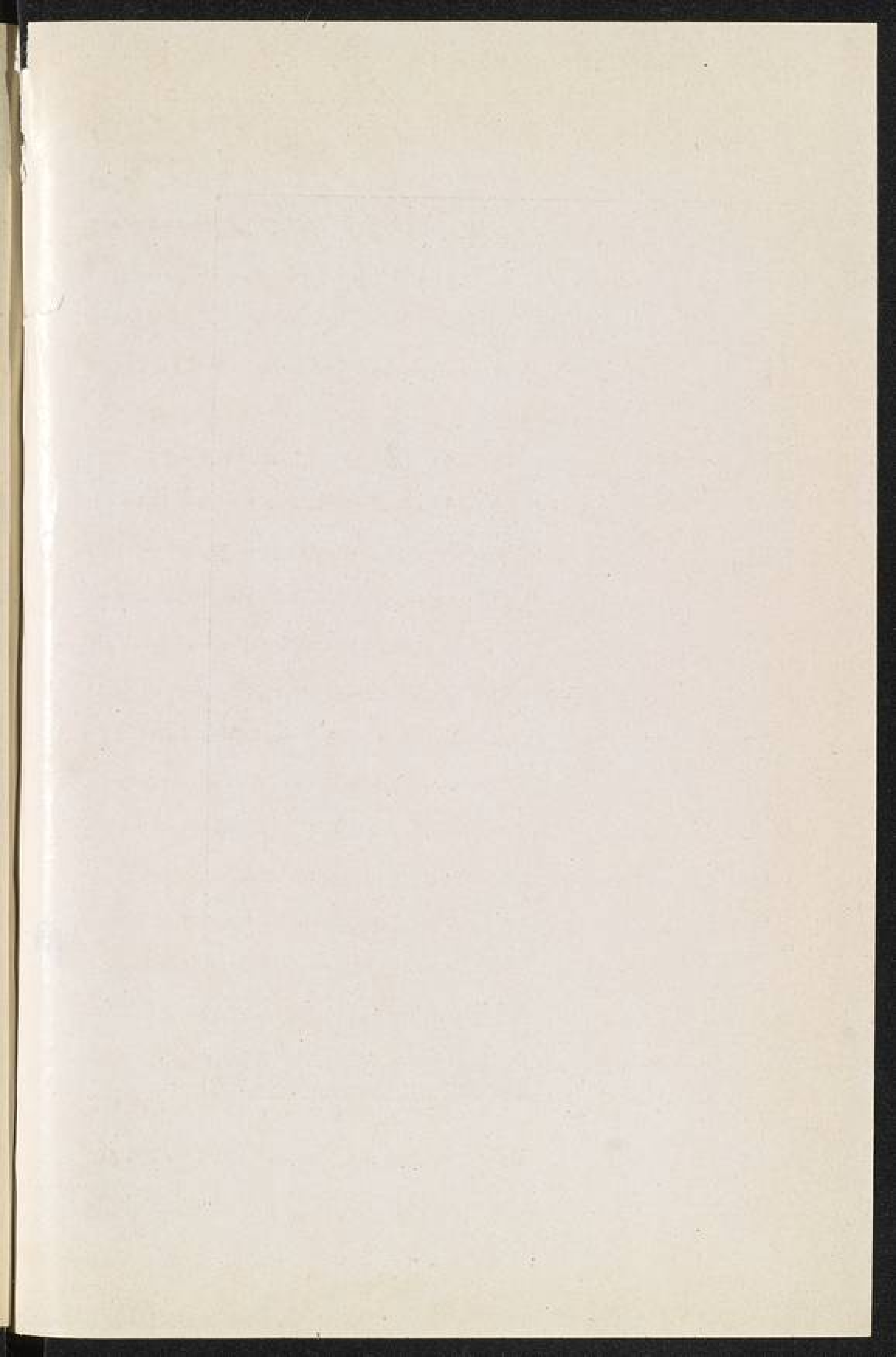
وللمدينة المنورة حرم مثل حرم مكة يبلغ قطر دائرته نحو اثنين كيلومتر، ولا يجوز لاحد الصيد فيه اجلالا له وتعظيما .

وفى المدينة وضواحيها مزارات كثيرة أشهرها مسجد قباء ، ومسجد سيدنا حمزة ، والبقيع : أما مسجد قباء فيبعد عن المدينة بمسافة خمسة كيلومترات ، وهو أول مسجد بنى فى الاسلام ، بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنوب الغربى للمدينة عند دخوله اليها فى هجرته، وقد جدد بناءه السلطان عبد الحميد الاول، وبوسط صحنه قبة أقيمت على مبرك ناقته صلى الله عليه وسلم حين قدومه اليها فى هجرته من مكة . وأما مسجد سيدنا حمزة فانه يوجد فى شمال المدينة فى وادى أحد : وهذا الوادى مشهور بالواقعة التى حصلت بين المسلمين والمشركين فى ١٥ شوال سنة ٣ للهجرة ، وأبلى فيها المسلمون بلاء حسناً ، واستشهد فيها سيدنا حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم وكسرت فيها رباعية النبى اليمنى وشج وجهه وكلمت شفته السفلى ، ودخلت حلقتان من مغفره فى وجنته: وقد ورد عن عائشة رضى الله عنها أن أبا عبيدة بن الجراح نزع احدى الحلقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنيته ، ثم نزع الاخرى فسقطت ثنيته الثانية ، فكان ساقط الثنيتين . وهناك قبة يقال لها قبة السن فيها حجر به حفرة صغيرة يزعمون أنها المكان الذى سقط فيه السن الشريف ؛ وقد كان أهل المدينة نقلوا بعد انتهاء هذه الواقعة بعض قتلاهم لدفنهم فيها ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم قائلا : « ادفنوهم حيث صرعوا » . وعليه فقد دفن حمزة فى مصرعه الذى عليه الى الآن قبة يقال لها قبة المصرع ، شرق مسجده الحالى الذى نقلت جثته اليه فيما بعد لما عبث السيل بقبره الاول . ومن حوله قبور الشهداء الذين قتلوا فى هذه الواقعة وعددهم نيف وسبعون . وفى نهاية الوادى الى الشمال جبل أحد وهو جبل صخرى من الجرانيت، وهو وان كان من السلسلة الجبلية التى تخترق بلاد العرب الا أنه يكاد يكون



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

البقيع وهو جبانة المدينة المنورة وفيه قبة سيدنا عثمان على اليسار وعلى يمينها قبة الامام مالك
ثم قبة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ثم قبر سيدنا ابراهيم بن النبي ثم القبة الكبرى وفيها قبرا
سيدنا العباس وسيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهم اجمعين



منفصلا عنها وطوله من الشرق الى الغرب نحو ستة كيلومترات .

والبقيع له عند المسلمين مكانة عظيمة ويقال له بقيع الغرقد ، لانه كان يكثر فيه هذا النوع من الشجر ، وبه دفن نحو عشرة آلاف من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ، وكثير من آل بيت النبوّة صلوات الله عليهم : منهم سيدنا على زين العابدين بن سيدنا الحسين وولده محمد الباقر وولده جعفر الصادق ، والاخيران فى قبة سيدنا العباس . وكان بالبقيع قباب كثيرة هدمها الوهابيون .

ومن مزارات المدينة المباركة مسجد الراية ، ومسجد الفتح ، ومسجد القبلتين ، ومسجد السُّقيا ، ومسجد الغمامة (بالمناخة) ، ومسجد على (فى طريق قباء) ، ومسجد المائدة (أمام البقيع من جهة الشرق) ، ومسجد الاحزاب (وراء جبل سَلْع الذى هو على يسار الخارج من الباب الشامى) ، ثم مسجد عروة .

وأهل المدينة يشربون من آبار كثيرة منها : بئر الاعواف ، وبئر أنس بن مالك ، وبئر رومة التى اشتراها عثمان بن عفان لشرب المسلمين منها فى صدر الاسلام . وفيها بئر القويم ، وبئر العباسية ، وبئر صفية ، وبئر البويرة ، وبئر فاطمة ، وبئر عروة . وكان أهل المدينة فى السابق يهدون من ماء البئرين الاخيرين للملوك وكبار المسلمين . وفى قباء بئر يسمونها بئر الخاتم ، وهى بئر اريس التى وقع فيها خاتم النبى صلى الله عليه وسلم من عثمان بن عفان وهو خليفة ، وكانوا الى ذلك الوقت يختمون به على مكاتباتهم ، وكان نقشه (محمد رسول الله) .

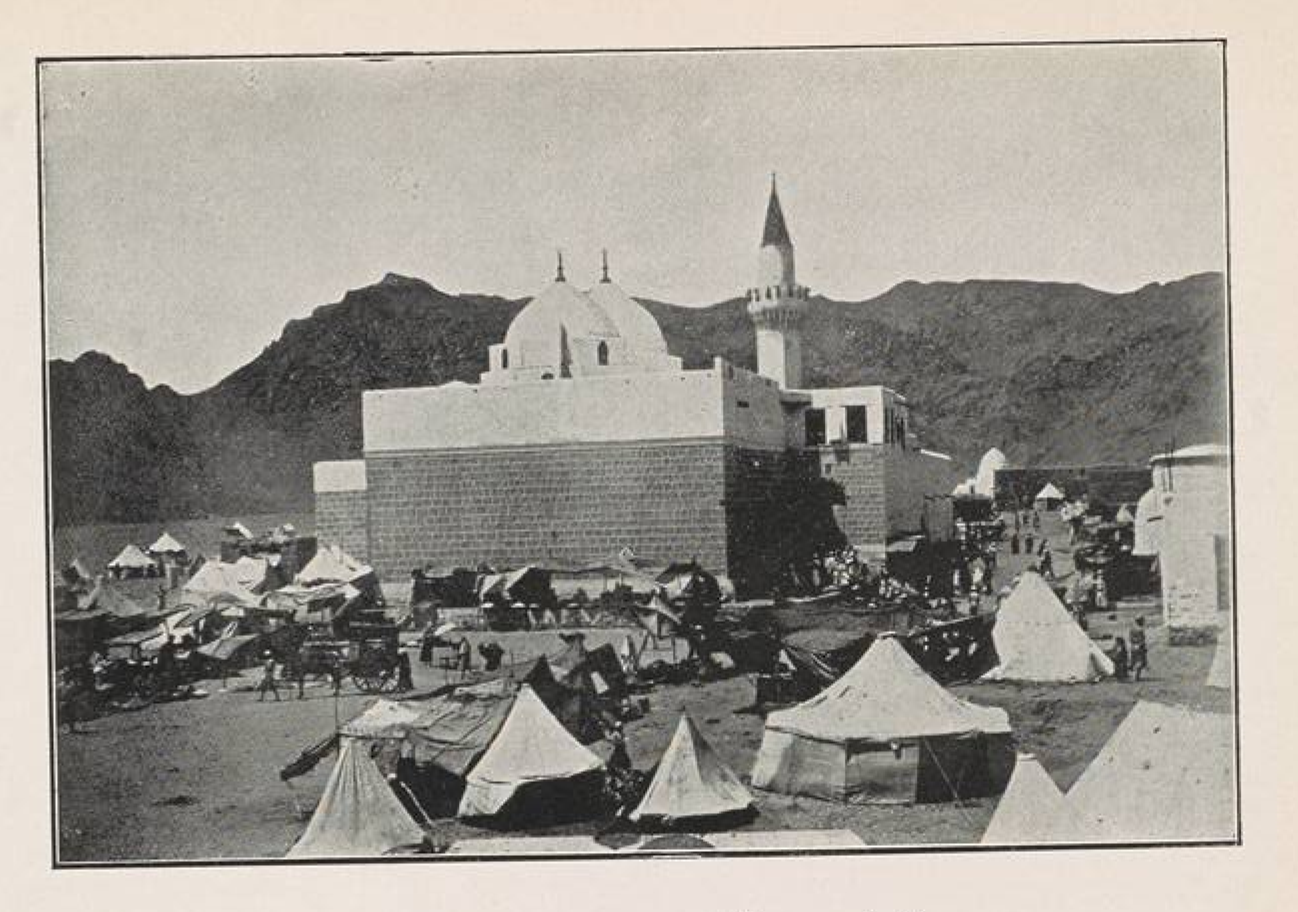
وماء المدينة الذى عليه مدار سقياها من العين الزرقاء التى توجد غربى مسجد قباء ، وماؤها عذب لذيذ : وسميت بالزرقاء ، نسبة الى مروان بن الحكم الذى أجراها بأمر معاوية رضى الله عنه وقت أن كان عاملا له على المدينة ، (وكان يسمى الازرق لزرقة عينيه) ، وهى موضع عناية كل الملوك والسلاطين الى هذا الزمان . ويمد ماء هذه العين مجرى مأخوذ من عين فى قباء أيضاً يسمونها عين النبى ، وماؤها يسير الى المدينة فى قناة مبنية بناء متينا . وقد تفرع من هذا المجرى فروع كثيرة فى جهات المدينة ، وبنى لها خزانات تنزل عن سطح الارض بنحو عشرة أمتار علاً منها

السقاءون الماء ويوزعونه على مساكن المدينة . وقد ينزل الناس بواسطة سلالم من حجر الى هذا المجرى فيملئون جرارهم من حنفيات مثبتة فيه، وبهذا ترى أن مياه هذه العين نظيفة وبعيدة عن التلوث وهو السبب الوحيد فى عدم تعرض المدينة غالبا الى الاوبئة التى تحصل فى الجهات الاخرى من بلاد العرب التى لم يعتن بالماء فيها: مثل مكة ومنى وجدة وينبع .

وهذه العين كان يقوم بتعميرها امراء المسلمين . وقد تخربت فى أوائل الحكم العثمانى ، ومكث أهل المدينة زمنا طويلا وهم فى ضيق شديد حتى عمرها السلطان سليمان سنة ٩٣٢ . ثم جرفها السيل سنة ٩٩٠ فأمر بتعميرها السلطان مرادخان، واشترى بئر الغربالى وألحقها بها . وفى سنة ١١١١ أمر السلطان مصطفى العثمانى فاشتريت بئر العتقد والحقت بها أيضاً . وما زالت حتى بناها السلطان سليم سنة ١٢١٢ . ولما حاصر الوهابيون المدينة خربوها ، فاصلحها محمد على باشا ثم جددها السلطان عبد الحميد بما صارت معه عظيمة الفائدة كبيرة المنفعة جزاهم الله خيرا .

وفى ضواحى المدينة عدا العين الزرقاء عين كهف، غربى جبل سلع، وعين الخيف وتجرى من عوالى المدينة، وعين الوادى بجوار قبر حمزة، ثم عين السلطان وهى مالحة وتجرى من قباء الى المدينة، فتطهر بالوعاتها ومجاريها ثم تسير الى بساتين المدينة من خارجها .

ويوجد فى المدينة بالجهة الشمالية حدائق كثيرة بالقرب من السور: منها حديقة الداوودية، وحديقة الزكى، والسبيل ، وبضاعة ، وبُضيعة، والطرناوية ، والفيروزية، والزينية، والدرويشية ، وبئرحاء، والتوانية، والجودية، والكاتبية، والسمانية . وفى داخل السور الحدائق الرومية . وفى الجهة الشرقية بساتين وكروم كثيرة من النخيل . وفى جهة قباء وذى الحليفة والعوالى شئ كثير من المزارع والبساتين، والاخيرة مشهورة بثمرها . ويزرع فيها كثير من الخضروات مثل الكرنب والقنّبيط (القرنبيط) والكرات أبوشوشة والخرشوف والبامية والملوخية والباذنجان والقوطة والقرع واللوبيا والفاصوليا والرجلة والسبانخ والخبيزة والكرفص والبقدونس، ومن الفاكهة البطيخ والقاوون والخوخ والرمان والعنب والموز والتمر والليمون والبرتقال والليم (وهو نوع من الاترج كبير الحجم) .



مسجد سيدنا حمزه وحوله زوار المدينة



وحول المدينة وديان كثيرة . و ينزل فيها كثير من مجارى السيول التى تسير بها الى بساتينها وخصوصاً فى الجهات المنخفضة منها . وقد ترتفع مناسيب هذه السيول فى بعض السنين فتضر بالمدينة وضواحيها ضرراً بليغاً . و فى خلافة سيدنا عثمان فاض وادى مهزور فيضانا كاد يقوّض أركان المدينة فأمر ببناء سد بن عند بئر مدرى ، وحوّل بذلك مجرى السيل الى وادى بطحان . و فى سنة ١٥٠ نزلت السيول بكثرة على المدينة فأزعجت أهلها وأغرقت صدقاتها ، وكان ذلك فى خلافة أبى جعفر المنصور فأمر ، فبنيت السدود فى أعالى المدينة فتحولت السيول الى جهات أخرى . وفى سنة ٧٣٤ فاض وادى القناة فأغرق الجهة الشمالية من المدينة الى جبل أحد ، وانقطع الناس بسببه عن زيارة سيدنا حمزة ستة شهور . و فى سنة ١٣٢٨ نزل السيل الى المدينة وتكونت مياهه عند جبل أحد و بلغ عمقها نحو نصف متر .

وأهل المدينة يبلغ عددهم ستين ألفاً منهم كثير من المجاورين الاجانب ، وأكثرهم من الهنود والاتراك والشوام والمغاربة والمصريين . ومن أشهر عائلات المدينة عائلة أسعد وهم سادات ، وعائلة برّى وهم مغاربة ، وعائلة السمهودى وهم مصريون . ولكبار أهل المدينة مرتبات من الدولة ، ولكثير منهم مرتبات من الحضرة الخديوية . وأغلبهم يعيش من وراء خدمة الحرم وخصوصاً فى الموسم ، ومنهم كثير من المرشدين الى محالّ الزيارة و يسمونهم مزورين ، وهؤلاء يؤدون فى المدينة وظيفة المطوفين فى مكة . ومنهم من يعيش من التجارة البسيطة ، والمصريون يتجرون فى الحبوب كالقمح والعدس و يأتون بها من طريق القُصير .

وأهل المدينة يعبرون عن الجهات بالشام للشمال ، والبحرى للغرب (لانه الى جهة البحر) والشرقى للشرق ، والقبلى للجنوب (لانه جهة القبلة) . ومنهم أخذ المصريون هذه التسمية واستعملوها فى غير محلها فى اطلاق القبلى على الجنوب ، لان القبلى عندهم انما هو الشرقى الجنوبى كما لا يخفى .

ومن عادات أهل المدينة الرياضة والتنزه فى البساتين خارج المدينة ، فيخرجون اليهافى يوم الثلاثاء والجمعة بعد صلاة العصر جماعات جماعات و يعودون فى المساء ، وقد يخرجون الى هذه الرياضة من أول اليوم ومعهم غذاؤهم فيمضون نهارهم فى أحد البساتين التى بضواحى المدينة

فى سرور وحبور : و يسمون هذه الفُسْحة مِقْيالا .

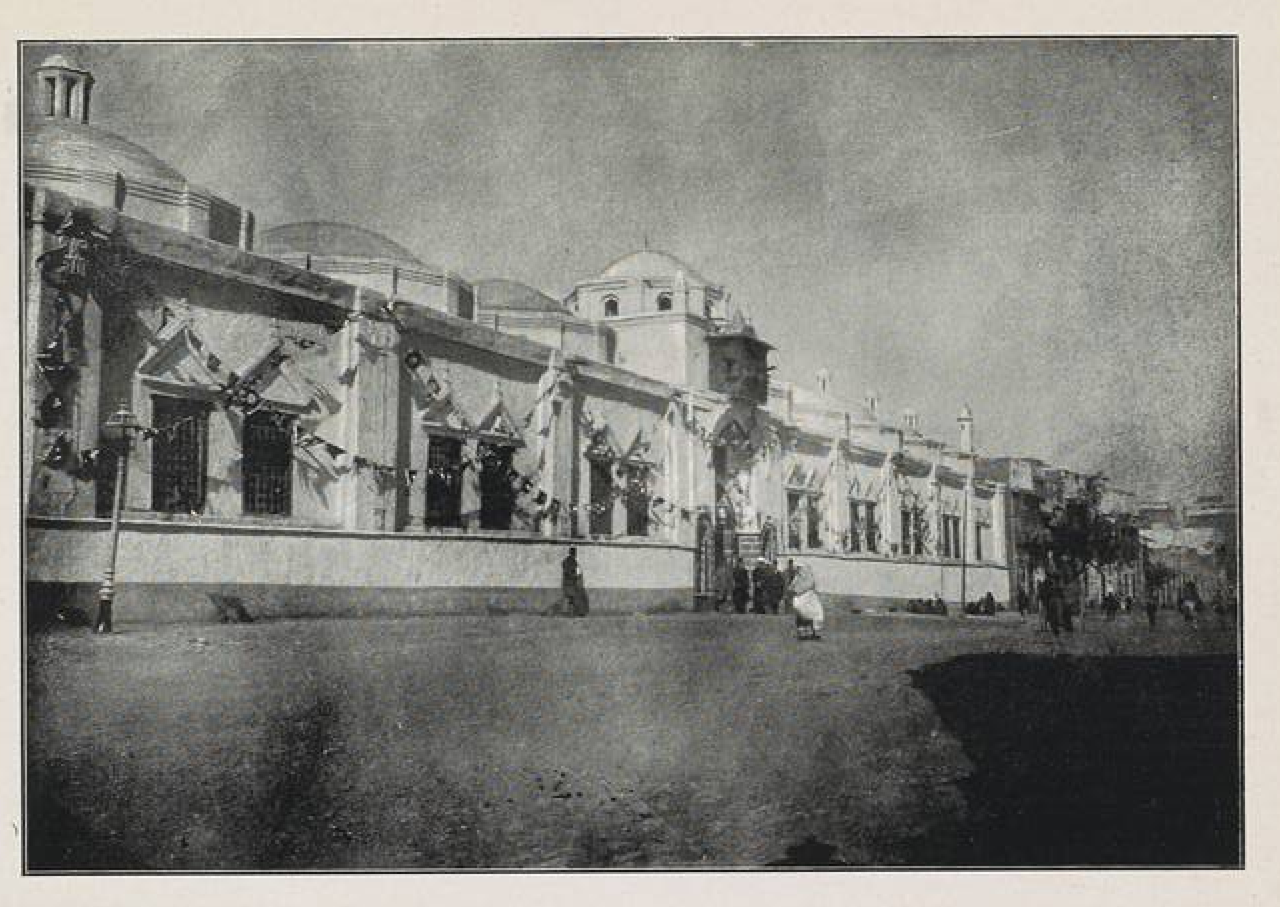
ومن عاداتهم القديمة أن كل واحد منهم يُقدّم كل سنة فى ليلة السابع والعشرين من ذى القعدة مقدارا من الحنطة على سبيل الهدية الى الحجرة الشريفة ، و بعد أن يغسلها و ينظفها جيدا يضعها فى كيس جديد من القماش اللطيف الابيض، حتى اذا وصل الى الباب الذى فى المقابلة الشريفة، استغاث برسول الله، ثم وضع الكيس بكل أدب داخل الحجرة الشريفة . وهذه الاكياس يأخذها خدمة الحجرة المطهرة، و يهدون منها الى عظماء المسلمين على سبيل البركة .

ومن عاداتهم استقبال الزوار من خارج المدينة من غير سابقة معرفة بهم . وكل واحد منهم يدعو الى ضيافته ما استطاع من ضيوف رسول الله، فيأتى بهم الى منزله و يمهد الفراش و يجهز الطعام اللازم لهم، و يقضى مدة اقامتهم فى المدينة وهو فى خدمتهم بصدق واخلاص، غير ملتفت الى أى أجر يصيبه منهم: وان فعلوا فليس على كل حال الا أقل مما يجب بالنسبة لهم . ومن أكمل عاداتهم أن ربة المنزل مهما بلغ من شأنها هى التى تشتغل بداخليتها، وتقوم بطهى الطعام بنفسها ولا تباشر ذلك الا وهى على وضوء تام .

ومن عاداتهم فى مواليدهم ان الطفل اذا مضى عليه أربعون يوما غسلوه ونظفوه وألبسوه ملابس جميلة بيضاء، و بعد أن يعطروه يأخذه أهله وهم فى أحسن زينة لهم الى الحجرة الشريفة، فيأخذه الخَدَمة و يضعونه فيها و يغطونه بستارتها ثم يدعون له بخير، و بعدها يُسلّم الولد الى أمه فتأخذه فرحة هاشة باشة .

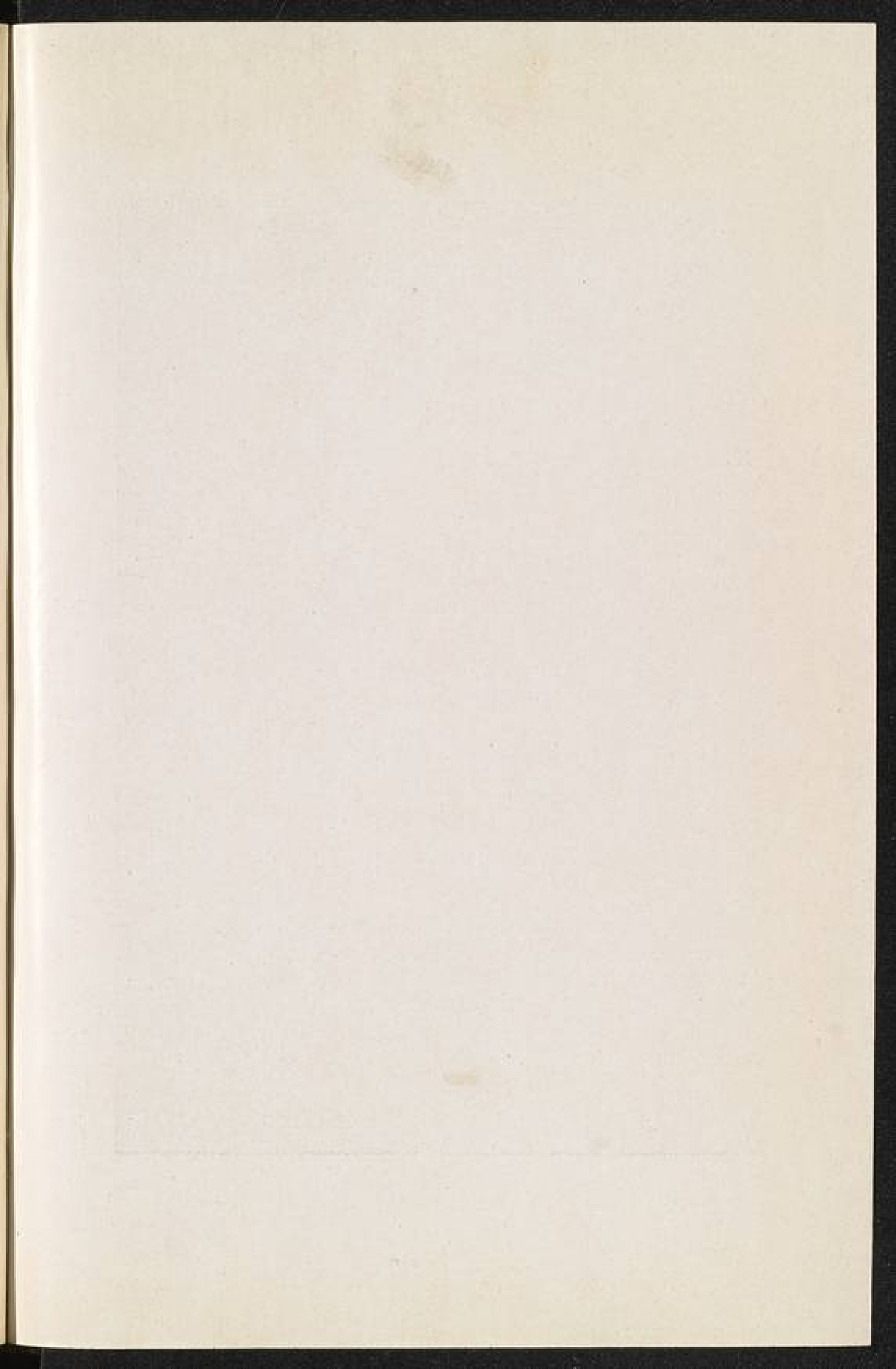
ومن عاداتهم أنهم لا ينوحون اذا مات لهم ميت ولا يبكون، بل يأخذونه و يدخلون من باب الرحمة حتى يصلوا به الى الحجرة الشريفة، فيُصلّون عليه ويخرجون به من باب جبريل الى البقيع، فيدفنونه مكبرين مصلين على الرسول، وهنالك يقف صاحب الميت على باب الجبانة فيعزيه الناس : وهى عادة قديمة من يوم وفاة سيدنا الحسن بن على رضى الله عنه، فانه بعد دفنه وقف أخوه سيدنا الحسين رضى الله عنه على باب البقيع واستقبل تعازى المعزين .

ومن عاداتهم انهم يخرجون يوم الخميس نساء ورجالا بعد صلاة العصر الى البقيع، و يلقون



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

التكية المصرية بالمدينة المنورة



على القبو رشيئاً من الرياحين وهى سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ومن عاداتهم فى شهر رمضان انهم يتوجهون الى الحرم قبل المغرب بنحو ساعة و يجلسون حول الحجرة الشريفة، و يمضون بقية نهارهم فى قراءة القرآن الشريف والذكر والصلاة على الرسول . فاذا ضرب مدفع الافطار يكون حضر لكل واحد منهم صينية فيها افطار خفيف كالفطير والجبن والزيتون والبلح والحلوى وما أشبه ذلك فيفطر كل منهم مع من يدعوه الى طعامه من الغرباء، ثم يعطى بقية أكله الى من هنالك من الفقراء . و يقضون فى هذه الفترة نحو ربع ساعة، و بعدها تقام الصلاة فيصلون المغرب ثم يعودون الى منازلهم مع من يصادفهم من الضيوف، فيتعشون ثم يعودون الى المسجد لصلاة العشاء، و بعدها تبتدئ صلاة التراويح: فينقسم المصلون الى خمسين أو ستين جماعة، لكل منهم امام مخصوص، يضعون فى مقابلته شمعدانين بهيئات مختلفة يدل كل واحد على ما اذا كان الامام يطول فى صلاته أو يتوسط أو يقصر، فيصلى كل انسان وراء من يريده، و بعد ختام التراويح يجرى احتفال الشمع : ذلك انهم فى رمضان يخرجون ما فى خزائن الحجرة الشريفة من الشمعدانات الذهبية والفضية، فيستعملونها امام هذه الائمة كما بينا، و بعد الصلاة يعيدونها الى الحجرة الشريفة باحتفال كبير . و يتشرف بحمل هذه الشمعدانات من يحضر من الامراء والاعيان بدعوة خصوصية ترسل اليهم من شيخ الفراشة النبوية . وصلاة الصبح فيها شيء من ذلك .

أما صلاة العيد فيصليها فى المسجد النبوى امامان بجماعتين واحد شافعى والثانى حنفى، و بعد الصلاة يتشرف الجمع بزيارة السيد الرسول ثم يعودون الى منازلهم و يقضون أيام العيد فى تزاور وسرور وحبور .

وكانت المدينة فى القرون الثلاثة الاولى للهجرة فى غاية الرقى الادبى والمادى . وكانت بساتينها تملأ الفضاء المحيط بها وعلى الخصوص من الشمال والشرق والجنوب . وكان للقوم بها رياض زاهرة، وقصور فاخرة، فى وادى العقيق الذى كان يغزر رماؤه، و يبهر رواؤه، وتزهو أرجاؤه، و يكثر زهره، و يفوح عطره، و يجنى ثمره . وكان أغلبها لازواج رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن أماكنه المشهورة الزُّغابة، وأضم، والغابة، وحَصير، والخليقة

والجَنْجانة، وكلها كانت لعبدالله بن الزبير وبنيه . ثم حَمراء الاسَد وكان بها قصور لغير واحد من القرشيين ، وخاخ وكانت للعلويين وفيها يقول الاحوص :

لها منزل بروضة خاخ * ومصيف بالقصر قصر قباء

ومن أشهر أماكنها ثَنِيّة الشريد، والغراء، والمُعَرَّس، والبيداء . وكان فى جميعها منازل الاشراف من قريش، وخصوصاً على سفح جبل عير على يمين المقبل من مكة . وكان فى الجهة الاخرى مكان اسمه الجَمّاء، وتجاهها فى ضيق حَرّة الوَبْرة على أربع أميال من المدينة الى صُفَيْرة ، أرض عروة بن الزبير وبها قصره المشهور بقصر العقيق، وبئره المشهورة باسمه والتى فيها يقول الشاعر:

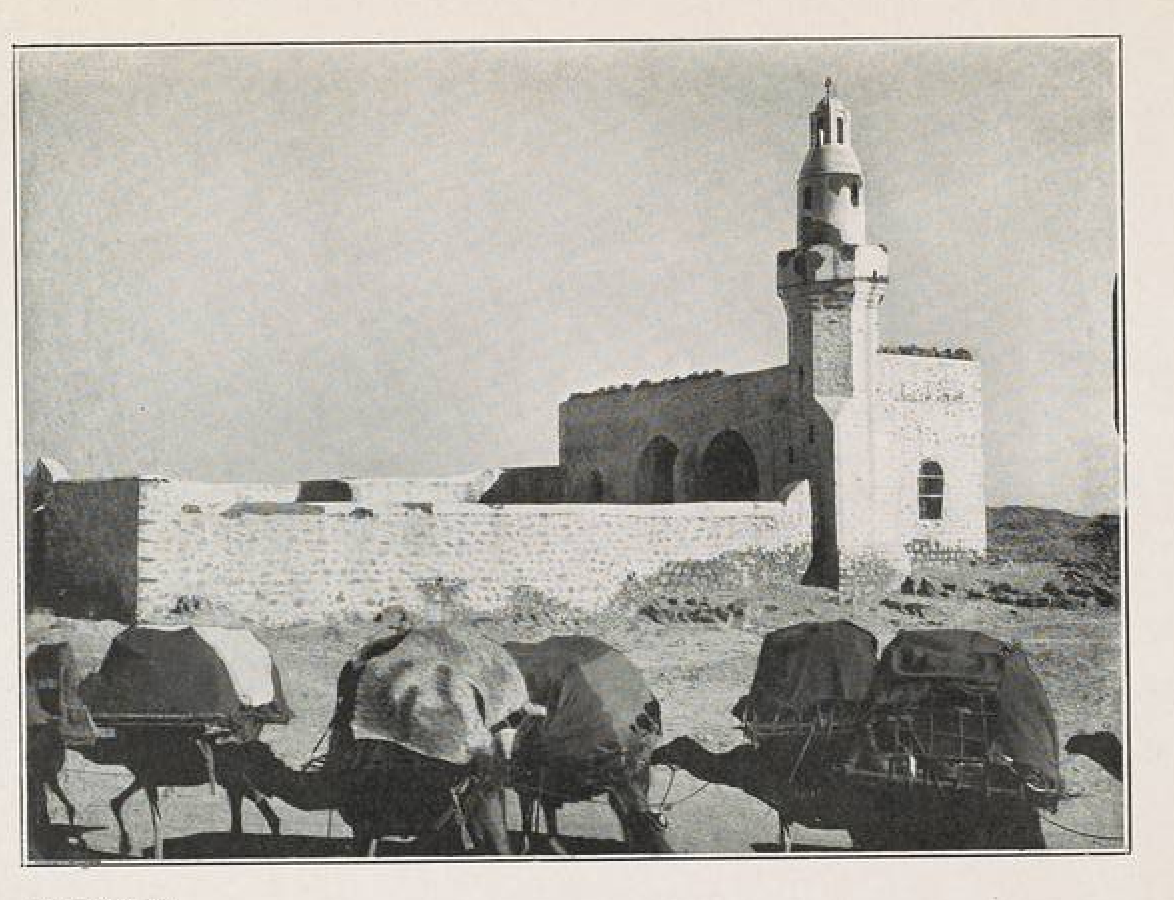
كفنونى ان مت فى درع أروى * واستقوا لى من بئر عروة ماء

وكان يوجد أسفل هذا القصر، تجاه الجَمّاء ، مكان يقال له العَرْصَة وبه كان قصر سعيد ابن العاص الذى يقول فيه أبو قطيفة :

القصر ذو النخل فالجماء بينهما * أشهى الى القلب من أبواب جيرون

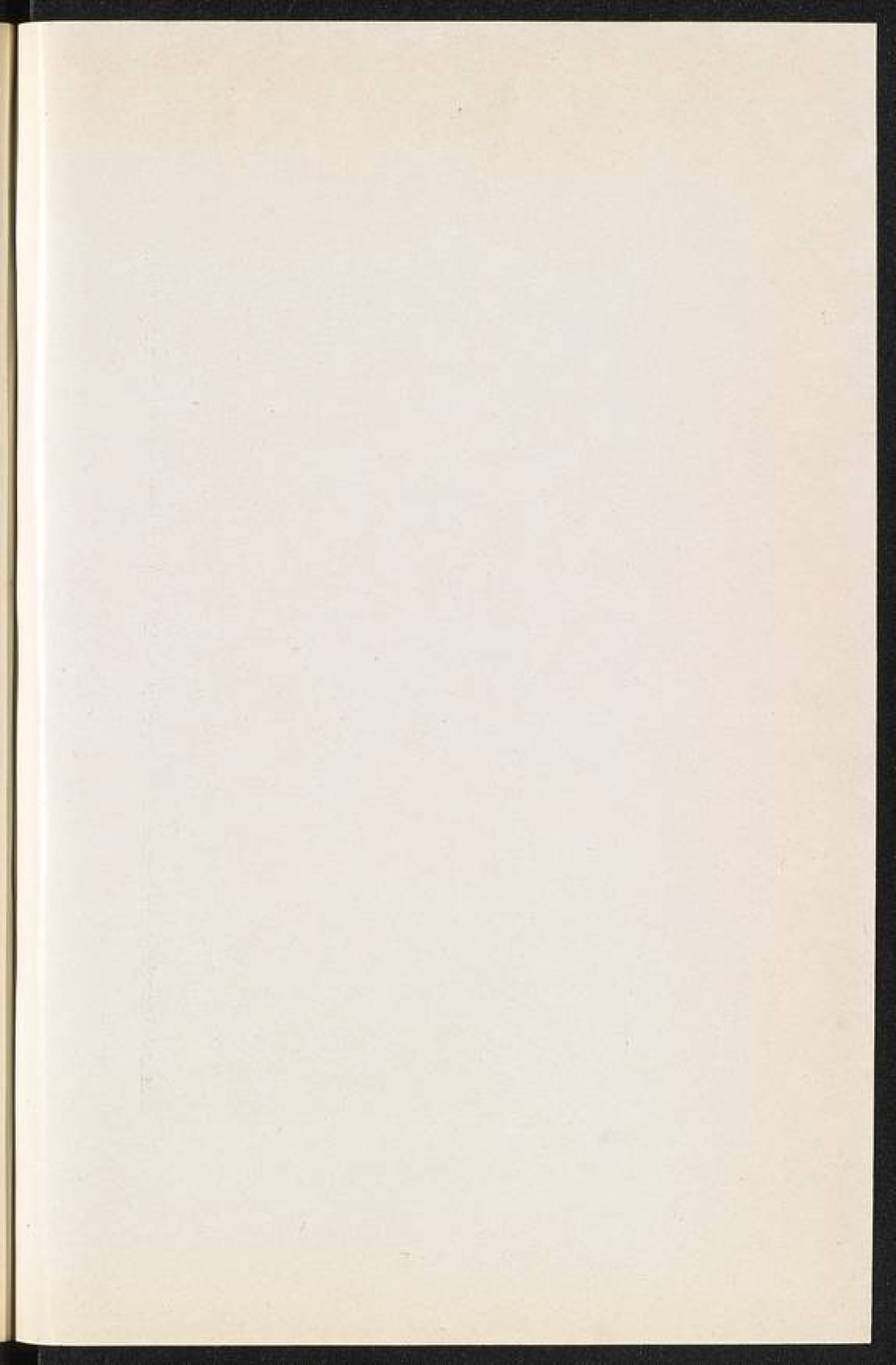
ويقال ان آثار هذا القصر موجودة الى الآن . وكان سعيد عاملا لمعاوية على المدينة وكان هذا القصر فى أيامه آية فى جماله وفخامته ، بل كان آية من آيات القرن الاول الهجرى ، وأعجوبة من أعاجيبه ، حتى فضله الشاعر عن أبواب جيرون (دمشق) التى كانت فى ذلك العهد عاصمة الخلافة ، ومكان فخامتها وأبهتها . وهى الى اليوم آية من آيات الله فى جمالها وبهائها : لان القادم عليها من الجنوب يخترق الغوطة وما أدراك ماهيه ، جنة زاهيه . واذا قدمها من الغرب يخترق المرج وهو نزهة الزائرين، وبهجة الناظرين .

ومن القصور التى كانت مشهورة بوادى العقيق قصر عاصم ، وقصر محمد بن عيسى ، وقصر يزيد بن عبد الملك بن المغيرة ، وقصر جعفر بن سليمان ، وقصر أبى هاشم ، وقصر عَنْبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وقصر عنبسة بن سعيد بن العاص ، وقصر عبدالله بن أبى بكر بن عثمان بن عفان ، وقصر خارجة ، وقصر عبدالله بن عامر ، وقصر مروان بن الحكم . وآثار هذه القصور يوجد منها الى الآن شئ كثير يدل على عظمة وادى العقيق وفخامته . وفى ذلك يقول الشاعر:



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

مسجد غزوة بالمدينة المنورة



ألا أيها الركب المخثون هل لكم * بأهل عقيق والمنازل من علم
فقالوا نعم تلك الطلول كعهدها * تلوح وما يغنى سؤالك عن علم

و يظهر أن أول من شيد البناء فى المدينة هو عثمان بن عفان: فقد شيد داره فيها بالحجارة والكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر، وكان له بوادى القرى وحنين من الضياع ماقدروه بعد موته بمائة ألف دينار. وفى أيامه اقتنى أصحابه بالمدينة الضياع الواسعة والدور الفسيحة، وابتنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق فرفع بناءها ووسع فناءها وجعل فى أعلاها شرفات، وابتنى المقداد داره بالجرف على أميال من المدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن.

وفخامة العمارة بالمدينة لم تبتدئ بها الا بعد الخلفاء الراشدين: لان الخلافة لما آل أمرها الى الامويين أخذوا يهيلون العطايا على قريش وعلى سادات الانصار والمهاجرين بالمدينة حتى يستميلوهم اليهم أو على الاقل يشغلونهم بأنفسهم عنهم: فكثرت ثروتهم وغزرت مادتهم وأخذوا يقلدون بنى أمية فى سعة العيش ورفه الحياة فى المأكل والملبس والمسكن: فشيدوا العمارات الفخمة وحفروا الآبار فى تلك الصحراء وغرسوا فيها البساتين والرياض وسيروا اليها الجمَّاوات (جمع جمَّاء وهى مجرى الماء الغزير)، وصيروا المدينة روضة زاهرة وجنة باهرة، وما زالوا فى رفاهة هذا العيش حتى اذا ضعفت الخلافة فى مبدأ القرن الرابع الهجرى انقطعت أعطياتهم فتغير حالهم، وانقشعت سحابة رفههم، وسبحان من له الدوام.

وضعفت المدينة بضعف الخلافة العربية فصارت عرضة لهجمات الاعراب وغزوات البدو، فقام عضد الدولة أبو شجاع وزير الطائع لله وبنى سوراً حول المدينة سنة ٣٦٠. وبقى هذا السور حتى تداعت أركانه فى منتصف القرن الخامس فبناه الامير جمال الدين وزير صاحب الموصل وصاحب رباط الاعجام بالمدينة. و زاد فيه نور الدين بن زنكى سنة خمسمائة وثمان وخمسين أثناء عمارته للحجرة الشريفة. ثم بناه الملك الصالح بن قلاوون سنة ٧٥٥، ثم السلطان قايتباى سنة ٨٨١، ثم السلطان سليم العثمانى سنة ٩٣٩. وعمَّره محمد على باشا والى مصر بعد حرب الوهابية، وهو الذى فتح فيه الباب المصرى. وجدده السلطان عبد العزيز سنة ١٢٨٥ وجعل ارتفاعه نحو ٢٥ متراً، وبنى فيه ٤٠ برجا

تشرف على ضواحى المدينة للدفاع عنها . وهذا السور باق للآن ، وهو فى طريق باب العنبرية ، وعلى محيطه المزاغل والابراج المشحونة بالمدافع والذخائر الحربية لصد هجمات الاعراب الذين كثيراً ما كانوا ولا يزالون يعتدون على حرم رسول الله .

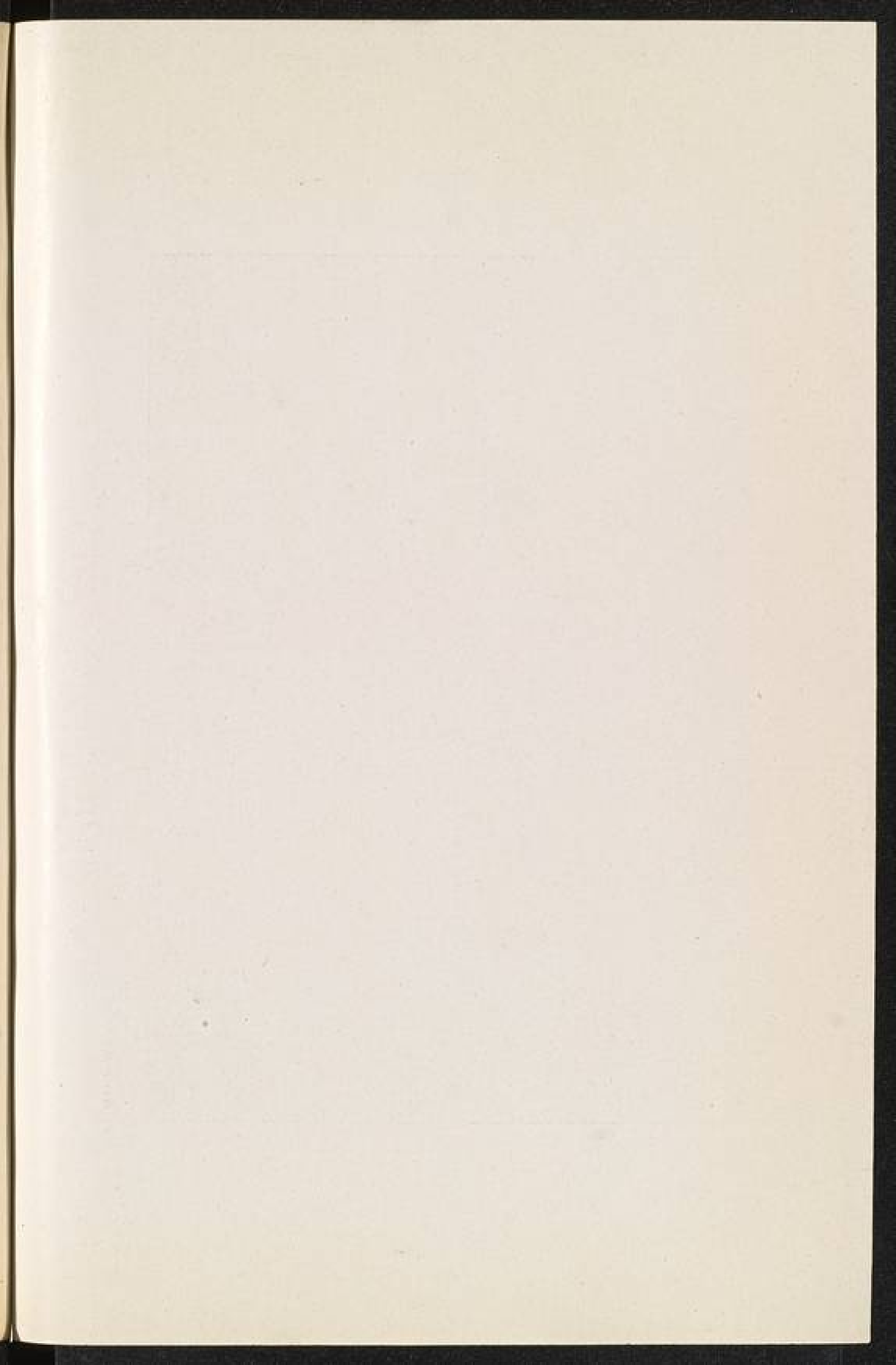
وأما سورها الخارجى فليس بذى أهمية تذكر ، وهو متهدم فى كثير من جهاته . وفيما بين السورين يعنى فيما بين الباب المصرى وباب العنبرية ، واد كبير متوسط عرضه ٤٠٠ متر يقال له المناخة ، وسميت بذلك لان أغلب الحجاج ينيخون جمالهم فيها ، ويقيمون بها مدة الزيارة ، وفيها مقام ركب المحمل المصرى مدة وجوده بالمدينة . وحول المناخة ، من جهتها الخارجية ، أبنية كثيرة أحسنها ما كان على الشارع العمومى : وهو شارع محطة السكة الحديدية ، ويسمى الآن بالشارع الرشادى ، وفيه التكية المصرية ، ولها مرتبات من مصر ، وتعمل بها الشوربة يومياً للفقراء على النظام الذى تقدم فى تكية مكة ، وفيه قشلاق العساكر الشاهانية ، وكلاهما من بناء المرحوم ابراهيم باشا جد العائلة الخديوية .

وللمدينة ثمانية أبواب وهى : الباب المجيدى ، والباب الشامى ، وباب الكوفة ، وباب العنبرية ، وباب قوبه ، وباب العوالى ، وباب الجمعة . وتقفل أبواب المدينة فى وجه الزائرين من الحجاج اذا تحقق أنهم ملوثون بالوباء ، ولكنهم يفتحون لهم طريقاً من الباب المجيدى الى باب الحرم ، فيزورن ويسافرون بعد يوم أو يومين على الاكثر بقوافلهم التى يجب أن تكون مخيمة خارج البلد . وبذلك ترى أهل المدينة على الدوام بعيدين عن الاوبئة بالمرة ، ولكنهم فى هذه الحالة لا يفتحون للحجاج الا بابا واحدا من الحرم : فيتراكم بعضهم على بعض ويزدحمون فى الطريق الموصل الى هذا الباب حتى اذا وصلوا اليه ، أخذوا يتدافعون للدخول الى المسجد ، وهناك يجدون مثيناً ممن فى داخله متدافعين للخروج منه ، فتلتحم القوتان ، ولا يزالون حتى يظهر فريق منهم على الآخر ، فيهجمون عليهم ويطئونهم بأقدامهم ويموت من جراء ذلك خلق كثير كما حصل فى سنة ١٣٢٦ هـ . وعليه فيجدر بمشيخة الحرم فى مثل هذه الاحوال أن تجعل باباً من الحرم للداخلين وآخر للخارجين ، وبذلك يتوفر عليها وعلى الناس مثل هذه المشقة .



BOEHME & ANDERER, CAIRO

قافلة الحجاج بالمناخة بالمدينة المنورة



ومناخ المدينة صحى جدا و ربما كان ذلك من الاسباب التى ساعدت على رقة أهلها ولطافة أمزجتهم التى اذا أضفت اليها ماهم عليه غالبا من الصلاح والورع والادب وحسن المعاشرة، حكمت لهم بانهم أحسن أهل بلاد العرب على الاطلاق فى مكارم الاخلاق: وليس ذلك بعجيب فجاورتهم للسيد الرسول أكسبتهم كثيرا من أخلاقه الكاملة . على أن من يفكر فى أن الرسول عليه الصلاة والسلام انما اختص أهل المدينة بالهجرة الى بلدهم، يحكم حكما قطعيا بان مكارم الاخلاق فيهم من زمن بعيد ، وقد زادها الاسلام جمالا على جمالها وكمالا على كمالها . وحسبك ان السيد الرسول بعد ان أدى مأموريته من اظهار الدعوة ونشر راية الدين الاسلامى وتقوية دعائمه، بحال لا يدخل معها الوهن الى أى جانب من جوانبه، أظهر فى حجة الوداع أنه لا يريد الموت الا بين ظهرانى الانصار الذين نرى اليوم من خلفهم على سننهم رضى الله عنهم أجمعين .

محمد رسول الله

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم . ولد صلى الله عليه وسلم بمكة ، فى دار أبى يوسف المشهورة الآن بمولد النبى، بعد قدوم أصحاب الفيل بخمسين يوما على الاصح، ويوافق ذلك ثمانيا خلون من شهر ربيع الاول سنة ٥٤ قبل الهجرة . وكان أبوه عبد الله غائبا بجهة يثرب ومات ودفن فيها ولم ير ولده . أما أمه فهى آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم بن مرة بن كعب .

وفى السنة الاولى من مولده تسلمته حليمة السعدية لترضعه، فذهبت به الى قومها فى البادية وكانت تغنيه بقولها :

الحمـــد لله الذى أعطانى * هذا الغلام الطيب الاردان
قد ساد فى المهد على الغلمان * أعيذه بالبيت ذى الاركان

ومكث صلى الله عليه وسلم عند حليمة الى السنة الرابعة من عمره . فردته الى أمه وفيها ذهبت به الى أخواله بنى النجار بالمدينة . فماتت بالطريق بمكان يقال له الابواء . وقدمت به أم أيمن الى مكة . فكفله جده عبد المطلب وكان يحبه حبا جما لشدة ذكائه، وفرط نباهته، وقويم سيرته، وعظيم أدبه ، ولما كان يتوسمه فيه من رفيع المنزلة وكبير المستقبل . ولما كان عمره صلى الله عليه وسلم ثمانى سنين مات عبد المطلب، فكفله عمه أبو طالب وضمه اليه، وخرج به الى الشام وهو فى الثالثة عشرة من عمره، ومن ذلك الحين أخذت تظهر للناس مواهبه وجلائل صفاته، مما كان داعية الى احترامهم اياه واجلالهم لقدره . ولما بلغ الخامسة والعشرين خرج الى الشام فى تجارة لخديجة بنت خويلد مع غلامها ميسرة . وعاد اليها بربح عظيم كان برهانا جديداً على صدقه وأمانته . فلما رأت ذلك خديجة خطبته الى نفسها ، وكانت أعظم نساء قريش فضلا وأكثرهن مالا وأوسطهن نسبا: لانها بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصى بن حكيم . فتزوج بها فى هذه السنة ولم يتزوج عليها فى حياتها . وماتت رضى الله عنها بعد خمس وعشرين سنة من زواجها منه، وقد ولدت له القاسم والطيب والطاهر ورقية[1] وأم كلثوم[2] وزينب[3] وفاطمة[4] . ولم يكن له أولاد من غيرها الا ابراهيم[5] فانه من مارية القبطية، التى دخل بها سنة سبع للهجرة .

أما صفته صلى الله عليه وسلم فقد قال علىٌّ فيها ما نصه :

لم يكن رسول الله بالطويل المُمَغَّط[6]، ولا بالقصير المتردّد[7]، وكان رَبْعةً من القوم، ولم يكن بالجَعْد ولا بالسَّبْط، ولم يكن بالمُطَهَّم[8]، ولا بالمُكَلْثَم[9]، أبيض مُشْرَب (بحمرة)، أدعج العينين[10]، أهدب الاشفار[11]، جليل المُشاش[12]، والكَتَد[13]، أجرد[14]

(١و٢و٣) أم كلثوم ورقية كانتا زوجتا عتبة وعتيبة ابنى أبي لهب فطلقاها . فتزوجهما عثمان بن عفان واحدة بعد الاخرى . أما زينب فكانت تحت أبى العاص بن الربيع . وتوفيت رقية سنة ٢ وزينب سنة ٨ وأم كلثوم سنة ٩ للهجرة . (٤) ولدت فاطمة سنة ٨ قبل الهجرة ، ودخل على بها فى السنة الاولى ، وولدت الحسن سنة ٣ ، والحسين سنة ٤ ، وتوفيت سنة ١٢هـ .

(٥) ولد ابراهيم سنة ٥هـ (٦) كثير الطول (٧) المتناهي فى القصر (٨) الكثير السمن

(٩) مدور الوجه تدويراً تاما (١٠) واسع العينين مع شدة سوادهما (١١) طويل شعر الجفون

(١٢) عظيم رؤوس العظام (١٣) مجتمع الكتفين (١٤) قليل الشعر

ذو مَسْرَبة (١)، شثن الكفين والقدمين (٢)، اذا مشى تقلّع (٣)، كأنما ينحط عن صَبَب (٤)، أجود الناس صدراً (٥)، وأصدقهم لهجة وألينهم عريكة، وأكرمهم عِشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله.

وعاش صلى الله عليه وسلم بين قريش عاقلا حكيما، شجاعا كريما، براً رحيما، كثير التقوى والزهد والورع، بعيدا عن كل ما يؤخذ على الناس في سيرتهم، صادقا في قوله وفعله، عظيم الهمة، كبير المروءة: لذلك كان له في قومه منزلة كلها إكبار وإعظام. وكانت قريش ترجع اليه في مشورتهم، ويرضون بحكمه فيهم، حتى أطلقوا عليه اسم الصادق الامين.

ومع أنه كان أميا (لا يقرأ ولا يكتب)، فقد كان ذكيا بليغا فصيحا جرت كلماته مجرى الامثال، وأخذت عباراته بمقاليد الحكمة، وخصوصا بعد الاسلام. وانا لنذكر لك شيئاً منها، حتى ترى ما فيها من كبير معناها، وعظيم مغزاها، مع قلة ألفاظها، مما هو مذكور بكتب الحديث والسير والادب:

اليد العليا خير من اليد السفلى. ترك الشر صدقة. ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء. الدال على الخير كفاعله. كل معروف صدقة. حبك الشيء يعمي ويصم. البلاء موكل بالمنطق. الحرب خدعة. رأس الحكمة مخافة الله. ابدأ بمن تعول. فضل العلم خير من فضل العبادة. المرء كثير بأخيه. انما الاعمال بالنيات. الغنى غنى النفس. الحياء خير كله. الناس معادن كمعادن الذهب والفضة. لا خير لك في صحبة من لا يرى لك ما يرى لنفسه. ما أملق تاجر صدق. خير الامور أوسطها. ما قل وكفى خير مما كثر وألهى. اقيلوا عثرات الكرام. كادت الفاقة تكون كفرا، اعمل لدنياك كانك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كانك تموت غدا، الخ الخ

بجلائل هذه الصفات كان عليه الصلاة والسلام مستعداً بطبعه الى ما أكرمه الله به من النبوة وهو في سن الاربعين: فأخذ ينزل عليه الوحي شيئاً فشيئاً بما تدرج معه الى احتمال هذا الناموس الاعظم.

---

(١) شعر بين الصدر والسرة (٢) سمين الكفين من غير قصر (٣) رفع رجليه (٤) منحدر
(٥) لا يضن بعلمه وفضله.

وكان الناس قبل الاسلام مختلفين فيما بينهم متفرقين فى عصبياتهم ودياناتهم متغايرين فى شرائعهم : كثرت فيهم فروع الصابئة ، والمجوسية ،والوثنية، والبراهمة، والبوذية، وتعددت الفرق فى الديانات السماوية فانقسمت اليهودية الى ربانيين وقرائين وسامريين وغيرهم . وافترقت النصارى الى مالا يحصى من الفرق التى منها اليعقوبية والنسطورية والاريوسية والارثوذكسية : فكان من ذلك الانقسام العام فى المسائل الاجتماعية والامور الحيوية . فأدى ذلك الى انحلال أجزاء الامبراطورية الرومانية، واختلال أعضاء المملكة الفرسية، لكثرة ما كان يقوم فى داخليتها من المجادلات التى كانت تؤدى الى شديد المخاصمات . وبذلك استعدت النفوس الى شريعة جديدة توحد بين جميع هذه العناصر فى معتقداتها ومعاملاتها : فأرسل الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة، بدينه المتين، وقرآنه المبين . ومازال يجاهد فى سبيل بناء هيكل الاسلام بثبات جأش وصبر لا يعرف الملل، محتملا فى ذلك تلكم الاهانات التى كان يلقاها من قومه، حسداً منهم له، أو أنفة من دخولهم فى دائرة قيود هذا الدين الجديد: وقد كانوا يعيشون طول أدوار حياتهم لاتجمعهم الا كلمة الفوضى، ولا يحوطهم غير سياج الحرية المطلقة .

ومازال فيهم صلى الله عليه وسلم بثباته، وحسن بصيرته، وكبير حلمه، مع ما كان له فيهم من حرمتهم لشخصه واجلالهم لصفاته التى لم يروا فيها من نعومة ظفره صغيرة يأخذونه بها أو يحاسبونه عليها . فآمن به نفر هاجروا[1] معه الى المدينة ووضعوا ايديهم فى يد الانصار، ومابرحوا ينصرونه فى جميع مواقفه على أعدائه، حتى انتهى أمرهم بتصديقه والايمان بما أتى به من عند الله

وأهم هذه المواقف كانت غزوة بدر الكبرى فى السنة الثانية من الهجرة، وأحد فى الثالثة، والخندق فى الخامسة، وخيبر فى السابعة، وفتح مكة وغزوة حنين فى الثامنة، وغزوة تبوك فى التاسعة . ومن هذه المواقف تعلم المسلمون منه صلى الله عليه وسلم تعبئة الجيوش ، وسياسة الحروب ، والثبات فى ساحات النزال، والشجاعة النفسانية فى جميع المواقف، والصبر على الشدائد حتى هابهم الناس وأكبروا منزلتهم .

---

١) كان عمره صلى الله عليه وسلم وقت الهجرة ٥٤ سنة وهاجر معه صاحبه أبو بكر وحده الى المدينة ثم استرسل الناس في هجرتهم اليها.

ومازال رسول الله صلى الله عليه وسلم يناهض أهل جزيرة العرب فى سيرهم، ويكافحهم فى تقويم أخلاقهم وتربية نفوسهم، حتى نشأت فيهم أخلاق جديدة، وآراء سديدة، وآمال بعيدة، وصلوا بها فى أيام قليلة الى ضم عروش الاكاسرة والقياصرة الى عرشهم، الذى انما كان حجرا بسيطاً فى هيكل ملكهم وبنيان سلطانهم.

واستمر رسول الله بين المهاجرين والانصار يسلك بهم سبيل الفضائل، ويبعدهم عن طرق الرذائل، وينفرهم مما كان فيهم من العوائد الشنيعة التى تخالف نظام الانسانية: كوأد البنات، وشرب الخمر، وقتل النفس بغير حق والاستقسام بالازلام، وعبادة الاصنام، ولعب الميسر، والكذب، والنفاق، والرياء، وغصب مال الغير، وسوء معاملة المرأة، وعدم الرفق بالرقيق، حتى فشا فيهم محبة البنات، ونبذوا المسكرات، وعرفوا معنى الحياة، ودانوا بالتوحيد، ووقرت فى نفوسهم فضيلة الصدق والصراحة والرحمة. مازال فيهم صلى الله عليه وسلم يعلمهم الشجاعة النفسانية والادبية، ويسمو بنفوسهم الى منازل الحياة الحقيقية، حتى عظمت فيهم الآمال، ومالوا الى جلائل الاعمال، فى خدمة الانسانية، التى جاء دينهم لنصرتها والنهوض بها من وهدتها، واعلاء كلمتها، والوصول بها الى الغاية التى خلقت من أجلها: فكثرت بينهم المعاملات التى أدت الى وضع نظام تشريعى سماوى، كان ينزل عليه فى ظروف مخصوصة كلما اقتضت الحال، مما هو فى القرآن المجيد. وكان عليه الصلاة والسلام يشرع للناس فيما لم يصل اليه به وحى، مما هو مجموع فى كتب الحديث: فكان من ذلك شريعة قويمة متينة تناسب كل زمان ومكان، لا يعتريها الباطل من أى جهة من جهاتها. وحسبنا دليلا على ذلك أن نابليون بونابرت استمد منها القانون الفرنساوى الذى هو روح التشريع الحديث فى أوروبا باجمعها، والى كتب الشريعة الاسلامية الآن ترجع قضاة أوروبا ومشرعوهم فى كثير من الامور التى لم ينص عليها فى قوانينهم. فكان بذلك صاحب هذه الشريعة الغراء أكبر رجل فى الخليقة خدم الانسانية خدمة لا ينكرها الا كل لئيم أو كاذب.

عرف صلى الله عليه وسلم انه ليس للوصول الى هذه الخدمة سبيل الا بمحاربة أعدائها، فكتب الى رؤوس الامم التى تحيط ببلاده منهم ملوك الروم، والفرس، ومصر، واليمن،

والحبشة، يدعوهم الى الاسلام، ويطلب منهم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى تسجلت على الناس دعوته . ثم ابتدأ يأخذ أهبته ضد من لم يقبل رسالته . فدانت له بلاد العرب من أدناها الى أقصاها، وصالحه على الجزية كثير من الامم التى فى شمالها شرقا وغربا. وفى السنة العاشرة من الهجرة كانت الامة العربية استعدت الى النهوض بدين الله ونشره فى جميع الآفاق، وتمت بذلك مأموريته صلى الله عليه وسلم، فحج حجة الوداع، وسجل دعوته على المؤمنين فى خطبته بها [١] فى عرفة . ثم رجع الى المدينة، وفى أواخر صفر اعتل جسمه صلى الله عليه وسلم، وقبضه الله اليه فى يوم ١٢ شهر ربيع الاول سنة احدى عشرة للهجرة، ودفن فى بيته حيث هو الآن بمسجده الشريف صلوات الله عليه وسلامه .

أبو بكر

هو عبد الله بن أبى قحافة بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب . وفى مرة يجتمع نسبه برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولد بعد عام الفيل بثلاث سنين .

أما صفته فهى كما وصفته ابنته عائشة: «كان أبيض، نحيفاً، خفيف العارضين، أجنأ [٢]، لا يستمسك ازاره يسترخى عن حقويه، معروق [٣] الوجه، غائر العينين، ناتئ الجبهة، عارى الاشاجع [٤]»

وكان تاجرا، وعرف قبل الاسلام بزهده، وورعه، وتواضعه، وسعة خلقه، وصدقه، وابتعاده عن المنكر، حتى أنه لم يشرب الخمر مطلقا فى حياته . فلما جاء الاسلام ورأى أنه دين الحق لم يكن لنفسه سلطان عليه، فكان أول مصدق من الرجال برسالة صديقه محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) كانت خطبة الوداع فى يوم الجمعة، وفى هذا اليوم نزل قوله تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا». وهذا هو سبب اهتمام الناس بالحج فى السنين التى يصادف الوقوف فيها يوم الجمعة . وقد ورد فى فضل الحج بالجمعة أحاديث كثيرة .

(٢) منحنيا (٣) قليل اللحم (٤) الاشاجع أصول الاصابع التى تتصل بظهر الكف .

ولما أسلم أخذ ينصر رسول الله ويساعده ويدعو الناس الى دينه، فنقمت عليه قريش وأخرجته من مكة. فاراد الهجرة الى الحبشة، فلقيه ابن الدُّغُنّة، وهو سيد القارة، وعاد به الى قريش، وقال لهم: كيف تخرجون رجلا يُكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فاتركوه يعبد الله في داره. فقبلوا منه ذلك على أنه لا يجمع بمحمد صلى الله عليه وسلم. وأتى ابن الدغنة أبا بكر فاخبره بذلك وقال له: اما أن تقتصر في دارك واما أن ترد ذمتي، فاني لا أحب أن تسمع العرب اني أخفرت في عقد رجل عقدت له. فقال أبو بكر: «اني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى ورسوله». ومكث رضي الله عنه بمكة، ومازال ينصر رسول الله بنفسه وماله حتى هاجر معه الى المدينة، مع ما كان يحدق بهما من خطر أولئك الذين كانوا يناوئون الرسول، وينبذون طاعته، وينكرون رسالته ويظهرون عداوته. ومازال ابن أبي قحافة بالمدينة قائما بنصرة صاحبه مختصاً بصداقته، حتى مرض رسول الله مرض الموت، فامره بالصلاة بالمؤمنين. ولما توفي صلى الله عليه وسلم هلع المسلمون وهالهم الامر، فقام فيهم خطيبا وقال في كلام له «من كان يعبد محمدا فمحمد قد مات ومن كان يعبد الله فالله حي لا يموت». ثم تلا قوله تعالى: «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً». فسكن روع الناس وثابوا الى رشدهم واحتملوا مصيبتهم في نبيهم. ثم بايعه الناس في سقيفة بني ساعدة فخطب فيهم قائلا: «قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان أحسنت فاعينوني، وان أسأت فقوّموني».

وقام أبو بكر في حكمه بامر المسلمين خير قيام. وكان رضي الله عنه في خلافته أزهد الناس وأورعهم وأتقاهم. وكان يلبس الشملة والعباءة حتى انه لما وفد عليه زعماء العرب وملوك اليمن ومنهم ذو الكلاع الحميري، وعليهم الحلل المقصبة والبرود المذهبة أكبروه وهابوه وذهبوا مذهبه. وارتدت العرب في أول خلافته عن الاسلام فرارا من قيوده التي ساوت بين الكبير والصغير، والسوقة والامير. فجردهم عزيمته واستنفر الناس عليهم وحاربهم بثبات متين وجأش رابط، حتى أرجعهم الى دين الله ورسوله. وبعد ما فرغ من حرب أهل الردة سيّر

خالد بن الوليد الى العراق من أدناه، وعياض بن غنم من أعلاه، وأمرهما أن لا يضرا بسواده ولا بفلاّحيه : فسار خالد ووقعت له واقعة الحفير المشهورة قرب البصرة، وانتصر فيها على جيوش الفرس بعد ان قتل رئيسهم هرمز، ثم قصد الحيرة فصالحه أهلها على الجزية، ثم سار الى الانبار وصالح أهلها على ما صالح به أهل الحيرة، واستخلف عليها الزبرقان بن بدر. وسار الى عين التمر فالتفت به جيوش العجم فهزمهم وسبى من كان به، وفى جملتهم نصير أبو موسى فاتح الاندلس. ثم سار الى دومة الجندل وأخذها عنوة. ومازال ينتقل فاتحا منصورا من بلد الى بلد حتى وصل الى تخوم الشام، فاجتمعت عليه الروم وعرب باديتها، فنصره الله عليهم ثم رجع الى الحيرة ومنها الى مكة لأداء فريضة الحج.

أما عياض فانه اخترق بفتوحاته بلاد كردستان وارمينية ثم انضم بأمر عمر الى جيوش أبى عبيدة فى حصاره لدمشق لاهميتها وحصانة موقعها.

ولما كثر الفئ على المسلمين انشأ أبو بكر بيت المال وجعل عليه أبا عبيدة، وجعل على القضاء عمر بن الخطاب، وعلى الحرب خالد بن الوليد، وكان يكتب له على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت.

وفى سنة ١٣ هجرية بعث أبو بكر البعوث الى الشام فعقد لواء الى يزيد بن أبى سفيان وكان يحمله له أخوه معاوية، ثم عقد لواء آخر الى أبى عبيدة بن الجراح، ولواء لشرحبيل بن حسنة، ولواء لعمرو بن العاص. فاجتمعوا فى اليرموك ووقعت لهم فيها واقعة كبيرة مع جنود الروم الذين أحاطوا بهم من كل جانب. وكان أبو بكر أمدهم بخالد بن الوليد ونصرهم الله فى هذه الواقعة نصرا مبيناً. ثم سار كل لواء الى جهة من جهات الشام، وسار خالد وأبو عبيدة الى دمشق وحاصروها. وفى أثناء حصارها وصلهم كتاب عمر بموت أبى بكر، وفيه عزل خالد عن الجيش وتأمير أبى عبيدة عليه.

وكان أبو بكر رضى الله عنه جليل الصفات، قدوة فى مكارم الاخلاق، كثير الزهد، وكان يعيش بالكفاف : وحسبك ما ورد من ان امرأته اقتصدت من قوت عائلتها ما كان منه فى عدة أيام قدرٌ يسير من الدقيق، وأرادت أن تشترى به شيئاً من الحلوى.

فلما علم به أبو بكر أمر فاعيد الى بيت المال لانه فضل عن قوت عائلته، وأسقط من نفقته بمقدار مانقصت كل يوم . وكانت هذه النفقة تصرف اليه من بيت مال المسلمين ، لانه ترك تجارته لتفرغه للاشتغال بامرهم . وكان مرتبه ٢٥٠ دينارا فى السنة وشاة غير كاملة كل يوم . فلما وجد المسلمون أن ذلك لا يكفى عائلته أكملوه الى ٣٠٠ دينار فى السنة مع شاة باكملها كل يوم . أما سيرته مع المسلمين و رفقه بهم وحسن سياسته فيهم وتعهده لمصالحهم، فمما لا يفضله فيه راع مع رعيته . وكان رضى الله عنه كثير النصح لعماله بالاناة فى أعمالهم، والابتعاد بالناس عن مواقف الفتن، والتعفف عما فى أيديهم . وأفضل مايذكر فى تاريخه اهتمامه بجمع القرآن من صدور الحفاظ، ومن بعض الصحف قبل أن يدخل عليه تغيير أو تبديل : والسبب فى ذلك أن عمر ذهب اليه وقال له «ان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وانى لاخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن، فيذهب كثير من القرآن الا أن يجمعوه، وانى لارى أن يجمع القرآن» . و رأى أبو بكر رأى عمر فقال لزيد بن ثابت: قد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه . فجمعه زيد من الرقاع وصدور الرجال، وكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى قابل ربه ، ثم حفظت عند حفصة بنت عمر .

ومازال أبو بكر رضى الله عنه قائما بامر المسلمين حتى مرض فى أوائل جمادى الآخرة سنة ١٣ ﻫ . فامر عليا يصلى بالناس، ومات رضى الله عنه فى يوم ٢٨ من الشهر المذكور، بعد أن عهد الى عمر بالخلافة من بعده ، ودفن الى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام . وكان له من البنين عبد الله وعبد الرحمن ومحمد، ومات عبد الله فى خلافته فخلف سبعة دنانير فاستكثرها عليه . وكان له من البنات أم كلثوم وعائشة (١) أم المؤمنين رضى الله عنها .

---

(١) دخل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السنة الاولى للهجرة وماتت رضى الله عنها سنة ٥٨ منها .

عمر

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن قرط بن رباح بن عبد الله بن رداح بن عدى ابن كعب، وفيه يجتمع نسبه مع النبى صلى الله عليه وسلم، وكنيته أبو حفص، ويلقب بالفاروق وهو أول من سمى بأمير المؤمنين . وكان أعسر يسر (يعمل بكلتى يديه)، طويلا، أصلع، ولونه شديد السمرة . ولد رضى الله عنه سنة أربعين قبل الهجرة . وكان فى صغره يرعى الغنم لابيه ثم اشتغل بالتجارة وسافر جملة مرات فى الجاهلية الى الشام وغيرها فى تجارته أو سفارته لقومه . وقد ذكر ابن عساكر أنه أسر فى بعض أسفاره بدمشق، فتخلص من أسره وفر الى مكة . وكان شجاعا مهيبا بعيد النظر فى الاشياء مشهوراً بالصدق والامانة والشهامة الادبية شديداً فى قوله وعمله . وكان فى أول الاسلام من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأسلم قبل الهجرة بأربع سنين . وكان أسلم قبله تسعة وثلاثون نفراً كانوا فى أشد ما يقاسونه من قريش، وقد هاجر كثير منهم الى الحبشة وغيرها . ومن كان منهم بمكة كان يستخفى عن الناس، وكان المسلمون يجتمعون سرًّا فى دار الارقم المخزومى تحت الصفا، فقال عمر للنبى صلى الله عليه وسلم «يا رسول الله على مَ نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل»؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنا قليل وقد رأيتَ ما لقينا» . فقال عمر: «والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلستُ فيه بالكفر الا جلستُ فيه بالايمان» . ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفين من المسلمين، حمزة فى أحدهما وعمر فى الآخر حتى دخلوا المسجد . فنظرت قريش الى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة شديدة، ومن يومئذ سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاروق: لانه باظهاره للاسلام فرق بين الحق والباطل .

ومن ثم أخذ المسلمون وفى مقدمتهم عمر يبثون فى الناس دينهم، وينشرون فضله علانية ويكالحون قريشا غير مبالين بما كانوا يصادفونه منهم من الاهانات وسوء المعاملات، حتى أذن الله رسوله بالهجرة . فهاجر الناس مختفين الا عمر فانه لما هم بالهجرة وكان خامس من

هاجر الى المدينة، تقلد سيفه وتنكب قوسه وأخذ فى يده اسهما ومضى الى الكعبة، ورجال قريش فى فنائها، فطاف بالبيت سبعا ثم أتى المقام فصلى ثم وقف على الناس وقال «شاهت الوجوه لا يرغم الله الا هذه المعاطس . من أراد أن تثكله أمه و يؤتم ولده و يرمل زوجه فليلقنى وراء هذا الوادى : فما تبعه أحد الا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم، ومضى لوجهه» .

ومكث عمر مع رسول الله فى المدينة صادقا فى صحبته، أمينا فى خدمته، متفانيا فى نصرته، متشددا فى تأييد دعوته، حتى اذا بلغته وفاة رسول الله صلوات الله عليه، وضج الناس لهول هذه المصيبة، جزع من صدمة هذه النائبة جزعا شديداً . ولكنه لم يلبث أن ثبته الله تعالى وذهب بأبى بكر الى سقيفة بنى ساعدة ، وكان قد اجتمع فيها الانصار يريدون خليفة منهم . فمد عمر يده الى أبى بكر و بايعه وتبعه المسلمون حتى تمت له البيعة . ومازال عمر لابى بكر صاحبا متينا ومشيراً أمينا وناصراً معينا حتى مات أبو بكر بعد أن عهد بالخلافة اليه . فلما بايعه المسلمون صعد المنبر وجلس حيث كان يضع أبو بكر قدمه تواضعا، وخطب الناس وقال فى خطابته: أيها الناس من رأى فىّ منكم اعوجاجا فليقوّمه . فقام رجل وقال والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقوّمناه بسيوفنا . فقال عمر الحمد لله على أن فى أمة محمد من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه .

ابتدأ عمر عمله فى الخلافة باهتمامه باجلاء المشركين عن جزيرة العرب بعد أن عوضهم عن أملاكهم بما يزيد عن قيمتها، لانه كان يخشى وقوع الفتنة منهم بين المسلمين . وكان قد أرسل بعزل خالد بن الوليد عن امارة الجيش فى الشام لانه كان يوجس منه خيفة . وأقام بدله أبا عبيدة فى امارته، وأشار عليه بالاهتمام بفتح دمشق لانها حصن الشام و بيت مملكتهم . فسار اليها مع خالد وحاصرها بعد أن أقفل طرقها فى وجه من يأتى لمددها . وكان معهما عياض بن غنم وعمرو بن العاص والقعقاع بن عمرو وشرحبيل بن حسنة . وكان كل واحد منهم على جهة وأبلوا جميعا فى حصارها بلاء حسنا . وانتهى أمرها بأن فتحت من الجهة التى فيها ابن الوليد: لانه استغفل الحرس وتسلق السور ليلا مع بعض رجاله وفتح الباب لجنود المسلمين ، وكان ذلك فى أواخر سنة ١٣ للهجرة . ومن ثم أخذت جيوشهم تفتح ماحولها من البلاد: ففتحت بعلبك وحمص وماوالاهما الامن بلاد السواد . ثم فتحوا بلاد داغر بالى بيروت . وسار عمرو بن

العاص جنوبا الى بيت المقدس فاتحاً لجميع ما فى طريقه من البلاد، وشدد الحصار على أهلها فقالوا لا انا لا نرضى بفاتح غير ابن الخطاب . فكتب له فحضر الى الجابية وهى قرية من أعمال دمشق ، وقابله فيها أمراء الجند منهم : أبو عبيدة وخالد و يزيد بن أبى سفيان وابن العاص . وهناك وفد عليه وفد ايلياء وقالوا انهم نوّاب فى الصلح عن قومهم ، فكتب لهم عهداً بذلك وجعل عليها علقمة بن مجزّ ، ثم سار اليها ودخلها ليلا و بنى مسجد الصخرة وجعل قبلته الى الكعبة بعد أن طهره مما تراكم به من القمامة التى كانت الروم تلقيها عليه ، ثم عاد الى المدينة . وكان ذلك فى سنة ١٦هـ .

واستمر أبو عبيدة فى الفتح ففتح حماة واللاذقية وقنّسرين وحلب وأنطاقية . وفى سنة ١٧ هـ دانت للمسلمين بلاد سوريا والشام وجنوب الاناضول من أقصاها الى أدناها . فأخذوا يرتبون أمور البلاد فى داخليتها، و يضمون لها نظاما فى حكومتها . ولكن قيصر الروم لمّ شعثه وجمّع جنوده وجدد قوّته وهاجمهم من جهة قنسرين فى جيش هائل، الا أنه لم يلبث أن انهزم مدحورا وغنم المسلمون سلب جيشه، و بهذه الموقعة قضى على حكم الروم فى هذه البلاد . وسار ابن العاص الى مصر فتم له فتحها فى سنة ٢٠ وأقام فيها يرتب أمورها و ينظم أحوالها وسيّر منها نفراً من قومه الى برقة و بلاد النوبة فافتتحوهما .

هذا ما كان من فتح الشام ومصر . أما ما كان من فتح العراق، فان عمر رضى الله عنه كان سير اليها أبا عبيد الثقفى . فسار حتى عبر الفرات بمن معه من المسلمين، وهناك حصلت بينه و بين الفرس واقعة عظيمة استشهد فيها أبو عبيد فى عدد كبير من قومه . فأرسل عمر سعد بن أبى وقاص فى جند من المسلمين، فسار حتى وصل الى القادسية : وهى مدينة فى جنوب النجف بميل الى الغرب . وكان موقعها فيما بين البادية وسواد العراق، وكان معه عدد عظيم ممن لحق به من المسلمين من الشام وغيرها، منهم النعمان بن مقرّن وحنظلة بن الربيع التميمى والمغيرة بن زُرارة والاشعث بن قيس وعاصم بن عمرو وعمرو بن معديكرب والمغيرة بن شعبه .

وهنالك قابلهم رستم قائد جيوش الفرس بما لا يحصى من الجنود . فحصلت بينه و بينهم جملة وقائع أبلى فيها الطرفان بلاءً عظيما، وكانت نتيجتها قتل رستم وانهزام الفرس ودخل سعد

القادسية سنة ١٥ هـ . ثم سار منها الى المدائن وهى عاصمة الاكاسرة وموقعها على دجلة على مرحلة من الجنوب الغربى لبغداد، ويسميها الافرنج اكتيزيفون (Ktésiphon) ويسميها الفرس (بهرسير) ، فحاصرها وافتتحها بعد شهرين، وهرب كسرى الى حلوان ثم الى أصفهان . وغنم المسلمون من خزائنه مالا يحصى ، وجعلوا ايوانه مسجداً وكان ذلك فى سنة ١٦ هـ . وأقام سعد بالمدائن الى سنة ١٧ ، وفى غضونها فتحت جنوده تكريت والموصل ، ثم تحول الى الكوفة بعد أن اختطها بأمر عمر .

وجمع كسرى فل الفرس وشتاتهم الى نهاوند ، فلما بلغ عمر ذلك سير النعمان بن مقرّن فى جيش من المسلمين ، فأتى اليها وحصر الفرس فيها وقطع عليهم خط رجعتهم ، وحصلت بينه وبينهم معركة تشيب لهولها الولدان ، كانت دماء الناس فيها تجرى فى ساحة الوغى كأنها الانهار : فزلق جواد النعمان فصرعه ، فكتم أمره من عرف ذلك من المسلمين وثبتوا فى قتالهم الى الليل ، فانهزمت جيوش الفرس وتشتت شملهم . وسار المسلمون فى أثرهم حتى وصلوا همذان ، فصالحهم أهلها على أن يكفوهم شر الفرس من جهتهم ، وهرب يزدجرد ملك الفرس الى بلاد التتار ولا زال فيها حتى مات فى خلافة عثمان . وفى واقعة نهاوند قتل كثير من عظماء المسلمين : منهم طليحة الاسدى وعمرو بن معديكرب الزبيدى .

بعد ما استقر أمر المسلمين فى بلاد الفرس أرسل سعد بعياض بن غنم الى الجزيرة ، وكانت جنود الروم قد اجتمعت فى أعلاها ، فافتتح بلادها الى حدود كردستان وأرمينية شرقاً ، وبلاد الشام غرباً ، وكسر جنود الروم ومزقهم كل ممزق ، ثم عاد الى حمص فمات بها رضى الله عنه .

وكان عمر قد سير عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى سنة ١٨ الى فتح أرمينية وعززه بسلمان أخيه من جهة ، وبحبيب بن مسلمة الفهرى من جهة أخرى . فساروا حتى وصلوا بالفتح الى شمال جبال القوقاز : وبعد أن ضربوا الجزية على أهل هذه البلاد انجلوا عنها الى الجنوب ، خوفاً مما كانت تستلزمه سعة أطرافها وثغورها من كثرة الجند والمرابطة وما كانوا يخشونه من تجمع جيوش الروم عليهم فى هذه النواحى القاصية .

ولما دانت للمسلمين بلاد الفرس والعراق والجزيرة والشام وسوريا ومصر وبرقة والنوبة، أخذ عمر فى تقوية ثغورها، وتنظيم داخليتها، وترتيب ماليتها، وربط خراجها، ووضع جزيتها: فدوّن الدواوين، ووضع السجلات لضبط حسابات كل مصر وأعطياتها، وقيد محرراتها. وجعل للحسبة ديوانا يفتش على أعمال التجار حتى تكون الناس فى أمن من غشهم، وضرب النقود من الدراهم (١) الفرسية وعلى نقشها (سنة ١٨ هـ) وزاد على بعضها الحمد لله وعلى الآخر محمد رسول الله. وكان رضى الله عنه ينتخب للولايات العمال من أحسن الرجال، ورتب البريد بينهم وبينه يوافونه بأمورهم ويوافيهم برأيه فيها. وكان قبل قيام البريد من الجهات ينادى المنادون فيها « من كانت له الى أمير المؤمنين شكوى فليرفعها اليه فان البريد قائم من غده » وكان رضى الله عنه لا يعين فى القضاء الا أكثر الناس ورعا وزهداً، وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وكان على قضائه أبو موسى الاشعرى، ولما ولاه القضاء كتب له الكتاب الآتى:

« بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فان القضاء فريضة محكمة، وسنّة متبعة، فافهم اذا أدلى اليك، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. آس بين الناس فى مجلسك ووجهك وعدلك، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييئس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين: الا صلحاً حرم حلالا أو أحل حراما. ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه، فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل. الفهمَ الفهمَ فيما يتلجلج فى صدرك مما لم يبلغك فى كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم. اعرف الامثال والاشباه، وقس الامور عند ذلك: ثم اعمد الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق. واجعل للمدعى حقا غائبا أو بينة: حداً ينتهى اليه، فان أحضر بينته أخذت له بحقه، والا وجهت عليه القضاء، فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ للعذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض: الا مجلوداً فى حد، أو مجربا عليه شهادة زور، أو ظنينا فى ولاء أو قرابة: فان الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات والايمان.

---

(١) لان الدنانير لم تضرب فى الاسلام الا فى عهد عبد الملك بن مروان.

اياك والقلق والضجر، والتأذى بالناس، والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الاجر، ويحسن بها الذخر، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه يكفه الله ما بينه و بين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه، هتك الله ستره وأبدى فعله والسلام » .

وكتب الى معاوية وهو عامله على الشام :

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فانى لم آلك فى كتابى اليك ونفسى خيراً . اياك والاحتجاب، وائذن للضعيف وأدنه حتى تبسط لسانه وتجرىء قلبه، وتعهد الغريب فانه اذا طال حبسه وضاق اذنه ترك حقه وضعف قلبه : وانما ترك حقه من حبسه . واحرص على الصلح بين الناس مالم يستبن لك القضاء . واذا حضرك الخصمان بالبينة العادلة والايمان القاطعة فامض الحكم .

وكتب الى أحد العمال :

« اجعلوا عندكم الناس فى الحق سواء، قريبهم كبعيدهم، و بعيدهم كقريبهم . اياكم والرشاء والحكم بالهوى، وان تأخذوا الناس عند الغضب . فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار » .

وكتب الى سعد وهو بشراف بريد العراق وحرب الفرس ما نصه :

« أما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين، وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله . واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير، وعدتهم فاضلة، و بأسهم شديد . وعلى بلد منيع وان كان سهلاً كؤوده، لبحوره وفيوضه ودآدئه : الا ان توافقوا غيضاً من فيض . واذا لقيتم القوم أو واحداً منهم فابدءوهم الشد والضرب . واياكم والمناظرة لجموعهم . ولا يخدعنكم فانهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم، الا أن تجادوهم . واذا انتهيت الى القادسية : والقادسية فى باب فارس، وهى أجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الأصل (النواحى)، وهو منزل رغيب خصيب حصين، دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها، ويكون الناس بين الحجر والمدر، على حافات الحجر وحافات المدر، والجراع (الارض الرملية) بينهما . ثم الزم مكانك فلا تبرحه : فانهم اذا أحسوك انفضتهم، رموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدّهم وجدّهم . فان أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الامانة، رجوت أن تنصروا عليهم، ثم لا يجمع لكم مثلهم أبداً، الا أن يجمعوا وليست معهم

قلوبهم . وان تكن الاخرى كان الحجر فى ادباركم ، فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليها اجراء وبها أعلم ، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل ، حتى يأتى الله بالفتح ويريد لكم الكرة عليهم .

من الكتاب الاول ترى أن عمر رضى الله عنه كان من أكبر المشرعين ، وكتابه هذا نظام تشريعى جمع بين كلماته القليلة روح التشريع القضائى ، مما تراه مبسوطاً فى مجلدات ضخمة . ومن كتابه الثانى والثالث ترى انه من أبعد الناس نظراً فى النظام الادارى . ومن الرابع ترى انه أكثر الناس معرفة باساليب الحرب . وقلما تجتمع هذه المزايا كلها فى شخص واحد . نعم كان عمر نادرة فى بابه بل نابغة من نوابغ الخليقة . ومَنْ من الناس يجلس مكان عمر بجزيرة العرب ، بينما هو يحرك عماله فى الفرس والعراق والجزيرة والشام ومصر واليمن وغيرها : فى حروبهم ، وادارتهم ، وجباية أموالهم ، وقضائهم ، حتى لكأنهم على مرآى منه ومسمع .

مَنْ من الملوك يمكنه أن يصل ليله بنهاره فى نصح رعيته ، وسهره على كل ما فيه مصلحتها كما كان يعمل عمر : وهو مع ذلك يرى نفسه مقصراً فى واجبه غير قائم بعمله فلا ينفك مفكراً على الدوام فى حساب ربه له على كل صغيرة يتوهم أنه ارتكبها فى سبيل المصلحة العامة !!!

اللهم ان هذا هو مقام الراعى من رعيته : فنعم الراعى عمر ونعمت الرعية رعية عمر !!!

كان رضى الله عنه كثير النصح لعماله ، شديد المراقبة عليهم ، كثير التجسس عن أحوالهم ، حتى أقام عليهم العيون يوافونه باخبارهم كيلا يأخذوا الناس بظلمهم . وجعل له عمالاً من أهل الورع والصدق يفتشون على أعمال الولاة والقضاة . ومن ذلك أن قد شكا الناس بالكوفة أميرهم سعد بن أبى وقاص فى سنة احدى وعشرين ، فبعث عمر محمد بن مَسْلَمَة الانصارى ، فحرق عليه باب قصر الكوفة وجمع الناس فى مساجدها ، فسألهم عنه . فحمده بعضهم وساءه بعضهم ، فعزله عمر وبعث عليها عمار بن ياسر . وكان عمر يتابع أوامره لولاته بعدم ظلم الرعية ، ومن ذلك كتابه الى عتبة بن غزوان أمير البصرة : « أعزب الناس عن الظلم ، واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغى ، فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه ، وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم ، فاوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً » .

وخطب عمر فى الناس يوما فقال : « أيها الناس انى والله لم أرسل عمالا اليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنتكم ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل، فمن فُعل به شىء سوى ذلك فليرفعه الىّ : فوالذى نفس عمر بيده لاقصنه منه » .

وكان عمر رحيما بالناس رفيقا بهم ولم تقتصر رحمته على الانسان بل كان يرفق بالحيوان ، قال المسيب بن درام : « رأيت عمر بن الخطاب يضرب جمالا ويقول حملت جمالك بما لا تطيق » .

هذه كانت حياة عمر مع عماله ورعيته لم يفرق فيهم بين كبير وصغير، غنى أو فقير، وحسبك ما كان له مع جبلة بن الايهم ملك غسان، فانه أسلم فى جمع من قومه وأتى الى مكة، ففرح به عمر وأكرمه كثيرا، وبينما هو يطوف حول الكعبة اذ وطئ اعرابى رداءه فانحسر عنه، فلطمه جبلة فقاضاه الاعرابى عند عمر. فقضى بالقصاص الا اذا تجاوز صاحب الحق عن حقه . فقال جبلة: أتُعامَلُ الملوك عندكم معاملة السوقة يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم لم يفرق الاسلام بين ملك وسوقة . فاستمهله جبلة حتى يرى رأيه ، وفر ليلا الى بلاده . وكان عمر شديدا فى دينه لا تأخذه فى الله لومة لائم . أقام حدوده فى الناس لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم قريبهم وبعيدهم، وناهيك بحده لولده عبد الرحمن فى الخمر حتى مات وهو يحده . وقد كان رحمه الله شديد العناية بالفقراء: ولقد اتخذ لهم دار الدقيق يعين بها المنقطع منهم .

أما حياته فى شخصه فقد كان رضى الله عنه كثير الورع والزهد شديد الخوف من الله يقتص من نفسه لغيره . وكان يعيش من عمله وتجارته الى أن صارت اليه الخلافة . فلما ولى أمر المسلمين واشتغل بشؤونهم أرادوا أن يرتبوا له من بيت المال ما يقوم بأمره وسألوه مقدار ما يريد؟ فسأل عليا رأيه فقال له: « ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ، ليس لك من هذا الامر غيره » . فقال عمر : القول ما قال ابن أبى طالب .

وروى الطبرى ان هذا العطاء الذى رضيه عمر لنفسه وفرضه له المسلمون لم يكفه واشتدت به الحاجة: فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وطلحة والزبير وتشاوروا فى

زيادة يزيدونها لعمر في رزقه من بيت المال، فهابوا مقابلته بذلك. فأتوا ابنته حفصة التي كانت زوجا للنبي صلى الله عليه وسلم وأمروها أن تخبره بالخبر وترى رأيه فيه ولا تذكر له أسماءهم. فلما أخبرته بذلك عرفت الغضب في وجهه، وقال لها من هؤلاء؟ قالت لا سبيل الى علمهم حتى أعلم رأيك، فقال لو علمت من هم لسؤت وجوههم، أنت بيني و بينهم أنشدك بالله ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملابس؟ قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع. قال فأي الطعام ناله عندك ارفع؟ قالت خبزنا خبزة شعير فصببنا عليها وهي حارة أسفل عكة (قربة السمن) فجعلناها هشة دسمة، فأكل منها وتطعّم استطابة لها. قال فأي مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ (ألين) قالت كساء لنا ثخين كنا نربعه في الصيف فنجعله تحتنا، فاذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه، قال يا حفصة فأبلغهم عني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدّر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية (الرجاء). واني قدرت فوالله لأضعنّ الفضول مواضعها ولا تبلغن بالترجية. وانما مَثَلي ومَثَل صاحبيّ كثلاثة سلكوا طريقا فمضى الاول وقد تزود زادا فبلغ. ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى اليه. ثم اتبعه الثالث فان لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما، وان سلك غير طريقهما لم يجتمع بهما.

مازال عمر رضي الله عنه على هذه الحال بين رعيته: مهتما بأمورهم غير مفكر الا فيما يكون من رقيهم وسعادتهم. يقضي بينهم بما أتى من عند الله ورسوله، واذا وقع له مالم يمكنه أن يستخرج حكمه من القرآن والسنة، جمع اليه خاصة المسلمين أعقلهم وأعرفهم بكتاب الله وسنة رسوله وسألهم رأيهم وقضى بما يرونه. وبذلك تحقق الحكم الشورى بين المسلمين: فعلا به سلطانهم وعظم ملكهم وانبسطت أفياء نعمتهم. ومازال رضي الله عنه مشتغلا بنصرة الاسلام وتعزيز أركانه وتوطيد بنيانه الى سنة ٢٣ من الهجرة، فأتاه فيروز أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة وكان فارسيا، يشكو اليه كثرة ما ضرب به سيده عليه من الخراج. فسأله عمر كم خراجك؟ قال: درهمان في كل يوم. قال وايش صناعتك؟ قال نجاس نقاش حداد. قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الاعمال. فتوعده الغلام وانصرف. فقال عمر توعدني العبد!!!

وتحيّن أبولؤلؤة عمر فجاءه فى صلاة الغداة حتى قام وراءه، فلما كبر وجاه أبولؤلؤة فى كتفه وخاصرته فسقط عمر ونادى بعبد الرحمن بن عوف وأمره أن يصلى بالناس . وكان ذلك يوم الاربعاء لاربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين . وفى غد ذلك اليوم أخبر عبدُ الرحمن بن أبى بكر عبيدَ الله بن عمر أنه رأى أبالؤلؤة مع الهرمزان ومعهما رجل اسمه جفينة، وكانوا يتناجون فلما رأوه تفرقوا وسقط منهم ذلك الخنجر . فعدا عبيد الله على ثلاثتهم فقتلهم فامسكه سعد بن أبى وقاص حتى جاء به الى عثمان بعد البيعة .

ولما مات عمر صلى عليه صهيب . ودفن يوم الاحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين وعمره ثلاث وستون سنة، وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وأحدا وعشرين يوما . وقيل بل كانت وفاته فى يوم الاربع المذكور من غير أن يعهد بالخلافة الى أحد: ولما سئل فى ذلك قبل وفاته ، قال انه لا يريد أن يحمل تبعتها حياً وميتاً، وجعلها شورى الى ستة وهم على وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف . وكان له من الولد: عبد الله وحفص وعبيد الله وعاصم وفاطمة وزيد وعبد الرحمن . أما عماله فى السنة التى مات فيها فكان على مكة: نافع بن عبد الحارث الخزاعى، وعلى الطائف سفيان بن عبد الله الثقفى ، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة، وعلى البصرة أبو موسى الاشعرى، وعلى مصر عمرو بن العاص، وعلى دمشق معاوية ابن أبى سفيان، وعلى حمص عمير بن سعد، وعلى البحرين عثمان بن أبى العاص الثقفى، وكان كاتبه زيد بن ثابت ، وعلى بيت المال عبد الله بن أرقم .

عثمان بن عفان

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ويكنى بابى عبد الله . ولد رضى الله عنه سنة ٢٨ قبل الهجرة . وكان ربعة ليس بالقصير ولا بالطويل، حسن الوجه، بوجنتيه نكتات جدرى ، أقنى مشرف الانف ، من أجمل الناس ، رقيق

البشرة، عظيم اللحية طويلها، اسمر اللون، كثير الشعر، له جمة أسفل أذنيه، ضخم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، أصلع الرأس، وكان يصفر لحيته . وكان بزازا وتاجرا وله ثروة واسعة فى قومه وكان شديد الكرم فيهم كثير البذل هيناً ليناً كثير الحياء حسن الخلق، لين العريكة: وكان له بذلك منزلة من قلوب الناس يحبونه ويهشون اليه ويحترمونه . وهو رضى الله عنه من السابقين الاولين فى الاسلام : أسلم بدعوة من أبى بكر فاضطهدته قريش ونالت منه، فهاجر الى الحبشة . وكان العرب يتعاهدونها قبل الاسلام بالتجارة . وهاجرت معه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التى كان تزوج بها قبل الاسلام أو بعده على خلاف بين المؤرخين: وهو رضى الله عنه أول من هاجر فى الاسلام ، وهاجر معه أحد عشر رجلا من المسلمين منهم أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، ثم لحق بهم جعفر بن أبى طالب وآخرون . وأرسلت قريش بعمرو بن العاص الى النجاشى يطلبون منه ردهم اليهم فلم يقبل . ومازالوا ببلاد الحبشة حتى بلغهم كذباً أن قريشاً قد أسلمت كلها ، فعاد عثمان ومعه نفر منهم الزبير بن العوام الى مكة ، وكان ذلك عام ثلاث أو أربع قبل الهجرة، فوجدوا المسلمين على حالهم من الهوان وسوء معاملة قريش لهم فاقاموا معهم على أذى قريش حتى أمر الله نبيه بالهجرة الى المدينة فهاجر عثمان اليها ومكث فى خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ماتت رقية زوجته، فزوجه صلى الله عليه وسلم بام كلثوم أختها، فكانوا لذلك يسمونه ذا النورين . وأقام عثمان فى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم يساعده بنفسه وماله ، ولما أراد رسول الله صلوات الله عليه تجهيز جيش العسرة ، أتى اليه عثمان بالف دينار وألقاها فى حجره اعانة للمسلمين ، فجعل رسول الله يقلبها ويقول : « ماضر عثمان ماعمل بعد اليوم » . ؟

مازال عثمان رضى الله عنه فى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبة صاحبيه يعمل معهم فى توطيد أركان الاسلام وتشييد بنيانه ، وكان آية من آيات الله فى مكارم أخلاقه وجميل صفاته وسديد آرائه ، حتى مات عمر رضى الله عنه . ولما دفن عمر بن الخطاب جمع المقداد أهل الشورى فى بيت المسور بن مخرمة فبايعوا عثمان بن عفان يوم الاثنين ، لليلة بقيت من

ذى الحجة سنة ٢٣ ، أو لثلاث مضين من المحرم سنة ٢٤ على رواية أخرى .

وأول عمل له فى خلافته أنه جمع الناس الى ناحية فى المسجد وشاورهم فى أمر عبيد الله بن عمر لقتله من قتل فاشار على بقتله . وقال عمرو بن العاص : لا يقتل عمر بالامس ويقتل ابنه اليوم ، وقد حصل هذا الحدث وليس لك على المسلمين سلطان . فجعلها عثمان دية واحتملها وقال أنا وليه . ثم كتب عثمان الى الولاة وعمال الخراج وعامة الناس كتباً بلغت النصح والارشاد ، وطلب الى عماله فيها السير فى طريق العدل والانصاف والمساواة بين الناس كبيرهم وصغيرهم ، مسلميهم وأهل ذمتهم ، وزاد فى اعطيات جيشه . وفى سنة ٢٦ سير عثمان حبيب بن مسلمة الفهرى ومعه سلمان بن ربيعة الى فتح أرمينية والقوقاز ، وكانا قد نقضتا الصلح بعد وفاة عمر فافتتحوهما ، وأقاموا على ثغورهما من يحفظهما من جند المسلمين . وبينما كانا يتساجان بجيوشهما فى هذه البلاد بينما كان معاوية يغير من جهة أخرى على بلاد الاناضول . وفى سنة ٢٧ استأذن معاوية عثمان رضى الله عنه فى غزو الروم من جهة البحر فاذن له ، وأرسل الى عبد الله بن سرح عامله على مصر بان يسير الى الشام اسطولا يساعد اسطول معاوية . وسار الاسطولان فافتتحا قبرص وصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار يدفعونها سنويا . وفى سنة ٢٩ فتح معاوية جزيرة اقريطش (كريد)، وقد كان عثمان أصدر أمره فى سنة ٢٥ الى عبد الله بن سرح بغزو افريقية [1]، فامر عقبة بن نافع على جند وأمر عبد الله بن نافع على جند آخر وسيرهما الى بلاد المغرب فصالحهم أهلها على مال يؤدونه اليهم ولم يمكنهم التوغل فيها لكثرة أهلها .

وفى سنة ٢٦ جهز عثمان من المدينة جيشاً لفتح افريقية وفيه ابن عباس وابن عمر وابن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وعبد الله بن الزبير ، فساروا مع عبد الله بن سعد بن أبى سرح حتى وصلوا برقة فلقيهم بها عقبة بن نافع فيمن كان معه من المسلمين ، وساروا الى طرابلس فقابلهم جيوش الروم وعليهم جريجوار (جرجير) فحصلت بينهم موقعة هائلة انهزمت فيها جيوش الروم بعد أن قتل عبدُ الله بن الزبير قائدهم جريجوار . وبذلك

(١) كانت العرب تطلق اسم افريقية على بلاد تونس .

صارت البلاد الى المسلمين فولى عثمان على افريقية عبد الله بن نافع، وعاد ابن سعد الى مصر. فلما بلغ قسطنطين بن هرقل امبراطور الروم خبر استيلاء العرب على بلاده فى افريقية جهز اسطولا كبيرا مؤلفا من ٦٠٠ مركب وسافر به من القسطنطينية الى تونس. فعلم به عبد الله بن سعد بن أبى سرح فخرج اليه من مصر فى اسطوله، وخرج معاوية فى اسطوله أيضا من سورية والتقوا بمراكب الروم وأثخنوهم، فانهزم قسطنطين بما بقى من مراكبه الى صقلية فقتله أهلها. والمسلمون يسمون هذه الواقعة بواقعة ذات الصوارى.

وكانت بلاد فارس قد انتقضت أطرافها فعزل عثمان فى سنة ٢٦ أبا موسى الاشعرى عن البصرة بناء على طلب أهلها لشدة رفاهته، وولى بدله عبد الله بن عامر القرشى وهو ابن خال عثمان وعمره اذ ذاك ٢٥ سنة، فبلغت جنوده الى أقاصى بلاد الاكاسرة. ثم انتقضت فارس فبلغ ابن عامر الخبر وهو بالبصرة فاستنفر الناس اليهم وسار وعلى مقدمته عثمان بن أبى العاصى وعلى خيله عمران بن حصين فلقيه الثائرون على اصطخر وحصل بينهم مواقع هائلة وافتتح اصطخر عنوة وفنى فى تلك المواقع أغلب بيوتات الاساورة لانهم كانوا جعلوا هذه المدينة مركزا لهم ثم وطىء ابن عامر بلاد فارس وطأة قضى فيها على ما كان بقى فيهم من عزة الملك وخيلاء السلطان. ثم سار الى خراسان وكانت قد انتقضت وسير على مقدمته الاحنف بن قيس وتقدم الى نيسابور فافتتحها الى هرات ثم سير الاحنف الى طخارستان فافتتحها الى مرو وسار منها الى بلخ فافتتحها أيضا. وسير عامر بن الربيع بن زياد الحارثى الى سجستان فافتتحها ثم انتقض أهلها فأرسل اليها عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس فافتتح بلادها الى حدود الهند.

وفى سنة ٣٠ سار سعيد بن العاصى أمير الكوفة الى طبرستان وكان فى جيشه الحسن والحسين وحذيفة اليمانى وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص فأوغلوا فيها بالفتح لكنها بعد ذلك كانت تنتقض فيغزوها المسلمون حتى استخضعها يزيد بن المهلب فى خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان.

ولما عاد بعض الناس من غزواتهم سألهم عثمان عن حال المسلمين فأخبروه بتعدد

قراءات القرآن فيهم، وقالوا الدان هؤلاء يقولون قرآننا خير من قرآن الآخرين وأولئك يقولون بل قرآننا خير من قرآنهم فطلب عثمان الصحف التى كان جمعها أبو بكر من حفصة بنت عمر واستكتب عشرة مصاحف منها وأرسلها الى الجهات ، وأمرهم أن يحرقوا كل ماعداها وبذلك كان حفظ القرآن الكريم على ماهو عليه اليوم من غير اختلاف ولا تغيير ولا تبديل بين أهل جميع الاقطار والامصار، وهو مالم يتيسر لكتاب غيره بالمرة .

ويقال ان أحد هذه المصاحف موجود بكتبخانة موسقو بالروسيا، وله صورة أخذت بالفوطوغراف موجودة بكتبخانتنا المصرية التى بها مصحف آخر يزعمون أنه من مصاحف عثمان، ويوجد فى الاستانة بخزينة الآثار النبوية مصحف يقولون انه منها . ويقولون ان المصحف الشريف الموجود بالحجرة الشريفة الآن منها أيضا

وفى مدة عثمان رضى الله عنه اتسع ملك المسلمين كثيرا وثبت قدمه بتلك الفتوحات التى ساحت فيها جيوشهم فى أملاك الروم والعجم .

الا أن عثمان كان يكثر من ولاية قرابته على الامصار، وكان يقرّب اليه بنى أمية ويستشيرهم فى أموره حتى ظهروا فى خلافته على قريش كلها، وصارت لهم بالمدينة أملاك واسعة وثروة طائلة وكان مشيره ووزيره وكاتب سره مروان بن الحكم وكان كثيرا مايعمل بفكره ويمضى له رأيه حتى بالغ الناس فى أن ختم عثمان كان مع مروان يمضى به مايريد . فنقم لذلك جماعة من قريش وكثير من صحابة رسول الله، وتذمرت الولايات مما كانوا يأخذونه على ولاتهم من سوء عملهم فخاطبوا فى ذلك عثمان وأوفدوا اليه وفودا يطلبون منه عزل بعضهم فلم يقبل : فزادت الفتنة وثار الناس من مصر والبصرة، وقصدوا المدينة فى جموع كثيرة ومازال علىّ كرم الله وجهه بينه وبينهم حتى قبل عثمان بعض مطالبهم وسافروا من المدينة، ثم أعادوا الكرة اليها وفى يدهم كتاب بختم عثمان قالوا انهم وجدوه مع رسول من عثمان الى ولاته بحبسهم وتعذيبهم، وكان منهم محمد بن أبى بكر . فحلف عثمان بانه لم يكتب ذلك ولم يأمر به ولا علم له به فنسبوه للضعف فطلب منه علىّ أن يبعد عنه مروان فلم يقبل فتركه واشتدت الفتنة وطلب الثائرون أن يعتزل عثمان العمل فلم يجبهم وكتب الى ولاته على الامصار بان

يوافوه بالمـدد، وكان ذلك باشارة من مروان : وخاف الثائرون شر ذلك فهجموا على داره وحاصروها ومنعوا الماء عنها • وأرادوا الدخول عليه فوجدوا على بابها عبـد الله بن عمر وعبد الله بن سلام وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ابنى على وأبا هريرة ومحمد بن حاطب وزيد بن ثابت ومروان بن الحكم والمغيرة بن الاخنس يمنعونها بسيوفهم • فتسلقوها من خلفها ودخلوا على عثمان والمصحف فى يده يقرأ فيـه فقتلوه : وقيل ان الذى قتـله رجل من مصر اسمه جبلة وكان ذلك فى ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ • ودفن عثمان رحمه الله فى البقيع وعمره ٨٦ سنة تقريبا وكان له من الولد عبد الله الاكبر وعبد الله الاصغر وهو من رقية بنت رسول الله توفى صغيرا ، وعمرو وأبان وخالد وعمر وسعيد والوليد وأم سعيد والمغيرة وعبد الملك وأم عمرو وعائشة •

أما عماله فى السنة التى توفى فيها ، فهم عبد الله بن الحضرمى على مكة ، والقاسم بن ربيعة الثقفى على الطائف ، ويعلى بن منبـه على صنعاء ، وعبـد الله بن عامر على البصرة ، ومعاوية بن أبى سفيان على الشام ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد على حمص (من طرف معاوية) ، وحبيب بن مسلمة الفهرى على قنسرين ، وأبو الاعور السلمى على الاردن ، وعلقمة بن حكيم الكنانى على فلسطين ، وأبو موسى الاشعرى على الكوفة ، وعلى خراجها جابر المزنى ، وعلى حربها القعقاع بن عمرو ، وجرير بن عبـد الله البجلى على قرقسيا ، والاشعث بن قيس الكندى على اذربيجان وعتبـة بن النهـاس على حلوان ، ومالك بن حبيب على الماه ، والنيسر على همدان ، وسـعيد بن قيس على الرى ، والسائب بن الاقرع على اصبهان ، وكان على مصر عبد الله بن سـعد ثم تغلب عليها محمد بن أبى حـذيفة ، وكان له على بيت المال عقبـة بن عامر . وعلى القضاء زيد بن ثابت

عليّ

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب . ولد كرم الله وجهه سنة ٢٥ قبل الهجرة، وحصل بمكة قحط في نحو السادسة من عمره فكفله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذه الى بيته وكان يحبه حباً جماً . ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان علي أوّل من آمن به بعد خديجة وأوّل من صلى معه من المسلمين : وكان يخرج مع رسول الله الى الصحراء فيصلي معه خفية ثم يعودان الى مكة . وكان ألصق الناس برسول الله: فتعلم من علمه وتأدب بأدبه . وكان أشبه الناس به في صورته : فكان رضي الله عنه: ربعة أدعج العينين عظيمهما، حسن الوجه كأنه قمر ليلة البدر، عظيم البطن، عريض المنكبين، له مشاش كمشاش السبع الضاري، لا يبين عضده من ساعده، قد أدلج دلاجا، شثن الكفين، عظيم الكراديس ، أغيد كأن عنقه ابريق فضة ، أصلع ليس في رأسه شعر الا من خلفه، أبيض اللحية ، قريب الى السمن ، ثبت الجنان ، اذا مشى الى الحرب هرول ، واذ أمسك بذراع رجل أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس . وكان رضي الله عنه كثير الصبر، شجاعا، مهيباً، ورعا ، زاهداً، أعلم الناس بدين الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وكان كرم الله وجهه شديداً في دينه، لا يرائي فيه ولا تأخذه في الله لومة لائم . وسئل مرة : لم نر معاوية أسوس منك يا أمير المؤمنين فقال والله مامعاوية بأسوس مني ولكن السياسة تميل الى الغدر ولست أميل اليه .

وكان رضي الله عنه ، فصيح اللسان ، قوي الجنان ، أكبر العرب بلاغة، وأكثرهم حكمة . ودونك بعض خطبه وحكمه بكتاب نهج البلاغة . مازال علي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أراد الهجرة فعلم بأن قريشاً أجمعوا أمرهم على قتله فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً بأن يلبس رداءه وينام في فراشه من ليلته وقال له اني مهاجر الى يثرب ، وأمره أن يلحق به بعد أن يؤدي عنه دينه، ويردما كان عنده من الامانات الى أربابها . وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجر علي بعد هجرته بثلاثة أيام بعد

أن أدى عن رسول الله الودائع التى كانت عنده للناس : وهو ثالث من هاجر . وبعد الهجرة زوّجه النبى صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة ، وكانت أحب الناس اليه فكان ألصق الناس برسول الله قبل الهجرة وبعدها . وجعل الله ذرية نبيه عليه الصلاة والسلام فى بنيه .

ومكث على يكتب لرسول الله وينصره على أعدائه ويقوم بخدمته خير قيام ، حتى اذا مات عليه الصلاة والسلام كان لصاحبيه أميناً معيناً مرشداً مُبَيِّناً للناس ما غمض عنهم من كلام الله وسنة رسوله . حتى اذا كانت خلافة عثمان كان فى عونه ونصحه ، ثم اعتزله فى آخر أيامه لما كان يحيط بابن عفان من بطانته التى كانت لا تنظر الى المصلحة العامة ، بجوار مصلحتهم الخاصة . فكان ما كان وقتل عثمان ، فاجتمع الناس على علىّ وأرادوا بيعته فأبى وقال : لأن أكون وزيراً لكم أحب الىّ من أن أكون أميراً . وكان الناس قد افترقوا فرقاً وأحزاباً : فمال أهل الكوفة الى الزبير وأهل البصرة الى طلحة ، وغيرهم الى سعد وابن عمر ، وذهب الناس الى علىّ وألحوا عليه فخرج الى المسجد فبايعه الناس ثم بايعه طلحة والزبير . وكان ذلك فى ٢٥ ذى الحجة سنة ٣٥ ﻫ . وجاءه طلحة والزبير وطلبا اقامة الحدود على قاتلى عثمان : فقال لا قدرة لى على شئ مما تريدون حتى يهدأ الناس ، وننظر فى الامور ، فتؤخذ الحقوق . فافترقوا عنه وأكثر الناس المقال فى قتل عثمان ، وفر بنو أمية الى الشام مع مروان . وفى اليوم الثالث نادى علىّ برجوع الاعراب الى بلادهم ، فتذمروا وأبوا . وأخذ علىّ يفرق عماله على الامصار فولى ابن عباس على الشام فلم يقبل ، وأشار عليه بأن يقر عمال عثمان حتى يهدأ الحال كيلا يحملوه شيئاً من دمه فلم يسمع له علىّ لشدته فى الحق . وبعث على البصرة عثمان بن حنيف ، وعلى الكوفة عمارة بن شهاب من المهاجرين ، وعلى اليمن عبد الله بن عباس ، وعلى مصر قيس بن سعد ، وعلى الشام سهل بن حنيف . فمضى عثمان الى البصرة فاختلفوا عليه وأطاعته فرقة منهم . ومضى عمارة الى الكوفة فلما بلغ زبالة لقيه طليحة وقال له ارجع فان القوم لا يستبدلون بأبى موسى . ومضى ابن عباس الى اليمن . ومضى قيس الى مصر فافترقوا عليه ، فرقة كانت معه وأخرى امتنعت عنه حتى ترى فعل على فى قاتلى عثمان . ومضى سهل الى الشام

فلقيه خيل عند تبوك فقال لهم انه أمير على الشام، فقالوا له ان كان بعثك غير عثمان فارجع فرجع وجاءت أخبار الآخر بن بمثل ذلك ، فجمع عليّ طلحة والزبير وقال لهما قد وقع ما كنت أحذركم منه فسألاه الاذن فى الخروج الى مكة للاعتمار فأذن لهما . وكتب الى أبى موسى فكتب اليه بطاعة أهل الكوفة و بيعتهم . وكتب الى معاوية فلم يجبه الى ثلاثة أشهر من مقتل عثمان، ثم أرسل اليه كتابا مختوما عنوانه من معاوية الى عليّ ففضه عليّ فلم يجد فيه شيئاً، فقال للرسول ما وراءك، فقال تركت قوما لا يرضون الا بالقود: قال ممن، قال منك : وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان منصوبا على منبر دمشق، فقال عليّ اللهم انى أبرأ اليك من دم عثمان ، قد نجا والله قتلة عثمان الا أن يشاء الله . ودعا أهل المدينة الى قتال أهل الشام وكتب الى ولاته على الامصار بأن يندبوا الناس اليه . وكانت عائشة خرجت الى الحج وعثمان محصور، فلما قصدت الرجوع الى المدينة بعد الحج بلغها فى الطريق قتل عثمان ومبايعة الناس لعليّ فعادت الى مكة . ولما وصل الزبير وطلحة الى مكة اتفقا مع عائشة على المطالبة بدم عثمان وساروا بألف رجل ممن كان على رأيهم من أهل مكة الى البصرة ومعهم كثير من بنى أمية منهم أبان بن عثمان وسعيد بن العاص والوليد بن عتبة وعبد الله بن عامر الحضرمى وكان والياً على مكة لعثمان وساعدهم بمال كثير، وساعدهم كذلك يعلى بن منبه الذى اشترى جملا بمائة دينار لم ير مثله فى العرب، وأركب عليه عائشة . فلما وصلوا البصرة دعوا أهلها لنصرتهم فلم يقبل منهم عثمان بن حنيف عامل عليّ عليها، فنتفوا لحيته وهشموا وجهه وقتلوا من كان معه وحصلت لهم موقعة مع من قام فى وجههم من البصريين ، وكانت الغلبة لعرب البصرة . و بلغ ذلك علياً فندب الناس اليهم وسار من المدينة بعد أن أقام عليها سهل بن حنيف وعلى مكة قثم بن العباس . وأرسل محمداً ابن أبى بكر ومحمداً بن جعفر الى الكوفة لاستنفار أبى موسى الاشعرى بأهلها فلم يقبل منهما أبو موسى كلاما ورد أهل الكوفة عن الخروج معهما فرجعا الى عليّ بالخبر وهو بذى قار ، فأرسل الاشتر وابن العباس الى أبى موسى فلم يجب لهما فأرسل ولده الحسن وعمار بن ياسر الى الكوفة فنفر معهما منها تسعة آلاف نفس منهم القعقاع ، وسعد بن مالك،

وهند بن عمرو ، والهيثم ، و زيد بن صوصان ، وعدى بن حاتم ، وغيرهم . وقدموا على على بذى قار ففرح بهم وأكرمهم وأرسل القعقاع الى البصرة ليدعو عائشة وطلحة والزبير الى الالفة والجماعة فقدم الى البصرة واجتمع بهم .

ومازال يقيم عليهم الحجة فى خروجهم حتى مالوا الى الصلح . فعاد الى على وأخبره بذلك ففرح بحقن دماء المسلمين وسار فى الناس حتى قدم البصرة ، وتردد عقلاء الناس بين الطرفين ، وتقابل على مع طلحة والزبير وكادت عرى الصلح تتوطد فيما بينهم ، ولكن الذين أثاروا هذه الفتنة من الامويين أحزنهم هذا الامر وباتوا يتشاورون وصمموا على اشعال نار الحرب ، فهجموا على جهة من جيش على وهم لا يشعرون ، فكثر صياح الناس وتساءل على عن الخبر ، فقالوا له ان جيش طلحة والزبير هاجم جيشه ، فركب فيمن معه واستحر القتال . وكانت عائشة راكبة جملا ومتنحية عن ساحة الحرب لتشرف على قومها وهى تشجعهم وتأمرهم بالصبر وتحرضهم على الكفاح واجتلد الناس أمام الجمل وقتل تحته خلق كثير فأمر على بعقر الجمل قبل أن تصاب عائشة فضرب ساق البعير فوقع الى الارض وقطع القعقاع مع زفر بطان البعير وحملوا الهودج من بين القتلى وأمر محمداً ابن أبى بكر أن يضرب عليها قبة ، وفر أصحاب الجمل فأمر على بعدم اتباع الفارين وعدم الاجهاز على الجرحى وسرح عائشة مع نفر من قومها رجال ونساء الى مكة من بعد أن ودعها أميالا فسافرت اليها وحجت ثم عادت الى المدينة . أما بنو أمية فانهم انهزموا الى الشام وقتل فى واقعة الجمل عبد الرحمن أخو طلحة والمحرز بن حارثة ومجاشع ومجالد ابنا مسعود وطلحة بن عبد الله وعبد الرحمن ابن عتاب وغيرهم وجرح عبد الله بن الزبير .

وبعد الواقعة دخل على البصرة فبايعه أهلها وولى عليها ابن عباس . ثم رجع الى الكوفة ، وبعث الى جرير بن عبد الله البجلى بهمدان والى الاشعث بن قيس باذربيجان وكانا من ولاة عثمان عليهما فحضرا اليه بعد أن أخذا البيعة من أهل البلدين فارسل جريرا الى معاوية يعلمه بمبايعة الناس له ويدعوه الى رأى الجماعة فاستبقاه معاوية عنده زمنا ، ثم اعتذر له بان أهل الشام يطالبون بدم عثمان ، ورجع جرير بالخبر الى على

فاستنفر الناس لحرب الشام، وقدم عليه ابن عباس برجال من البصرة وساروا الى المدائن ومنها الى الرقة والتقوا برجال معاوية على الفرات وقد ملكوا عليهم شريعة الماء وبادروهم القتال، فشكا الناس الى علىّ العطش فبعث الى معاوية يقول له انا سرنا ونحن عازمون على الكف عنكم حتى نعذر اليكم فسابقنا جندكم بالقتال ونحن رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك وقد منعتم الماء، والناس غير منتهيين فابعث الى أصحابك يخلون عن الماء للناس حتى ننظر بيننا وبينكم، وان أردت القتال حتى يشرب الغالب فعلنا، فلم يقبل معاوية، وكان ذلك أول ذى الحجة سنة ٣٦ وأرسل على الى معاوية رسلا ينصحونه ويطلبونه الى الصلح: فقال لهم ليس بينى وبينكم الا السيف فرجعوا الى على بالخبر، واقتتل العسكران أيام ذى الحجة كلها، واستأنف على ارسال رسله الى معاوية فى حقن دم المسلمين فلم يقبل: وابتدأ القتال بين العسكرين، وكان قواد معاوية حبيب بن مسلمة، وذو الكلاع، وأبو الاعور، وعمرو بن العاص، ومسلم بن عقبة، والضحاك بن قيس . أما قواد على فكانوا: الاشتر النخعى، وعبد الله بن عباس، وسهل ابن حنيف، وقيس بن سعد، وعمار بن ياسر، وهاشم بن عتبة، وعدى بن حاتم، ومسعر بن فدكى . واستعر القتال فاستماتت الناس من الطرفين جملة أيام، وأبلى الاشتر وعمار بلاء عظيما، وكانا كلما هجما فرقا جموع معاوية وشتتا رجاله وهجم عمار بقوم كانوا معه فدخل فى صفوف جيش الشام ومازال يفرق كتائبهم حتى تكاثروا عليه وقتلوه، فلما بلغ ذلك عليا حمل بالناس وهجم على جيش الشام فازالهم عن مواقفهم، ورأى عمرو بن العاص الغلبة فى جيش العراق فقال لمعاوية مر الناس يرفعون المصاحف على الرماح ففعلوا ذلك ، فقال جيش العراق نجيب الى كتاب الله، فقال على لهم امضوا فى حربكم والله ما رفعوها الا مكيدة، فلم يقبلوا وطلبوا اليه أن يمنع الاشتر ويزيد بن هانى من استمرارهما فى قتال معاوية، وحضر اليهم الاشتر وعنفهم وقال امهلونى فقد أحسست بالفتح فابوا وكثرت الملاحاة فيما بينهم فخاف علىّ وقوع الفتنة وأرسل الاشعث بن قيس الى معاوية يسأله سبب رفع المصاحف على الرماح ، فقال له لنرجع نحن وأنتم الى ما أمر الله به من كتابه، تبعثون رجلا ترضونه ونحن نبعث رجلا منا ونأخذ عليهما العهود بان يعملا بما فى كتاب الله ثم نتبع ما اتفقا عليه، فقبل الطرفان ذلك وقالت القراء من أهل العراق رضينا بان يكون أبو موسى الاشعرى فلم يرض به علىّ لعدم ثقته به واختار الاشتر، فابى

قوم من العراق الا أن يكون أباموسى، واختار معاوية عمرو بن العاص فحضر عند على ليكتب العهد بينه و بين معاوية بالحكمين وأخذ عليه المواثيق من رؤساء العسكرين وكان ذلك فى ١٣ صفر وأجلا الحكم الى رمضان فانصرف الناس الى بلادهم من صفين و رجع على الى الكوفة و بعض رجاله ينكرون عليه التحكيم . ولما جاء ميعاد التحكيم حضر الحكمان فى رجال من قومهما الى دومة الجندل، فخدع عمرو أباموسى وقال له الاحسن بنا أن يخلع كل منا صاحبه حقنا لدماء المسلمين وهنالك يبايع الناس من أرادوا، فقبل أبوموسى رأيه وصعد المنبر وخلع صاحبه، ثم صعد عمرو وقال الآن أباموسى خلع صاحبه وأنا أثبت صاحبى معاوية فهو ولى ابن عفان . وتفرق الناس بعد أن كادوا يقتتلون ولحق أبوموسى بمكة .

ولما أرسل على أباموسى الى التحكيم عارضه بعض الناس من أهل البصرة والكوفة، وطلبوا اليه أن يرسل غيره، فلم يقبل لسابقة عهده مع معاوية بذلك، فتركوا البصرة وخرجوا عليه وأمروا عليهم عبدالله بن وهب فى ١٠ شوال وقصدوا النهروان، ولما بلغ عليا خبر الحكمين أنكر عليهما ، وقال ان هذين الحكمين نبذا حكم القرآن واتبع كل واحد هواه واختلفا فى الحكم فاستعدوا للسير الى الشام وأخذ يحرض الناس على حرب معاوية فاجتمع لديه ثمانية وستون مقاتلا ، وكانت الخوارج التقت بعبدالله بن خباب الصحابى قريباً من النهروان فلما عرفوه سألوه عن الشيخين (أبى بكر وعمر) فاثنى عليهما وعلى عثمان، فسألوه عن حال على قبل التحكيم و بعده : فقال انه أعلم الناس بكتاب الله فقتلوه وقتلوا امرأته، فلما بلغ عليا ذلك ندب الناس اليهم وسار الى النهروان وأرسل الى الخوارج وكانوا أربعة آلاف يقول لهم ان من رجع الى الكوفة أو الى البصرة فهو آمن فرجع قوم منهم الى بلادهم وآخرون انضموا الى جيش على ولم يبق منهم الا ألف وثمانمائة فحمل عليهم على بن معه وقتلوهم عن آخرهم فى ساعة واحدة ، وقد قتل منهم عبدالله بن وهب، وحرقوص بن زهير، وأراد النهوض الى الشام فشكا اليه الناس التعب وعدم وفرة الذخيرة وطلبوا اليه أن يرجعوا الى الكوفة ليستعدوا للقتال و بعد وصولهم الى الكوفة بايام أخذ على يستحثهم على الخروج معه الى الشام وهم يتثاقلون ولم ينشط معه أحد، وكان عبدالله بن ملجم لحق بالحجاز مع البرك بن عبدالله التميمى، وعمرو بن بكر التميمى

وثلاثتهم من الخوارج، وتذاكروا فيما فيه الناس من الحروب، واتفقوا على قتل علیّ ومعاوية وعمرو بن العاص فى ليلة واحدة، وأخذ ابن ملجم على نفسه قتل علیّ وسافر الى الكوفة، وسار البرك الى الشام لقتل معاوية، ومضى عمرو بن بكر الى مصر لقتل ابن العاص وكان ولاه معاوية عليها بعد التحكيم. وأتى ابن ملجم الى الكوفة، ولما كانت الليلة التى عاهد صاحبيه عليها أتى المسجد. وجاء علیّ ونادى بالصلاة، فضربه ابن ملجم بسيفه على رأسه فوقع واستخلف على الصلاة جعدة بن هبيرة، وقبض الناس على ابن ملجم فاوثقوه وأتوا به عليا، فنادى بالحسن ابنه، وقال ان هلكت فاقتلوه كما قتلنى، وان بقيت رأيت فيه رأيى. وكان ذلك فجر يوم الجمعة ١٩ رمضان سنة ٤٠ ه. ومات علیّ بعد يومين قضاهما فى نصح المسلمين ووصية أولاده. وبعد دفنه أحضر الحسنُ ابنَ ملجم وقتله بسيفه الذى قتل به أباه.

وقد اختلف الناس فى المكان الذى دفن فيه علیّ: فنهم من يقول انه دفن فى قصر الكوفة، وبعضهم ذهب الى انه وراء سورها، وبعضهم يقول انه دفن بمقامه الحالى فى النجف. وكان عمره خمسا وستين سنة.

وكان له من الولد ١٤ ذكرا و ١٨ بنتا. والذكور هم: الحسن. والحسين. ومحسن: من فاطمة. ومحمد الاكبر المشهور بابن الحنفية. وأبو بكر. والعباس الاكبر. وعثمان. وعبدالله. ومحمد الاصغر. ويحيى. وعون: وقد قتلوا مع الحسين. وعُمَر الاكبر. ومحمد الاوسط. وجعفر. وعقبه من الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وعمر والعباس.

وبناته هن: أم كلثوم الكبرى وزينب الكبرى من فاطمة. ورقية. وأم الحسن. ورملة الكبرى. وأم هانئ. وميمونة. ورملة الصغرى. وزينب الصغرى. وأم كلثوم الصغرى وفاطمة. وامامة. وخديجة. وأم الكرم. وأم سلمة. وأم جعفر. وجمانة. ونفيسة.

وبعد موت على كرم الله وجهه بايع أهل الكوفة ابنه الحسن، وعاهده أربعون ألفا منهم على الموت دونه. وجدد اهل الشام البيعة لمعاوية وكانوا قد بايعوه بعد الحكمين فسار الحسن بجيشه قاصدا معاوية وعلى مقدمته قيس بن سعد، فأرسل معاوية من دس فى جيش الحسن خبر قتل قيس، فاهتاج الناس لهذا الامر وهجموا على سرادق الحسن ونهبوا ما فيه. ورأى الحسن

ان أهل الكوفة لا ينصرونه فال الى حقن دماء المسلمين، وكتب الى معاوية يذكر له النزول عن الامر بشرط أن يعطيه ما فى بيت مال الكوفة ومبلغه خمسة آلاف ألف ، وخراج دارابجرد من فارس . وأخبر بذلك أخاه الحسين وعبد الله بن جعفر فعذلاه فتركهما . وكان معاوية أرسل اليه عبد الله بن عامر يفاوضه فى النزول عن الامر ومعه ورقة بيضاء مختومة بختم معاوية ليشترط فيها ما يشاء . فكتب فيها أضعاف ما فى الصحيفة الاولى . فلما سلّم له وطالبه بالشرط أعطاه ما فى الصحيفة الاولى وقال هو الذى طلبت . وبهذا تم الأمر الى معاوية . وكان ذلك فى منتصف عام ٤١ ، ويسمونه عام الجماعة لان الناس رجعت فيه الى الاجماع على خليفة واحد .

﴿ الانصار ﴾

الانصار وهم الاوس والخزرج بطنان من الازد ، وكانت ديارهم مأرب باليمن ، فهاجروا مع من رحل عنها بعد سيل العرم فى القرن الثانى عشر قبل الاسلام ، ومروا على يثرب وكانت قرية فيها أسواق يقصدها أهل الجهات المجاورة ، وأهلها كانوا يهوداً ، وكانوا من بنى النضير ، وقريظة ، وبنى قينقاع وغيرهم . وكان لهم بها حصون يلجئون اليها عند الشدة . فنزل عليهم الاوس والخزرج على أن يكونوا تحت حكمهم ، ومازالوا كذلك حتى كان ما كان من سوء سيرة الفيطون أحد ملوك اليهود بيثرب وظلمه وغشمه . فاستغاث الاوس والخزرج بملوك غسان ، فساروا لنصرتهم ، وأوقعوا بيهود يثرب . ومن ثمّ صار الحكم فيها للاوس والخزرج وشاركوا اليهود فى أملاكهم ، وأصبحت لهم عصبية عظيمة . ولهم حروب مشهورة لها أيام معدودة من أيام الجاهلية : منها يوم سمير ، ويوم كعب ، ويوم الربيع ، ويوم البقيع .

وكانت الاوس والخزرج أصحاب نجدة وهمة وشجاعة وأمانة . وقد كان أتى مكة بعض منهم للحج فى مبدأ ظهور الدعوة الاسلامية ، فقابلهم النبى صلى الله عليه وسلم عند العقبة على يسار الصاعد الى منى قبيل المدرج الذى فى أسفلها ودعاهم للاسلام ، وقرأ عليهم شيئاً من القرآن ، فاجابوه وقالوا له ان بين قومنا شراً وعسى الله أن يجمعهم بك ، فان اجتمعوا عليك فلا رجل أعز منك . فلما قدموا المدينة ذكروا لهم النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعوهم الى الاسلام حتى فشا فيهم . وفى العام التالى وافى الموسم من الاوس والخزرج اثنا عشر رجلا ،

فلقوا النبي صلى الله عليه وسلم بالعقبة الاولى ، فبايعوه البيعة الاولى ، وكان من ضمنهم رافع بن عجلان وعبادة بن الصامت ، ثم انصرفوا الى المدينة . و بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، و يعلمهم قواعد الاسلام . فوصل المدينة واجتمع عليه رجال ممن أسلموا ، وسمع به سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما سيدا بنى الاشهل ، فذهب أسيد للايقاع به ، فقال له مصعب أوتجلس فتسمع ؟ فان رضيت أمرا قبلته ، وان كرهته كف عنك ما تكرهه . فقال أنصفت ثم جلس ، فكلمه مصعب فى الاسلام وقرأ له شيئاً من القرآن . فقال ما أحسن هذا ! وأسلم ، وانصرف واحتال على سعد حتى أخذه الى مصعب . فقال له مقالته الى أسيد ، وقرأ عليه قرآنا فاسلم سعد ، و باسلامهما أسلم القوم ، الا عددا قليلا أسلم بعد الهجرة . وعندها اتفق جماعة منهم على المسير الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فساروا الى مكة واجتمعوا عليه ليلا دون أن يعلم بهم أحد بعقبة الحديبية تحت شجرة كانت هناك و بمكانها الآن مسجد يسمى بمسجد الشجرة ، وعاهدوه على أن ينصروه: فسماهم الانصار . وهنالك أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة الى المدينة ، وكان أول من قدمها مهاجرا أبوسلمة بن عبد الاسد . و فى شهر ربيع الاول من هذه السنة هاجر الرسول الى المدينة ، وقدمها لاثنتى عشرة ليلة خلت منه ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه ، وقدم بهما دليلهما على قباء ، فنزل صلى الله عليه وسلم على كلثوم بن الهدم ، وأقام بينهم أياما ، بنى فيها مسجدها ، ودعا الناس فيه لصلاة يوم الجمعة ، وهى أول جمعة فى الاسلام ، خطب فيها عليه الصلاة والسلام . ثم سار الى المدينة فلما وصل الى مكان مسجده وكان مربدا لبنى النجار وكانت منهم أم أبيه عبدالله ، قال ثامنونى به . قالوا لا نبغى به الا ما عند الله . فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجدا ، وأقام هو فى دار أبى [1] أيوب الانصارى حتى بنى مسجده و بيته (بيت عائشة) . وكان يبنى فيه بيده الشريفة هو والمهاجرون والانصار . ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بين الانصار إحدى عشرة سنة ، كان فيما هم

---

(١) ابو أيوب الانصارى مات في حصار القسطنطينية سنة ٦٨٨ مسيحية ، أي فى نحو السنة السابعة والاربعين للهجرة ، وكان سار اليها مع الجيش الذي سيره معاوية لفتحها ، وله فيها مسجد شهير فى نهاية خليج قرن الذهب ، وهو محترم جدا لدي المسلمين والنصاري واليهود على السواء في عموم الاستانة . وأهلها يسمونه السلطان أيوب .

وللمهاجرين كلية كمالية علمية وعملية : تعلموا فيها الاخلاق الفاضلة ، والمزايا العالية ، والسيرة الحميدة ، والتربية القويمة ، والبلاغة فى الاقوال ، والمبالغة فى محاسن الاعمال ، فبعد صيتهم فى جلائل الصفات ، ومكارم الاخلاق ، والشجاعة ، والقوة ، والمنعة ، وشدة البأس ، التى ظهروا بها فى جميع المواقف التى أمرهم رسول الله بها ، أو شهدها هو معهم رضى الله عنهم . فلما توفى النبى صلى الله عليه وسلم وصار الامر بعده للمهاجرين واشتغل الناس بالفتح أخذ الانصار ينساحون فى أطراف البلاد الاسلامية بعد اتساع دائرتها بتلك الفتوحات المباركة حتى أصبح نسلهم فى المدينة الآن يكاد لا يكون له أثر . وسبحان من يرث الارض ومن عليها .

وكان أمر المدينة المنورة فى صدر الاسلام موكولا الى الخلفاء الراشدين أنفسهم حتى اذا خرج علىّ رضى الله عنه الى الكوفة بعد سير أهل مكة اليها للخروج عليه باهلها ، ولىّ على المدينة سهلَ بن حنيف الانصارى وهو أول ولاة المدينة فى الاسلام .

ومن هذا الوقت صار مركز الخلافة بعيداً عن المدينة وصارت ولايتها منفصلة عن ولاية مكة وكلتاهما تابعة لمركز الخلافة مباشرة . وكان الخلفاء يبالغون فى العناية بهما وينتخبون لهما ولاة من رجال الفضل والاصلاح ، حتى اذا داخل الضعف الخلافة العباسية وأخذت عمال النواحى تتغلب على أطرافها وتغلب على مكة بنو الاخضر فى نحو منتصف القرن الثالث ، أخذت يدهم تتطاول الى المدينة المنورة . وما زال الحكم فى المدينة مرتبكا حتى استولت القرامطة على مكة فزاد ارتباكا . ولما استولت الاشراف الحَسَنيون (١) على أم القرى فى منتصف القرن الرابع جعلت ولاية المدينة للاشراف الحُسَيْنيون وما زالت فى أيديهم الى سنة ١٠٩٩ ، وفيها صدر أمر الدولة العلية بتبعيتها لولاية الحجاز الى الان .

وهاك جدولا بولاة المدينة أخذنا أغلب أسماءهم من كتاب مرآة الحرمين واستخرجنا من ابن الاثير وغيره تواريخهم الى آخر زمنه ولم نوفق لوضع تواريخ كثير ممن بقى بعده .

---

(١) كان بنو الحسن وبنو الحسين يلقبون بالاشراف حتى جاء الشريف أبو نمى فخص الحسنيون بلقب أشراف وخص الحسينيون بلقب سادة : فيقولون الاشراف الحسنيون ، والسادة الحسينيون .

﴿ جدول أمراء المدينة المنورة (عن كتاب مرآة الحرمين) ﴾

زمن التولية		زمن التولية	
سنة هـ		سنة هـ	
٢٦	سهل بن حنيف الانصارى	١٢٥	يوسف بن محمد
٤٠	خالد بن زيد أبى أيوب الانصارى	١٢٧	عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز
٤١	مروان بن الحكم	١٣٠	محمد بن عبد الملك بن مروان
٤٩	سعيد بن العاص	١٣٢	داود بن على
٥٤	مروان بن العاص	١٣٣	يزيد بن عبيد الله بن عبد المدان الحارثى
٥٧	الوليد بن عتبة بن أبى سفيان	١٣٤	زياد بن عبيد الله
٦٠	عمرو بن سعيد بن العاص	١٤١	محمد بن خالد بن عبد الله القسرى
٦١	الوليد بن عتبة (ثانيا)	١٤٤	رباح بن عثمان المرى
٦٢	عثمان بن محمد بن أبى سفيان	١٤٥	عبد الله بن الربيع الحارثى
٦٣	عبد الله بن الزبير بن العوام	١٤٦	جعفر بن سليمان بن على
٦٥	مصعب بن الزبير	١٥٠	الحسن بن زيد بن الحسن بن على
٦٧	جابر بن الاسود	١٥٥	عبد الصمد بن على بن عبد الله
	عمر بن عبد العزيز	١٦٠	محمد بن عبد الله الكثيرى
	عثمان بن حبان		زفر بن عبد الله
	أبو بكر بن محمد بن عمرو	١٦٦	ابراهيم بن يحيي
٧٠	طلحة بن عبد الله		اسحاق بن عيسى
٧٣	طارق بن عمرو	١٦٩	عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر
٧٤	الحجاج بن يوسف الثقفى	١٧٠	اسحاق بن سليمان بن على بن عبد الله
٧٦	أبان بن عثمان		عبد الملك بن صالح
٨٢	هشام بن اسماعيل		محمد بن عبد الله
١٠١	عبد الرحمن بن الضحاك	١٧٨	محمد بن ابراهيم
١٠٤	عبد الواحد النضرى	١٨٠	موسى بن عيسى بن موسى بن محمد
١٠٦	ابراهيم بن هشام المخزومى		ابراهيم بن محمد
١١٤	خالد بن عبد الملك		على بن عيسى
١١٥	محمد بن هشام		عبيد الله بن مصعب

زمن التولية سنة هـ	
	بكار بن عبد الله
	محمد بن على
	أبو البحترى
	وهب بن منبه
	داود بن يحيى
٢٠٤	عبد الله بن الحسين بن عبد الله
٢٠٩	صالح بن العباس بن محمد بن على
٢٢١	محمد بن داود بن عيسى بن موسى
٢٣٧	على بن عيسى بن جعفر بن المنصور
٢٣٩	عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى
٢٤٣	عبد الصمد بن موسى
٢٤٥	محمد بن سليمان الزينبي بن عبد الله
٢٤٩	عبد الصمد بن موسى (ثانيا)
٢٥٠	جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى
٣٣٣	مسلم بن عقبة بن محمد القيلى
	أبو القاسم مسلم بن أحمد
	اسحاق بن محمد بن يوسف بن جعفر
	حسن بن طاهر الحسينى
	أبو على طاهر الحسينى
	مهنا بن أبى هاشم وداود بن قاسم
	أبو عمارة الحسينى
	حسين بن مخيط بن أحمد بن حسين
	شهاب الدين بن ابى عمارة بن مهنا
	مهنا الاعرج الحسينى بن حسين
	حسين بن مهنا الاعرج الحسينى
	أبو عبد الله بن مهنا الاعرج الحسينى
٥١٨	أبو فليته قاسم بن مهنا

زمن التولية سنة هـ	
	هاشم بن أبى عبد الله الاعرج
	جماز بن قاسم
٦٣٥	شيحة بن هاشم
٦٦٨	أبو سند بن جماز
	منيف بن شيحة
	مقيل بن شيحة
	كبش بن المنصور الحسينى
	فضيل بن المنصور الحسينى
	عطية « «
٧٨٣	محمد بن عطية «
٣٨٨	عمير بن قاسم الجمازى
	ثابت بن نضير الجمازى
	عجلان بن نضير الجمازى
	عزيز بن منازع
٨٢٥	حسن الجمازى الحسينى
	إيسان « «
	مانع بن على بن عطية بن منصور
	و يتان بن مانع
٨٣٩	قايتباى بن مانع الجمازى
	سليمان بن عزيز بن منازع الجمازى
	إيسان الجمازى (ثانيا)
	سليمان «
	زهير بن ايسان
	فسيطل بن زهير بن ايسان
	زهير بن ايسان (ثانيا)
١٠٩٩	حسين بن زهير .

سفر الحجيج من المدينة الى مصر

الطريق من المدينة ينقسم بالنسبة للحجاج الى أربعة طرق ، طريق نجد ولا يسلكه الآن الا عرب تلك الجهات غالباً ، وطريق الوجه : وهو الذى سلكه المرحوم سعيد باشا والى مصر سنة ١٢٧٧ هجرية حينما قصد زيارة قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام . ومحطات هذا الطريق هى : المدينة المنورة ، ثم آبار عثمان . (وفيها ماء ومزارع و بساتين) ، ثم محطة الضعيفى (وماؤها قليل) ، ثم محطة المليح (وماؤها حلو) ، ثم محطة الشجوى (وماؤها كثير) وكانت مجتمع ومفترق المحملين الشامى والمصرى فى سفرهما معابراً ، ثم محطة أبى الحلو (لحلاوة مائها) ، ثم محطة القفارات (ولا ماء فيها) ، ثم محطة الفقير (وماؤها عذب) ثم محطة مطر (ولا ماء فيها) ، ثم محطة الخوثلة (وماؤها عذب) ، ثم محطة أم حرز (ولا ماء فيها) ، ثم قرية الوجه . ومنها كانوا يسيرون الى السويس براً أو بحراً .

وطريق ينبع : وهو الطريق الاكثر استعمالا ، ومنه يرجع سواد الحجيج المصرى والروسى والمغربى ، والسودانى ، واليمنى والجاوى ، والهندى ، وغيرهم . وهذا الطريق ينقسم الى شعبتين : شعبة قبيل الحمراء تمر على ينبع النخل ومنها الى ينبع البحر ، وعربان هذا الطريق من جهينة ، وأرضه رملية ناعمة . والشعبة الاخرى بعد الحمراء وتمر على نقب الفار (نقب علىّ) وهو ممر صعب بين جبلين شاهقين فى طريقه كثير من الاحجار الضخمة على طول نحو ٢ كيلومتر ولا تمر منه الجمال الا جملا جملا ، و فى الغالب ينزل عنها ركابها لتعسر السير عليها فيه ، و يسمون هذا النقب بقلعة حرب لمنعة الجبال التى تشرف عليه ، ومنه يخرج المسافر الى الصحراء التى توصله الى ينبع البحر .

وهذا الطريق من الحمراء نصفه الشرقى للحوازم ، و نصفه الغربى للاحامدة . ومتوسط المسافة بين المدينة المنورة و ينبع ٢٣٠ كيلومتراً ، فاذا أضفنا اليها ٤٥٠ كيلومتراً ما بين المدينة ومكة ، و ٤٠ من مكة الى عرفة ذهابا و إيابا ، و ٨٠ من جدة الى مكة ، يكون مجموعها ثمانمائة كيلومتر ، وهى كل ما يركبه الآن الحاج المصرى براً .

فاذا وصل الحجاج الى ينبع انتظروا بها المراكب التى تنقلهم الى بلادهم، وغالباً ينتظرون فيها أياما كثيرة لعدم انتظام حركة نقلهم الناشئ عن قلة المراكب. وهنالك يكثر عناؤهم ويسوء حالهم وتشتد فاقتهم، وتفتك فيهم الامراض لكثرة الاقذار التى تحيطهم من فضلاتهم، وخصوصاً من عدم صلاحية مياه الشرب.

وقد رتبت الحكومة المصرية لهم كونداتسه فى زمن الموسم ترشح لهم ماء البحر ولكن عملها غير منتظم وماؤها لا يصرف الا باذن خصوصى لا يصل اليه فقراء الحجيج. ولا أظن الا أن هذا من تعنت العمال الذين يجدر بحكومتنا السنية أن تشدد عليهم كل التشديد فى القيام بواجبهم.

ويا حبذا لو انتبهت الى ذلك الحكومة العثمانية الجديدة، وأسعفتها شركات السفن وخصوصاً الشركة الخديوية، فانهم يخففون عن الحجاج المساكين كثيراً من عنائهم مما يشكرهم عليه الانسانية.

ومن ينبع يصل حجاج مصر الى الطور لتمضية أيام الكورنتينا ان كان هناك حجر صحى: وهو مكان فسيح على طول ٣٣ درجة و٣٧ دقيقة وعرض ٢٨ درجة و١٤ دقيقة وبينه وبين السويس ١٢٥ ميل، ومن هناك تأتى بشائر الحجاج بوصولهم الى مصر بالسلامة على لسان البرق أو البريد، وكانت قبلهما تصل عن يد بعض الافراد الذين كانوا يحضرون من مصر لهذا الخصوص ويعودون من الطور أو الوجه بما يبشر أهل الحجاج بسلامتهم نظير البقاشيش التى كانوا يأخذونها.

والطور قرية صغيرة على شاطئ خليج السويس الشرقى، وأغلب سكانها من الاقباط والاروام، وفى ضواحيها كثير من البدو، ويقرب منها عين ماء ساخن عليها بناء لعباس باشا الاول يسمونه حمام موسى، ويقولون انه نافع للامراض الروماتزميه. وعلى مسافة يومين بالجمال من هذه القرية دير الطور المشهور، وفيه بساتين تنتج كثيراً من الفاكهة، وفى شماله بشرق جبل المناجاة الذى كلم الله عليه موسى وذكره فى القرآن الكريم فى غير موضع، ويقصد هذا الدير حجاج الروس بعد نزولهم من بيت المقدس فيزورونه ثم يرجعون الى بلادهم. وفى شرق هذه القرية محجر الطور، وهو فى نقطة صحية جداً وفيه مباخر وافية بالغرض، وأحذية

مرتبة، و بناؤها نظيف ، وفيه اسبتاليات على غاية من النظام، ولكل مرض قسم مخصوص منها. ولقد أصبح هذا المحجر بعناية الحكومة المصرية أحسن محجر صحى فى العالم . ولا شك أن بعض الصعوبات التى يلاقيها فيه الحجاج لابد وأن تزول قريباً بحسن عناية الحكومة واستمرارها على الاهتمام براحة الحجيج .

أما الطريق الرابع فهو طريق السكة الحديدية الى الشام وهو الذى افتتحته الدولة العلية رسمياً بأول قطار للمدعوين الى هذا الاحتفال وصل الى المدينة المنورة فى ثالث شعبان سنة ١٣٢٦ الموافق ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٨ . وتسافر عليه الآن حجاج الشام والترك والروسيا وكثير من المصريين وخصوصاً برسم الزيارة .

و إتماماً للفائدة نقول لك ان المسافة بين المدينة المنورة ودمشق الشام تبلغ ١٣٠٢ كيلو متر، والى حيفا ١٣٣٣ كيلو تقطعها الوابورات فى أربعة أيام تقريباً، ومتوسط سيرها فيها ٨٠ ساعة . وسير القطارات من الشام الى معان على متوسط ٣٠ كيلو فى الساعة، ومن معان الى المدينة على متوسط ١٥ كيلو فى الساعة . وأجرتها فى الدرجة الاولى من حيفا الى المدينة ذهاباو إياباأربعة عشر جنيهاً ، و فى الدرجة الثالثة نصف هذا القدر ، وليس فيها درجة ثانية

إلا أن عربات الدرجة الاولى ضيقة و فى كل عين منها ستة مقاعد منفصلة بحواجز (مساند) ثابتة ، والمسافر فيها الى المدينة يعانى مشقات كبيرة، وخصوصاً فى الليل الذى يقضيه كما يقضى النهار جالساً . وكان الاولى بها أن تكون ذات أربع مقاعد يمكن تجهيزها ليلاً الى أربعة أسرة لنوم المسافرين فيها . لذلك ترى كثيراً من الركاب يفضلون ركوب الدرجة الثالثة وخصوصاً عربات البضاعة حيث يمكنهم أن يفرشوا بها فراشهم و ينامون و يجلسون على راحتهم . وأملنا فى رجال الدولة حرسها الله أن يفكروا فى ذلك حتى تكون عربات الدرجة الاولى وافية براحة المسافرين فى هذه المسافة الطويلة .

﴿وهاك جدولا بمحطات الطريق الحديدى من دمشق الى المدينة﴾

أسماء المحطات	المسافه بالكيلو	ارتفاعها عن سطح البحر	المحطات التي فيها ماء	أسماء المحطات	المسافه بالكيلو	ارتفاعها عن سطح البحر	المحطات التى فيها ماء
قدم شريف	٠٠	٦٨٦	☆	حالات عمار	٥٩٥	٧٦١	
كسوة	٢١	٧٣٥	☆	ذات الحج	٦٠٨	٦٩١	☆
دير على	٣١	٧٠٠		بئر هرماس	٦٣٢	٧٤٧	☆
مسجد	٥٠	٦٢٠	☆	الهضم	٦٥٤	٧٥٤	
حباب	٦٣	٦٤٣		الحطب	٦٧٧	٧٥٠	
خبب	٦٩	٦٢٤		تبوك	٦٩٢	٧٧٥	☆
محجة	٧٨	٦٠١		وادي الاثيل	٧٢٠	٨٤٤	
شغرة	٨٥	٥٩٩		دار الحج	٧٤٤	٩٠٤	
أذرع	٩١	٥٨٧		مستبقة	٧٥٥	٩٥٠	
خربة الغزالة	١٠٦	٥٧٥		الاخضر	٧٦٠	٨٨٢	☆
الدرعا	١٢٣	٥٢٩	☆	جبيس	٧٨٢	٩٠٨	
نصيب	١٣٦	٥٨٦		دى يسعد	٨٠٥	٩٦٤	
المفرق	١٦٢	٧١١	☆	المعظم	٨٢٢	٩٨١	❊
خربة السمراء	١٨٥	٥٥٨		خشم صنعاء	٨٥٣	١٠٣٣	
الزرقاء	٢٠٣	٦١٧	❊	الدار الحمراء	٨٨٠	١١٠٣	
عمان	٢٢٢	٧٣٧	☆	المطلع	٩٠٤	١١٥١	
القصر	٢٣٤	٩٤١		أبو طاقه	٩١٨	٩٦٦	
لوبن	٢٤٩	٧٧٢		المرجم	٩٣٠	٩١٤	
الجيزة	٢٦٠	٧٢١	☆	مداين صالح	٩٥٥	٧٨١	❊
الضبعة	٢٧٩	٧٥٢		العلا	٩٨٠	٦٨٤	☆
خان زبيب	٢٩٥	٧٨٢		البدايع	٩٩٩	٦٠٣	☆
سواق	٣٠٩	٧٥٨		مشهد	١٠١٢	٦٧٠	
قطرانة	٣٢٦	٧٨٣	❊	سهل المطران	١٠٣٤	٦٠٠	
منزل	٣٠٨	٨٤٠		زمرد	١٠٤٩	٧١٤	
فريفرة	٣٦٧	٨٩٣		البئر الجديد	١٠٧٢	٧٣٩	
الحسا	٣٧٨	٨٢٢	☆	الطويرة	١٠٩٠	٦٧٠	
جروف الدراويش	٣٩٧	٩٥٨	☆	المدرج	١١١٦	٤٦٠	
عنزة	٤٢٣	١٠٥١		هدية	١١٣٣	٣٨٥	
وادي الجردون	٤٤٠	١٠٨٠		جداعة	١١٥٥	٤٥٧	☆
معان	٤٥٩	١٠٨٤		ابو النعم	١١٤٣	٤١٨	
غدير الحج	٤٧٥	١٠٠٠		اصطبل عنتر	١١٨٩	٥٣٠	☆
بئر الشيدية	٤٨٧	٩٩٦		بوير	١٢٠٨	٤٧٢	
عقبة	٥١٤	١١٥٢		ديار ناصف	١٢٢٨	٤٨٩	
بطن الغول	٥٢٠	١١٢٥		بواط	١٢٤٧	٥٣١	☆
وادي الرتم	٥٣٠	٩٩٤		الحفيرة	١٢٦٨	٥٤٠	
تل الشحم	٥٤٦	٨٥٠		الحيط	١٢٨٧	٧٥٠	❊
الرملة	٥٥٥	٨٠٦		المدينة المنورة	١٣٠٢	٦١٩	
المدورة	٥٧٢	٧٣٤	☆				

ومن محطة الدرعا يخرج فرع حديدى الى حيفا ومحطاته هي : المزيريب ، تل شهاب ، زيزون ، وادي كليب ، المقارن ، شجرة ، صماخ ، الحمه ، جسر المجامع ، بيسان ، العفوله ، الشمال ، حيفاء

المحاجر والكورنتينات

لفظ كورنتينه أو كارانتينه أصله فرنساوى (Quarantaine) ومعناه الشئ الذى يبلغ عدده تقريباً الى أربعين . والفرنج يقولون ان جمهورية ڤينسيا (البندقيه) لما رأت أن الاوبئة كانت تأتى الى أوروبا من طريق الشرق ومن بلاد المغرب بشمال افريقية ، اهتمت لهذا الامر ، لان مراكبها هى التى كانت تصل الشرق بالغرب ، وعينت لاول مرة سنة ١٣٤٨ مسيحية ضباطاً صحيين كانوا يقومون بتفتيش السفن التى كانت تأتى من الخارج الى ثغورها البحرية . وفى سنة ١٤٠٣ أقامت أول محجر صحى سمته لازاريت (Lazarette) وجعلته فى جزيرة صغيرة قريبة منها بالبحر الادرياطيقى اسمها سانت مارى دونازاريه (Sainte Marie de Nazareh) وكانت تحجر فيها على البضائع والاشخاص القادمين على بلادها من الشرق . ومشى على أثرها فى القرن الرابع عشر والخامس عشر ثغور البحر الابيض المتوسط العظمى ، فاقامت جنوه محجراً صحياً سنة ١٤٦٧ ، وأقامت مرسليا محجراً فى سنة ١٥٢٦ . وأول من اتخذ الاحتياطات الصحية ضد الطاعون فى بلاده هو الملك رينيه (René) ملك نابل (نابولى) فى سنة ١٤٧٦ م وزادت العناية بها فى سنة ١٦٥٦ م التى فشا الطاعون فيها ببلاد ايطاليا كلها حتى أنهم كانوا يحرقون الموتى لعدم استطاعتهم دفنهم .

ولما ظهر الوباء الاصفر فى كاتالونيا (مقاطعة باسبانيا عاصمتها برشلونه) اهتمت أوروبا لهذا الامر وعملت فرنسا قانونا للكورنتينات فى ٣ مارث سنة ١٨٢٢ وهو أساس النظامات الصحية للمحاجر . وقد أدخل على هذا القانون تعديلات مهمة فى ١٧ اغسطس سنة ١٨٤٧ ثم فى ١٠ اغسطس سنة ١٨٤٩ ثم فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٥٠ .

هذا ما كان فى أوروبا بخصوص الكورنتينات ، أما بمصر فان (محمد على) ذلك المصلح الكبير فكر فى ضرورة انشاء مجلس صحى بها وشكل فى سنة ١٨٢٠ ميلادية مجلساً كانت أعضاؤه من حكماء الجيش وصيدليته . وفى سنة ١٨٢٥ ادخل كلوت بك على هذا المجلس

نظامات جمة وسماه مجلس الصحة العمومى . ولما دخلت الكوليرا فى مصر سنة ١٨٣١ زادت عناية محمد على بهذا المجلس وادخل اليه نظامات الكورنتينات باوروبا خدمة للامور الصحية والتجارية فى جميع البلاد الواقعة على البحر الابيض المتوسط، فجمع قناصل الدول وشكل منهم لجنة للنظر فى الامور الخاصة بالكورنتينات وأصدر بذلك دكريتو فى ١٨ اكتوبر سنة ١٨٣١، وفى سنه ١٨٣٢ بنى بالاسكندرية أول محجر صحى (Lazarette) فى الشاطبى، ولا يزال الاسكندريون يسمونها مظريطه أو الاظاريطه الى الآن .

وكان من ضمن هذا المجلس عضو مصرى اسمه طاهر بك، وكانت له الكلمة العليا فى أعمال المجلس لثاقب فكره وكبير همته والعناية التى كان يبذلها فى مصادمة ذلك الوباء الذى ذهب بأغلب السكان فى الوجه البحرى . وفى أواخر سنة ١٨٣٩ الغى محمد على هذا المجلس القنصلى ولم يحفل باحتجاجات الدول عليه فى هذا الصدد وشكل ادارة الصحة العمومية بمصر وجعل رئيسها ناظر الاشغال العمومية والتجارة وجعل لها سبعة أعضاء : منهم طاهر بك السابق ذكره، وستة انتخبتهم الحكومة المصرية من أعيان التجار . وفى مدة عباس باشا الاول أهملت هذه النظامات الصحية، فطلبت منه الدول الرجوع الى النظامات الاولى القنصلية فلم يجب طلبها بل ولم يعرها أية التفاتة . فاخذت فرنسا تسعى جهدها فى تشكيل مؤتمر دولى صحى من الدول ذوات المصلحة فى البحر الابيض المتوسط فتم لها ذلك واجتمع هذا المؤتمر فى باريس وكان فيه أعضاء من فرنسا ومرسليا والنمسا واسبانيا وايطاليا واليونان والبورتوغال وسردينيه والروسيا وتسكانيا وتركيا، وعملوا قانونا فى ٤ يونيه سنة ١٨٥٣ راعوا فيه السهولة فى الحجر خصوصاً على البضائع : لان العلم كان وصل باكتشافاته المفيدة الى ان أغلب الاوبئة ليست معدية . ولم توافق انكلترا على قرارات المؤتمر واتخذت احتياطات خصوصية لموانيها .

وكان من نتيجة هذا القانون أن تشكل مجلس صحى دولى فى الاستانة ومجلس فى الاسكندرية ووظيفتهما اعلان أمر الاوبئة عند ظهورها وعمل الاحتياطات اللازمة للوقوف فى وجهها حتى لا تصل الى أوروبا، ولقد تقرر أيضاً تعيين بعض اطباء يركبون

البحر على الدوام الى الشرق الاقصى ليرسلوا الى المجلسين بملاحظاتهم الصحية على البلاد التى يمرون عليها .

وعليه فقد اهتم سعيد باشا وشكل فى سنة ١٨٥٤ مجلساً صحياً والحقه بنظارة الداخلية فى ٢١ ابريل سنة ١٨٥٧ ، وجعل من حقه النظر فى الامور الصحية من داخل البلاد ، كما شكل لجنة للنظر فى الامور البحرية الصحية (الكورنتينية) ، وكانت يد هذه المصلحة الاخيرة مغلولة عن التصرف بدون ارادة الحكومة المصرية الى سنة ١٨٨١ التى صدر فى ٣ يناير منها دكريتو بفصل ادارة المصلحتين عن بعضهما ، وذلك بناء عن اتفاق من الدول مباشرة ، وسميت الاولى مصلحة الصحة العمومية وجعل مقرها مصر ، وسميت الثانية مجلس الصحة البحرية والكورنتينات المصرية وجعل مقره بالاسكندرية ، ثم تغير هذا الدكريتو بدكريتو آخر صدر بتاريخ ١٩ يونيه سنة ١٨٩٣ بناء على قرارات مؤتمر باريس المنعقد فى السنة المذكورة .

وهذه الكورنتينات كلها لم يكن الغرض منها الحجر على الحجاج لان سفرهم من وإلى مكة كان على طريق البر ، وكانوا يفتكرون أن طول مسافة هذا السفر مطهرة لهم من الاوبئة ، الا أن شدة كوليرا سنة ١٨٥٨ فى بلاد الحجاز جعلت أغلب الناس يفر منها الى مصر من طريق البحر على القصير . فاحتاطت الحكومة المصرية لهذا الامر وضربت الحجر على الحجاج لاول مرة فى بئر عنبر فى وسط المسافة بين القصير وقنا . أما الحجاج الذين سافروا مع القافلة عن طريق العقبة فانها منعتهم من الدخول الى السويس وضربت عليهم الحجر فى عجرود .

ومن هذا العهد رأوا ضرورة اقامة محجر صحى فى الطور الا أن مؤتمر القسطنطينية رأى الاستعاضة عن الطور بالوجه لان سواد الحجاج كان يسافر عليه براً ، واستمر الحجر فيه أو فى رأس ملعب على ركاب القوافل ، وفى الطور أو عيون موسى على ركاب البحر كلما كانت تقضى بذلك الضرورة الى سنة ١٨٧٧ التى من ابتدائها كثر سفر الحجاج من طريق البحر . وهنالك أخذت الحكومة المصريه فى اكمال الاستعدادات فى الطور حتى صارت فى سنة ١٨٩٣ وافية بالغرض منها . ومن ثم أصبحت هى المكان الوحيد الذى تعمل فيه الكورنتينا على الحجاج المصريين أو الذين يمرون على مصر ولا تزال الاصلاحات تدخل اليه من وقت الى آخر

ومن العجب أنه قد ورد فى مادة (Lazarette) بقاموس لاروس الكبير ، ان بعض الافرنج قال ان أصل هذا اللفظ أتى من الكلمة العربية (الازهرية) وذلك لان الازهر بمصر انما هو ملجأ للعميان والشيوخ المتقاعدين ، وهو كلام أساسه الجهل المطبق أو التحامل على الازهر والازهريين ولو أنصف القوم لعرفوا لهذه الجامعة الاسلامية حقها فى خدمة العلوم على اختلاف أنواعها . فكم لها آيات من العرفان على بنى الانسان تذكر فتشكر . ولا غرو فاهتمام الجناب العالى الخديوى وحكومته السنية بالازهر الآن لابد وأن يجعله يوما من الايام فى مقدمة الجامعات الكبرى نظاما واحكاما .

أما كلمة لازاريت (Lazarette) فهى لاطينيه معناها (Ladre) يعنى الابرص أو المجذوم . وكانت الدولة الرومانية تبالغ فى الحجر على المجذومين بل كانوا يضعونهم تحت الحجر طول حياتهم وكان عقاب من يخرج عن نطاقه منهم أن يضرب بالرصاص ، وهو قانون حق لولا أنه مبالغ فى شدته ، وقد ورد فى الحديث الشريف « فر من المجذوم فرارك من الاسد » . وقد أقام الوليد بن عبد الملك الملاجئ فى انحاء دولته وجمع اليها المجذومين وأجرى عليهم الارزاق وهو أول من أقام الملاجى ممن هذا القبيل .

هذا هو تاريخ الحجر الصحى عند الافرنج . ولكن يرى المطلعون على التاريخ أن المسلمين رأوا ضرورة هذا الحجر قبلهم . فقد ورد فى تاريخ ابن الاثير فى اخبار السنة الثامنة عشرة من الهجرة ما نصه :

وكان عمر بن الخطاب قدم الى الشام فى مدة ذلك الطاعون (وهو طاعون عمواس الذى فتك باهل الشام فتكا ذريعاً) ، فلما كان بسرغ وهو موضع قرب الشام بين المغيثة وتبوك لقيه أمراء الاجناد منهم أبو عبيدة بن الجراح ، فاخبروه بالوباء وشدته ، وكان معه كثير من المهاجرين والانصار لانه خرج بهم غازيا . فجمع المهاجرين الاولين والانصار فاستشارهم فاختلفوا عليه : فمنهم القائل خرجت لوجه الله فلا يصدك عنه هذا ، ومنهم القائل انه بلاء وفناء فلا نرى ان تقدم عليه ، فقال لهم قوموا ، ثم احضر مهاجرة الفتح من قريش فاستشارهم فلم يختلفوا عليه وأشاروا بالعود ، فنادى عمر فى الناس انى مصبح على ظهر ، فقال أبو عبيدة أفرارا من قدر

الله ؟ فقال لو غيرك قالها يا أبا عبيدة (يعنى لانتقمت منـه) نعم نفر من قدر الله الى قدر الله .
أرأيت لو كان لك ابل فهبطت واديا له عدوتان: احداهما مخصبة، والاخرى مجدبة، أليس
ان رعيت المخصبة رعيتها بقدر منه، وان رعيت المجدبة رعيتها بقدر منه ؟ وكان عبد الرحمن بن
عوف غائباً فحضر فاخبر أنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً فى ذلك وهو قوله صلى الله
عليه وسلم « اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه واذا وقع ببلد وأنتم به فلا تخرجوا فراراً
منه » فكان ذلك الحديث موافقا لما رآه عمر رضى الله عنه فانصرف بالناس الى المدينـة .
وقد ورد هذا الحديث بالبخارى فى الجزء الرابع بكتاب الطب بهذا النص : حدثنا حفص
ابن عمر حدثنا شعبة قال أخبرنى حبيب بن أبى ثابت قال سمعت ابراهيم بن سعد قال سمعت
أسامة بن زيد يحدث سعدا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اذا سمعتم بالطاعون بارض
فلا تدخلوها واذا وقع بارض وأنتم بها فلا تخرجوا منها »، وقال شراح الحديث ان المنع من
الدخول لا يتناول من كانت للمرضى مصلحة فى دخوله كالاطباء وغيرهم . وهل هذا الحديث
الشريف الا قانون صحى وضع للناس قبل أول قانون وضعته فينسيا (البندقيه) بثمانية قرون

الطريق الى الحرمين فى غابره وحاضره

﴿ ولقب الحاج عند عامة المسلمين ﴾

كانت طريق الحجيج الى بيت الله الحرام كلها مشـقات وأخطار فى الزمن السابق بمـا
كانت تلقيه يد الطبيعة فى سبيلهم من الشـدائد الطبيعية التى كانت تفتك بسوادهم فى الطريق
من حر الصيف وقرّ الشتـاء ، أو جفاف ماء الآبار فى هـذه الصحراء المحرقـة ، وما كان
يدهمهم فيها من السيول التى أشد ما حصلت فى سنة ١١٩٦ حيث اجتاحت نصف الحجيج
المصرى بين مكة والمدينة . وعدا هـذه الشدائد الطبيعية فكثيراً ما كانت توقع بهم يد أشرار
الاعراب، وأقسى ما وقع لهم فى سنة ١٢٠٠، وكان أمير الحاج المصرى أمسك بعض لصوص
حرب فى طريق المدينـة و وسمهم بالنار على خـدودهم . فصرخت صرختهم وتلاحقت به

قبائل حرب وحملوا عليه فهرب مع عسكره ووقعت الحجاج بين أيديهم فأفنوهم عن آخرهم وأخذوا ما كان معهم من سلب وذخيرة . وكثيراً ما كان تجاذب السلطة بين أشراف مكة وبعضهم ، أو حربهم مع قبائل الاعراب ، أو اختلاف أهل مذهب مع أهل مذهب آخر : يقفل في وجوه الحجاج أبواب مكة أو المدينة بعد وصولهم الى هذه أو تلك فيرتدون عن الاولى من غير تأدية المناسك وعن الثانية بدون زيارة السيد الرسول ، ويعودون الى بلادهم وقد أضافوا على متاعبهم الاولى مشقات جديدة تزيد في شدتها عليهم آلامهم المعنوية من حرمانهم من أمنيتهم فتضعف قواهم وتخور عزائمهم ، وغالباً ما كانت تشتتهم يد الفوضى وتعرض بهم حال الضعف الى النهب والسلب !! كل ذلك كان يحصل لحجاج بيت الله الحرام والناس لا يمنعهم عنه مانع ولم يسمع أنهم انقطعوا عنه من أنفسهم في سنة من السنين ، اللهم الا ما قعد ببعضهم من غير جزيرة العرب أيام القرمطي والوهابي لان الطريق كانت مقطوعة عليهم ، ولم يسمع بان جميع المسلمين أهملوا هذا الواجب مطلقاً ولم يقف أحد منهم بعرفة من مبدأ الاسلام الى الآن ، الا في سنة ٦٥٤ التي لم يحج فيها أحد للفتنة التي كانت بين الاشراف على امارة مكة : لذلك كانت الحجاج اذا طلعوا الى أداء هذه الفريضة كانوا أول ما يستعدون على سلاحهم كأنهم سائرون الى دار حرب لا الى دار قد أمن الله فيها حياة الانسان والحيوان بل وحياة الاشجار ، فاذا عادوا الى بلادهم استقبلهم أهلوهم وذووهم بالطبول والزمور فيقيمون لهم الافراح والليالي الملاح بعد ان يعدوا لهم كل ما فيه راحتهم ورفههم من نقش الدور وتجديد ما قدم عهده فيها من فرش وغيره لا فرق في ذلك بين أمير أو فقير . وكانت الطبقة الصغرى ، وهي سواد الحجاج وأكثرهم مشقة طبعاً ، تزوق لهم وجهات منازلهم : فيرسمون عليها صورة المحمل وقافلته وحرسه ويرسمون الى جانبها نخلة قد ربط الى جذعها سبع وضبع في سلسلتين من حديد ويقرب منهما رجل قد أشهر سيفه في يده اشارة الى أن صاحبنا حفظه الله تغلب بقوته وشجاعته على ما صادفه في طريقه هذا من المخاطر والمهالك .

لذلك كان ولا يزال لقب الحاج عند سواد المسلمين أشرف الالقاب التي يتحلى بها صدر أسماء الطبقة الصغرى ، وهو يدل على ما يمتاز به الشخص من صفات الشهامة في الشبان ، فاذا

قيل لواحد منهم ياحاج فلان يعنى يا أيها الشهم الشجاع، أما اذا لقبت به الشيوخ والكهول فانما يكون ذلك اشارة لكمال يقينهم ومتانة دينهم الذى تحملوا فى طريقه الاهوال التى تشيب منها الاطفال .

على أن طريق الحاج أصبح اليوم أقل صعوبة منه فى أمسه، لذلك ترى الحاج فى عودته يستقبل بابسط مما كان يستقبل به فى الزمن السابق . وقليلا ماتراهم بمصر يرسمون شيئاً على دور الطبقة الفقيرة، اللهم الا محملا يسير فى جنده والى جانبه مركب بخارية أو قطار سكة حديد مما لاشىء فيه من معنى المشقة التى كان يصادفها الحاج فى طريقه فى الزمن السابق . وفى الحقيقة فان طريق الحاج اليوم أقل صعوبة وأكثر أمناً منه بالامس ، بل لا نسبة بين الحالتين بالمرة. ومادام طريق الحرمين أصبح محل اهتمام دولتنا العلية فلابد أن يأتى يوم قريب يتذلل مابقى فيه من الصعوبات، خصوصاً اذا تحقق خبر تسيير الطريق الحديدى بين المدينة ومكة وبين هذه وجدة ، والله الهادى الى سواء السبيل .

سفر الجناب العالى

من المدينة الى مصر

فى فجر يوم السبت ١٥ يناير سنة ١٩١٠ الذى قرر الجناب العالى سفره فيه من المدينة المنورة الى تبوك ، قصد حفظه الله الحرم الشريف ، و بعد صلاة الصبح ، أدى خدمته فى الحجرة الشريفة ، و زار زيارة الوداع ، ثم قصد المحطة التى اكتظت رحباتها بجموع الاعيان والاشراف والمأمورين الملكيين والعسكريين ، و فى مقدمة الكل حضرات العلماء ونقيب الاشراف والمفتى والقاضى وخازندار الحرم الشريف ومديره وسعادة رضا باشا محافظ المدينة المنورة . فصافحهم حفظه الله واحدا واحدا ، و ركب صالونه الخصوصى،

شاكراًلهم مالقيه من آدابهم ولطف أخلاقهم أثناء اقامته بالمدينة ، وركب فى خدمة جنابه العالى سعادة دفتردار المحافظة وحضرة المهمندار الخصوصى الذى تعين لسموه من قبل حكومة الحجاز ، ثم تحرك القطار فى شروق الشمس تماما قاصدا تبوك ، بين طلقات المدافع وعزف الموسيقى وهتاف الاهالى .

وكان قطار المعية السنية قام اليها قبل القطار الخصوصى بساعتين ، وقد ركب فيه نحو خمسين عائلة من مصريين وشوام وأتراك ومغاربة كان قطعهم فى المدينة ضيق ذات يدهم ، فامر حفظه الله بتسفيرهم الى بلادهم بناء على التماسهم .

ومر القطار فى منتصف الليل على محطة العلا ، ثم على مدائن صالح (١) التى تبعد عنها

---

(١) ومدائن صالح (وتسمى الحجر بكسر الحاء وسكون الجيم) نسبة الى نبي الله صالح الذي أرسل الى قوم ثمود ، وكانوا يسكنون في هذه الجهات الي يثرب . وهم قوم من العرب ذهب بعض المؤرخين الى أنهم من اليمن ، نزحوا الي شمال شبه جزيرة العرب مع من هجرها بعد سيل العرم ، وكانت مساكنهم فيها بحضر موت قرب مساكن عاد ، ودليلهم على ذلك ماوجدوه على بعض آثارهم فى العلا من الخط المسند (الحميرى) ، وقد ذكر المقريزى في الكلام على أيلة مامخلصه: ان حمير الاكبرابن سبأ الاكبرأمر بطرد قوم ثمود من اليمن لظلمهم لمن جاورهم ، فنزلوا من أيلة الي ذات الاصال (اطراف نجد) فقطعوا الصخور ونحتوا من الجبال بيوتا وتكبروا وطغوا فبعث الله فيهم صالحاً نبيا ورسولا فكذبوه وسألوه أن يخرج لهم ناقة من صخرة هناك ، فاخرجها لهم فعقروها فاهلكهم الله بالصيحة فاصبحوا في ديارهم جاثمين (مصعوقين) .

وذهب بعضهم الي أن الثموديين من عماليق الشمال الذين أتوا من العراق وسكنوا مدينة بطره ، وكانت لهم بها دولة واسعة فى القرن الرابع قبل المسيح ، ويستدلون على ذلك بما وجدوه على كهوف الحجر من الخط الارامي الذي هو كتابة الانباط .

ومن ذهب الي الرأي الاول يقول ان الثموديين لم يكتبوا هذا الخط الا بعدما تبعوا الحكومة الانباط فى القرن الثانى أوالاول قبل الميلاد بحكم تغلب لغة المتبوع على التابع . وعندى أنه لايبعد أن يكون أصلهم من عرب الرعاة الذين طردهم الملك تحوتمس فى سنة ٢٠٥٠ قبل الميلاد ، ومن المصريين تعلموا كيف ينحتون الجبال والصخور . قال تعالي «وثمود الذين جابوا (نحتوا) الصخر بالواد» . وربما كانوا من قوم موسى الذين خرج بهم من مصر في سنة ١٦٢٥ ق م ، فاتوا وأقاموا في المنطقة التي بين الحجر والمدينة ، بدليل ان ديانتهم كانت اليهودية . ثم كان لهم مع نبيهم صالح ماحسبك منه ماذكره الله تعالي في الربع الرابع من سورة الاعراف . «والي ثمود (أرسل) أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، قدجاءتكم بينة من ربكم

بنحو خمسة وعشرين كيلومترا ، و وصل حفظه الله الى حذاءات كورنتينة تبوك فى الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالى (الاحد) ، فدخل القطار الخصوصى الى الكورنتينة ، و بقيت فيه دولة الوالدة مع حاشيتها ، أما الجناب العالى فانه نزل بمعيته الى الحذاء الذى ضربت فيه صواوينه الخصوصية وخيام حاشيته من ملكيين وعسكريين . ومكث حفظه الله فى الكورنتينة خمسة أيام كان يتردد فى أثنائها من الصيوان الخصوصى الى صالون قطار السكة

هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم. واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ، قالوا انا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين »

وفى تفسير روح المعاني ان ثمود كانت ديارهم من الحجر الى وادى القرى جنوبا ، وقد جاء فيه في تفسير قوله تعالى أخذتهم الرجفة : قال الفراء والزجاج أي الزلزلة الشديدة ، وقال مجاهد والسدي هي الصيحة ، وجمع بين القولين بأن أخذتهم الزلزلة من تحتهم والصيحة من فوقهم .

ولا يبعد ان هذه الحركة كانت ناشئة عن ثورة بركانية حصلت فى حرة العويرض (جبل بركاني تقدم ذكره)، فكانت منها تلك الهزة العنيفة التي خسفت بالقوم في ديارهم من غير مايشعرون، يؤيد ذلك ماحصل أخيراً في كالابريا التي كانت حركتها ناشئة عن ثوران بركان فيزوف . (وكانت حادثة ثمود حوالي بعثة عيسى عليه السلام) .

ولقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر في غزوته لتبوك فى السنة التاسعة للهجرة ومنع قومه من الدخول الى ديار ثمود والشرب من مياههم . وأرى أن ذلك لسببين مهمين: الاول أدبي ،وهو مبالغته عليه الصلاة والسلام في السخط على هؤلاء الاقوام لعصيانهم ربهم ومخالفتهم لنبيهم حتى كان من أمرهم ماكان ، والثانى صحي وذلك لان كهوفهم المتروكة من زمن بعيد ، وهي بمثابة مقبرة لهم ، لاشك يكون هواؤها فاسداً وماؤها مضراً بمن يشربه .

أما النقوش التي شاهدوها على ماوصل الينا من هذه الديار فأغلبها بالخط الآرامي وهي لاتخرج عن عبارات دينية مما ينقش عادة على قبور كثير من الامم الي الآن . نذكر لك منها ترجمة عهد كتبه على قبره رجل اسمه عائذ بن كهيل .

« هذا القبر الذى بناه عائذ بن كهيل بن القيس لنفسه وأولاده وأعقابه ولمن يكون في يده كتاب من يد عائذ يبيح له ولاى واحد يخوله عائذ فى حياته أن يدفن فيه . في شهر نيسان السنة التاسعة للحارث ملك الانباط محب شعبه (وذلك حوالي سنة ١٨ بعد الميلاد) ولعن ذوالشرى ومناة وقيس كل من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يهبه أو يؤجره أو ينقش عليه شيئاً آخر ويدفن فيه أحداً الا الذين كتب أسماؤهم أعلاه ان القبر وما كتب عليه فهو حرم مقدس، حسب

الحديد ، وكان الهواء فى تلك الأثناء بارداجدا يتراوح بين ١٥ درجة سنتجراد نهاراو ٥ تحت الصفر ليلا ، أما الرياح فقد كانت شديدة جداً لا تستقر معها الخيم ثابته فى أمكنتها ، بل كنت تراها متزعزعة على الدوام وخصوصاً فى اليوم الاول والثانى ، وكثيراً ما كنا نشاهد خيام الكورنتينة التى فى الحذاءات الاخرى تطير من أماكنها فيسرع أربابها بالجرى وراءها ويتعلقون بأطنابها فيوقفونها عن سيرها بعناء شديد و يرجعون بها ثم يزاولون نصبها وهم فى عراك مع الرياح يزهق الارواح .

وفى هذه الكورنتينة اثناعشر حذاء جوياً تحيطها وتفصلها عن بعضها شبكة من السلك ، وهى ستة فى مقابلة ستة أخرى ، يسير فيما بينها شريط الطريق الحديدى ، وطول كل حذاء مائة متر فى عرض ٧٥ متراً ، وليس فيها أبنية أصلا ، اللهم الا مبخرة واحدة فى جوار الحذاء الاول ، أخذ اليها عسكر الحرس والخدم فتبخرت ملابسهم وظلوا فى أثناء التبخير عرايا فى حوش المبخرة وهم يرتعدون من شدة البرودة ، ولا شك فى أن دولتنا العلية ستزداد عنايتها بهذا المحجر (١) حتى يكون كافلا لراحة حجاج بيت الله الحرام .

وكان حضر الى تبوك أثناء الحجر جناب منيسر باشا الالمانى باشمهندس الخط الحديدى

القاعدة التى يقدسها الانباط والسلاميون الي أبد الآبدين» . (انظر صفحة ٨١ من الجزء الاول من تاريخ العرب قبل الاسلام لصديقنا المؤرخ الفاضل جورجي أفندى زيدان) :

ومن هنا نرى أن القوم غيروا يهوديتهم بوثنية النبطيين الذين كان من آلهتهم ذو الشرى ومناة وقيس وهبل واللات وغيرها ، ومنهم أخذ العرب وثنيتهم .

ولقد اهتم الجناب العالى الخديوى بخدمة العالم التاريخي بنقش مابقي من آثار الحجر فأوفد الى هذه الجهة البروفسورهيس أحد المستشرقين السويسريين ونزيل مصر الآن ، فعاد منها ببعض صور غير مهمة مما أبقته فيها يد السراق . ويوجد كثير من آثار القوم في متاحف لندن وباريس وبرلين والاستانه . وقد بلغني أنه يوجد منها شئ كثير فى صناديق محفوظة في مدينة حيفا منذ سنتين على ذمة متحف القسطنطينية ولا أدرى ماهي الحكمة فى عدم ارسالها اليه الى الآن . وعلى كل حال فان المشتغلين بالآثار النبطية والثمودية لابد أن يزيدونا يوما من الايام معرفة بهؤلاء الاقوام .

(١) هذا المحجر لايزال خاصاً بأهل تركيا والشام ، أما أهل مصر فانه لابد لهم من تمضية الحجر الصحي في الطور قبل دخولهم الى الثغور المصرية ، وقد حصلت مخاطبات رسمية في اعتبار كورنتينة تبوك كورنتينة عامة بحيث يكفي الحجر فيها على المصريين وغيرهم ولكن لم يتقرر شئ بهذا الخصوص الى الآن

الحجازى ، وسعادة وفابك قائمقام معان ، وعلى بك فؤاد باشكاتب المتصرفية ، للسلام على الحضرة الفخيمة الخديوية ، فلم يقابلهم جنابه العالى قياما بواجب قانون الكورنتينات ، فبقوا فى ضيافته بادارة المحجر ، حتى انقضت مدة الحجر فى صباح يوم الجمعة ٢١ يناير ، فحضروا الى المخيم الخديوى ونالوا شرف المثول بين يدى حضرته العلية . وهنالك ابتدئ فى شحن القطارات ، وتحرك الركاب الخديوى فى الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم ، فمر على محطة تبوك : وهى محطة صغيرة تبعد عن الحذاءات شمالا بنحو ألف متر و فى الكيلو ٦٩٣ من الشام ، و بينها و بين البلدة نحو ثلثمائة متر . ومساكن هذه القرية على مرتفع من الارض وسط الصحراء يحيط بها النخل و بعض غيطان مزرعة ذرة ، و بعضها مبنى بالطوب النئ و بعضها بالدبش ، وقد رأيت فيها بيتين موشيين بالجير من خارجهما ، ومن أبنيتها ما هو بالطوب المدهوك من الداخل والخارج بالشهبه (طين به مادة جيرية) . وفيها مسجد أقيم على المكان الذى صلى فيه عليه الصلاة والسلام حين خروجه الى هذه الجهة ، وعلى باب هذا المسجد على يمين الداخل اليه بئر من أثر السيد الرسول نبع ماؤها بين يديه صلى الله عليه وسلم فى وقت كان هو ومن معه فى شدة الحاجة الى الماء ، وهى التى يشير ون اليها ضمن معجزاته صلى الله عليه وسلم بأن « الماء نبع من بين أصابعه » وماء هذه البئر عذب جدا ، وقد وضع عليها أخيراً كاظم باشا الذى كان مدير أعمال السكة الحديد الحجازية ، طلمبة تحفظ ماءها نظيفاً بعيداً عن عبث العابثين ، فجزاه الله خيراً .

ومازال القطار سائراً حتى مر على محطة ذات الحج ، وفيها قلعة قديمة كانت تخزن فيها مؤن المحمل الشامى حين سفره فى البر ، ثم وصل الى محطة معان فى نحو نصف الليل : وهى أكبر محطة بين المدينة المنورة والشام ، وعلى كيلو ٤٥٩ من دمشق : وفيها ورشة كبيرة لتصليح الوابورات ، و بيوت لمستخدمى هذا الخط الحديدى ، منها منزل جميل لمنيسر باشا .

وقرية معان تبعد عن المحطة بنحو ٢٠٠٠ متر الى الغرب بانحراف الى الشمال ، ولا تظهر للمسافر من المحطة لانها فى جوف الجبل ، وسكانها نحو ألف شخص يشتغل معظمهم فى اعمال الطريق الحديدى ، وقد كانوا قبلا يهاجرون للتجارة البسيطة ، ولا يشتغل بالزراعة

منهم الا القليل فيما لا يبعد عن قريتهم لخوفهم من عرب الحويطات الذين يوجدون بكثرة فى تلك المنطقة ، وكثيرا ما كانوا ينقضون عليهم وينهبون مزارعهم . وفى شمال هذه القرية على مسافة ثلاث ساعات خرائب كثيرة اسم أكبرها بسطة (وأظن أنها أثر مصرى) ثم اذرح (اضرح) وفيها تلال قديمة تتخللها آثار عتيقة . وفى تلك الجهة مياه كثيرة عذبة وأراض زراعية مما يدل على عمرانها فى قديم الزمان . وجل هذه الخرائب من آثار (١) مدنية النبطيين .

---

(١) والمنطقة التى فى غرب السكة الحديد فيما بين معان وعمان إلى نهر الاردن والبحر الميت وما يليه جنوبا غنية جدا بالآثار القديمة التى بعضها للنبطيين والفلسطينيين والعرب والرومان والمصريين (البطالسة) . وأفخم هذه الآثار مدينة بطره (Petra) (كلمة يونانية معناها حجر) ومنه قولهم (Arabi Petra) يعنى بلاد العرب البحريه وهى تبعد عن معان غربا بمسافة ٣٥ كيلومترا تقريباً وعن العقبة جنوبا بمسافة ١٣٠ كيلو، وترى بها إلى الآن كثيراً من المبانى الفخمة الاثرية ، وهى فى واد ترتفع الصخور الى ٥٠ مترا على مدخله الذى تختلف سعته من ٣ الى ٩ أمتار ، وقد نقر فيها هيكل فخيم جداً على ارتفاع عشرين مترا ، وفيه كثير من النقوش الجميلة ويسمونه بخزنة فرعون ، ويظن بعضهم انه للرومان ، أقاموه بعد تملكهم المدينة لمعبودهم ايزيس .

ويوصل طريق هذا المدخل الى وادواسع يقطعه مجرى ماء من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى كانت فيه المدينة . ولا تزال اطلالها به الى الآن ويسمونه وادى موسى . وعلى جانبيه قبور نقرت فى الصخر ، والتى على يمين الوادى منها يعنى الى جهة الشرق كانت لاشراف القوم : لما تشاهده عليها من النقوش والرسوم التى تزيد فى فخامتها ، أما التى على يساره (فى الجهة الغربية) فهى لعامة الناس . وعدد هذه القبور لا يقل عن ٧٥٠ قبراً ، وكلها منقورة فى الصخر . ويقرب منها تياترو قد نقر فى الجبل بمرسحه ومقاعده ، وفيه ٣٣ مدرجا على هيئة أنصاف دوائر تسع ٣٠٠٠ شخص .

ويقصد بطره سنويا فى فصل الربيع قوافل السياح من الافرنج وعلى الخصوص من الامريكان . ولا بد لزيارتها من اذن خصوصى من ولاية الشام وهو ما (كان) لا يسهل على كل انسان الحصول عليه .

وفى صباح يوم السبت ٢٢ يناير أمر الجناب العالى حفظه الله فسارت حملة الجمال والهجن التى كانت فى ركابه السامى ومعها بعض الحرس الخديوى تحت قومندانية حضرة البكباشى ابراهيم افندى أدهم من معان الى العقبة، ومسافة ما بينهما ١٣٠ كيلومترا، واستمرت فى سيرها الى السويس من طريق البر .

وكانت هذه المدينة عاصمة لحكومة الانباط : وهى حكومة عربية كبيرة كانت توجد مدة القرن الرابع قبل المسيح . وكانت لها مدنية عالية ، وجيوش قوية ، ساعدت الاسكندر الاكبر فى استيلائه على بلاد الفرس وعلى مصر . ولقد حاربها انطيغونوس (Antegon) خليفة الاسكندر فى سنة ٣١٢ قبل الميلاد ، فانهزم أمام جندها الباسل ، وقال انه لم يمارس فى حروبه فى الشرق والغرب رجالا مثل رجالهم . ثم حاصرها ديمتريوس وانقلب عنها خائبا .

وكانت مملكة النبطيين فى القرن الثانى قبل المسيح قوية جداً وضربت ملوكهم السكة باسمهم ، ومن اكبر ملوكهم الحارث الذى ملك فى سنة ١٦٩ م ، وامتد ملكه الى وادى القرى جنوبا ، ودخل فى حكمه العلا والحجر وما والاهما شرقا إلى حدود العراق ، وغرباً إلى بحيث جزيرة سينا . وكانت مدينة بطره المركز التجارى بين الشرق والغرب والشمال والجنوب إلى مبدأ القرن الثانى بعد المسيح ، حيث ساق عليهم الامبراطور تراجان الرومانى جيوشه فهدم مدينتهم ، واكتسح ملكهم ، ومزقهم كل ممزق ولم تقم لهم بعدها قائمة . حتى أن مؤرخى العرب لم يذكروا عنها كلمة واحدة فى فتوح العرب للشام .

والى النبطيين ينسب الرقى الذى حصل فى الكتابة التدمرية حتى كانت الحروف النبطية امهات للحروف العربية ، وحسبهم بذلك فخارا .

والعرب تسمى هذه المدينة من زمن بعيد بالرقيم . واخرج ابن جرير وابن ابى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس «ان الرقيم واد دون فلسطين قريب من ايله ، والكهف فى ذلك الوادى ، فهو من رقمة الوادى اى جانبه » . واظن ان الرقيم بمعنى مرقوم ، لما هو مكتوب ومنقوش على كهوفها ور بما كانت هذه الكهوف هى المعنية بقوله تعالى فى سورة الكهف « وترى الشمس إذا طلعت تزاور (تميل) عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم (تبعد عنهم) ذات الشمال » وإلى شمال هذه المدينة على الجبل قبر هارون

وفى الظهر تناول سموه الغداء فى دار متيسر باشا . وفى مبدأ الساعة الثالثة تحرك قطاره قاصداً حيفا ، فسار فى صحراء واسعة ترى فيها الجبال على أفق البصر من الجانبين الشرقى والغربى ، والارض فى هذه المنطقة رملية تكثر فيها الحجارة الصوانية السوداء ، وكانت رؤوس الجبال الغربية التى يسمونها جبال الشيخ (وهى حلقة من حلقات السلسلة الجبلية التى تصل جبال لبنان بجبال السراة التى تقطع بلاد العرب من جنوبها الى شمالها) تلوح لنا بيضاء من الثلوج كانها قد شابت ناصيتها من وحشة الوحدة فى هذه البيداء الجافة .

أما الجهة الشرقية فكان يلوح لنا فيها من آن الى آخر ، بعد ميل الشمس عن خط الزوال ، بحيرات كبيرة من الماء، على دائرة أفق هذه الصحراء . وكنا كلما اقتربنا منها زاد صفاؤها وتحرك ماؤها على بعضه بتموجاته البلورية ، وكانت تظهر فى وسط هذه البحيرات

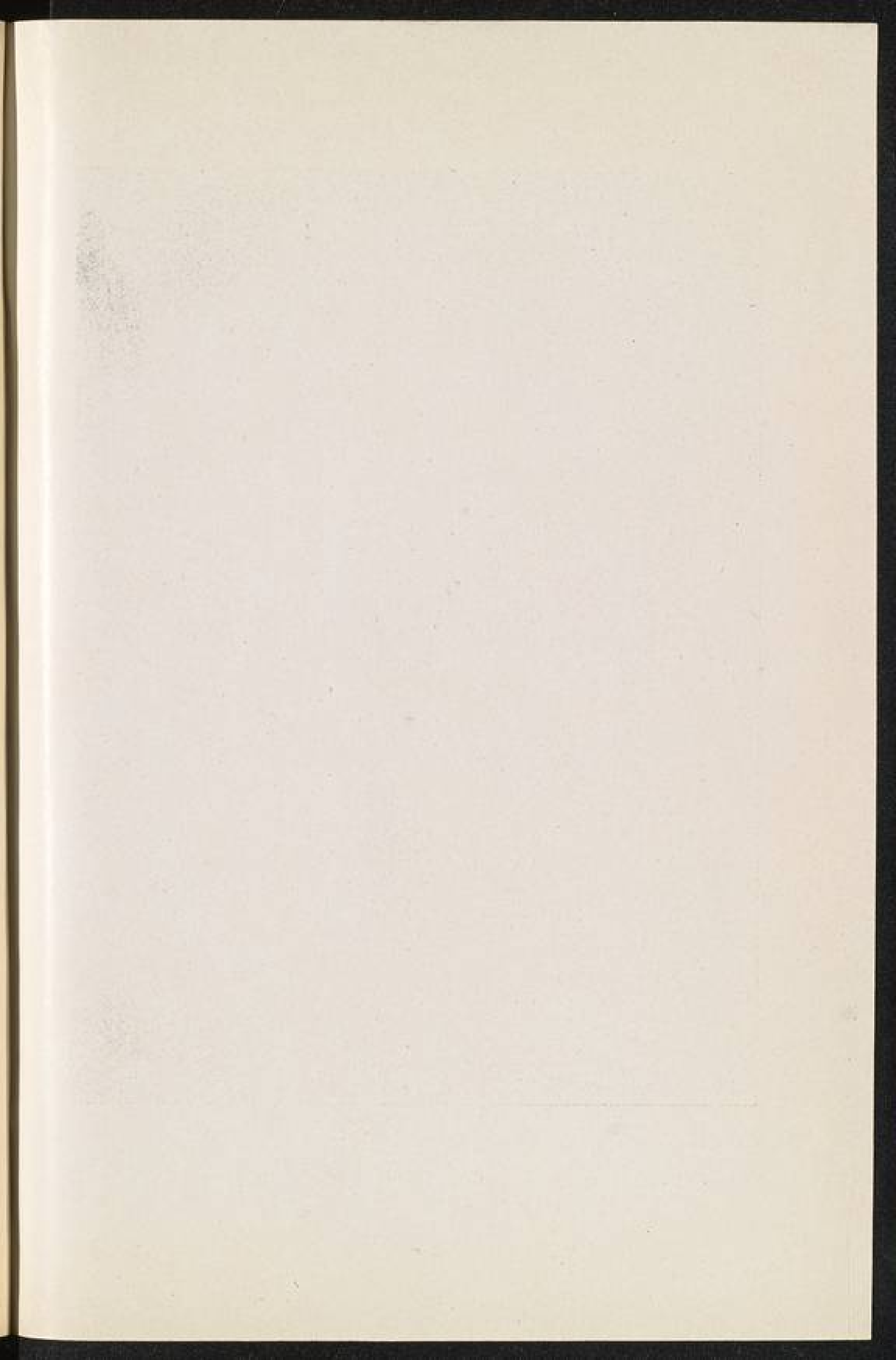
أخى موسى ، ويقصده العرب من قديم الزمان لزيارته ، وقد ابتنى الصليبيون قلعة إلى جواره .

وتحت جبال الشيخ أثر يقال له قلعة بانياس ، ويظنون أنه من أعمال الغسانية . وفى الكرك هيكل الشمس . وفى عرك الامير هيكل من هيا كل الامونيين يقال له هيكل العبد، وفى عمان آثار رومانيه تدهش العقل ، وفى ميدبة التى تبعد عن عمان بنحو عشرة كيلو متر، آثار جميلة يسمونها خربة القال . وفى حصبان (حسبان) التى تبعد عنها إلى الشمال الغربى بنحو خمسة عشر كيلو متراً آثار من آثار مملكة يهوذا، ولم يحفظ منها إلا صهاريج جميلة منقورة فى جوف الجبل ، ولها فتحات من أعلاها يدخل منها الماء، وفى جرش التى تبعد عن عمان بنحو خمس ساعات آثار فخيمة جداً، ويقرب منها قبر يزعمون انه لهود عليه السلام ويوجد فى محطة القصر قلعة ظيظا . وكان بمحطة مشتا آثار جميلة، ومن ضمنها قصر من القرن السابع قبل المسيح وكانت له وجهة من الفخامة بمكان أخذها الالمان هدية من السلطان عبد الحميد ونقلوها الى برلين سنة ١٩٠٤ . وفى عمان آثار جميلة جداً . وأهم ما فيها القلعة التى هى من هيا كل الامونيين، وفيها كثير من المغائر والقبور المنحوتة فى الصخور، وعلى كل حال فهذه البلاد ملأى بآثار الاقدمين التى يهتم بها الاجانب ولا يكاد يعرفها أهل البلاد انفسهم واكبرها فخامة قلعة بعلبك الشهيرة ، اما آثار تدمر (بالميرا) فى الشمال الشرقى لدمشق فحدث عنها ولا حرج والطريق اليها من حمص .



BOEHME & ANDERER, CAIRO.

خزنة فرعون في بطره



أحيانا جزر قامت عليها غابات من الاشجار تزيد فى جمالها ، حتى اذا تاقت لها النفس ، وصارت منك على متناول اللمس ، وجدتها احدى القيعان ، سكن فيها الشيطان ، فاذا وصلت الى جنابه للحظوة بشرابه ، وجدته كان لم يكن !!

ومع أنى بمجرد ماوقع بصرى على هذه البحيرات كشفت مستورها ، وعرفت ضميرها ، ولكن كان يلفتنى اليها على الدوام حسن منظرها ، والتفكر فى مخبرها : فكنت آنا أفتكر ان هناك منخفضاً من الارض ملئ بالهواء ، وقد انعكست فى مرآته قطعة من السماء الصافية وانكسرت على سطحه ظلال ما فى دائرته من الاعشاب ، وأخذت تتحرك بحركة تماوجاته فتعددت صورها بما تكونت معه هذه الغابات الناضرة ، وسط تلكم البحيرات الباهرة !! وزد على ذلك ان العين التى لم تعثر فى الصحراء الا على مناظر جافة ، تعظم ما تراه فيها من الصور اللطيفة ، وتنقله الى الوهم حقيقة مجسمة .

وكنت أحيانا أتخيل انها شئ من البحر تسرب ، ومنا اقترب ، حتى اذا خلب اللب بسنائه ، وجذب القلب بلألائه ، واشتقت أن تنال من مائه ، فتح فاه ، وابتلع مياهه ، ضاحكا من سذاجتك و بساطتك ! وكنت أتوهم آونة ان الصحراء ، أرادت أن تخفف عن أبصارنا منظر ذلك الجفاء ، فلبست لباس البحار ، وسط هذه القفار ، وأخذت تتلون تلون الحرباء ، وهل يبعد على شيطان الطبيعة أن يتشكل بما شاء ؟ حتى اذا اقتربت منه ضرب فى الهواء ، وطار طير العنقاء .

لا لا بل هو السراب الذى « يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا » ، أخبرنا به القرآن قبل ثلاثة عشر قرنا ، ولم تعرفه أوربا الا فى القرن السابع عشر ، بل لم تتحقق من أمره الا تلك الحملة العلمية التى دخلت مصر مع نابليون بونابارت فى رأس القرن التاسع عشر .

ولا غرابة فى ذلك فان السراب لا يوجد الا فى صحارى البلاد الحارة : ذلك أن الشمس اذا ارتفعت حرارتها سخنت الرمال التى على سطح الارض فتسخن به طبقة الهواء التى تلامسها ، وهذه الطبقة تسخن التى فوقها ، وهذه تسخن التى تتلوها ، وبذلك يتمدد الهواء فى جميع هذه الطبقات بنسبة حرارة كل واحدة منها ، ويحدث من انتقال الطبقة الساخنة منه

الى أعلى ، ومن نزول الكتلة الباردة لتشغل محلها ، تموجات تنعكس فى صفائها صور الاشباح القريبة منها ، وهذه الصور تنعكس بمجموعها فى منخفض من هذه الرمال المتبلورة فتراها من بعد كأنها حقيقة مجسمة .

أما مونج[1] (Nonge) وهو أول من شرح نظرية السراب ، وكان من أعضاء الحملة العلميه الفرنساوية السابقة الذكر ، فقد ذهب الى أن السراب انما هو صورة أشباح حقيقية يشاهدها الرائى من بعد ، فيخترق شعاعه البصرى الذى ينقل صورتها اليه طبقات الجو التى تختلف فى حرارتها وكثافتها كلما اقتربت من أرض الصحراء التى سخنتها حرارة الشمس ، ويأخذ فيها سيراً طبيعياً على خط منحن تتصل دائرته بالارض فى نقطة تنطبع فى رمالها اللماعة صورة الشبح المرئى ، وهنالك يتخيل للرائى انه يشاهد الشبح من هذه النقطة وليس كذلك .

والطريق الحديدى فى هذه الجهة كثير المنحنيات ، بل تراه فى حالات كثيرة مثل حرف (S) ، أى على شبه قوسين متضادين أخذا بطرفى بعضهما ، وذلك يكون فى حال صعوده على الجبال ، أو قطعه لها من جهة الى جهة أخرى . ومازال السير على هذا المثال حتى وصلنا الى محطة قطرانة ، وهى الثغر الحديدى لمتصرفية الكرك التى تبعد عنها غربا بنحو ٣٠ كيلومتراً ، وكان حضرة متصرفها قد حضر مع بعض رجاله لاستقبال الجناب الخديوى . وبعد تأديتهم الى مقامه الفخيم واجب التسليم والتعظيم استأنف القطار مسيره حتى وصل الى محطة الدرعا فى منتصف الليل ، ومنها يتفرع الطريق الحديدى الى شعبتين : شعبة تسير نحو الشمال الى دمشق الشام ، والاخرى تسير نحو الغرب الى حيفا . وكانت فى هذه المحطة زينة لطيفة لمقدم سمو الخديو المعظم وكان كثير من أهل الدرعا (التى تبعد عن المحطة بنحو ألفى متر) قد حضروا للتمتع بمشاهدة طلعة الجناب العالى . ولقد مكثنا فى هذه

---

(١) يرى صديقنا كمال بك ان الجيم التى تحتها ثلاث نقط أصلها أعجمى ونطقها يقرب من الشين المعطشة فلا يصح وضعها للدلالة على حرف (G) الفرنساوية ، وحيث ان حرف الزاى الفارسية التى تكتب بثلاث نقط تؤدي بالنطق بها هذا الحرف تماما فالاولى استعمالها بدله فتقول موژ فى (Monge) مثلا .

المحطة الى فجر اليوم التالى ، ثم سرنا فى أرض زراعيـة من يميننا وشمالنا حتى وصلنا محطة تل شهاب ، ومنها يبتـدئ الطريق الحديدى يسير فى جوف الجبـل ، فكنت ترى القطار صاعداً ، نازلا ، منجدا ، متهما ، داخلا فى نفق ، مشرفا على هاوية ، قاطعاً قنطرة الى الشرق، ليمر على كوبرى الى الغرب، ذاهبا، آيبا ، مقبـلا ، مـدبراً ، كأنه الغزال فى لفتاته ، أو الثعلب فى روغانه ، متخطياً مجارى الماء ، متباعـداً عن مساقط السيول ! ! وبالجملة فهذا الطريق صورة صغرى من طريق السمرنج فيما بين تريستاوفينا . ومازلنا سائرين بين هذه الهضاب ، وهاتيك الشعاب ، التى تحيرت فى جمالها الالباب ، مندهشين من جلال طبيعة هذه الجبال ، وفخامة ماصنعته بها يد الدولة من عظيم الاعمال ، مقتعين بما على سفوحها من الخضرة التى يكثر فيها بصل النرجس فيعطر الارجاء بعبيره ، والتى يرعى فى كلئها آلاف من قطعان الابقار والاغنـام، حتى نزل الوابور الى الوادى فشاهـدنا بعض الفلاحـين يشق الارض بمحراثه (وهو أصغر من المحراث المصرى كثيراً) . وبعـد كيلو ١٣٥ كثرت الخيام فى جوف الوادى الذى ابتدأ يعمر بالسكان . وفى الكيلو ١٠٠ غزرت المراعى : فـكنت ترى معالى الجبال ومواطيها مفروشـة ببساط أخضر سـندسى يتلوّن منظره فى ارتفاعاته وانخفاضاته ، وشمسه وظـله ، بألوان مختلفة ذكرتنى بتغييرات مناظر البوسفور الجميـلة . وهذا الوادى يسمى بوادى بيسان ،و بعضهم يسميه وادى الساسابان ، و يبتدئ من محطة صماخ [1] التى يبتدئ منها جفلك السلطان عبد الحميد ، وفيه خمسون قرية ، وأرضه غاية فى الجودة يشقها الطريق الحديدى ومياهـه غزيرة جـداً . وكان القمح فيه على ارتفاع شبر من سطح الارض ، و يستمر هذا الجفلك الى محطة العفولة ، التى بمجرد ماتركناها شاهدنا بكل فرح وسرور رمانى حيفا . وقبل الوصول اليها ببضعة كيلومترات شاهدنا على

(١) ويقرب منها قرية حطين المشهورة بوقعتها الكبري التى حصلت فى سنة ٥٨٣ هجرية بين صلاح الدين الايوبي والصليبيين وانتصر صلاح الدين عليهم نصراً مبيناً كان فاتحة لانتصاراته المتوالية عليهم . ويقرب من حطين قرية يقال لها خياره بها قبر شعيب النبي . وصماخ تشرف على بحيرة طبرية وتسمي في التوراة بحر الجليل ، وهو أعظم بحيرات سوريا . وطولها من الشمال الي الجنوب ١٤ ميلا ، وأعظم عرض لها ثمانية أميال .

يسار ناظر يقاً بالمكدام لفسحة القوم، وقد خرج اليه بعض الناس فى عرباتهم لاستقبال أميرنا المعظم ، وعلى حافته قهاوٍ قد اكتظت بالمتفرجين على مقدم هذا المليك الاكرم . ومازال القطار حتى وصل الى رصيف المحطة التى رفعت فيها أعلام الزينة ، واحتشد الى رصيفها صنوف المستقبلين من علية القوم ، وفى مقدمتهم مأمورو الدولة بين عسكريين، وملكيين ، وقناصل الدول، والعلماء، يتقدمهم فضيلة القاضى والمفتى وأمين الاشراف . وكان جناب المتصرف ووكيله وقومندان عموم القوة العسكرية قائمين بحفظ النظام . ولما وقف القطار الخصوصى ضربت المدافع ، وعزفت الموسيقى العسكرية بالسلام الخديوى ، وصعد سعادة المتصرف الى الصالون مسلماً على الجناب العالى بالنيابة عن الدولة العلية ، ودعاه الى بهو المحطة الذى أعد لاستقبال سموه بصفة رسمية . فنزل حفظه الله وسار فى وسط هذه الجموع التى لا يحصى عددها حتى دخل قاعة الاستقبال . وهنالك ابتدأت التشريفات : فحضر الكبراء والعظماء للسلام على جنابه العالى ، وكان يقدمهم الى سموه سعادة القائمقام . وبعد ذلك قدمت المتصرفية الى جنابه الشاى ثم القهوة، وعندها قام باشكاتب المحكمة الشرعية وألقى خطابة طويلة مرحباً فيها بمقدمه السعيد ، مهنئاً تلك الديار بشرف حلوله فى ربوعها، ثم تلا قصيدة غراء فى مدح فضائل الحضرة الفخيمة الخديوية ، فشكره الجناب العالى .

وقد كان حفظه الله مدة وجوده فى هذه الحفلة يتكلم مع هذا بالتركية ومع ذاك بالعربية ثم مع كل قنصل بلغته ، متنقلا من موضوع الى آخر بعبارات كلها بلاغة وحكمة حتى أدهش الحاضرين عموما من كمال معارفه ، وواسع مداركه ، وعظيم آدابه . وبعد نحو نصف ساعة ركب القطار الى الاسكلة ، وركب معه رجال الدولة مهنئين ، مودعين ، شاكرين لجنابه ، مثنين على آدابه ، فشكرهم حفظه الله ثم سلم عليهم ونزل فى الزورق البخارى لوابور المحروسة ، فبلغها بسلامة الله الساعة خمسة بعد الظهر من يوم الاحد ٢٣ ينايرسنة ١٩١٠ ونزل فى ركابه العالى من كان فى خدمته من رجال المعية السنية . أما بؤساء الحجاج المصريين الذين سافروا على نفقة الجناب العالى فقد أمر حفظه الله بتسفيرهم الى بورسعيد مع بعض رجال الحرس الخديوى على أحد وابورات الشركة الخديوية الذى كان منتظراً بالميناء .

وفى منتصف الساعة العاشرة مساء تحركت سفينة المحروسة باسم الله مجراها الى ثغر الاسكندرية الذى ابتدأت تظهر معالمه فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الاثنين ٢٤ يناير سنة ١٩١٠ ، وهنالك ابتدأ يتأثر وجودنا بعامل السرور والحبور ، ومازلنا حتى تجلى لنا شاطئ الثغر ، يتعانق مع ماء البحر ، وأخذت تأتينا منه نسمات تترى ، حاملة روائح ذكية ، أحيت النفس ، وأنعشت الحس ، فكان ريحاهما كريح يوسف من يعقوب : نعم كانت تحمل إلينا ريح الاوطان ، والبنين والاهل والخلان ، فضممناه لانه أحاط بجسوم الاحباب ، ونقل الينا من عواطفهم ماحرك فينا الاشجان ، وأهاج عبرة الولهان .

ومازالت المحروسة سائرة بنا حتى ألقت مرساها داخل الميناء فى الساعة الخامسة مساء . وعندها أطلقت المدافع من طوابى المدينة بين هتاف الآلاف من المصريين الذين كانوا قد ركبوا الزوارق وساروا بها الى ظهر البحر للتمتع برؤية مليكهم المحبوب . وهنالك حضر دولة الامير محمد على باشا مع حضرات النظار وصحبتهم السير ألدن غورست على زورق بخارى واستأذنوا فى الصعود الى الركاب الخديوى . ولما تشرفوا بالمثول بين يديه الكريمتين أخذوا يرتلون آى حمد الله على وصول مليكهم العزيز بكمال الصحة والعافية . فأبدى لهم حفظه الله شكره وامتنانه ، ثم نزل وهم فى ركابه العالى الى زورق المحروسة ويمم سراى رأس التين العامرة ، وتبعته دولة الوالدة وحاشيتها ، ثم رجال المعية السنية فى زوارق أخرى .

وكانت السراى الخديوية غاصة بكبار الموظفين ، وعظماء الاجانب ، وأعيان البلاد من أدناها الى أقصاها . وهنالك جرت التشريفات على غير موعد ، وتشرف الكل بحضرة الجناب العالى ، واستلموا يد هذا الاب البار الكريم ، مهنئين أنفسهم بسلامته ، وانصرفوا شاكرين مالاقوه من كرم سموه وعظيم إيناسه . وقد استمرت التشريفات الى مبدأ الساعة التاسعة ، وبعدها تناول الجناب العالى طعام العشاء بالسراى العامرة .

وكانت المدينة كلها كأنها قطعة من نور: للزينات التى أقامها الاسكندريون فى أطرافها ، والتى أقامها المجلس البلدى من سراى رأس التين الى آخر شارع رشيد ، مخترقة المدينة من طرف الى آخر . وكانت ثريات الكهرباء فى طول هذا الطريق على شكل أقواس نصر

تجمع أطرافها أوتار تتعانق أشعتها ، وتتعاكس فى مرآة صفاء هذا الجو ، حتى كان يتخيل لك أن الدرارى قد نزلت من أفلاكها لتساعد الاسكندريين على معالم الزينة احتفالا بمقدم أميرهم المحبوب . وعدا ذلك فكنت ترى الدكاكين والمنازل على طول الطريق وخصوصاً فى ساحة المنشية ، وشارعى شريف ورشيد ، قد قامت عليها معالم الزينة بأشكال بديعة تختلف فى مناظرها ، وتتفق فى حسن تنسيقها . وكنت ترى بين تلكم الانوار ، الاعلام على اختلاف جنسياتها ترفرف بين هذه الاضواء ، فتكسبها رواء على رواء .

وكان الناس على جانبى الطريق كالبنيان المرصوص ، تتقدمهم رجال البوليس ، ويتخللهم عمال المجلس البلدى حاملين فى أيديهم ثريات الشموع انتظاراً لتشريف الجناب العالى الذى تفضل فوعد بزيارة دار البلدية بناء على التماس المجلس البلدى .

وفى نهاية الساعة التاسعة ركب حفظه الله عربة خديوية والى يساره سعادة محمد سعيد باشا رئيس النظار (وكان ناظراً للداخلية) ، ومر على زينة العروة الوثقى التى كانت فى مبدأ شارع رأس التين . وكان أعضاؤها مجتمعين فى سرادق غاية فى البهجة والجمال انتظاراً للركاب العالى . فتنازل جنابه الفخيم ووقف لحظة شكر فيها أعضاء الجمعيه ، ثم سار بين دعاء الاهلين وهتافهم الى ميدان المنشية ، فشارع شريف ، فشارع رشيد . وكان كلما مر هتف الناس له بأصوات السرور والحبور ، بما كان يتردد فى جميع الارجاء ، ويرتفع الى عالم السماء . ولما وصل حفظه الله الى سراى المجلس البلدى استقبل بما يليق بمقامه الكريم ، من الاجلال والتعظيم . وبمجرد ما استقر بالصالون الذى أعد لجنابه الفخيم ، قام رئيس المجلس وتلا بين يديه الكريمتين خطبة رحب فيها نيابة عن الاسكندريين بمقدم سموه من حجه المبرور ، وسعيه المشكور ، وهو على ما يرجو الكل له من الصحة والعافية . فشكره الجناب العالى ، ثم قام حفظه الله الى البوفيه فأخذ شيئا منه وبارح المكان بين مظاهر الاجلال والاعظام ، وعاد الى سراى رأس التين العامرة من الطريق الذى حضر منه وكان احتفال الاهالى به فى إيابه لا يقل عن احتفائهم به فى ذهابه .

وفى صباح يوم الثلاثاء ٢٥ يناير قصد الجناب الخديوى محطة الباب الجديد فى كوكبة من حرسه ، وكانت المحطة غاصة باعيان الاسكندريين ، وكبار الموظفين ، وكثير من سراة البلاد ، فلموايده الشريفة ، وركب حفظه الله يحف به حضرات النظار ، وسار القطار على بركة الله الى مصر . وكانت زينات المحطات على طول الطريق الحديدى مما لم يسبق لها مثيل خصوصاً فى دمنهور ، وطنطا ، وبركة السبع ، وبنها ، التى احتشد على أرصفتها عمد وأعيان البحيرة والغربيه ، والدقهليه ، والمنوفيه ، والشرقيه ، والقليوبيه ، يتقدمهم حضرات المديرين ، وكبار المستخدمين . وشرف القطار الخديوى محطة مصر فى مبدأ الساعة الثانية بعد الظهر : وكانت المحطة غاصة بأعيان القاهرة ، والعدد الجم من أعيان الوجه القبلى ، وقناصل الدول ووكلائها ، وكبار مستخدمى الحكومة السنية ، وفى مقدمتهم العلماء الاعلام ، والامراء الكرام ، والذوات الفخام ، وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية يتقدمهم دولة البرنس حسين كامل باشا (وكان رئيساً لهما) . وبالجملة فقد كان هناك كل ذى حيثية كبرى ، وكان كل من صاحب السعادة محافظ مصر وحكمدارها يقوم بالنظام العام . ولما وقف القطار نزل الجناب العالى الى رصيف المحطة التى كانت كالعروس فى زينتها ، وسلم على الحاضرين واحداً واحداً ، ثم سار تحف به رجال حكومته حتى ركب عربته والى جانبه سعادة رئيس النظار ، بين دى طلقات المدافع وعزف موسيقات فرق الجيش المصرى ، وجيش الاحتلال ، التى كانت فى رحبة المحطة لاداء واجب التعظيم . وقصد حفظه الله سراى عابدين بين جموع الخلق الذين لا يحصى عددهم والذين وقفوا صفوفا يتلو بعضهم بعضاً فى عرض الطريق وطوله الى السراى العامرة ، ورجال البوليس أمامهم لحفظ النظام .

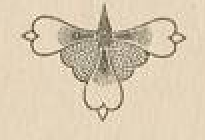
وكانت كلما مرت عربة الجناب الخديوى هتف الناس هتاف السرور لمشاهدة مليكهم المحبوب ، بما كانت ترتج له أطراف مدينة القاهرة ، بحال لم يسبق لها مثيل بالمرة . وكانت الدكاكين والمساكن التى على جانبى الطريق رافعة أعلامها على اختلاف جنسياتها حتى اذا وصلت العربة الى ميدان الأوبره كان الناس فيها على بعضهم : هذا واقف على

الارض وذاك واقف فى أوتومبيله ، وآخر على عربته ، والبلكونات والشبابيك قد ملئت بعلية المتفرجين من الاجانب والاهلين نساءً ورجالا ، والكل يهتف بأصوات الفرح . ولم يصل الركاب العالى الى السراى العامرة الا فى منتصف الساعة الثانية تماما .

وفى المساء لبست المدينة حلة من الانوار ، وبدت زينة لجنة الاحتفال بعيد الجلوس المأنوس فى أبهى مظاهرها ، كما تجلت الزينات الخصوصية التى أقامها الاهلون والاجانب من جميع أنحاء القاهرة . وبالجملة فقد كانت المدينة فى زينة باهرة ، وكانت كلها من ثريات الكهرباء على شكل أقواس نصر متتالية من السراى العامرة الى المحطة ، وكان اتصال هذه الاقواس بحيث كنت ترى الطريق قد تغطت بخيمة صيغت من قباب من نور .

وقد أقامت لجنة الاحتفال فى ميدان عابدين سرادقا فخما جداً كانت تتلألأ أنواره ، وتتألق أزهاره ، وتتصل أشعة أضوائه الى منافذ السراى العامرة حاملة عواطف الرعية الصادقة الى هذا المليك المحبوب . وتنازل حفظه الله بتشريفه صيوان اللجنة فى منتصف الساعة العاشرة مساءً . فاستقبله حضرات أعضائها بكل ما يمكن من مظاهر الاجلال والاعظام ، وتلا حضرة رئيسها عثمان بك مرتضى المستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية خطابا بليغاً بالنيابة عن اللجنة ، حمد الله فيه على وصول هذا المليك الكريم بسلامة الله من رحلته المباركة ، ثم رفع الى مقامه السامى عبارات الشكران والامتنان على تنازله بتشريف الاحتفال . فشكره الجناب العالى وأثنى على همة اللجنة التى تمثل هذه الامة المخلصة بخطاب كله درر وغرر . وعندها قدمت المرطبات لجنابه السامى فتناول منها شيئاً ، وأمر حفظه الله فأديرت على عموم الحاضرين ، وعند ذلك قام حضرة الشاعر المصرى النابغة حافظ افندى ابراهيم وتلا عن ظهر قلبه فى هذا المكان الرهيب قصيدة آية فى البلاغة يهنئ فيها مصر بوصول الجناب العالى بسلامة الله . فشكره سموه ، ثم كرر شكره لحضرة رئيس لجنة الاحتفال وأعضائها ، وركب حفظه الله عربته وسار مخترقا طريق هذه الزينات الباهرة ، وآلاف الناس على جانبيه مكررين آيات الهناء والدعاء ، حتى وصل بسلامة الله تعالى الى سراى القبة العامرة فى مبدأ الساعة الثانية عشرة مساءً .

وفى يوم الخميس ٢٧ يناير كانت المقابلات الخديوية : فكنت ترى السراى العامرة قد ضاقت رحباتها عن جموع المهنئين من الاجناس المختلفة، والآلاف من وفود الارياف من أصوان الى الاسكندرية يردون الى عابدين أفواجاً أفواجاً لتقديم واجبات التهانى الى الاعتاب الخديوية ، والسراى الخديوية تموج بهم بحال لم يسبق لها نظير ، وكان الجناب العالى حفظه الله يقابل الكل بلطفه وإيناسه . وفى مبدأ الساعة الثانية بعد الظهر تمت التشريفات وانصرف الناس وكلهم ألسنة ثناء ودعاء لحفظ هذه الذات العباسية المأنوسة المحروسة درة فى جبين الدهر ، وتاجاً على مفرق هذا العصر .



تقريظ صاحب الفضيلة شيخ المشايخ الاعلام مولانا الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

نحمدك اللهم حمد الشاكرين، ونصلي ونسلم على صفوة خلقك أجمعين، وآله الطيبين، وصحابته الطاهرين. وبعد فان أسمى ما خطه يراع، وسما به ابداع، ونمقه بنان، وأظهره بيان، من ضروب القول وصنوف الكلام، ما كان متصلا بحج بيت الله الحرام، وزيارة حضرة المصطفى عليه الصلاة والسلام. وقد اطلعت فى هذا الباب على السفر الجليل الموسوم بالرحلة الحجازية لولى النعم الحاج عباس حلمى باشا الثانى خديو مصر، الذى وضعه حضرة الكاتب الماهر، والمنشئ البليغ، سعادة محمد لبيب بك البتنونى، فوجدته من أحسن ما كتب الكاتبون فى هذا الموضوع النبيل، والمقصد الجليل، ومن خير ما دون فى وصف تلك البقاع الطاهرة والمعاهد المباركة. واذا كان قد سبق هذا المؤلف كثير من فحول العلماء والمؤرخين فى الكلام عليها، والكتابة فيها، فكتبوا وأوسعوا، وأطالوا فاشبعوا، فان كتبهم لم تتناول جميع الاغراض التى انفسح لها هذا الكتاب، فطرقها من أحسن الابواب: فقد قصر بعضهم كتابه على جغرافية البلاد، وغيره على تاريخها العمرانى، والبعض لم تتجاوز كتابته مواضع العبادة ومناسك الحج. وأنت بمرور نظرك على عنوانات هذا الكتاب ترى أن واضعه بارك الله فيه، قد بلغ الى الغاية من كل ما يريد القارئ أن يتعرفه فى جزيرة العرب، مما يتعلق بامر دينه أو أمر دنياه، ببيان يسحر الالباب، واسلوب يعجز الكتاب، فهو وان جاء متأخرا عمن تقدمه فى مثل هذا التصنيف، فقد سبقه فى أن جمع الى حسن الاختيار سبك التأليف. وجملة القول أن هذا السفر جاء برهانا واضحاً، وحجة ناطقة، بما لمؤلفه الفاضل من سعة الاطلاع وغزارة المادة. هذا واذ صحبه التوفيق، وانه لنعم الرفيق، فجرى قلمه بما جرى تسطيراً لرحلة الداورى الافخم، والامير المعظم، ولى النعم، محيي الهمم، عزيز مصر، فليواصل معنا الدعاء الى الله تعالى أن يديم ذاته السنية، ملحوظة بعين العناية الربانية، وأن يحفظ ملكه، ويخلد أيامه ما دارت الافلاك، واستنارت الاملاك، آمين.

خادم العلم بالازهر
سليم البشرى

تقريظ صاحب الفضيلة وشيخ الادباء والكتاب الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

لبيك اللهم لبيك ، نحمدك على ما أنعمت وأعطيت ، ونشكرك على ما تفضلت وأوليت ، ونصلي ونسلم على المبعوث لتكميل مكارم الاخلاق ، فكانت بعثته عامة لكل الناس فى كل الآفاق ، سيدنا محمد وآله وصحابته التابعين له العاملين على سنته ما طلع النيران ، وتعاقب الجديدان ،

وبعد فمن المعلوم للعموم أن تفاضل العلوم فى المرتبة والشرف انما هو بشرف موضوعاتها ، وتفاوت غاياتها ، فكلما كان موضوع العلم أعلى وغايته أسمى كالتوحيد ، كان هو بالنسبة لغيره فى المرتبة الاولى ، وعلى هذا أيضاً تتفاضل الاعمال الصادرة من خيرة الرجال ، فكلما كان العمل أعم ، وغايته أهم ، وموضوعه أرفع ، وثمرته أجمع ، ونتيجته أنفع ، كان هو بالنسبة لغيره من الاعمال أرقى وأعظم ، وأعلى وأشرف ، كما هو مشاهد للعيان .

اسعدنى الجد فتصفحت هذه الرحلة الحجازية التى كتبها الفاضل محمد بك لبيب البتنونى وقرأتها كلمة كلمة وتتبعت غايتها خطوة خطوة ، فاذا موضوعها حج مولانا وموئلنا عباس حلمى باشا الثانى ، خديو مصر الحالى ، أدام الله أيامه ، وأعلى أعلامه ، ومن الواضح الجلى ان هذا المضاف وهو الحج هو فى ذاته عمل دينى بدنى منيف ، وركن من أركان الدين الحنيف ، فهو فى حد ذاته عمل شريف . وأن هذا المضاف اليه وهو الجناب الخديوى الاعظم هو ذلك الذات الاكرم ، أشرف ذات فى الاقطار والامصار ، وليس من يدانيه أو يضاهيه فى شرف المحتد والعنصر والاصول ، ولا من يشبهه فى حسبه ونسبه أو فى مركزه وعلو مقامه ، فالعمل الذى قام به الجناب العالى فى هذه الرحلة المباركة من أشرف الاعمال (خصوصاً أنه فضله على ما أوتيه وقتاً ما من أبهة الملك وجلال السلطان) ، والعامل وهو جنابه الفخيم هو أشرف الرجال ، فموضوع هذه الرسالة من أشرف الموضوعات ، ولذلك نحكم بان تأليفها عمل من أفخر الاعمال ، يبقى حجة على ان حج مولانا العباس ، خير كله للناس ، ببقاء الدهور والازمان .

ربما ساعد على قبول العمل وتعميم النفع به ما يكون لعامله من المنزلة بين أهل فنه ومعرفتهم بانه كفؤ للعمل ومخلص فيه والحمد لله قد استجمع الكاتب لهذه الرسالة هذه المزايا فمنزلته بين أفاضل الكتاب منزلة المجيد، وكفاءته كفاءة القادر المجتهد، وأخلاصه فى عمله هذا لا يحتاج الى برهان .

لا يمترى واحد ولا يختلف اثنان فى ان الغاية من هذا السفر الواجب الذى انشأه مولانا العباس، هى من أشرف الغايات وأكمل المقاصد، لانه أدى به واجباً من واجبات الدين المفروضة على كل مستطيع من المؤمنين، وتحبب فيه بالزيارة لسيد المرسلين ، وفوق هذا القصد قد ضمن سفره المبارك فوائد اجتماعية عامة النفع، فجمعت رحلته الميمونة بين المفروض والمسنون ومصالح العباد ، وأهمها ان تقتدى بعمله هذا عامة أمراء المسلمين، وكبار السراة والمثرين، فى قصد هذه المنازل المقدسة، وأسداء المبرات، وارسال الحسنات والخيرات ، فتعمر بها هاتيك البلدان .

ولا نذكر للاستدلال على ان للجناب العالى حفظه الله مقاصد عاليات غاليات ، أكثر مما جاء فى ارادته السنية التى أصدرها قبيل سفره الى رئيس نظاره اذ ذاك فقد جاء فيها ما نصه (وانا لنرجو أن يكون توجهنا الى تلك الاقطار المباركة وقوفنا بالذات على أحوال الحجاج المصريين وحاجاتهم باعثا فى المستقبل لراحتهم واطمئنان بالهم) ، وقد حقق الله رجاء جنابه الفخيم، واتخذت الاحتياطات الكافلة لراحة الحجاج فى هذا العام أكثر مما كانت فى غيره من الاعوام . وما تغيير خطة السفر وتبديل الطريق الا احدى هذه النتائج المباركة التى تعود على الحجاج بالخير والبركات ان شاء الله . وليست هذه وحدها بل قد علمنا أنه عقب عود سموه من السفر السعيد أرسل وفدا من خيرة الرجال لينظروا فى حال الطريق من جهة الوجه، فذهبوا ورسموا واشتغلوا وحكموا وعادوا الى مصر فعرضوا عملهم على أنظاره السامية وسيكون من وراء ذلك كله الخير الجزيل، فيكون الحجاج فى أسفارهم على أحسن ما يكون من الامن والاطمئنان .

ربما عددنا تأليف هذه الرسالة من خير نتائج هذه الرحلة المباركة فانها جاءت فى بابها

محكمة الوضع، متقنة الصنع، مفيدة لمن يقصدون الحج بمعرفة مسالكه ومناسكه على المذاهب الاربع، ولمن لم يسافر بمعرفة هذه المواطن وما فيها من عجائب القدرة وما كان لها من شرف فى الجاهلية والاسلام، وهذا من أشرف ما يقصده القصاد، ويطلبه الروّاد، ويعمله ذوو الفضل والعرفان.

اشتملت هذه الرسالة أولا وبالذات على وصف تنقلات الركب الخديوى من مصر الى السويس فجدة فمكة المكرمة فالوجه فالمدينة المنورة ومنها الى حيفا الى الاسكندرية فى العود، وما بين هذه المواطن الكبرى من المنازل الصغرى، فقد وصف الكاتب فى كل من هذه الامكنة وصفا تفصيليا ما كان للجناب العالى من الحفاوة بمقدمه المبارك رسمياً وغير رسمى حتى لكانى بالقارئ لهذه الاوصاف يعد نفسه حاضرا مشاهدا بنفسه هذه الاحتفاءات فى تلك الاستقبالات فيعظم من قدرها كما عظمها الحاضرون، ويتمنى أن لو كان له فيها خدمة شخصية حتى يشارك أهلها فى أداء الواجب لهذه الذات الجليلة المستحقة لكل اعظام واحترام، ولكنه يعود فيكتفى بما شاهد فى الرسالة ويلتزم التعظيم القلبى الوجدانى والدعاء بظهر الغيب بان يحرس الله هذا الجناب للبر والمعونة والفضل والاحسان.

وصف هذا الكاتب البليغ هذه المشاهد وصفاً حقيقيا ولم تفته دقيقة فى تبيان الزينات والاستقبالات والاستعداد للملاقاة على أكمل الهيئات، وما كان للخاصة من الحفاوة اللائقة بمقامه الكريم، وما كان للعامة من الاجتماعات حول ركبه المهيب، وضجيجهم بصالح الدعوات، وقد تنقل الكاتب فى ذلك من أسلوب الى أسلوب ومن تعبير الى تعبير، ولا غرو فالمجال فسيح، والقائل فصيح، وما هى الا كتابة ما عليه الواقع وتصوره المشاهدة، فما على الكاتب الا نقل ما شاهدت العينان الى العيان. وتفاوت الكتاب فى هذا الباب انما هو فى القدرة على التصوير، وما أقدر كاتبنا على تصوير هذه المناظر حتى جلاها للقارئ مجسمة المعانى تكاد تلمسها اليدان.

وكما أبدع الكاتب فى وصف هذه الهيئات الدنيوية، أغرب فى وصف ما كان للجناب العالى حين تأديته للمناسك المفروضة من عظيم التواضع وكبير الخشوع، حتى ان جنابه لم يبال

بالمظاهر الدنيوية وأدى مناسكه كلها من احرام وطواف واستلام وسعى و وقوف بعرفة و رمى للجمرات كما يؤديها من عاش عمره فى شظف العيش وخشونة البدن، ولم يحفل بتعب الجسم فادى السعى ماشياً على القدمين مع صحة أدائه را كبا حتى لا تفوته مثوبة المشقة ولا أجر التعب، وكذلك أدى المسنونات على وجهها الا كمل كما يؤديها عامة الناس، ثم بعد هذا نفع الفقراء والمساكين من أهل هذين الحرمين الشريفين بما اتحفهم به من الصدقات، وأعان الحجاج المقلين بتسفيرهم على نفقته الخصوصية، فجزاه الله عن دينه وفقراء عبيده أفضل مايجزى به انسان .

ولقد اشتملت هذه الرسالة تبعا على فوائد تاريخية لاشهر البلدان ولا شهر الرجال ولا شهر الاعمال، ففى كل بلد من البلاد الكبيرة كجدة ومكة والمدينة تكلم عن أوصافها أوصافا جغرافية من جهة تجارتها وعمرانها وعلومها وسكانها ومقابرها ومزاراتها وآثارها، و بين على الخصوص تاريخ مكة القديم والحديث ومن له اليد الطولى فى عمارتها ثم تاريخ الكعبة ومن بناها والازمان التى بنيت فيها وكسوتها ومن كساها داخلا وخارجا وعين زبيدة ومنافعها، وما للاسرة الخديوية من منافع مادية وأدبية فى تلك البلاد، وحروب الوهابيين وانقاذ المدينة ومكة منهم . وأحسن شئ يستلفت النظر ما تكلم به عن قبر امنا حواء فى جدة فانه لا يبقى معه للشك مجال فى أن هذا القبر هو على اسمها فقط كما يوجد كثير من الاضرحة فى بلادنا باسم البعض من الصالحين وليسوا فيها على التحقيق . وألطف من هذا انه نبه على ما ينتقد فى مكة من جهة الامور الصحية (خصوصا فى عين زبيدة و بئر زمزم وجهة المسعى) وغير الصحية بادق عبارة، وطلب الاصلاح باشارات مؤدبة للغاية وهذا هو اللائق برسالة الفت لغرض شريف هو بيان رحلة أكبر أمير اسلامى فانه لا يليق بها الا الكمال فى التأدب والتلطف فى البيان .

ثم انه وصف الطريقين القديم والحديث بين الحرمين و بين مصر فاجاد وأفاد، وذكر تاريخ الاسفار ومقدار ما كانوا يقاسونه من وعورة الطريق وطول الزمان ، ثم وصف الحرمين الشريفين وصفا مدققا من جهة الحدود والسعة والتاريخ وما تجدد فى كل منهما من العمارات، كل ذلك بعبارة فى نفسها واضحة ومؤيدة بالنقول والنصوص من الكتب المعتبرة

مما لم يسبق اليه هذا الكتاب المجيد، وما على من وصلت اليه هذه الرحلة الا تتبعها واستيعابها يتضح له صدق ماقلناه ويثنى على كاتبها بكل لسان .

لقد حمدناه عندما بين سنة الطواف وأصلها، وعندما أوضح احترام بعض الاحجار لناس من قديم الزمان حين الكلام على استلام الحجر الاسود، وعندما تكلم عن احترام الحمام فى كل صوب وناحية قديما وحديثا حين الكلام على حمام الحمى وهو الحمام الذى يأوى الى بيت الله الحرام فيكون آمنا، وعندما تكلم عن لباس الاحرام وأصل استعماله قديما بين أمم كثيرة من البدو والحضر، الى غير ذلك من الفوائد التاريخية التى تناسب كتابا مثل هذا الكتاب ، ولقد أعجبنى كثيراً بيان الحدود والمسافات وتعداد المحاط من مدينة الى أخرى كما بين مكة والمدينة أو بين المدينة وحيفا مما يحتاج اليه فى مثل هذه الاسفار الطوال ، كل هذا أقوله بعبارة مجملة تنوه عما تضمنته هذه الرسالة من نضرة العلم ونور العرفان .

ومن المباحث التى تعجب كل قارئ ما استظهره المؤلف فى أصل وضع الروضة الشريفة والحجرة النبوية المنيفة من أنها هى بذاتها ما كان داره فى حياته عليه الصلاة والسلام وان ما استدل به على ذلك من الاحاديث الواردة فيه منتج لما استظهره فيما أعلم ، وكذلك كلامه على الكورنتينة وقوم صالح وما حققه المحققون فى نبئهم وتاريخهم وكيفية مجيئهم الى وادى مدائن صالح ، فكله مقبول ومعقول، يؤيده ما أورده من النصوص والنقول، فلا نطيل فيه القول ولا نؤيده بغير ما أيده به من البرهان .

ولقد اطلعت على الخرائط الكروكية والرسوم الفوتوغرافية التى وضعها للحرمين الشريفين (خصوصاً ما كان عليه الحرم المدنى فى غابره وحاضره) ليحلى بها جيد هذه الرسالة من مناظر المواقع ومناظر الحفلات الرسمية فى كثير من الاستقبالات وكلها رسوم جلية واضحة تمثل تلك المشاهد للعيان .

ظهر من هذا المختصر الذى ذكرناه ان هذه الرسالة قد شرف موضوعها حج الجناب العالى الخديوى الشرف الذى لا يضاهيه شرف، وشرفت غايتها كما سلف، وارتفعت منزلة

كانتها عند كل من ذاق وعرف ، فلم يبق الا أن نصفها حقاً بأنها أشرف رسالة ألفت فى هـذا المهد لهذا القصد ، فليدم الله سبب تأليفها (الجناب العالى) فينا نوراً ساطعاً ، وليبق مؤلفها فى ظله الظليل عاملا نافعاً ، ولتكن هى اقرانها دواء ناجعاً ، ولينتفع بها طلاب الفضل والفضيلة فى كل زمان وفى كل مكان .

كاتبه

« عبد الكريم سلمان »



